باسكال ديبي

الباب

مقاربة إثنولوجيّة

ترجمة
رندة بعث

هيئة البحرين
للثقافة والآثار

مكتبة ٥٧٧

مكتبة | 577

البـــاب

مقاربة إثنولوجيّة

الباب، مقاربة إثنولوجيّة
تأليف باسكال ديبي
ترجمة رندة بعث
مراجعة د. سماح حمدي

مكتبة
t.me/t_pdf

الطبعة الأولى: المنامة، 2017

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر، بالضرورة، عن وجهة نظر تتبنّاها هيئة البحرين للثقافة والآثار»

Pascal Dibie
Ethnologie de la porte
Des passages et des seuils
© Éditions Métailié, Paris, 2012

جميع حقوق الترجمة العربية والنشر محفوظة لـ:

هيئة البحرين للثقافة والآثار
Bahrain Authority for Culture & Antiquities

المنامة، مملكة البحرين، ص.ب.: 2199
هاتف: 298777 17 973+ ـ فاكس: 293873 17 973+
e-mail: info@culture.gov.bh - www.culture.gov.bh

توزيع: منتدى المعارف
بناية «طبارة» ـ شارع نجيب العرداتي ـ المنارة ـ رأس بيروت
ص. ب.: 7494-113 حمرا ـ بيروت 2030 1103 لبنان
e-mail: info@almaarefforum.com.lb

طُبع في: مطبعة كركي، بيروت، e-mail: print@karaky.com

رقم الإيداع بإدارة المكتبات العامة: 256/ د.ع./ 2017
رقم الناشر الدولي: ISBN 978 - 99958-4-067-9

باسكال ديبي

الباب

مقاربة إثنولوجيّة

ترجمة

رندة بعث

مراجعة

د. سماح حمدي

مكتبة | 577

هيئة البحرين

للثقافة والآثار

إلى لورنزو جياباريتزيه وأداوتو نوفاييس

ونحن ندفع معًا منذ وقتٍ طويل ومن دون هوادة

أبواب المعرفة المرحة.

إلى جميع أولئك الذين يواربون الأبواب ويدفعونها ويزيحونها، إلى أولئك الذين أمامها يراوحون بين أرجلهم، وأمامها يعقدون آمالهم، وأمامها ينتظرون، إلى خدم المزاليج الذين يديرون الترابيس ويجعلون السقّاطات تصدر أصواتها الحادة، إلى أولئك الذين يحملون المفاتيح، يسترِقون السمع عند الأبواب ويطرقون عليها، إلى جميع الفضوليين المنحنين على ثقوب الأقفال، إلى قلوب العاشقين الخافقة، إلى مقتحمي الأبواب المفتوحة، إلى أولئك الذين بها يصدمون أنوفهم، الذين يَصْفِقون الأبواب، إلى المراهقين الغاضبين الذين يجعلون أطر الأبواب تنفجر، إلى الشجارات العائلية، إلى المطرودين خارج الباب، إلى كلّ عبارات «تفضل!»، إلى عبارات «من بعدك»، إلى عبارات «أنت ممنوع»، إلى معاناة طالبي العمل، إلى معاناة الأجانب ينتظرون على باب دار المحافظة، إلى البؤساء المساجين، إلى أولئك الذين لا يزالون يبحثون عن أبواب المدن، إلى المتأخّرين، إلى أصحاب العروض وقد مُلِئت المقاعد كافّة [بالمتفرجين]، وإلى تعاسة من يقفون بالطابور أمام شبابيك التذاكر المغلقة، إلى أولئك الذين كفّوا عن فتح أبوابهم، إلى الكرماء الذين يبقونها مفتوحة على مصراعيها، إلى كلّ تلك الأبواب التي اجتزنا عتباتها، إلى تلك التي تنتظرنا...

إلى هؤلاء جميعًا أهدي هذا الكتاب.

المحتويات

صوت الأبواب 13

على أبوابنا 19

1 ـ الأبواب القديمة (غوستاف فلوبير، **سالامبو**) 21

«مخارج» ما قبل التاريخ 24

أبواب عشتار الزرقاء 29

كتاب الأبواب 37

الباب الميسيني 43

مجموعة الأبواب عند الآلهة اليونانية 46

ميلٌ أكيدٌ للأروقة 53

أثينا وجدرانها 59

احتفالات النصر الرومانية 69

الدخول إلى المدينة 80

2 ـ حول الكتاب المقدّس (الأباتي بيير) 91

ليس للفردوس أبواب 92

الوصول إلى الباب 97

يسوع أمام الأبواب 103

الجحيم وخطر الأبواب السبعة 107

3 ـ العصر الوسيط على أبوابنا (والتر سكوت، **إيفانهو**) 115
جسورٌ متحرّكة وأبوابٌ خلفية 117
الأبواب تتجهّز 123
ممتصّات الأرواح 131
أبوابٌ مهذارة 140
أبوابٌ وأقفالٌ للنساء 148
عبر ثقب القفل 157

4 ـ الأبواب تتقوّى (فرانسيس بونج، **انحياز الأشياء**) 163
دخولاتٌ مهيبة 164
أصول اللياقة عند الأبواب 172
على أبواب الكتاب 187
الأبواب في مخطّطات 194
ازدحامٌ على الأبواب 202
رسوم عبورٍ وحواجز أخرى 214
الجميع إلى الحدود 228

5 ـ قرن النواطير (أونوريه دو بالزاك، **ابن العم بونس**) 233
«سويسريو» الأبواب 234
الناطورة تمحو البوّاب 239
لكلّ بابٍ رقمه 252
مغلّفاتٌ لكلّ ساعة 260
باب الاحتشام 265

باب المجاملات 276
الموت يعلن عن نفسه على الأبواب 286
تمرّد الأبواب 292
أبواب السجون 299

6 ـ فولكلور كامل (مارغريت يورسنار، **العمل في الظلمة**) 313
اعتقاداتٌ على أبوابنا 314
فلتتوقف الشياطين 324
ادخلا، ادخلا أيها العروسان 327
عندما يُغلَق الباب 333

7 ـ أبوابٌ جديدة (تيودور أدورنو، **الأخلاقيات الدنيا**) 341
على أبواب الجسد 343
الرتل أمام الكوّة 355
أفسحوا الطريق للجمهورية 359
شيفرات وسرقات 366
نهاية المفصّلات 375

أبوابٌ أخرى 387
1 ـ أبواب أفريقيا (شارل نوديه، **يوميّات بعثة أبواب الحديد**) 389
الجانّ على الباب 392
إيشو يسهر 396
أبواب النسيان 402
الإنسان في القفل 406

2 ـ أبواب آسيا (جونيشيرو تانيزاكي، **مديح الظلّ**) 417
أبوابٌ شديدة التوجيه 419
أبواب السماء 427
على باب اليورت 433
أبوابٌ من ورق 444

3 ـ أبواب أوقيانوسيا (هيرمان ملفيل، **تايبي**) 455
الباب مسار 457
بابٌ صغيرٌ وعادةٌ كبيرة 461
محظوراتٌ على الأبواب كافّة 469

4 ـ أبواب أميركا (مارك توين، **مغامرات توم سوير**) 477
زياراتٌ أمازونية 478
من كوخ التعرّق إلى كوخ الأسكيمو 488
ممثّلاتٌ رائعاتٌ جدًّا 501

معركة الأبواب (ناتالي ساروت، **القبة الفلكية**) 507
استبيان حول الباب 521
ثبت المصطلحات: عربي ـ فرنسي 523
ثبت المصطلحات: فرنسي ـ عربي 545
المراجع 567
الفهرس 589

صوت الأبواب

«الباب!»، كم مرة سمعنا هذه العبارة في لغتنا بوصفها حثًّا على إغلاقه، أو سمعناها مقترنةً بإشارة إصبعٍ آمرة، أو تأتي مجرّدَ أمرٍ يقلّ منه الودّ... لا يبدو لي مألوفًا أبدًا أن أسمع جاري الباسكي وهو يشير إلى الـ(atea)، وجاري البنغالي إلى الـ(daraja)، وهذا الطالب الفنلندي وهو يتحدث عن الـ(ovi)، وهذا الأستوني يتحدث عن الـ(uks)، وذلك الجورجي عن الـ(Kari)، وذلك الماليزي أو الأندونيسي عن الـ(pintu)، وأصدقائي الروس أو السلوفاك عن الـ(dver) أو عن الـ(dvere)، في حين يتحدث سلوفيني عن الـ(vrata). يقول لي صديقي التركي أحمد (Kapi) ويقول لي معلمي أودريكور[*][1] (Haudricourt) الذي كان يتحدّث لغة الإسبرانتو (pordo) على نحوٍ شديد المنطقية. وبالنسبة إليّ، أقول بغباءٍ (porte)، مثلي مثل واحدٍ وستين مليون متكلّم، وهي كلمةٌ انتقلت عبر اللغة السلتية بجذرها الهندو- أوروبي (-per)، عَبَرَ، الذي أعطى (port) و(pore) و(porte)[2] وغيرها من الكلمات. ستسنح لي الفرصة في الصفحات التالية كي أتطرّق حرفيًّا وأدبيًّا لاختراع أبوابنا،

(*) جميع الهوامش في الكتاب هي من وضع المترجمة.

(1) أندريه جورج أودريكور (1911 ـ 1996)، عالم لسانياتٍ وعالم نباتٍ وجغرافيٌّ وإثنولوجيٌّ فرنسي، كان مديرًا للأبحاث في المركز الوطني للأبحاث العلمية ومهندسًا زراعيًّا.

(2) ميناء ومسام وباب، على التوالي.

لكنّ ذلك لا يمنعني من الإصرار وتأكيد أنّنا خسرنا مع اختفاء آلاف اللغات المحلية كلماتٍ كثيرةً وأصواتًا كثيرة، وخسرنا بخاصةِ المتخيَّل، وهي أمورٌ رافقت الحركات والتقنيات التي تمت بها انحباساتنا.

كيف نسمّي بابًا أو مجرّد معبر؟ أيُّ عمليات محاكاة، أيّ أصوات، وأيّ متخيلاتٍ صاغت انحناء ألسنتنا ونظّمت شهيقنا وزفيرنا لتشكّل ما يحمينا، ما يفصلنا، ما ينغلق علينا بمقدار ما يجعلنا منفتحين على العالم؟ لم تتوانَ أجهزتنا الصوتية عن التلاعب بطريقة لفظ الكلمات ونحن نسمع تلك الأحرف الصوتية بتنويعاتها، تلك «الحروف الشفوية»، وتلك الصادرة عن «سقف الحنك» والتي تشدّد وتلوي وتؤخّر وتقوّي وتخنّ وتشتقّ في الأصوات البشرية من أجل تسمية الأشياء. كان عالم اللسانيات إميل بنفينيست[3] (Émile Benveniste) يقول: «تقوم كلّ لغةٍ بترتيبٍ جديدٍ لمصطلحاتها، بل إنّ طريقة حدوث هذا التحوّل في مختلف اللغات مليئةٌ بالدروس، لأنّ اللغات ليست هندو- أوروبية بالطريقة عينها». وهو يتحدّث على سبيل المثال عن تعارضٍ لم يكن متوقعًا في البداية بين «في بيت المرء» (domi) باللاتينية، وبين (foris) «الخارج»... وها نحن ننطلق في لعبة مفرداتٍ لا تنتهي، مجبولةٍ من المحاكاة والاستعارة، حيث اختُرِع مدلول «الباب» شيئًا فشيئًا ثم بُني بصلابة، وهو مدلولٌ يقوم على حكم الضرورة: ضرورة الدخول أو الخروج من ملاجئنا!

يوضح بنفينيست قائلًا: «توجد في اللغات الهندو- أوروبية عدّة أسماءٍ للباب، وتوزيع هذه الأسماء غير متساوٍ [...]. تستند هذه الكلمة إلى كلمةٍ محايدةٍ قديمة هي (werom) 'انغلاق'، مشتقّة من

(3) إميل بنفينيست (1902 ـ 1976)، عالم لسانياتٍ فرنسي أصله من حلب، اشتغل على النحو المقارن للغات الهندو-أوروبية وكذلك على اللسانيات عمومًا.

الجذر (-wer) (من الكلمة السنسكريتية vrnoti 'هو يحتجز، هو يغلق'، وبالألمانية Wehr)، وهو مصطلحٌ محدّد الموقع وليس له خارج الأوسكية[4] والأومبرية[5] معادلٌ إلّا في السلافية والبلطيقية. أمّا في لغاتٍ أخرى فعلى العكس، يقضي تعدّد المصطلحات بالانتباه». في اللاتينية، وسأعود إلى هذه النقطة، ثمة أربعة مصطلحات: (fores) و(porta) و(ianua) و(ostium)، ليست لها الدلالة عينها لكنّ كلًّا منها يمثّل الباب بموجب سياقٍ محدّد. ومن بين هذه المصطلحات، نشهد مصطلح (fores) في الغالبية العظمى من اللغات الأخرى، وهو الأوسع مدًى، وشكله الهندو- أوروبي هو (-dhwer)، وهو مصطلحٌ لا يمكن تحليله بذاته وتغيب عنّا دلالته الاشتقاقية، لكنّه -كما في لغةٍ محليةٍ مجازية- يعبّر عن اسم شيءٍ مادّي يمكن توصيفه بالوظائف التي يقوم بها. (dhwer)، الذي قدّم بدرجةٍ مختصرة (-dhur) ثمّ (thura) باليونانية، «بالجمع عمومًا، يضيف بنفينيست، لأنّ الباب لا يزال متصوّرًا في عناصره المتعددة بوصفه مجمل تجهيزٍ معين». ها نحن في قلب رنينٍ جرمانيٍّ للصوت مألوفٍ لنا، (thür)، يتضمّن في تعريفه وجود «خارج»، ما هو «خارج الباب». يمكن أن يعني ذلك أنّه يتمّ النظر إلى «الباب» من داخل المنزل، وأنّه من أجل الشخص الذي يندرج في حدود البيت المتصوَّر بوصفه أمرًا متعلقًا بالداخل، ربّما كان الجذر (-dhwer) ثمّ (-dhur) تسميةً مطمئِنةً للشيء بصوته، صرخةً أو أمرًا قبل أن يصبح كلمةً مستقرّةً تشير ماديًّا إلى شيءٍ يحمي الداخل من تهديد الخارج.

لم نعد نسمع في فرنسا كلّ هذه الصواتم [الوحدات الصوتية] المحلّية التي كان لمفصلتها نتائج شاعرية بمقدار ما كانت دقيقةً،

---

(4) (osque) متعلّق بالمجموعة الأوسكية في إيطاليا.

(5) (ombrien) مرتبط بمنطقة أومبري (Ombrie) الإيطالية.

من حيث إنّها نتجت عن صلةٍ بالعالم المرتبط بفضاءٍ كان هو عينه يندرج في الكون بأسلوبٍ محليٍّ وكلّيٍّ بالمقدار عينه. من اللورين[6] (Lorraine) إلى اللانغدوك[7] (Languedoc)، عندما نتصفّح الأطالس اللغوية، يُظهِر القليلُ الذي جمعته بخصوص المعبر والمفتوح والمغلق والتقنيات المتاخمة تنوّعًا لا يصدّق، ليس في التقنيات فحسب بل في فكرة الباب نفسها. في اللورين، كنّا نسمع (la pot)، (pok)، (dex) أو (us)، في حين كانت تسميات هذا الشيء في وسط فرنسا هي: (la pwartay)، (lé port). وبقيت منطقة فرانش كونتيه[8] (Franche-Comté) على لفظة (pwatya) لكن كانت تلفظ فيها أيضًا كلمة (poty) أو (lo pwoto). وفي منطقة ماسيف سنترال[9] (Massif central)، كنّا نجد (pwarto)، لكنّ كلمة (la porta) كانت أكثر شيوعًا، وهو بابٌ يُفتح بعد أن نعبر (lo suy) أو (lè dela)[10] مثلما كان يقال في منطقة الجورا[11] (Jura) وجبال الألب الشمالية.

مهما كان المجتمع البشري صغيرًا، فهو لا يستثني التهذيب، ولذلك عندما يصل أصيل فرانش كونتيه (dva d'la poty)، كان عليه أن (tok) أو أن (top) إن كان (tyor) أو (syor)، أي: (froemè)[12]. وفي منطقة ماسيف سنترال، كثيرًا ما كان الردّ على طرْق الباب على هيئة صوتٍ

(6) اللورين: منطقةٌ ثقافيةٌ وتاريخية تقع شمال شرق فرنسا.

(7) اللانغدوك: منطقة تقع جنوب فرنسا.

(8) فرانش كونتيه: منطقةٌ إداريةٌ فرنسيةٌ قديمة، كما إنّها منطقةٌ تاريخيةٌ وثقافية، تقع شرق فرنسا وتوافق تقريبًا كونتية بورغونيا (Bourgogne) القديمة.

(9) ماسيف سنترال: كتلةٌ جبلية تحتلّ جنوب وسط فرنسا وتغطّي حوالى 15 بالمئة من أراضيها.

(10) العتبة أو الخارج.

(11) الجورا: سلسلةٌ جبليةٌ تمتدّ بين فرنسا وسويسرا.

(12) عندما يصل [...] أمام الباب، كان ينبغي أن يطرق عليه إن كان مغلقًا.

يأتي من الداخل وهو يسأل (kavku piko)، أو (kovku takuno)، أو (Koto ze takuna) أو (koku tapo)؟[13]، وبعد الإعلان عن الهوية، كان الصوت يقول: (rètra e mumé) أو (saka vu, sako toè e mumè)، أي بعبارةٍ أخرى: (soka vu)، (retro)، ادخل لحظة... كان المضيف ينهض من أجل (bada le porta)[14]، إلّا إذا صاح قائلًا لك: (ê dubert!)[15] أو إذا دعاك إلى (dubrè le porto)[16]. أحيانًا يكون الباب مغلقًا، (ez barado)، أي (bara a kley) أو (a kloba). ومن أجل (dèckloba) أو (dèbarula)[17]، لم يكن نادرًا أن يضطر المرء إلى أن يتلمّس طريقه (faruya) من الداخل لينجح في فتحه، بل أسوأ من ذلك، فإذا قاوم الباب، كان يتعارك (farulayè) مع علبة القفل (lu palastr) أي مع ثقب (lu pertu) القفل (la sarola) حتى يستسلم. في فرانش كونتيه، يجب تدوير المفتاح (lè triklet) أو (lè tya) أو (lè syè) أو (le tetyot) إذا أردنا فتح (dévrœuyi) أو (dévryu) الباب. سألتُ: وهل يُطرق الباب أيضًا في الأماكن الأخرى؟ نعم، كثيرون يفعلون ذلك لكن يجب أن يكون الخشب مغايرًا، إلّا إذا كانت الأذنان مغايرتين (أي اللغة!) إذا ما حكمنا على الأصوات المعاد تدوينها: يقول الألمان (Klopf)، ويقول الإنكليز (knock)، في حين يقول البولونيون (puk) ويقول التشيك (t'uk) والروس (stouk) والعرب (doq) [دق]، وفي مالي يقوم المرء بـ (kon) الباب، وفي كثيرٍ من الأماكن، كما سنرى، لا يمسّ الطارق الأبـواب، بل يصيح قائلًا (cococo)، أو يعلن عن مجيئه، أو يصفّق

(13) من الطارق.

(14) فتح الباب.

(15) إنّه مفتوح.

(16) دفع الباب.

(17) فتح الباب.

بيديه، أو يصفر أو ينتظر بصمتٍ في الخارج حتى يلاحظه أحدٌ ما. يجب أن نضيف إلى ذلك أنّ الأبواب تتكلّم، وسأعود إلى ذلك، وأنّ هذه الحواجز المجهّزة كتجهيز المصفّحات، علاوةً على أنّها تصفُق، تصارع الرياح بمفصّلاتٍ تَصرّ (gwina)، (myawl)، (djibo)، (sinwal) في وديان منطقة الجورا المعتمة، (kwin)، (pyole) في أكواخ الألب الشمالية، (stride) في الجانب الإيطالي، (cruje) في جبال البيرينيه[18] (Pyrénées) الإسبانية، (creak) في إنكلترا، (knare) في السويد، أي باختصار، في الأماكن كلّها تهزأ الأبواب بالإطار وتؤلّف جوقة سفّاحين تبثّ فينا القشعريرة... لسوء الحظّ، لم يقدّر كثيرٌ من المحقّقين حقّ التقدير تلك الطوائف من الكلمات التي كانت تحمينا بمقدار ما كانت تحرّرنا، هكذا خسرنا نصيبًا كبيرًا ممّا كان ينتظم سرًّا تحت ألسنتنا في كلّ بلد، في كلّ وادٍ، في كلّ ضيعة، ليعبّر عن دفاعاتنا وارتياباتنا بمقدار ما عبّر عن حُسن الضيافة بيننا والتي ساهمت في أنسنتنا مساهمةً كبيرةً تذهب أبعد من حدود الزمجرات الأصلية.

مكتبة
t.me/t_pdf

(18) البيرينيه: سلسلة جبال تقع جنوب غرب أوروبا.

على أبوابنا

1

الأبواب القديمة

«أُغلقت الأبـواب. سرعان ما ظهر البرابرة [...]. في الصباح، ثمّ في الغسق، كان بعض المتجوّلين يتسكّعون أحيانًا بمحاذاة الأسوار. [...] لكنّ قرطاجة كانت محميةً في كلّ عرض البرزخ: بدايةً ثمّة خندقٌ يحميها، ثمّ سورٌ من العشب، وأخيرًا سورٌ ارتفاعه ثلاثون ذراعًا، يتكوّن من حجارةٍ مقطوعة، ومن طبقتين. [...] كانت المدينة تعجّ بجمهرةٍ غفيرةٍ من الصباح إلى المساء، فتيانٌ صغارٌ يلوّحون بالأجراس، يصرخون على أبـواب الحمّامات: كان البخار يتصاعد من متاجر المشروبات الساخنة، والـهـواء يـردّد صـدى طَـرْق السندانات، والـديـوك البيضاء المنذورة للشمس تصدح على السطيحات، والأبقار التي تُذبح تخور في المعابد، والعبيد يركضون وعلى رؤوسهم سلال، وفي ثنايا الأروقة يبدو بعض الرهبان متّشحين بمعاطف قاتمة، حُفاةً ويعتمرون قبّعاتٍ مدبَّبة.

كان مشهد قرطاجة هذا يثير حفيظة البرابرة، إذ يعجبون به ويمقتونه في آنٍ، يودّون لو أنّهم يجتثّونه ويسكنونه في الوقت عينه. [...] كان سورٌ من العشب يحتجز الجيش داخل سورٍ مرتفع لا يتزعزع عندما يضربه المنجنيق. [...] وبين الخدم والباعة المتجولين، تتجوّل نساءٌ من الأمم قاطبةً، سمراواتٌ كالتمر الناضج، مائلاتٌ إلى اللون الأخضر كثمرات الزيتون، صفراواتٌ كثمرات البرتقال، يبيعهنّ بحّارة، يُخترن في بيوت الدعارة، يسرَقن من قوافل، يؤسرن في قاع المدن، ينهَكن من الحب طالما أنّهنّ فتيّات، وتنهال عليهنّ الضربات عندما يصبحن

مسنّات، ثم تَراهنّ يمُتن في الهزائم، على حافة الدروب وبين الأمتعة، مع الدوابّ المتروكة. [...]

لكن كان هنالك شعبٌ مستعدٌّ دائمًا لاستخدام ضروب الشجاعة، السارق المطرود من قبيلته، وقاتل أبيه الهائم على وجهه، ومنتهِك الحرمات الذي تلاحقه الآلهة، وجميع المتضوِّرين جوعًا، وجميع اليائسين... كانوا جميعًا يسعون بجهدٍ لبلوغ المرفأ الذي يَنتدب فيه سمسارُ قرطاجة جنودًا. [...] وحين أصبحوا خارج البساتين، أوقفهم سور ميغارا[19] (Mégara)، لكنهم اكتشفوا ثغرةً في الجدار المرتفع وعبروا [...] كان هذا السور الأوّل يتضمّن غابةً من أشجار الدلب، تحسّبًا من الطاعون وتلوّث الهواء [...].

تزعزعت الأرض على الفور، وشهد البرابرة كلَّ فِيَلة قرطاجة تسارع في خطٍّ واحد، بدفاعاتها المذهّبة وآذانها المطلية بالأزرق وقد أُلبست البرونز، تهتزّ فوق أجلالها المعدنية المزركشة القرمزية أبراجٌ جلدية، يمسك في كلٍّ منها ثلاثة نبّالين قوسًا كبيرةً مفتوحة. [...] كان الجنود يمسكون بالكاد بأسلحتهم، كانوا مصطفين كيفما اتفق، تجمّدوا خوفًا، وبقوا محتارين. [...] كان البرابرة جميعًا قد هربوا. [...] تقدّم هنّون[20] (Hannon) منتصرًا إلى أبواب أوتيك[21] (Utique). أمر بصداح البوق. [...] كان ثمة جذوعٌ من أشجارٍ مشدودةٌ بحبالٍ تسقط، وتسقط ثانيةً بالتناوب وهي تضرب رؤوس الأكباش، وتنتزع كلّاباتٌ تطلقها منجنيقاتٌ أسقفَ الأكواخ، ومن منصّة الأبراج أخذت تنسكب جداول من الصوّان والحصى.

---

(19) ميغارا: أحد أحياء قرطاجة القديمة.

(20) هنّون الأكبر (القرن الثالث قبل الميلاد)، جنرال من قرطاجة.

(21) أوتيك: مرفأٌ قديمٌ أسّسه الفينيقيون في العصور القديمة يقع شمال تونس.

خلعت الأكباش باب خامون (Khamon) وباب تاغاست (Tagaste)، لكنّ القرطاجيين كانوا قد كدّسوا في الداخل كميةً وافرةً من المواد بحيث لم تنفتح مصاريعهما. بقي البابان واقفين.

آنذاك، أُعملت في الجدران برّاماتٌ كان من المفترض أن تفكّ مفاصل الكتل عندما تطبّق عليها. أديرت الآلات على نحوٍ أفضل، إذ توزّع العاملون عليها في زمر، ومن الصباح إلى المساء، كانت تلك الزمر تعمل من دون توقف، بالدقّة الرتيبة التي تميّز مكّوك النسّاج.

[...]

كان المساء يهبط، وروائح البلاسم تنبعث. نظر بعضهم إلى بعض صامتين لمدةٍ طويلة، وكانت عينا سالامبو (Salammbô) تبدوان في قاع شراشفها الطويلة وكأنّهما نجمتان في فرجة غيمة».

Gustave Flaubert[22], *Salammbô*, 1862

---

(22) غوستاف فلوبير (1821 ـ 1880)، من أبرز كتّاب النصف الثاني من القرن التاسع عشر في فرنسا، تميّز بعمق تحليلاته النفسية وحرصه على الواقعية ونظرته التي تستشفّ تصرّفات الأفراد والمجتمع، وكذلك بقوّة أسلوبه في رواياته الطويلة، مثل **مدام بوفاري** (*Madame Bovary*) (1857) و**سالامبو** (*Salammbô*) (1862) و**التربية العاطفية** (*L'Éducation sentimentale*) (1869) وفي قصصه القصيرة التي نشرها في العام 1877 بعنوان: **ثلاث قصص** (*Trois contes*).

«مخارج» ما قبل التاريخ

لا شكّ في أنّ أسلافنا قد بذلوا كلّ جهدهم ليتّقوا البرد، وليتجنّبوا أن يهاجمهم خلسةً نهّابون مغامرون أو أعـداءٌ مصمّمون. أتخيّل أنّ وسائل الحماية التي اخترعوها على هذا الكوكب للدفاع عن أنفسهم في الألفيات المنصرمة كانت لا تُعدّ ولا تُحصى. لكن كيف تصرّف الحرفيّون الأشوليون[23]، أولئك النياندرتاليون[24]، أولئك الكرومانيون[25]، أي باختصار جميع أولئك الرجال العاقلين[26] الخارجين لتوّهم من العصر الباليوليتيكي[27] المتأخّر، كيف تصرّفوا لإغلاق أبوابهم، لو كانت لديهم أصلًا أبواب؟... ربّما يبدو طرح مسألة وجود «مداخل» للمساكن التي تدعى بمساكن ما قبل التاريخ أمرًا يدعو إلى السخرية، لكن إذا نظرنا إلى وجود «السكن»، فإنّ ذلك يرغمنا على التساؤل عن وسائل الحماية وطرقها. وبالفعل، بالنسبة إلينا كثدييات غير متخصّصة، تمثّل الحماية شاغلًا أوّل وتتضمن مهارةً وسلوكًا خاصّين، وكذلك خلق واستخدام فضاءٍ منزلي تفرض فيه الحياة فتحاتٍ أكثر ممّا تفرض إغلاقات ولو

---

(23) الأشـولـي (acheuléen): نسبةً إلى مرحلةٍ صناعيةٍ في عصر ما قبل التاريخ بمنطقة مدينة سانت أشول شمال فرنسا، وقد اكتُشفت فيه أدواتٌ حجريةٌ مصقولة، كالفؤوس والمكاشط.

(24) النياندرتالي (néandertal): إنسانٌ عاش في أوروبا وآسيا الغربية والوسطى في العصر الباليوليتيكي الأوسط، ما بين 250000 تقريبًا و28000 قبل الميلاد.

(25) كرومانيون (cro-magnon): اسمٌ غير رسمي لأوّل إنسانٍ قديم (الإنسان الأول) من العصر الحجري القديم الأوروبي.

(26) (homo sapiens): الإنسان العاقل.

(27) الباليوليتيكي (paléolitique): العصر الحجري القديم، هو أوّل وأطول العصور الحجريّة، تكوّن المجتمع البشري فيه حصرًا من الصيادين- القاطفين للثمار. بدأ في أفريقيا منذ حوالى 2300000 سنة وانتهى في حدود 12000 قبل الميلاد. ينقسم هذا العصر إلى ثلاثة أطوار: المبكّر والأوسط والمتأخّر.

اقتصر ذلك على التمكّن من «الدخول» و«الخروج» من المآوي. تهمّ هذه المسألة بخاصّةٍ علماء الآثار المتخصّصين بالعصر الحجري القديم، ومعهم علماء الأنثروبولوجيا المتخصّصون بالعصر عينه، والذين ظهروا أخيرًا ويشاركون في فكّ رموز الحياة اليومية لدى أنسبائنا القريبين جدًّا. يكفي أن ينتقل المرء إلى إتيول (Etiolles) في وسط الحوض الباريسي، حيث تُدرَس مساكن المغداليينيين[28]. لا يراود الاختصاصيين أدنى شكٍ في أنّه يمكن تفسير ترسّخ المغداليينيين في موقع إتيول إلى حدٍّ كبير بوجود كميةٍ كبيرةٍ من الصوّان الناتئ. وإذا كان المغداليينيون (17000 إلى 10000 سنة قبل الميلاد تقريبًا) قد استقروا قرب جدول أولدر (Hauldres) على منحدرٍ ملموس، بل في مكانٍ أكثر ارتفاعًا بقليل، على الضفّة، فمن أجل أن يقطعوا فيه الصوّان ويشعلوا النار ويقوموا بأشغالٍ تتطلّب الماء. أمّا المآوي، فكانت أشبه بالخيام، فكانت تُنصب في أماكن أبعد قليلًا، في منطقةٍ أكثر ملاءمةً لنصبها من حيث الطوبوغرافيا، والأرجح أنّ ذلك كان في المناطق عينها التي تنتصب فيها اليوم منازل صلبة. تسمح الدراسة الأركيولوجية[29] (archéologique) لعدّة وحداتٍ منزلية بملاحظة أنّ هذا التنوّع يخفي نوعًا من الانتظام في التنظيم المكاني، فقد عُثر على حلقاتٍ من البلاط تعيّن حدود المسكن وترتيب البيت. إحدى تلك الحلقات هي دائرةٌ قطرها ستة أمتار وتحيط بموقدٍ مركزي. وربّما يُقترح أيضًا خيار استخدام أو عدم استخدام بلاطاتٍ كبيرة لتثبيت أطراف الخيمة أو عصي الدعامات أو أيضًا لتثبيت قاعدة الجدران الداخلية، تكيفًا من المغداليينيين مع شروطٍ مناخيةٍ متبدّلة كانت تتضمّن ضروراتٍ حقيقيةً للتهوية أو الحصر، أي

(28) المغداليني (magdalénien): هو الطور الأخير من العصر الحجري الأوروبي المتأخّر، يقع بين العام 17000 والعام 12000 تقريبًا قبل الميلاد.

(29) نسبةً إلى الأركيولوجيا (archéologie)، علم الآثار.

لـ«فتحاتٍ» و«إغلاقات». وعلى الرغم من أنّ معرفة مسكن هؤلاء المغدالينيين لا تزال جزئيةً جدًّا، غير أنّنا نستطيع التخمين بأنّه كان لتلك المساكن «مخرجان»، بل ربّما ثلاثة «مخارج»، موجّهة نحو الجنوب والغرب والشمال الغربي. وقد عُثر حول ورشات مغدالينيي الإتيول الواقعة في الهواء الطلق على كثيرٍ من الصوان وعلى نفاياتٍ شتّى قادمةٍ من مناطق التحطيب. لكن في محيط المآوي المباشر، في الخندق المحفور حول مساكنهم، عُثر على فضلات حيوان الرنّة [الأيل renne] والخيل والبيسون [الجاموس البري bison] وربّما الماموث [حيوان منقرض من فصيلة الفِيَلَة mammouth] أيضًا، ووُجدت كميةٌ كبيرةٌ منها في بعض المناطق ولكن بأكوامٍ مفصولةٍ فصلًا واضحًا. يسهل علينا أن نتخيّل كيف أنّ هذا الانتشار لعظامٍ صغيرةٍ كان يتوافق في كلّ جانبٍ مع ما يُفترض أنّه «مخارج» [بيوت] وحصيلة تنظيفها المتكرر، علمًا بأنّهم عندما كانوا يرمون البقايا يمين الفتحة ويسارها كي لا يلوّثوا العتبة، كانوا حقًّا يتصرّفون تصرّفًا بشريًّا معروفًا لدينا يدلّ على وجودٍ سابقٍ لديهم لاقتصادٍ منزليٍّ بجميع عناصره... لكن يبقى أنّنا نستطيع بفضل ذلك حساب عددٍ ما ليس بوسعنا، إلّا بصعوبةٍ، أن نطلق عليه تسميةً أخرى غير «مخارج» في المساكن، طالما أنّنا لا نعرف شكلها.

مع دراسة المجتمعات النيوليتيكية[30] (من العام 9000 إلى العام 3000 قبل الميلاد تقريبًا)، ولا سيما دراسة «البيت الدانوبي المخطّط»[31] (حوالى 5000 قبل الميلاد)، نحصل على معطياتٍ أكثر دقّةً تخصّ

(30) النيوليتيكي (néolithique): نسبةً إلى العصر الحجري الحديث.

(31) نسبةً إلى الحضارة المخطّطة، وتشير إلى العصر النيوليتيكي الأقدم في أوروبا الوسطى (من 5500 إلى 4700 قبل الميلاد) وهي تُنسب وفق بعض علماء الآثار إلى التيار الدانوبي، أي هجرة الشعوب النيوليتيكية إلى أوروبا القارّية على طول نهر الدانوب.

معمار أوائل السكّان الفلّاحين في أوروبا الوسطى والغربية وبطبيعة الحال ما يخصّ «الفتحات» أو «المعابر». الأرجح أنّ المخطَّطين، وهم التجلّي الرئيس للتيار الدانوبي والنيوليتيكي الأقدم في أوروبا الوسطى، قد حصلوا على جزءٍ من التراب اللازم لصنع الجدران عبر حَفر «خنادق البناء» على طول حيطان المنزل الطولانية، وهي حُفرٌ تحوّلت لاحقًا إلى «حفر النفايات»، حيث كانوا يحضّرون اللَّبِنات. كان المسكن المخطط «بيتًا طويلًا» ضمن مجالٍ يبلغ عشرة أمتار وأربعين مترًا. نستطيع أركيولوجيًّا أن نميّز بسهولةٍ بين ما كان مقدّمة البيت ومؤخّرته. أمّا «المدخل»، فيبدو أنّه كان يقع على الحائط الجبهي للبيت، بين العمودين الجنوبيين في الواجهة. في مجتمعٍ تقليدي، تُملي دلالاتٌ شعائريةٌ دقيقةٌ اختيار مكان المدخل، وفي الحالات التي تهمّنا هنا، وإن لم تتوافر لدينا حتى الآن المعطيات كلّها، ينبغي أن يبقى في أذهاننا أنّ كلّ معبرٍ مجهّزٍ هو بالنسبة إلى الباحث الأنثروبولوجي ظاهرةٌ إنسانيةٌ مصطنعة تتميّز بأنّها تحمل الاجتماعي والمعنى وتبتكرهما. بالنسبة إلى أبواب المسكن المعتادة، يبدو أنّها كانت توضع دائمًا على الجانب الصغير في البيت بحيث تتوجّه نحو الجنوب الشرقي أو الشرق. وكما في مثال الإتيول، نعثر على مكانها بكثافةٍ أكبر استدلالًا بالنفايات المنزلية في الحفرة الجانبية، على جانبي ما يمكن افتراض أنّه كان مخرجًا.

وبالانتقال إلى العصر الحديدي، أي قبل الميلاد بحوالى ألف سنة، يسمح لنا **أطلس علم الآثار الجوي في بيكاردي** (*Atlas d'archéologie aérienne de Picardie*) بتحديد مكان مئات المواقع التي اندثرت منذ وقتٍ طويل، وبمنحنا فكرةً دقيقةً نسبيًّا عن البنى التيبولوجية[32] (typologiques) الخاصّة بالمسكن. حُفر، أنفاق، آبار، أهراءات،

---

(32) التيبولوجية: نسبةً إلى التيبولوجيا (*typologie*)، وهي علم دراسة الأنماط أو النماذج.

تجاويف للأعمدة في «المزارع المحلية» المبنيّة بالخشب والتراب في ذلك العصر قبل الروماني... كلّها تركت دلائل «على شكل لطخ» (لطخ تنتج عن وجود الصلصال في تركيبتها وتجعل منها أماكن يسهل تعيين مواقعها من السماء) كبيرةً بما يكفي كي نتمكّن من تشكيل صورةٍ عمّا كانت عليه هذه المساكن. منذ ذلك الحين، حلّت محلّ هذه الجدران المصنوعة من اللَّبِن أو من الآجُرّ بعد أن ذابت، تلك «اللطخُ الصفراء»، أي بعبارةٍ أخرى لطخ رطوبةٍ يكون شكلها بيضاويًّا أو مقوسًا أكثر ممّا يكون مستطيلًا. هكذا تمكّن علماء الآثار من استنتاج أنّ نُظُم مواضع الدخول كانت منمّطةً نسبيًّا.

عدا استثناءاتٍ قليلة، كان هنالك مدخلٌ رئيسيٌّ واحدٌ لمجمل المسكن المتجمّع خلف خندق، وذلك «من دون أن تمكن ملاحظة أيّ توجهٍ تفضيلي». يتميّز بعض المداخل الرئيسية بكونها مجرّد انقطاعٍ للخندق أو الخنادق، كما في شوسوا إيبانيي[33] (Chaussoy-Epagny) أو في فير- سور- سيل[34] (Vers-sur-Selle)، لكنّ هذا الانقطاع لا يدافَع عنه أبدًا بمعبرٍ متعرج من نمط «توتولوس»[35] (tutulus)، كما هي الحال في بعض المخيّمات المسوّاة من العصر الروماني، ولا عبر «كلافيكولا»[36] (clavicula) أو أيّ شيءٍ مشابه. إلى جانب هذه «المداخل» التي لا تتميّز إلّا بمجرّد انقطاعٍ للخندق، يلاحظ علماء الآثار وجود نمطين رئيسين من «الأبواب»: المداخل على شكل قمعٍ

(33) شوسوا إيبانيي: منطقةٌ تقع شمال فرنسا.

(34) فير سور سيل: منطقةٌ تقع شمال فرنسا.

(35) توتولوس: ضربٌ من تحصينات مداخل معسكرات الجيوش الرومانية يتكوّن من خطٍّ متعرّجٍ من الخنادق والمرتفعات.

(36) كلافيكولا: ضربٌ من تحصينات مداخل معسكرات الجيوش الرومانية يتكوّن من خطٍّ منقطعٍ من الخنادق والمرتفعات.

مقوّس، حيث تنحني خطوط الخنادق الخارجية لتصبح على شكل منحنياتٍ واسعةٍ لتعود وتضيق قرب المدخل، والمداخل التي تتّخذ شكل بقع بالمر (بالصلة مع أداة القياس التي اخترعها ج. ل. بالمر J. L. Palmer، وهي نوعٌ من الرِّكاب [للخيّال] على شكل حرف U)، حيث تنطوي الخطوط الخارجية بزاويةٍ قائمة فترتبط بخطوط الخنادق الداخلية. كان المدخل يُستحدَث آنذاك بمعبرٍ ضيّقٍ إلى حدٍّ ما بين خندقين متوازيين. وبطبيعة الحال، ينبغي أن نختتم بصدد كلّ صنفٍ من المداخل، أن نتخيّل أنّها لا بدّ قد تحرّكت أو تحوّلت، بل ظهرت أو اختفت وفق العصور والمناخ ومخاطر اللحظة، أي أنّ الأمثلة على «المخارج» التي أُطلقت عليها جورًا تسمية المخارج ماقبل التاريخية، ربّما تكون بأشكالٍ لا تعدّ ولا تحصى، غير أنّ المسألة تبقى بالنسبة إليّ معرفة ما كانت عليه حقًّا أبواب الأزمنة القديمة وما نعرفه عنها اليوم.

أبواب عشتار الزرقاء

لا أذهب إلى برلين إلّا وأستهلّ زياراتي بمتحف بيرغام (Pergam)، وعلى وجه الدقّة الصالة رقم 9، وهي الصالة الكبيرة التي تقع في أقصى متحف الشرق الأدنى، حيث أعيد تشكيل باب عشتار في ثلاثينيات القرن العشرين. ولئن وُجدت رموزٌ مطلقةٌ لبابل، فهذا الباب هو أحد تلك الرموز! وأنا أسمح، عن طيب خاطر، للّون الأزرق ضمن الآلاف من حجارة القرميد المصنوعة منذ ألفين وخمسمئة عام أن يمسك بي، أن يخطفني، أن يستولي عليّ. تلك الحجارة التي لا شكّ في أنّ أولئك الرجال الذين عاشوا أمس بالكاد يتسكّعون أمامها، يسكرهم الدين والجمال. أن تكون أسفل باب عشتار يعني أن تنتقل دفعةً واحدة إلى حضارةٍ، أشعُرُ من دون أن أتمكّن من تفسير ذلك، بأنّها كانت بالتأكيد عظيمةً بما يكفي ليُبذل في بناء بابٍ واحد، حتى لو كان باب بابل، كلّ

هذا المقدار من العناية والاحتراز. يعبّر إلهٌ وملكٌ وشعبٌ بكلّ تأكيدٍ عن أنفسهم عبر هذا الباب الأزرق الهائل الذي تثير فخامته التي لا تُصدّق حيرتي في كلّ مرة. من كان نبوخذ نصّر الثاني هذا (نحو العام 630 ـ 562 قبل الميلاد)؟ كان ابن ملكٍ آشوري تربّع على عرش بابل، كما يُقال لنا، وأسّس السلالة الكلدانية (605 قبل الميلاد). يبدو أنّ التاريخ لم يكن في مصلحته، على الأقل التاريخ اليهودي ـ المسيحي، عندما نعرف المكانة الذي يحتلها في الكتاب المقدّس، وهي مكانةٌ لا يُحسَد عليها كثيرًا (إرميا، 27). لكنّ اسمه استدام حتّى وصل إلينا مع زجاجة النبيذ أو الشمبانيا العملاقة (بابٌ آخر للخروج من الزمن!)، مثله في ذلك مثل أوبرا **نابوكو** (*Nabucco*) [أي نبوخذ نصّر] لفيردي[37] (Verdi). لا تهمّنا سمعته طالما أنّه أورثنا هذا الباب الرائع، باب عشتار، الذي أحبُّ أن أحلم أمامه بهذا الماضي غير المفهوم عمليًّا. بدايةً، كان هذا الاسم الغريب المؤسطر يلفَظ بالآشورية على هذا النحو: «نابو ـ كودوري ـ أوسور»، الذي لم يكن يعني في هذا المجتمع المتعدّد الآلهة أكثر من «يا نابو، احرس الولد!»، حيث كان كلّ اسمٍ يرتبط بإلهٍ معين، تمامًا مثلما كان اسم «آشور بني بعل» يعني «آشور هو ذاك الذي كوّن الابن». وأنا أذكر ذلك لأقول، ويمكن أن يساعدنا ذلك على فهم سبب وجود هذا الباب، إنّ الدين الآشوري البابلي تشرّب الحياة الفردية بمقدار ما تشرّب نشاطات الحاضرة، السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وبطبيعة الحال نشاطاتها المعمارية. على أيّ حال، ينبغي تخيّل إنجاز هذا «الباب» وسببه في هذا المحيط ما فوق المقدّس.

نعلم من وجهة نظرٍ تاريخيةٍ بحتةٍ، أنّ نبوخذ نصّر الثاني بسط سلطته على مجمل الممرّ السوري وعلى شمال الجزيرة العربية، وقد أتاح له

---

(37) جوزيبي فيردي (1813 ـ 1901)، أحد أبرز مؤلّفي الأوبرا الإيطاليين في القرن التاسع عشر. من أشهر مؤلفاته نابوكو وريغوليتي وعائدة.

ذلك التحكّمَ بالتجارة المهمّة التي كانت قائمةً في المنطقة وتحقيقَ ثروةٍ استُخدمت في إعادة بناء وتخطيط المدن الواقعة في المناطق المنخفضة ممّا بين النهرين، ولاسيما بابل وبابها الأزرق. لم يفعل أكثر من مواصلة الأشغال التي بدأها والده نابوبولاسار (626 ـ 605 ق. م.). يبقى أنّه في عهد نبوخذ نصّر الثاني، تطوّرت العاصمة وجُمّلت المعابد، بل يقال إنّه أنشأ فيها حدائق معلّقة ليبعث السرور في نفس الأميرة الميدية[38] الحسناء التي تزوّجها، كما أنّه أنهى حفْر قناةٍ لريّ المنطقة، ونصَبَ على المضيق بين الفرات ودجلة تحصيناتٍ للحماية من الإيرانيين دُعيت «السور الميدي»، بالإضافة إلى سورٍ حول العاصمة وبابٍ مختلفٍ عن الأبواب الأربعة الأخرى، هو باب عشتار، مع درب المَواكب المتّصل به جزئيًّا. هذا هو المجموع الهائل الذي أعيد بناؤه في متحف برلين في ثلاثينيات القرن العشرين، بعد ورشة تنقيبٍ طويلةٍ ومعقدة امتدّت بين العامين 1899 و1917. على موقع تلّ القصر الخاصّ بمنطقة ما بين النهرين والواقع حاليًّا في العراق، قرب الباب، عثر علماء الآثار في العام 1902 على كتلةٍ من الحجر الكلسي تحمل النقش النذري التالي:

«نبوخذ نصّر، ملك بابل، ابن نابوبولاسار (ملك بابل هو أنا) باب عشتار (أنا... بنيته) بالحجارة المطلية بالمينا (أزرق) لسيّد(ي) مردوخ. على عتبته (نصبتُ) ثيرانًا قويةً مصنوعةً من البرونز (وثعابين قويةً خرافية). بالبلاط (؟) الكلسي (و...) الحجارة أقمتُ إطار الثيران (؟) مردوخ السيّد (الأسمى)... الحياة الأزلية... تقدّمها هدية».

كان باب عشتار، ويعني اسمه الشعائري «عشتار ساكيبات تيبيشا» (عشتار منتصرة على أعدائها)، يقع شمال المدينة، ومحشورًا في جدران

(38) الميديون (*Mèdes*): من الأقوام التي استوطنت إيران قديمًا وكان موطنهم بحسب الجغرافيا الحالية، يشمل كردستان وأذربيجان ومنطقة كاردوخ. وأطلق هيرودوت على القبائل الميدية اسم الآريين.

السور الداخلية لأحياء بابل الشمالية الشرقية. المرّة الواحدة ليست قاعدة، ولن يحدث ذلك إطلاقًا في هذا الكتاب ثانية، فأنا أودّ هنا تقديم بعض التوضيحات عن بناء هذا الباب الذي يعود تاريخه إلى أكثر من 2500 سنة خلت ويتمتّع بمقاييس غير معتادةٍ ولا نزال قادرين على تأمّله ولمسه في متحف بيرغام، فقد بُني بموجب مبدأٍ شاع كثيرًا في الشرق القديم هو مبدأ الباب المزدوج، ولم يكن يتميّز عن أبواب بابل الأخرى إلا بكسوته الفاخرة. كانت تلك الأبواب ترتبط ارتباطًا مباشرًا بجدارٍ خارجي وجدارٍ داخلي، مندمجين في جدران السور. يبلغ عرض «الباب الأول» أو الباب الداخلي 28 مترًا، في حين يبلغ ارتفاعه 11 مترًا، يحيط به من الجانبين برجان. أمّا «الباب الثاني» أو الباب الخارجي، فكان مندمجًا في السور الداخلي ويحيط به أيضًا برجان يبلغ ارتفاع كلٍّ منهما تسعة أمتار ونصف المتر. تقضي هذه المنظومة بوجود أربعة أبواب، كلٌّ منها بمصراعين يدوران على مفصّلاتٍ حجرية، وهما مصراعان يمكن ركنهما في المساحات المخصصة في الجدران كي لا يقلّلا عرض المعبر. لكن ثمة خصوصيةٌ في باب عشتار تنبغي الإشارة إليها، وهي أنّ محاور المساحات المذكورة عموديةٌ بعضها على بعضٍ وليست متوازية. أمام الباب المتجه إلى الشمال، ينفتح مكانٌ كبيرٌ يحدّده جدارا وصل يربطان الباب بالحصون. كان قسمٌ من درب المواكب يمرّ أيضًا بباب عشتار ويصل بين الباب الشمالي ومداخل معابد مردوخ، وهو دربٌ يشكّل جزءًا من الأحجية الهائلة التي أعيد تركيبها في برلين. عبر هذا «الدرب المقدّس»، كان يُقاد معبود مردوخ، إله بابل الحارس، من بيت الاحتفالات الدينية، إلى الشمال قليلًا وخارج المدينة القديمة، عبر باب عشتار للوصول إلى جسر الفرات وإلى أبعد من ذلك قليلًا، كما سنرى، إلى القصر الصيفي. عندما نبش علماء الآثار الألمان هذا الباب، وجدوا في بعض المناطق أجزاء من السور يصل ارتفاعها حتى ثمانية

عشر مترًا وسمكها حتى حوالى سبعة أمتار، تمتدّ إلى الشرق والغرب بمقدار مئتي مترٍ تقريبًا. كان برجان صغيران على الزاوية يحميان مدخل الدرب الذي يبلغ طوله الكلّي، من باب المدينة وحتى آخر الحصون، مئتين وخمسين مترًا تقريبًا. في الجانب الشمالي، كان الدرب يعبر خندقًا عريضًا يحمي الجدران الشمالية الخاصّة بالقصور. وكان العبور يتمّ بفضل حاجزٍ ترابي تدعمه جدرانٌ استناديةٌ تسهل إزالتها لجعل الدرب منيعًا في حال حدوث غزو.

ثمة دليلٌ جديدٌ على وجود هذه الأماكن وعلى أبوّة نبوخذ نصّر الثاني لها، بفضل عادةٍ موروثةٍ من الآشوريين الذين استعاروها هم أنفسهم من البابليين: «نقشٌ كبيرٌ على بلاطة» وصلت إلينا بأعجوبةٍ وتوضح ما يلي:

«من أجل أن أمنع حراب المعارك من بلوغ إيمغور إيلليل، وهو السور المحيط ببابل، أقمتُ فوق 490 ذراعًا من التراب سورين عظيمين من القرميد والقار الملاصق لنيميتي إيليل، سور بابل الخارجي، وهما سوران مرتفعان كالجبال، وملأت الفراغ بينهما ببناءٍ من القرميد، وأقمت أعلاه بالقرميد والقار قصرًا كبيرًا ليكون مقرًّا لملكي، إضافةً إلى قصر أبي. وفي شهرٍ ويومٍ مناسبين، وضعت أسسه بقوّةٍ في التراب وبنيت رأسه المرتفع كجبل.

ملأتُ أج إيبور شابو، طريق بابل، لموكب الإله العظيم مردوخ، بكتلٍ من التراب شديدة الارتفاع. مع ألواحٍ وحجارةٍ من الجبال، رتّبت أج إيبور شابو من باب إيلو إلى باب عشتار ساكيبات- تيبيشا (باب عشتار) من أجل موكب جلالته وربطته بالجزء الذي بناه أبي وصنعت الدرب الرائع».

يحمل «الدرب» اسمًا شعائريًّا ونبوئيًّا هو «أج إيبور شابو»، ويعني «عسى ألّا يدوم العدو المجهول!»، وتتزيّن حوافّه، مثلها مثل الباب،

بأفاريز نافرة. هذه الأسود المصنوعة من القرميد المطلي بالمينا لافتةٌ للنظر ومخيفة، لبعضها فرو أبيض ولِبدَةٌ صفراء، ولبعضها الآخر فرو أصفر ولِبدَةٌ خضراء (يقال إنّها كانت حمراء اللون ثمّ تحوّلت إلى الأخضر بفعل التآكل). لا بدّ من مشاهدة تلك الحيوانات المفترسة الشقراء وهي تبرز على خلفيةٍ زرقاء فريدة، محوطة بأفاريز وردية الشكل وبمجموعةٍ من القرميد الأسود والأبيض والأسود، يبرزها قرميدٌ برتقالي اللون. ستّون أسدًا متحرّكًا في كلّ جانب، مئة وعشرون أسدًا! قطيعٌ من الأسود التي تتوعّد بأشداقها الشمال الذي يمكن أن يأتي منه الخطر. إنّها الأسود المقدّسة للملكة عشتار التي كانت معبودةً في بابل بوصفها سيّدة السماء والحبّ الجسدي وقائدة الجيش، أسودٌ موجودةٌ هنا لتسهر مع مردوخ على «المدينة المقدّسة» الواقعة في قلب الكون. كان الدرب، مثلما يشير إلى ذلك نبوخذ نصّر، مبلّطًا بصفائح كلسية مرصوفةٍ بدقّةٍ بحيث تبدو ملساء وموحّدة. وبالفعل، بلغ من دقّة تقنية القطع ومنظومة التداخل أنّها لم تكن مرئيةً على الأرض، وهذا أمرٌ كان في ذلك العصر مهارةً مطلقةً تستحقّ أن تُنقش على الحجر، مثلها في ذلك مثل استخدام المفصّلات المصنوعة من القار والتي كانت تجعل القرميد المطليّ بالمينا يلتحم بعضه ببعض.

اعذروني إن كنت أؤكّد المظهر التقني، غير أنّ «القرميد البابلي» استثنائيٌ إلى درجة أنّه يستحق التوقّف عنده، بما أنّه يشدّني هو أيضًا إلى برلين. حجم القرميدة نوعي، فهي تقيس بانتظامٍ شديدٍ 33 سم طولًا و16.5 سم ارتفاعًا، ولصنعها ـ وقد تحقّق علماء الآثار من ذلك بالتجربة ـ كان البابليون يَعدّون ستّ إلى سبع حفناتٍ من الصلصال لكلّ قرميدة، فيعصرونها ويصقلونها بعد ذلك باليد في قالب، مثلما تشهد على ذلك البصمات العديدة المحفوظة في القطع المكسورة.

نحن إذًا في منظومةٍ دينيةٍ ودفاعيةٍ في آنٍ، ولا نستغرب بالتالي أن يحمل معظم قطع القرميد في كثيرٍ من الأحيان على وجهها الخلفي النقوش المخصّصة للآلهة التي تقبع تحت سطح الأرض، وكذلك لمنح المباني حمايةً سحرية. لكن في الواقع اليومي، لم يكن يُحتَسب إلا فن الدعاية المكرّس لتمجيد الدين المحلّي وفكرة قدرة الملك.

يجب ألّا ننسى أيضًا أنّ الملك كان وكيل مـردوخ، إله النظام ومـروّض العناصر، كما أنّه كان المشرّع والقاضي الأعلى والمدير والقائد العسكري والوسيط مع الإلهي. كان «ملك الكلّية» هذا يسعى، مثله في ذلك مثل مدينته، إلى سيطرةٍ كونية. من أجل فهمٍ أفضل لهذين التشابك والبعد النفسي للدين البابلي، سوف أضرب مثالًا هو عيد أكيتو[39]، أحد أكثر أعياد الدين الآشوري البابلي مهابةً. كان يُحتفل بهذا العيد عمومًا عند الاعتدال الربيعي، في الأيام الأحد عشر الأولى من الشهر الأول، ويتوافق مع انتصار الشمس على قوى الظلمات. كان تنظيم هذا العيد يتمّ على مرحلتين متشابكتين إلى هذا الحدّ أو ذاك. يهيمن الحزن والتطهّر على المرحلة الأولى، فيشرَك العاهل، صورة الله على الأرض، شعائريًّا بهذا العجز الإلهي الذي تعاني منه الآلهة البابلية، تلك الآلهة التي تتلبّسها حالةٌ نفسيةٌ بشريةٌ جدًّا، كوجود حدودٍ لإمكان فعلها وكسمات طباعها. في هذه المناسبة، كان الملك يختبر إذلالًا شعائريًّا استثنائيًّا، حيث يجرّده الكهنة من شاراته الملكية، ويقوم سيّد الطقوس الاحتفالية بـ«صفعه وشدّه من أذنيه وإركاعه»، فينادي الملك ببراءته، مؤكدًا أنّه لم يهمل ربّه، بل يحدث أحيانًا أن يذرف دمعة. يتمتع العَرَضِي بدلالةٍ عند البابليين، ولن يتوانى المتنبئون لاحقًا عن تأويل الدلالة الإلهية وفق شكل الدمعة واتجاهها. أمّا المعبد، فيطهّره نضح

(39) عيد أكيتو: عيد رأس السنة لدى البابليين والآشوريين، يبدأ في اليوم الأوّل من شهر نيسان ويستمرّ اثني عشر يومًا.

مياه دجلة والفرات، وتُفرك عتبته بجلد خروفٍ يُرمى بعد ذلك في النهر، إذ يصبح محمّلًا بالنجاسات.

تفيض المرحلة الثانية بالفرح، وهي تبدأ عندما يعود الملك للظهور وقد استعاد كرامته. وفي اللحظة التي يصفّق فيها الشعب له، يحظى بهذا التصفيق بوصفه رمزًا للإله يمارس مجددًا ملكوته على العالم. يتشكّل موكبٌ هائلٌ آنذاك أسفل المعبد الهرمي، حيث تتجمّع المعابد الفعلية لكل آلهة الحاضرة. المعابد مبانٍ متفاوتةٌ في تعقيدها وفق أهمية الآلهة المبجّلة فيها، وهي تتكوّن بصورةٍ أساسية من دهليزٍ يحيط أحيانًا بالمجمل، ومن «ردهة الصومعة» ومن «صومعة» يسكن فيها تمثال الإله ولا يصل المرء إليها إلّا عبر بابٍ وحيدٍ يفضي إلى الردهة، تخرج الآلهة عندئذٍ إلى الفناء حيث تحتفل طيلة الليل. وعندما تكون الكواكب مرئيةً في السماء، تغنّى الأناشيد وتُحرَق الطيوب تمجيدًا لها، كما تكرَّس نارٌ جديدةٌ ويُشعَل منها مشعلٌ يُمرّر لهبه، بعد تقديمه إلى الإله، لشعلةٍ جديدةٍ ومن شعلةٍ إلى أخرى ينشر النار المقدّسة في المدينة كلّها حتى فرقة حراسة باب عشتار. في هذا الجوّ من التمجيد الرباني تحت بابٍ مضاء، ينطلق الموكب منتهجًا «درب» المواكب الكبير، موكب الإله والملك. بعد أن يخرج أصحاب المقام الرفيع من بابل، يستقلّون المراكب للذهاب إلى معبد أكيتو، وهو معبدٌ ريفيٌّ مخبأٌ بين النباتات، حيث يمثّل كلّ نوعٍ من الأشجار إلهًا. هناك تتمّ مراسم الخطبة بين الآلهة، اتحاد الإله والإلهة اللذين سيؤمّنان خصب العالم لسنةٍ جديدة. بعد أن يحلّل العرّافون ويؤولوا الأحداث كافّة التي جرت منذ بداية العيد وأثناء الزواج، وبعد التأكيد الذي يتمّ عبر قراءة أحشاء بعض الأضحيات الحيوانية، تُفتتح المأدبة وتُقام في ظل الأثلة آنو[40] والسروة حدد[41]

(40) آنو: إله السماء لدى الآشوريين والبابليين وكبير الآلهة.

(41) حدد أو أدد: إله العواصف والأمطار في بلاد ما بين النهرين وسوريا وآسيا الصغرى.

والنخلة تاموز[42]، ويُعلن أخيرًا مصير بابل! هذا ما أحكيه لنفسي أو ما يكاد يكون ذلك كلّما ذهبت إلى برلين لألامس باب عشتار الأزرق.

كتاب الأبواب

أحبّ أيضًا أن أتجوّل في متحف اللوفر[43] (Louvre) بالصالات المصرية، وأن أخيف نفسي وأنا في تجويف الأبواب المعتمة والمصاطب المُتَوعِّدة، لكنّني لم أرَ فيها أبدًا أبوابًا خشبية. لقد قيل لي إنّ الأبواب لم تكن موجودةً في مصر لوقتٍ طويل، وذلك لسببين بسيطين غاية البساطة: المناخ الحارّ وندرة الخشب، وهما عاملان ربّما يفسّران جزئيًّا أنّ أبواب البيوت العادية كانت تُختَزل في كثيرٍ من الأحيان بمجرّد حصيرةٍ أو قطعة قماشٍ معلّقةٍ أمام الفتحة. ونستطيع أن نضيف إلى ذلك أنّ البيوت المصرية لم تكن تمتلك في مواجهة الحرّ أو اللصوص، ولتعزيز متانتها إلّا فتحاتٍ نادرة، كما هي الحال في كلّ مكانٍ منذ العصور القديمة حول حوض البحر الأبيض المتوسّط وفي أفريقيا. غير أنّ بابًا واحدًا حين يكون موجودًا، كان يكفي لتهوية بيتٍ تقليدي وإنارته. وأمام هذه الأبواب التي كانت تبقى مفتوحةً نهارًا، يسهل علينا تخيُّل أنّ السكّان كانوا يمتلكون من أجل الليل أو في حال الضرورة متاريس صغيرةً أو منظومات إنذارٍ تحميهم في الداخل إلى هذا الحدّ أو ذاك. وحتى اليوم، في القاهرة، إن كان الباحثون الاجتماعيون لا يزالون يذكرون وجود «مناطق فيها حياةٌ اجتماعيةٌ مفتوحة» تنظمها مراقبةٌ جماعيةٌ ومتكاملةٌ وحصرية، ولئن كان استخدام الشارع مكانًا تدور فيه حياةٌ اجتماعيةٌ يتحكّم بها الجوار وأرضًا للعب والتدرّج المديني، يواصل كونه ممارسةً شعبيةً تملأ إلى

(42) تاموز: إلهٌ بابلي يرمز إلى النبات وحيوية الطبيعة ويخصّص شهر تموز من كلّ عامٍ لعبادته.

(43) اللوفر: قصرٌ ملكيٌّ قديم، بناه فيليب أوغوست وكان مسكنًا ملكيًّا حتى لويس الرابع عشر، وهو حاليًّا متحفٌ شهير.

حدٍّ كبيرٍ إطار الأحياء القديمة والحارات بمعناها الحرفي، فقد أتى نموذجٌ آخر ليفرض نفسه: «العيش وراء أبوابٍ مغلقة والأطفال في البيت». وهذا يسري على عمارات المركز وعلى الأسر الأكثر يسرًا، غير أنّ الشهادات كافّة تشدّد على واقع أنّ أبواب البيوت لا توصد في النهار في الأوساط الشعبية وفي أحياء المدينة القروسطية القديمة إلا على نحوٍ استثنائيٍّ للغاية، ولا تزال تعلّق في الفتحة حصيرةٌ أو قطعة قماشٍ لتجنّب الحشرات وللحفاظ على البرودة في الداخل.

لنعد إلى مصر، وهي أكثر توقعًا وربّما أكثر تعقيدًا، تلك التي يقدمونها لنا في اللوفر، ففيها كانت عمليات «عبور الأبواب» تلعب دورًا عظيم الأهمية في الشعائر الدينية. يصعب أن نتجاهل الأهرامات الملكية التي يقارب عددها الأربعين هرمًا، والتي غطّت أرض مصر من السلالة الثالثة إلى السلالة الثالثة عشرة. كان شكلها المثلّث يتضمّن وسيلة عبورٍ خاصّة، إن لم يتضمّن بابًا، وسواءٌ تعلّق الأمر بالأشكال الهرمية فوق المسلّات أو بالأهرامات الكبيرة، فقد كان هذا التثليث سعيًا لأن يكون تقليدًا لحزمة الأشعة التي ترسلها الشمس من بين الغيوم، وكان هدفه الرئيس تسهيل صعود روح الملك المتوفّى إلى أبيه رع، الشمس. كانت تلك الأشعة المفيدة المتحجّرة والمروّضة بفعل ذلك، تضمن حماية قبر الملك المخبّأ تحت هذه السلالم الهائلة. وفي ما يخصّ «المخارج»، أي بعبارةٍ أخرى وسيلة التغلغل في هذه المُجمَّعات الجنائزية، بدأنا للتوّ فقط اكتشاف ماهيّتها. وقد كشف علماء الآثار الذين استكشفوا هرم زوسر [سقارة] المدرّج شمال الهرم، في فناء المعبد الجنائزي، «مهبطًا». يفضي هذا المعبر المنحدر إلى غرفة المناورة التي تقع فوق السرداب وتتيح الدخول إلى مسكن الكا[44]، وكذلك إلى شبكةٍ معقّدةٍ من المقصورات المخصّصة على الأرجح للأثاث الجنائزي. في

---

(44) الكا: شرارة الحياة، وهي المعادل للنفس.

المسكن ذاته، كُسيت عدّة غرفٍ بالخزف الأزرق، كما أنّ أطر الأبواب مزينةٌ بالمراسم الملكية المنقوشة بمهارةٍ بالغة. كذلك، واجهة هذا المسكن الخاصّ بالكا مكسوةٌ بالخزف، مع صور أبوابٍ ونوافذ صغيرة، وتظهر على لوحات هذه الأبواب المزيفة ثلاثة نقوشٍ قليلة البروز تمثّل الملك الذي يُعَدّ الكاهن الأكبر، وهو يقوم بالشعائر الرمزية. اعتبارًا من هذا الهرم، سوف يميل مخطّط المسكن الجنائزي إلى أن يصبح موحدًا: سوف يُبنى المهبط المتمحور هو أيضًا على الواجهة الشمالية داخل خندقٍ منحدرٍ موجّهٍ إلى تجويفٍ مركزيٍ واسعٍ عميقٍ إلى هذا الحدّ أو ذاك، موضوعٍ شاقوليًّا مثل فرعي حرف (T). هنا ستُقام القاعة الضريحية والردهة التي تسبقها باتجاه الشرق، وتغطّى كلتاهما بثلاث طبقاتٍ متوالية من بلاطاتٍ هائلةٍ مرتبةٍ على شكل دعامات. أمّا المهبط، فيصل إلى دهليزٍ ثمّ يمتد إلى ما بعد ذلك عبر ممرٍّ أفقيٍّ يقطعه بابٌ منزلقٌ أو أكثر، كما يقطعه أحيانًا منفذٌ إلى بعض الحجرات الثانوية.

بفضل ورق البرديّ الخاصّ بالإمبراطورية الحديثة والمحفوظ في برلين، نعرف مجريات العبادات اليومية في مدينة أبيدوس في ظل السلالة التاسعة عشرة (1314 ـ 1085 ق. م.). في المعابد المخصّصة على التوالي لأوزيريس[45] وحورس[46] وإيزيس[47] وآمون[48] وحورماخيت[49] وبتاح[50]، كانت العبادة توجّه للتمثال الرباني المحتجز في «الناووس»،

---

(45) أوزيريس: إله البعث والحساب عند قدماء المصريين، وهو رئيس محكمة الموتى.

(46) حورس: إله الشمس عند قدماء المصريين.

(47) إيزيس: إلهة القمر والأمومة لدى قدماء المصريين.

(48) آمون: إله الشمس والريح والخصوبة لدى قدماء المصريين.

(49) حورماخيت: ربة الشمس لدى قدماء المصريين.

(50) بتاح: في الميثولوجيا المصرية، هو إله الحرَفيين والمعماريين.

وهو مبنى غرانيتي أو بازلتي صغير يغلقه بابٌ خشبي ذو مصراعين. تتألّف تلك الشعيرة من ستٍ وستين مرحلةً أو فصلًا تتضمّن الطقوس التحضيرية وشعائر تطهير الآلهة والكلمات التي تُقال بترتيبٍ دقيق وتبخير المعبد وبطبيعة الحال عمليات «دخولٍ» و«خروجٍ» مضبوطة ضبطًا تامًّا. يصف لنا جاك فانديه (Jacques Vandier)، الاختصاصي في الديانة المصرية، كيف «يقترب مقيم الطقس من الناووس بعد إنجاز شعائر التطهير ويكسر الخاتم الصلصالي ويسحب القفل»، وذلك كلّ صباح، في اللحظة المحدّدة التي تتجاوز فيها السماء الأفقَ وتبدأ صعودها في السماء. «الصيغ التي يرتّلها أثناء هذه الطقوس مستعارةٌ استعارةً مباشرةً من أسطورة حورس: ما يقدّمه للإله هو عين حورس، ويماثَل القفل ذاته بإصبع ست[51]، لأنّه يشكّل ما يشبه العقبة أمام إنجاز القدّاس الإلهي، فهو الذي يفصل مقيم الطقس عن الإله المحتجز في ناووسه. وسحب القفل يعني إحراز انتصارٍ على عدو أوزيريس وحورس الأزلي». بعد ذلك، يفتح الكاهن «أبواب السماء» ويكشف وجه الإله، ثم يأتي السجود المصحوب بصيغٍ ورِعَة تلمّح إلى السرّ الكبير الذي سوف ينجَز. تأتي بعد ذلك أناشيد العبادة ووضع المرهم على تمثال الإله والتبخير. ثمّ يأتي فصل الدخول إلى الناووس المسمّى «الفتحة الأولى» مع كلمات تهدئةٍ على العتبة وإيداع عين حورس. في ما يخصّ «الفتحة الثانية»، تُقال كلمات التهدئة عينها مع إيداع تمثالٍ صغيرٍ هذه المرة للإلهة ماعت[52]. ثمّ «يسلّم» الكاهن، في ضربٍ من ضروب معانقة التمثال، «روحه» للإله الذي يستعيد آنذاك حامله الدنيوي ليسود طيلة اليوم في معبده. يلي ذلك إيداعُ قرابين لإطعام الإله وتنظيفُه اليومي

---

(51) ست: إله الصحراء والعواصف والأجانب في الديانة المصرية القديمة. وهو يصوَّر بالغاصب الذي قتل أخاه أوزيريس وشوّهه.

(52) ماعت: إلهة الحق والعدل والنظام في الكون في الميثولوجيا المصرية القديمة.

بالماء والبخور، ثمّ يُلبَس المعبود أربع قطعٍ من البيسوس، وهو كتّانٌ ناعمٌ جدًّا ترتديه أيضًا الشخصيات المقدَّسة، ويزيّن ويعطّر.

عمومًا، ينزّه التمثال في موكبٍ على مركبٍ شعائري خشبيٍّ في ساعة السمت ويعاد إلى مكانه في آخر النهار. آنذاك، يتّخذ الكاهن الاحتياطات المألوفة كافّة كي يتمكّن من استئناف رحلته الليلية في عالم الآلهة، فينثر الرمل أمامه ويقوم ببعض التطهيرات. أخيرًا، «يغلق مقيم الطقس باب الناووس ويحكِم إقفاله وينسحب بخطواتٍ إلى الخلف وهو يمحو أثر خطواته على الرمل».

إذا كانت الأبواب المادّية قد وُجدت حقًّا لدى أكثر الناس ثراءً وفي المعابد، وإذا كانت حمايتها تؤمَّن بالكتابات الهيروغليفية المنقوشة والمرسومة على أطر الأبواب، مشكّلةً بعض الآراء المتعلقة بالرفاه، فإنّ الأبواب الرمزية، كي لا نقول الأسطورية، هي تلك التي نعرفها أكثر من غيرها، كما أنّها أيضًا تلك التي يبقى منها أكثر الآثار، النصّية إن لم تكن المادية. لهذه الأبواب أهميةٌ عظيمةٌ في عالم الموتى الذي يكثِر المصريون ارتياده. يحكي **كتاب الأبواب**[53] (*Le Livre des Portes*)، وهو كتابٌ ينتمي إلى الأدب الجنائزي في الإمبراطورية الحديثة ويعود إلى السلالة الثامنة عشرة (1580 قبل الميلاد)، عن رحلة الإله رع تحت الأرض، وهو يقدّم نفسه نوعًا ما كسِفرٍ مُطوَّل، محوطٍ من ثلاثة جوانب بشريطٍ وردي منقّطٍ مدوّرٍ في الزوايا. يُحكى فيه كيف يُغمر إله الشمس في الجبل عند الغسق ويتغلغل في عالمٍ ليليٍّ يتوزّع

(53) **كتاب الأبواب**: نصٌّ مقدّسٌ من مصر القديمة، يعود تاريخه إلى العصر الفرعوني الحديث. وُجِد لأوّل مرّةٍ في قبر حورمحب (السلالة الثامنة عشرة) غير أنّ تاريخ كتابته يبقى افتراضيًّا. وقد منحه هذا الاسم غاستون ماسبيرو (*Gaston Maspero*). ينقل الكتاب عبور روح الميت في عالم الماوراء، وهو عبورٌ يتوافق مع رحلة إله الشمس رع تحت الأرض أثناء ساعات الليل.

في إحدى عشرة منطقةً أو أحد عشر قسمًا، تُفتح باثني عشر بابًا. إنّها بوّابات هائلةٌ تحدّد مختلف مراحل رحلات القارب الشمسي وتشير إلى عناصر أساسيةٍ في معبدٍ مصريٍّ أو في القصر الملكي، في الوقت عينه الذي تجسّد ساعات الليل. يحرس البوّابة الأولى ثعبانٌ ضخم تتمثّل مهمّته في فتح البوّابة للسماح للشمس وحاشيتها بالعبور إلى العالم الآخر، أمّا البوّابات الإحدى عشرة الأخرى، ولئن كانت تفيد في عدّ الوقت وتقسيمه تقليدًا للساعات ولأشهر السنة في آنٍ، فإنّ مهمتها تتمثّل بالأحرى في أن توصد الأبواب بإحكامٍ خلف الموكب الإلهي لتجنّب أن يأتي دخلاء فيبثون الاضطراب في نفوس الإله وفي الزمن. لقد تساءل متسائلون إن كانت هذه الأبـواب المرسومة على جدران الأوزيـريـون[54] (l'Osiréion) بمعبد أبيدوس وعلى بعض التوابيت الحجرية، مثل تابوت سيتي الأول ورمسيس الثاني، تذكّر بالتوابيت التي كانت تنظم إيقاع الموكب على طول السرداب المؤدّي إلى غرفة التابوت في عصر رمسيس، أي السراديب التي كان يجب على الموتى المصريين عبورها في قواربهم للوصول إلى مسكنهم الجديد. تمامًا مثل أبوابٍ تتوالى في مبنى، يبدو كأنّ تمثيل هذه البوّابات الهائلة في هذا التركيب الجنائزي الذي أُطلقت عليه تسمية **كتاب الأبواب**، لكنّ اسمه الأصلي غير معروف ونسخه عديدة، يقود المسافر نحو قلب الفضاء المعماري بميزاتٍ إيقونوغرافية[55] (iconographiques) خاصّة. في القسم الموجود على سبيل المثال بعد الباب الثالث، يرمز ثعبانٌ طويلٌ محوطٌ باثني عشر وجهًا نسائيًا إلى الزمن الذي يولّده الثعبان. يستطيل الباب الخامس بصالة محكمةٍ يجلس فيها أوزيريس، ما يذكّر بجلسة

(54) الأوزيريون: مقبرة أوزيريس الرمزية، تقع بالقرب من معبد سيتي الأول في أبيدوس.

(55) إيقونوغرافي: خاص بعلم دراسة الأيقونات أو الإيقونوغرافيا (iconographie).

الاستماع الملكية التي اعتاد العاهل أن يقف فيها في فتحة بوّابة. أمّا الصورة الأخيرة في الكتاب، فهي تصف ولادة الشمس واللحظة التي يتحفّز فيها هذا الكوكب، الذي يعود للتشكّل بعد إغلاق المصراعين ويصبح مجدّدًا كيانًا مرئيًّا وفاعلًا في عالم البشر ويمتلك دعائمه مرةً أخرى. أُغلقت الحلقة، والرحلة تحت الأرض ـمثلها في ذلك مثل الرحلة نحو الشمسـ تمرّ دائمًا بهذه الأبواب التي تخيلتها ميثولوجيا معقّدة لا نزال نحلم بها عندما نلفظ كلمة «مصر»، وهو اسمٌ يدوّي صداه داخلنا وكأنّه سمسم[56] التاريخ القديم.

الباب الميسيني[57]

بصورةٍ عامّة، يتجنّب المسكن الريفي المناطق الحدودية وتلك الواقعة داخل الغابات والمرتفعات الصخرية، وهو يترك الذرى للمدن المنيعة، مفضّلًا منابت الوديان والوهاد وسفوح المرتفعات، باحثًا بالأحرى عن الأماكن التي ينبع فيها الماء وتلك التي تحاذيه. في تلال اليونان الكلسية، لم تكن المساكن المبنية على الصخور، بل حتى في الكهوف نادرةً، وهي على الأرجح الأقرب إلى تلك المساكن الكهفية، والجهنّمية إلى هذا الحدّ أو ذاك، التي كان الإنسان يقطنها قبل أن يصبح بنّاءً حقًّا وفعلًا، وكان ينسبها عن طيب خاطرٍ لآلهته، عدا العادات الممارسة على جبل الأولمبوس. سيكلوبات[58]،

(56) إشارة إلى حكاية علي بابا والأربعين حرامي، وهي كلمة سرٍّ لفتح بوّابة المغارة التي خبّأ فيها اللصوص الكنوز المسروقة.

(57) ميسيني: نسبةً إلى ميسين (Mycènes) (موكناي حاليًّا) في اليونان وهي مدينةٌ يعود بناؤها إلى الألف الثاني قبل الميلاد.

(58) سيكلوبات: جمع سيكلوب (cyclope)، وتعني دائري العين، مسوخٌ عملاقةٌ من جنس الجبابرة في الميثولوجيا الإغريقية لها عينٌ واحدةٌ وسط الجبهة، وهم عمّالٌ مهرةٌ يصنعون الصواعق وأسلحة الآلهة ويحقّقون الأعمال الكبيرة والضخمة.

قنطورات[59] ميّالة للشجار، حوريات، حوريات بحرٍ ساحرة، نماذج وأسلاف للقرويين الميسينيين، كان من المفترض بهم جميعًا أن يعيشوا مثلما يعيش عددٌ لا بأس به من البشر، في كهوفٍ واسعةٍ تغلقها صخور. عندما تنقصك القوّة السيكلوباتية، تستطيع أن تحتمي من الخارج ببناء جدار إغلاقٍ شيئًا فشيئًا، بخطٍّ مستقيمٍ أو بمصراعين وتترك مع ذلك ثغرةً أو اثنتين لتكون بابًا وكوّةً أعلى الباب. إنّ المنظومة السيكلوباتية أو الميسينية، والتي تذكر بعض القواميس مثالًا عليها هو دائمًا باب اللبوات في تيرينت[60] (Tirynthe) (1250 ق. م.) تتشكّل من ثلاثة أحجارٍ بساكفٍ هائل الحجم يعلوه مثلث تفريغٍ ناتئٌ يغلقه حجرٌ منحوتٌ يمثّل لبوتين تحرسان المكان. أمّا أخوه الصغير الذي نجده في الباب السرّي الشمالي، فلم يكن هو أيضًا مبنيًّا ولا مصنوعًا للراعي البسيط. لم يكن هذا الطراز المفرط في ضخامته هو الذي سيتبناه الإغريق لأبوابهم العادية، لكنّهم سيحافظون لوقتٍ طويلٍ في المقابل على شكل الساكف شبه المنحرف. بعبارةٍ أخرى، يتميّز «الباب الإغريقي» بالركائز الداعمة المائلة ضمن الفراغ، وهو مغطى بمسطّحٍ غير مترابط، يتكوّن من حجرٍ واحد. إليكم الترجمة للذين يستهلّون هنا تَعَرُّفَهم على الأبواب، «الباب الآتيكي»[61] الذي تُطلَق عليه أيضًا تسمية الباب «الأثيني»، هو ذاك الذي تموضع فيه العضائد بصورةٍ مائلة وعلى نحوٍ متناظر بالنسبة إلى محوره.

---

(59) قنطورات: جمع قنطور (*centaure*) وهو مخلوقٌ أسطوريٌّ في الميثولوجيا الإغريقية له جسد حصانٍ وجذع ورأس إنسان.

(60) تيرينت: حاضرةٌ ميسينيةٌ قديمةٌ من البيلوبونيز على خليج أرغوس، أصبحت بدءًا من القرن الثالث ق. م. أحد المراكز الكبيرة للعصر البرونزي في أوروبا.

(61) نسبةً إلى أتيكا (*Attique*)، وهي منطقةٌ تاريخيةٌ تضمّ مدينة أثينا عاصمة اليونان.

نعود إلى البيوت الريفية الأولى المبنية على أسسٍ حجرية والتي لا توجد أيّ أداةٍ للتحقّق من وضعها الشاقولي إلا نظرة الفلاح، كان ارتفاعها يصل إلى مترين أو مترين وعشرين سنتيمترًا، وكانت رباعيّة الزوايا ويبلغ محيطها حوالى عشرين مترًا، غير أنّها تترك فتحةً ضيقةً بما يكفي للباب وأخرى ضئيلة الحجم للنافذة. كان الفلاحون الإغريقيون يخشون الحرّ بمقدار ما يخشون اللصوص. لكنّ السارق الذكي كان يستطيع بسكونٍ أن يثقب الجدار الترابي ويدخل إلى البيت كما لو أنّه يدخل عبر باب، وهذا يفسّر أنّ البيوت كانت في بعض المناطق معزّزةً بهيكلٍ خشبي تدعيمًا، أي بالآجُرّ المسلح. لا يزال هذا النمط من البناء الذي يعثر علماء الآثار على أثره في ثيساليا[62] (Thessalie) وأرغوليد[63] (Argolide) وفي الجزر منذ العصر النيوليتيكي موجودًا حتى اليوم، وربّما يكون مصطلح كوخٍ أكثر شيوعًا لتلك الآثار من مصطلح بيت. بالنسبة إلى الأبواب، عُثر في كلّ مكانٍ على دعاماتٍ وسواكف وسقّاطات، لكن نادرًا ما عُثر على أبوابٍ كاملة. في دراسة بول فور[64] (Paul Faure) عن الحياة اليومية عند الإغريق، يتحدّث لنا أيضًا عن «البيوت المصنوعة من الأنقاض» حيث يجمع البنّاء الحجر بالخشب والملاط بحيث يغلق المجموع نفسه بنفسه ويخلق جدرانًا يصعب نسبيًّا ثقبها. وهو يشير إلى أنّ هذا النمط من البناء تطوّر في معظم الأرجاء في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، مع وضع حجارةٍ ثقيلةٍ في الزوايا كانت تتطلّب بالتأكيد مساعدة العائلة والجيران، بل حتى الأصدقاء. وهو يتخيّل صوابًا أنّ المناقشات كانت تجري لساعاتٍ طويلة بصدد مكان

(62) ثيساليا: منطقةٌ تاريخيةٌ وتقليديةٌ يونانية تقع في وسط البلاد.

(63) أرغوليد: شبه جزيرة في اليونان.

(64) بول فور (1916 ـ 2007)، عالم آثارٍ فرنسي، تخصّص في الحضارة المينوسية.

البيت واتجاهه، وأيضًا بصدد مواد البناء التي ستستخدَم، وكذلك بصدد الإغلاق ووسائل الدفاع والكلفة التي سيتطلّبها ذلك. يذكّرنا الكاتب بما هو أهمّ من المسألة المادية وحدها، إذ كانت الحماية الحقيقية في تلك اليونان شعائريةً ولم يكن ممكنًا أن يُسكَن مبنى من دون استدعاء كاهنٍ ليؤدي فيه صلواته وتبخيراته ويريق الخمر ويقدّم قرابينه لمؤازرة البناء والبنّائين والآلهة التي تحميهم. اللحظة التي لا يُستغنى فيها عن وجود الكاهن، لحظة الأخطار جميعًا، هي لحظة وضع الباب والمدفأة، الفتحتين اللتين يمكن أن تتسلّل منهما الأرواح الشرّيرة، حيث لم يكن أحدٌ ليجهل آنذاك أنّه «حين ينتهي [تشييد] البيت، يدخل الموت إليه»، وأنّه ينبغي بذل كلّ جهدٍ ممكنٍ للاحتماء منه.

البيت الميسيني عضويةٌ حيّةٌ حقيقية، إذ يرتفع تدريجيًّا بأسسٍ وطبقاتٍ متراصفة، ويكبر حجمه بالملحقات والسقيفات المائلة باتجاهٍ واحد، المرمّمة باستمرار، وتذكر الكلمات القديمة التي كانت تشير إلى البيت بهذه الحقيقة، ككلمتي (woikos) و(domos)، من الجنس الحي والمذكر. بناء بيتٍ ليس كلّ شيء، بل يجب أيضًا الانتباه إلى المخاطر التي يعرّض المرء نفسه لها كلّما دخل إليه وخرج منه، وهذا يفسّر الاختلاط الطويل الأمد بين الدين والحياة المدنية في اليونان، كما أنّ وفرة الاحتياطات الخاصة بـ«المعابر» التي طوّرها اليونانيون ببطءٍ هي في أساس الفولكلور الشعبي الغربي.

مجموعة الأبواب عند الآلهة اليونانية

تلقى هاديس[65] (Hadès)، الابن الثالث للجبّار كرونوس (Titan Cronos)، لحظة التقاسم بالقرعة «أعماق الأرض المغمورة بالظلمة»

(65) هاديس: ابن كرونوس وريا وأخٌ لكبير الآلهة زيوس ولهيرا وبوسيدون. أصبح ملك العالم السفلي.

وأصبح عاهلًا على الموتى، وحصل من أجل ذلك على لقبٍ مريعٍ هو لقب الإله «ذي الأبواب المحكمة الإغلاق». دور البوّاب ليس بالضبط الدورَ الذي يميزه، إذ يقوم الكلب سيربير (Cerbère) ذو الأشداق الثلاثة بهذا الدور بصورةٍ كافية، بل يميزه كونه السجّان القاسي لمسكنٍ مشرَّعِ الأبواب أمام قادمين كثر، لكنّه لا يترك أحدًا يخرج إلّا بصعوبةٍ شديدة. إنّ «عبور أبواب هاديس»، مهما كانت شاسعةً ومفتوحةً بصورةٍ حتميةٍ أمام الجميع، ليس له أيّ معنًى غير الموت، أي الدخول وعدم الخروج مرةً أخرى أبـدًا. يقول الإغريق إنّ هاديس، «ملك 'أبواب الجحيم'»، يستقبل جمهرةً متزايدةً باستمرارٍ ولن تتناقص، وهو متيقّنٌ من الاحتفاظ بضيوفه في مسكنه الرهيب. يـؤدّي هذا اليقين باسم الحتمية إلى منحه لقبًا آخر أقلّ ترويعًا لكنّه أكثر تهكميّةً: «'سيّد' كثيرٍ من الضيوف». لعب ابنٌ آخر لكرونوس، انتهى به الأمر إلى أن يزيح أباه عن عرشه، أدوارًا عدّةً على أبواب اليونانيين، وهي أبوابٌ موجودةٌ على السطح. إنّه زيوس، أو بالأحرى عدّة آلهةٍ تُسمّى زيوس كانت تحرس الأبواب والمعابر والعتبات.

كان لأثينا تصورٌ مجرّدٌ لمجموعٍ متجانسٍ من الآلهة لم يكن صالحًا إلا خارج الإطار الطقسي. وبالفعل، في الممارسات الطقسية ـكالصلوات والأضاحي والنقوش النذريةـ يتكشّف كلّ تنوّع منظومة تعدّد الآلهة. نحن نعلم أنّه من بين الديمات[66] أو المحافظات المئة والتسع والثلاثين، أو دوائر أتيكا، كانت كلّ محافظةٍ تعدّ أربعين إلى خمسين إلهًا وبطلًا فرديًّا تقدَّم لهم الأضاحي على مدار العام. ينبغي أن تُضاف إلى ذلك الأضاحي التي تُقدَّم مرّتين أو أربع مرّاتٍ في العام،

(66) الديم (Dème): وحدةٌ إداريةٌ أساسيةٌ تعادل المحافظة، أقيمت أثناء ثورة كليستين في العام 508 أو 507 ق. م. في أثينا، وهي ترتبط ارتباطًا مباشرًا بمسيرة أثينا نحو الديموقراطية.

وكذلك الأضاحي التي تقدّمها مجموعاتٌ عائليةٌ وتجمعاتٌ خاصّة ولا يشار إليها في التقويم الرسمي. في محافظة أرخيا (Erchia) التي اتخذها جون ميكالسون[67] (John Mikalson) مثالًا في دراسته عن الدين الشعبي في أثينا، لكلٍّ من أبولو وزيوس ستة ألقابٍ مختلفة، وعلى الأقل خمسةٌ وثلاثون مكان عبادةٍ كلٌّ منها متمايز عن الأخرى. بطبيعة الحال، لزيوس كثيرٌ من الألقاب التي يشير كلٌّ منها بدرجةٍ متفاوتة إلى إلهٍ مختلفٍ، له وظائف وعباداتٌ خاصّةٌ به. في ما يخصنا، سوف نتحدّث عن زيوس إيبوبيتوس (Zeus Epopète)، «زيوس المراقِب»، وعن زيوس هوريوس (Zeus Horios)، «زيوس الحدود» المسؤول عن الحفاظ على حجارة تعيين الحدود بين الأراضي. نجد في العبادات الأثينية أيضًا زيوس هيركيوس (Zeus Herkeios)، «زيوس الإغلاق»، وزيوس كتيسيوس (Zeus Ktêsios)، «زيوس الأملاك»، اللذين كان كلٌّ منهما يُربَط بمظهرٍ من مظاهر الحياة العائلية. كان للأول مذبحٌ في باحة البيت ويحمي محيطه، وتمثّل الثاني جرّةٌ أو أشياء رمزيةٌ ضئيلةٌ معلّقةٌ على جرّة، خلف باب المخزن.

في اليونان القديمة، كلّ شيءٍ يمكن أن يصبح مكان عبادةٍ أو محرابًا أو «هييرون» (hieron) (فضاءً مقدّسًا)، إذ يكفي أن يُعتَرف لهذا الفضاء بطابعٍ مقدّس. ويمكن أيضًا أن يعود ذلك لعظمة المشهد أو لوجود قبرٍ أو شجرةٍ جميلةٍ أو نبعٍ أو صخورٍ لها أشكالٌ خاصة، وما إلى ذلك. آنذاك، تحدَّد الأرض وتحمل اسم «تيمينوس»[68] (téménos) الذي يعني المنقطع (أي المنقطع عن الأرض غير المقدّسة). يمكن تجسيد تخومها عبر نُصُبٍ تدعى «هوريو» (horio) أو عبر جدارٍ متواصلٍ تُطلق عليه

---

(67) جون ميكالسون، أستاذٌ جامعيٌّ أميركي، متخصّص في تاريخ اليونان القديمة.

(68) التيمينوس: الفضاء المقدّس.

تسمية سور المعبد. هكذا نجد أنّ عددًا كبيرًا من المحاريب الإغريقية كانت مجرد أراضٍ يحيط بها سورٌ من دون أن توجد داخلها أيّ مبانٍ، إلّا مبانٍ مؤقّتة. استُخدم في البداية مظهرٌ مجازيٌّ واضحٌ إلى حدٍّ ما لحراسة تلك الفضاءات المخصّصة وحمايتها، مثلما يُحرس ويُحمى القضيب الحارس الخاص بالإله المصري مين[69] والذي كان يهدف إلى تثبيط عزيمة «الباسكانيا» (baskania)، أي المصير السيئ. وكذا هو الأمر بالنسبة إلى الركائز الهرمسية[70] اليونانية، التي يمكن أن نرى أمثلةً عليها في متحف اللوفر، فقد كانت توضع على طول الدروب الريفية والشوارع القصية وتقاطع الطرقات والساحات وأماكن اللقاء الخطرة، وتُعرض أعضاء تناسلية للحماية من الأرواح الشريرة والنوايا العدوانية. لقد ماثل اليونانيون بين مين وجسمه وبين إلههم بان[71] (Pan). كانت صورة الإله المنحوتة وقضيبه في حالة القذف توجد بخاصّةٍ في المناطق الصحراوية، وكثيرًا ما كانت تُنحت في خشب التين وتُدهن باللون الأحمر، فتُشهر في تلك المناطق المجدبة شعار الخصب وتتوعّد كذلك بالعنف المهين من يقتربون منها أكثر ممّا يجب، أي أنّها كانت أشبه بسحرٍ مضادّ ذي طابعٍ جنسي. وبما أنّنا تحت تأثير الحماية المذكّرة التي يقدّمها صولجانٌ رمزي، فلنذكر من بين الدفاعات عند المداخل الفسيفساءَ اليونانية الشهيرة في سوسة، وهي التي لطالما وُصفت بأنّها العين الشريرة، يحيط بها ويهاجمها ثعبانان وسمكة. وفق أندريه بيرنان[72] (André Bernand)

(69) مين: إله المسافرين في الصحراء ورمز الخصب والتناسل في مصر القديمة.

(70) نسبةً إلى هرمس (Hermès)، الإله الحامي لتقاطع الطرقات عند قدامى اليونانيين، وكانت تلك الركائز تحمل رأسه.

(71) بان: إله الرعاة والقطعان والغابات والحياة البرّية في مصر القديمة.

(72) أندريه برنان (1923 ـ 2012)، مؤرّخٌ فرنسيٌّ متخصّصٌ بالنقوش اليونانية في مصر.

في دراسته عن السحرة اليونانيين، كان ذلك يشبه بالأحرى قضيبًا مكشوفًا يقذف و«يقوم بعمل العين التي تأتي لتحارب العين الشريرة».

ولد هرمس (Hermès) من زيوس ومايا، وهو رسول الآلهة، وكانت له وظائف أكثر دنيويةً، وقد ساهم أيضًا في تحديد تخوم الحقول والدروب، إن لم يكن تخوم المحاريب، إلى درجة أنّه اعتُرف به بوصفه «سيّد أكوام الحجارة». تحكي الأسطورة بصدد هذه الـ«رُجَم» التي لا تزال موجودةً في الريف اليوناني، أنّها كانت في الأصل تتكوّن من حصًى رمتها الآلهة عند قدمي هرمس لتُفهمه أنّها تبرّئه من مقتل أرغوس[73] (Argos). وكي يتمكّن هرمس من التقدّم بمقدار أقلّ من العوائق، اضطرّ إلى إزاحة الحجارة جانبًا أثناء تنقّله على الدروب التي كان يسلكها. فضلًا عن الإجراء السحري الذي يسمح بتخفيف تعب المسافر عبر تحويل هذا التعب إلى الحجر الذي يلتقطه ويضعه بعنايةٍ أرضًا. وهكذا، ارتفعت أكوامٌ من الحجارة قرونًا بعد قرون، ثمّ انتظمت إلى درجة أنّه نُصبت على قمّتها حجرةٌ مستقيمةٌ أصبحت لاحقًا، وبفكرةٍ بشريةٍ جديدة، دعامةً تنتهي على شكل جذع رجلٍ نرى قضيبه في حالة القذف، وهو رمزٌ جليٌّ للخصوبة الحيوانية، وعلى نحوٍ أكثر عموميةً رمزٌ للازدهار. وعلى كل حال فإنّ هذه التمثيلات التي انفصلت ببطءٍ عن تحريم التصوير البدائي، تحمل في اليونان اسم الهرمسيات. إذًا، وكتحيةٍ إلى هذا «الحامي في السفر»، أصبحت الهرمسيات تسهر على الريف والطرقات، تمامًا مثلما تحمي المساكن والملاعب الرياضية. إنّ الطابع الشديد الأهمية والموغل في القِدَم لإله الحجارة هذا في بلد الحصى، يجعل أيضًا من هرمس إلهًا للعتبة، هذه الحجرة الرئيسية التي تفصل دائرة المنزل عن العالم الخارجي. وبوصف هرمس كذلك، حصل على اسم بروبيلايوس (Propylaios)، «الواقع أمام

(73) أرغوس: وفق الميثولوجيا الإغريقية، عملاقٌ ذو عيونٍ كثيرة تنتشر في رأسه وسائر جسده.

الباب»، أي البوّاب. ليس بوسعنا أن ننسى أبولو (Apollon)، وهو ابنٌ آخر لزيوس أنجبه من ليتو (Léto). على الرغم من الجمال الطاغي الذي يتمتّع به هذا الإله ومن «تكبّره المجنون»، فلتعلموا أنّ غرامياته كانت مخيبةً للآمال في كثيرٍ من الأحيان وبأنّه كان أكثر فاعلية، إلى حدٍّ ما كأخيه غير الشقيق هرمس، بوصفه حاميًا للمسافرين على الطرقات البرّية أو البحرية، لكن بخاصةٍ بوصفه حاميًا للحقول والقطعان والرعاة. لقد بقي حاضرًا بوصفه «إله الرعاة»، وهو الذي شاركهم مصيرهم في لحظةٍ من حياته. إنّه يقف أمام باب البيت، حيث يحمل لقب بروستاتيريوس (Prostatèrios)، على شكلٍ شديد الشيوع هو شكل أجيوس (Agyieus) الذي تصوّره المسلّة أو العمود ويحفظ هو أيضًا العتبة من أي تأثيرٍ ضارّ.

فلنتابع مع الآلهة الحارسة ونبقَ إلى جوار الجنسانية، إذ لدى إيروس[74] (Éros) هو أيضًا دورٌ ليلعبه في مراقبة المداخل والأبواب. أليس هو من يجعل الباب يتحرّك من تلقاء ذاته عندما تنفعل القلوب؟ كان لهذا الإله الشاب، وسيط الأهواء وأشياء أخرى، سليل أفروديت[75] (Aphrodite) أو ابنها، والذي يقال إنّه كان ينام على عتبة الأبواب ليس لحماية القاطنين بل لأنّه لم يكن لديه مكانٌ ينام فيه، مذبحٌ في أثينا قرب مدخل الأكاديمية[76] (Académie). هل يجب أن نعتقد أنّ أبناء أفروديت كانوا يمارسون البغاء في الأكاديمية قرب الباب؟ كثيرًا ما يشرَك إيروس مع بسيشيه[77] (Psyché)، وقال عنه أفلاطون في المأدبة

(74) إيروس: إله الحب والرغبة والجنس في الميثولوجيا اليونانية.

(75) أفروديت: إلهة الحب والجمال والشهوة في الميثولوجيا اليونانية.

(76) كان أفلاطون هو أول من فكر في تأسيس المعاهد الأكاديمية واتخذ مقرّ أكاديميته بالقرب من حديقةٍ بأثينا كانت تسمى حدائق أكاديموس.

(77) بسيشيه: أميرةٌ في الميثولوجيا اليونانية أغضب جمالُها إلهةَ الحب فينوس فحاولت الإيقاع بها عن طريق ابنها كيوبيد.

(*Le Banquet*) إنّه حائك الخدعة والعوز، وقد شيّأه التحليل النفسي. دائمًا ما يُذكر هذا الجنّيّ المتسكّع في قصصنا الشخصية، إن لم يكن بوصفه بوّابًا لقلوبنا، فعلى الأقل بوصفه وسيطًا بيننا وبين السماء التي نعتقد أنّنا نبلغها عندما يظهر.

كانت الميثولوجيا اليونانية قد تحدّثت عن «'باب' القرن»، ذاك الذي تخرج عبره الأحلام الصادقة، وعن «'باب' العاج»، إشارةً إلى ذاك الذي تمرّ به الأحلام الكاذبة. لقد منحتنا أيضًا ديدالوس[78] (Dédale) الذي يهمنا على نحوٍ مباشر، ذلك الرجل الذي ـوفق كلمات جاك لاكارير[79] (Jacques Lacarrière)ـ «يجد مخرجًا للمآزق كلّها». ترك لنا ديدالوس أيضًا المتاهة، أي المخرج المستحيل، التي لا تزال الحدائق المصمّمة على الطريقة الفرنسية تهتمّ بها، ليس لسَجن المينوتور[80]، بل لإضفاء شيءٍ من الإثارة على نزهاتنا.

لا يمكن أن ينضب دور الآلهة وتاريخ الأبواب المجتازة أو غير القابلة للاجتياز ما إن نصل الأولمب، لذلك سوف أنهي هذه النزهة الصغيرة في اليونان القديمة مع الحكاية التي لا تُنسى في الملحمة المنسوبة إلى إيبيوس[81] (Epéios)، وهي حكاية حصان طروادة التي يعلم الجميع أنّها مناورةٌ حربيةٌ قديمةٌ قِدَم العالم لكنّها تعيدنا هذه المرّة إلى البشر. تحكي الحكاية أنّه بعد أن استحال الاستيلاء على

(78) ديدالوس: اسم البنّاء الأسطوري لمتاهة كريت، واستُقيت منها كلمة ديدال التي تعني المتاهة.

(79) جاك لاكارير (1925 ـ 2005)، كاتبٌ فرنسيٌّ اشتُهر بكتبه عن الرحلات، ولاسيما إلى اليونان.

(80) المينوتور: مخلوقٌ من الميثولوجيا الإغريقية نصفه رجل ونصفه الآخر ثور، كان يفترس البشر ويأكل لحومهم ليسدّ جوعه، فاحتُجز في متاهةٍ عملاقةٍ ليركض بين ممراتها عاجزًا عن الخروج.

(81) إيبيوس: بطلٌ من الإلياذة، محاربٌ قويٌّ صنع حصان طروادة.

طروادة بالهجوم أو بالمجاعة أو بإبادة المدافعين البواسل عنها، تظاهر الآخيون[82] (Achéens) الموجودون في أرضٍ مكشوفةٍ برفع الحصار. لكنّهم قبل أن ينسحبوا إلى جزيرة تينيدوس (Ténédos)، تركوا على الشاطئ صنمًا هائلًا على شكل حصانٍ بناه إيبيوس ابن بانوبيوس (Panopéus)، بمثابة شكرٍ للآلهة. اختبأت نخبة المحاربين في باطن ذلك الحصان. أقنع خائنٌ أو ساذج، كما يقترح بول فور، الطرواديين بإدخال هذا النصب الورعي ذي العجلات إلى القلعة وبتقديمه للآلهة احتفاءً بالسلم المستعاد. سحبوه ودفعوه وجرّوه، وها هو الحصان داخل طروادة. لقد عبر العدو من دون أن يراه أحدٌ الأبوابَ التي لا يمكن اختراقها والخاصة بتلك المدينة التي كان يقال إنّها محصّنة جيدًا بمقدار تحصين أكروبولات[83] اليونان مجتمعةً. استغلّ الرجال الذين اخترقوا السور الليلَ ودفعوا بابًا داخل الخاصرة الجوفاء في الحصان الخشبي وانتشروا في المدينة النائمة. فتحوا الأبواب الموصدة الخاصّة بالقلعة للجنود الآخرين العائدين من تينيدوس. ذبحوا ونهبوا: وسقطت طروادة. في هذا الحدث العظيم، لن أتوقّف إلا عند طريقة الاختراق التي ليس فيها لسوء الحظ ما هو مبتكر، فاقتحام بابٍ بالحيلة قديمٌ قِدم الإنسان والآلهة التي اخترعها لنفسه.

ميلٌ أكيدٌ للأروقة

ظهرت أولى المنشآت البشرية في اليونان منذ الألفية الخامسة قبل الميلاد. وفي حدود الألفية الرابعة دخلت تلك المنطقة عصر البرونز،

---

(82) الآخيون: اسم الإغريق في العصر المسيني (1650 ـ 1110 ق. م.)، ويشير الاسم في ملاحم هوميروس إلى مجمل اليونانيين المتجمّعين أمام طروادة بقيادة الملكين مينيلاس وأغاممنون.

(83) الأكروبولات (acropoles) (مفردها أكروبول، أو أكروبوليس): مدنٌ يونانيةٌ قديمةٌ مرتفعة، تتضمّن تحصيناتٍ ومعابد.

الذي دام حتى الألفية الثانية. وبدءًا من العام 1580 قبل الميلاد، شهدنا تغيّرًا مفاجئًا ورأينا تطوّر حضارةٍ باهرةٍ تتمتع مدنها بتنظيم مكاني شديد التقدّم يذكّر بكبريات المدن في منطقة ما بين النهرين. نتحدّث آنذاك عن الحضارة الميسينية، وهي حضارةٌ تستعير اسمها ونوعها من أكروبول ميسين شمال شرق بيلوبونيز[84] (Péloponnèse) ودامت ثلاثة قرون، ثمّ اختفت فجأةً في أواخر القرن الثاني عشر. يطلِق علماء الآثار على الحقبة التي تبدأ فجرَ القرن الحادي عشر تسمية الحقبة «الهندسية»، وهي تسميةٌ مستقاةٌ من «الهندسة» الشهيرة الخاصة بمدرسة هيبوداموس من ميليتوس[85] (Hippodamos de Milet) التي كانت جزءًا من محيط بيريكلس[86] (Périclès)، المهندس المعماري الخاص ببيرايوس[87] (Pirée). إنها حقبةٌ تعدّ غامضةً لكن تطورت فيها التحوّلات التي ستمنح عالم الحواضر اليونانية شكله النهائي. وستحتاج روما إلى أكثر من قرنٍ لتستحوذ على العالم الهليني (الناتج عن غزوة الإسكندر التي تنتهي بإبادة كورنثة[88] Corinthe وإخضاع اليونان في العام 146 قبل الميلاد) وتُدخِله في إمبراطوريتها. بموجب منطق عدوى مهابة اليونان، سوف نشهد آنذاك في المقابل وبسرعةٍ، إضفاء الطابع الهليني على روما.

---

(84) بيلوبونيز: شبه جزيرةٍ يعني اسمها جزيرة بيلوبس (Pelops)، وهو إلهٌ متواضع الأهمية في الميثولوجيا الإغريقية.

(85) هيبوداموس (498 ـ 408 ق. م.)، مهندسٌ إغريقيٌّ أدخل النظام والتنظيم في تخطيط المدن، أسّس مدينة بيرايوس وأشرف على بناء مدينة رودوس الجديدة.

(86) بيريكلس (495 ـ 429 ق. م.)، أعظم رجال السياسة في اليونان. وصل إلى السلطة كرئيسٍ للحزب الشعبي في أثينا.

(87) بيرايوس: الميناء الرئيس في أثينا.

(88) كورنثة: إحدى أهمّ حواضر اليونان القديمة، تقع أسفل الأكروبول الخاصّ بها وكان فيها معبدٌ شهيرٌ لأفروديت.

في واقع الأمر، لا يبدو أنّ أيّ فنٍّ يمكن أن يعبّر على نحوٍ أفضل عن حضارة «الحاضرة» (Polis) أكثر من الفنّ المرتبط بتشكيل الفضاء الحضري في اليونان. يسمح تاريخ المعابد بأمرين معًا: إبراز ديمومة أماكن العبادة العائدة للعصر ماقبل الهليني، وملاحظة مقدار ربط تأسيس بعض المعابد بتطوّر الحاضرة. يتّفق علماء الآثار والمؤرّخون على القول بأنّ هذه المعابد لم تلعب دور مركز الأبنية الحضرية بالمقدار الذي لعبته كاتدرائية المدينة في العصور الوسطى. تقدّم الأطلال الحالية، حيث نجد أنّ المعابد هي في كثيرٍ من الأحيان المباني الوحيدة التي بقيت قائمة، صورةً غير دقيقةٍ عمّا كان عليه المعبد الحضري الذي لم يكن يسيطر على المشهد، بل كان مُغيّبًا في تشابكٍ من المباني والحارات، بحيث لا تُرى هذه المباني أبدًا عن بعد. غير أنّ الحال لم تكن كذلك في كلّ مكان، فقد تشكّلت عملية تخطيط المدن في أثينا وكورنثة حول معبد الإله الرئيسي.

سوف أركّز بصورةٍ خاصّةٍ على معبد أثينا أعلى الأكروبوليس. تقدّم «آغورا»[89] (agora) أثينا مثالًا حسنًا عمّا هو عليه «التيمينوس»: في البداية فضاءٌ واسعٌ تحدّد تخومه نصبٌ مكتوبةٌ تتحوّل شيئًا فشيئًا لتصبح مكانًا مغلقًا تحيط به أعمدةٌ مشغولة، ثمّ أروقة، بل أروقةٌ فخمةٌ نادرة. لئن كان التيمينوس يستطيع أن يؤوي عبادات مختلف الآلهة أو يخصّص لإلهٍ واحد، فإنّ الطابع المقدّس المعلن لهذا الفضاء يتضمّن محظوراتٍ قصوى، كولادة طفلٍ فيه أو ممارسة الجنس أو ـوهو الأسوأـ الموت فيه، وهي أمورٌ لا يمكن احتمالها في معبد! كلّ من هو مدنّسٌ لا يستطيع عبور حدود المعبد، وهذا يفسّر وجود أوانٍ مقدّسة في مدخل المعابد مملوءة بالماء، تسمح لكلّ شخصٍ بتطهير نفسه. في

(89) الآغورا: مكان التجمّع السياسي والتجاري، وهو جزءٌ لا يتجزّأ من مفهوم الحاضرة، كان يضمّ أيضًا مباني دينيةً ونُصبًا لتمجيد أبطال الوطن الأثيني.

المقابل، يصبح ما يقع خلف حواجز المعبد الرمزية أو الواقعية أرضًا لا يجوز انتهاكها، يصبح «ملاذًا»، أي أنّه ليس من حق أيٍّ كان التحكم بداخله وأنّنا نستطيع الالتجاء إليه. باستثناء أثينا وكورنثة، غالبًا ما توضع المعابد على حدود الأرض المزروعة في الحاضرة، على طرف الغابات والجبال، وتنصَب لتعيِّن في آنٍ معًا حدودًا ونقطة وصلٍ بين العالم المتمدّن والعالم المتوحّش الذي ينفتح بعدها ويبدو أشبه بتهديد. وحتى إن لم تكن اليونان القديمة عالم النقاء الذي يستدعيه بياض معابدها... (وهي معابد يجب أن نتذكّر أنّها كانت مطليّةً بالألوان الفاقعة)، فيجب ألّا ننسى أنّها كانت عالم عنفٍ وقسوة، وأنّها عاشت على نحوٍ شبه دائم في حالة حرب! في المقابل، اليونان هي أيضًا العالم الذي استحوذ البشر فيه لأوّل مرةٍ على مصيرهم، وأكّدوا -في مواجهة الآلهة وأولئك الذين أرادوا أن يكونوا ورثةً لها- المساواةَ بين البشر وحقّ أكثرهم وضاعة، شرط أن يكونوا أعضاء في الجماعة المدنية، وهذا لنقول مجددًا إنّ ما يصنع عظمة اليونان القديمة هو أنها اخترعت السياسة، أكثر ممّا يصنعها البارثينون[90] (Parthénon) أو الشعراء التراجيديون أو البلاغة الديموسثينية[91].

في حضارةٍ تتأنسن، تتعدّد المباني المخصّصة للجماعة وتشدّد على مشهدٍ مديني موجودٍ سابقًا، مثل رواق يومينس[92] (Eumène) في السفح الجنوبي لأكروبول أثينا الذي كان يكشف مدخل معبدي أسكليبيوس (Asclépios) وديونيسوس (Dionysos) ومبانٍ أخرى تعزّز هي أيضًا الإطار الفخم للمعبد. آغورا أثينا أكثر لفتًا للنظر بأروقتها

(90) البارثينون: معبدٌ إغريقيٌّ في مدينة أثينا بُني على جبل الأكروبوليس.

(91) نسبةً إلى ديموسثينيس (Démosthène)، وهو رجل دولةٍ إغريقيٌّ وخطيبٌ بارز.

(92) يومينس الكاردي، قائدٌ عسكري وعالمٌ يوناني.

الثلاثة الجديدة في الوسط والجنوب والشرق، ولاسيما بفخامة أروقتها. كان الرواقان الفخمان «برو» (pro)، أمام، و«بوليه» (pulé)، باب، أكثر من مجرّد بابين، بل كانا يشكّلان بهو معبدٍ أو قصرٍ، إلى درجة تحوّلهما مبنيين مستقلّين. وفضلًا عن ذلك، كانا يحاكيان مخطّط المعابد، إلى درجة أنّ الأمر انتهى بكلمة بروبيليه[93] (propylée) لأن تشير إلى مبنى مستقل.

الأروقة الفخمة في الأكروبوليس مبانٍ متأخّرة، مشتملةٌ في النظام الدوري (أبسط الأنظمة الثلاثة في العمارة اليونانية، يضاف إليها الإيوني والكورنثي)، وقد بُنيت بين العامين 437 و432 قبل الميلاد بناءً على مخططات منيسيكلس[94] (Mnésiclès) من المرمر المستخرج من جبل بينديلي (Pentélique) وهي تتكوّن من كتلةٍ مركزيةٍ وملحقين اثنين. يعبر الكتلةَ المركزية من الغرب إلى الشرق الدربُ الأجوف الذي كانت تسلكه المواكب ويقطعها في الاتجاه العرضي، من الشمال إلى الجنوب، جدارٌ يرتفع خمس درجاتٍ وتتخلّله خمسة أبوابٍ متناقصة العرض، من المركز وحتى الأطراف. أمام الجدار، إلى يمين الدرب الأجوف ويساره، يوجد بهوٌ إيونيٌّ مزدوجٌ بثلاثة أعمدة وأمامه رواقٌ دوريٌّ بستة أعمدة كان متوّجًا بقوصرةٍ ويشكّل الواجهة الغربية. على الطرف الآخر من الجدار، شرقًا، يوجد رواقٌ دوريٌّ آخر بستة أعمدة يواجه الجزء الداخلي من الأكروبول. كان مماثلًا للرواق الغربي، لكنّه أعلى بخمس درجاتٍ يستند إليها الجدار. يقع الملحقان إلى الغرب، يمين الدرب الأجوف ويساره. الملحق الجنوبي رواقٌ دوريٌّ صغيرٌ بثلاثة أعمدة يصله بابٌ بمنصّة معبد أثينا نيكيه (Athèna Nikè) المجرّدة من

(93) البروبيليه: مدخلٌ ضخمٌ معقد.

(94) منيسيكلس: معماريٌّ من القرن الخامس قبل الميلاد، العصر الذهبي لليونان القديمة.

جناحيها[95]. يتضمّن الملحق الشمالي رواقًا صغيرًا مشابهًا وقاعةً مستطيلةً كبيرة، «متحف اللوحات» (Pinacothèque)، ينفتح بابها ونوافذها على الرواق. عذرًا على هذا الوصف المطوّل لكنّ شعب أثينا كان يستخدم الأروقة الفخمة، وهي أبوابٌ معقّدة، أثناء المواكب العديدة التي كان يقوم بها أثناء السنة تبجيلًا لآلهته. وبالفعل، كان تقويم عبادات الحاضرة الأثينية مثقلًا وينعكس تعقيد الدين اليوناني، مثلما أظهرت لويز بروي[96] (Louise Bruit) وبولين شميت[97] (Pauline Schmitt) في دراستهما الرائعة[98]، انعكاسًا جيدًا في هذه النظم المعمارية، وهي نفسها معقّدة.

في البارثينون (Parthénon)، وهو معبدٌ منذورٌ لأثينا بارثينوس[99] (Athéna Parthénos) (بُني بين العامين 447 و433 ق. م.)، يمثّل للمرّة الأولى موضوعٌ غير ميثولوجي. يتعلّق الأمر بالإفريز المحيط بالجدار الخارجي، يبلغ طول هذا الجدار مئةً وستين مترًا ويبلغ ارتفاعه مترًا واحدًا، وهو يمثّل موكب «الباناتينيا»[100] (Panathénées)، أحد الأعياد الكبيرة مع الديونيسيا[101] (Dionysies). وهو إفريزٌ يقترح بطريقةٍ ما دليل الاستخدام الجماعي للأبواب والمعابر في أثينا في تلك الحقبة.

---

(95) أثينا نيكيه: إلهةٌ في الميثولوجيا الإغريقية، وهي إلهة النصر المجنحة، وتقول الأسطورة إنّ الأثينيين حرموا في القرن الثاني بعد الميلاد تمثال أثينا نيكيه من جناحيه كي لا تتمكّن من مغادرة المدينة أبدًا.

(96) لويز بروي زيدمان، أستاذةٌ جامعيةٌ فرنسية متخصّصة في التاريخ اليوناني.

(97) بولين شميت بانتيل، أستاذةٌ جامعيةٌ فرنسية.

(98) الدراسة بعنوان **الدين اليوناني** (*La religion grecque*).

(99) أثينا بارثينوس: اسم تمثالٍ هائل الحجم للإلهة اليونانية أثينا مصنوعٍ من الذهب والعاج، صنعه النحات اليوناني فيدياس (Phidias).

(100) باناتينيا: عيدٌ دينيٌّ واجتماعيٌّ سنويٌّ في أثينا، كان يقام على شرف الإلهة أثينا.

(101) ديونيسيا: احتفالٌ كان يقام لتكريم الإله ديونيسوس.

أمّا فخامة الباناتينيا، فهي تُظهر أنّ الموكب كان يتبع مسارًا متشابهًا على الدوام. كان يمرّ بأهم النقاط في الحاضرة، منتشرًا من بابي الديبيلون[102] (Dipylon) وعابرًا السيراميك (Céramique) (المقبرة) والآغورا ثم يصل إلى الأكروبول عبر البروبيليه، ويسير بعد ذلك على طول البارثينون ليصل إلى الطرف الشرقي من المعبد أمام مذبح أثينا الكبير. يقدّم الإفريز المنحوت الموجود أعلى الجدار الداخلي للبارثينون توضيحاتٍ عبر توصيف بعض المراحل المتوالية لذلك الموكب. فهو يُظهر أنّ الاحتفال كان يجمع المواطنين من الأعمار والفئات كافة، وبأنّ هدفه يتجاوز تقديم «الشملة» (peplos) الجديدة المنسوجة إلى الوالي الملك ليزيّن بها تمثال الإلهة أثينا الخشبي، فقد كان هذا الهدف يتمثّل قبل كلّ شيءٍ في تسجيل الممارسة الشعائرية في الحاضرة، باستخدام أبوابٍ ومعابر شعائريةٍ للقيام بإعادة استحواذٍ رمزية على فضاء الحاضرة. كما أنّه كان أيضًا وسيلةً لعرض صورة الوحدة والقوّة التي كانت الحاضرة الأثينية الكلاسيكية تريد تقديمها عن نفسها في عيون الجميع، بما في ذلك الحواضر الحليفة، وعبرها مجمل العالم اليوناني. لا أستطيع التخلّي عن متعة أن أقول مجدّدًا هنا إنّ «الرواق» يشير بصورةٍ خاصّةٍ إلى فلسفة الرواقيين الذين أُطلقت عليهم هذه التسمية منذ العصور القديمة، لأنّ زينون[103] (Zénon) كان يدرّس في ظل رواقٍ في أثينا.

أثينا وجدرانها

هاكم تأريخ سريع (وإنْ بدا طويلًا إلى حَدّ ما!) لكنه أساسيٌّ لفهم إلى أي درجة يبدو تاريخ وجود الأبواب ـالتي هي دائمًا الأقسام

(102) ديبيلون: بابٌ مزدوجٌ كان يحمي مدخل أثينا الشمالي الغربي، وهو نقطة عبورٍ لمقبرة سيراميك وما وراءها ومنه كان ينطلق موكب الباناتينيا.

(103) زينون الرواقي (334 ـ 262 ق. م.)، فيلسوفٌ من أصلٍ فينيقي، أسّس في العام 301 قبل الميلاد المدرسة الرواقية.

الضعيفة في سور!ـ ثانويًا عندما تحمي مدينةٌ نفسها وتوصد عليها أبوابها، وكيف أمكن أن يغفل المؤرخون عن مظهر الفتحات، الواقعي بمقدار ما هو رمزي، إذ تشبثوا لزمنٍ طويلٍ بفكرة أنّ الإنجاز يعود قبل كلّ شيءٍ إلى إغلاق الحاضرة والدفاع عنها أكثر ممّا يعود إلى فتحها. إنّ العيش في مدينةٍ ضمن إطار حُبّها الأجانبَ وانشغالها بانفتاحها على الآخر، ربّما يقتضي إعادة قراءةٍ كاملةً لتاريخ المجتمعات الغربية، ويرغمنا بالفعل على أن نمنح مساحةً أكبر للحياة اليومية الخاصّة بأولئك الآلاف من الرجال والنساء والأطفال، المواطنين والمحاربين والعبيد والمستأمنين[104] الآخرين (بالمعنى الإغريقي للكلمة) الذين قاموا طيلة أكثر من ألفين وخمسمئة سنة ببناء وتخطيط وهدم وإعادة بناء تلك الأعمال الرائعة التي لم نعد اليوم نستطيع أن نتأمّل إلا بقاياها هنا وهناك، والتي يجب ألا ننسى البراعة والجهود الجبّارة التي وجب بذلها لتحقيقها. سوف أتناول تاريخ أثينا التي نستقي منها مثالنا عن الحاضرة، على الرغم من أنّه دُرس بإفراط.

في وقتٍ مبكر جدًّا، دُعي الأكروبول «حاضرة» (polis)، ودُعيت المدينة الواطئة «مدينة» (astris)، وكانت تشتمل الآغورا وبقيّة التجمّع. إن معرفتنا ضحلةٌ بالمدى الذي كان بوسع هذه المدينة أن تتّخذه وبشكل مساكنها، وذلك لأنّ الأطلال قليلة العدد بحيث لا نستطيع تشكيل فكرةٍ دقيقةٍ عنها. نحن نعلم أنّ دفن الموتى كان يتمّ دائمًا على طول الدروب القديمة في أماكن مخصصةٍ لذلك منذ أمدٍ بعيد، ونعلم أيضًا أنّ برنامجًا عظيمًا لتخطيط المدن طُبّق في عصر سولون[105]

(104) المستأمن: الأجنبي المقيم في غير بلده.

(105) سولون (حوالى 640 ـ 560 ق. م.)، شاعرٌ ورجل قانونٍ أثيني، سنّ مجموعةً من القوانين الإصلاحية التي تعارضت مع نظام الدولة السائد آنذاك. وهو يُعدّ الممهّد لقيام ما سُمي لاحقًا بالنظام الأثيني الديموقراطي.

(Solon) (594 ق. م.)، وواصله بيسيسترات[106] (Pisistrate) وخلفاؤه (561 ـ 510 ق. م.). أمّا الأكروبول، فقد توقّف استخدامه كقلعةٍ في وقتٍ باكرٍ نسبيًّا وبُني فيه أوّل المعابد الضخمة. ولضمان أمن المدينة، بُني آنذاك سورٌ جديدٌ لم يبق منه شيءٌ لكنّنا نستطيع أن نقدّر بأنّ الجدار كان يحيط بمساحةٍ قدرها خمسمئة ألف مترٍ مربعٍ تقريبًا. كانت الآغـورا مركز المدينة السياسي، وفـي أواخـر القرن السادس قبل الميلاد، اتّخذت شكلًا محددًا. منذ مطلع ذلك القرن، سهّل منعُ دفن الموتى داخل أسوار الحاضرة إقامةَ مدافن على جانبي الدروب المنطلقة من أثينا، محدّدةً بذلك التخوم القديمة للمدينة. وفي أواخر ذلك القرن، يُعترف عمومًا بحدوث نشاطٍ فكريٍّ وفنيٍّ وتجاريٍّ وعقاريٍّ عظيم.

صدّ الأثينيون هجوم الفُرس في المرّة الأولى، لكنّهم لم يتمكّنوا بعد أن تهدّمت الأسوار من الدفاع عن أنفسهم أثناء الهجوم الجديد الذي شنّه الفرس في العام 480. علاوةً على عمليات النهب التي قام بها هؤلاء، حرصوا بصورةٍ رئيسية على تدمير الأسوار، وهذا يفسّر تحوّل أثينا لوقتٍ معيّنٍ إلى مدينةٍ مجرّدةٍ من التحصينات. بعد معركة بلاتيا[107] (Platées) في العام 479 ورحيل الفرس النهائي، تمثّل همّ الأثينيين الأول بطبيعة الحال في بناء سورٍ جديدٍ بأسرع وقتٍ ممكن. استخدموا الحجارة والعناصر المعمارية العائدة للمباني المدمّرة، من قبيل مدفّات[108] أعمدة معبد زيوس الأولمبي القديم والمسلّات الجنائزية. هذا البناء منسوبٌ

(106) بيسيسترات (حوالى العام 600 ـ 527 ق. م.)، طاغيةٌ أثيني استولى على السلطة بالحيلة باحتلال الأكروبول وكان أول طاغيةٍ لأثينا.

(107) معركة بلاتيا: معركةٌ حاسمة دارت بين المدن اليونانية والإمبراطورية الفارسية عند مشارف مدينة بلاتيا، وانتهت بانتصار الإغريق على الفرس.

(108) جمع مدفة، وهي قاعدةٌ أسطوانية الشكل لساق عمود.

إلى ثيميستوكلس[109] (Thémistocle) الذي كان يستشعر خطرًا جديدًا من اللاكيديمونيين[110] (Lacédémoniens)، وقد سمحت هذه المبادرة بتحصين المدينة في غضون سنةٍ واحدة، كما حُصّنت بيرايوس. أنجز كيمون[111] (Cimon) تحصين المدينتين أخيرًا واستكمله بيريكلس في العام 445، وهو الذي أنجز بناء «الأسوار الطويلة»[112]: سور الشمال وسور الجنوب وكذلك سور فاليرون[113] (Phalère)، وكانت هذه الأسوار تؤمّن تواصلًا آمنًا بين المدينة والموانئ. تمثّل خيار بيريكلس في تحويل أثينا إلى جزيرةٍ مغلقةٍ بالكامل. اتّخذ هذا الخيار العسكري بعدًا سياسيًّا واجتماعيًّا من حيث إنّه اقتضى تغييرًا للعلاقة بين الريف والمدينة لمصلحة الحاضرة الديموقراطية. كانت هذه التحصينات تضمّ أرضًا مساحتها خمسة عشر مليون مترٍ مربع، وهي مساحةٌ هائلةٌ كانت تسمح بالفعل باستقبال سكّان الريف وبتخزين الموادّ التموينية في حال حدوث حرب. كان هذا التوطين للاجئي الأرياف المحيطة المكدّسين داخل السور مؤقتًا وهشًّا في البداية، ثمّ أصبح أكثر ديمومةً مع استدامة الحرب. لكنّ ذلك أدّى أيضًا إلى انقسامٍ حقيقي بين عالم المدينة وعالم الريف، بين «أهل المدن» و«أهل الريف». يقال إنّ أبواب أثينا الثلاثة عشر كانت تفتح على الجهات الأساسية كلّها، لكنّ ثلاثةً منها

---

(109) ثيميستوكلس (حوالى العام 524 ـ 459 ق. م.)، رجل دولةٍ ومخطّطٌ استراتيجيٌّ أثيني. لعب دورًا حاسمًا في الانتصار اليوناني في الحرب الميدية الثانية.

(110) اللاكيديمونيون: سكان لاكيديمون (لاكونيا حاليًّا)، اسم أسبرطة القديم.

(111) كيمون (510 ـ 450 ق. م.)، رجل دولةٍ ومخطّطٌ استراتيجيٌّ أثيني. كان ينحدر من إحدى أبرز العائلات الأرستقراطية.

(112) الأسوار الطويلة: سورٌ مزدوجٌ محصّنٌ بُني بين العامين 461 و556 قبل الميلاد لضمان التواصل بين أثينا وميناءها بيريا.

(113) فاليرون: أحد الموانئ الثلاثة لمدينة أثينا القديمة.

فقط لا تزال مرئية: «الباب المقدّس»، و«الديبيلون» و«باب الخيالة»، في حين بقي اليوم من خرائب جدار ثيميستوكلس بضعة آثارٍ في أماكن شتّى.

في العام 403، بعد نهاية حرب البيلوبونيز، دمّر اللاكيديمونيون الأسوار، وأعاد كونون[114] (Conon) بناءها في العام 394، باستثناء السور الذي كان يصل أثينا بميناء فاليرون عبر الباب الجنوبي بسبب تراجع أهمية الميناء القديم في الملاحة البحرية. بُعيد استيلاء فيليب[115] (Philippe) على أولينثوس (Olynthe) في العام 348، وخشية تصاعد قوّة المقدونيين، سارع الأثينيون إلى إصلاح سور المدينة، وأعادوا في نقاطٍ عديدةٍ بناء السور بالكامل بحيث أصبح في بعض الأماكن بسماكة خمسة أمتار، غير أنّ قرار القيام بأشغالٍ كبيرةٍ اتُّخذ بعد معركة خيرونيا[116] (Chéronée) في العام 338. بُني حول السور في الجزء الأخفض من المدينة وعلى مسافة عشرة أمتار من السور الرئيس سورٌ آخر حُفر أمامه خندقٌ يقارب عرضه أحد عشر مترًا ويتراوح عمقه بين أربعة وخمسة أمتار. كما بُني سورٌ آخر على المرتفعات يدعى دياتيخيسما (Diateichisma)، ما قلّص مساحة المدينة إلى حدٍّ كبيرٍ نسبيًا. وعلى الرغم من كلّ العناية التي بذلها السكّان لتحصين مدينتهم، فقد استولى المقدونيون على أثينا في العام 294. دام الاحتلال حتى نهاية القرن تقريبًا. وبعد رحيل هؤلاء الغزاة، اهتمّ الأثينيون بإعادة تنظيم الحاضرة وتحديثها.

---

(114) كونون (ولد قبل العام 444 ق. م. وتوفي بعد العام 394 ق. م.)، جنرالٌ أثيني قاد القوات البحرية الأثينية وساهم مساهمةً فعّالةً في استعادة السلطة السياسية والعسكرية لأثينا.

(115) المقصود هنا هو فيليب الثاني المقدوني.

(116) معركة خيرونيا: انتصر فيها فيليب الثاني المقدوني على تحالفٍ للحواضر اليونانية بقيادة أثينا.

كان لوجود فاتحين رومان في اليونان عواقب ضارّةٌ على أثينا، ففي العام 86[117]، دمّر سيلا[118] (Sylla) أسوار تلك المدينة وأسوار بيريا رغبةً منه في إهانة الأثينيين الذين تمرّدوا وفي منع حدوث تمرّدٍ جديد. لم يُعَد أبدًا بناء الأسوار الطويلة وسور بيريا. بقيت أثينا طيلة ثلاثمئة وأربعين سنةً من دون أيّ تحصين، غير أنّ ذلك لم يمنعها من أن تتطوّر، بل ربّما سمح لها بذلك. كانت أثينا في أنظار العالم الغربي الحاضرة الرئيسة للدين القديم، فقد كانت تحتفي بالأعياد والطقوس الدينية بفخامةٍ استثنائية. إنّ النهب المنهجي الذي كان الرومان يقومون به للتماثيل والتحف الفنية الأخرى المعروضة في روما زاد في واقع الأمر من سمعتها، إذ كانت تلك التحف والتماثيل تحيي الرغبة في معرفة المدينة التي أمكن أن يبلغ فيها الفنّ هذه الدرجة من الكمال.

يشار إلى أنّ بناء باب هادريان[119] (Hadrien) الذي أقامه الأثينيون على شرف الإمبراطور في العام 131 ـ 132 بعد الميلاد، وهو قوس نصرٍ كان يفصل مدينة ثيسيوس[120] (Thésée) القديمة عن الجديدة التي كانت تتّسع باتجاه الشرق بأمرٍ من هادريان، قد أصبح اليوم مدخل المدينة الرمزي. يحمل القوس المرمري في أعلاه نقشين: أحدهما من طرف الأكروبول والمدينة القديمة (أي الواجهة الغربية) ويقول: «هنا أثينا، مدينة ثيسيوس القديمة»، والآخر في مواجهة المعبد (أي في

---

(117) قبل الميلاد.

(118) سيلا (138 ـ 78 ق. م.)، رجل دولةٍ روماني قام بعملٍ دستوريٍّ واسع النطاق.

(119) هادريان (76 ـ 138)، إمبراطورٌ روماني تخلّى عن سياسة سلفه التوسّعية واهتم بنشر السلم وتحسين الإدارة في الإمبراطورية، معزّزًا في الوقت عينه حدودها.

(120) ثيسيوس بطلٌ أسطوريٌّ قديم، يعدّه الأثينيون مصلحهم الكبير. والمقصود هنا مدينة أثينا نفسها.

الطرف الشرقي) وهو أيضًا الطرف الذي وسّعها فيه هادريان، ويقول: «هنا مدينة هادريان ولم تعد مدينة ثيسيوس».

بسبب خطر اقتحام القوط[121] (Goths) والهيروليين[122] (Hérules) الذين كانوا يجتاحون آنذاك المدن اليونانية، اضطرّ الإمبراطور فاليريان[123] (Valérien) (253 ـ 260 بعد الميلاد) للاهتمام بتحصين مدنٍ عديدةٍ كانت تهدّمت أسوارها، مثل أثينا. لم تتضمّن الأشغال التي قام بها إعادة بناء السور القديم فحسب، بل كذلك تشييد سورٍ جديدٍ أحاط للمرّة الأولى بالمدينة الرومانية. رُمّمت تحصينات الأكروبول وبُني أمام البروبيليه حصنٌ بالغ القوّة كان باب بوليه[124] (Beulé) جزءًا منه. هُدمت المعابد والمحاريب والمباني العامّة وأبنيةٌ أخرى في القطاع الواقع جنوب الأكروبول هدمًا منهجيًّا واستُخدمت شتّى عناصرها موادّ لبناء السور، وهي تحصيناتٌ لم تصمد أمام هجمات الهيروليين في العام 267 للميلاد. عجز الأثينيون عن إصلاح الأضرار. وفي الربع الأخير من القرن الثالث، بنوا سورًا جديدًا أكثر بعدًا من جهة الشمال، كان مختزلًا نسبيًّا. ويسمح عدد المباني التي بُنيت في أواخر القرن الرابع ومطلع القرن الخامس بالاعتقاد أنّ المدينة توسّعت وأصبحت مجدّدًا محوطةً بالسور الكبير الخارجي. من أجل إعادة صنع أسوار الحاضرة، وجب انتظار

(121) القوط: قبائل جرمانيةٌ شرقية، كان لها تأثيرٌ كبيرٌ في تاريخ أوروبا السياسي والثقافي والديني.

(122) الهيروليون: شعبٌ جرمانيٌّ بدوي، تم على أيديهم قتل إمبراطور روما وكانت تلك النهاية الرسمية للإمبراطورية الرومانية الغربية.

(123) فاليريان، إمبراطورٌ روماني.

(124) باب بوليه: بابٌ محصّنٌ بناه الرومان يفضي إلى البروبيليه وإلى مجمل أكروبول أثينا.

جوستينيان[125] (Justinien) (527 ـ 565)، حيث أصبحت أثينا مدينةً ريفيةً مسيحيةً ضمن الإمبراطورية البيزنطية، بأسوارها الجديدة، ونجحت في البقاء قيد الوجود بعد مجيء السلافيين الذين كانوا يُحْدثون دمارًا مخيفًا في مدن اليونان.

شهدت أثينا مجدّدًا نوعًا من الازدهار في القرن التاسع. حول الأكروبول، الذي أصبح يدعى «كاسترو» (Kastro)، أي قلعة، بُني في القرن الحادي عشر «الريزوكاسترو» (Rhizokastro) الذي كان يشمل مساحةً قدرها مئة ألف مترٍ مربّع. لكن حتى نهاية القرن، دمّرته اجتياحاتٌ رهيبة قام بها الساراكينوس[126] (Sarrazins) وغزاةٌ آخرون وأُخلي من سكّانه. بين العامين 1182 و1204، حيث يبدو أنّ تدمير المدينة وصل ذروته مع هجمات سيّد نوبلي[127] (Nauplie)، احتلّها ليون سغوروس[128] (Léon Sgouros) ثم الفرنجة[129] (Francs) لمدّةٍ طويلة. نحو منتصف القرن الثالث عشر، غُطّي المدخل الرئيس للأكروبول، المسمى باب بوليه، بجدارٍ بالغ السماكة واستُخدم الباب الآخر الواقع تحت معبد أثينا نيكيه كمدخل. كما بُني في الجناح اليميني للبروبيليه برج

(125) جوستينيان (483 ـ 565)، من أهمّ الشخصيات في العصور القديمة المتأخرة، ترك أثرًا عظيمًا على صعيد النظام التشريعي وتوسيع حدود الإمبراطورية والسياسة الدينية، حكم منذ 527.

(126) الساراكينوس: مصطلحٌ كان يُطلق في أوروبا على أتباع الديانة الإسلامية في العصور الوسطى.

(127) نوبلي: مدينةٌ يونانيةٌ احتلّها الفرنجة والفينيسيون والأتراك الذين تركوا فيها بصماتهم، وكانت العاصمة الثانية للدولة اليونانية الحرة (1828 ـ 1834).

(128) ليون سغوروس، سيّد نوبلي وأرغوليد في مطلع القرن الثالث عشر.

(129) الفرنجة: شعبٌ جرمانيٌّ على شكل تحالف قبائل، خصوصًا في لحظة الغزوات الكبرى. لعب جزءٌ منهم دورًا مركزيًا في تاريخ فرنسا وهولندا وبلجيكا ولوكسمبورغ وألمانيا بدءًا من توطّنهم في بلاد الغال الرومانية.

مراقبةٍ مرتفع. لم يجلب مرور الفينيسيين[130] السريع (1395 ـ 1403) كثيرًا من الأمور. في المقابل، سمح الأتراك الذين استقرّوا كأصدقاء وحلفاء في العام 1456 للمدينة بأن تتطوّر خارج سور القرن الثالث.

آنذاك، كانت المدينة محوطةً بأسوارٍ قليلة، ولم يعد الريزوكاسترو موجودًا، لكنّ جدران الإغلاق والبيوت كانت تشكّل مجتمعةً نوعًا من السور وحُصّن الجزء المتبقّي من الجدران واتّخذ اسم «سيربنتزيس» (Serpentzès). في حدود منتصف القرن السابع عشر، كان مدى المدينة أكبر بستة أضعاف من مثيله في العصر السابق. وتوقّف تطور المدينة مجدّدًا بفعل هجوم الفينيسيين: نزلوا إلى اليابسة في بيريا يوم 21 أيلول/ سبتمبر 1687 وأرغموا الحامية على الاستسلام بعد حصارٍ محكمٍ وقصفٍ طويلٍ للأكروبول (أدّى إلى نسف البارثينون). أرغم الأتراكُ الفينيسيين على التخلي عن المدينة بعد ستة أشهر، وحصّنوا القلعة وبنوا سور هيبابانتي (Hypapanti) لضمان الدفاع عن الأكروبول والسماح بتواصله مع المدينة. يوم 25 نيسان/أبريل 1821، تمرّد الأثينيون، وأعلنوا بمساعدة فلاحي أتيكا، سيادتهم على المدينة لمدّة أربع سنواتٍ إلى أن استعاد كيوتاخيس[131] (Kioutachis) الرهيب السيطرة عليها في أيّار/ مايو 1827، بعد حصارٍ قاسٍ لأثينا وهدمها هدمًا شبه كامل. بدأت عودة الأثينيين إلى وطنهم بعد التوقيع في لندن بتاريخ 2 شباط/ فبراير 1830 على بروتوكولٍ يعترف باليونان دولةً مستقلةً مع أنّ المدينة لم تستعد حرّيتها بالكامل إلّا مع رحيل آخر حاميةٍ تركيةٍ من الأكروبول في 31 آذار/ مارس 1833.

(130) الفينيسيون: نسبةً إلى مدينة فينيسيا (البندقية).

(131) كيوتاخيس أو محمد رشيد خوجة باشا (1789 ـ 1839)، كان جنرالًا وصدرًا أعظم عثمانيًّا. لعب دورًا كبير الأهمية أثناء حرب الاستقلال اليونانية وأحرز انتصاراتٍ عديدةً على المتمرّدين وسمح باستعادة العثمانيين اليونان القارّية.

منذ سنوات الاستقلال الأولى، نوقشت في اليونان بأكملها مسألة اختيار المدينة التي ستصبح عاصمةً للدولة الجديدة. حدث الاختيار بتاريخ 29 حزيران/ يونيو 1833، وترافق مع تبنّي خطةٍ جديدةٍ لتنظيم المدن، ما طرح مشكلاتٍ داخليةً جديدة، لكنّها لم تكن تخص إلّا اليونانيين أنفسهم. أتت الحرب العالمية الثانية، مع الهجوم الإيطالي بتاريخ 28 تشرين الأول/ أكتوبر 1940 والغزو الألماني بتاريخ 6 نيسان/ أبريل 1941 المكرّس لمحو الهزيمة الإيطالية ثمّ احتلال الألمان والإيطاليين والبلغاريين البلاد، أتت لتوقف كلّ تطوّرٍ للمدينة حتى تحريرها بتاريخ 12 تشرين الأول/ أكتوبر 1944. ثمّ اندلعت الحرب الأهلية الرهيبة التي دامت حتى العام 1949 وخلّفت أضرارًا كبيرةً في اليونان وأثينا حتى إعادة إعمار البلد وعاصمته والتي لم تبدأ بصورةٍ مكثّفة إلّا في العام 1953.

في هذه المدينة التي تعدّ ثلاثة ملايين وثمانمئة ألف نسمة حاليًّا، وحده باب هادريان بقي بقاءً رمزيًّا. لكن مثلما يذكر **الدليل الأخضر**[132] (*Guide Vert*) بكلّ بساطة، «الصرح محفوظٌ بصورةٍ رائعة، وإن كانت بضع دقائق تكفي لتأمّله، فهو من أكثر الأماكن جاذبيةً في أثينا». ما فاجأني عندما رأيت باب هادريان هو المكان الذي ينبغي اكتشافه منه، فقد أحاط به قلب المدينة، على بعد بضعة سنتيمتراتٍ بالكاد من أحد أكبر الطرق الرئيسية، وهو غير محميٍّ على الإطلاق كما أنّه لا وجود لأيّ حاجزٍ أو محيطٍ خاصٍّ يُبرزه. يقولون إنّ الأثينيين قد حرصوا على إدماجه بالكامل في بقية المدينة كما لو أنّ الأمر يتعلّق بمبنى ليس فيه ما هو مميّزٌ وليس بصرحٍ قديم، لشدة التقلبات التي عرفها التاريخ الحضري الخاص بأثينا وأبوابها منذ انتصارها الفريد ورمزيتها المطلقة للديموقراطية عندما كانت لا تزال بوّابة العالم.

---

(132) الدليل الأخضر: مجموعةٌ من الأدلّة السياحية أسّستها شركة ميشلان في العام 1926 وتركّز على اكتشاف التراث الطبيعي والثقافي.

احتفالات النصر الرومانية[133]

لا يمثّل النصر بالتأكيد إنجازًا للرومان وحدهم وإن كنا نربطه على نحوٍ شبه آلي، بل أقول «معماريّ»، بروما. ونحن غير مخطئين تمامًا، لأنّنا سنجد في روما «أقواس النصر» الحقيقية الأولى، ومن الرومان استقينا «موكب احتفال النصر»، تلك العادة الموروثة من الشرق ومن اليونان لكنها اتّسمت بطابعٍ رومانيٍّ إلى حدٍّ كبير. تتمثّل هذه العادة في جعل المحاربين المنتصرين وقائدهم يمرّون لدى عودتهم من حملتهم من بابٍ سحري يُهيّأ ويُزيّن لهذه الغاية. وهو مرورٌ كان يهدف إلى إحياء ذكرى حدثٍ مهم، كما يهدف في الوقت عينه، بموجب الدين الروماني القديم، إلى تطهير الرجال وتخليصهم من الطاقات المدمّرة التي يحملونها داخلهم ويمكن أن تكون خطرةً على مواطنيهم. يسهل فهم أن توضع تلك الأبواب إمّا في مداخل المدن، أو في مدخل الميدان في روما. يُقال عادةً إنّ أيّ احتفالٍ بالنصر لا يأتي وحده، وبالفعل ـ وإن كنت أحرّف المَثَل قليلًا ـ يغيّر المرء نطاقه مع احتفال النصر، وعلى كلّ حالٍ نغادر النطاق البشري لنتلاقى بنطاق الآلهة، فضلًا عن أنّه مرتبطٌ بنطاق المدينة وشوارعها وسكانها. يلاحظ المؤرخ بريس غروييه[134] (Brice Gruet) أنّ احتفال النصر، مثلما كان يفهمه الرومان، «يستجيب لتكوينٍ اجتماعيٍّ دائم، وهو بالتالي مطواعٌ وقابلٌ لإجراء تعديلاتٍ في المظهر، بل في المحتوى». بالنسبة إلى جمهوريةٍ أو إمبراطوريةٍ، أو ببساطةٍ أكثر بالنسبة إلى مدينة، لا يعني وجود جنرالٍ منتصرٍ الافتخارَ بمقدار ما يعني القدرة على ضمان نوعٍ من التكريم الذاتي لأولئك الذين أنجبوه، والذين لولاهم لما كان شيئًا! يظهِر غروييه، وهو

---

(133) نسبةً إلى مدينة روما وليس إلى رومانيا.

(134) بريس غروييه، أستاذٌ جامعيٌّ فرنسي يهتمّ بالجغرافيا الثقافية والتاريخية للعالم المتوسطي، ولاسيما إيطاليا.

اختصاصيٌّ في الشارع الروماني، بوضوحٍ شديدٍ أنّ «الاحتفال بالنصر ليس مجرّد علامةٍ على الانتصار: إنّه البرهان الحيّ والملموس على اتحاد مجموعةٍ من البشر مع نفسها والشخصية التي كان لها الفضل في البهجة الشعبية».

قبل العودة إلى مجريات هذه «المواكب الظافرة»، اختُرع منذ أوائل العصر الروماني القديم قوس النصر وإن لم يكن بعدُ قد سُمّي على هذا النحو. أُطلقت على تلك الأقواس الأولى المبنية تسمية «فورنيكس» (fornix)، وهي التسمية التي أُطلقت على القوس أو القنطرة التي تشكّل أحد مداخل ميدان بومبي[135] (Pompéi). بدءًا من القرن الثاني قبل الميلاد، بدأت تلك الفورنيكسات، أي الأقواس الصغيرة الحجم المجرّدة من الأعمدة، تتحوّل إلى صروحٍ بأعمدة. لن يتطوّر مصير تلك القناطر أو بالأحرى مصير اسمها اللاتيني إلى لفظ احتفالٍ بالنصر، على الرغم من أنّها كانت بكلّ تأكيدٍ شديدة الارتباط باحتفالات النصر. تطوّرت تقنية الفورنيكسات في المدينة حيث ستُستخدم الأقواس كدعاماتٍ بين المنازل المتقاربة وفي الوقت عينه كملاذاتٍ لمشّاءات[136] روما إلى درجة أنّه للإشارة إلى النساء اللواتي كنّ يختبئن في الممرّات التي كانت تلك القناطر تعلوها، استُخدمت لفظة (fornicatrix)[137]، وأُطلقت تسمية (fornix lupanar) على دُور البغاء. وقد طبّق الرومان مصطلح فورنيكس على كافّة الأبنية المشيّدة على شكل قنطرةٍ أو قوسٍ حتى نهاية الجمهورية. كثيرًا ما يُقدَّم مثال

(135) بومبي: مدينةٌ في الإمبراطورية الرومانية تقع في منطقة كامبانيا (Campania)، تأسّست في القرن السادس ق. م. ودمّرها بركان فيزوف (Vésuve) في العام 79.

(136) نسبةً إلى المشّائين من أتباع أرسطو الذي كان يعلّم وهو يتمشّى.

(137) زانية.

«قوس آل فابيا»[138]، واسمه الشائع (fornix fabianus)، وهو ـ كشتّى الأبواب العامة في الميدان ـ ممرٌّ مغطّى له قوسٌ واحدٌ مزوّدٌ بالتماثيل والمنحوتات القليلة البروز التي تصوّر دروعًا وغنائم من الأسلحة، وكذلك نقوشًا تمجيدية هي «تقريظات» (Elogia) آل فابيا. ينبغي انتظار تأسيس الإمبراطورية حتى تطيح «أقـواس النصر» (arcus triomphales) بالفورنيكسات عن عرشها. ظهرت هذه الأقواس على شكل بنيةٍ معماريةٍ بسيطةٍ نسبيًّا، مكوّنةٍ من عمودين ضخمين يرتبطان بقنطرةٍ نصف دائرية تستطيع أن تحمل طبقةً سطحية، أي جزءًا علويًّا ذا قاعدةٍ مستطيلة كبيرةٍ نسبيًّا يمكن أن توضع عليها تماثيل. فضلًا عن ذلك، يتضمّن القوس أعمدةً تستند إلى الأعمدة الضخمة وتحمل تكنةً[139] تمرّ فوق الفتحة.

إذًا، اغتنى الفن الروماني في ظلّ الإمبراطورية بأقواس نصرٍ بُنيت من جانبٍ بأكثر الموادّ ترفًا: المرمر بدلًا من الخفّان البركاني أو الحجر الجيري (وهو صخرٌ كلسيٌّ وضيعٌ إلى حدٍّ ما)، مع مزيدٍ من القناطر أيضًا، حيث تكون الأقـواس في غالبيتها العظمى على شكل ترابيلات[140] (tétrapyles) بثلاث فتحات. كما وُجدت منشآتٌ أكبر حجمًا لها أربعة أقواسٍ وفتحةٌ واحدة، يرتبط بعضها ببعضٍ عموديًّا بحيث تشكّل مربّعًا يدعى بالقوس الرباعي الجبهات. في روما، وأيًّا كان شكلها، كانت تسميتها الشائعة يانوس (janus)، تيمّنًا باسم الإله ذي الوجه المزدوج، الإله الروماني الخاص بالمعابر والأبواب. فلنذكر هنا أمرًا سأعود إليه لاحقًا، وهو أنّ المعابر ذات الفتحتين

(138) فابيا: عائلةٌ بارزةٌ في روما القديمة كان أعضاؤها يزعمون أنّهم من سلالة هرقل.

(139) التكنة: الجزء العلوي لحائطٍ يتكوّن من الحمّال والإفريز والكورنيش.

(140) الترابيل، نُصبٌ رومانيٌّ رباعي الأعمدة.

المتحاذيتين يجب ألّا تعدّ أقواسًا بل هي أبـوابُ منظومةٍ معمارية نمطية إلى حدٍّ ما سوف نجدها ثانيةً في مدخل المدن. بطبيعة الحال، يجب أن نضيف إلى غِنى أقواس النصر التطوّرَ الاستثنائي للتزيين: أعمدة ومنحوتات وتماثيل وكوادريغات[141] (quadriges) وغيرها من النقوش القليلة البروز والصفائح النذرية والنقوش التمجيدية. يقال إنّ قوس أوغسطين[142] (Auguste) الذي شُيّد في العام 29 ق. م. في الميدان الروماني لتخليد ذكرى انتصار أكتيوم[143] (Actium) هو أوّل أقواس النصر. ما تنبغي الإشارة إليه هو أنّ هذه المنشآت التي تتغنّى بالأمجاد الغابرة وتخلّدها تتركّز، مثلها في ذلك مثل الأروقة والمسلّات والأعمدة الأخرى، حول «ميدان مارس»[144] حتى تشكّل في نهاية الإمبراطورية مجموعًا ضخمًا ومتناسقًا يفيد في تزيين الشارع العامّ بمقدار ما يفيد الشعب الذي يأتي سعيًا وراء البرودة وللتنزّه خارج أوقات المناسبات العظيمة، وكان كلّ احتفالٍ بالنصر في روما مناسبةً عظيمة.

لن ينجح احتفالٌ بالنصر إلّا إذا أُنجزت المشاركة بين «الرجل العظيم» الذي يتلقّاه والشعب الذي يصفّق له. من وجهة نظرٍ شعائرية، لا ينظَّم «احتفال النصر» بوصفه استعراضًا بمقدار ما يكون موكبًا هائلًا واستثنائيًّا وشعيرة عبورٍ يرجو مقيموها ألّا يكون لها من عواقب سوى الحصول على المتع وامتداح الأنداد، حيث يختلط السياسي بالديني

(141) الكوادريغ: عربةٌ أو مركبةٌ تجرّها أربعة خيول، كانت تُستخدم في الألعاب الأولمبية قديمًا واعتمد الرومان القدماء عليها في سباقات العربات الحربية.

(142) أوغسطين (63 ق. م. ـ 27 م.)، أوّل إمبراطور روماني.

(143) أكتيوم: بروزٌ صخريٌّ شمال شرق أكارنانيا في مدخل خليج أميراكيا في اليونان، وهو يقابل مدينة نيكوبوليس.

(144) ميدان مارس: سهلٌ في روما القديمة يقع بين المدينة الجمهورية والضفة اليسرى لنهر تيفيري، وهو مكرّسٌ لإله الحرب والربيع مارس.

ويستخدمه. ها هو جنرالٌ يعود منتصرًا إلى روما حيث كان قد عبّر عن أمنياته بالظفر في معبد جوبيتير الكابيتولي[145] (Jupiter Capitolien) قبل أن يباشر حملته. الناس يعجبون به، لكنّهم يخشونه أيضًا لأنّه على الأبواب مع قواته وهم لا يعرفون طموحاته جيدًا، غير أنّه لا بد من تشريفه ولإجراء ذلك، لا بد من إدخاله. الشعب يعلم وهو ينتظر المسرّات، والجنرال وجنوده ينتظرون التشريفات، لكنّ السلطة ومجلس الشيوخ متنبّهان ويقيسان المخاطر على الجمهورية أو على الإمبراطورية قبل أن يقرّرا منح صفة الاحتفال بالنصر أو عدم منحها. يبلغ الارتياب حدًّا يدفع إلى عدم السماح لجنرالٍ منتصرٍ بعبور «البوميريوم»[146] (pomerium)، أي تخم المدينة، إلّا يوم الاحتفال بالنصر عينه وبعد تقديم الأضاحي أمام «باب النصر» (porta triomphalis). بعد تبنّي القرار وبعد كمٍّ هائلٍ من الاحتياطات المتّخذة لدرء مخاطر هذا الغزو العسكري العابر، يجب تنظيم الاستعراض من أجل حصر هؤلاء وأولئك على حدٍّ سواء ودفعهم إلى السلم. إذًا، في كلّ احتفال بالنصر، ينظّم مسارٌ يتضمّن أماكن ومراحل إلزامية ستسمح بإرضاء الجميع. تزيَّن الشوارع والشرفات وتقاطعات الطرق والساحات والمعابد والملاعب والمسارح لاستقبال أولئك الآلاف من الرجال الذين سيعبرون شوارع المدينة على شكل أرتالٍ وهم يُنشدون مآثرهم، مستهزئين أيضًا بجنرالهم وعارضين غنائمهم وأسراهم مثلما تستدعي العادة الجارية، وذلك أمام الأهالي الفخورين بأنّهم أنجبوا أبطالًا كهؤلاء، يصعب التحكّم بهم

(145) معبد جوبيتير الكابيتولي: أوّل مقرٍّ للصلات الأولى بين الآلهة الرومانية، وهو يقع على قمة هضبة الكابيتول التي تقول الميثولوجيا إنّ رومولوس قرّر أن يبني على سفحها مدينة روما.

(146) بوميريوم: تعني باللاتينية الجدار، وهو جدارٌ كان يمثّل الحدود المقدّسة لمدينة روما.

في شوارع العاصمة الضيقة. يحكي بلوتارخُس[147] (Plutarque) عن الاحتفال بانتصار إيميليوس باولوس (Aemilius Paulus) في العام 167 ق. م. فيروي كيف «أنّ شعب روما الجاثم على المصاطب في المسارح [...] وحول الميدان كان يحتلّ الأجزاء الأخرى في المدينة، تلك التي تسمح بالتفرّج على الموكب، ويحضر المشهدَ بملابس بيضاء اللون. كان كلّ معبدٍ مفتوحًا ومليئًا بالأكاليل والبخور، في حين كان خدمٌ وحاملو فؤوسٍ عديدون يدفعون الأرتال الطويلة من المتفرجين ويُبقون على الشوارع مفتوحةً للعبور. مُنحت لموكب الاحتفال بالنصر ثلاثة أيام».

الاحتفال بالنصر مؤسّسةٌ تخضع لإيقاعٍ شديد الخصوصية يندرج في فضاء المدينة المثقل، وهو يتكوّن من عمليات عبورٍ للأبواب وصعودٍ ودخولٍ وخروجٍ وتوقّفٍ تسمح له بأن يتواصل من دون أن يحيد عن مساره أبدًا. في بضعة أسطرٍ من خطابات شيشرون[148] (Cicéron) (2، 5، 77)، يتحدّث عمّا يعرفه عن الشعيرة وعمّا رآه أيضًا بالتأكيد: «وحتى أولئك الذين سوف يتلقّون الاحتفال بانتصارهم ويحافظون لهذه الغاية لوقتٍ أطول على حياة قادة الأعداء، كي يقدّم وجودهم في موكب الاحتفال للشعب الروماني المشهد والثمرة الأجمل في الاحتفال بالانتصار، يقودونهم على الرغم من ذلك إلى السجن، عندما تبدأ العربات في الانعطاف من الميدان إلى هضبة كابيتولينوس[149]، ويشهد

(147) بلوتارخس (46 ـ 120 للميلاد)، فيلسوفٌ ومؤرّخٌ يونانيّ، من أهمّ كتبه **السير المقارنة لعظماء اليونان والرومان.**

(148) هو ماركوس توليوس شيشرون (106 ـ 43 ق. م.) رجل دولةٍ روماني وكاتبٌ لاتيني. كان خطيبًا مفوّهًا ويعدّ نتاجه الوفير نموذجًا للتعبير اللاتيني الكلاسيكي. كتب في البلاغة والنظريات الفلسفية اليونانية.

(149) كابيتولينوس: إحدى تلال روما السبع. كانت مركز المدينة الديني بمعبدها المكرّس للثلاثي جوبيتير وجونون ومينيرفا (معبد جوبيتير الكابيتولي).

اليوم عينه انتهاء سلطة الظافرين وانتهاء حياة المهزومين». وبالفعل، لا تُستبعد أهوال الحرب من احتفالات النصر، ويبدو أنّ الشعب يرى في مشهد السجناء الذين يرتدون ملابسهم أو أُلبسوا ملابس بألوانٍ مبرقشة وسوف يُخنقون في «السجن» (carcer) بعد عبور الميدان «أجمل ثمار الانتصار». علينا ألّا ننسى أنّ الجانب المعاكس للعبور المظفّر هو الاستعباد وأنّ السامنيت[150] (Samnites) في معركة فوركولاي كوديناي[151] (Fourches Caudines) قد استعبدوا أربعين ألف روماني، جيشًا بأكمله. هذا الباب المشين والواهي جدًّا والذي يكاد يكون غير موجودٍ، هو الصرح المضادّ، المصنوع من رمحٍ مربوطٍ أفقيًّا برمحين آخرين مثبّتين بالأرض يمرّ أسفلهما المهزومون منحنين وأيديهم مقيّدةٌ وراء ظهورهم، خانعين ومثيرين للسخرية وأذلّاء ذلًا نهائيًّا.

فلنعد إلى احتفال النصر وحده: أصبح الجيش بجنراله المزيّن على شكل جوبيتير إلهًا حيًّا، يمرّ منفعلًا ومهيبًا تحت «باب النصر» بعد أن يدور حول هضبة بالاتين[152] (Palatin) ويصل إلى كابيتولينوس بعد أن عبر طريق الاحتفال بالنصر، المحفوف بالمعابد والأروقة المكرّسة جميعًا لآلهةٍ مختلفة. وبعد ثلاثة أيامٍ من البهجة والطواف، يُستكمل احتفال النصر وتستطيع روما، وقد تعزّز موقعها، أن تعاود التنفس.

لن يفعل الباباوات وملوك أوروبا القادمون أقلّ من ذلك، إذ سوف تتأثّر روما وقتًا طويلًا بـ«الدرب البابوي» (via papalis)، الصدى

(150) السامنيت: شعبٌ إيطاليٌّ قديمٌ امتهن القتال واشتغل كثيرٌ من أفراده مرتزقة في جيوش الشعوب الأخرى.

(151) معركة فوركولاي كوديناي: معركةٌ تواجه فيها في العام 321 ق. م. الرومان مع السامنيت أثناء الحرب السامنية الثانية. حاصر السامنيت جيشًا رومانيًا كاملًا تعداده 40 ألف مقاتل وهزموهم وأذلّوهم.

(152) هضبة بالاتين: هي الهضبة الوسطى من هضاب روما السبع.

البعيد لتظاهرات احتفال النصر القديمة، بمقدار ما ستتأثّر بدخول شارل الخامس[153] (Charles Quint) في العام 1536 ودخول الغزاة الأقل شأنًا، إذا ما تذكّرتُ الأجنبي[154] الأخير الذي منح نفسه احتفالًا بالنصر في العام 1938. لكنّهم جميعًا، خلافًا للأباطرة والجنرالات الرومانيين، لن يعبروا إلّا كابيتولينوس تغيّرت وظيفتها ولـم تعد تعمل، ولن يعرفوا سوى أقـواس نصرٍ مؤقّتة تُبنى للمناسبة وقابلة للإزالة بالتعريف. أمّا نحن الفرنسيين، فعدا الآثار الرائعة التي لا تزال موجودةً لممثّلي ما تُطلق عليه تسمية «المجموعة البروفانسية»[155]: كاربنتراس (Carpentras) وكافايّون (Cavaillon) وأورانـج[156] (Orange) وبعض الروائع المقاوِمة للزمن المبعثرة هنا وهناك، مثل قوس النصر في أوتـان[157] (Autun) لنبقى في منطقتي المفضلة، فنحن لا نعرف سوى قوس نصرٍ واحد. سوف أعود لاحقًا إلى رواج «الدخولات المهيبة» بدءًا من القرن الرابع عشر وأقواسها المؤقّتة إلى هذا الحدّ أو ذاك. أرغب فحسب في الإشارة إلى أنّ الفن الروماني وأقـواس نصره كثيرًا ما قُلّدت، ولاسيما في عهد لويس الرابع عشر مع بناء باب سان دوني (Saint-Denis) في باريس في العام 1672 وشقيقه باب سان مارتان[158] (Saint-Martin) في العام 1674. قوس

---

(153) شـارل الخامس (1500 ـ 1558)، ملك إسبانيا وإمبراطوريتها الاستعمارية، وسبع عشرة إمارةً هولندية، ومملكة نابولي وغيرها. انتُخب إمبراطورًا للإمبراطورية الرومانية المقدّسة في العام 1519، وكان أقوى عاهلٍ مسيحي في النصف الأول من القرن السادس عشر.

(154) المقصود زيارة هتلر روما في أيار/ مايو 1938.

(155) نسبةً إلى مقاطعة بروفانس في فرنسا.

(156) كاربنتراس وكافايون وأورانج: مدنٌ فرنسية تقع جنوب شرق فرنسا.

(157) أوتان: مدينةٌ تقع في الجزء الشرقي من فرنسا.

(158) باب سان دوني وباب سان مارتان: بابان في باريس.

النصر في ساحة إيتوال[159] (Étoile)، أحد الرموز الكبيرة في العاصمة، قوسٌ ضخمٌ لا يزال قيد الفاعلية بطريقةٍ ما حتى اليوم. وإذا ما استثنينا دخول الألمان في العام 1940، فإنّنا لم نعد نشهد اليوم إلّا استعراض 14 تموز/ يوليو[160] وشعلة «الجندي المجهول» بوصفهما بقيّةً لدلالةٍ حربية، ومنذ بعض الوقت مكانًا للاحتفال بالانتصارات الرياضية الكبيرة. لا أحد يجهل أنّنا ندين بهذه المعالم لآخر إمبراطورٍ عظيمٍ من أباطرتنا، وهو نابليون[161] (Napoléon)، الذي أعلن لجنوده غداة معركة أوسترليتز[162] (Austerlitz) وهو يتذكّر أسلافه البارزين قائلًا: «لن تعودوا إلى بيوتكم إلّا تحت أقواس النصر». وبالفعل، أمر بتشييد قوس نصرٍ نُصب عند باب التويليري[163] (Tuileries) في موقع ساحة كاروزيل (Carrousel). أصبح ذلك القوس قوس نصر كاروزيل الذي نُصب في العام 1806 تمجيدًا للجيوش الفرنسية بعد حملة 1805 الشهيرة. وقد بُني على صورة أقواس قسطنطين[164] (Constantin) وسيبتيموس سيفيروس[165] (Septime Sévère). وبالفعل، الهيئة

---

(159) ساحة إيتوال: تُدعى منذ العام 1970 بساحة شارل ديغول، ساحةٌ تقع في باريس لا يزال اسمها القديم يغلب في الاستخدام العام.

(160) 14 تموز/ يوليو: العيد الوطني الفرنسي.

(161) نابليون بونابرت الأول (1769 ـ 1821)، أوّل إمبراطورٍ للفرنسيين.

(162) معركة أوسترليتز: تُطلق عليها تسمية **معركة الأباطرة الثلاثة** (1805)، انتصر فيها جيش نابليون على القوات النمساوية-الروسية.

(163) تويليري: قصرٌ باريسيٌّ دُمّر أثناء كومونة باريس (1871).

(164) قوس قسطنطين: قوس نصرٍ يقع في روما، بناه مجلس الشيوخ الروماني لتخليد انتصار قسطنطين على ماكسينوس في العام 312 ومرور 10 سنوات على وجوده في السلطة.

(165) سيبتيموس سيفيروس (145 ـ 211)، إمبراطورٌ رومانيٌّ من أصلٍ رومانيٍّ- أفريقي، حكم من العام 193 إلى العام 211.

هي عينها، بخلاف أنّ الأعمدة والتماثيل المجازية تذكّر بشتى فصائل الجيش الفرنسي وأفعالها. يبدو أنّ هذا القوس -الذي أجده شخصيًّا منسجمًا إلى حدٍّ ما- لم يعجب الناس أبدًا لدى نصبه، إذا ما صدّقتُ تعليقات دليلٍ للأجانب في باريس في العام 1810: «تبدو هذه الآبدة وضيعةً في هذه الساحة الواسعة وهي تعاني من عيبٍ كبير، هو أنّها توجد على خط نظر التويليري واللوفر. لا بدّ من هدمها...». أمّا قوس النصر الذي أمر ببنائه نابليون الأول، فكان من المفترض أن يكون منطلق جادّة احتفالٍ بالنصر تعبر بخاصيةٍ اللوفر وساحة الباستيل[166] (Bastille). بدأ نصبه في العام 1808 عند بابٍ لباريس يدعى حاجز الإيتوال. لم يشهد نابليون إنجازه، إذ انتهى ملكُه نهائيًّا في العام 1815. غير أنّه عرف تقليدًا له بالحجم الطبيعي أمر المعماريَّ شالغران[167] (Chalgrin) ببنائه لتقديم مدخلٍ مهيبٍ إلى باريس لزوجته المستقبلية الأرشيدوقة ماري لويز. وبالفعل، نفّذ المعماري نموذجًا بالحجم الطبيعي باستخدام هيكل المرمر ومعجونه ولوحاتٍ مرسومة، وبقي النموذج في واقع الأمر في مكانه وقتًا غير قصير. أمّا البناء الحقيقي، فقد توقّف في العام 1812 بعد الحملة الكارثية على روسيا. تمّ التخلّي عن المشروع في عهد الإصلاح[168] (Restauration) واستؤنف أخيرًا في العام 1832

(166) ساحة الباستيل: ساحةٌ في باريس، وهي مكانٌ رمزيٌّ للثورة الفرنسية، إذ كان في المكان عينه سجن الباستيل (انظر الهامش رقم 305) الذي دُمّر اعتبارًا من 15 تموز/ يوليو 1789.

(167) جان فرانسوا تيريز شالغران (1739 ـ 1811)، معماريٌّ فرنسيٌّ من أشهر أعماله قوس النصر في باريس.

(168) عهد الإصلاح: حقبةٌ في تاريخ فرنسا تمتدّ من سقوط الإمبراطورية الأولى (1814) إلى ثورة الأيام الثلاثة المجيدة (1830) وهي تتمثّل في عودة الحكم الملكي لآل بوربون، ضمن نظامٍ ملكيٍّ دستوري تحدّه شرعة العام 1814.

في عهد لويس فيليب[169] (Louis-Philippe) وانتهى العمل به في العام 1836. وكان من المفترض أن يدشّن يوم 29 تموز/ يوليو 1836، الذكرى السادسة للأيام الثلاثة المجيدة[170] (Trois Glorieuses)، غير أنّ الملك كان تعرّض لاعتداءٍ جديد ولم يتّسم التدشين بأيٍّ من سمات الاحتفال بالنصر، إذ قام به سرًّا في السابعة صباحًا أدولف تيير[171] (Adolphe Thiers) الذي لم يحصل بذلك على أيّ مجد. لباريس اليوم قنطرتها في منطقة ديفانس[172] (Défense)، وهي عبارةٌ عن مكعبٍ جميلٍ فعلًا، لكنّه يرمز إلى نهاية الأقواس وضروب احتفالات النصر أكثر ممّا يرمز إلى أي شيءٍ آخر، أي أنّه يرمز إلى نهاية عالمٍ ودخول عالمٍ جديد.

---

(169) لويس فيليب (1773 ـ 1850)، ملك الفرنسيين (1830 ـ 1848)، كان ثاني من تربّع على عرش فرنسا بلقب «ملك الفرنسيين» بعد لويس السادس عشر. كان أقلّ تقليديةً من سابقيه، وجسّد منعطفًا كبيرًا في تصوّر الملَكية في فرنسا وصورتها. أقام نظامًا برلمانيًّا وشجّع بورجوازية الأعمال الحرَفية والمالية، ما سمح بنهضةٍ اقتصاديةٍ عظيمةٍ في فرنسا (الثورة الصناعية). لكنّ هذا النظام الذي أقامه أدّى إلى إفقار الطبقات العاملة.

(170) الأيام الثلاثة المجيدة: كناية عن الثورة الفرنسية للعام 1830 أو ثورة تموز/ يوليو، شهدت الإطاحة بالملك شارل العاشر وتولّي ابن عمه لويس فيليب الأول العرش، فانتهت بذلك الملَكية الدستورية، واستعيض عن مبدأ السيادة الشعبية بالحقّ الوراثي.

(171) أدولف تيير (1797 ـ 1877)، محامٍ وصحافيٌّ ومؤرّخٌ ورجل دولةٍ فرنسي. كان ثاني رئيسٍ للجمهورية الفرنسية (1871 ـ 1873). وهو يرمز لتطوّر الطبقات الحاكمة الفرنسية في البحث عن نظامٍ مؤسساتيٍّ مستقرٍّ بعد انهيار الملَكية المطلقة في العام 1789، وذلك بدوره الكبير في وضع أنظمةٍ سياسيةٍ أعقبت فشل الإصلاح في العام 1830. ساهم في الأيام الثلاثة المجيدة وفي ترسيخ حكم تموز/ يوليو الملكي.

(172) منطقة ديفانس (الدفاع): حيّ أعمالٍ هو الأكبر في أوروبا من حيث مساحته، ويقع غرب باريس.

الدخول إلى المدينة (INTROITUS IN URBEM)

في روما، كان ينبغي لوقتٍ طويل عدم تجاوز الحدود، أي أنّه لم يكن ممكنًا الدخول إليها ولا الخروج منها بالبساطة التي نتخيّل بها الدخول إلى المدينة، نحن رجال القرن الحادي والعشرين ونِسَاءَهُ والذين أصبحنا منخرطين في الحراك الدائم. كان وعي المرء بأنّه يدخل ضمن المدينة مَصونًا إلى حدّ أنّنا سنضطرّ لانتظار وقتٍ طويلٍ قبل أن تصبح الأمور أكثر بساطةً. تعود الحكاية إلى زمنٍ بعيدٍ بطبيعة الحال، لكنّ القيمة الرمزية لمكانٍ ما تُستمدّ دائمًا من الأسطورة والرغبة في جعلها توجد. يقال إنّ كلّ شيءٍ بدأ مع رومولوس (Romulus) وريموس (Remus) اللذين أسّسا روما[173]، أي خلقا عالمًا، بضربة محراث. أنا أبسّط بطبيعة الحال. ثمة مؤلّفون مثل اليوناني بلوتارخُس الذي ينقل أنّ «المؤسّس وبعد أن وضع في محراثه سكّةً من البرونز، ربط به ثورًا وبقرةً ثمّ قاده وهو يحفر خندقًا عميقًا على الخطّ الدائري المرسوم. تبعه رجالٌ مكلّفون بأن يلقوا في الخندق كتل الطين التي يرفعها المحراث وألّا يتركوا شيئًا منها في الخارج. إنّه خطٌّ يحدّد محيط الأسوار، وهو يحمل اسم بوميريوم، وهي كلمةٌ مدغمةٌ تعني ’خلف أو بعد السور‘. هناك حيث نريد وضع باب، تُنزع السكة ويُرفع المحراث ويُترك فاصل» (رومولوس، 11، 3 ـ 4).

وقد قدّم سلفه الروماني كاتون (Caton) (234 ـ 149 ق. م.)، الحسّاس للمدن إنشاءً وتدميرًا (لقد حفظ جميع طلاب المرحلة الثانوية عبارة Carthago delenda est[174] الشهيرة)، هو أيضًا بعض

---

(173) وفق الميثولوجيا اللاتينية، أسّس رومولوس (حوالى 771 إلى 717 ق. م.) مع أخيه التوأم ريموس (حوالى 717 إلى 753 ق. م.) مدينة روما في العام 753 قبل الميلاد.

(174) تعني العبارة حرفيًا «يجب تدمير قرطاجة»، وتُنسب إلى كاتون.

التوضيحات حول الطريقة العملية التي استُخدمت في تأسيس روما. وهو يذكّر بأنّ مؤسسي حاضرةٍ «كانوا يربطون ثورًا إلى اليمين وبقرةً في الجانب الداخلي. تزنّر الدابّتان على طريقة الغابينيين[175] (Gabiniens)، إذ يُغطّى رأس كلٍّ منهما بجانبٍ من ردائه المثني ويُربطان بمقود المحراث المقوّس بحيث تسقط قطع الطين في الداخل. وبرسم الثلم على هذا النحو، كانوا يحدّدون مكان الجدران، رافعين المحراث في مكان الأبواب». ويضيف: «على من سيؤسّس مدينةً جديدة أن يحرث بثورٍ وبقرة، وحيث يحرث عليه أن يبني جدارًا، وحيث يريد أن يوجد باب عليه أن يرفع المحراث ويحمله ويدعو هذا المكان بابًا».

رمزية النير هي في أن نسمع ونحفظ من أجل أن نفهم على نحوٍ أفضل ما نقوم ببنائه: «ثورٌ إلى اليمين» للدلالة على وجوب أن يبقى العالم المتوحّش خارج المدينة، في الخارج، «بقرةٌ إلى اليسار» للدلالة على أنّ الداخل منذورٌ للغزارة والخصب. أمّا سقوط كتل الطين في الداخل، فهو شعيرةٌ إيتروسكانية[176]، طريقةٌ لبدء الأسوار ولتحديد البوميريوم جيدًا. البوميريوم هو الذي يضمن البولفار المكرّس، وهو مصطلحٌ من أصلٍ هولنديٍّ أشار على مدى وقتٍ طويلٍ إلى أسوار مدينة. في البداية، كان هذا التخم المحدّد الذي يشير رمزيًا إلى «الخارج» و«الداخل» يفيد بصورةٍ خاصّةٍ في التكهّن عبر مراقبة الإشارات، ولاسيما إشارات الطيور، والانطلاق من قراءتها كي تنصح العِرافة بمشروعٍ ما أو لا تنصح به. كانت جميع الإشارات تتكلّم، سواءٌ تعلّق الأمر بالمنطقة الحضرية أم بمنطقة «الحقول»، بالحاضرة المرئية من الخارج أم بالأجانب المرئيين من الداخل. إذًا، كان البوميريوم ذلك

(175) الغابينيون: سكّان منطقة غانيي (Gagny) في فرنسا.

(176) نسبةً إلى إتروريا (Étrurie)، وهي منطقةٌ من إيطاليا القديمة تقع بين نهري أرنو وتيبر.

التخم المقدّس الذي يصنع روما ونستطيع، من الداخل، السماح بعبوره أو عدم السماح به. كما أنّه أفاد عبر القرون في تمييز أشكال ضمّ أو تبنّي الآلهة الأجنبية مثل ترمينوس (Terminus)، الإله السابيني[177] للتخوم الناجي من الحرب مع الرومان والذي تمّ دمجه بسرعةٍ كبيرة، مثله مثل أخواته السابينيات[178].

المسألة هي إذًا العثور على وسيلةٍ مضمونةٍ لعبور هذه الحدود الثلاثية، السياسية والدينية والمشهدية، من دون مخالفتها. لا بدّ من معابر لهذه الدروب التي تصل إلى المدينة وسوف تغيّر مشهدها ووضعها في آنٍ واحد. لكن كيف سيجري هذا التغلغل المشترك لما هو مرسوم، للتخوم، تلك المحاور المدينية «من الشمال إلى الجنوب» (cardines) و«من الشرق إلى الغرب» (decumani)؟ كيف سيتمّ الانتقال من نمط فضاءٍ إلى آخر، الربط بين هذين العالمين، العالم الريفي والعالم الحضري؟ عبر الباب. قد يبدو لنا هذا الأمر بديهيةً، غير أنّه لم يكن كذلك. أثناء حفر رومولوس الخندق، كان عبر إزالة كتلته الطينية يقطع الاستمرارية في البوميريوم ويحفر في نهاية المطاف في السماء، أو أنّه على الأقلّ كان يُحدث فيها ثغرةً سحرية. لكن في الحقبة الرومانية، وحتى بعد ذلك، أصبحت المسارات والدروب الريفية، وفق تغيّرات الأساسات، مدينيةً عبر الأبواب. بكلّ تأكيد، لا يمكن إهمال البعد السحري، غير أنّ الإجراءات القانونية لمن وما يستطيع أو لا

---

(177) نسبة إلى السابينيين، وهي قبيلةٌ إيطاليةٌ عاشت في إيطاليا القديمة.

(178) قرر رومولوس سرقة نساءٍ لسدّ نقصهنّ في روما التي أصبحت ملاذًا للرجال الأحرار الراغبين في تغيير حياتهم، فنظَّمَ عيد «كونسواليا» على شرف نبتون واستدعى إليه السابينيين وشعوب عدّة «مدنٍ» محيطة وسُرقت النساء بالمباغتة في خضمّ تحويل انتباه الرجال. خُصصت أجمل النساء للوجهاء. وعندما هاجم السابينيون المدينة واستولوا على قلعة الكابيتول، حدث اشتباكٌ دامٍ دعا زوجات الرومان السابينيات إلى الوقوف بين المعسكرين، وانتهت المعركة.

يستطيع دخول المدينة، وكذلك ما يمكن أن يخرج منها، سوف تغلب على هذا البعد شيئًا فشيئًا. لقد تحدّثتُ مخطئًا عن روما وعن المدينة من دون تمييز، لكن واقع الأمر أنّ المدينة متضمَّنةٌ داخل الأسوار، في حين أنّ روما تشمل «البساتين» (horti)، الحدائق المرتبطة بالمدينة وكذلك المنطقة التي تحوّلت إلى الحضرية لكن بمبانٍ متناثرة، من دون تواصلٍ في ما بينها. وذلك للتذكير بأنّ إدراك الرومان أو الزائرين المعتادين هذه المدينة التي لا يمكن تقريبًا وصفها، والتي نادرًا ما وُصفت، كان بطبيعة الحال أكثر انتشارًا ممّا أقدّمه هنا.

لا نستطيع تبعًا لذلك تقديم فكرةٍ عن المرور والأبواب من دون أن نأخذ بالحسبان التخوم الخاصة بالمدينة والتي تتّخذ طابعًا مقدّسًا، والدور الذي لعبته تلك التخوم في العصور القديمة مثلما رأينا بصدد أقواس النصر.

تخيّلوا أنّكم تكتشفون هذه المدينة سيرًا على الأقدام وأنّكم تعرفون ضروب المنطق المكاني الخاصّة بها، المغايرة بشدةٍ لضروب المنطق الخاصّة بنا، وأنّكم على درايةٍ بالعلامات البصرية والمادية والإدارية التي تشير إلى الاقتراب من روما واللحظة التي سندخل فيها المدينة. ما هي تلك العلامات؟ الطريق، قنوات المياه التي تسير نحو روما بطبيعة الحال، لكن كذلك وجود القبور التي كانت تعيّن التخم القويّ بين المشهد الريفي والمشهد الحضري، قبورٌ منصوبةٌ جهارًا على جانبي الطريق خارج فضاء الناس الأحياء وكأنها «سورٌ يأتي ليصطدم به هجوم المختفين» نظرًا إلى الخوف الكبير من «الأطياف» (lemuria) الذي كان يشعر به رومان العصور القديمة، والمبعدين بذلك إلى خارج البوميريوم. لكن ما يعلن أكثر عن المدينة هو العربات والقوافل والناس. يبدو أنّه من الاستحالة بمكانٍ الإفلات من هذه الجمهرة التي يصادف بعضها بعضًا: أجانب، مهاجرون، مسافرون عابرون، باعةٌ، مواطنون

رومانيون، مقيمون، سكانٌ أصليون... كلّ ذلك في جوٍ من الازدحام الذي لا يمكن وصفه. سرعان ما يأتي ليختلط بكلّ هذا الضجيج سكان «الضواحي» (suburbium)، أي حزام البساتين وحقول البقول. إنها الصدمة: ارتفاع المباني، السمة العمودية، مدينة معلّقة! لكن ها هو السور (حين كان موجودًا) و«المداخل» (introitus)، الوسائل الوحيدة للدخول «إلى المدينة» (in Urbem).

وهنا الموت مجدّدًا، أو بالأحرى رائحته التي ترافقها رائحةٌ مثيرةٌ للغثيان ترتبط بنشاطات المهن الممارسة والملفوظة خارج الجدران بسبب الرائحة الكريهة غير المقبولة، لكن أيضًا النُّفايات وغيرها من الأقذار، ولاسيما الجثث التي جُرّت إلى هنا وتركت من دون كفنٍ أسفل الأسوار فريسةً للطيور والكلاب. غير أنّ المنافذ المباشرة للمدينة، ككلّ مدينةٍ كبيرةٍ، لم تكن مشهّيةً، والنشاطات البلدية التي ليس لها مفعول لمدة قرونٍ قد انتشرت بكثرةٍ بكلّ تأكيد، مثل ذلك النشاط الذي يخصّ الباب الوحيد الذي زرتُه بمثابرة (وكانت نظافته مثاليةً خارج أوقات إضراب الزبالين!): «يجب ألّا يرمي أحدٌ أيّ نفاية أو أي شيءٍ مشينٍ أو قمامةٍ عند باب سيتيميانا (Settimiana) أو خلف أسوار الباب المذكور [...] سيعاقب بغرامةٍ قدرها عشرة ’سوليدي‘ (sollidi)».

سبق لي القول إنّ الشهادات عن الواقع اليومي لعمليات الدخول في تلك الحقبة قليلة، لكنّنا نعلم من شيشرون أنّه على «طريق آبيا» (Via Appia) بين بريندیسي[179] (Brindisi) والمدينة، يوجد بدايةً صفٌّ مستمرٌّ من الأشخاص والعربات. كما أنّه يحكي كيف أنّ المرء لدى وصوله يرى الأسوار والمباني والمعابد الهائلة ويربط بينها، وأنّ هذا الاكتشاف كان يساهم في فرح الجمهرة: «كانت روما نفسها تبدو

(179) بريندیسي: مدينة إيطالية.

وكأنّها تجتثّ نفسها من أساساتها». في هذا التدفّق، كان الكاتب القادم من الجنوب الشرقي يدخلها أيضًا ويرى هؤلاء الناس جميعًا يسارعون نحو المنفذ الوحيد: باب كابين (Capène)، أحد المحاور المفضّلة في العاصمة. إذًا، رأى شيشرون الذي كان يحبّ نفسه قبل كلّ شيءٍ عوام الشعب يدخلون ويتجمّعون على درجات المعابد للتصفيق لوصوله!

يبدو أنّ المؤرخ جان بيير غيلمبير[180] (Jean-Pierre Guilhembert) في ملاحظاته اللامعة حول حدود روما القديمة ومداخلها، يعتقد بأنّ الحدود كانت أكثر وضوحًا في عهد الجمهورية منها في ظلّ الإمبراطورية. وهو ينقل كيف كانت عيونٌ معتادةٌ أو مترقّبةٌ قادرةً على كشف الأعمدة المستخدمة في تعيين حدود البوميريوم. كانت جميع هذه الأعمدة الصغيرة، التي يتراوح ارتفاعها بين مترٍ ومترين، مثبّتةً في الأرض ومتباعدةً بأكثر من مئة متر وموضوعةً بخاصّةٍ في منعطفات المسار المقدّس وتحمل جميعًا نقوشًا محفورةً على الجانب المقابل للمدينة. كما يتحدّث عن مسألةٍ خطيرة آنذاك، وهي مسألة تعقّب التخوم من أجل التكهّنات التي كانت تتحرّى الإشارات من «معبد التكهن»[181] (auguraculum). يتساءل عن نقاط العلّام، عدا المنشآت، التي يمكن أن تسمح لهم بأن يروا الحدّ المقدّس من بعيد. تقدّم لنا شهادة بلينيوس الأكبر[182] (Pline l'Ancien) في كتابه **التاريخ الطبيعي**

---

(180) جان بيير غيلمبير (1961 ـ)، أستاذ التاريخ الروماني في جامعة باريس السابعة.

(181) معبد التكهّن: معبدٌ غير مسقوف موجّهٌ نحو الجهات الأربع كان كهنة روما القديمة يمارسون فيه التكهّن والعيافة (أي التنبّؤ بملاحظة حركات الطيور).

(182) بلينيوس الأكبر أو بليني الأكبر (23 ـ 79 ب. م.)، كاتبٌ وباحثٌ طبيعيٌّ من روما، وصلنا له مؤلّفٌ واحد هو موسوعة **التاريخ الطبيعي** التي تتكوّن من 37 مجلدًا وجمع فيه معارف عصره في مجالاتٍ متنوعة كالعلوم الطبيعية وعلم الفلك والأنثروبولوجيا وعلم النفس وعلم المعادن.

(*Histoire Naturelle*) فكرةً عن منظومة حجم المدينة وتنظيمها في الإمبراطورية القديمة، وذلك في المقطع التالي: «بلغ محيط الأسوار تحت رقابة الأباطرة الفيسبازيين[183] (Vespasiens) (في سبعينيات القرن الأوّل الميلادي) في العام 826 للتأسيس، 13200 خطوة (حوالى تسعة عشر كيلومترًا) تحيط بسبع تلال. المدينة نفسها مقسومةٌ إلى أربع عشرة منطقة، مع 265 تقاطعًا لآلهة الحماية. وإذا ما طبّقنا القياس بدءًا من نظام الميل المُقام في طرف الميدان العامّ الروماني حتى كلٍّ من الأبواب التي يبلغ عددها حاليًّا سبعةً وثلاثين بابًا (لا نعدّ إلّا مرّةً واحدة 'لكلّ باب' الأبواب الاثني عشر 'المزدوجة' ونستبعد سبعةً من الأبواب القديمة التي لم تعد موجودة) تبلغ أبعاد المدينة إذا ما وُضعت على خطٍّ مستقيمٍ ما مجموعه 20765 خطوة. لكن حتى الأبنية الأخيرة، بما في ذلك معسكر الحرس البريتوري[184]، وانطلاقًا من نظام الميل عينه وبعبور القرى (uici)، يزيد قياس مجمل الشوارع قليلًا عن 60 ميلًا. وإذا أضفنا ارتفاع المباني، فسنتصوّر بالتأكيد تقديرًا صالحًا ونعترف بأنّ أيّ مدينةٍ في العالم بأكمله لا تستطيع أن تقارن نفسها بها. وهي مغلقةٌ من الشرق بجادّة تاركوينيوس سوبيربوس[185] (Chaussée de Tarquin le Superbe)، وهي من أجمل أعمال تاركوينيوس، لأنّه رفعها إلى ارتفاع الأسوار، هناك حيث المدينة أشدّ تعرّضًا من الأماكن الأخرى للخطر لأنّ أطرافها تقع في السهل. كانت الأجزاء المتبقية محميّةً بأسوارٍ شديدة الارتفاع أو بفروق منسوبٍ شديدة، باستثناء أنّ توسيع المباني قد أضاف عدّة مدن (إلى المدينة)» (الجزء الثالث).

---

(183) الفيسبازيون: سلالة الإمبراطور فيسبازيان (9 ـ 79 م.) الذي كان إمبراطورًا رومانيًّا من العام 69 إلى العام 79.

(184) الحرس البريتوري: وحدةٌ من الجيش الروماني كانت تتشكّل من جنود النخبة.

(185) تاركوينيوس سوبيربوس، سابع ملوك روما وآخرهم (534 ـ 509 ق. م.).

هل القياسات التي أُجريت منذ «نظام الميل الذهبي» وأقرّها أوغسطين في سفح كابيتولينوس دقيقة؟ إليكم ردَّ الاختصاصيين: ليس تمامًا، لكنّها رسمية. هل كان يوجد للمدينة سبعةٌ وثلاثون بابًا؟ يبدو أنّ غيلمبير يشكّ في هذه النقطة، فهو يتساءل إن كانت تلك مجرّد نقاط علام، معابر رمزية، أو أقواسًا مبنيةً على خطّ البوميريوم. ما يعلمه المؤرخون هو أنّ برنامجًا طموحًا لإبراز مداخل المدينة قد أُنجز في عصر دوناتيان[186] (Donatien)، في العام 85. ماذا إذًا عن الأبواب القديمة السبعة التي تضاءلت قيمتها أو اختفت، المتداعية بالتأكيد، بل التي ربّما هُدمت أو أعيد إغلاقها وإدماجها بالسور الذي يتحدّث عنه بلينيوس؟ لقد تحرّكت جدران المدينة إلى درجة أنّه يصعب التيقّن من الأبواب التي كانت تقوم بوظيفتها، وفي أيّ مكانٍ كانت، ولأيّ مدّةٍ من الزمن، خارج «أبواب النصر»، وكيف كان الناس يدخلون عادةً المدينة. سوف نجد على الشبكة العنكبوتية تمثيلاتٍ لأبواب روما مفرطة الكمال على المخطّطات المجسّمة، إلى درجة أنّنا لا نستطيع الاعتقاد بأنّها كانت جميعًا في هذه الحالة.

لقد عشتُ بعض الوقت في منطقة تراستيفيريه (Trastevere) لدى عائلةٍ رومانيةٍ في الجوار المباشر لباب سيتيميانا المفتوح شمالًا في سور أوريليانوس، وهو بابٌ أُعيد ترميمه في عهد ألكسندر السادس[187] (Alexandre VI) (1492 ـ 1503) وتتبعثر فيه على نحوٍ غير متناسقٍ مُتَكآت شرفاتٍ ذات طرفين بعيدةٌ عن طراز الإمبراطورية، أصبح يمرّ فيه طريق فيا ديلا لونغارا (Via della Lungara). إنّه اليوم بابٌ روماني «داخل الأسوار»، ربّما يكون سياحيًّا نوعًا ما، لكنّه بابٌ يضطرّ السائقون

---

(186) الصحيح هو دوميتيانوس الذي حكم روما بين العامين 81 و96.

(187) ألكسندر السادس (رودريك بورجيا) (1431 ـ 1503)، البابا الرابع عشر بعد المائتين من العام 1492 إلى عام وفاته.

من غير الحاصلين على إذنٍ خاصٍّ إلى التخلي عن سيّاراتهم عنده. في هذه النقطة، روما أزليةٌ حقًّا في مجال السير، فقد صدر مرسومٌ في الإمبراطورية القديمة يقضي بأنّ «سير العربات ممنوعٌ بعد الميل الأول بين شروق الشمس والساعة العاشرة، داخل المنطقة التي توجد فيها مساكن متواصلة». تقول النصوص إنّه كان يجب انتظار هبوط الليل للتغلغل أكثر في المدينة، على الرغم من أنّ مركبات العذارى، أو كاهنات «الإمبراطور» أو «الكاهن الخاصّ بمجلس الشيوخ»[188] (rex sacrorum) لم تكن معنيةً بالقرار، ولا كانت معنيةً التحركاتُ المرتبطة باحتفالات النصر والرياضة، أو بإخلاء النفايات أو بنقل مواد البناء. ما يبدو لي خارقًا حقًّا هو أنّه كانت توجد منذ تلك الحقبة «مناطق لركن العربات»، مجهّزة في مدخل المدينة، وهذا يعزز توصيف شيشرون. بالنسبة إلى المتخصّصين، ليس هنالك أدنى شكٍّ في أنّه وجدت بالفعل مساحاتٌ منبسطة غير مبنيةٍ في محيط الفضاء المديني وإحدى تلك المساحات الأشهر هي «أريا كاروسيس» (area carruces)، المشتقة من كلمة (carrucarius)، أي السائس، مجهّزة قرب باب كابين وأطلق عليها رومان تلك الحقبة تسمية «رواق المدينة». لقد كانت بالتأكيد منطقة خدمات، نوعًا من المحطّة الطرقية المحيطية وكانت تستخدم لتوقّف العربات وتناقل البضائع. من المعتقد أنّه كان يتجمّع هناك سائسو عرباتٍ وبغّالون ومسلّمو بضائع وعبيدٌ وكمٌّ من العمّال وصانعي العربات وعجلاتها وأصحاب المهن المرتبطة بتلك الصناعة وبالنقل، وكذلك باعة التبن الذين توضح النصوص أنهم كانوا يهودًا،

(188) بعد طرد آخر ملكٍ من روما، وُزّعت الوظائف السياسية والدينية الخاصة به بين قاضيين جديدين (القنصلان) وكاهن خاصٍّ بمجلس الشيوخ، كان يُطلَق عليه لقب «ملك الأشياء المقدّسة»، ويقتصر عمله على المجال الديني وفُرض عليه التخلّي عن أيّ وظيفةٍ أخرى تجنّبًا لاحتمال عودة سلطةٍ ملَكية.

إذ كان التبن ضروريًا إلى حقبةٍ قريبةٍ لكلّ عربةٍ تجرّها الخيول. كذلك تشهد النصوص على وجود مكان تبديل غير بعيدٍ عن باب كابين، يدعى «مكان التبديل» (mutatorium)، لا نعلم جيدًا ما الذي كان يفيد فيه بدقّة. هذا المبنى، المعروف أيضًا باسم «مكان تبديل القيصر» (mutatorium caesaris)، ربّما كان المكان الذي كان الأباطرة يغيّرون فيه وسيلة تنقّلهم، منتقلين بذلك من الحصان أو حيوانات الجرّ إلى المحفّة، ولعلّه أيضًا المكان الذي كان الإمبراطور وربّما أيضًا العظماء والجنرالات المنتصرون يغيّرون فيه أزياءهم (mutatio vesti)، مبدّلين هيآتهم قبل أن يدخلوا المدينة.

لا يمكن التحدّث عن روما من غير التحدّث عن حدود الإمبراطورية، أي عن «العالم» (mundus) الذي تحميه «الليمس»[189] (limes). اعتقدت روما لوقتٍ طويلٍ أنّها تحسن صنيعًا بحماية الأراضي عبر نصب منظومةٍ دفاعيةٍ على طول الحدود، كانت تشكّل ما يشبه سور الصين، بوصفها خطًّا مستمرًّا للتحصين. كان الرومان يعدّون أنفسهم في حماية الليمس. لن أذكر الأسوار كلّها، لكن من سور أنطونيوس[190] (Antonin) إلى سور هادريان، مرورًا بالليمس في جرمانيا والدانوب وقبادوقيا وأرمينيا وما بين النهرين وشبه الجزيرة العربية، نشهد هنا منظومةً كاملةً من الأسوار والأبواب الطبيعية إلى هذا الحدّ أو ذاك، كانت تدافع بالفعل عن داخل الإمبراطورية الرومانية. بعد فترةٍ قصيرة، وتحت الضغط القوي الذي مارسه البرابرة، انهار الليمس تاركًا مدنًا مفتوحةً من الداخل من دون دفاع، إذ كانت قد تجاوزت

---

(189) ليمس: التسمية التي منحها المؤرّخون الحديثون لأنظمة التحصينات التي كانت قائمةً على طول بعض حدود الإمبراطورية الرومانية.

(190) أنطونيوس بيوس (86 ـ 161)، كان الإمبراطور الروماني الخامس عشر (138 ـ 161).

شيئًا فشيئًا أسوارها القديمة إلى السهول المجاورة أو تركت أسوارها تتهاوى، إلى درجة أنّه اعتبارًا من زمن قسطنطين (306 ـ 337)، وتمامًا مثلما لم تعد روما داخل روما، لم يعد الدفاع الرئيسي للإمبراطورية على الحدود، بل أُبقي قدر الإمكان عبر ستارٍ من الجنود ـ الفلاحين (limitanei)، تدعمهم حامياتٌ متخندقةٌ في أماكن محصّنة. كانت روما قد فقدت تخومها، وكان العالم يدفع أبوابها.

2

حول الكتاب المقدّس

«يجب فتح الأبواب لأنّها المكان الذي لا يبقى فيه أحد،
المكان الذي نمرّ به، ومنه نرحل،
ومنه تُقبِل إلى اللقاءات كافّة.
يجب أن نكره الأبواب الموصدة،
موصدة في وجه اللقاءات، موصدة في وجه الرحيل،
ليكنْ يسوع للناس جميعًا،
ولنا نحن معشر الفقراء من البشر،
الراغبين، على الرغم من ذلك، في المحبة،
ليكن هو الباب العالي، المفتوح لنا على مصراعيه».

L'abbé Pierre, 24 septembre 1955
Sur le Livre d'or du Prieuré de la Houssaye
aux frères missionnaires des campagnes.

يمكن أن نحلم ببيرسيفوني[191] (Perséphone) وهي تمرح ضمن طبيعةٍ وحشيةٍ «مع الحوريات اليافعات من ذوات الصدور الواسعة، يقطفن الأزهار في مرجٍ رقيق: وردٌ وزعفرانٌ وبنفسجٌ جميلٌ وسوسنٌ وياقوتية، وكذلك النرجس، جعلته 'الأرض' بالحيلة ينمو من أجل الطفل، طازجًا مثل تويج [...] ويزهر بألقٍ رائع»، مثلما وصفته **الأناشيد الهوميرية**[192] (*Hymnes homériques*)، أو مثلما وصفه ثيوكريتوس[193] (Théocrite) في **الإيدوليا**[194] (*Idylle*) السابعة في مطلع القرن الرابع قبل الميلاد، مجرّد حديقةٍ تدفعني لتذكّر حديقتي حيث «كلّ شيءٍ كان يفوح برائحة الفصل الجميل الترِف، رائحة موسم الفاكهة. إجاصٌ تحت أقدامنا، تفاحٌ إلى جانبينا يتدحرج بوفرةٍ، وغصيناتٌ مثقلةٌ بالبرقوق تميل حتى الأرض». نحن هنا في «الفردوس» (paradeisos) الإغريقي الذي كان يعني في بداية المطاف حديقةً زرعها الله تقع في عدن في الشرق البعيد، وانتهى به الأمر ليصبح دنيويًا ويشير إلى البساتين المحوطة بسور حمايةٍ من النهّابين. لكنّ العصور الوسطى مرّت من هنا وتركت لنا لوحةً لا يسهل الإفلات منها، لوحةً تظهر فيها القبلات العفيفة الرقيقة التي كان

---

(191) بيرسيفوني: في الميثولوجيا الإغريقية، ابنة ديمترا من زيوس، اشتُهرت بجمالها الأخّاذ.

(192) الأناشيد الهوميرية هي مجموعةٌ من أربعٍ وثلاثين (أو اثنتين وثلاثين) قصيدةً مكرّسةً لأحد الآلهة وتغنّى كمقدّمةٍ لعملٍ أطوَل، وليس هنالك اتفاقٌ على تاريخ تأليفها.

(193) ثيوكريتوس (حوالى 315 ـ 250 ق.م.)، شاعرٌ إغريقي يعدّ أحد الشعراء السبعة ضمن الكوكبة الشعرية الإغريقية في القرن الثالث قبل الميلاد.

(194) الإيدوليا هي شكلٌ مختصرٌ ينطبق في الأصل على جنسٍ شعريٍّ في العصور القديمة، وهي قصائد مستوحاةٌ من قصائد الرعاة، لكنّها تطرّقت إلى مناحٍ أخرى، كامتداح الحكّام.

يتبادلها آدم وحواء في حديقة عدن وتجعلنا نشعر إلى هذا الحدّ بالحنين إلى ماضٍ ناصعٍ فيه «شجرة الحياة» و«شجرة معرفة الخير والشر» المزروعتان وسط حديقة عدن تلك «المحوطة بالجدران المصنوعة من الحجارة الثمينة» والتي يعبر بها نهرٌ «وغرَس الربُّ الإله جنّةً في عدن شرقًا ووضع هناك آدمَ الذي جَبَلَه» (**سِفْر التكوين**، 2، 8) قبل أن تأتي حوّاء العذبة التي خرجت من ضلعه لتوافيه فيها.

يجب بدايةً أن نتذكّر أنّ الفردوس مصمّمٌ على شكل حاضرةٍ وفق الشكل المستعار من رؤيةٍ قُدِّمت في آخر **سِفْر الرؤيا** (21، 12) حيث يصف القديس يوحنا أورشليم السماوية، مدينة حقيقية بسورها العظيم والعالي وأبوابها الاثني عشر ويحرسها اثنا عشر ملاكًا وأسماء مكتوبة هي أسماء أسباط بني إسرائيل في حين أنّ أسماء رسل الحمَل الاثني عشر موجودةٌ على أسس السور الاثني عشر. لوقتٍ طويل، سترمز إلى أورشليم الأرضية هذه سلسلةٌ من الأبراج والأبواب التي كانت الكنيسة تطلق عليها تسمية «تيجان النور». أحيانًا، كما في سطح القوصرة الغائر في كنيسة كونك[195] (Conque)، حيث يمثّل أيضًا الجحيم كما سنرى، يكفي عنصرٌ واحدٌ لاستحضار الفردوس: رواقٌ فيه مصابيح معلّقة وأبوابٌ بأقفالٍ يجلس تحتها الفرِحون. على بوّابة يوم القيامة (1220 ـ 1230) في كنيسة نوتردام بباريس، نجد الفردوس مجدّدًا مدينةً محصّنةً تستند إليها قدما المسيح. كما تلمّح منمنمةٌ في كتاب **الساعات الكبيرة لدوق بيري**[196] (*Les Grandes Heures du Duc de Berry*)

(195) كونك: بلدةٌ فرنسيةٌ تقع في الجزء الجنوبي من فرنسا.

(196) كتاب الساعات (كتابٌ مصوّرٌ فريدٌ يتضمّن مجموعةً من النصوص والصلوات والمزامير بالإضافة إلى الصور) أمر بكتابته جان دو فرانس، دوق بيري، وانتهت كتابته في العام 1409. وقد استدعى لإنجازه الرسام جاكمار هيسدان (Jacquemart de Hesdin) ولاسيما لرسم منمنماتٍ كبيرةٍ تحتل صفحاتٍ كاملة، بالإضافة إلى فنانين آخرين.

(1403) إلى أبوابٍ مغلقةٍ وتصوّر القديس بطرس (الذي يحمل مفاتيحه) وهو يدخِل الدوق إلى «السماء» على عتبة مبنًى قوطيٍّ ليس إلا حاضرة الله. سوف يصف دانتي[197] (Dante) هو أيضًا في كتابه **الكوميديا الإلهية** (*La Divine Comédie*) الفرِحين الموضوعين في «السماوات» المختلفة وفق تراتبيتهم. في لوحة دومينيكو دي ميتشيلينو[198] (Domenico di Michelino) في كاتدرائية فلورنسا (1465) والتي تمثّل بدورها دانتي وهو يقدّم **الكوميديا الإلهية**، نجد أنّ حاضرة فلورنسا نفسها هي التي تستحضر الفردوس.

يذكر جان دولومو[199] (Jean Delumeau) في كتابه **تاريخ الفردوس** (*Histoire du paradis*)، أنّ الناس أعادوا في كلّ مكانٍ اعتبارًا من القرن السادس عشر خلق فراديس اصطناعيةٍ لأنّهم كانوا يعلمون أنّ الفردوس الآخر قد تبدّد. تذكّر المتاهات، تلك الأبواب المستحيلة التي أصبحت مألوفةً جدًّا بدءًا من عصر النهضة في الحدائق الأوروبية، دروب المسارّة التي كانت تذرعها أحيانًا، كما في غابة بومارتزو (Bomarzo) المقدّسة في إيطاليا (1552)، أشكالٌ مخيفة، تذكّر الزائر بأنّ المسلك الإنساني بات صعبًا منذ الخطيئة الأصلية، ويجب بذل كثيرٍ من الجهود لتأديب طبيعةٍ أصبحت متمرّدة. في الوقت عينه، كانت حديقة عدن تفقد سياجها وكانت الأزهار، بتأثير حدائق الشرق وإعادة اكتشاف العصور القديمة، تتقدّم مع تزايد الحساسية في

---

(197) دانتي أليغييري (1265 ـ 1321)، شاعرٌ وكاتبٌ وسياسيٌّ من فلورنسا بإيطاليا، يعدّ «أبا اللغة الإيطالية». من أهمّ أعماله كتاب: **الكوميديا الإلهية** الذي يتألّف من ثلاثة أقسام: «الجحيم» و«المطهر» و«الفردوس».

(198) دومينيكو دي ميتشيلينو (1417 ـ 1491)، رسامٌ إيطاليٌّ من مدرسة فلورنسا.

(199) جان دولومو (1923 ـ)، مؤرّخٌ فرنسيٌّ متخصّصٌ في المسيحية، ولاسيما في عصر النهضة.

الأديرة القروسطية وفي الفنّ الغربي. استفاد الفردوس، أو بالأحرى صورته، استفادةً واسعةً من ذلك إلى درجة أنّ العثور على الفردوس الأرضي أو تحقيقه أصبح أكثر أهميةً من الفوز بالفردوس السماوي، ولاسيما في الأوساط البروتستانتية. في كلّ مكان، بات الناس يسعون إلى تحديد مواضع أبـواب الفردوس من دون أن يفلحوا في ذلك أبـدًا! ينقل دولومو أنّـه أمكن وضع قائمةٍ مهمّةٍ من مؤرّخي القرن السادس عشر الذين دُهشوا بتوضيحات كريستوف كولومبوس[200] (Christophe Colomb) الـذي ذهب بحثًا عن أرض الذهب (El Dorado) المبطّنة بأورشليم الأرضية. بل إنّ كولومبوس الذي برهن على الشروط القابلة للسكن في المناطق الاستوائية، اقترح خليج باريا[201] (Paria) الذي «ربّما كان يشكّل الدرب المحرّم، لكنّه على الرغم من ذلك درب الفردوس الأرضي» بوصفه «بابًا» ممكنًا. في مطلع القرن السابع عشر، اقترح دومينيكانيٌّ يُدعى لويس دي أوريتا (Luis de Urreta) جبل أمارا (Amara) في إثيوبيا مكانًا للفردوس الأرضي. ثمّ مضى بعضهم بصورةٍ منطقيةٍ للبحث عنه في الشرق من جهة بلاد ما بين النهرين.

نعود إلى أبوابي التي لا يمكن العثور عليها، يتمّ الحديث بخاصّةٍ، في ما يتعلق بالفردوس السماوي، الأصلي، عن حكاية «طـردٍ» بعد

---

(200) كريستوف كولومبوس (1451 ـ 1506)، بحارٌ عمل في خدمة العاهلين الكاثوليكيّين الإسبانيين إيزابيل دوكاستيلو وفرديناند آراغون. كان أوّل شخصٍ في التاريخ الحديث يعبر المحيط الأطلسي بحثًا عن طريقٍ جديدٍ إلى الهند الشرقية، فاكتشف طريقًا بين القارة الأميركية وأوروبا. يعيّن اكتشاف جزر الكاريبي بداية استعمار الأوروبيين أميركا ويجعل من كولومبوس فاعلًا أساسيًّا في الاكتشافات الكبرى في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. تعدّ رحلته الأولى القطيعةَ الكبرى بين العصر الوسيط والعصور الحديثة في التاريخ الجغرافي للحضارة الغربية.

(201) باريا: شبه جزيرة في فنزويلا.

الخطيئة المرتكبة. لكن كيف طُرد آدم وحـوّاء؟ هل طُـردا عبر باب الفردوس، وهذا يعني أنّه كان هنالك باب تثبته وظيفة القديس بطرس ومفتاحه؟ التوصيف الدقيق الوحيد الذي نعرفه ليس عن الفردوس بل عن الحكم عليهما بالطرد منه، هو توصيف أغوستينو إنفيجيس[202] (Agostino Inveges)، هذا المغرم بالزمن والفضاء المرتبط بالأسبوع الأول في تاريخ البشرية والذي وضع بالاستناد إلى عملٍ وتوثيقٍ هائلين «تسلسلًا مفصّلًا لإقامة آدم وحواء في الفردوس الأرضي». يقول إنّ «تناول الطعام المُهلك» حصل يوم جمعة، «في اليوم عينه الذي صُلب فيه المسيح» وفي اليوم السادس للخلق الذي يحدّده بأنه «يوم الجمعة 25 آذار/ مارس»:

- في الفجر، خلْق آدم في بلاد عدن.
- حوالى الساعة التاسعة صباحًا، الدخول إلى الفردوس الأرضي.
- من التاسعة إلى الحادية عشرة صباحًا، نزهة آدم داخل الغابة الفردوسية. يتلقى أمرين من القدير: «الاهتمام بالحديقة وحراستها».
- حوالى الساعة الحادية عشرة، يصل آدم إلى وسط الحديقة ويتلقّى أمرين آخرين: «الأكل من كلّ الثمار». «لكن عدم المسّ بثمار شجرة معرفة الخير والشر».
- من الساعة الثانية عشرة إلى الساعة الثالثة بعد الظهر تقريبًا، تُجلَب الحيوانات إلى آدم الذي «يسمّيها».
- من الساعة الثالثة إلى الساعة الرابعة بعد الظهر، نوم آدم وخلق حواء.
- حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر، عرس آدم وحواء، يتبعه أسبوعٌ من السعادة.

---

(202) أغوستينو إينفيجيس (1595 ـ 1677)، لاهوتيٌّ ومؤرّخٌ صقلّي من القرن السابع عشر.

الجمعة الأول من نيسان:

- حوالى الساعة العاشرة صباحًا، يبدأ إبليس إغواء حواء.
- حوالى الساعة الحادية عشرة، «يهزمها بصورةٍ بائسة».
- حوالى الساعة الثانية عشرة، آدم يأثم بدوره.
- حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر، استدعاء الآثمَين إلى المحاكمة. إدانة.
- حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر، الطرد من الفردوس الأرضي.

إغلاق الحديقة ووضع ملاكٍ لحراستها.

هكذا طُرد آدم وحواء من باب الفردوس الذي أُغلق خلفهما وأمامنا ولم يعد موجودًا سوى في الحلم وعلى مدخل الكنائس إلا على شكلٍ رمزيٍّ ومختزل، «فناءات الكنائس» التي ندوسها بأقدامنا جميعًا بانتظار المجيء الثاني للمسيح.

الوصول إلى الباب

الأدبيات التي تخصّ المسيحية وحكايات الأبواب مهمّةٌ إلى درجة أنّني لن أقوم هنا بأكثر من مواربةٍ بطريقتي لبعض مصاريع الأبواب من أجل السماح لـ«العابرين المعتبرين» الذين هم نحن بالتأكيد بالاستفادة من آخر الأضواء التي لا تزال مقروءةً لديانةٍ تعبر، وكي أقول ثانيةً كم لعبنا باستعارة الباب واستفدنا منها بهدف محاولة قول الأشياء... وبصورةٍ شديدة العيانية، فلتعلموا أنّ المرء في روما اليوم عندما يستعدّ لاستقبال كاردينال أو صاحب نيافةٍ في بيته، لا ينسى أبدًا أن يضع شمعةً أمام بابه لتمييز وصول «رجل النور» هذا. ربّما تقولون لي إنّ صاحب النيافة ليس بالضرورة كاهنًا، بل هو بالأحرى وجيهٌ من الكنيسة، لكن إذا كان كاهنًا فضلًا عن ذلك، فليبقَ في أذهانكم أنّه عندما يصل ملاكٌ وقسيسٌ إلى بابٍ

ما، فعلى الملاك أن يمرّ ثانية، وفق القول المأثور: «الكاهن أعظم دائمًا من الملاك». ولسببٍ وجيه: الكاهن يحمل مفاتيح الكنيسة، لا مفاتيح بيتك، حتى إذا كان الأمر معادلًا لذلك في عهد محاكم التفتيش ثمّ في أواخر القرن الثامن عشر. وهو يحمل هذه المفاتيح بصفة «بوّاب»، وهي الرتبة الأولى ضمن الترتيبات الصغرى التي أوكله إياها مطرانه بفضل (*statuta ecclesiae antiqua*)[203] التي استُنّت في بلاد الغال.

حتى إذا كان «البوّابون» قد ذُكروا لأوّل مرّةٍ في رسالة البابا كورنيلوس[204] (Corneille) إلى فابيوس الأنطاكي (Fabius d'Antioche) في العام 251، ضمن استمرارية خدمات حرّاس المعابد الوثنية ومعبد أورشليم، فلم تظهر وظيفة «بوّاب» أو «قندلفت» في قائمة الرتب إلا أواخر القرن الخامس، وكانت وظيفته «الضرب على الصنج وقرع الأجراس، فتح الكنيسة وغرفة المقدّسات وتقديم الكتاب المفتوح لمن يقوم بالوعظ». أمّا طقس تلقين البوّاب سرّ الكهنوت، فقد تحدّد نهائيًّا في كتاب شعائر تلقين سرّ الكهنوت الذي وضعه غيّوم دوران[205] (G. Durand) أواخر القرن الثالث عشر وتلقّفته جميع وثائق الصلوات الغربية بوصفه «أوّل ترتيبٍ أدنى» حتى وضع بولس السادس نهايةً له عبر **التشريع البابوي المتعلّق ببعض الكهنة** (*motu proprio Ministeria quaedam*) في العام 1972. حتى خمسينيات القرن العشرين، لم يتغيّر طقس تلقين سرّ الكهنوت الذي تضمّن منذ البداية دعوةً للمرشّحين

(203) الفرائض الكنسية القديمة: مجموعةٌ من التشريعات من جنوب بلاد الغال، وضعها بين العامين 442 و506 كاهنٌ ذو ميولٍ إصلاحيةٍ تمتّع بحظوة رؤسائه.

(204) البابا كورنيلوس (توفّي في حدود العام 253)، هو البابا الحادي والعشرون للكنيسة، ويعدّ قدّيسًا في الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية.

(205) غيّوم دوران (حوالى العام 1230 ـ 1296)، كنسيٌّ فرنسيٌّ كان مطرانًا. ألّف عدّة كتبٍ راجت رواجًا كبيرًا في العصر الوسيط.

وتحذيرًا وتسليم المطران المفاتيح مترافقًا بصيغة «الفرائض» (statuta) مع فتح أبواب الكنيسة «وإغلاقها»، حيث كان الطقس لا يزال يتمّ على النحو التالي: على البوّاب المرشّح أن يلامس بيده اليمنى وهو راكعٌ أمام المطران مفتاحًا وهو يسمع في الوقت عينه الكلمات التالية: «تصرّف دائمًا وفي ذهنك أنّك ستحاسَب يومًا أمام الله على كلّ ما تغلِق عليه هذه المفاتيح». وعلى أثر ذلك، يساق «البوّاب» الجديد إلى أحد أبواب الكنيسة حيث يجب عليه للمرّة الأولى أن يقوم بهذه الوظيفة المتواضعة: أن يغلق الباب ثمّ يفتحه وينبّه جميع الناس إلى ذلك عبر تحريك الجرس الصغير المقدّم إليه. ثمّ يقاد ثانيةً إلى الحبر الذي يعرِّف في دعوته إلى الصلاة وظيفةَ البوّاب بمزيدٍ من التفاصيل، فيوصيه «بأن يكون مخلصًا في حرصه على كلّ ما يوجد في بيت الله، وبأن يدعو إليه الشعب، ليلًا ونهارًا، في الساعات المحدّدة لذكر اسم الله». تلي ذلك الصيغ المعتادة الموجّهة إلى الله المبجّل ثمّ تبريكٌ أخيرٌ يلتفت فيه المطران للمرّة الأخيرة وقد نزع تاجه عن رأسه إلى البوّاب ليكرّسه أمام يسوع، مؤكدًا لهذا الأخير: «هذا الخادم الذي أصبح الآن خادمك يستحقّ، بعد أن تألّق من بين بوّابي الكنيسة بطاعته، أن تكون له حصّةٌ في المكافأة التي تحتفظ بها لمن تختاره». هكذا يمسي الكاهن الشابّ مكلّفًا بحراسة المعبد المادّي وسيتلقّى مع المفتاح القدرة على «فتح أرواح الحقيقة». هذا الكاهن المستقبليّ ليس عند بابه الأوّل، فقد فُتح على آفاقٍ مقدّسةٍ عبر جزّ شعر رأسه، وهي شريعة إدماجٍ في جسم الكنيسة الكبير، تقلّد مثيلتها لدى الجنود الرومانيين. يبدو أنّ هذه الشعيرة تجسّد أكثر من انفتاح، ارتقاءً إلى حقٍّ خاص، مثلما يشير إلى ذلك فوروتيير[206] (Furetière) في مقالته، مؤكّدًا أنّ «جزّ شعر الرأس هو الباب للدخول في المغانم».

(206) أنطوان فوروتيير (1619 ـ 1688)، رجل كنيسةٍ وشاعرٌ وكاتب قصّةٍ وروائيٌّ ولسانيٌّ فرنسي. من أهمّ أعماله قاموسٌ شامل شهد نجاحًا دام أكثر من ثلاثة قرون.

وممّا يأتي كذلك ذكره بكامل الوضوحِ في احتفال تلقين سرّ الكهنوت، الموقف الذي يجب على الكهنة المستقبليين تبنّيه عندما يصلون إلى الكنيسة. يتوقّف الجميع عند العتبة، ويطلب الكورس مرّتين من الأبواب أن «ترفع قوصراتها كي يتمكّن الملكُ المنتصر الذي يريد الدخول من العبور». كلّ دينٍ حاضرٌ هنا لـ«يرفع»، وبطبيعة الحال بالنسبة إلى المسيحيين وأتباع الأديان التوحيدية الأخرى، كلّ باب كنيسةٍ أو مسجدٍ أو كنيسٍ يعدّ منخفضًا أكثر ممّا ينبغي بالنسبة إلى «صاحب الجلالة السامي» الذي سوف يبجّل فيه! نعود إلى موكبنا: من داخل الكنيسة، يسأل صوتٌ يتحدّث باسم الأبواب قائلًا: «لكن من هو ملك المجد هذا؟»، فيجيب الكورس: «إنّه ملكٌ قويٌ قدير، ملكٌ كلّي القدرة في المعارك! فلتسرعي أيتها الأبواب وترفعي عتباتك، فلترفعي بوّاباتك العتيقة! وسوف يدخل الملك المظفّر!».

إذا ما صدّقنا كتاب **الأسطورة الذهبية**[207] (*La Légende dorée*) لصاحبه جاك دوفوراجين[208] (Jacques de Voragine)، فإنّ حكايات القدّيسين على أبواب الكنائس ليست قليلة. نجد فيها القدّيس باسيليوس الذي استخدم الأبواب لفصل طرفين عدوّين كانا يتواجهان للاستحواذ على كنيسة: الكاثوليك ضدّ الأريوسيين[209]، إذ طلب أن

(207) الأسطورة الذهبية: عملٌ كتبه باللاتينية جاك دوفوراجين (انظر الهامش التالي) بين العامين 1261 و1266، يحكي قصّة حوالى 150 قديسًا أو مجموعة من القديسين والقديسات والشهداء المسيحيين، وبعض أحداث حياة المسيح والسيّدة العذراء.

(208) جاك دوفوراجين (بالإيطالية ياكوبو دافاراتشيه، جياكومو دافاراتشي) (حوالى 1228 ـ 1298) كان مطران جنوى بإيطاليا وكتب مؤلّفًا شهيرًا بعنوان **الأسطورة الذهبية** (الهامش السابق).

(209) الأريوسيون: أتباع الديانة الأريوسية، وهي مذهبٌ مسيحي يُنسب إلى أريوس (حوالى 250 ـ 336)، أحد كهنة الإسكندرية، وتتمحور تعاليمها المختلفة عن سائر الطوائف في علاقة أقانيم الثالوث الأقدس بعضها ببعض وطبيعة هذه الأقانيم.

تُغلق أبواب الكنيسة وأن يضع كلّ طرفٍ عليها ختمه. وأضاف: ستكون الكنيسة لمن تُفتح الأبواب لصلواته. صلّى الأريوسيون طيلة ثلاثة أيامٍ وليالٍ وذهبوا إلى أبواب الكنيسة. لكنّ تلك الأبواب لم تُفتح، فأمر باسيليوس بأن يشكّل المسيحيون موكبًا وقام هو نفسه بصلاةٍ طويلةٍ ولمس الأبـواب بعصاه الرعوية قائلًا: «ارفعوا أيُّها الرؤساءُ أبوابكم وارتفعي أيّتها الأبـواب الدهريّة ليدخل ملك المجد» (مزامير 23). وعلى الفور، كما تقول الأسطورة، فُتحت الأبـواب وبقيت الكنيسة ملكًا للكاثوليك. ولم يفعل القديس دومينيك أقلّ من ذلك عندما ذهب ذات ليلة إلى ديرٍ لم يشأ أن يوقظ بوّابه: أقام صلاةً ففُتحت الأبواب ودخل مع صاحبه. وقد فعل أفضل من ذلك في مرّةٍ أخرى حيث كان ذاهبًا إلى ديرٍ سيسترسي[210] بصحبة فرقةٍ صغيرةٍ لمحاربة الهراطقة. وصل في وقتٍ متأخرٍ جدًّا ووجد الأبواب مغلقة. وكانت صلاةٌ واحدةٌ كافيةً كي يجد الجميع أنفسهم داخل الكنيسة حيث أمضوا الليلة وهم يبتهلون. أمّا الرسُل، فقد استفادوا من ظاهرة انتقالٍ عن بُعد كانت تُدعى آنذاك «الارتقاء الإعجازي» لم تكن مألوفةً في عملية طردٍ ما: تقول الأسطورة إنّه لحظة صعود مريم العذراء السعيدة، وفي حين كان كلٌّ في مكانه يتحدّث أو يعظ، صعدوا إلى الغيوم ووُضعوا أمام باب مريم في اللحظة عينها التي كانت ستتوفّى فيها... أمّا القدّيس بطرس، فلا أحد يجهل أنّه تلقى من المسيح حِملًا أثقل بكثيرٍ من مجرّد باب، فقد تلقّى مفاتيح الملكوت. وفي ضواحي قيصرية، تلقّى الصيّاد البسيط سمعان من المسيح لقب «بطرس» لأنّه اعترف به من دون أيّ تشكيكٍ بوصفه «ابن الله الحي»، في حين أنّه لم يكن يعرفه شخصيًّا، وارتقى

(210) نسبةً إلى رهبانية سيتو (*Citeaux*) التي تعود إلى العام 1098. لعبت دورًا أساسيًّا في تاريخ القرن الثاني عشر الديني وفرضت نفسها بسلطتها الروحية في الغرب كله.

تحت هذا الاسم إلى لقب الحواريّ الأول، وذلك بالكلمات التالية: «أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي... وأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات، فكلّ ما تربطه على الأرض يكون مربوطًا في السماوات» (متّى، 16، 18 ـ 20). وبالفعل، تلقّى بطرس مفتاحين: أحدهما ذهبيٌّ لملكوت السماوات والآخر فضيٌّ لملكوت الأرض، ومعهما تلقّى القدرة على فتح أبواب الفردوس وإغلاقها. كذلك أصبح بطرس أول أسقف لروما (البابا)، وأسّس السيادة البابوية[211] حيث سيأتي بعده مئتان وستةٌ وستون خلَفًا يحتفظون منذ أكثر من ألفي عام بهذين المفتاحين المتصالبين اللذين يضمنان خلاص أرواح المسيحيين ويمكن أن نراهما أسفل تاج البابا وعلى علم دولة الفاتيكان الثيوقراطية (théocratique) وفي شعارها، وينقلهما بعضهم إلى بعضٍ بحرصٍ حتى اليوم.

سوف تلعب الأبواب دورًا أساسيًّا في حكاية يسوع نفسه، وذلك منذ بداية حياته إذا ما صدّقنا الأسطورة التي نقلها أيضًا جاك دوفوراجين بصدد ميلاد المسيح. هذه الحكاية راسخةٌ في كلوني[212] (Cluny)، وهي ثمرة رؤيا لقسّها القديس هوغ[213] (Hugues)، عشية يوم الميلاد، ففيها أثار الإعلان عن ولادة المسيح اضطراب الشياطين بعد أن تلفّظت العذراء بالجملة التالية: «أين أصبح العدوّ الذي كان حتى هذا الحين

(211) السيادة البابوية مبدأٌ إيماني في الكنيسة الكاثوليكية، يتمثّل في الاعتراف بالبابا بوصفه خليفةً للقديس بطرس.

(212) كلوني: بلدةٌ في فرنسا فيها ديرٌ شهير تأسّس في العام 909 أو 910، وهو رمزٌ لتجديد الأديرة في الغرب؛ فقد شهد إصلاحًا كنسيًّا وكان مركزًا ثقافيًّا بامتيازٍ في العصر الوسيط.

(213) القديس هوغ كلوني (1024 ـ 1109)، هو سادس قسٍّ في كلوني (1049 ـ 1109)؛ امتدّ نفوذ ديره في أوروبا كلّها. وهو مؤسّس الحركة الكلونيزية وكان له تأثيرٌ في البابا أوربانوس الثاني.

يسود ضدّ البشر؟»، وهو سؤالٌ أكّده الطفل الإلهي الذي كان يتحدّث منذ ذلك الوقت سائلًا بدوره: «أين هي الآن قدرة الشيطان؟». أمام مثل هذه المعجزة ومثل هذا الاستفزاز، خرج الشيطان من الأرض وسعى بكافّة الوسائل الممكنة إلى تكذيب تلك الكلمات، لكنّه لم يستطع أن يحوّل أيّ راهبٍ عن صلاته فهدّد بالركض عبر المجمع والمهجع وصالة الطعام. لكن بانتظار ذلك، أصبح باب المجمع ضيّقًا جدًّا عليه وباب صالة الطعام منخفضًا جدًّا وأغلقته عوائق لا يمكن تجاوزها تشكّلت، كما يوضح كتاب **الأسطورة الذهبية**، من إحسان الرهبان ومن اهتمامهم بالقراءة ومن زهدهم في الطعام والشراب. هكذا تلاشى الشيطان الذي احتوته تلك الأبواب الشديدة القداسة وهو في غاية الارتباك.

يسوع أمام الأبواب

يكفي، كي نفهم كلّ شيء، أن نتأمّل عدد سير يسوع الشخصية والحكايات الأسطورية إلى هذا الحدّ أو ذاك، والتي تحكي لنا كيف وُلد في بيت لحم خلف أبواب زريبةٍ بين الثور والحمار الرمادي وأمورًا أخرى كثيرةً حول جولاته وتنقّلاته التي لا تُعدّ ولا تُحصى قرب أبواب المدن. سوف أقتصر على النصّ، وبخاصّةٍ على المطابقات في العهدين القديم والجديد، وكلّها باللغة اللاتينية، والتي عدّدت كلمات (clavis) و(fores) و(janua) و(ostium) و(porta) في ما لا يقلّ عن 120 مرجعًا بمستوياتٍ شتّى. لكنّ لوقا، صاحب بولس، والذي يُعدّ مؤلّف الإنجيل الثالث وأعمال الرسُل، هو الذي بدا لي الأكثر حساسيةً للتحوّلات والمثُل الخاصة بالباب والتي تلفّظ بها يسوع، وكذلك الأكثر دقّةً في سرديّاته الخاصّة بزيارات ابن الله إلى الأرض. لن أقدّم هنا إلّا بعض الأعمال والأفعال والكلمات المرتبطة بالأبواب وضروب العبور،

علمًا بأنّ بطلي الإنجيلي يبقى «الباب»، وأقول ذلك ثانيةً في حال لم أُفهم فهمًا صحيحًا.

واقع الأمر أنّ يسوع، مثله في ذلك مثل كثيرٍ من المهمّشين، أمضى جزءًا كبيرًا من حياته على أبواب المدن، إمّا داخلًا منها منتصرًا أو مطرودًا. لقد استبقيت بالتالي بعض الحكايات عن هذه «الحياة على الأبواب»، مثل ذلك اليوم الذي يحكي عنه لوقا عندما اقترب من نايين. ذهب إلى المدينة وذهب معه كثيرون من تلاميذه وجمعٌ كثيرٌ فلمّا اقترب إلى باب المدينة إذا ميتٌ محمولٌ ابنٌ وحيدٌ لأمّه وهي أرملة. فلما رآها يسوع تحنّن عليها ثمّ تقدّم ولمس النعش. فوقف الحاملون فقال: «أيها الشاب لك أقول قُم. فجلس الميت وابتدأ يتكلّم» (لوقا 7، 11 _ 16). بعد مثل هذه المعجزة، نستطيع تخيّل السمعة التي سبقت وصول يسوع إلى المدينة، مثلما يكتب لوقا الذي لم يكن أقلّ اندهاشًا من الآخرين: «وخرج هذا الخبر عنه في كلّ اليهودية وفي جميع الكورة المحيطة» (لوقا 7، 17). يحكي لوقا الذي لم يكن يفارق يسوع، كيف كان «على أثر ذلك يسير في مدينةٍ وقرية» (لوقا 8، 1) ليبشّر. بُهر لوقا، وهو نفسه طبيب، بقدرات الشافي، بل بقدرات محيي الأموات التي يمتلكها يسوع، وكان أكثر انبهارًا به خطيبًا، فلم يتوانَ يومًا عن تدوين أقوال معلّمه. وقد حكى بخاصّةٍ عن ذلك اليوم الذي بدأ فيه ييأس من قلّة الإيمان به ومن نفاق الجميع بعد مثال حبة الخردل والخميرة (لوقا 13، 18)، فأجاب عن سؤالٍ طُرح عليه: «يا سيّد، أقليلٌ هم الذين يخلصون؟» بقوله: «اجتهدوا أن تدخلوا من الباب الضيق» (لوقا 13، 24). نحن هنا أمام أحد الأمثال النادرة المتشائمة التي قالها يسوع. كما أنّه سوف يشرح قوله ذاك: «فإني أقول لكم إنّ كثيرين سيطلبون أن يدخلوا ولا يقدرون. من بعدما يكون رب البيت قد قام وأغلق الباب وابتدأتم تقفون خارجًا وتقرعون الباب قائلين: يا رب! يا رب! افتح لنا! يجيب ويقول لكم: لا

أعرفكم، من أين أنتم؟ [...] أقول لكم لا أعرفكم من أين أنتم، تباعدوا عنّي يا جميع فاعلي الظلم. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان [...] وأنتم مطروحون خارجًا [...]. وهو ذا آخِرون يكونون أوّلين وأوّلون يكونون آخِرين» (لوقا 13، 24 ـ 30). وسوف يعود يسوع لاحقًا إلى الصعوبة التي بها تُفهم طريقة الدخول في ملكوت السماء عندما يقدّم هذا المثال الآخر الذي يقترن غالب الأحيان مع المثال السابق: «لأنّ دخول جملٍ من ثقب إبرةٍ أيسر من أن يدخل غنيٌّ إلى ملكوت الله» (لوقا 18، 25). ويتصاعد توتّر يسوع أكثر في إنجيل لوقا الذي يذكّر بأنّ يسوع أثناء العشاء عند الفريسي كان قد انزعج من «الناموسيين» واتّخذ موضوعًا مجازيًّا آخر لكنّه مرتبطٌ أيضًا بالباب. فبعد أن أنّبهم بشدةٍ على نقائصهم، خلص إلى القول: «ويلٌ لكم [...] لأنّكم أخذتم مفتاح المعرفة. ما دخلتم أنتم، والداخلون منعتموهم» (لوقا 11، 52).

لكنّ يسوع يحبّ الأبواب لحقيقتها ورمزيتها، إلى درجة أنّه بوصفه سياسيًّا بارعًا ومرتدًّا ماهرًا لا يتورّع عن التقدّم إليها بأدبٍ ليبدأ عندها نقاشًا، وربّما ليتشارك لقمةً ويناقش ما يؤرّقه... هذا هو على الأقلّ ما يحكيه في كتاب رؤيا يوحنّا، حيث يعلن من دون مواربة: «ها أنا ذا واقفٌ على الباب وأقرع. إن سمع أحدٌ صوتي وفتح الباب أدخل إليه وأتعشّى معه وهو معي»[(214)]. يسوع حسّاسٌ أيضًا للرمزية لدى الحيوانات ولن يتوانى عن استخدامها للدلالة على الطريقة التي يجب أن يُقرأ بموجبها «دخوله إلى أورشليم». وعلى غرار الملك العادل والحكيم سليمان، يختار رمزًا للسلام عندما يمتطي حمارًا، أو بالأحرى جحشًا كان أرسله مع اثنين من تلاميذه. لكنّ يسوع يمتطي هذا الجحش الذي يتمتّع بكلّ ما يجعله متواضعًا ومسالمًا وكأنّه ملك! مع رمز الحمار، كان يريد أيضًا أن يُفهم عناده في بسط السلام على الأرض، وهو السبب الذي دفعه للدخول

(214) سفر الرؤيا، 3، 20.

إلى المدينة من الشرق، وكأنّه ملك سلامٍ حقيقي. يقدّم لوقا تفاصيل هذا الدخول الملكي حيث يضع الناس زهورًا وسعف نخيلٍ وأغصانًا أخرى ليفرشوا الطريق كما يفعلون أمام ملك، بل أضاف بعضهم معاطفهم للاحتفاء بمجيء النبي. في هذه الأثناء، كان بيلاطس البنطي[215] (Ponce Pilate) المقيم في القيصرية يدخل من الغرب على حصانٍ حقيقي، أي كرجل حربٍ وفاتح. ونحن نعرف توابع هذا الدخول المهيب.

ثمة حكايةٌ أخيرةٌ للباب يشير إليها لوقا، حكاية البعث، وهي حكاية اختفاء الباب. تُروى هذه الحكاية على شكل ملاحظةٍ تبديها مريم المجدلية ويونا ومريم أم يعقوب اللواتي ذهبن إلى القبر الذي يرقد فيه المسيح، شديدات القلق لمعرفة من الذي يمكن أن يفتح القبر لهن. وعندما وصلن، «وجدن الحجر مدحرجًا عن القبر» (لوقا 24، 2). سنعرف عن طريق مرقس من هو البوّاب الذي يمتلك ما يكفي من القوّة ليدحرج مثل هذا الحجر: «فتطلّعن ورأين أنّ الحجر قد دُحرج لأنّه كان عظيمًا جدًّا. ولمّا دخلن القبر رأين شابًّا جالسًا عن اليمين لابسًا حلّةً بيضاء» (مرقس 16، 5). فانتابهنّ بطبيعة الحال خوفٌ عظيم...

ولكن علينا ألّا ننسى أنّ كلّ شيءٍ في هذه الديانة يتمّ بتقليدٍ للمسيح وأنّ الكتاب المقدّس يمتلئ بحكايات الدخول والأبواب والمفاتيح، مثلما عرضتُ هنا لمحةً صغيرةً عنها، تمامًا مثلما هي الحال في الأديان التوحيدية الثلاثة والأديان ذات الآلهة المتعدّدة التي سبق عرضها. لكن لا تعتقدوا أنّ الباب هو دائمًا قويٌّ ومفتوحٌ على مصراعيه، فما إن يوجد دينٌ حتى توجد منظومةٌ مغلقة، ولا تكون أقوال الفتح في معظم الحالات إلّا مفاعيل إعلان، إذ إنّ الأبواب إذا لم نتمكّن من إبقائها مواربةً، سرعان ما تصبح أبوابًا زائفةً حقيقيةً يصعب العثور على مخرجٍ فيها.

---

(215) بيلاطس البنطي (10 ق.م. ـ حوالى العام 44 للميلاد)، كان الحاكم اليهودي لمقاطعة اليهودية، وتولّى محاكمة المسيح وأصدر الحكم بصلبه.

الجحيم وخطر الأبواب السبعة

مع تغلغل المسيحية في العالم اليوناني ـ الروماني، أخذت كلمة «جحيم» (infernum) تحلّ محلّ هاديس (Hadès) وجهنم وبحيرة النار والتارتاروس[216] (Tartare)، ودخلت في الاستخدام لتشير إلى مكان الهالكين، هذا «الذي ينزل إلى الهاوية لا يصعد» (أيوب 1، 9)[217]. غير أنّ صناعة أيقونة (iconographie) جهنّم لم تنتظم ولم تتطوّر بصورةٍ رئيسية حول أبواب الكنائس إلا بدءًا من القرن الثاني عشر. هكذا، يمكن أن نرى، هنا أيضًا، على بوّابة كنيسة كونك (1150)، شدق اللويثان (Léviathan) وهو يبتلع الهالكين أثناء محاولتهم الفرار من المرجل الفائر الذي نُذروا له. والأمر مطابقٌ على بوّابة أوتان (Autun) حيث المشهد أكثر دراماتيكيةً مع أجسادٍ متلوّيةٍ يستولي عليها الفزع أمام شياطين قبيحين متورّمين. في القرن الثالث عشر، تجعل الصيغة الرومانية يأس عذاب جهنّم أكثر إنسانيةً وتنظّمه عبر تضخيم أكثر الموضوعات شعبيةً والتخلص من أشدّ عبارات العذاب فظاعةً. لكن مع دانتي، سيشهد تمثيل الجحيم توفيقًا وتتضافر ضروب الجحيم في الوثنية مع جحيم القرون الوسطى، الأكثر اصطلاحيةً. سوف يأتي علم جمالٍ يدوم حتى الصور السلبيسية[218] (sulpiciennes) حيث سيكون سقوطه مركزيًّا.

---

(216) التارتاروس: في الميثولوجيا اليونانية، مكان العقوبات في العالم السفلي، يعذّب فيه المذنبون إلى الأبد. ويمثل التارتاروس في الإلياذة سجنًا تحت الأرض بعيدًا عن هاديس بُعد الأرض عن السماء.

(217) الصحيح (7، 9).

(218) الأسلوب السلبيسي: عبارةٌ ابتكرها ليون بلوا في العام 1897 لوصف الأعمال الورعية ذات الذوق السيئ، كتماثيل القدّيسين أو اللوحات على الزجاج ذات الأسلوب الساذج إلى حدٍّ ما والخالية من الإبداع. يمكن تفسير العبارة بواقع أنّ حيّ سان سولبيس في باريس كان يضمّ تقليديًّا عددًا كبيرًا من مخازن الكتب والصور والأشياء الدينية.

للذهاب إلى الجحيم، يجب النزول أكثر فأكثر، والخضوع لـ«نزولٍ حقيقيٍّ «إلى الجحيم»، وهو سقوطٌ لا نهاية له في الظلمة والقذارات التي لن يستطيع الهالكون أبدًا الصعود منها مجددًا وحيث يجدون رضاهم. غير أنّ هذا الرمز المسيحي البارز لم يكن يتضمّن أي تعليمٍ ديناميكي ولا حتى توصيفًا منجزًا حتى ظهور **جحيم** دانتي (1314). سيكون فيرجيليوس[219] (Virgile) ودانتي أوّل من سيمضي بوعيٍ كاملٍ لاستكشاف هذا الليل الأزلي حيث يُحكَم على الهالكين الذين يتمسّكون بإفلاسهم تمسّكًا أبديًّا، كما أنّهما أوّل من سيعبر الأبواب الجهنّمية التي لم يكن أحدٌ من الفانين حتى ذلك الحين قادرًا على عبورها.

إنّ هذه الرحلة الفريدة ومعها إلى حدٍّ كبيرٍ كلمات دانتي هي التي شكّلت مخيّلتنا الغربية عن الجحيم الذي أريد هنا إعادة تشكيله. ها هما بعد أن عبرا الغابة المظلمة يتقدّمان بين الظلال المعلّقة ويسلكان طريق العالم الآخر باتّجاه «مداخل القدّيس بطرس المسقوفة»، وبعد عبور أخيرون[220] (Achéron)، يصلان أسفل الحاضرة المتألّمة، ولكن قبل أن يدخلاها يجب عليهما عبور الأبواب السبعة لـ«قلعةٍ مسوّرةٍ سبع مراتٍ بالجدران». ضمن التقليد القروسطي المحض، يسقط عليها دانتي أعمال المصوّرين القروسطيين المسجّلين في الطبلات[221] المذكورة أعلاه ولا يفعل أكثر من تضخيم الموضوعات الشعبية التي تصف ملكوت الأموات المسيحيين مع الدرجات التي لا عودة فيها، والتي يجتازها الهالكون لدى عبورهم كلّ بابٍ من الأبواب. من هذه الإقامة

(219) بوبليوس فيرجيليوس مارو (70 ق.م.12ـ ق.م.)، شاعرٌ لاتينيٌّ عاصر نهاية الجمهورية الرومانية وبداية حكم الإمبراطور أغسطس.

(220) أخيرون: نهرٌ يونانيٌّ هو في الميثولوجيا الإغريقية فرعٌ من فروع نهر ستيكس الذي يجري تحت الأرض وحمل عليه خارون أرواح الموتى إلى الجحيم.

(221) الطبلة في العمارة هي منطقةٌ ثلاثيةٌ من الجدار المغلق في إطار الجزء العلوي للواجهة الأمامية (قوصرة) وكثيرًا ما تزين برسوم وتماثيل.

ومن هذا الوصف للعذابات، وهو وصفٌ كثيرًا ما يكون بارعًا، سوف يستلهم الفنانون الإيطاليون في أواخر العصر الوسيط ومن ثَمّ فنانون مثل جيوتو[222] (Giotto) وأوركانيا[223] (Orcagna) وسينيوريلي[224] (Signorelli)، وبعدهم تينتوريتو[225] (Tintoret) وروبنز[226] (Rubens) حتى زمن الإصلاح المضاد[227] (Contre-Réforme)، عندما التفت الرسّامون إلى مواضيع أخرى. اخترع دانتي وزيّن أرهب التفاصيل بهدفٍ وحيدٍ هو بثّ القشعريرة في أبدان قرّائه. وهو يحكي كيف استجمع فيرجيليوس شجاعته وسط الظلمة والقذارات ووجب عليه «أن يطرح عنه كلّ شكٍّ وأن يموت فيه كلّ خوَر» أمام «القوم المعذَّبين الذين فقدوا غاية العقل» (III، 14 ـ 18). نتبعهم في ليلةٍ بغير نجومٍ وسط ضجيجٍ يدور كما في عاصفة: يعلن الجحيم العميق عن نفسه ومعه أبوابه التي يجب عليهم اجتيازها واحدًا وحدًا.

---

(222) جيوتو دي بوندونه (1266 ـ 1337)، أهمّ رسّام إيطاليٍّ في القرن الرابع عشر، أشارت أعماله إلى ابتكارات أسلوب عصر النهضة الّذي تطوّر بعد قرنٍ من ذلك. بقي مبجّلًا طيلة سبعة قرونٍ تقريبًا بوصفه أبا الرسم الأوروبي وأوّل الأساتذة الإيطاليين العظماء.

(223) أندريا أوركانيا (1308 ـ 1368)، أبرز رسّامٍ ونحّاتٍ ومهندسٍ معماريٍّ في فلورنسا في منتصف القرن الرابع عشر.

(224) لوكا سينيوريللي (1445 ـ 1523)، رسامٌ إيطاليٌّ من عصر النهضة تميّز بقدرته على رسم التصاميم. من أهمّ أعماله لوحةٌ جداريةٌ كبيرةٌ للحساب الأخير.

(225) جاكوبو تينتوريتو (1518 ـ 1594)، رسامٌ إيطاليٌّ من عصر النهضة يقترن اسمه بالحركة الفنّية في البندقية.

(226) بيتر بول روبنز (1577 ـ 1640)، رسامٌ فلامنكي. وهو من أبرز المنتمين إلى طراز الباروك الذي يبرِز الحركة واللون والحسّية.

(227) الإصلاح المضاد أو الإصلاح الكاثوليكي: حركةٌ دينيةٌ استهدفت إصلاح الكنيسة الكاثوليكية ومناهضة الإصلاح البروتستانتي. بدأت مع مجمع ترنت (1545 ـ 1636) وانتهت بنهاية حرب الثلاثين عامًا في العام 1648.

في أعلى الباب الأوّل، كُتبت «تلك الكلمات بلونٍ داكن» مختومةً بما يلي: «أيّها الداخلون، اطرحوا عنكم كلّ أمل» (III، 1 ـ 9). «هذا عبرناه كأرضٍ صلبة، ودخلتُ سبعة أبوابٍ مع هؤلاء الحكماء، ووصلنا إلى مرعًى ذي خضرةٍ نضرة. كان هناك قومٌ ذوو عيونٍ هادئةٍ ووقورة وفي وجوههم أمارات سلطانٍ عظيم» (III، 109 ـ 114). غير أنّ دانتي تعرّف بينهم على إلكترا وبروتوس وسقراط وأفلاطون وأناكساغوروس وثاليس وديوجينس وإقليدس وابن سينا، إذا لم نذكر سوى أولئك العلّامين، زبدة عالم الحكماء والعلماء. خلف الباب الثاني الذي على عتبته يجلس «مينوس الرهيب ويصرّ بأسنانه: يزن الآثام عند المدخل وبلفّاتٍ من ذنبه يحكم ويقذف، قال لي مينوس 'حينما رآني وقد توقّف عن مزاولة عمله الخطِر: أنت يا من تأتي إلى موئل الآلام، احترس إذ تدخل هنا واحذر مَنْ تثق به ولا يخدعنّك اتساع المدخل!'...» (V، 17 ـ 20). وبعد أن حُذّر دانتي يقول: «لقد جئت إلى مكانٍ يخرس فيه كلّ ضياءٍ ويهدر كما يفعل بحرٌ في أثناء زوبعة، حينما تلطمه رياحٌ متعارضة. العاصفة الجهنمية التي لا تهدأ أبدًا، تقود الأرواح بعنفها وترهقهم وهي تدور بهم وتضربهم» (V، 28 ـ 32). يعبر الحلقة الثانية حيث تُعالج خطايا الجسد. وهنا، يتعرّف إلى ديدون (Didon) وهيلانة وباريس وقابيل وحتى فرنتشسكا، وهي معاصرةٌ لرافين (Ravenne) قتلها زوجها مع عشيقها وهي بين ذراعيه... يُفتح الباب الثالث (أم أنه يُغلَق؟) على خطيئة الشره والنهم. «عذابٌ جديدٌ ومعذّبون جدد [...] حلقة المطر الأبدي اللعين البارد الثقيل الذي لا يتجدّد عنفه أبدًا ولا يتغيّر نوعه [...] فتبعث كريهَ الروائح الأرضُ التي تتلقّى هذا كلّه». سيعرف فيها دانتي «تشيربيروس الوحش الكاسر العجيب، ينبح ككلبٍ ذي أفواهٍ ثلاثةٍ على رؤوس القوم الذين غُمروا هنا» (VI، 13 ـ 15). سيرى فيها

كذلك بورجوازيين ملعونين «اعترى الحوَلُ أعينَهم بعد استقامة النظر» وأصبحت أنوفهم كأنوف الحيوانات وتحوّلوا إلى خنازير نهمة لأنّهم أمضوا حياتهم على الأرض وهم يفرِطون في تناول الطعام. لم ينته السقوط، ففي الحلقة الرابعة، «هكذا هبطنا إلى الهوة الرابعة ونحن نتقدّم على الشاطئ الأليم الذي يطوي آثام العالم كلّه» (VII، 16 ـ 18) يجد خلف الباب البخلاء والمسرفين «يدفعون أثقالًا بقوّة صدورهم» (VIII، 29) «يصيحون دائمًا بهذا الكلام المشين» (VII، 33) «وأنا الذي وقفتُ كي أمعن النظر، رأيت قومًا غمرهم الطين في ذلك المستنقع، كلّهم عرايا، ذوو وجوهٍ غاضبة. تضارب هؤلاء لا باليد وحدها، ولكن بالرأس والصدر والقدمين، وبأسنانهم مزّقوا أنفسهم إربًا إربًا» (VII، 108 ـ 114). غادر دانتي وفيرجيليوس «المستنقع الكريه، بين الشاطئ الجافّ ونفاية الماء» (VII، 127 ـ 128) ووصلا إلى أسفل برج، «ثم وصلا إلى الخنادق العميقة التي تحيط بتلك المدينة البائسة: لقد بدت كأنّ أسوارها من حديد. [...]. وصاح الملّاح بهما عاليًا: 'اخرجا'، هو ذا المدخل» (VIII، 76 ـ 81). «رأيت أكثر من ألف شيطانٍ على الأبواب يهطلون من السماء، وصاحوا في غضب» (VIII، 82 ـ 83). كادت الأمور تتّخذ مسارًا سيئًا: اقترح المتمرّدون على دانتي أن يبقى وعلى فيرجيليوس «أن يعود وحده في طريقه المجنون» (VIII، 91)، «ولتفكّر أيّها القارئ كيف فقدتُ شجاعتي» (VIII، 94)، كما يقول المؤلّف. أقنع فيرجيليوس الشياطين بأن تترك دانتي يمرّ، لكن «لقد أغلق الأبوابَ أعداؤنا هؤلاء في وجه مولاي الذي ظلّ خارجًا» (VIII، 115 ـ 116). غير أنّ فيرجيليوس وقد «أطرقت عيناه إلى الأرض وخلا جبينه من كلّ ثقة» (VIII، 118)، طمأن مع ذلك دانتي قائلًا له: «ليس عنادهم هذا بجديد، فقد أظهروه من قبل عند بابٍ أقلّ خفاءً ولا يزال إلى الآن دون

إغلاق، وقد رأيت في أعلاه عنوان المنون، وسيهبط من هذا الجانب منه إلى الهاوية عابرًا الحلقات دون رفيقٍ من ستفتح له أبواب المدينة» (VIII، 124 ـ 130). واصلا مسيرتهما، وعندما وصلا إلى «أدنى مكانٍ وأشدّه إظلامًا وأبعده عن السماء التي تحيط بكلّ شيء: إنّي أحسن معرفة الطريق ولذا فلتطمئن نفسك»، قال فيرجيليوس (IX، 28 ـ 30). «وقال غير هذا، ولكنّي لا أعيه في ذاكرتي» (IX، 31)، يضيف دانتي مذعورًا. «نحو البرج العالي ذي القمة المحمرّة» (IX، 36)، التقيا الجنّيات القاسيات، «فالتصقتُ بالشاعر وقد تملّكني الخوف» (IX، 51). فيرجيليوس «وصل إلى الباب وفتحه بضربةٍ من صولجانه، إذ لم يعترضه عائق. وبدأ عند المدخل الرهيب قائلًا: 'أيّها المطرودون من السماء، أيّها القوم الأدنياء، كيف يسكن نفوسكم مثل هذا الصلف؟'» (IX، 89 ـ 95). «الآن يسير أستاذي وأنا من وراء منكبيه، في طريقٍ خفيٍّ بين أسوار المدينة وقبور المعذّبين» (X، 1 ـ 3). المكان يشبه مقبرةً مدمّرةً أكثر ممّا يشبه جهنّم وهي تغلي. «إنّ من ينتظر هناك يقودني إلى هنا» (X، 61 ـ 62). انفتحت أبوابٌ أخرى أمامهما، أكثر إدهاشًا لكنّها أيضًا أكثر إجماعًا: «عندئذٍ برز شبحٌ إلى جانبه أمام عينيّ، مكشوفًا إلى الذقن، وأعتقد أنّه على ركبتيه وقف» (X، 52 ـ 54). تتمة **الجحيم** بدءًا من النشيد الحادي عشر معذّبةٌ ومخيفةٌ بالمقدار عينه، لكن باستثناء «الأطلال الجهنمية»، لا تعود الأماكن أكثر من «هوّةٍ واسعةٍ منحنيةٍ على شكل قوسٍ ونهر دم» (XII، 52). تضيق جهنّم وتتعمّق في وادٍ، وتحلّ محلّ الحلقات «عتباتٌ» يُسام فيها «المنتحرون والمجدّفون واللوطيون وغير ذلك من أهل السمعانية[228] أشدّ أصناف العقاب، ولن يجتازوا الأبواب أبدًا لشدّة

---

(228) السمعانية، من يحصلون على الأشياء المقدّسة بالمال دون التقوى، نسبةً إلى سمعان الساحر الذي أراد أن يشتري الروح القدس بالمال من القدّيسَين بطرس ويوحنا، كما ورد في الكتاب المقدّس.

ما هي حالتهم خطرة». أخيرًا، وفي النشيد 31، يجد دانتي باب الخروج. يصيح قائلًا: «دخلتُ ودليلي ذلك الطريق الخفي كي نعود إلى عالم الضياء ومن دون أن نحفل بقسطٍ من راحة. صعدنا إلى أعلى، هو الأوّل وأنا الثاني، حتى رأيتُ خلال ثُغرةٍ مستديرةٍ الكائنات الجميلة التي تحملها السماء، وهناك خرجنا كي نستعيد رؤية النجوم» (XXXIV، 134 ـ 139). لم نخرج بعدُ بالكامل من هذه الصور التي تعرض أبواب العذاب، أمّا جهنم، وإذا ما كان بعضهم لا يزال يؤمن بالسقوط، فإنّ النزول إليها ليس له كبير أهميةٍ طالما أنّها أصبحت مرئيةً على الأرض[229].

(229) الاستشهادات باللغة العربية مستقاةٌ من: دانتي أليغيري، **الكوميديا الإلهية: الجحيم**، ترجمة حسن عثمان، ط 3 (القاهرة: دار المعارف، 1988).

3

العصر الوسيط على أبوابنا

«اقتربت ربيكا من نافذةٍ ضيقة. اكتشفت أنّ فروندوبوف قد حشد رجالًا كثيرين خلف الجسر المتحرّك، إذ كان يتوقّع أنّ الاختيار قد وقع عليه كي يكون هدفًا للهجوم.

قالت الفتاة: ثمة رجالٌ يخرجون من الغابة ويتجمّعون حول فارسٍ ذي درعٍ أسود.

في هذه اللحظة، صدرت من النفير المدوّي إشارة، أجابتها على الفور أصوات أبواق: كان النورمانديون يعلنون أنّهم مستعدّون للدفاع عن أنفسهم. أرسل المهاجِمون وابلًا من السهام فاجأ رجال فروندوبوف.

سأل إيفانهو، المتعطّش لمعرفة حيثيات الهجوم: قولي لي يا ربيكا، ما الذي يجري؟

- غزارة السهام تمنعني من أن أميّز شيئًا. كما لو أنّ عاصفةً رعديةً تنقضّ على القصر.

- ما الذي يفعله الفارس الأسود؟

- إنّه يتولّى قيادة جمعٍ من الرجال. هم ينتزعون السياج الذي يحمي القصر. لقد نجحوا! رجال فروندوبوف ينقضّون على المهاجمين. أصبح الصراع رجلًا لرجل. كلا الجانبين يتصارعان بشدّة!

تراجعت ربيكا والفزع ينتابها ممّا تراه.

غير أنّ إيفانهو ألحّ قائلًا: والآن، ما الذي يجري؟

ـ فروندوبوف والفارس الأسود يقتتلان. يا لحسرتي! لقد سقط الفارس الأسود!

ـ هذا مستحيل! لن يسمح الله بمثل هذا الظلم! صاح إيفانهو وقد سيطر عليه القلق.

ـ لا، لقد نهض! إنه يواصل القتال! يضرب كما لو أنّ شيئًا لا يستطيع إيقافه. يبدو فروندوبوف جريحًا! ها هو ينهار أرضًا! لقد قضى الفارس على العملاق: هذا رائع!

لكن ويا للأسف، كانت حماسة ربيكا قصيرة الأمد، إذ كان النورمانديون متغلّبين. لكن بعد بضع لحظات، عادت الابتسامة إلى شفتيها وصاحت قائلةً:

ـ لم يضِع كلّ شيء! ها هو الفارس الأسود يعاود القتال ببلطته الهائلة! الأحجار وقطع الخشب تهاجمه من كلّ حدبٍ وصوب لكن لا يبدو عليه أيّ اضطرابٍ من هذا الوابل من المقذوفات.

ـ لا أعرف إلّا رجلًا واحدًا في إنكلترا قادرًا على القتال بمثل هذه الشجاعة، قال إيفانهو. لكن كيف يمكن أن يكون الرجل الذي أفكّر فيه قد وصل حتّى هنا؟

ـ الفارس الأسود يهاجم الباب الخلفي! لقد انتصر! دُمِّر الباب! السكسونيون يرمون بالنورمانديين من فوق الأسوار.

ـ الرجل الذي وصفتِه لي بطلٌ حقيقي! صاح إيفانهو بحماسة. أستطيع أن أرتاح لأنني أعلم أننا سنُنقَذ».

Sir Walter Scott[230], *Ivanhoé*, 1819

---

(230) السير والتر سكوت (1771 ـ 1832)، شاعرٌ وكاتبٌ اسكتلندي شهير، نشر نصوصًا قديمةً أو نصوصًا تنتمي إلى التقاليد الشعبية، ثمّ اهتمّ بالرواية الاسكتلندية، وتحوّل بعد ذلك إلى الرواية التاريخية، ويُعدّ أبًا لهذا الصنف من الأدب.

جسورٌ متحرّكة وأبوابٌ خلفية

ليس هنالك تصوّرٌ للقصر القروسطي من دون جسرٍ متحرّك، كان يدعى في السابق (pont-levëi)، وهو مصطلحٌ وتقنيةٌ ظهرا في اللغة الفرنسية قُرابة العام 1200 ويشيران إلى جسرٍ يرتفع، مصحوبًا بالنعت القديم (levis)، ينهض، ويبرِز حركةً، وهو بالتالي جسرٌ متحرّك. يبدو أنّ الجسر المتدحرج، الوريث المباشر للجسور الرومانية المتحرّكة القديمة، هو الذي سبق عملية رفع جسر. لكن وجب انتظار بداية القرن الرابع عشر كي توضع على مداخل القصور جسورٌ متحرّكةٌ خشبية، تُلقى فوق الخنادق أمام الأبواب مباشرةً. لم تكن هذه الجسور المتحرّكة قائمةً وحدها في بداية وجودها، بل كانت مرتبطةً ارتباطًا مباشرًا بالأسوار عبر إنشاءاتٍ تتقدّم البناء، مثل «التحصينات الأمامية»، التي كانت في معظم الأحيان إنشاءً نصف دائري لم يكن له أيّ دورٍ سوى حماية معبرٍ أو بابٍ أو «بابٍ خلفي»، لكنّه يسمح من جانبٍ لأفراد الحامية بالاحتشاد وهم محتمون في منطقةٍ ناتئة للقيام بغاراتٍ على العدوّ، ويضمن من جانبٍ آخر انسحابًا سريعًا وإقامة مركزٍ إسعافيٍ أثناء الهجوم. لم يكن التحصين الأمامي في بعض الأحيان أكثر من سياجٍ خشبي يهدف إلى تأخير المهاجِم، ولاسيما إلى إتاحة الوقت للمدافعين لرفع الجسر المتحرك. في منتصف القرن الرابع عشر، باتت الجسور المتحرّكة تلعب في الوقت عينه دور جسرٍ وبابٍ للقصر. وقد أدّى ذلك بطريقةٍ ما إلى إضعاف الدفاع بما أنّه لزم لتشغيل الجسور المتحرّكة الأولى ذات الخطّافات وضع مجارٍ مرتفعةٍ وعميقةٍ على الواجهة لتمرير السلاسل والعوارض أو الخطّافات التي تُستخدم في رفعها. سيحاول الناس بعد فترةٍ قصيرةٍ تصحيح هذا الضعف الدفاعي الجليّ عبر تطوير جسورٍ متحرّكة ذات سلاسل من دون خطّافات، مثلما يمكن أن نرى حتى الآن

في باب سنس (Sens) في فيلنوف سور يون[231] (Villeneuve-sur-Yonne). لكن لم يكتسب هذا النظام القروسطي مزاياه كلّها، ولاسيّما في مواجهة الأضرار الناجمة عن المدفعية أثناء ضروب الحصار، إلّا مع الجسر المتحرّك المنقلب والذي يُرفع من الأمام، أي بنظام قلّابٍ يعمل بطريقة القبّان. ففي حين تصعد «القلبة»، تهبط «القاعدة الكاذبة» ضمن تجويفٍ فيصبح الوصول إليها صعبًا. علاوةً على أنّ هذا النظام يحمي الآلية، فهو يمتاز بفضل الخندق العميق بأنّه ضربٌ من سورٍ ثانٍ، وبأنّه يجعل عبور المهاجِمين أكثر صعوبةً. إنّ هذا النمط من الجسور المتحرّكة هو الذي سيبقى أكثر من غيره، مع تحسيناتٍ تقنيةٍ متباينة، مستخدَمًا عمليًّا من دون تغييرٍ حتى القرن الثامن عشر. وإذا ما وضعنا جانبًا هذا الباب المحصّن القابل للرفع، فقد كان مدخل القصر محميًّا بفضل «المَصاريع» الموضوعة بصورةٍ خاصةٍ في الحجرة الصغيرة التي تعلو المدخل الرئيسي، حيث يتمركز حرسٌ مكلّفون بمراقبة الباب والدفاع عنه، والتي منها يمكن إلقاء مقذوفاتٍ بصورةٍ عموديةٍ على رؤوس المعتدين. كما كانت «الشرفة ذات المرامي» تعلو هي أيضًا في معظم الحالات فتحةً وتسمح بدفاعٍ مباشرٍ من نمط التقنية السابقة عينه. أمّا الأبواب، فكانت في كثيرٍ من الأحيان تقوّى أو تُبطّن إن جاز القول، «ببابٍ منزلقٍ» هو عبارةٌ عن حاجزٍ مشبّكٍ كبيرٍ ذي سكةٍ من الخشب أو الحديد أو الحجارة المجمّعة، كما في قصر أنجيه[232] (Angers). بابٌ منزلقٌ تحرّكه منظومةٌ من البكرات التي تُحرَّر في حال الطوارئ وتنزلق بسرعةٍ بين الأخدودين، فيهبط الحاجز ويغلق مدخل القصر أو المدينة من دون الاضطرار لتحريك كامل منظومة رفع الجسر. يمكن أن يكوّن المرء فكرةً عن فعاليته المدهشة من هذه الأقصوصة التي نجدها في

(231) فيلنوف سور يون: مدينةٌ فرنسية تقع في مقاطعة يون.

(232) أنجيه: بلدةٌ تقع غرب فرنسا.

كتاب **لانسلوت البحيري**[233] (*Lancelot du Lac*): «عندما رأت أنهم أصبحوا في الخارج، قطعت حبل الباب المنزلق الذي كان كبيرًا جدًّا فسقط. سقط على فارسٍ وقتله هو وحصانه». وفي **بيرسفوريست**[234] (*Perceforest*) أيضًا، يُحكى أنّ «البوّاب تلقّى أمرًا بأن يزيح الباب المنزلق ويرفع الجسر المتحرّك إلى الأعلى ويغلقه بالأقفال التي جُلبت مفاتيحها إليها». وفي مكانٍ آخر أيضًا، يوصى بهذا النظام الدفاعي عبر التأكيد بالقول: «إذا أردنا أن تكون الأبواب المنزلقة جيدة، لجعل الأبواب الخارجية مصقولةً ومن أجل الإمساك بها واستبقائها إن تجرّؤوا قبل أن يأتوا».

وتمامًا مثل الباب المنزلق، كان رفع الجسر المتحرّك وإنزاله يقتضيان حشد عدّة رجال ويتطلّبان مناورةً عظيمة الشأن. لكنّ الناس كانوا في زمن السلم يسعون بصورةٍ خاصةٍ إلى التمكّن من دخول السور أو الخروج منه بسهولةٍ من دون أن يُحشد لهذا الأمر عددٌ كبيرٌ من الأشخاص، بل من دون أن يتطلّب الأمر أيّ شخص. هكذا، كان المشاة، بشرط ألّا يُحضروا «عربات»، يستخدمون «بابًا خلفيًّا» (poterne) أو أكثر (والكلمة مشتقةٌ من الكلمة اللاتينية posterela، أي الباب الخلفي) يسبقه (أو يسبقها) جسرٌ معلّقٌ صغير، لكن تحرّكه ذراعٌ واحدةٌ وسلسلةٌ واحدة، ويؤكّد بعض الناس أنّ امرأةً واحدةً كانت قادرةً على جعله ينقلب.

أُطلقت عدّة تسمياتٍ على هذه الأبواب الصغيرة، من قبيل (porterel) (1276) أو (portelette) (1340) أو (portereau) (1566).

---

(233) **لانسلوت البحيري**: شخصيةٌ من مجموعة روايات **المائدة المستديرة** وبطل رواية الفروسية التي تحمل اسمه والتي كُتبت في القرن الثالث عشر.

(234) **بيرسفوريست**: روايةٌ لا تحمل اسم مؤلفها، نُشرت في أواسط القرن الرابع عشر، نُسخت وأُعيدت صياغتها في القرن الخامس عشر.

باختصار، كـان سكّان المكان يـمرّون في أغلب الأحيـان عبر هذه الـ(postis) مثل هؤلاء الزائرين لقصر حكايات كونت فوريه[235] (Forez) في كروزيه[236] (Crozet) الذين يوضحون قائلين: «دخلنا إليه عبر الباب الأكثر انخفاضًا والذي تُطلق عليه تسمية الباب الصغير». وفي الساعات التي تقلّ فيها الحركة، ولاسيما في الليل، كان الزائر يستخدم ليسمعه مَن في الداخل السقّاطة المثبّتة على الباب، وأحيانًا حلقةً لا يمكن الوصول إليها إلا إذا كان المرء على صهوة حصانٍ، أو مجرّدَ مصراعٍ معدني. يبدو أنّ الناس كانوا يحبّون من «يطرق الباب بشجاعة، من يجلب خبرًا سارًّا»، لكنّهم كانوا يرتابون ممّن «يأتي إلى الباب في وقتٍ باكرٍ جدًّا، من يجلب خبرًا سيئًا». ليُفتح الباب لشخصٍ ما وتشجيع الحارس على الإسراع، كانت تُلفَظ عبارةٌ يُقال إنّها تعود لزمن الحروب الصليبية: «افتح الباب، دعِ الجسر يأتي وسأمنحك خمسة فلوسٍ باريسية...». ننبّه إلى أنّه إذا كان الناس يدفعون المال في كلّ مكان، فقد سادت لوقتٍ طويلٍ أيضًا عادة التملّص من «تسديد رسم عبور الجسر». ثمة عادةٌ أخرى لدخول قصرٍ كانت تقتصر على الفرسان وحدهم: يعلن الفارس عن قدومه عبر النفخ بالبوق المعدني أو العاجي، أي «الطرق» ليسمع مَن هم داخل القصر ويتعرّفوا إليه ويفتحوا له. كما وُجد بعض الأبواب الخلفية المخبّأة والتي يمكن الهروب منها أو إدخال تعزيزاتٍ عبرها من دون علم المحاصِرين، وهو مخرجٌ للطوارئ استُحدث في القلاع واستُخدم للخروج في مكانٍ بعيدٍ في الريف، أُطلقت عليه لاحقًا تسمية «الباب الفلمنكي».

بطبيعة الحال، يجلب إغلاق الأبواب شعورًا بالراحة والطمأنينة متاحًا للجميع، لكن في فترات انعدام الأمان، كما كانت عليه الحال

(235) فوريه: منطقةٌ طبيعيةٌ فرنسيةٌ يقع معظمها في الجزء المركزي من مقاطعة اللوار.

(236) كروزيه: بلدةٌ فرنسيةٌ تقع في مقاطعة اللوار.

في منتصف القرن الرابع عشر وفي جزءٍ لا بأس به من النصف الأول من القرن الخامس عشر، دفعت الخشية من اللصوص أو من هجمات الأعداء كثيرًا من المدن إلى سدّ عددٍ من الأبواب بالحجارة لتسهيل مراقبة الصلات مع الخارج والتحكّم بها. وقد أفضى ذلك في كثيرٍ من الأحيان إلى تركيز الحركة على بعض الأبـواب فحسب، وأدّى في المقابل إلى اكتظاظٍ مروري وإضـرارٍ محلّيّيْن لم يكن القاطنون قرب هذه الأبـواب يتوانون عن التشكّي منهما. تنقل سيمون رو[237] (Simone Roux) محاكمةً في باريس تعود للعام 1357 وتواجه فيها سكّان شارع باب سانت أونوريه[238] (Saint-Honoré) ومحيطه مع «الموظف المكلّف بالطرق العامّة». كان الأهالي يرفضون دفع غرامةٍ بحجّة أنّ شوارعهم لا تُنظّف كما يجب، مجادلين في أنّ القذارة تأتي من الكثافة الكبيرة للعربات القلّابة المستخدمة في نقل النفايات والتي تمرّ من هناك، في حين أنّهم غير مسؤولين عن تلك القذارة. أمّا الجهة الخصم، أي الموظّف الملكي المكلّف بالطرق العامة والـذي كان دوره يتمثّل في تطبيق القوانين للإبقاء على شيءٍ من النظام في مواجهة «الاكتظاظات» المتكرّرة وتحصيل العائدات والغرامات، فقد ذكّرت بأنّه كان على كلّ شخصٍ «صيانة الرصيف أمام بابه وتنظيفه وتصليحه عند اللزوم». وقد أدّى تعقيد الجغرافيا السيادية الباريسية المتشابكة مع الطرق الملكية إلى بقاء الأنظمة العامة في مجال استخدام المشاة للأبواب والشوارع صعبة التطبيق إلى حدٍّ بعيد. لا مجال للاستغراب

(237) سيمون رو، كاتبةٌ فرنسيةٌ وأستاذة التاريخ القروسطي في جامعة باريس الثامنة، متخصّصة في تاريخ المجتمع الحضري في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. من أبرز مؤلفاتها كتاب **المنزل في التاريخ** (*La maison dans l'histoire*) (1976)، وكتاب **عالم المدن في العصر الوسيط** (*Le monde des villes au Moyen Âge*) (2004)، وكتاب **باريس في العصر الوسيط** (*Paris au Moyen Âge*) (2004).

(238) باب سانت أونوريه: كان باب الدخول الرئيسي للمدينة من جهة الغرب.

إذًا على سبيل المثال أن تكون ساحة موبير[239] (Maubert)، وكانت أحد التقاطعات التجارية الأهمّ في باريس، مزدحمةً وملوّثةً بالكامل في القرن الخامس عشر، إذ لم يعد أحدٌ فيها يحترم الأنظمة على الرغم من أنّها كانت قديمةً جدًّا، ومن أنّ الموظف المكلّف بالطرق العامة كان يذكّر بها على الدوام.

لئن لم توجد قبل القرن الحادي عشر أقدم الأبواب التي كانت تعدّ وسائل إغلاق، فمنذ القرن الثاني عشر نستطيع البدء بإكساب طابعٍ مدنيٍّ حقيقيٍّ لأبواب المنازل. كانت أبواب منازل الأفراد الأولى هذه تتمثّل في مجموعةٍ من الألواح المتمفصل بعضها ببعض، مبطنةٍ بألواحٍ أخرى موضوعةٍ بحيث ترتبط بالأولى بمسامير. ولم يبدأ إلّا نحو منتصف القرن الثالث عشر صنع أبوابٍ لها هياكل مجموعةٌ بين قوائم وعوارض وأحمالٌ مكرّسةٌ لحمل كلّ ثقل الباب والمفصّلات. تعمّم نمط الأبواب هذا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وهو أخفّ وزنًا من السابق، كما أنّه أكثر صلابةً، وهو معدٌّ بصورةٍ حسنةٍ لوضع حدائد التعليق. في أواخر القرن الرابع عشر، تطوّرت الأبواب ذات الألـواح، ما يعني أنّ داخل الباب وخارجه كانا متماثلين ويتكوّنان من دعاماتٍ وعوارض نجد بينها ألواحًا مترابطةً بالتثليم أو بألسنة تعشيق. بسرعةٍ نسبية، وبالنسبة إلى الملّاكين الأكثر ثراءً، كان السطح الخارجي يزخرَف برسومٍ جميلة.

أمّا من حيث استخدام الأبـواب، وإن كنتُ أسمح لنفسي بتحصيل الحاصل هذا، فعندما لا يكون الباب مغلقًا، يكون مفتوحًا، وأعني بذلك أنّ المرء في العصر الوسيط لم يكن يُمضي وقته وهو يفتح باب البيت ويغلقه، تمامًا مثلما هي الحال بالنسبة إلى القصر أو القلعة، ففي المدينة، ولاسيّما باريس، كان الباب يُفتح صباحًا ولا يُغلق ثانيةً إلا ليلًا. في تلك

(239) ساحة موبير: ساحةٌ في باريس أقيمت في مطلع القرن الثالث عشر.

الحقبة، كان الشارع امتدادًا للفضاء الخاص بالبيت مثلما يشهد على ذلك وضع البيت في العصر الوسيط، حيث كان الطابق الأرضي يُستخدم من دون استثناءٍ تقريبًا للنشاطات الحرَفية أو التجارية، وهنا يكمن السبب في أنّ الحجرة الأمامية التي كان يشتغل فيها ربّ العمل ومساعدوه كانت تدعى «المشغل»، وهي حجرةٌ مجهزةٌ بـ«نافذة بيعٍ» واسعة كانت تُستخدم، مثلما يشير إلى ذلك اسمها، كواجهةٍ أو بسطةٍ، بحسب النشاط الممارس فيها. وكان هذا الاتصال للداخل المفعم بالحيوية والضوضاء والروائح مع الفضاء العامّ للشارع، يمرّ أيضًا بقطعة أثاثٍ أو تجهيز بابٍ خاصٍّ بالعصر الوسيط يدعى «السرج الذي يوضع على الباب» (la selle à mettre à l'huis). وهو مقعدٌ ضيّقٌ كان يوضع أمام الباب المفتوح ويربط ماديًا عتبة البيت بداخل المشغل. كان يوضع في بداية النهار، وتتمثّل وظيفته الأولى في سند الباب، لكنّه كان يفيد بصورةٍ خاصّةٍ في استقبال المتدرّب أو ربّة العمل المكلّفيْن بمراقبة الواجهة، وبطبيعة الحال الزائرين أو الزبائن القادمين للمناقشة أو لتقديم طلباتهم، أي أنّه باختصارٍ كان يقوم مقام مقعد استقبالٍ ويرمز بذلك إلى المخالطة الواسعة لأبناء المدن في العصر الوسيط، حيث كان «جلوس المرء أمام باب بيته» أمرًا شائعًا، كي لا نقول إنّه حتميٌّ وضروري، إذ يقتضي كلّ بابٍ مفتوحٍ مثابرةً في الحضور.

الأبواب تتجهّز

تاريخ الأبـواب هو تاريخ فتحٍ وإغـلاقٍ وانتظارٍ وخشيةٍ وصبرٍ وعبور، لكنّه خصوصًا تاريخٌ تقنيٌ طويلٌ أيضًا، ويستحقّ إبـرازًا اشتقاقيًّا بطبيعة الـحـال، وبخاصةٍ إبـرازًا إثنولوجيًّا- تقنيًا(240)

(240) إثـنـولـوجـي: نسبةً إلـى الإثنولوجيا (ethnologie) وهـي فـرعٌ من الأنثروبولوجيا يُعنى بالدراسة التاريخية والمقارنة للثقافات أو للشعوب حيث تمثّل السلالة فيها وحدة الدراسة الأساسية.

(ethno-technologique). ويبدو لي أنّ موضع هذا الأمر يقع تمامًا في هذا العصر الوسيط المتأجّج، حيث لعب تنظيم «أماكننا» (locus) ومساكننا دورًا في راحة الإنسان يماثل الدور الذي لعبته الروحانية الجديدة. من منّا لم تدهشه وهو يستمع إلى حكايةٍ أو يقرؤها، قصة صعلوكٍ مسكينٍ ضائعٍ أو جائعٍ يطرق الباب في ليلةٍ قارصة البرد؟ مثل كثيرٍ من الأطفال (ومن «الأشخاص الكبار»)، أعتقد أنّني كنت أسمع: «يُطرق عليه»... وبالفعل، يتعلّق الأمر هنا[241] حقًّا بفم، بفتحة، تأتي من الكلمة اللاتينية (ostium)، من (oris)،(os)، التي حوّلها الرومان إلى (bucca)، فم، وحوّلناها نحن إلى (uis)، ثمّ أضيف إلى هذه الكلمة حرف (h) في العام 1549 لتجنّب أن يتحول حرف (u) إلى (v)، وبالتالي استُخدمت كلمة (huis) لوقتٍ طويلٍ للدلالة على أبواب أكواخنا ومنازلنا حتى أصبح استخدام الكلمة باليًا في القرن السابع عشر، وتغلّبت كلمة (porte) التي لم تكن تُستخدم إلّا للإشارة إلى الباب الذي يفيد في الدفاع عن القصر. مع كلمة (huis)، ظهرت كلمة (huisserie) (1260) التي حلّت محلّ كلمة (oiseries) (حوالى العام 1160) والتي تشير إلى ما ستُطلق عليه لاحقًا تسمية «إطار» (chambranle) (1518) الباب. تأتي كلمة (porte) التي يقال إنّ لها جذورًا في اللغة الهندو- أوروبية (per التي تعني عبر) من الكلمة اللاتينية (portus)، معبر، وفرضت نفسها بدايةً للإشارة إلى ميناء (port) (1050) قبل أن تستقرّ الكلمة والوظيفة في مطلع القرن الحادي عشر على جدران مدننا وتبقيا فيها من دون أن تغادراها بعد ذلك (1080). ضمن منطقٍ تقنيٍّ لا عيب فيه، فرض نفسَه في العام عينه مفهومٌ جديد هو مفهوم «فتح» (ouvrir) (1080) (الذي لم يفرض المفهومُ المعاكس له «أغلق» fermer نفسَه إلا

(241) الحديث هنا عن كلمة (huis) (باب منزل) باللغة الفرنسية وأصلها الاشتقاقي.

بعد قرنٍ من ذلك) وكانت نصوصه الأولى تقدّم التفسير الفلسفي التالي: «جعل ما كان مغلقًا غير مغلق»، أو ـ وهو ما يقدّم فكرةً عن الطريقة التي يمكن فيها أن يغلق المرء على نفسه ـ «تنحية ما يعيق المرور الحر»، أي ما يسدّ المدخل أو يضع عليه متراسًا. كما أنّ كلمة «مفتاح» (clef) فرضت نفسها في العام عينه، وهي مشتقةٌ من الكلمة اللاتينية (clavis)، المرادفة لكلمة (clavos)، أي مسمار، للتعبير عن القفل البدائي المتكوّن من مسمارٍ أو «وتدٍ» موضوعين في حلقة. للطهرانيين أقول إنّ شكل الكتابة (clé) الذي نستخدمه اليوم مثلما نستخدم شكل الكتابة (clef)، ظهر في حدود العام 1121، وهو ناتجٌ عن إعادة صنع مفردٍ من صيغة الجمع القديمة (clez). في العام 1100، فرضت نفسها كلمة (porche) التي تعني نوعًا من الباب السرّي المخبّأ في الواجهات، في عماراتنا وفي مخطّطاتنا بوصفها حاميًا للباب ومؤطّرًا له. وسوف نفهم مع مثل هذه الزخارف إطلاق تسمية «المداخل» عليها منذ العام 1119. وبالفعل، تطوّرت «المداخل» وتحضّرت حتى اتّخذت أهميةً كبيرةً في مساكننا وفي عاداتنا على حدٍّ سواء، وأصبحت بعد ثلاثة قرونٍ تلك اللحظات المهيبة والاستثنائية[242] لمجيء أميرٍ أو ملكٍ إلى «مدنه الجيدة»[243] (bonnes villes). يمكن أيضًا أن نلاحظ فعل (pertuiser)، الذي عبّر في العام 1150 عن فعل ثَقْب جبلٍ أو سورٍ، وولدت منه كلمة (pertuis) التي تعني فتحةً، ثقبًا، والتي ستحتفظ بها لغتنا الذكورية طويلًا للإشارة تقنيًّا إلى أعضاء المرأة التناسلية، حتى حلّت محلها كلمة «مهبل»

---

(242) في اللغة الفرنسية، تدلّ كلمة (entrée) على المدخل وعلى الدخول في آنٍ.

(243) المدينة الجيدة في فرنسا في النظام القديم هي مدينةٌ تستفيد من المزايا وضروب الحماية التي يمنحها ملك فرنسا، بالإضافة إلى الالتزام بالمساهمة في الدعوة الملكية إلى السلاح عبر تقديم المحاربين.

(vagin) (1680) في اللغة التشريحية، لتصف غمد بذورٍ أكثر ممّا تصف معبرًا.

في العام 1155، وفي الوقت الذي نتحدّث عن «المَخرج» (issue)، فرض نفسَه مفهومٌ معقّدٌ هو «خرجَ» (issir) ـ (sortir)، من كلمة (exire) اللاتينية التي لا نزال نرى أثرها في كلّ «المخارج» («exit») التي تلمع باللون الأخضر في الصالات العامّة المعتمة. تستحق كلمة (sortir) التوقّف عند تطوّرها الدلالي، والفكرة هي الذهاب من الداخل (dedans) (من كلمة dedens، القرن الحادي عشر) إلى الخارج (dehors) (من كلمة defors، القرن العاشر). يأتي هذا الفعل المتعدّي من الفعل اللاتيني (sortiri) الذي لا يعني سوى «سحب بالقرعة»، «تلقّى من القدَر»، وأمكن أن يُبنى من النعت (sortitus) الذي يعني «مَن عيَّنَه القدر» ومن هنا: «مَن يُفلت مِن» وبالتالي «يتجلّى في الخارج» حتى أُقرّ مصطلح «مخرج» (sortie) في العام 1400 وثُبّتت الكلمة في العام 1530 لتدلّ على أنّ المرء يترك مكانًا وتشير إلى ذلك. في القرن السابع عشر، ستتوسّع دلالة هذه الكلمة، وسيقول المرء «لقد خرجت» (on est sorti (1664) عندما لا يكون في بيته، بل هنالك ما هو أفضل، حيث ستجعلنا المدينية والحياة الاجتماعية نقول في القرن التاسع عشر: «أنا أعتزم الخروج» (on est de sortie). في العام 1160، فرضت كلمة «عتبة» (seuil) نفسها في اللغة الفرنسية، وهي لم تكن مجهولةً بطبيعة الحال، لأنّها تستند إلى جذرٍ هندو- أوروبي هو (solum) ويشير إلى الأساس، إلى قاعدة منشأةٍ بشرية. كانت الكلمة تشير آنذاك إلى مدخل منزل، ولاسيما إلى الجزء من الأرضية المحيطة بالباب. ومنذ العام 1175 باتت أكثرَ تقنيةً، لتشير إلى البلاطة التي تشكّل الجزء الأسفل من فُرجة الباب (limen inferium)، بل محيط الباب (1210) ثمّ ساكفه (limen superum) (1549). لن تكتسب العتبة بُعدها المجازي

وتستعيد قوّتها الرمزية المسجّلة منذ أبعد مرحلةٍ من مراحل التاريخ القديم إلّا في القرن السادس عشر. فآنذاك، أصبحت هذه الكلمة تفيد أيضًا في التعبير عن بداية شيءٍ ما، بل عن «الحدّ الذي يشير إلى الانتقال لحالةٍ أخرى». لكننا لسنا أبدًا بعيدين عن «القضاء والقدر»، والوقوف على العتبة يعني أيضًا رمزيًا «وضع النفس تحت حماية سيّد المنزل، ويقتضي عبورها حالة نقاءٍ وعزيمةً روحيةً قبل بلوغ علوّ المركز»، مثلما يذكّر بذلك آلان غيربران[244] (Alain Gheerbrant) في مؤلّفه البالغ الغنى **قاموس الرموز** (*Dictionnaire des symboles*).

في العام 1165، فرضت نفسَها ثورةٌ تقنيةٌ بارزةٌ لم تعلن عن أيّ شيءٍ حسن، خلافًا لما حدث عند الدوغون[245] (Dogons) في مالي: «القفل» (serrure). إنّ هذه الأداة الثابتة التي سمحت منذ أواخر القرن الثاني عشر بجعل «الرتج» البدائي أكثر تعقيدًا، كانت موجودةً في اللغة الفرنسية قبل ذلك بأربعين عامًا (1120). هكذا أصبحنا نستطيع «حشر» (serrer) أشيائنا في خزانةٍ أو صندوقٍ، أو حتى خلف بابٍ ما، لكننا لم نصل بعدُ إلى هنا، بل إننا أمام طائفةٍ حرَفيةٍ تعلن عن نفسها وسوف تقدّم مساهمةً كبيرةً في تحسينات الباب: «صانعو الأقفال» (serruriers) (1260)، سيعقبها فنٌّ قائمٌ بذاته هو «صنع الأقفال» (serrurerie) (1393). القفل هو دائمًا الشكل المعقّد والممكنن لـ«المزلاج» (loquet) (1174) الذي أطلق عليه هذه التسمية أبناء عمومتنا الأنغلو-نورمانديون. غاية القفل الأولى هي «التحصين» (fortifier) (1160) و«الخَتْم» (clore) (1160) (ظهرت الكلمة في السنة عينها التي ظهرت فيها كلمة «غطاء» couvercle)، أي بعباراتٍ أخرى إنجاز «الإيصاد»

(244) آلان غيربران (1920 ـ 2013)، شاعرٌ وكاتبٌ ومستكشفٌ فرنسي.

(245) الدوغون: قبيلةٌ تعيش في منطقة الهضبة الوسطى في مالي، وقد اشتُهرت بتقاليدها الدينية ومنحوتاتها الخشبية وعمارتها.

(fermeture) (1180)، و«الإغلاق على» (enfermer)، بمعنى المنع من الخروج، أي «إغلاق» (fermer) (1190) أبواب المدينة أو القلعة التي تحرسها فرقةٌ من الجند.

في تلك الأزمنة الجديدة والمقلقة من البحث عن أنظمة إيصادٍ تتناقض مع أنظمة «الفتح» قبل ذلك بقرنٍ من الزمن، من اللافت أن نرى ظهور وظيفة «حارس المفاتيح» (clavier) (1174). تقتضي هذه التسمية وجودًا ماديًّا لما يكفي من المفاتيح كي يحتاج المرء إلى إيداعها لدى شخصٍ ما. ونجد دليلًا على هذا الهوس بالإغلاق على النفس مع ظهور مهنة «بوّاب» (portier) و«بوّابة» (portière) (1190)، ذاك (تلك) الذي (التي) يحرس (تحرس) الباب، ونتخيل أنّه (أنّها) كان (كانت) يمتلك (تمتلك) مفتاحًا على الأقل، مفتاح الباب الرئيسي! سوف تتّصل الوظيفة الأنثوية على نحوٍ أكثر خصوصيةً بالأديرة قبل أن تتَعَلْمَنَ وتتطوّر في القرن التاسع عشر، وهو قرنٌ يرمز إلى سلطة البوّابين. كان العام 1170 هو الوقت الذي بدأ فيه الكلام بخاصةٍ عن «الباب» (porte) للإشارة إلى باب «قصرٍ حصين» (château fort). إنّه بابٌ كبيرٌ ودفاعي بُنيت أسطورته مع ظهور الجسور المتحرّكة (1200). في القرن الثالث عشر، فرض «صانعو الأبواب» (huissiers) (1260) فنّهم في بناء الأبواب الخشبية و«الأطر» (oiseries) (في حدود العام 1160) التي تُمْسِك بها، كما أنّهم كانوا بهذه التسمية عينها، يفتحون بابًا ويغلقونه. سرعان ما ستقترن مهمتهم بمهمة «بوّابي الداخل»، بما أنّ وظيفتهم ستكون بصورةٍ خاصةٍ الإعلان عن الزائرين وإدخالهم، وهو دورٌ لا يزالون يمارسونه حتى اليوم، برداءٍ خاصٍ وبسلسلةٍ كبيرةٍ على الرقبة موروثةٍ من الزمن الذي كانوا فيه «حجّابًا بالسلسلة» (الذهبية!) ويحملون أوامر الملك. ولا نزال نجدهم في المجالس العليا (نتحدّث عن «حاجب البرلمان» منذ العام 1320) وعلى أبواب مكاتب وزراء

جمهوريتنا. سنتحدّث لاحقًا عن تحوّل هؤلاء إلى سلك العدالة، وعن أولئك «المحضِرين» الذين نخشاهم جميعًا.

في العام 1250 وُضع «جرس الباب» (sonete)، كان يُربط بـ«حبل» (cordon) (1170) ويمكن أن يهزّه المرء عن بعدٍ لتنبيه الداخل إلى وجوده على الباب. وقد شاع هذا الجرس الذي قُلّص حجمه ليصبح «جرسًا صغيرًا» (sonnette) في العام 1354، ونلاحظ حضورًا كبيرًا له في كثيرٍ من السرديات، ولم يفرض رنّته الكهربائية المخيفة إلّا في العام 1904! «الصادم» (hurteuer) (بين العامين 1280 و1290) -الأقلّ تطوّرًا لكن بالتأكيد الأكثر انتشارًا لأنّه أكثر قِدمًا- أصبح باللهجة البيكاردية[246] (hurtoir) في العام 1302، ثمّ (hortoir) ثمّ (heurtoir) في العام 1345، واستُعمل للإشارة إلى المقرعة الثابتة التي تسمح بطرق الباب. البوق (cor) (من كلمة corn) (1080) و«البوق العاجي» (oliphant) (1165) الخارج مباشرةً من **أغنية رولان**[247] (*La Chanson de Roland*) أو «البوري» (trompe) (1172) هي منبّهات قروسطية بامتياز، وكثيرًا ما أفادت أيضًا فرسانًا مقدامين في الإعلان عن أنفسهم على باب القصر.

وسوف يفرض نفسَه عددٌ من العناصر التقنية المرتبطة مباشرةً بالباب، مثل كلمة «دسار» (chevillette) في العام 1276. هذا الجزء من القفل معروفٌ جدًّا بين الأطفال، وذلك بسبب المقاطع الأكثر دراماتيكيةً في حكاية **ليلى والذئب** (*Le Petit Chaperon rouge*)، حيث توصف طريقة الدخول مرّتين: «اسحبي الدسار، وسوف تسقط السقّاطة» (في

(246) البيكاردية: لهجةٌ عاميةٌ من لغة أويل (oïl) في منطقة بيكاردي (Picardie) بفرنسا.

(247) **أغنية رولان**، أقدم عملٍ مهمّ متبقٍّ من الأدب الفرنسي وأقدم نسخه مخطوطة في أكسفورد، يعود تاريخها إلى ما بين العامين 1140 و1170.

نسخة الأخوين غريم[248] Grimm، وهي لاحقةٌ للأولى، تكتفي الجدّة والذئب بالقول: «اضغطي على المزلاج» (clenche). تمكننا الإشارة إلى أنّه إذا كانت حكاية شارل بيرو[249] (Charles Perrault) هذه قد ظهرت في العام 1697، فإنّ «السقّاطة» (bobinette)، تلك القطعة الخشبية الصغيرة المتحرّكة التي كانت تستخدم في إغلاق الأبواب، لم تظهر في اللغة الفرنسية إلا في العام 1696، في حين أنّ كلمة «مزلاج» المشتقة من كلمة (aclencier)، أي «الإغلاق بالمزلاج»، تعود إلى العقد الأول من القرن الثالث عشر. ربّما استعار الأخوان غريم، وهما من أصلٍ ألماني، كلمة (clenche) من البلجيكية، التي تستخدمها بمعنى «قبضة الباب». قبل كلمة (poignée) (قبضة) استُخدمت كلمة (pesne) (1288)، أي «ترباس» (pêne) (1440)، وهو القطعة المتحرّكة في القفل التي تدخل في الـ(gaiche) (1294) التي تحوّلت إلى (gâche) (مزلاج) في العام 1489، فسهّلت إلى حدٍّ كبيرٍ فتح القفل الذي يحصّن الباب.

في العام 1278، تسبَّب اهتمامٌ خاصٌّ جدًّا بحيوانٍ يحب الانزلاق بين ساقينا وفي بيوتنا بثقب بعض الأبواب وإثراء مفرداتنا: (chatière) (فتحةٌ في الباب لدخول القطّة وخروجها). وفي العام 1293 فقط، فرضت نفسها كلمة (ouverture) التي كانت في الماضي تشير إلى «ساكف الباب» (قُرابة العام 1130)، فطردت كلمة (ouvrement) وأشارت على نحوٍ مجسّدٍ إلى فعل الفتح. إنّ هذه الكلمة المؤنّثة

---

(248) جايكوب (1785 ـ 1863) وفلهلم (1786 ـ 1859) غريم، لغويّان وباحثان ألمانيان قاما بجمع القصص الشعبية الألمانية ونشرها في كتابٍ واحد، ويُعدّان من أكثر الروائيين شهرة.

(249) شارل بيرو (1628 ـ 1703)، شاعرٌ وكاتبٌ فرنسي وضع حجر الأساس لجنسٍ أدبي أطلق عليه اسم الحكاية الخرافية، ومن أشهر كتبه **ليلى والذئب** و**سندريلا** و**الجمال النائم**.

التي تبدو لنا بديهيةً تتضمّن مفهومًا أكثر تجريدًا سوف تسود سياساتُه ودبلوماسيته بدءًا من القرن السادس عشر لتشير إلى بداية عملية حوار، مع بقائها ـكما كانت في الأصلـ مصطلحًا تقنيًّا معماريًّا. من وجهة نظرٍ تقنية، واصل الباب تحسّنه مع تعزيز التجهيزات الحديدية المقاوِمة، «المفصّلات» (paumelles) في العام 1321، المفصّلات الفولاذية في العام 1360، وإذا ما أردتُ التوقف عشية القرن السادس عشر، ظهر في العام 1471 «مقبض الباب» (bouton de porte)، وهو ثورةٌ عمليةٌ معتبرة باتت تسمح بأن نتعامل على نحوٍ أكثر دقّةً وتواترًا وبمفردنا مع كلّ بابٍ نرغب في دفعه.

ممتصّات الأرواح

لم أتوقّف حتى الآن عن إظهار أنّه لئن كانت استراتيجية العتبات والمداخل مستلهَمةً منذ العصور القديمة، فهي أيضًا شديدة الواقعية. لقد بنى المعماريون (مثلهم مثل الفنانين الذين يصنعون فضاءاتٍ مليئةً بالاستعارات) ورسموا «معابر» رغبوا في أن تكون معبّرةً إلى أقصى حدٍّ ممكن بالنسبة إلى مشاهديها، بل من سيجتازونها. سوف نلاحظ أنّ بوّابة مبنًى ما تقوم بمهمّةٍ تزيينيةٍ عبر وفرة المنحوتات وثرائها، التي تترجم من دون أدنى شكٍ سياسةً، سواءٌ أرادها راعيها الديني أو لا. يجب أن نأخذ بالحسبان أنّ كثيرًا من الناس وإن لم يكونوا يعرفون القراءة في العصر الوسيط، كانوا في المقابل يستطيعون ببساطة تأويل النقوش والعلامات التي كانوا يرونها على قواصر كنائس ساهموا في معظم الأحيان في بنائها. لقد برهن الاختصاصيون بالعصر الوسيط أنّ الصور تمتّعت بصدًى لا يُنكر في الثقافة البصرية، وكانت تلك البوّابات الهائلة الحجم تمثّل ـكلٌّ منها بطريقتها لكن دائمًا بموضوعاتٍ توراتية قابلة للفهمـ بابَ الخلاص وتعِد بالافتداء أولئك الذين يعبرون منها، مع باب الفردوس في النهاية.

لن أتطرّق بالتفصيل إلا بمقدار ضئيلٍ لطرازات المباني، وبالتالي لطراز البوّابات، لكنّني لا أستطيع الهرب (ولا أنتم تستطيعون ذلك) من توصيفٍ بالغ الإيجاز للطُّرُز المعمارية التي تنتمي إليها. نتج الطراز المعماري «الرومانسكي»[250] (roman) والذي لم يظهر مصطلحه في اللغة الفرنسية إلا في العام 1848، عن العمارة الكارولنجية[251]، وتطوّر في أوروبا في العصر الوسيط بين العام 950 والقرن الثاني عشر. يتميّز هذا الطراز بقبّةٍ رومانيةٍ قديمة، تكون عمومًا على شكل نصف دائرة، وتعبّر (إن استرجعنا عبارات إيف بونفوا[252] Yves Bonnefoy) عن «تسامٍ نحو الأسفل» يكتسي بـ«ضوءٍ عميق». بعباراتٍ أخرى، وكي نبقى في عتمة تلك الكنائس القديمة الرائعة ومن دون أن نستضيء على الإطلاق بأقوالي، الطراز الرومانسكي هو «شكلٌ ترميزيٌّ وتلقينيٌّ يعوم في جوّ من الغموض الأصلي...». أمّا الطراز القوطي[253] (gothique)، فيريد أن يكون نقيض ذلك تمامًا، وقد بدأ بالوجود في القرن الثاني عشر، لكنّ إيطاليي عصر النهضة لم يصفوه بأنّه قوطيّ إلا في القرن السادس عشر. لقد حدّد هؤلاء المتخصّصون في علم الجمال، ورَثَةُ

(250) العمارة الرومانسكية: أسلوب تشييدٍ ساد في أوروبا القرنين الحادي عشر والثاني عشر وتتميّز فيه العناصر التركيبية، كالأقواس والأعمدة والدعامات والأقبية والعقود.

(251) الكارولنجية: نسبةً إلى سلالةٍ من الملوك الفرنكيين الذين حكموا أوروبا الغربية من العام 751 إلى القرن العاشر، وأبرزهم شارلمان.

(252) إيف بونفوا (1923 ـ 2016)، شاعرٌ وناقدٌ ومترجمٌ وأستاذٌ جامعيٌّ فرنسي.

(253) العمارة القوطية: إحدى مراحل العمارة الأوروبية؛ تميّزت بأشكالٍ هيكليةٍ مميّزة وبتعبيريةٍ جديدة أواخر القرون الوسطى، وبخاصةٍ من منتصف القرن الثاني عشر إلى قرابة العام 1400، ويتّسم هذا الطراز بالأقواس البارزة والعقود المروحية والدعائم الطائرة (الأكتاف).

روما، أنّ «القوطي» (gotico) هو نسيان التقنيات والقوانين الجمالية اليونانية- الرومانية في طريقة البناء في منطقتَي إيل دو فرانس[254] (Île-de-France) وأوت بيكاردي[255] (Haute-Picardie) منذ القرن الثاني عشر، أي بعبارةٍ أخرى طراز «العمل الفرنسي» (francigenum opus). وقد أطلقوا عليه هذه الصفة في إشارة إلى القوط، الذين كانوا همجيين بالمقارنة مع الرومان. وهكذا، اتّخذت العمارة جنوب نهر اللوار وفي أرجاء أوروبا كافة اسم العمارة القوطية.

علينا أن نبقي في أذهاننا أنّ استخدام الطراز القوطي هو قبل كلّ شيءٍ البحث عن الشاقولية والارتفاع، مثل الكاتدرائية الرائعة في بوفيه[256] (Beauvais) أو أميان[257] (Amiens)، وأنّ تعدّد مجموعات الأنوار والألوان، وكذلك تناوب الأقسام الفارغة والمليئة، كما في شارتر[258] (Chartres) وبورج[259] (Bourges)، هو جزءٌ لا يتجزّأ من تعبيره الزاهي. هذا الطراز هو أيضًا استفزاز، إذا ما تبنّينا تعبيرات هنري ميشو[260] (Henri Michaux) وهو يحاول فهم علاقة الهنود بالدين في روايته **بربري في آسيا** (*Un barbare en Asie*): «عندما ندخل

---

(254) إيل دو فرانس: تُعرف أيضًا بتسميةٍ شعبيةٍ هي: المنطقة الباريسية، وهي منطقةٌ تاريخيةٌ وإداريةٌ مكتظّةٌ بالسكّان (18.8 بالمئة من سكان فرنسا).

(255) أوت بيكاردي: منطقة تقع شمال فرنسا.

(256) بوفيه: مدينةٌ فرنسيةٌ تقع في مقاطعة واز، شمال الحوض الباريسي.

(257) أميان: مدينةٌ فرنسيةٌ تقع في مقاطعة سوم.

(258) شارتر: مدينةٌ فرنسيةٌ تبعد تسعين كيلومترًا عن باريس وتلقّب بعاصمة الضوء والعطر.

(259) بورج: مدينةٌ فرنسيةٌ تقع وسط فرنسا.

(260) هنري ميشو (1899 ـ 1984)، شاعرٌ وكاتبٌ ورسّامٌ بلجيكي كتب بالفرنسية.

كاتدرائية كولن[261] (Cologne)، وفور أن نصبح داخلها نكون وسط المحيط، وفي الأعلى فحسب، في أقصى الأعلى، يوجد باب الحياة...: 'في العمق' (De profundis)، ندخل، وعلى الفور نضيع. لا نعود سوى فأر. التواضع، 'الصلاة على الطراز القوطي'. الكاتدرائية القوطية مبنيةٌ بحيث ينهار من يدخل إليها ضعفًا. يصلّي المرء فيها وهو جاثٍ على ركبتيه، لا على الأرض، بل على الحافّة الحادّة لكرسي، مراكز السحر الطبيعي المبعثرة، وهي وضعيةٌ تعيسةٌ وغير متناغمة، حيث ليس بوسع المرء حقًّا سوى أن يتأوّه، ويحاول انتزاع نفسه من بؤسه: 'يا رب ارحم' (*Kyrie Eleison, Kyrie Eleison*)!».

إنّ المعارضة بين الطراز «الرومانسكي» والطراز «القوطي» عبر استخدام نصف الدائرة مقابل استخدام القوس المنكسر، أمرٌ غير منطقي، وهو مجرّدٌ تاريخيًّا من المعنى، إذ وُجد طرازٌ «قوطيٌّ أوّلي» (proto-gothique) في الوقت عينه الذي وُجدت فيه مبانٍ رومانسكية الطراز والعكس بالعكس إن أمكننا القول، على الرغم من أنّ مظهر الدير الملكي في سان بونوا سور لوار[262] (Saint-Benoît sur Loire) الذي بُني في القرن الحادي عشر أو في بلدة تورنو[263] (Tournus)، يمثّلان حقًّا الحضارة الرومانسكية وتلك الأزمنة القلقة في منعطف الألفية. لكنّ دير كلوني، وهو ديرٌ رومانسكي الطراز بامتياز، يكذّب بأبعاده التي تتجاوز بكثيرٍ كاتدرائياتٍ قوطيةً ستُبنى لاحقًا، فكرة اقتصار الحجم الهائل على الطراز القوطي!

---

(261) كولن (بالألمانية Köln): مدينةٌ تقع غرب ألمانيا وفيها كنيسةٌ كاثوليكيةٌ رومانيةٌ ضخمة هي ثاني أعلى كنيسة في ألمانيا والعالم بأبراجها بعد كاتدرائية أولم.

(262) سان بونوا سور لوار: مدينةٌ فرنسيةٌ تشتهر بديرها الرومانسكي البينيديكتي وتقع وسط فرنسا.

(263) تورنو: بلدةٌ فرنسيةٌ تقع في محافظة سون إي لوار.

فلنعد إلى أبواب كنائسنا، إنّها مصممةٌ دائمًا كممتصّات أرواحٍ حقيقية يجب ألّا تُفلت منها أيّ ذرّةٍ من الآثم. وهذا يفسّر أن تلعب هذه البوّابات وظائف ديناميكيةً أساسًا. بل إنّ تصميمها نفسه مرتبطٌ بالعبور من الدنيوي إلى المقدّس، وهو عبورٌ يتمّ بمراحل دقيقةٍ يجب أن تدفع المؤمن بتصميمٍ إلى اجتياز المراحل اللازمة كافّة التي تسمح له ببلوغ الكون المقدّس، حتى لو أدّى ذلك إلى اهتدائه في حال كان غير مؤمنٍ أو كان إيمانه ضعيفًا. بدايةً، يجب أن ننظر إلى العتبة ذاتها بوصفها فضاء انتقالٍ بين العالم الخارجي والمعبد الذي تعلن عنه. هي التي تنبّه إلى الحدّ الفاصل بين انتهاء الدنيوي وبدء المقدّس وتربط الضفتين إحداهما بالأخرى. غير أنّ هذا الحدّ لا يقتصر على مجرّد خطّ، بل إنّه سطح تلاقٍ بين الساحة التي تنتمي إلى العالم الدنيوي والخطر، عالم الحاضرة الأرضية، وداخل الكاتدرائية الذي يمتدّ نحو الخارج عبر الفناء (parvis)، من كلمة (paradisus) اللاتينية الكنسية، أي أنّ الفناء الواقع أمام واجهة الكنيسة يقارب الفردوس، وهو يذكّرنا بأنّنا سنصل قريبًا إلى الهدف. ثمّ يأتي المدخل المسقوف بذاته، هذا البنيان البارز الذي يحتضن البوّابة. كثيرًا ما تتوقّف عنده المواكب وتجعل منه وظيفته «التوقّفية» فناءً سيجري فيه الاستقبال المكلّل بهالة الانتصار عبر حماية الأشكال التعويذية. هنا تقام التنبّؤات، وهنا أيضًا تقام بعض شعائر التوبة التي تؤدّي إلى الطرد، وهنا كذلك يُجلَد المذنبون ويُفصل الغثّ عن السمين، وتوزّع الصدقات على الفقراء ويُحكَم بالنفي على من أذنبوا: في هذا الجانب من الباب تفرض المحن نفسَها وتُثقِل الوحدة على المرء، وليس في الجانب الآخر.

ومن فوق رأس الحاج أو رأس العابر البسيط، على سطح القوصرة الغائر، يُعاد ذكر الأشياء لنا، فممّا نذَكَّر به على سبيل المثال، على نحو ما شاهدتُ في نحتٍ غائرٍ يزخرف ركيزة «بوّابة الكُتبيّين» بكاتدرائية

روان[264] (Rouen)، كيف عانق القديس ميخائيل منتخَبًا عاريًا وغطّاه بملاءة، وهو مشهدٌ يجب علينا أن نفهمه على النحو التالي: أنت يا من تعبر البوّابة، اطرح عنك خطاياك! وإلى جانب ذلك المشهد، تمثَّل النقائص كي نتمكّن من التخلّص منها، وإلى الجانب الآخر كيفيةُ مقاومة صنوف الإغواء، أيْ تُقدَّم لنا جميع الأسباب الموجبة للأمل ولدخول كنيسة. أمّا أنا، وبوصفي زائـرًا فضوليًّا، فإنني أحبّ بصورةٍ خاصةٍ السطح الغائر لقوصرة البوّابة المركزية في كاتدرائية سان لازار أوتان (Saint-Lazare d'Autun)، والأكيد أنّ ذلك ناجمٌ عن أنّني زرتها مع راهبٍ بوذيٍّ من معبد كاكيولينغ (Kakiuling)، وهو معبدٌ مجاور، وجاك لاكاريير[265] (Jacques Lacarrière)، وعن أنّهما كليهما، كلٌّ بأسلوبه، ترجما لي تخيلهما لما أراد الفنّان قوله. بطبيعة الحال، النحّات جيسليبرتوس[266] (Gislebertus) الذي خطّ اسمه تحت أقدام المسيح بكلّ جلاله، ليس معاصرًا لنا، لأنّه أنجز سطح القوصرة الغائر هذا الذي حكم عليه كبار الشخصيات الكنسية في ثلاثينيات القرن الثاني عشر بأنّه فظٌّ. لكنّ هذا الفنّان الذي لا يقلّ مكره عن موهبته، عرف كيف يمنح حياةً لهذا الحجر، بحيث لا نزال قادرين على قراءته. وهو يحكي عن المعركة التي كان يجب آنذاك على أيّ مؤمنٍ أن يخوضها في مواجهة الشيطان، وعن مقاومته جهنّم ورغبته في أن يُنقل إلى السماء، والاهتمام البالغ بيوم الدينونة. بل نجد القديس بطرس وعلى منكبه مفتاحه، يساعد محظوظًا، كما نجد في إحدى الزوايا روحًا تتشبّث بطيّات معطف ملاكٍ ينفخ في البوق وتترك نفسها ليمتصّها الباب الذي تحوّل حرفيًّا

(264) روان: مدينة تقع شمال غرب فرنسا ويعبرها نهر السين.

(265) جاك لاكاريير (1925 ـ 2005)، كاتبٌ وناقدٌ وصحافيٌّ فرنسيٌّ بارز.

(266) جيسليبرتوس، نحّاتٌ فرنسي اشتُهر بعمله في كاتدرائية سان لازار بين العامين 1120 و1135.

إلى قمعٍ بفعل حنيات القوس الرومانسكي الثلاث التي ترمز إلى الزمن الذي ينقضي. ويجب بطبيعة الحال أن نضيف إلى ذلك باحة المسيح السماوية والشخصيات التوراتية المنتظَرة، لكنني أتذكّر بخاصيةٍ رجلًا صغيرًا مقرفصًا وصابرًا، هذا البوّاب الماكر الذي كان يرمز للسنة واندغم منذ ذلك الحين بالقرون العشرة المنصرمة منذ أن وُضع هناك. بورغونيٌّ لا يصدأ بمقدار ما لا تصدأ بورغونيا[267] (Bourgogne). منذ القرن الثاني عشر، جُهز بعض الكنائس بمنابر حتى إصلاح مابعد ترنت[268] (réforme post-tridentine) (1542) الذي فرض أن تكون الكنائس ذات صحنٍ مفتوح. وقد أزيل معظم تلك المنابر، لكن لا تزال أمثلةٌ رائعةٌ قائمةً، كما في مقاطعة يـون[269] (Yonne)، إذا ما ذكرتُ تلك التي أعرفها جيدًا، في كنيسة أبوانيي[270] (Appoigny)، والمنبر الموجود في كنيسة بونتينيي[271] (Pontigny)، وهو أكثر شهرةً. المنبر سياجٌ أو قنطرةٌ جديدة، موضوعٌ داخل الأسوار ويبطّن بطريقةٍ ما عتبة القداسة داخل المبنى عينه، وكانت تزييناته تسمح في كثيرٍ من الأحيان بتكرار الدرس الذي قُدّم على باب الكنيسة.

لن يعارضني أحدٌ إن قلتُ إنّ الكنائس تهرم، وتهرم معها أبوابها. وهذا يفسّر أنّ عددًا لا بأس به من البوّابات قد شهد ضروبًا من العناية

(267) بورغونيا أو بورغون: منطقةٌ إدارية تقع وسط شمال فرنسا وعاصمتها ديجون.

(268) المقصود هنا الإصلاح المضاد، وهو حصيلة مجمع ترنت، أو المجمع الترينذي الذي عُقد في مدينة تورنتو الإيطالية بين العامين 1545 و1547 ردًّا على الإصلاح البروتستانتي.

(269) يون: إحدى مقاطعات بورغونيا الأربع.

(270) أبوانيي: بلدةٌ في مقاطعة يون تشتهر بتراثها المعماري.

(271) بونتينيي: بلدةٌ في مقاطعة يون تشتهر بكنيسة ديرها المشيّدة في العام 1114.

والخيبات على مدى التاريخ، وأنّ التدخّل كان ضروريًا في عصورٍ أقرب إلينا. إنّ ما نتأمّله بإعجابٍ اليوم هو بالأحرى طرازٌ «قوطيٌّ محدث»[272] (néogothique)، أي قوطيٌّ أعيد ابتكاره جزئيًا. مع التجديد وموجة الاهتمام بالتاريخ التي سادت من منتصف القرن التاسع عشر إلى مطلع القرن العشرين، ظهرت حقبة ترميمٍ واسعٍ للمباني الأوروبية الكبيرة. ويُربط بتلك الحقبة عن طيب خاطر، المهندس المعماري العظيم فيوليه لودوك[273] (Viollet-Le-Duc)، وهو مؤلّف **القاموس العقلاني للعمارة الفرنسية من القرن الحادي عشر إلى القرن السادس عشر** (*Dictionnaire raisonné de l'architecture française du XIe au XVIe siècle*) (1854 ـ 1868)، الذي يتحدّث فيه من ضمن ما يتحدّث عن تجمع الأديرة في فيزلاي[274] (Vézelay)، وعن كنيسة نوتردام باريس (Notre-Dame de Paris). فعبر أشغاله، وبفضل عددٍ آخر من المعماريين أيضًا، سنشهد نهضة البوّابات القوطية في فرنسا. كان هدف هذه «الترميمات» جعْلَ معالِم متهالكة، بل نصف متهدمة، في حالةٍ قابلةٍ للفهم، وقد أدّت أحيانًا إلى نزاعاتٍ صاخبة مضت إلى مدًى أبعد بكثيرٍ من مجرد صفقٍ للأبواب. سوف نقدِّم مثال درو[275] (Dreux)، الذي استخدم في العام 1830 ـ عبر إشكالية الباب ـ علاقات

---

(272) الطراز القوطي المحدث: أسلوبٌ جديدٌ في العمارة الغربية نشأ في القرن التاسع عشر واستعاد استعمال أشكال العمارة القوطية التي عفى عليها الزمن.

(273) أوجين فيوليه لودوك (1814 ـ 1879)، معماريٌّ فرنسيٌّ اشتُهر بترميم المباني القروسطية.

(274) فيزلاي: بلدةٌ في مقاطعة يون تشتهر بكنيسة القدّيسة ماري مادلين وبتلٍّ صُنّف في التراث العالمي للإنسانية، وهي نقطة انطلاق أحد دروب حجّ سان جاك كومبوستيل الرئيسية.

(275) درو: بلدةٌ في مقاطعة أور إي لوار في شمال فرنسا.

قوّةٍ جديدةً بين السلطات السياسية والدينية. المثال مثيرٌ للاهتمام، ففي أواخر العقد الرابع من القرن التاسع عشر، قام لويس فيليب بأشغالٍ واسعة النطاق في مصلّاه في درو بهدف جعله المقبرة الجديدة لآل أورليان، السلالة الملكية الجديدة بعد ثورة العام 1830. ارتدت هذه الكنيسة الكلاسيكية الصغيرة المحدثة كسوةً جديدةً حقيقيةً على الطراز القوطي المحدث للمصلّى، وتحوّلت تدريجيًا إلى كنيسةٍ قروسطيةٍ محدثة تتوافق توافقًا تامًّا مع ذوقٍ معاصر، يرتبط بوضوحٍ باعتباراتٍ سياسية. كما أنّ عميد مجمع درو لم يتردّد في كتابة كرّاسٍ يخلط بمرحٍ أفكاره السياسية بالتمارين الروحية. غير أنّ أسقف شارتر لم يفهم ذلك الكراس على هذا النحو ودخل في نزاعٍ مع عميد درو بدوافع تتعلّق بالولاية القضائية. حول هذه المسألة، سوف تلعب البوّابة دورًا أساسيًّا: أليست الحدّ الذي يجب من بعده أن تترك السلطة الأسقفية مكانها لسلطة إكليروس الكنيسة الملكية الصغيرة؟ في الحقيقة، سوف تكون الحقبة التاريخية الواقعة بين العامين 1830 و1870 غنيةً بالأحداث المتعلّقة بالمداخل المسقوفة في الكنائس. فعلاوةً على ترميم الأبواب التي عانت من أزاميل الثوريين، دفعت المراسيم التي تمنع وجود العلامات الملكية والدينية الواضحة إلى تجديد الأبواب الضخمة. وقد جدّد النحّاتون والمعماريون والناسخون والمبدعون والناقلون ومبتكرو الطرازات والمعاني الرؤيةَ الجمالية والانفاعلية في الوقت عينه الذي كانوا يجدّدون فيه قراءة هذه المداخل المسقوفة وتأويلها، بل حتى الوظيفة التي ينسبها المجتمع إليها. إنّه زمن رمزيةٍ جديدةٍ تتعدّد فيها الأبواب الكبيرة. سوف تقدَّم طلبياتٌ لفنانين جدد، وفي هذه الحركة من الحاجة إلى جديدٍ يقلّد القديم، سيتقلّد الباب مكانةً أخرى ويخسر جزءًا كبيرًا من وظيفته النفعية ليصبح مجرد عملٍ فني. نجد مثالًا جميلًا على ذلك في حكاية الطلبية التي تلقّاها

رودان[276] (Rodin) في العام 1880 من إدارة الفنون الجميلة لصنع بابٍ يجب أن يُظهِر **الكوميديا الإلهية**. وعلى الرغم من أنّه كان من المفترض أن يكون هذا الباب رائعًا بحيث يكون باب جهنم، لكنّه لن يتجاوز أبدًا المظهر الذي نعرفه له اليوم. غير أنّ الباب، وهو أداةٌ وحاملٌ للرموز، لعب دوره بالكامل في هذه الحقبة. يدلّ العام 1880 أيضًا على الباب المكسور بضربات الفأس لطرد رجال دين، وهو بابٌ صُنعت منه مع قطعٍ خشبيةٍ مكسورة ذخائر نُصبت على شكل صليب، كما شهد العام 1906 العنف الممارس على الأبواب أثناء عمليات الجرد، أمّا في العام 1996، أي بالأمس القريب، فعناصر الدرك المؤلّلون هم الذين اقتحموا أبواب كنيسة سان برنار في باريس بضرباتٍ عنيفةٍ لطرد المحرومين من الأوراق النظامية. لقد انتصر الاقتحام على المخالفة. واليوم، في هذه الأزمنة النزاعية إلى حدٍّ كبير، فقدت جميع الأبواب عمليًّا تصفيحها الرمزي وأخذت تتعلمن بإفراطٍ، في الوقت عينه الذي تغادرنا فكرة المعابد التي كان يحميها مخيالنا الجماعي.

أبوابٌ مهذارة

كانت العلاقات الاجتماعية في العصر الوسيط تندرج في مكانيّةٍ لم تعد تشبه على الإطلاق المكانيّة التي لنا نحن، وسنبقى لزمنٍ طويلٍ بعيدين في الغرب عن التصور الديكارتي[277] (cartésien) للفضاء بما هو امتدادٌ محايدٌ ومجرّدٌ وقابلٌ لأن يُقاس ويوضع ضمن خريطةٍ ويُشيَّأ. يظهِر المؤرّخ ديدييه ميهو[278] (Didier Méhu) أنّه لم تكن توجد على

---

(276) أوغست رودان (1840 ـ 1917)، نحّاتٌ فرنسيٌّ شهير، وهو أحد روّاد فن النحت في القرن التاسع عشر.

(277) ديكارتي: نسبةً إلى الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت (1596 ـ 1650)، وهي صفةٌ تُطلَق للدلالة على الوضوح والمنطق والمنهجية والعقلانية والمتانة.

(278) ديدييه ميهو، مؤرّخٌ فرنسيٌّ معاصرٌ متخصّصٌ بالعصور الوسطى.

سبيل المثال كلمةٌ للإشارة إلى ما نسمّيه اليوم ونتخيّله باسم حيّز. كان المجتمع القروسطي يمنح أهميةً معتبرةً لأماكن وأوقاتٍ متنافرة، لكن تُقام انطلاقًا منها العلاقات الاجتماعية وتُقرّر فيها بخاصةٍ المسارات الوجودية الفردية. تلقّت هذه الأماكن التي يبرزها سكنى البشر إياها اسمَ «مكان» (locus)، كانت هذه الكلمة تعني تقريبًا الحيّز الذي يحتلّه الجسد ويملؤه عرضًا وعمقًا وطولًا وارتفاعًا. كلّما كان الشيء كبيرًا ومرتفعًا، كان وضع من يستفيدون منه نوعيًّا أو مهمًّا. سوف تُطلق الكلمة أيضًا على الأماكن المقدّسة: الكنائس والأديرة والقبور التي تتجذّر جميعًا في الأرض لكنّها مرتبطةٌ ارتباطًا مباشرًا بمكمّلها البنيوي: السماء. هكذا كان الـ(locis) والـ(cellis) يتواصلان في ما بينهما وانتهى الأمر بأن أصبحت عبارة (locus Dei) تشير إلى ديرٍ عند السيسترسيين[279] في القرن الثاني عشر.

لئن كانت الكنيسة حقًّا مكانًا للصلاة وتلقين الأسرار، فإنّ مفهوم «المكان» يندرج في ديناميةٍ مادّيةٍ تنشّط فعاليتَها تنقّلات المؤمنين، ويجب فهمها بوصفها إطارًا للمسار الروحي الذي يتحوّل عبره المؤمن تدريجيًّا لينضمّ إلى الجماعة الكنسية. على سبيل المثال، كان مجرد اجتياز الباب، هذه النقطة التي لا يمكن لمسها في الفضاء وفي الزمان، يعني قبول الانقلاب، «العبور» (transitus)، الذي يسمح بإجراء التحوّل. كانت الحياة تُفهم بوصفها حركةً عامّةً يندرج فيها الوجود البشري في مسارٍ تصاعديٍّ وغير خطّي. لم يكن العيش سوى إجراء تحوّل، «حجٌّ شاقّ» (peregrinatio laboriosissima)، تطوّرٍ بطيءٍ وتدريجيٍّ يُفترض به أن يوصل عبر مراحل الإنسانَ الشهواني المتجذّر في الأرض، إلى الإنسان الروحي المرتبط بالسماء. كان إنسان العصر

(279) السيسترسيون: أعضاء رهبانية سيتو (Cîteaux) (القرن الحادي عشر؛ أصلحها القديس برنار في القرن الثاني عشر).

الوسيط إنسانًا متنقّلًا (homo viator) حقيقيًّا، إنسانًا مسافرًا بصورةٍ نهائيةٍ، يتحوّل في كلّ «مرورٍ» يقوم به.

لم يكن الأمر صعب التحقيق، إذ يكفي نسخ النموذج الأوّلي الذي كان يؤكّد له أنّه خُلق على شاكلته. وفي جميع أماكن القداسة، كانت منقوشةً ومكرّرةً بصورةٍ لانهائيةٍ وتنافسية تلك الصور التي تدلّه إلى الدرب الذي يجب عليه أن يسلكه. لكنّ كلّ شيءٍ كان يستند إلى نوعية عتبة «المكان»، كتب ميهو: «تجاوزٌ مخلِّصٌ يؤدّي إلى إشعاعٍ دائريٍّ دينامي قويٍّ إلى درجة أنّه يربط شاقوليًّا الأرض بالسماء، وأفقيًّا كلّ المجتمع المحيط بالعالم المقدّس». وهذا يفسّر جزئيًّا لماذا لا يزال عددٌ كبيرٌ من العتبات والأبواب التي نُصبت في تلك الحقبات بليغًا بهذا المقدار حتى اليوم.

يجب أن نضيف إلى الأماكن المقدّسة الأماكنَ الأكثر خصوصيةً، حيث شارك ترميزٌ خاصٌّ بشعارات النبالة في تعريف «المكان» تعريفًا دنيويًّا. يجب تذكّر كم لعبت الشارات دورًا حاسمًا بين مطلع القرن الثالث عشر ومنتصف القرن الرابع عشر. إنّها حقبةٌ سيطر فيها النظام الخاصّ بشعارات النبالة على جميع أنماط إظهار السلطة. وبدءًا من خمسينيات القرن الرابع عشر، تعزّز هذا السجلّ الدلالي بوسيلة تعبيرٍ أخرى: «الشعار» (devise). وهو شعارٌ يقترن أحيانًا بـ«قولٍ مأثور» أو بـ«كلمة»، أو بحروفٍ متشابكة تدلّ على الشخص، أو بألوانٍ تميّز الشارة. من بين الوظائف المتعدّدة لهذه العلامات التي كثيرًا ما توضع في المداخل الرئيسة، أنّها كانت تسمح للأمير ببناء وترميز الحيّز المحيط به أو الذي يمثّله، وبأن يمنح نفسه، عبر إضفاء دلالةٍ على حضوره، تفويضًا بفرض سلطته على رعاياه على نحوٍ أفضل. غير أنّ أكثر ما يمكن الاستدلال به من أجل وضع هذه العلامات في الحيّز هو التزيينات الدائمة، أي الأماكن الثابتة لممارسة السلطة من قبيل عاصمة المملكة أو مدن الملك الجيدة أو القصور أو المساكن المترفة. وقد

استقطبت زخارفَ الشارات في الغرف الجميلة عناصرُ مثل الموقد والجدران وأقفال القنطرات والنوافذ والزجاج المعشق والأبواب وحتى الأرضية أكثر ممّا استقطبتها واجهات أبواب الدخول.

في تصوّرنا المنمّط عن العصر الوسيط، نصوّر في معظم الأحيان الانتشار الواسع لعلامات الرايات التي كانت تغطّي الحيّز الخارجي وتشير لوجود المولى، برموزٍ مزيّنةٍ بالشعارات وراياتٍ تخفق في الريح، وكذلك بالشعارات المنصوبة في محيط الأبواب المباشر. علاوةً على النقوش المتبقية المحفورة على الحجر، كان طابع السلطة المتجوّل آنذاك يدفع إلى أن تُحمل إلى كلّ مكانٍ صورٌ على شكل منسوجاتٍ أو ستائر. كانت العادة أن تعلّق شعاراتٌ ورموزٌ لدى مجيء أميرٍ إلى يمين ويسار باب الخيمة أو الردهة التي سيقيم فيها ويستقبل زوّاره. ولتيسير الأمور، كانت علامات شعارات النبالة تُنقش على ترسٍ يسهل تعليقه. تعليقٌ مستقيمٌ أو مائلٌ بحسب أذواق المزيّن، مثبتٌ على الجدار أو على سارية خيمةٍ وتعلوه أحيانًا خوذة، وتاجٌ عندما يكون الملك، باعتبار أنّ الفكرة هي أنّ هذه الحوامل الاسمية تسمح بخلق وإظهار «مكانٍ» يعزل بتزيينه الأمير عن بقية الناس في الوقت عينه الذي يحمونه ويبرِزونه فيه. هكذا، وعبر فرض حيّزٍ مزيّنٍ على مرأى ومسمعٍ من الجميع، أي بعباراتٍ أخرى عبر عرض الشعارات الملكية على الأبواب، كان يُعلَن عن وجود الملك ويُذكَّر بأنّ جسمه متماهٍ حقًّا مع هذه الأماكن والساحات وبأنّ كلّ قسمٍ من مملكته محصّن.

سوف يغتني هذا الخطاب الشعاري منذ منتصف القرن الرابع عشر عبر العرض المنهجي لصورة الأمير التي ستوضع داخل زخارف مفعمة باللون والرمز، وسنرى أنّ هذه الصورة تتبلور في معظم الأحوال حول أبواب دخول المدينة أثناء مواكب الدخول المهيبة. لتقديم فكرةٍ عن أهمية هذه العلامات، نذكر أنّ شعارات فرنسا المرسومة على القماش

كانت معلّقةً لدى دخول شارل التاسع[280] (Charles IX) في العام 1564 كلّ حوالى عشرين خطوة في بلدتيْ مونتوبان[281] (Montauban) ونـاربـون[282] (Narbonne) على واجهات البيوت الأمامية المغطّاة بالسجاد أو وسط الشارع. في ليون[283] (Lyon)، نجد أكثر من ألفٍ ومئتي شعارٍ مزينٍ بالرموز الملكية عُلقت على مسار موكب الملك. وفي سانس[284] (Sens)، على كلّ بابٍ وكلّ نافذةٍ كانت تتوهّج شعلةٌ مزينةٌ برموز العاهل. يمكن أيضًا أن تتحدّث الرمزية المستخدمة بنفسها ولا تكون بالضبط في إطار المديح، كما في نيم[285] (Nîmes) حيث حدث قبل وصول الملك بعشرة أيام أن شعر كبير الضباط بأنّه «منزعجٌ كثيرًا» لاكتشافه أنّ باب المكان الذي كان من المفترض أن يقيم فيه الملك مزينٌ بنبات البقس، لكن بدلًا من الألوان الملكية، أي الأبيض والأزرق والقرمزي، كانت الباقات مزيّنةً بشرائط صفراء وبيضاء. هل كان ذلك خطأً أم استفزازًا؟ في هذا المعقل الكالفيني[286]، كان جميع الناس يعلمون أنّ دهان بابٍ وعتبة بيتٍ باللون الأصفر كان يعني آنذاك طريقةً للوشاية بخيانة رجلٍ ما.

في حقبةٍ كانت التماثيل ذاتها تُطلى وجـدران الكنائس تُكسى بألوانٍ ساطعةٍ متعدّدة وتتواجه أشدّ درجات الألوان حدّةً في التزيين

(280) شارل التاسع (1550 ـ 1574)، ملك فرنسا بين العامين 1560 و1574.

(281) مونتوبان: بلدةٌ في جنوب فرنسا.

(282) ناربون: بلدةٌ في جنوب فرنسا.

(283) ليون: مدينةٌ وسط فرنسا، وهي من كبريات المدن الفرنسية.

(284) سانس: بلدةٌ فرنسيةٌ تقع على بعد مئة كيلومتر جنوب شرق باريس.

(285) نيم: مدينة في جنوب شرق فرنسا.

(286) كالفيني: نسبةً إلى المصلح الديني واللاهوتي الفرنسي جان كالفن (1509 ـ 1564).

والتأثيث والرداء، حيث كان باختصار حبٌّ حقيقيٌّ للّون ينتشر على السطوح الغائرة لقوصرات أبواب الكاتدرائيات، مثلما أعيد ترميم باب الكاتدرائية أخيرًا في شارتر لمهرجان «الأصوات والأنوار»، كانت الألوان بذاتها كتابةً، فعلى سبيل المثال كان اللون الأحمر علامةً على القوّة، والأزرق نقيضًا له، وسرعان ما أصبح رهانًا دينيًّا فرض نفسه في الزجاج المعشّق، قبل أن «تخصخصه» الملَكية في عهد فيليب أوغوست[287] (Philippe Auguste)، وبخاصةٍ في عهد سان لويس[288] (Saint-Louis)، وعُدَّ الأخضر لونًا وسيطًا وهادئًا يقوم بالصلات، في حين كان الأصفر يوصف بأنّه لونٌ خابٍ ويُنظَر إليه كما رأينا بوصفه رمزًا للخيانة والخديعة والكذب. كانت هنالك أيضًا جميع الألوان «المنثورة» و«المخطّطة» وعلى هيئة «رقعات الشطرنج» و«المبقّعة»... هذه التنوّعات كافّة كانت تتكلّم، وتأتي لتعزّز «الموحّد» أو تفرّقه، لتعزّز المهيب وتؤكّد المقدّس، وتدلّ كذلك في بعض الأحيان على المنبوذ أو المُطارَد أو الموصوم بالعار.

كانت توجد أيضًا أبوابٌ أخرى، أكثر خصوصيةً، مخبّأةٌ أكثر، أقلّ هذرًا أو تكلّمًا ظاهريًّا: تلك التي تحمل نقوشًا مستغلقة. إنّها أبواب الخيميائيين الذين كانوا يبحثون منذ القرن الثاني عشر عن «حجر الفلاسفة»[289]. سوف تتطوّر الخيمياء أواخر العصر الوسيط لتنتشر

(287) فيليب أوغوست أو فيليب الثاني (1165 ـ 1223)، ملك فرنسا بين العامين 1180 و1223.

(288) سان لويس أو لويس التاسع (1214 ـ 1270)، ملك فرنسا الذي قاد الحملة الصليبية السابعة في العام 1248.

(289) حجر الفلاسفة: مادةٌ افتراضيةٌ خيميائية ينسب إليها الخيميائيون ثلاث خصائص أساسية: تحويل المعادن البخسة إلى معادن ثمينة كالفضة أو الذهب، وشفاء الأمراض، وإطالة عمر الإنسان ليتجاوز حدوده الطبيعية.

وتلمع بأبهى سطوعها في قواصر بعض المنازل في القرن السادس عشر وحتى مطلع القرن السابع عشر. هكذا نستطيع أن نتأمّل في ليزيو[290] (Lisieux) مجموعةً منحوتةً مجازيةً على سطح القوصرة الغائر الخاص بباب قصر السمندر الريفي (Manoir de la Salamandre)، تحكي منذ القرن السادس عشر للعابر أو المارّ حكايةً خاصّة موضوعها بسيط: أسدٌ ولبوةٌ يتواجهان ويمسكان بين قوائمهما قناعًا بشريًا يشخصن الشمس، يحيط به نباتٌ متسلّقٌ منحنٍ على شكل مقبض مرآة. يرى الخيميائي المعاصر فولكانيللي[291] (Fulcanelli) في الحيوانين الكاسرين «المبدأ الذكريّ والفضيلة الأنثوية، متشابهين في الشكل لكن متناقضين في الخاصّية، يعبّران عن التعبير المادي لـ«الطبيعتين»[292] اللتين يجب على الفنّ اصطفاؤهما في بداية الممارسة». من اتّحادهما تولد هذه المادة الخليط، المتعلّقة بالجنسين معًا، والتي يصفها الحكماء بأنّها «مرآة الفن». «هذه المادة، الإيجابية والسلبية في آنٍ، المريض الذي يحتوي على عامله الممرض، هي أساس 'العمل العظيم' وركيزته». على عمود الإطار الأيسر لهذا الباب، نجد نحتًا بارزًا يمثّل رجلًا يلبس رداءً له كمّان وعلى رأسه نوعٌ من قبّعة دائرية، وعلى صدره صدريةٌ لها ترسٌ تظهر عليه «النجمة» السداسية الرؤوس. يستدل فولكانيللي بعادات العصر الوسيط فيقول إنّ هذا الشخص الرفيع المقام المعسكِر على غطاء جرّةٍ متراجعة الحواف يفيد في الإشارة إلى محتوى الوعاء. الترجمة الخيميائية: «إنّها المادة التي ترتفع أثناء عمليات التصعيد إلى ما

(290) ليزيو: مدينةٌ في شمال غرب فرنسا.

(291) فولكانيللي، اسمٌ استخدمه خيميائي ومؤلّفٌ فرنسيٌّ غامض لا تزال هويته موضع جدال.

(292) الطبيعتان: هما في اللاهوت الطبيعة البشرية والطبيعة الإلهية؛ وفي الفلسفة الطبيعة الروحية والطبيعة الجسدية.

فوق سطح الماء حيث تسبح مثل زيت». هذا الفارس ذو الهيئة الجميلة والمتحدّر من سلالةٍ سماويةٍ هو لغزٌ ويجب أن يبقى لغزًا، تمامًا مثل السمندر الذي يواجهه على الجانب السفلي الأيمن للباب، لكن لا شيء يمنعنا من الاعتقاد بأنّ السمندر، على غرار الدُّرجة التي أطلقها فرانسوا الأول[293] (François Ier)، هو ساحر المسكن الطيّب علاوةً على أنّه شحنةٌ إيروسيةٌ للمكان. إنّه بالنسبة إلى الخيميائيين بصورةٍ أكثر تأكيدًا، العينُ التي تعرف كيف تتعرّف إلى «العمل»، «طلسم 'النار المقدّسة' الخاصّة بالحكماء والتي تفيد في تطوير وإثارة الزئبق، هذا 'الماء الذي لا يبلل اليدين'».

ومجدّدًا، يقول كلّ تمثيلٍ للرمز الخيميائي ما كان أيُّ إنسانٍ في ذلك العصر يستطيع على نحوٍ يثير الإعجاب أن يفهمه: عبر التحوّل، يصبح الكائن والمادة كامليْن بعد أن كانا ناقصيْن! كان ذلك نوعًا من الفكر الجيولوجي حيث الأرض بوتقةٌ سيئة التنظيم تفتح، إذا ما توصّلنا إلى تفكيك الطبقات الأرضية لإعادة وضعها ضمن الترتيب الأصلي الصحيح، إمكانية اكتشاف بيضة الفلاسفة[294]، ذلك الجنين الذهبي في الكهف الكوني. وقد نشأت فكرة تحويل المعادن إلى ذهبٍ من الحركة عينها التي نشأت منها محاولة تحويل الإنسان إلى روحٍ محض. هذا على كلّ حال اقتراحٌ لرحلةٍ روحيةٍ متبصّرةٍ كانت تعلن عن نفسها أمام أكثر الأبواب وضوحًا. بالتالي، يجب أن ننظر إلى الرموز الموضوعة فوق الدلالة المخبّأة والتي نُحتت على هذا الباب النورماندي بوصفها إشاراتٍ للإنسان في أواخر العصر الوسيط.

---

(293) فرانسوا الأول (1494 ـ 1547)، ملك فرنسا بين العامين 1515 و1547.

(294) بيضة الفلاسفة أو بيضة الخيميائي: اسمٌ رمزيٌّ يمثّل خلق الكون وتحويل المعادن في الخيمياء، وهي أصل الأشياء كلّها، إذ يمثّل تصدّع البيضة الموتَ الرمزيّ والبعث.

الفكرة هي أن يكون الباب أكثر من عتبة، دربًا سيُقترَح في نهايته المفتاح الذي يُستخدم في فتح عالم الحكايات والأساطير التي تجعل الإنسان تامًّا. الأبواب مهذارةٌ بهذا المقدار في هذا العصر الوسيط الذي لطالما ساد اعتقادٌ بأنّه صموتٌ ومجرّدٌ من الذكاء، وذلك لأنّها تدعو حقًّا إلى رحلةٍ روحية، إلى «عبورٍ» لواقعٍ آخر ومن دون أيّ هدفٍ سوى ألّا تكون له نهاية.

أبوابٌ وأقفالٌ للنساء

في الغرب المسيحي واللاتيني، احتُجزت النساء لوقتٍ طويلٍ خلف الأبواب من أجل «احترام القاعدة» التي تقضي بأنّ المرأةَ الجديرة بهذا الاسم لا تستطيع أن تعيش في الخارج. في القرن الخامس عشر، نصّب عالِم الآداب القديمة الإيطالي ليون باتيستا ألبيرتي(295) (Leon Battista Alberti) نفسه ناطقًا باسم جميع الأزواج، وذلك بكتابه **عن العائلة** (*Della famiglia*)، وهو دراسةٌ عن الحياة العائلية ظهرت في العام 1443، وسمح لنفسه بذلك بأن ينطق أيضًا باسم الزوجات. فبعد أن انتقد باستفاضةٍ الأعباء المنزلية ولقّب الزوجة بأنّها «زعيمة الجميع في المنزل وسيّدتهم»، تحدّث في تلك الدراسة عن «التحفّظ والاعتدال اللذين يجب عليها إظهارهما في كلّ أمر». عبر فتح الباب مواربةً، كان الزوج يسمح لزوجته الشابّة بظهورٍ عابرٍ على عتبة البيت، وذلك كي تمنح نفسها سلطةً و«تقدّم نفسها في الخارج، أمام الباب المفتوح، برزانةٍ جميلةٍ وملامح جدّيةٍ ستدفع جيرانها للاعتراف بحذرها، وسوف يمتدحونها، في حين أنّ أولئك الذين من طرفنا سوف يحترمونها أكثر».

---

(295) ليون باتيستا ألبيرتي (1404 ـ 1472)، مهندسٌ معماريٌّ وعالم رياضياتٍ وشاعرٌ إيطالي، كان شخصيةً إنسانويةً متعدّدة المواهب في عصر النهضة.

بهذا الصدد، تتحدّث المؤرّخة كلابيش زوبير[296] (Klapisch-Zuber) عن «فنّ الظهور»، بل عن تجلّي سيّدة المنزل أو ارتقائها عندما تقف بصورةٍ استثنائيةٍ على عتبة مسكنها. في الحقيقة، كان «هذا الظهور كما يجب» يسمح بملامسة الحيّز العامّ بالتوافق مع عادات ذلك العصر حيث يجب على المرأة المتزوّجة أن تبقى في الداخل، محميةً جيدًا في سياج بيتها بهدف الدفاع عن شرفها، وبصورةٍ خاصةٍ لزيادة شرف زوجها. عندما كانت امرأةٌ تجتاز الباب استثنائيًّا، فقد كان ذلك للذهاب إلى قدّاسٍ أو احتفالٍ ما، ولم تكن تستطيع الخروج إلّا برفقة «امرأتين على الأقل أو رجل»، وتكون أنيقةً ومزيّنةً لتشرّف زوجها. كان أيّ خروجٍ آخر يعدّ مشبوهًا، بسبب وجود خطر، بل محظور، التعدّي على المجال العام، وهو مجالٌ محصورٌ بالرجال و«الشؤون العليا». لكن في الداخل، ما إن نجتاز الباب حتى نصبح في مملكتها، وهي مملكةٌ سرّيةٌ تحكم فيها الزوجات أو الأمهات الجميعَ وكلّ ما يخصّ المسكن حكمًا مطلقًا.

لم يقتصر الأمر في هذه الحياة الفلورنسية من القرن الرابع عشر على عدم قبول النساء بمفردهن في الحياة العامة الخاصّة بالحاضرة، بل كان يحدث أيضًا أن يُسحَب من تلك الحياة العامة بعض «الأقطاب»، ولاسيما رؤساء الأديرة، طيلة الوقت الذي تستغرقه مهمّتهم. كان على هؤلاء الأخيرين التخلّي أثناء شهرَي خدمتهم عن أيّ حياةٍ عائليةٍ فيبقون محتجزين داخل قصر الولاية ولا يستطيعون أن يظهروا إلّا على الشرفة أو على عتبة قصرهم، ولاسيما على «الدرابزين» (ringhiera). كان الدرابزين يقام خارج قصور الأمراء، يحدّده بروزٌ عريضٌ في السطح تبنى تحته مقاعد، بل أحيانًا مقاعد مدرّجة من الحجر تستند إلى الجدار.

---

(296) كريستيان كلابيش زوبير، مؤرّخةٌ فرنسيةٌ ولدت في العام 1936، وهي متخصّصةٌ بالتاريخ الاجتماعي وتاريخ الأسرة.

كان هذا الحيّز يشكّل نوعًا من غشاءٍ بين الداخل والخارج ويُستخدم أثناء شعائر استقبال الأمراء الزائرين. في ذلك اليوم، كان الدرابزين يغلق خلف ساترٍ يضع مسافةً في الوقت عينه مع الجمهور الحاضر ويجعل رؤساء الأديرة محميّين من الاتّصال. لم يكن لهؤلاء الأخيرين الحقّ في تجاوز أبواب القصر إلّا مصحوبين، ومن أجل احتفالاتٍ دينيةٍ نادرة، أو من أجل زياراتٍ دبلوماسيةٍ لكرادلةٍ عابرين. غير أنّ البروتوكول كان يقضي بأن يستقبلوا البابوات أو الأباطرة أو الملوك، وأن يرافقوهم مشيًا حتى باب المدينة. بطبيعة الحال، لم يكن لأيّ امرأة، حتى أكثر الزوجات عفافًا، أن تجتاز باب القصر أو باب «المحكمة العامة» (curia communis) وتلتقي برؤساء الأديرة في الحيّز الذي كانوا يُحتجزون فيه أثناء وظيفتهم، ما لم تكن مطلوبةً للشهادة أو للمحاكمة، متّهَمةً أو عُرضةً للسؤال! فضلًا عن إرادة فرض تجنّبٍ جنسيٍّ دائمٍ على أوائل القضاة البلديين، كطريقةٍ للحفاظ على نقاء «المدينة»، كان الأمر يتعلّق قبل كلّ شيءٍ بمنع الأنثوي من التدخّل في الشؤون العامة الخاصّة بالرجال. يجب عليّ توضيح أنّه في ما يتعلّق بـ«النساء»، فإنّ الأمر يقتصر في الوقائع على أقليّةٍ من «المحظوظات»، نساء الوجهاء، أمّا بالنسبة إلى الغالبية العظمى من النساء، نساء الشعب، فكان عليهنّ كسب رزقهنّ، ولتحقيق ذلك كان عليهنّ تجاوز الباب كلّ يوم والعمل في الخارج... يجب أن نتذكّر أنّ تفضيل (الرجال؟) في إيطاليا الصغيرة هذه في القرن الرابع عشر، كما في بقية أرجاء أوروبا، كان يصل إلى نشاطاتٍ أنثويةٍ محتبسةٍ في البيت، إذ يجب أن يبقى الشرف الجنسي سليمًا في المقام الأول، فالمرأة التي كانت «تذرع شوارع» الحاضرة تضع نفسها موضع الخطر لكنّها أيضًا تضع بقية الحاضرة موضع الخطر. وبما أنّ الفضاء السياسي كان يجب أن يبقى سالمًا من التلوّث المحتمل الذي تحمله كلّ امرأةٍ في جسمها المادّي خارج إطار الحياة الخاصّة،

فإنّ «العدوى الأنثوية» التي ربّما تلوّث الحاضرة، كانت على الدوام في الأذهان.

يمكن في هـذا السياق أن نفهم كيف أنّ الإبـعـاد، بل الإقصاء والاحتجاز، كان يتجاوز بالنسبة إلى النساء باب المسكن وحده، فبالنسبة إلى الرجال كانت الخشية الأعظم الكامنة في جسد المرأة تصل حتى طرف بابها الحميم، جهازها التناسلي الذي يجب أن يحرس كلّ زوجٍ مدخله! ولهذا السبب، اخترع الرجل «حزام العفّة» المستقى مباشرةً من استيهاماته المتعلّقة بالانغلاق ورغباته في الإخضاع، وهو يوضح توضيحًا دراماتيكيًّا أكثر ممّا يجسّد هذا المجتمعَ الذي يهيمن فيه الذكور ولم نخرج منه بعدُ.

لئن كان فرض مثل هذه الأحزمة نـادرًا إلى حدٍّ ما، فإنّ المفهوم كان موجودًا بالفعل، فقد صُنع استيهام هذا الباب المغلق بقفلٍ، والموضوع على جسدٍ أنثويٍ حصرًا، مثلما تشهد على ذلك أسماء (cintura di castità) في إيطاليا و (cinturón de castidad) في إسبانيا و (girdle of chastity) في بريطانيا العظمى و (Venus-Band) أو (Keutschheitsgürtel) في ألمانيا و (Kisscheidgordel) في هولندا... إلخ. أي باختصار، كانت تلك الرغبة في احتجاز المرأة راسخةً حقًّا في المخيال الأوروبي في ذلك العصر. يدفعوننا للاعتقاد بأنّ هذا الجهاز يعود إلى زمن الحروب الصليبية، لكن بعد إجراء تحقيق ليس هنالك أثرٌ لهذا الرداء الثقيل المجحِف إلّا منذ القرن الخامس عشر، بل هنالك ما هو أكثر، فقد كان هذا الحزام يُعدّ عملًا فنيًّا في مجال صنع المفاتيح أكثر منه أداةً للتعذيب. وانحصرت وظيفة هذا الحزام في الدفاع عن أعضاء النساء التناسلية ضدّ إيلاجٍ ذكوريٍّ، ولم يكن في الوقت عينه يمنع النساء من تلبية حاجاتهنّ الطبيعية. يتماشى الاعتقاد بأنّ الصليبيين هم الذين اخترعوا هـذا العائق الميكانيكي، وهـو «قـفـلٌ» حقيقيٌّ

«للجنس»، مع تكبيل الجسد الذي استهلّته الكنيسة في العصر الوسيط، ولاسيما جسد المرأة. لقد ساد بالتأكيد الاعتقاد بأنّه تجب وقاية المرأة، مثلها في ذلك مثل الطفل، وحفظها من الأخطار جميعًا، وهذا يتماشى بالفعل مع روح هذه المنظومة الأخلاقية التسلّطية الكاثوليكية المتشابكة بين العمل الديني الطوباوي والحربي لدى الصليبيين. يسهل علينا أن نتخيّل رجالًا شكّاكين، غيورين أو مجرد حمقى يخترعون وسيلةً لمنع خطر خيانة زوجاتهم لهم جسديًا أثناء غيابهم. وفي الوقت عينه الذي يطمئنّ بعض أولئك الرجال (يطمئنون أنفسهم؟) إلى الحفاظ على أملاكهم العقارية الأغلى ثمنًا، كتبوا ليبرّئوا أنفسهم، أنّ «الحزام» هو قبل كلّ شيءٍ وسيلةٌ ضد الاغتصاب في حال حدوث هجماتٍ عدوّة. لا عزاء لصليبيينا وأبطالهم في الأخلاق، هم الذين لطالما دُفعوا إلى الإيمان بما لا يمكن الإيمان به (بالنسبة إلينا)، في أزمنةٍ كان يُقال إنّ المرأة، التي كانت محتجزةً أصلًا داخل جدران القصر ومحبوسةً في حدائقها وراء الأبـواب، يجب أن يغلَق عليها جسديًا بأكثر من ذلك بقليلٍ، بقفل.

نحن نعلم حاليًا أنّ أحزمة العفّة القديمة القليلة المتبقية لا تعود إلّا للقرن الخامس عشر، وأنّ غالبية النماذج التي لا تزال موجودةً هي على نحوٍ أكثر تأكيدًا نسخٌ تقلّد الأحـزمـة، صُنعت في القرن التاسع عشر، كثيرًا ما نجت من الاستخدام الهستيري لبعض الراهبات اللواتي استخدمنها بوصفها مسوحًا، وتعود ـبالنسبة إلى الفترات الأحدث زمنيًاـ إلى زمن الجنون المعادي لاستمناء الفتيات في القرن التاسع عشر والهذيانات الفتشية[297] (fétichiste) لهواة دُور البغاء والحروب الصليبية!

---

(297) نسبةً إلى الفتشية (fétichisme) وهي انحرافٌ جنسيٌّ يتمثّل في تركيز الشهوة الجنسية على جزءٍ من الجسد أو شيءٍ يتّصل به.

مظهر المسألة الأدبي مهمٌّ لفهم كيف انتشرت فكرة الحزام عبر القرون أكثر ممّا انتشر وضعه. على سبيل المثال، كان لدى غييوم دوماشو[298] (Guillaume de Machaut) (1300 ـ 1377)، وهو شاعرٌ وكاهنٌ مرتّلٌ من رانس[299] (Reims)، استيهامٌ موضوعه حبُّه لفتاةٍ، ولمّح إلى «قفلٍ سريٍّ» في قصيدته **ما تقوله الحقيقة** (*Veoir Dit*) (بحدود العام 1364):

عانقتني الجميلة

كان بيدها مفتاحٌ ذهبيٌّ يدويّ الصنع

وقالت: سأحمل هذا المفتاح.

سأضعه وأحفظه جيّدًا

لأنّه مفتاح كنزي

[...]

لأنّه شرفي، لأنّه ثروتي.

إنّ هذه الكتابة لا ترغمنا مطلقًا على الاعتقاد بوجودٍ مادّيٍ لأحزمة العفّة في تلك الحقبة، ولكنّها تسمح لنا بالأحرى، بالبرهنة على تطوّر الأقفال والمفاتيح في البيوت المدينية. يُقال إنّ الملك هنري الرابع[300] (Henri IV) المندفع والغيور على هنرييت دانتراغ (Henriette d'Entragues) التي دفعتها أمها إلى أحضان الملك، قد استخدمها،

---

(298) غييوم دوماشو (1300 ـ 1377)، شاعرٌ ومؤلّفٌ موسيقيٌّ فرنسي، من أشهر أعماله **قدّاس نوتردام**.

(299) رانس: مدينةٌ في فرنسا تقع شمال شرق باريس وتبعد عنها 130 كم، لعبت دورًا مهمًّا في التاريخ الفرنسي لأنّ الملوك كانوا ينصَّبون فيها.

(300) هنري الرابع (1553 ـ 1610)، ملك فرنسا من العام 1589 إلى العام 1610، وهو نفسه ملك نافار (باسم هنري الثالث).

علاوةً على أنّ الأسطورة تجعل منها مركيزة فيرنوي (Verneuil)، فهي تحكي أنّ هنري الرابع طلب من حرَفيٍّ ماهرٍ أن يصنع لها «حزام عفّة». ويقال إنّ مطبوعةً هجائيةً من منتصف القرن السادس عشر عنوانها «المخدوع الذي يحمل المفتاح وعشيقته التي تحمل القفل» قد بقيت من تلك الحادثة. تُظهِر هذه المطبوعة امرأةً على سريرٍ مع «حزامٍ» حديديٍّ يحيط بخصرها وأعضائها التناسلية لكنّها تشير إلى سخف الأمر أو غبائه أكثر بكثير من إشارتها إلى وجود هذا النوع من «الباب الحديدي» وانتشار ارتداء النساء له. بالنسبة إلى الملك فرانسوا الأول، يحكي كليمان مارو[301] (Clément Marot) (1497 ـ 1544) في إحدى قصائده التهكّمية الشهيرة، عن الوله الذي تشكّل لديه تجاه الزوجة الرائعة لبارون أورسونفيلييه (Orsonvilliers) إلى حين أدرك أنّ «زوجها ختمها عن طريق قفلٍ معقّد»، فاستدعى صائغًا فلورنسيًّا غطّى السيّدة الممدّدة على ظهرها بأحجبةٍ بحيث لم يترك مجالًا لرؤية شيءٍ سوى القفل الذي يُغلق الأداة، وبعد ذلك أمره قائلًا: «افتح هذا القفل». ونُفّذ الأمر بمهارة. بعد نزع الحزام يحكي مارو أنّه علاوةً على أنّ فرانسوا الأوّل «أصيب بالذعر عندما رأى الوحش الذي بدا كأنّه يريد أن يعضّ اللحم الرخص بأسنانه السنّورية»، فقد كان بالإمكان تمييز ثلاث صورٍ دقيقةٍ محفورةٍ في المعدن على هذا الحزام الفضّي الضيّق: رجلٌ يحاول عبثًا تحرير عضوه الأسير في عقدةٍ ضفرها كيوبيد[302] (Cupidon)، وعاشقان يفصل بينهما حاجزٌ مزدوجٌ لا يسمح لهما بأن يرى أحدهما الآخر، وهو حاجزٌ صُوِّر عليه إله الحبّ وقد رُبط بسلاسل، وأخيرًا الموت يجرّه كيوبيد

(301) كليمان مارو، شاعرٌ فرنسيٌّ ذائع الصيت من شعراء البلاط، اتُّهم بالإلحاد وسُجن لقاء ذلك.

(302) كيوبيد: إله الحب في الميثولوجيا الرومانية، يصوَّر حاملًا سهمًا يصيب البشر فيسبّب وقوعهم في الحب.

في التارتاروس. لإنهاء الوصف، تقول كتابةٌ «احذر الحب والخطأ» (Cave amorem et errorem). يقول الشاعر إنّ الأسطورة تحكي كيف طلب العاهل من الصائغ أن يصنع بأسرع وقتٍ ممكنٍ، وله فقط، مفتاحًا من الذهب. نفّذ الحرَفي الطلب وسلّم الملك «مفتاحًا صغيرًا على شكل بريابوس (Priape)»[303] يفتح بسهولةٍ «حزام فينوس».

بعد قرنين من ذلك، في العام 1716، وجّه فولتير[304] (Voltaire) الذي كان يبلغ اثنين وثمانين عامًا آنذاك، للسيّدة ب، وهي سيّدةٌ جميلةٌ بُليت بزوجٍ ستّيني، قصيدة شعرٍ بعنوان **الغلَق** (*Le cadenas*)، حيث يذكر الحزام بطريقةٍ مجازية:

مكتبة
t.me/t_pdf

إنّه زوجك: السجّان الستيني،
لقد أغلق معبد فتنتك الحرّ
وخادعًا رغباتنا،
يمسك بمفتاحٍ مسكن المسرّات.
بطبيعة الحال، تتغلب الأخلاق الفاسقة:
كان إلهًا، لكن بخيلًا وغيورًا
أصبح مخدوعًا، لأنّ تلك هي العدالة.

بعد قليل، يواصل معارضة فكرة «إخضاع الفضيلة للقوّة» ليصل إلى هذه الخلاصة التي تحثّ على الخلاص:

---

(303) بريابوس: إله الخصب في الميثولوجيا الإغريقية، يمثّل بقضيبٍ هائل الحجم في حالة انتصابٍ دائم.

(304) فولتير، واسمه الأصلي فرانسوا ماري أرويه (François-Marie Arouet) (1694 ـ 1778)، كاتبٌ ومؤرّخٌ وفيلسوفٌ من عصر التنوير ذاع صيته بسبب سخريته من الكنيسة الكاثوليكية ودفاعه عن الحرّيات المدنية، ولاسيما حرّية المعتقد.

لَكَمْ أشفق عليكِ! سوف تكونين عاقلة
لكن البشر حملوا بعد قليل
هذا السر الذي اختُرِع في جهنّم
ومنذ ذلك الحين، في فينيسيا وروما،
ما من مدّعٍ للعلم أو بورجوازيٍّ أو نبيل
إلّا وكان لديه غلقٌ
ليحافظ على شرف بيته.
وهناك، مفعمًا بالغيرة ومن دون أن يخشى لائمة لائم،
يُقفل بالمفتاح على فضيلة زوجته.

لا أدري إن كان فولتير قد رأى أصلًا «حزام العفّة» في أحد منافيه، لكن نستطيع أن نتخيّل هذه القصيدة مُنذِرةً، وأنّ الأقفال التي أراد أن يكسرها بعد ذلك، عدا أقفال السيّدة، كانت تعلو الحزام كثيرًا ويجب البحث عنها في الرؤوس، أو أنّها كانت على نحوٍ أقلّ شاعريةً، أقفال أبواب سجن الباستيل[305] الذي عرفه مرّتين، في العام 1717 وفي العام 1726. واليوم، لم يسقط هذا الاستيهام الذكوري إلى أقصى الحدود إذا ما صدّقنا هذا الطيف الواسع من أحزمة العفّة، للنساء وللرجال على حدٍّ سواء، المقترحة على الإنترنت، بفارق أنّها لئن كانت معروضةً في قسم الساديّة والمازوخية، فإنّها معروضةٌ أيضًا وعلى نحوٍ يثير الاستغراب أكثر بكثير في قسم الألعاب، لكنّني لا أستطيع أن أنتزع من رأسي فكرة أنّ الأبواب ليست كلّها صالحةً لأن يرتديها المرء.

---

(305) الباستيل: سجن أنشئ في فرنسا بين العامين 1370 و1383 كحصنٍ للدفاع عن باريس ثمّ كسجنٍ للمعارضين السياسيين، وبات رمزًا للطغيان والحكم المطلق. انطلقت منه شرارة الثورة الفرنسية في 14 تموز/ يوليو 1789 بعد أن اقتحمته حشود الجماهير.

في القرن التاسع، حكى الراهب الأيرلندي سيدوليوس[306] (Sedulius)، في خضمّ وصفه البيت الذي كان يسكنه في مدينة لييج[307] (Liège)، كيف كان مسكنه «غارقًا في ليلٍ أزليّ. لا النور الرائع يدفع بالفرح إلى الداخل ولا الجدران فيه تكتسي بثوبٍ ملوّن. ما من مفتاحٍ وقفلٍ يمنعان دخوله [...]. مسكنٌ ليس جديرًا إلا ببومةٍ وبطائفة الخُلْدَ العمياء». نستشعر في هذا الوصف المروِّع نوعًا من الرعب، كما لو أنّ وكر الرجال لا يمكن أن يوجد إلا «بأبوابٍ مغلقة» تقاوم أنواع الضواري كافّة. ولأكون أكثر ماديّةً، لئن كانت النصوص تزوّدنا بـ«طرقٍ للقول»، فإنّ الصورة تقدّم الشكل، وتقدّم عبره «طريقة الفعل». بالنسبة إلى أشيائنا القديمة، يأتي علم الآثار الذي ينبشها ليؤكّد وجود الأمر، لكنّ الصعوبة بالنسبة إلينا لا تزال تتمثّل في تبصّر استخدامها ومكانها في حيّزٍ منزليٍّ لم نعرفه. بفضل أحد أشهر المخطوطات المزخرفة في العصر الوسيط، **توراة ماسييجوفسكي**[308] (*Bible de Maciejowski*)، التي أنجزت في منطقة الفلاندر[309] (Flandre) في العام 1256 وتمنح أهميةً عظمى

---

(306) سيدوليوس سكوتوس، معلّمٌ أيرلنديٌّ ونحويٌّ وشارحٌ ديني، عاش في القرن التاسع.

(307) لييج: مدينة في بلجيكا.

(308) **توراة ماسييجوفسكي**: كتابٌ يتضمّن قصص التوراة بالصور، أهداه الكاردينال بيرنار ماسييجوفسكي لشاه إيران عبّاس الأول العظيم في العام 1608، فطلب عبّاس نسخةً تضاف إليها كتاباتٌ باللغة الفارسية. ثمّ أُنجزت نسخةٌ باللغة اليهودية الفارسية، ربّما في القرن الثامن عشر، وهي تتكوّن من لوحاتٍ رائعةٍ لأحداث بالكتابات العبرانية، في مشاهد ووفق العادات الفرنسية في القرن الثالث عشر، من منظورٍ مسيحيٍّ، ومحوطةٍ بكتاباتٍ بثلاث أبجديات وخمس لغات: اللاتينية والفارسية والعربية واليهودية الفارسية والعبرية.

(309) منطقة الفلاندر: هي حاليًّا الإقليم الفلامندي، وهو أحد الأقاليم الفدرالية الثلاثة التي تشكل المملكة البلجيكية، ويقع في قسمها الشمالي.

للأشياء المنزلية في عصرها، ولا يقلّ عدد الصور فيها عن 284 صورةً على كامل الصفحة، تكوّنت لدينا فكرةٌ دقيقةٌ جدًّا عمّا كان عليه القفل في القرن الثالث عشر. بعد «الأقفال ذات الأوتاد»، وهي أقفالٌ بسيطةٌ وبدائيةٌ كانت تُستخدَم غالبًا لإغلاق أبواب مستودعات الغلال، حيث تمسك بالترباس أوتـادٌ يسقِطها وزنها في فرضاتٍ ويتوافق معها في كلّ مرّةٍ مفتاحٌ تتواءم أسنانه مع تباعد الأوتاد وعمق فرضات الترباس (يكفي فتح المفتاح بالكامل وسحب الترباس لفتح الباب)، يأتي «القفل ذو الفرضات»، وفيه يحمل الترباس فرضاتٍ منتظمةً يتوافق تباعدها مع نقطتين تقعان في المحيط الذي يرسمه طرف المفتاح. سيكون المفتاح أيضًا مجرّد مخرزٍ يَدفع عندما يُدار بمهارة أسنان الترباس سنًّا سنًّا إلى طرف القفل. لكن مع «القفل ذي النابض»، السلَف المباشر لقفلنا الحالي، أصبحت التقنية أكثر تعقيدًا وبات الاستخدام أكثر دقّةً. يحمل الترباس ساقًا تدخل في غمدٍ وُضعت فيه شفرات النابض. تنتصب هذه الشفرات الداخلة في جسد القفل أو الغلق وتستند إلى مصادم الفتحة. وللتمكّن من فتح جهاز الإغلاق هذا، نُدخل في طرف القفل مفتاحًا يجب أن يتوافق تقطيعه بالضبط مع معبر الشفرات التي تُدفع وتطوى واحدةً واحدة حتى يصبح الترباس حرًّا. سنفهم وجوب إدخال المفتاح بحذرٍ وأنّـه أصبحت توجد قناةٌ محفورةٌ عبر جسم القفل والأوتـاد، توجّهه بدقةٍ إلى المدخل. هنا نعود إلى **توراة ماسييجوفسكي**، حيث يمثّل لأول مرةٍ «ثقبٌ معقّدٌ للقفل» جديرٌ بالاستيهام!

لم يكن الباب في العصر الوسيط مجرّد رمز، بل كان واقعًا أخلاقيًّا. بالنسبة إلى ريشار دو فورنيفال[310] (Richard de Fournival) في كتابه **كتاب الحيوانات الخاص بالحب** (*Bestiaire d'amour*) (القرن

(310) ريشار دو فورنيفال (1201 ـ 1260)، طبيبٌ وخيميائيٌّ وشاعرٌ وكاهنٌ وعلّامة فرنسي.

الثالث عشر)، تترجَم الحكمة الأخلاقية التي تفيد بأنّ «العينين والأذنين هي أبواب المعرفة»، برسم بابٍ ذي مصراعين تزيّنه زخارف حديديةٌ مطابقة لبابٍ واقعيّ، لكن بدل القبضة، يتضمّن أحد المصراعين عينًا ويتضمّن الآخر أذنًا في مكان المصدم. ثقب القفل أقلّ تمثيلًا، وهو الذي يمكن أن يعبّر عن قلّة الأخلاق، بل انعدامِها. إلّا أنّ العين لم تتمكّن من مقاومة وضع تلك النظّارة الأحادية الطبيعية التي يذكّر شكلها بامرأةٍ صغيرةٍ طيبة تضع يديها على وركيها والتي سرعان ما أصبحت منظارًا صغيرًا يطلّ على الحميميّ الذي «تحوز الأم على مفتاحه!»، إذا ما أردنا الانضمام إلى أرتو[311] (Artaud)، وبخاصةٍ إلى لاكان[312] (Lacan). نستطيع أن نرتبط بأيِّ مخططٍ رمزيٍ آخر للأصلي بهذا المقدار من الكمال، من أجل أن نتغلغل في الحميمي عنوةً؟ يتكشّف مسرحٌ كاملٌ وراء هذا الثقب الصغير، وهذا على أيّ حال ما كان يجري جزئيًّا في هذا المجتمع القروسطي الذي لم يكن يتوانى عن استراق النظر، مثلما تشهد على ذلك حكاياتٌ صغيرةٌ عديدة. لئن كانت الحكايات الصغيرة الإيروسية تطرح مسألة الجسد ولغته، فهي تتسلّى أيضًا كثيرًا بخديعة الكائنات، وهي قادرةٌ على إبرازها عبر استراتيجياتٍ غير منطقية. تطفّلٌ ورغباتٌ وأفكارٌ لا يمكن البوح بها، تمرّ جميع الرهانات المرتبطة بالإيروسية الغربية بمكائد فظةٍ بمقدار ما هي عجيبة. تلاحظ صوفي بواترال[313] (Sophie Poitral) أنّ «السراب الإيروسي

(311) أنطونان أرتو (1896 ـ 1948)، شاعرٌ سرياليٌّ وممثّلٌ وناقدٌ وكاتبٌ ومخرجٌ مسرحيٌّ فرنسي، ساهم في تبلور ما يدعى مسرح القسوة.

(312) جاك لاكان (1901 ـ 1981)، طبيبٌ نفسيٌّ ومحلّلٌ نفسيٌّ فرنسي، اشتُهر بقراءاته التفسيرية لفرويد وبالتغيير العميق الذي أحدثه في مفاهيم التحليل النفسي ومناهجه.

(313) صوفي بواترال، باحثةٌ فرنسيةٌ مهتمةٌ بالأدب الغنائي في العصور الوسطى.

يضع موضع التساؤل نظرة متلصّص، ضحية خداعٍ بصري». عبر **الكاهن المتلصّص** (*Le Prestre ki abevete*) أو (*Le Prêtre voyeur*) لغاران (Garin)، وهو مؤلّف أقصوصةٍ لطيفةٍ مستقاةٍ من **نصوص لاعبي الخفة** (*Textes des Jongleurs*) من النصف الأول للقرن الثالث عشر، يمكن أن نشكّل فكرةً مسلّيةً إلى حدٍّ ما عمّا يمكن أن يستثيره التقدم التقني على نحوٍ غير متعمّد. وكي أبقى متسمّرًا على أبوابي، تبدو لي هذه الأقصوصة مثاليةً عن الاستخدام الممكن لثقب قفلٍ، ولاسيما إذا تعلّق الأمر هنا بحكاية محتالٍ وليس بمتلصّصٍ عادي... هذا هو السبب في أنّني، كما كان يقال آنذاك، «أريد أن أحكي لكم في ما يلي...» كيف وجد قسُّ الرعية وامرأةٌ «جميلةٌ ومن عائلةٍ صالحة» متزوّجةٌ من رجلٍ قبيحٍ، وسيلةً للالتقاء بفضل حيلةٍ ترتبط ارتباطًا مباشرًا بتقدّمٍ تقنيٍ في الباب.

«يأتي» القسّ «مسارعًا إلى باب» الزوجين، لكنّه يجده موصدًا ومقفولًا. وبدلًا من أن يطرقه، يتوقّف أمامه مباشرةً وينظر جيّدًا. يرى ثقب القفل ويضع عينه عليه سرًّا. ومن هناك، يرصد لبعض الوقت ما يجري في المنزل. يرى الزوجين يأكلان بهدوءٍ وجهًا لوجه، فتخطر في بال الكاهن وقد امتلكته الرغبة فكرةٌ «جهنّمية». يصرخ من الخارج وعبر الباب: «ما الذي تفعلانه هناك أيها الطيبان؟»، يردّ الزوج بأنّهما يأكلان، لكنّ القسّ يصيح قائلًا: «تأكلان؟ هل حقًّا تأكلان؟»، ويصيح غاضبًا: «أنت تكذب: أنا أرى أنّكما تتضاجعان!»، فيؤكّد الزوج أنّهما يأكلان. يدعو الكاهن الزوجَ للخروج والنظر بدوره عبر الباب إن كان يقول الحقيقة أم يكذب. ينهض الزوج ويفتح الباب ثم يدعو الكاهن إلى الدخول، فيدخل الكاهن ويغلق الباب خلفه ويقفله آبهًا بالقبيح بمقدار ما يأبه المرء بشيءٍ تافه. يتوجّه مباشرةً إلى السيّدة من دون تردّدٍ ويتلمّسها بإفراطٍ، في حين أنّ «تلصّص» القبيح من الباب

و«رأى كلّ شيءٍ واضحًا: قفا زوجته مكشوفًا والقسّ فوقه». يصرخ الزوج المخدوع وهو يدرك بالفعل الخداع البصري المُذهل عبر ثقب القفل الصاعق: «ماذا يعني ذلك، بحقّ الله! هل هذه مزحة؟»، فيجيبه الكاهن وهو يفعل بزوجته «ذلك الشيء الذي تحبه أكثر من أي شيءٍ آخر»: «ما الذي يبدو لك؟ ألا ترى؟ أنا جالسٌ أتناول الطعام، هنا على هذه المائدة». يصيح القبيح بدوره وهو غير مصدّق: «بحقّ قلب الإله، يبدو لي هذا بهتانًا، لم أكن لأصدّق أبدًا أنّك لا تضاجع زوجتي لو لم أسمعك تقول ذلك قبل قليل!»، «بالتأكيد لا يا سيّدي»، أجاب القسّ، «اصمت، بحقّ روحي! لقد تراءى لي الأمر عينه قبل قليل». ويخلص القبيح إلى القول: «أنا أصدّقك حقًّا». هكذا خُدع القبيح بالكاهن وحيلته، من دون ضررٍ ولا ألم، كما لو أنّه سُحر. خلاصة الحكاية: «كان الباب مسحورًا هو أيضًا! ولهذا يُقال: الله يبقي عددًا من الأغبياء على قيد الحياة».

على الرغم من ذلك، كلّ ثقبٍ يشكّل خطرًا على الإنسان، على الرغم من أنّ المجتمع قرّر أنّ ثقب القفل هو فضلًا عن ذلك مضرّ. في كتاب مارسيلا ياكوب[314] (Marcela Iacub) عن تاريخ الخفَر العامّ، تتحدّث كيف دانت محكمةٌ انعقدت على أثر شكوى من أهالي أطفالٍ مفرطين في الفضول، زوجين «لأنّ ثقب قفل الغرفة لم يكن مسدودًا». التجهيز معقّدٌ حقًّا، فثقب القفل ليس مجرّد ثقب، إذ إنّه لا

(314) مارسيلا ياكوب (1964 ـ)، قاضيةٌ وباحثةٌ أرجنتينيةٌ لامعة، عُرفت بخاصةٍ بدفاعها عن أفكارٍ تعارض التيّار السائد في النسوية وبنظريّاتها عن تحرّر المرأة وتأثيره في الرأي العام. من أبرز مؤلفاتها: **كانت الجريمة جنسيةً تقريبًا** (2002)، **التفكير في حقوق الولادة** (2002)؛ **ما الذي فعلتموه بالتحرّر الجنسي؟** (2002)؛ **عبر ثقب المفتاح: تاريخٌ للخَفر العام من القرن التاسع عشر إلى القرن الواحد والعشرين** (2008)؛ **اعترافات آكلة لحوم** (2011).

يسمح بمرور المفتاح فحسب، بل يسمح كذلك لخطٍّ بالمرور عبر خطٍّ آخر، بتقديم الخدمات والباب مغلق، وفي هذه الحالة تحديدًا، يُسمح بتحويل كلّ ما يمرّ بمتناول العين عبر فتحته إلى كشفٍ مفاجئ! القفل والإيروسية مرتبطان ارتباطًا وثيقًا، لكن لإطلاق مخيلة البشر من عنانها على هذا النحو، وجب أن توجد الأقفال، حتى لو كان ذلك من أجل جاذبية ثقوبها فحسب، على الرغم من أنّ الأمر لم يكن كذلك دائمًا. وقبل أن تجعلنا الشبكة العنكبوتية نعبر أبواب العالم كلّها من دون تحفّظٍ أو محظورات، فإنّ ثقب القفل، سواءٌ أكان من القرن الثالث عشر أم حديثًا غاية الحداثة، هو بجوهره الشيء الرمزي لكافّة الأمور الافتراضية التي تفعل فينا فعل «صوت الولادة الطبيعية للفكرة».

4

الأبواب تتقوّى

«الملوك لا يلمسون الأبواب.
هم لا يعرفون هذه السعادة: أن يدفع المرء أمامه
بلطفٍ أو بفظاظة أحد تلك الألواح المألوفة،
أن يلتفت صوبه ليعيده إلى مكانه،
ـ أن يمسك بابًا بين ذراعيه ـ
سعادة أن يقبض براحته
على بطن أحد تلك العوائق المرتفعة في حجرة
من عقدته الخزفية،
هذا الصراع السريع الذي يستوقف المسيرَ للحظة
فتنفتح العين ويتآلف الجسد بأكمله مع شقّته الجديدة.
بيدٍ ودّيةٍ يمسك به،
قبل أن يدفع بحزمٍ ويغلِق
ـ ما تؤمّنه طقطقة النابض القوي لكن المزيَّت على نحوٍ يبعث السرور».

Francis Ponge[315], *Le Parti pris des choses*, 1942

---

(315) فرانسيس بونج (1899 ـ 1988)، باحثٌ وشاعرٌ فرنسي، تأثّر بالسريالية وطوّر الشعر المنثور. التحق أثناء الحرب العالمية الثانية بالمقاومة الفرنسية. حاول في مشروعه **انحياز الأشياء** أن يذكر الأشياء بأدقّ أسلوبٍ ممكنٍ وبما أمكنه من صرامة، ساعيًا بخاصّةٍ إلى التعبير عن صفاتها المميّزة. كما أشار إلى الصفات اللغوية للكلمة التي تشير إلى الشيء، ولاسيما إلى أصل الكلمة، وكذلك إلى اختيار الحروف التي تشكّل الكلمة ونظامها.

دخولاتٌ مهيبة

لوقتٍ طويل، كانت الأدوات الفُضلى للدعاية الملكية في فرنسا وبلدانٍ أوروبيةٍ أخرى تلك التي يستطيع الشعب أن يراها ويسمعها: منادون يقرؤون على تقاطع الطرقات رسائل الملك أو متنبّئون تلهمهم السلطة. منذ العام 1485، عندما وُضعت الطباعة في خدمة الدولة، حلّ المكتوب محلّ الشفويّ، وبدأ زمن ناقلي المعلومات. لكن لم يكن بوسع الكتابة ولا الكلام أن يحرّكا الأفئدة بالمقدار الذي كانت تحرّكه الاحتفالات التي يظهر فيها الملك شخصيًّا في إخراجٍ مصمّمٍ بدقّةٍ ليفرض صورةً معيّنةً عن نفسه وسلطته. تكمن المشكلة في أنّ عددًا ضئيلًا من الناس كان لديهم إمكانية رؤية الملك، عدا في مناسبتي تكريسه ومأتمه اللتين كانتا في نهاية المطاف تقتصران على عددٍ قليلٍ جدًّا من الأشخاص المحظوظين. في أواخر العصر الوسيط، وُجدت وسيلةٌ لتطوير الشعور الملكي وإبقائه، عبر اختراع «الدخولات الملكية». وبما أنّ الملك كان يسافر باستمرار، فقد كان يقام في كلٍّ من «مدنه الجيدة» دخولٌ مهيبٌ يمكن أن يُرى فيه، بل أفضل من ذلك، يمكن التعرّف إليه.

في القرن الثالث عشر، كان الهمّ الأول للملك عندما يتوقّف في إحدى مدنه يقتصر على مجرّد التمكّن من أن يمارس فيها حقّه في المبيت. ولم يكن يتوقّع من البورجوازيين سوى أن يزوّدوه بطاولةٍ وأدوات مطبخ وسريرٍ لائقٍ لا أكثر. في المقابل، كان يمكن إرغامه على أن يقسِم قبل دخوله على الإبقاء على الجماعة بحقوقها وحرّياتها. وتستطيع الجماعة أن تردّ على ذلك بقسَم ولاء. حتى مطلع القرن الرابع عشر، كان الدخول الملكي لا يزال عيدًا بسيطًا إلى حدٍّ ما، فيه مسرّاتٌ ولا يحتاج إلى استعداداتٍ عظيمة. لكن في النصف الثاني من ذلك القرن، اتّخذ هذا الحدث طابعًا آخر، إذ تحوّلت الأعياد البسيطة

والمتقشّفة إلى مواكب يملؤها الضجيج والألوان المتعدّدة: تحوّل الدخول الملكي إلى حدثٍ عظيمٍ وفريد، على سويّة عيدٍ طقسي، بل أكثر ثراءً. في هذه الظروف الاستثنائية، توسّع مدى الهبات المقدّمة للملك وحاشيته، إلى درجة أنّها أصبحت قضيةً كبيرةً بالنسبة إلى المدينة التي تستقبلهم. ومنذ ذلك الحين، بات ضروريًا أن يتمتّع «الدخول» الملكي ببريقٍ لا يُنسى كي يبقى فريدًا في حوليّات المدينة!

من أجل الدخول وللأرشيف، احتُفظ بكتيّب أو **كتاب الدخولات** (*Livre d'entrées*)، وهو أشبه ببرنامجٍ يوميٍّ للدخول الملكي، إطنابيٌّ ودقيقٌ في الآن عينه، يمكن وصفه بأنّه كتاب نوايا «لا ينقص منه شيء، فهو يحكي بأمانةٍ ما كان عليه الدخول الملكي، لكنّه يحكي أيضًا ما يجب أن يكون عليه، ضمن مثلٍ أعلى للتشغيل والمجريات والاستيعاب»، أي أنّه وثيقةٌ دعائيةٌ كانت تفيد الملك والمدينة التي تُصدره على حدٍّ سواء. «يقدّم الدخول الملكي صورةً مؤقنمةً لسلطةٍ مثاليةٍ تحلّ أيّ تناقضٍ محتملٍ في التناغم المؤقّت لفضاءٍ وزمنٍ متّفقٍ عليهما، حيث لا يمكن أن يحدث شيءٌ من دون أن يتقرّر باتفاقٍ مشترك»، هذا ما كتبه باسكال لارديلييه[316] (Pascal Lardellier) في كتابه عن الشعائر والخطابات السياسية في فرنسا أثناء «النظام القديم»[317] (Ancien Régime). كان الأمر الأساسيّ بالنسبة إلى الملك وإلى رعاياه هو الوسم ببريق الدخول (الناجح أو غير الناجح) من أجل أن يعترف الجميع بسيادة الزائر

(316) باسكال لارديلييه (1964 ـ)، أستاذٌ جامعيٌّ في مجال علوم المعلومات والتواصل.

(317) النظام القديم: تسميةٌ للنظام السياسي في تاريخ فرنسا، تشير إلى القرنين السابقين للثورة الفرنسية، مقابل تسمية النظام الجديد التي تشير إلى النظام الذي أقامته الثورة. أي أنّ تسمية النظام القديم تحيل إلى النظام السياسي المرتبط بالملَكية المطلقة والذي تمثّل أوجه في عهد لويس الرابع عشر بين العامين 1661 و1715.

العرَضي وكي لا ينسى الملك أنّه أصبح مدينًا لهذه «المدينة الجيدة» التي خصّته بمثل هذا الاستقبال الحسن.

أمّا مجريات هذه التظاهرة الخارجة عن المألوف، فكثيرًا ما ذُكر أنّ أولئك المشاركين في الموكب، وأحيانًا المتفرّجين أنفسهم، كانوا يرتدون كسوةً صُنعت للمناسبة. من جانبٍ آخر، لن تتوقّف المزايدة على لباس الأبّهة هذا عن النمو حتى القرن السابع عشر. كانت العادة تقضي بأن يتوقّف الملك في سان دونـي[318] قبل أن يدخل باريس، ليغتسل ويبدّل ملابسه ويرتدي، هو وفرسانه، أبهى الحلل. ومثلما ذكـرتُ سابقًا بصدد أبواب النصر في رومـا، كان هذا التبديل، هذا الاستعداد في اللباس قبل دخول المدينة، موجودًا أصلًا لدى الاقتراب من «المدينة»، مثلما يُظهر ذلك وجود «محطة تبديل». أمّا في ما يتعلّق بباريس في القرن الرابع عشر، وإذا ما أخذنا مثالًا على ذلك باب سان مارتان، فقد كان الأهالي يخرجون من هذا الباب لاستقبال الملك، الذي يكون قد توقّف في سان دوني ليبدّل ملابسه، وهناك كانوا يلاقونه وينتظرونه، ومن أجل العودة كان الملك هو الذي يتصدّر موكبًا صاخبًا ومزيّنًا ويدخل باريس عبر باب سان دوني الذي كان يقع آنذاك في جوار الشارع الغربي وتُطلق عليه تسمية باب الرسّامين.

نعلم من بعض النصوص أنّ الدخول الملَكي كان في العام 1380 مناسبةً للمسرح والأسـرار واللياقات وضـروب الشراهة في الطعام والشراب للعموم. يقدّم دخـول إيزابو دوبافيير[319] (Isabeau de Bavière) إلى باريس في العام 1389 فكرةً عن التجهيزات الأولى التي

(318) سان دوني: مدينة شمال باريس، اشتُهرت بكاتدرائيتها التي دُفن فيها القديس دوني نفسُه ومعظم ملوك فرنسا.

(319) إيزابو دوبافيير (1371 ـ 1435)، ألمانيةٌ من مقاطعة بافاريا أصبحت ملكةً لفرنسا بزواجها من الملك شارل السادس.

أمكن بناؤها على الأبواب الحقيقية والاصطناعية التي كانت تُقام في كلّ مكانٍ تقريبًا على المسار الرسمي، وكذلك عن الجوّ الذي تتمّ فيه تلك الدخولات الاستثنائية: «عند أوّل بابٍ في شارع سان دوني، نُصبت منصّةٌ تمثّل سماءً مليئةً بالنجوم، وداخل هذه السّماء أطفالٌ صغارٌ مجهّزون ومرتّبون على شكل ملائكة، يغنّون بعذوبةٍ فائقة. مع ذلك كلّه، كانت هنالك صورة للسيّدة العذراء تمسك بوجه طفلها الصغير الذي يسرح ويمرح على طاحونةٍ مصنوعةٍ من جوزةٍ كبيرة». ولختام هذه اللوحة، رُسم على سماءٍ شعارا فرنسا وبافاريا وهما يحيطان بشمسٍ ذهبيةٍ ساطعة. أثناء تقدّم الموكب في باريس، أُقيمت «أمام دير الثالوث المقدّس» منصةٌ تمثّل «خطوة صلاح الدين»[320] (Le Pas Salhadin)، أي تمثيلًا للمعركة بين المسيحيين ومسلمي المشرق. وعند باب سان دوني الثاني، شُيّد قصرٌ تعلوه سماءٌ مرصّعةٌ بالنجوم يجلس فيها الأب على العرش محوطًا بالابن والروح القدس، وكورسٌ من الأطفال الصغار حيث «عندما مرّت الملكة في محفّتها، تحت الباب، انفتحت الجنّة وخرج منها ملَكان كان بين أيديهما تاجٌ ذهبيٌّ مترفٌ جدًّا ومرصّعٌ بالحجارة الثمينة، ووضعاه وثبّتاه بهدوءٍ شديدٍ على رأس الملكة وهما ينشدان أبياتًا مثل: أيّتها السيّدة المحوطة بأزهار الزنبق/ أيّتها الملكة، هل أنت من باريس،/ من فرنسا ومن البلاد كلّها،/ نحن نصيح بذلك في الجنة». أمام مُصَلّى سان جاك، نُصبت أيضًا منصّةٌ غطّت أرضها سجاداتٌ ورُتبت مثل غرفةٍ ويعزف داخلها رجلٌ على الأرغن. أمّا شارع سان دوني، فكان «مغطًّى تمامًا بغطاءٍ ثمينٍ وحريري، وحتى شاتليه وجسر باريس الكبير، كانت البيوت كلّها مغطّاةً بالسجادات التي تحمل رسوم أشخاص. كان الجسر الكبير مغطّى بسماءٍ مرصّعةٍ

---

(320) عنوان قصيدةٍ غنائيةٍ فرنسيةٍ من القرن الثالث عشر تتحدّث عن الحملة الصليبية الثالثة.

بالنجوم وبأقمشةٍ خضراء وحمراء». عند باب شاتليه، بُني قصرٌ جديدٌ للمناسبة «وُضع فيه سريرٌ مزيّنٌ ومفروشٌ بترفٍ كما من أجل حجرة الملك، وفي هذا السرير تمدّدت السيّدة القديسة حَنّة[321] (Madame Sainte Anne)، وأمام هذا القصر كانت تشاهَد أغصانٌ ملتفّةٌ وأرضٌ مليئةٌ بالأرانب البرية والأرانب المدجّنة والطيور الصغيرة، وخلف سرير العدالة[322] ظهر أيلٌ ونسرٌ وأسد، ومن الغابة كانت تخرج اثنتا عشرة فتاةً عذراء متأهّباتٍ وفي يد كلٍّ منهنّ سيفٌ بين الأيل والنسر والأسد». رأى الموكبُ المؤدّي إلى كنيسة نوتردام «على حبلٍ ممدودٍ من الأبراج إلى أعلى بيتٍ من بيوت جسر سان ميشيل، راقصَ حبلٍ قام بألف حركةٍ جريئةٍ بمقدار ما هي مدهشة، مغنيًا وحاملًا بين يديه سِراجين مشتعلين». وبعد إنشاد **نمجّدك** (*Te Deum*)، ذهبت الملكة إلى القصر، حيث وجدت الملك والملكة جان ودوقة أورليان، ابنتها. لم يكن الاحتفال بالدخول قد انتهى، ففي اليوم التالي أقام الملك حفلًا، ونُزّهت الملكة في محفّةٍ عبر شوارع باريس «يتبعها ألف حصان». وبعد ذلك، ذهبت إلى دارة سان بول (Saint-Pol) حيث التقت الملك نفسه الذي أتى بالمركب عبر نهر السين. وفي اليوم الذي بعده، قبل العشاء، تسلّمت الملكة الهدايا التي قدّمها الباريسيون ثمّ بدأت في ميدان سانت كاترين مبارزات فروسيةٍ تواصلت ثلاثة أيام.

في القرن الخامس عشر، شهدت الدخولات الملكية ازدهارها الكامل وسمعتها. ثمة سردٌ شعريٌّ مغفل الاسم عن «دخول الملك شارل الثامن[323] Charles VIII إلى مدينة وحاضرة باريس» بتاريخ 8 تموز/

---

(321) السيّدة القديسة حَنّة، والدة السيّدة العذراء.

(322) سرير العدالة: مقعدٌ كان الملك يجلس عليه عندما يحضر جلسةً في مجلس النواب، ويفرض في تلك الجلسة رأيه على المجلس.

(323) شارل الثامن (1470 ـ 1498)، ملك فرنسا بين العامين 1483 و1498.

يوليو 1484 لدى عودته من تكريسه في رانس، يُظهِر مجدّدًا التنظيم الرائع لهذا الاستقبال، حيث فرضت العادة أنّه يجب «من غابر الزمان» أن يذهب لملاقاة الملك وبالترتيب «بدايةً زعيمُ التجّار وكبير القضاة، ثم زعيم باريس، ثمّ أهالي شاتليه، ثم أصحاب الحسابات والمالية، وأخيرًا البلاط». وبطبيعة الحال، لم يكن الترتيب يُحتَرم بصرامة. لدى العودة، وبعد إعلان الملك للبورجوازيين مرةً أخرى «دلالةً على الطاعة واعترافًا بأنه ملكهم ذو السيادة وسيّدهم الطبيعي. [...] السماء موضوعةٌ فوق الملك. أربعة قناصل، أو أربعة قضاةٍ أو أربعة وجهاء بورجوازيين أمسكوا بحرابه الأربع. ودخل الموكب بأكمله المدينة، يسبقه أحيانًا رقباء بأيديهم عصيّ [...]. كانت الكمنجات تعزف والأبواق تصدح والأجراس تُقرع، في حين اصطفّ الجنود حاملو الأقواس وحاملو الأقواس الفولاذية ومطلقو المدافع بترتيبٍ جميلٍ يرفعون قبّعاتهم لدى مرور الملك وينحنون ويصيحون: 'عيد الميلاد، عاش الملك'، ويصيح الأطفال هم أيضًا وهم يلبسون أرديةً بيضاء أو بنفسجية».

كثيرًا ما يُذكر دخول لويس الحادي عشر[324] (Louis XI) إلى باريس في العام 1461 بوصفه عيدًا فرنسيًّا كبيرًا. لقد دخل إذًا إلى باريس عبر باب سان دوني، وفق التقليد، وهو يمتطي حصانًا وتحت سرادق. «وجد سفينةً شراعيةً فضّيةً رائعة تُمسك بها من الأعلى حجارة الباب المذكور فوق الجسر المتحرّك، دلالةً على شعار المدينة المذكورة التي في داخلها كان الثلاثة يقفون، وعلى سطح السفينة ـ التي كانت على شكل سرير ـ يجلس ملِكٌ برداءٍ ملكي يقوده ملَكان [...]. كما كانت توجد ثلاث راعياتٍ فتيّاتٍ جميلات، على سيمائهن السكينة ويتفوّهن بكلماتٍ موجزة، وقربهنّ كانت عدة آلاتٍ موسيقيةٍ منخفضة

(324) لويس الحادي عشر (1423 ـ 1483)، ملك فرنسا بين العامين 1461 و1483.

تُصدر ألحانًا رنّانة (...). ومقابل باب شاتليه، وقفت شخصيّاتٌ بالغة الوسامة».

لا بدّ أنّ الناس قد فهموا أنّ حضور باريس المهيمن بين المدن ساحق، حيث إنّ هذه المدينة هي أيضًا أوّل مكان إقامةٍ ملكي، وهي بالتالي في المقدّمة، أي بعباراتٍ أخرى، باريس هي المدينة الرئيسة[325] مثلما وُصفت بدءًا من العام 1416. عندما يكون الملك قويًّا، يسافر من أجل السفر ويتغلّب تحديد معالم الحيّز على التحكّم بالأماكن: نلاحظ أنّ الدولة المتجوّلة تترافق مع حكومةٍ تراسليةٍ تُستقى فيها القوّة السيادية من التحكّم بالرسائل. أمّا عندما يكون الملك ضعيفًا، فيكون الحكم بالأحرى من النمط المستقرّ. بيد أنّ أسس استراتيجية السفر الملكي تتمثّل في التعامل مع فنّ البُعد والحضور، وهذا يقتضي استراتيجية جذبٍ إلى المركز: يجب على الدولة المتجوّلة أن تفرض سلطتها على مجمل الأراضي، ولتحقيق ذلك سوف يقدّم صعود قوّة «الدخولات الملكية» مساعدةً كبيرة.

تسمح رحلة شارل التاسع في فرنسا (1564 ـ 1566) والتي نالت اهتمامًا خاصًّا بدراستها، بفهم لماذا وكيف أُخرجت هذه الدخولات بعنايةٍ فائقةٍ طيلة قرون، فقد ذُكر على سبيل المثال أثناء رحلته من 20 نيسان/ أبريل إلى 13 حزيران/ يونيو 1564 دخولٌ للمدينة كلَّ ستة أيام. وبطبيعة الحال، لم يكن لكلّ الدخولات الملكية الأهمية عينها، إذ كان «الدخول الأوّل» لملكٍ يستدعي وحده احتفالًا كبيرًا ومهيبًا، حتى إذا كان السبب الوحيد هو الكلفة الكبيرة المترتّبة على أبناء المدينة المعنيين. وبما أنّ الأمر يتعلّق بالباب، فإنّ اجتياز ملكٍ باب مدينةٍ كان يُظهِر على نحوٍ لا يمكن إنكاره، امتلاكه أرضَ المدينة، إذ باجتيازه السور كان

(325) في اللغة الفرنسية، تتطابق كلمتا رئيسة وعاصمة (capitale).

يدخل المدينة ليخصِبها. كما أنّ الفعل مشدّدٌ عليه في أغلب الأحيان بترتيبٍ رمزيٍ تسهل قراءته ويسهل فهمه، كما في مدينة نيم، حيث انغلق ركامٌ لدى اقتراب شارل التاسع، في الوقت الذي كانت فتاتان تقدّمان له مفاتيح المدينة: «آنذاك، فُتح الركام وعبر الملك منه عَجِلًا». وفي ليون، دخل الملك تحت خيمة نصر. وهي خيمةٌ صُوّر فيها على عربة، صولجانه في اليد اليمنى وتاجٌ من وَرَق الغار في اليد اليسرى، تحيط به علامات النصر. أمّا العربة، فكانت تجرّها أربعة أحصنة بيضاء تحمل «السلم» و«النصر» و«العدالة» و«رجاحة العقل». بطبيعة الحال، يفترض كلّ دخولٍ ملكي تكتلًا مزوّدًا ببنًى حضرية، كما أنّ الدخولات ليست مجرّد مسرّات، بل يجب النظر إليها بوصفها التعبير الأكثر وضوحًا عن إعادة إنتاج الهيمنة الملَكية. بالنسبة إلى أهالي المدينة، يعني السماح لشخصٍ بالدخول، وهو الملك في هذه الحالة، التعبيرَ عن قبول سلطةٍ خارجيةٍ عن الحاضرة، وهذا يتعلّق بالواقع الحضري برمّته تقريبًا. المفعول التكراري غير مستبعد، ويتعلّق الأمر بكلّ دخول، إلّا في حال الاستثناء الناتج عن مانعٍ مادي (انهيار، أشغال، وما إلى ذلك)، بمسارٍ إلزامي يكرِّر بصرامةِ الدخولات السابقة. في ليون على سبيل المثال، يبدو أنّ هذا المسار لم يتغيّر منذ أواخر القرن الرابع عشر: يتمّ الدخول عبر الباب الذي «اعتاد البابوات والأباطرة والملوك والسادة العظماء أن يُستقبَلوا فيه ويدخلوا منه».

سوف تستمرّ «الدخولات المهيبة» طالما وُجد ملوكٌ وأباطرة. في القرن السابع عشر، ومع لويس الرابع عشر، سوف نرى عودة أقواس النصر، التي لم تكن أبوابًا ولم تكن تتعلّق بـ«دخولات»، بل بـ«انتصاراتٍ» مثل تلك التي عرفها قيصر ونابليون، وحتى الألمان، الذين «دخلوا» هم أيضًا إلى باريس منذ اثنين وسبعين عامًا [أي عام 1940] عبر «قوس النصر»، إعلانًا عن استيلائهم على المدينة.

أصول اللياقة عند الأبواب

ما الذي يجعل بابًا مفتوحًا يوقفنا؟ أصول اللياقة! في منتصف القرن الخامس عشر، تغيّر وضع الباب واتّخذ أهميةً معتبرةً في تنظيم حياتنا اليومية، إلى درجة أنّه أصبح العنصر المركزي، بل المهيب من حيث أصول اللياقة التي تفرض نفسها شيئًا فشيئًا في بناء علاقتنا بالآخر. السؤال هو حقًّا: ما الذي يجعل بابًا مفتوحًا قادرًا على إيقاف رجل؟

أتحدّث عن هذا الباب (porte) الذي سيغادر سور القصر أو المدن، حيث كان يحمل بمفرده هذه الصفة منذ مطلع القرن الحادي عشر (1080) ليأخذ مكان «باب المنزل» (huis)، هذه الفتحة التي كانت حتى ذلك الحين تشير إلى فتحة المنازل. يشير فوروتيير[326] في قاموسه، إلى أنّه بدءًا من العام 1555، بدأ استخدام مصطلح (porte) للإشارة إلى مدخل البيوت الخاصة. وهو يتحدّث عن «مسكنٍ له بابٌ أمامي وآخر خلفي» ويؤكّد أنّ كلمة (porte)، مثلها مثل كلمة (huis)، تشير أيضًا إلى السياج الخشبي الذي يفيد في إغلاق تلك الفتحة العظمى، إطار الباب (huisserie) (1260)، الذي بقي مخصصًا للهيكل (bâti) الذي يشكّل إطار الباب، وأُطلقت عليه منذ العام 1518 تسميةٌ أخرى هي (chambranle). ما أريد الحديث عنه هنا هو الباب بوصفه شيئًا وسيطًا، هذا الباب المرغوب والفريد والشديد الخصوصية الذي يسمح على سبيل المثال بالدخول إلى غرفة الملك. من أجل أن يمكن تصوّر ذلك، وجب أولًا أن تتغيّر العمارة والعقليات وأن تتمتّع الغرفة

(326) أنطوان فوروتيير (1619 ـ 1688)، رجل دينٍ وشاعرٌ وكاتبٌ قصصي وروائيٌّ ولسانيٌّ فرنسي. من أهمّ أعماله **القاموس**، الذي وضعه في عهد لويس الرابع عشر، وكان قد بدأ كتابته في خمسينيات القرن السابع عشر. طُرد من الأكاديمية الفرنسية في العام 1685، لكنّ الملك تدخّل لمنع انتخاب بديلٍ منه طالما بقي على قيد الحياة. شهد قاموسه نجاحًا كبيرًا وطُبع مرّاتٍ عدّة.

بما يجعلها مشتهاة. في الأصل، بدأ في روما في القرن السادس عشر تحوّل الحيّز الخاص على أساس مفهوم الشقّة (appartemento) الذي يتضمّن مجموعةً من الغرف المتسلسلة التي يسمح استخدامها بإجراء انتقالاتٍ دقيقة ومتحكَّمٍ بها بين ما كان يعدّ غرفًا «عامّة» والغرف الخاصة حصرًا، حيث لا يُدعى إلى الدخول إلّا بعض المختارين. إذًا، سوف تصمّم الدارات الخاصّة والقصور الباريسية في القرن السابع عشر على غرار هذا المفهوم الجديد للشقّة. وهذا النموذج الذي كان في البداية مكرّسًا لمسرحة جلسات الاستماع التي تمنحها طبقة النبلاء والكرادلة الرومانيين، هو الذي كان أصل إقامة ما سوف تُطلق عليه لاحقًا تسمية أصول اللياقة، وهو مصطلحٌ كان يُشرَك حتى ذلك الحين باسم لائحة القواعد التي وُضعت لفيليب لوبون[327] (Philippe Le Bon) (1396 ـ 1467). سوف يتغيّر معنى أصول اللياقة بدءًا من العام 1607، لتعبّر عن قواعد وحقوق الامتيازات التي كانت تفرض ذاتها أكثر فأكثر في البلاط، ولاسيما في اجتياز الأبواب الداخلية التي كان عددها ورمزيتها يتزايدان، إلى درجة أنّ استخدامها الفائق التواتر دفع إلى الخلط في نهاية المطاف بينها وبين الدخولات. كان الهاجس الرئيس لمجتمع البلاط يتمثّل في الرغبة بالوصول إلى الملك، وركّز بالتالي على الالتزام الدقيق بأصول اللياقة ولم يعد هذا المجتمع يعيش في فرساي[328] (Versailles) إلّا على أمل المشاركة في أحد الدخولات «الصغيرة» أو «الكبيرة» إلى غرفة الملك.

---

(327) فيليب الثالث الملقب بفيليب لوبون (الطيب) (1396 ـ 1467)، أحد ملوك فرنسا وتمتّع بعدة ألقاب. اشتُهر بتسامحه، وربّما أتى تلقيبه بالطيب من هذه الصفة.

(328) قصر فرساي هو أهم القصور الملكية في فرنسا، يقع في مدينة فرساي على بعد 25 كيلومترًا غرب مدينة باريس، وقد افتُتح في العام 1682.

قبل الوصول إلى هذه النقطة، وجب اختراع اللياقة (bienséance) التي كانت تُفهم بوصفها تعبيرًا عن سلوكٍ اجتماعيٍ يتوافق مع العادات واحترامًا لآدابٍ معينة. ظهر المصطلح باللغة الفرنسية في العام 1534. وإذا ما علمنا أنّ «الواجب واللياقات لا تتوافق على الدوام بالضرورة»، فقد تعزّزت كلمة اللياقة في العام 1580 بكلمة الأسبقية (préséance) التي تعترف بامتياز المرتبة عبر الحق في التقدّم على شخصٍ ما ضمن تراتبيةٍ بروتوكولية. في مجتمع القرن السابع عشر الذي بات يكتسب نظامًا وتصلّبًا أكثر فأكثر حول الحكم الملَكي المطلق، فرضت أصول اللياقة نفسها فرضًا طبيعيًّا. يلاحظ نوربرت إلياس[329] (Norbert Elias) أنّ «مجتمع البلاط وضع تصوّره لنفسه عبر أصول اللياقة، حيث يميّز كلّ شخصٍ نفسه عن الآخر، ويتميّزون جميعًا عن الأشخاص الأجانب كمجموعة، ويستأثر كلّ فردٍ والجميع معًا بالبرهان المطلق على وجودهم».

في أصل هذه الثورة السلوكية[330] (éthologique)، كثيرًا ما يُذكر تأثير **غالاتيو**[331] (*Galaté*)، ففي هذا العمل الذي ظهر في العام 1561

---

(329) نوربرت إلياس (1897 ـ 1990)، كاتبٌ وعالم اجتماع ألماني. من أهم كتبه **عن عملية الحضارة** (*Sur le processus de civilisation*) وكتاب **حضارة العادات** (*La civilisation des mœurs*) وكتاب **دينامية الغرب** (*La dynamique de l'Occident*).

(330) سلوكي: نسبةً إلى علم السلوك (éthologie).

(331) **غالاتيو**: قواعد السلوك المهذّب، كتاب من تأليف جيوفاني ديلا كاسا، نُشر في فينيسيا في العام 1558، وهو دليلٌ لما يجب على المرء تجنّبه في الحياة الاجتماعية الاعتيادية، ويستكشف مواضيع مثل اللباس وآداب المائدة والمحادثة. نال الكتاب شهرةً واسعةً إلى درجة أنّ عنوانه الذي يحيل إلى اسم أحد أبرز أصدقاء المؤلّف دخل في اللغة الإيطالية ليعني، بشكل عامّ، اللياقة الاجتماعية.

تحت عنوان (*Galateo*)، أراد جيوفاني ديلّا كاسا[332] (Giovanni Della Casa)، وعلى أثره القشتالي غراثيان دانتيسكو[333] (Gracian Dantisco)، خلق «فنٍّ» جديدٍ حقيقي: فن آداب السلوك. وبالفعل، يقترح **غالاتيو** تقنيةً يجب أن تسمح بالخروج من مجال الأخلاق وعلم النفس السجالي الـذي لا يمكن سبر غوره، إلى بناء نموذجٍ للألفة الاجتماعية بالحدّ الأدنى وشاملٍ ويمكن تطبيقه في كلّ مكانٍ وزمـان. ولتحقيق ذلك، عدّد الكاتبان مختلف المعايير التي تحكم الرجل اللبق الذي تطلق عليه صفة (costumato) بالإيطالية و(bien acostumbrado) بالإسبانية، أي بتعبيرٍ آخر المجاملات التي تسمح للمرء بأن يبقى لائقًا في جميع الظروف. في مقاربة **غالاتيو** هذه، أراد المؤلف إهمال التباينات الكيفية كافّة بين الأفـراد والرهانات كافّة المرتبطة بالأهواء والاقتصاد والسياسة في الفعل البشري. يتعلّق الأمر بالمضيّ إلى ما يتجاوز منابع ضروب الخلاف والتضارب كافّة، بحيث لا يبقى سوى «السلوكيات الحسنة» التي وحدها تسمح بالتصرّف «ليس بما تمليه إرادة المرء الخاصة، بل بما يمليه سرور الآخرين». الهدف هو النجاح في تنظيم أساليب التصرف في كلّ مكانٍ وفي الظروف كافّة. إذا كان التهذيب (politesse) (1659، من كلمة politezza الإيطالية، 1578) يسمح بإعادة الحدث من المجهول إلى المعلوم ويهدف إلى ضمان علاقةٍ تدخل في إطار اليقين الذي يسمح برؤية مجيء شبيهنا بهدوءٍ أكبر، فإنّ آداب السلوك تقتضي أن تكون المجموعة البشرية التي تراقبه مستقرّة، وهو أمرٌ غير ممكنٍ إلا بشرط أن تتوازن قوى الجذب

---

(332) جيوفاني ديلّا كاسا (1503 ـ 1556)، شاعرٌ فلورنسي كتب عن آداب السلوك والمجتمع.

(333) غراثيان دانتيسكو (1543 ـ 1587)، باحثٌ وكاتبٌ إسباني، أشهر أعماله التي أعيد طبعها مرارًا **المتأنّق الإسباني**.

بقوى نبذ. ينتج الانتقال من آداب السلوك إلى أصول اللياقة من الرغبة في تثبيت ترتيبٍ لتشريفٍ دائمٍ بهدف منع الأمور غير المتوقّعة والعفوية، إنّ عدم اليقين بالغ الخطر في سياق سلطة المؤسسات والتزامها باتّخاذ الاحتياطات لتكون طويلة الأمـد. وهنا تتعارض أصـول اللياقة مع الاحتفالات أو تضاف إليها، من حيث إنّ الاحتفالات ترتبط بالواجب في حين أنّ أصول اللياقة تستخدم غرور البشر وتتلاعب به. عبر تكريس وإقامة تباين المراتب وهرمية المواقع الاجتماعية والترابط في ما بينها، تنظِّم أصول اللياقة الحيّز والزمن بطريقةٍ توزيعيةٍ وتصنّفهما هرميًّا، معرّفةً بذلك قواعد اللعبة الاجتماعية. يضيف نوربرت إلياس في كتابه **مجتمع البلاط** (*La Société de cour*) أنّ وظيفة هذا «المنطق المتعلّق بالهيبة ونقيضه منطق الفصل والتمييز» تمثّلت في ضمان «المسافة بوصفها غايةً بذاتها» والحفاظ على المنظومة الهرمية.

بدءًا من القرن السابع عشر، ومثلما يُظهر ذلك **القاموس العقليّ للتهذيب ولآداب السلوك** (*Dictionnaire raisonné de la politesse et du savoir-vivre*)، وهو عملٌ متميّزٌ وضعه أخيرًا آلان مونتاندون[334] (Alain Montandon)، ثمة عددٌ كبيرٌ من النصوص حول آداب السلوك في البلدان الجرمانية، من دون تمييزٍ شديد الوضوح بين مختلف المذاهب، لكنّها تتضمّن على الدوام تشديدًا بالغ الحساسية على المراسمي، إلى حدّ أنّه أصبح علمًا حقيقيًّا. وقد كان لويس الرابع عشر نفسه يعلم جيدًا ما يقوله عندما كتب في **مذكّراته** (*Mémoires*): «بما أنّ الشعوب التي نحكمها لا تتمكّن من اختراق عمق الأشياء، فهي تضبط عادةً أحكامها على ما تراه من الخارج، وفي غالب الأحيان تقيس احترامها وطاعتها على الأسبقية والمراتب الاجتماعية».

(334) آلان مونتاندون (1945 ـ)، أستاذٌ جامعيٌّ فرنسي، ألّف عددًا كبيرًا من الكتب.

قبل الانتقال إلى «دخولات» الملك عبر الباب، أودّ أن أظهِر قليلًا «الأضرار» التي أدّى إليها هذا الهوس بالقواعد، والذي بدأ في عهد لويس الثالث عشر[335] (Louis XIII) ودام حتى سقوط النظام القديم. يؤدّي التهذيب في الحياة اليومية إلى ارتباكاتٍ أيضًا، ويكشف ذلك الأمر هذا المشهد المستقى من فصل «عن المراسم» المنشور في كتاب **روح البلاط** (*Esprit de Cour*) الذي صدر في العام 1662: ثمة نقيبٌ وقسٌّ ومحامٍ ومموّلٌ يمتنعون عن الخروج أوّلًا من غرفة، إذ لا تمنح ضرورة الاحترام والتهذيب أيَّ حقٍّ لواحدٍ منهم على الآخر... يبدو ذلك وكأنه صورةٌ هزلية، لكن يجب ألّا نهمل تأثير «أصول اللياقة» المهيبة لدى البلاط في أجيالٍ أصيبت بأكملها بالعدوى، ما جعل الكياسة تتمثّل في المبالغة بالتبجيل والتصاغر، وأربكت نفسها في خضمّ رغبتها بعدم البقاء خارج إطار اللياقة، إلى درجة أنّها أصبحت خرقاء، لا تعرف كيف ولا متى تجلس حتى في أكثر الأوضاع اعتياديةً. في كتاب **دراسة جديدة عن الكياسة** (*Nouveau Traité de la civilité*) الذي نُشر في العام 1671، نجد حكاية زيارةٍ تعادل الحكاية السابقة: «إذا أمرَتْنا بالجلوس فيجب أن نطيع مع شيءٍ من إظهار الأذى الذي يتعرّض له احترامنا، والالتزام بأن نضع أنفسنا في أقصى طرف، وهو على الدوام قرب الباب الذي دخلنا منه، مثلما أنّ أقرب طرفٍ هو دائمًا حيث يضع الشخص المؤهّل نفسه». سوف نفهم العصبية التي أبداها رئيس دير بيليغا (Bellega)، الذي نَشر في العام 1696 كتابه **تأمّلاتٌ في السخف وفي وسائل تجنّبه** (*Réflexions sur le ridicule et sur les moyens de l'éviter*)، فهو يشجب فيه «البورجوازيين والريفيين والمتعالِمين الذين يكثرون من الانحناءات، إذ إنّهم يزعجون الناس

(335) لويس الثالث عشر (1601 ـ 1643)، ملك فرنسا ونافار بين العامين 1610 و1643.

بمدائحهم الأزلية وبضروب الكياسة المربكة، هم يخلقون ارتباكًا عند الأبـواب كلّها، ويجب التشاجر ساعةً حول آخر من يمرّ: لقد انفكّ الفرنسيون شيئًا فشيئًا عن كلّ ما يبدو قاعدةً إلزامية».

على الرغم من أنّ الباب غائبٌ تمامًا عن توصيفات البلاط، فقد اتّخذ في عهد لويس الرابع عشر مـدًى بلغ من اتّساعه أنّـه كان من المنطقي نسبيًّا، نظرًا إلى أهميته اليومية في عهده، أن يزدهر عددٌ من التعبيرات التي لا تزال مستخدمةً حتى يومنا هذا، مثل «العودة من بابٍ آخر» في العام 1675، «وضْع شخصٍ ما على الباب» في العام 1690، «الدخول إلى العالم من الباب الجميل» في العام 1692، «أن يكون المرء على الباب» في العام 1694، أو «باب إلى باب» بمعنى أن يسكن المرء مقابل آخر، وليس المضي من منزلٍ إلى منزل مثلما كانت تعني العبارة التي ظهرت منذ العام 1480. كما لن يكون قليلًا عدد تعبيرات الأمثال، مثل القول عن شخصٍ متطفّل: «إذا طردناه من الباب فسيدخل من الشباك»، أو عن مخادعٍ بأنّ «لديه دائمًا بابًا خلفيًّا»، وأخيرًا في عهد لويس الرابع عشر، حدث أن «ليس للأعداء أي بابٍ لدخول فرنسا».

لئن كان لويس الرابع عشر يعلم ما هو الباب وكيف يغلقه ليجعل منه غربالًا وأداة تحكّمٍ اجتماعي، فقد كان يعرف أيضًا كيف يفتحهم والحقَّ المطلق الذي يتمتّع به باقتحام أيّ بابٍ يمكن أن يتجرّأ على مقاومته، فمنذ أن كان الملك الشابّ يمضي متنكرًا، أي وهو يضع قناعًا ضمن صحبةٍ مرِحة ليقوم بزياراتٍ مرتجلة، كاد ينتقل إلى الفعل. فأثناء فترة الكرنفال، كان يحدث أن يقتحم أشخاصٌ مقنّعون أبواب البيوت ويجلسوا إلى الموائد من دون أن يكونوا مدعوّين إليها. على كلّ حال، كان الأمر شائعًا بما يكفي كي لا يتمكّن المرء من دخول حفلٍ راقصٍ في بيوت «عِلْيَة القوم» من دون أن يبرز دعوة. هكذا، وصل الشاب لويس ذات مساءٍ حوالى الساعة الواحدة ليلًا وبصحبته ثلاث عرباتٍ

مليئة بسيّدات البلاط وسادته، كانوا جميعًا يرتدون حللًا رمادية كي لا يعرفهم أحد، للانضمام إلى حفلٍ راقصٍ أقيم على شرف ابنة أحد الرؤساء. وعندما لم يتمكّن لويس من إبراز بطاقةٍ إلى «السويسريين»[336] الواقفين أمام الباب، لم يُسمح له بالدخول، فأمر الملك وقد استولى عليه الغضب والرغبة بالثأر، بإحراق الباب. كان الأمر على وشك أن يُنفّذ عندما أمر الرئيس بفتح الأبواب في آخر لحظة، إذ توقّع أنّه يجب أن يكون المرء سيّدًا عظيمًا كي يتجرّأ على مثل هذا الأمر. حشر الموكب أجمعُه نفسَه في الفناء وشوهدت عُصبةٌ من اثني عشر قناعًا مزينًا تزيينًا رائعًا يحمل كلٌّ منهم مشعلًا بيدٍ وسيفًا باليد الأخرى، وتواصَل الحفل.

سوف نعود في مكانٍ آخر إلى دَور الباب وحسن الضيافة، لكن في ما يتعلّق بوضع رموزٍ للياقةِ سوف تتحوّل شيئًا فشيئًا إلى أصول اللياقة، نستطيع أن نتخيّل أنّ الأمور حدثت تقريبًا كما يلي: عندما يقدّم زائرٌ بارزٌ نفسه على باب دارة، يفتح له «السويسري» أو بوّابٌ الباب ثمّ يدخله وُصفاءُ إلى الردهة. أحيانًا، ينتظر سيّد المكان الزائرَ أسفل الدرج، وفق أهمية الزائر ونفاد صبر مضيفه. بصورةٍ أعـمّ، يقود عدّة رجالٍ الزائر حتى الطابق الرئيسي. وعندما يصل إلى بسطة الدرج، من صالة الحرس إلى الغرفة الملحقة الأولى ثم الثانية حتى غرفة الاستقبال التي سيصبح اسمها الصالون (salon) بدءًا من العام 1664، يتبع تسلسلًا من الحجرات التي يتوافق كلٌّ منها مع مستوى الاحترام الهرميّ للزيارات. كان ترتيب الشقّة ومنظور الحيّز برمّتهما يسمحان بقولبة مهابة الاستقبال

---

(336) سوف أميّز هنا في الترجمة بين كلمة سويسري التي تعني الناطور أو الحارس أو الحاجب في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وبين كلمة سويسري بمعنى الانتماء لسويسرا كبلدٍ بوضع الكلمة الأولى بين ظفرين بحيث تصبح «سويسري». وبالطبع، تعود هذه التسمية إلى أنّ زيّ هؤلاء كان يذكّر بزي المرتزقة السويسريين. وسوف نجد في الفصل التالي (5) تفاصيل كثيرة عن «السويسريين».

الذي كان يمكن أن يصل إلى درجة ألفةٍ حقيقيةٍ عندما يستقبل المضيف ضيفه في غرفته الخاصة.

عندما تحوّلت السلطة الملكية من كونها مشهدًا عامًّا، البلد ومدنه، إلى كونها مشهدًا خاصًّا، البلاط، كانت السلطة المطلقة قد فعلت فعلها. وكانت سيادة الظواهر قد تحوّلت إلى مراسم باتت فعاليّتها الرمزية عمليًّا سياسة حكم. كيف يمكن أن نفهم على نحوٍ مغايرٍ سرد كونتيسة جنليس[337] (Genlis) التي تعدّد في كتابها **تقديم سيّدة إلى البلاط** (*La Présentation d'une dame à la cour*) الانحناءات التي يجب أن تقوم بها «امرأةٌ مقدّمة» إلى الملكة بين وصولها ورحيلها: «كانت المرأة المقدَّمة تقوم بانحناءةٍ على الباب، ثم ببعض الخطوات وانحناءةٍ أخرى، وبثالثةٍ قرب الملكة ـ تمّت التحية ـ. بعد ذلك، كانت تقوم بانحناءة، ما يعني أنّه يجب عليها الانسحاب، وهو ما كان يتم تقهقرًا على الرغم من الذيل الطويل الذي كانت المرأة تدفعه بمهارة وهي تقوم بانحناءة الوداع».

في عهد هنري الثالث[338] (Henri III) (1574 ـ 1589)، تحوّل إخراج أمرٍ اعتيادي وتافهٍ ظاهريًّا، مثل «نهوض» الملك، إلى أصول لياقة. تطوّرت عمليات «النهوض» هذه ببطءٍ، لكنّها ازدادت إتقانًا شيئًا فشيئًا حتى أصبحت في عهد لويس الرابع عشر طقسًا بلغ من مهابته وضبطه الدقيق أنّه أثّر بعمقٍ في عددٍ من الشهود، الفرنسيين والأجانب على حدٍّ سواء. يذكر سان سيمون[339] (Saint Simon)،

(337) كونتيسة جنليس، ستيفاني فيليسيتيه (1746 ـ 1830) المعروفة باسم مدام جنليس، كاتبةٌ فرنسيةٌ وعازفة قيثارةٍ ومربّية.

(338) هنري الثالث (1551 ـ 1589)، ملك فرنسا بين العامين 1547 و1589، وأوّل ملكٍ بولندي انتخبه النبلاء من العام 1573 إلى العام 1574.

(339) سان سيمون (1760 ـ 1825)، فيلسوفٌ فرنسيٌّ كان يميل لمبدأ تدخّل الدولة في الحياة الاقتصادية وأحد أهم منظري الاشتراكية.

وغيره أيضًا، هذا الأمر في مذكّراته، لكنّني سأتوقّف هنا عند توصيف دوق دانجو[340] (Dangeau) الذي كان يذهب كلّ صباحٍ بين العام 1708 (تاريخ وصوله إلى البلاط) والعام 1715 (تاريخ موت الملك) إلى «النهوضات». يحكي كيف كانت مجموعة المداخل المختلفة إلى الغرفة وعمود الدرابزين الذي يعزل سرير الملك تُبعِد الجليس وتحوّل الغرفة إلى خشبة مسرح وتمسرح السرير.

لم يكن عدد الدخولات المتوالية يقلّ عن ستة، يتّخذ فيها أمكنتَهم على التوالي مشاهدون منتقون سلفًا بالترتيب الهرمي ويصرّح لهم بـ«الدخول» في أوقاتٍ تحدّدها أصول اللياقة بدقّةٍ فائقة.

كان الملك ينهض في الثامنة من صباح كلّ يومٍ. يكون أفراد الحاشية متجمّعين سلفًا في صالة الحرس والغرفتين الملحقتين، ولاسيما في صالة عين البقرة[341] المحاذية لغرفة الملك. في الدخول المألوف الأول، يدخل بدايةً العِلم والحُبّ المغذّي: الطبيب الأوّل، والجرّاح الأوّل، وحتى العام 1688 مرضِعة الملك القديمة. في هذه الأثناء، تنفتح أيضًا «الدخولات من الخلف»، وبعبارةٍ أخرى «الحلل الزرقاء»، أي الأشخاص الذين يستطيعون المرور عبر مكاتب الملك الداخلية: الخدم الأوائل وصبيانهم وأولئك الذين يمتازون بالقدرة على الدخول إلى الملك في أيّ وقت: وليّ العهد وأبناء الملك وأحفاده، الأمراء

---

(340) دوق دانجو (1638 ـ 1720)، هو فيليب دو كورسيلون، ضابطٌ ومؤلّفٌ فرنسي، اشتُهر بيومياته التي كتبها منذ العام 1684 وحتى عام وفاته.

(341) عين البقرة: كوّةٌ شاقولية (منور) على شكلٍ بيضوي أو دائري. يمكن وضع هذه الكوّة في واجهةٍ أو بابٍ أو جدارٍ أو حاجزٍ أو غير ذلك. يكون موضعها عمومًا في الجزء العلوي لحاملها ويمكن أن تكون مزوّدةً بزجاجٍ أو بشبك. والغرض منها هو السماح بإدخال ضوء النهار، ولاسيما إلى الغرف الخالية من النوافذ، وكذلك الهواء عندما لا تكون مغطّاةً بالزجاج.

المعترف بهم شرعًا، وبعبارةٍ أخرى الأبناء الطبيعيون، إذ يضع الملك شعره المستعار الصغير أمام أصحاب الامتياز القلائل هؤلاء. نحن بالتالي لا نزال ضمن العائلي، أي تقريبًا ضمن المجال غير الرسمي من وجهة نظر أصول اللياقة.

ثمّ يبدأ النهوض الطقسي بمعنى الكلمة: يُنادى كبير أمناء البلاط، أو في حال عدم وجوده، وهي الحال في معظم الأحيان، ينادى كبير نبلاء الحجرة الموجود في الخدمة. ينتظرون خلف الباب. ليست الولادة وحدها هي التي تتيح الوصول إلى الدخولات الأولى أو «الدخولات الكبرى»، كما أنّه لا يُسمح أبدًا للأمراء بالدم بالدخول إلّا بصورةٍ استثنائيةٍ وبحظوةٍ ملكيةٍ تُبرز ندرتها قيمة الامتياز. هكذا يدخل كبير أمناء البلاط وكبير النبلاء وكبير السادة والمعلّم وكبير خدم خزانة الملابس لحضور نهوض الملك من سريره. وهم يحظون بميزة أن يروه وهو في سريره وقد وضع شعره المستعار، لكنّه لا يزال في قميصه. يقدّم كبير الخدم للملك ماءً مباركًا وكتاب قدّاس الروح القدس. ينهض الملك ويضع على نفسه ثوبه المنزلي الذي يقدّمه له كبير خدم خزانة الملابس، وينتعل حذاءه بنفسه. تُتبادَل بعض الكلمات. ثمّ ينادي الضابط المكلّف بفتح الباب على التوالي «الدخولات الثانية» و«رُخص الأعمال»(342). يدخل الحائزون على وظائف الحجرة الثانوية: الطبيب والجرّاح العاديان، العطّارون، قارئا الحجرة، مراقب الفضّيات، المشرف على المتع الصغيرة، وكذلك زعيم الحرّاس الشخصيين وكبير خدم غرفة

(342) رخص الأعمال: كان أصحابها يدفعون مبلغًا لا يُستهان به للقاء الملك على كرسيه المثقوب أثناء إفراغه أمعاءه. وكانت حالة براز الملك تحظى باهتمام الأطباء، الذين كانوا يعتقدون أنّ الأخلاط تشي بالحالة الداخلية. تغيّر الوضع في عهد لويس الخامس عشر، الذي كان يغلق على نفسه في «حجرة أعماله»، أي مرحاضه.

الطعام. ثمّ يحظى الحائزون على رُخصة أعمالٍ بميزةٍ أن يكونوا حاضرين عندما ينتقل الملك إلى كرسيه المثقوب الذي كان يُدعى كرسيّ أعماله. تشهد الدخولات الأخرى أيضًا نظافة الملك الشخصية الموجزة: غسل اليدين بقليلٍ من الماء الممزوج بالخلّ وحلاقة الذقن كلّ يومين على يد كبير الحلاقين.

مع «دخول الحجرة»، يبدأ «النهوض الكبير»، عندئذٍ تحضر إلباسَ الملك جميعُ الشخصيات من الصفّ الأوّل والمرخّص لها بذلك. أمام الأمراء والكرادلة والدوقة والماريشالات والوزراء، يُلبِس كبير أمناء البلاط -أو كبير النبلاء في حال غيابه- الملكَ قميصه النهاري، ثمّ يربط له كبير سادة خزانة الملابس حذاءه وبعد ذلك يضع عليه رداءه ويربط سيفه عليه.

أثناء الإلباس، تتمّ الدخولات الخامسة، ويكون المقبولون فيها من صفٍّ أدنى بكثير، يقترحهم كبير نبلاء الحجرة ويختارهم الملك. يتكوّن فطور الملك من الخبز وقليلٍ من النبيذ. ثمّ تأتي لحظة الصلاة التي يقيمها الملك دائمًا وهو جاثٍ على ركبتيه أسفل سريره، ويحذو حذوه الكنسيّون الحاضرون، في حين يبقى العلمانيون واقفين. وبعد إتمام الصلاة، يغادر الملك المسيحي جدًّا الغرفةَ ويذهب إلى مكتبه متبوعًا بـ«دخولات المكتب»، أي جميع الحائزين على التكليف، في حين يرتدّ أفراد الحاشية إلى الرواق حيث يعلَن جدول أعمال النهار. تخرج «دخولات المكتب» بدورها ويبقى الملك بمفرده لبضع لحظاتٍ مع أمراء عائلته، ويبدأ النهار.

بدءًا من العام 1738، لم يعد لويس الخامس عشر[343] (Louis XV) ينام في الغرفة الرسمية، بل في غرفةٍ أخرى أمر بتجهيزها في شققه

(343) لويس الخامس عشر (1710 ـ 1774)، ملك فرنسا بين العامين 1715 و1774.

الداخلية. وهكذا، كان ينهض كلّ صباحٍ ويذهب ليضطجع ثانيةً في غرفة الأبّهة، حيث يقوم آنذاك بطقس النهوض العلني. منذ العام 1715، بدأت قواعد اللياقة الخاصة بالدخولات تصبح أكثر بساطةً، إذ خُلطت بالكامل الدخولات المألوفة والدخولات من الأطراف الخلفية عبر إضافة الأمراء بالدم إليها، واختُصرت الدخولات إلى أربعة. لاحقًا، أجريت تعديلاتٌ أخرى في ظهور الأشخاص المصرّح لهم بالدخولات الأولى، وفي الوقت عينه، اكتسب الطقس دقّةً، فباتت أشكاله أكثر تصلّبًا. وقد تحوّلت «الدخولات» إلى فُرجةٍ، بالمعنى الرئيسي للكلمة، بسبب العدد المرتفع لأولئك الذين يستطيعون حضورها. لم يعد منطق قواعد اللياقة، التي فُقد أصلها، يتوافق مع أيّ واقع، ولم يعد يؤدّي إلى أكثر من جلسةٍ يومية لا شكّ في أنها ضروريةٌ للإبقاء على الحكم الملكي، لكنّها باتت خاليةً من الروح. كانت الثقة بالشعيرة تتناقص، ويتناقص معها إيمان من يؤدونها. وفي الوقت الملائم، أدّى تبخّر الإيمان بفاعلية الممارسة الشعائرية إلى جعل هذه الأخيرة باليةً، حيث اختُزلت ممارستها بفتشيةٍ تطيّريةٍ، إلى حدّ أنّ مؤلّف كتاب **مراسلة عن التهذيب** (*Correspondance sur la politesse*) يرى فيها صلةً منطقيةً بين ازدراء أصول اللياقة المعلنة في بلاط لويس السادس عشر وعدم مبالاة ماري أنطوانيت[344] (Marie-Antoinette) وخفّتها، إضافةً إلى الأحداث الثورية.

لكنّ الأمر كان لا يزال معلّقًا بقوّةٍ في هذا المجتمع، الذي تطوّر مقلّدًا مهابة البلاط، ففي العام 1782 لاحظ سيباستيان ميرسييه[345]

(344) ماري أنطوانيت (1755 ـ 1793)، ملكة فرنسا وزوجة لويس السادس عشر.

(345) سيباستيان ميرسييه (1740 ـ 1814)، كاتبٌ فرنسيٌّ من أهمّ أعماله: **العام 2440** (*L'an 2440*) (1770)؛ **دراسة حول الفن الدرامي** (*L'étude sur l'art dramatique*) (1773)؛ **لوحة باريس** (*Le tableau de Paris*) (1781 ـ 1788)؛ **باريس الجديدة** (*Le nouveau Paris*) (1799)؛ **تاريخ فرنسا** (*Histoire de France*) (1802).

(Sébastien Mercier) في كتابه **لوحة باريس** (*Tableau de Paris*): «كما أنّ الكياسة لا تزال سائدةً بالمقدار عينه، إذ إنّها منتشرةٌ في الطبقات جميعًا على وجه التقريب. فقد رأينا أنّها تؤدّي إلى كمٍّ لامتناهٍ من الآثار الطيبة على المجتمع، يحقّ للناس الذين لا يتلامسون إلا بمقدار لحظةٍ أن يطالبوا بأن يكون هذا التواصل العابر مستحبًّا. ولولا هذه الكذبة البارعة، لكانت كلّ دائرةٍ حلبةً تظهر فيها الأهواء الصغيرة والدنيئة بكلّ تشوّهاتها. إنّ هذا النوع من التهذيب المتبنّى عمومًا يحجب ضراوة الغرور وتباعدات الاعتزاز بالنفس. [...] وبالتالي، ربّما يكون ثوبٌ خفيفٌ نرميه على المعنويات ضروريًّا بمقدار ضرورة رداءٍ لجسم الإنسان».

لقد أثّرت أصول اللياقة في مجتمع البلاط إلى درجة أنّها لم تخرج منه بسهولة. لقد كانت نوعًا من الإرث الاجتماعي- البيولوجي ما قبل الداروينيّ[346]، حيث بدا «كرم المحتد» واللياقة والأسبقية... وما إلى ذلك، وبعبارةٍ أخرى عادات العصر، كأنّها تعبيرٌ شبه بيولوجي عن قسمٍ من السكّان. في فصلٍ صغيرٍ عنوانه «عادة الناس»، يؤكّد ميرسييه أنّ «[...] أجنبيًّا قليل الاطلاع على العادات سيرتكب في البداية أخطاءً كثيرة، لكنّه لن يتأخّر، إذا كان كريم المحتد، في التعرّف إلى الفوارق البسيطة وفهمها.

لا نستطيع تعريف ما هي «عادة الناس» كتابةً، سوف تدفعك النظرية إلى ارتكاب ألف حماقة، في حين سوف تعلّمك ممارسة بضعة أشهرٍ

(346) داروينـي: نسبة إلى تشارلز دارويـن (Charles Robert Darwin) (1809 ـ 1882)، وهو عالم تاريخ طبيعيّ إنكليزي أدّت أعماله عن تطوّر الأنواع الحية، ولاسيما كتابه **أصل الأنواع** (1859)، إلى ولادة علم البيولوجيا. وقد صاغ فرضيةً مفادها أنّ جميع الأنواع الحيّة تطوّرت على مدى الزمن انطلاقًا من سلفٍ وحيدٍ أو بضعة أسلافٍ مشتركين بفضل عمليةٍ تعرف باسم «الاصطفاء الطبيعي».

أفضل ممّا تعلّمك كلّ الأفكار كيف تتملّص من عددٍ لا يُحصى من الأوضاع، وكيف تميّز جيّدًا ما يجب عليك فعله بالنسبة إلى الأماكن والأزمنة والأشياء والأشخاص».

غير أنّ سيباستيان ميرسييه، وهو مراقبٌ فذّ، يشعر باقتراب حتميّ لنهاية قرون من المجاملات المفرطة والمحصورة ببعض الناس، ففي فصل «السذاجة»، يعترف: «إنّه قرنٌ حزينٌ ذاك الذي يبدو أنّ الصفة الساحرة فيه تجاور الحماقة، حيث البوح الحرّ باستعدادنا الفكري والقلبي المعتاد يجعل وجهنا يحمرّ بسبب احتشامٍ لا أدري ما هو، وينتزع الابتسامة من المكر. الاصطناع يُفسد كلّ شيء، فهو ينتزع من الطبيعة ألوانها وسحرها، يطفئ هذه الحساسية التي تحبّ أن تنتشر بيسرٍ وحرّية، يطبِق على الروح ويمحو هذه المودّة التي كانت تمنح حياةً لكلّ شيء.

من ذا الذي لا يرغب في مقابلة لافونتين[347] (La Fontaine) بدلًا من بوسويه[348] (Bossuet) أو بوالو[349] (Boileau)؟ لقد كان الناس يسخرون من الرجل الطيّب الجديد نسبيًّا على بعض عادات الحياة، لكنّه سيدوم أكثر منّا نحن، هذا ما كان موليير[350] (Molière) يقوله».

---

(347) جان دولافونتين (1621 ـ 1695)، شاعرٌ فرنسيٌّ واسع الشهرة ولاسيما في حكاياته (*Fables*) وقصصه، كما أنّه ألّف مسرحياتٍ وكتيّبات أوبرا تؤكّد طموحه في الوعظ.

(348) جاك بينين بوسّويه (1627 ـ 1704)، رجل كنيسةٍ ومطران مدينة مو (Meaux) ومبشّرٌ وكاتبٌ فرنسي.

(349) نيكولا بوالو (1636 ـ 1711)، شاعرٌ وكاتبٌ وناقدٌ فرنسي.

(350) جان باتيست بوكلان، الملقب بموليير (1622 ـ 1673)، كاتبٌ مسرحيٌّ وممثّل فرنسي، يعدّ أحد أعظم كتّاب الأدب العالمي. كما أنّه ترأّس فرقةً مسرحيةً تحوّلت إلى الكوميدي فرانسيز وبرزت في باريس والأرياف لمدّةٍ طويلة. كتب عددًا كبيرًا من المسرحيات التي تُرجمت إلى لغاتٍ كثيرة. ودلالةً على مكانته البارزة في الثقافة الفرنسية، كثيرًا ما يشار إلى اللغة الفرنسية بوصفها «لغة موليير».

كان الشعب يصعد، وكانت أصول اللياقة وامتيازاتها السخيفة في نظر علم السلوك والسياسة على حدٍّ سواء قد عاشت. واقترحت الثورة الفرنسية محلّها فكرةً معطاء وجديدةً تنادي بالحرّية والمساواة ضمن الأخوّة الكونية. لكنّ الجمهورية، بمساعدةٍ جيّدةٍ من الفاعلين الذين أوقفوا مسارها في عدّة حقبات، نظّمتها تنظيمًا حسنًا مع اختراع أصول اللياقة الجمهورية.

على أبواب الكتاب

فتحُ كتابٍ هو أيضًا بمثابة جذب بابٍ، وسوف نريد في القرن السابع عشر أن يكون هذا الباب المطبوع مصنوعًا على أجمل نحوٍ ممكنٍ بهدف استقبال القارئ كما لو أنّه يدخل صرحًا، بكلّ المهابة اللازمة لاستقبالٍ كبير. هكذا اختُرعت «الصفحة الأولى، حيث يُحفَر العنوان في صورةٍ تمثّل واجهةَ مبنى»، وفق تعريف فوروتيير. الواجهة، التي يجب عدم الخلط بينها وبين المستهلّ، أي الكلمة الأولى في المخطوط المسجّلة على الوريقة ذاتها، «مثلها مثل البنى المعمارية المؤقتة التي تدلّ على مسارٍ قدسي، تنصب معالم الحيّز الموجّه في الكتاب في نقطته الأكثر حساسيةً: العتبة»، هذا ما يكتبه مصيبًا مارك فومارولي[351] (Fumaroli). وبالفعل، سوف يدخل بعض الواجهات تاريخ الطباعة والفنّ بحيث تكون في مصاف أجمل الصروح.

عندما فرضت عادة وضعِ صفحةٍ للعنوان، غالبًا ما نُظر إلى واجهة الكتاب المطبوع بوصفها تجهيزًا أيقونيًا يفيد في إظهار عنصرٍ نصّيٍ بدئي. وقد اتّخذت عمومًا مظهر تأطيرٍ مستنبطٍ إلى هذا الحدّ أو ذلك،

(351) مارك فومارولي (ولد في العام 1932)، أستاذٌ جامعيٌّ ومؤرّخٌ وباحثٌ وأكاديميٌّ فرنسي متخصّصٌ في القرن السابع عشر.

مستعيرًا شكل الحاجز الخلفي في كنيسةٍ تارةً، وشكل قوس النصر تارةً أخرى، كما في كتاب إتيين دوليه[352] (Étienne Dolet) الشهير **تعليقاتٌ على اللغة اللاتينية** (*Commentarii lingaue latinae*) الذي نُشر في مدينة ليون في 1536 ـ 1538، وهي صيغةٌ كانت مستخدمةً في السِّفْر[353] الذي حلّ محلّ **الطومار**[354] (*volumen*) القديم والكتاب المخطوط، وكان منذ النشأة وبموجب التقاليد يحمل رمزية المهابة. لقد كان هذا الترتيب الذي يميّز باب الكتاب، والذي كانت أولى أمثلته منحوتاتٌ صُنعت في معظم الأحيان على ورقةٍ تسبق مستهلّ النص، يقدّم سطحًا أوّليًّا محدّدًا ماديًّا من كلّ جوانبه، أي كما تنصَب واجهةٌ في مبنى حقيقي.

وفي حين كانت الطباعة تزدهر منذ العام 1445 في البلاد الجرمانية والعام 1465 في إيطاليا، فقد دخلت فرنسا في العام 1470. تَواصَلَ اللجوء إلى الواجهة المرسومة في النسخ الفخمة حتى أواخر القرن الخامس عشر، لتتحوّل ببطءٍ إلى أصولٍ حقيقيّةٍ ضخمةٍ وتصبح في أعمال أواخر القرن السابع عشر شبه اعتيادية، لكن غير مبتذلة. أقيمت

(352) إتيين دوليه (1509 ـ 1546)، كاتبٌ وشاعرٌ وطابعٌ وإنسانويٌّ فرنسي.

(353) السِّفر: دفترٌ يتكوّن من صفحاتٍ مخطوطةٍ ومجلّدة بعضها مع بعض. وهو سلف الكتاب الحديث، اختُرع في روما في القرن الثاني قبل الميلاد وانتشر بدءًا من القرن الأول، ليحلّ تدريجيًّا محلّ لفافة البرديّ بفضل سهولة التعامل معه وكلفته القليلة وإمكان الوصول مباشرةً إلى أي جزءٍ من النص.

(354) الطومار: كتابٌ أساسه أوراق برديّ ملصق بعضها ببعض ويلتفّ على ذاته. ابتُكر في مصر قبل 3000 سنة من الميلاد. يكون النصّ فيه مكتوبًا بأعمدةٍ متوازيةٍ ضيّقةٍ إلى حدٍّ ما، وكان حاملَ النصّ بامتيازٍ في القرون الثلاثين السابقة لعصرنا، بدايةً في مصر ثمّ في العالم المتوسّطي بالكامل. ثمّ حلّ السِّفْر محلّه تدريجيًّا.

أول ورشة طباعةٍ باريسية في مبنى السوربون لكنّها لم تعمل إلا لمدّة ثلاث سنوات، وكانت الكتب الأولى التي طُبعت فيها منسوخةً عن كتب إيطاليا. غير أنّ الطابعين- الناشرين، رغبةً منهم في بلوغ طيفٍ أوسع من الزبائن وبفضل معرفتهم بالجمهور الضيّق الذي يصلون إليه، لم يتوانوا في بداية المطاف عن اللجوء إلى الأحرف القوطية الخاصّة بوطنِ مخترعِ الطباعة، والتي كانت أعين القرّاء متمسّكةً بها ومعتادةً عليها. آنذاك، كانت فكرة الكتاب ترتبط بخاصّةٍ بروعة القدرة على زيادة عدد النسخ بوسائل ميكانيكية، ولذلك لم تتنافس الكتب المطبوعة إطلاقًا مع الأعمال المتعدّدة الألوان والمكتوبة على نحوٍ رائعٍ باستخدام «الحروف المزهرة» ذات الحوافّ المزخرفة والشرائط والنقوش الأنيقة التي كان يحقّقها «نقّاشو الحكايا»، وهم حِرَفيون- نحّاتون ذوو أسماءٍ مغفلة أو فنّانون مشهورون. أمّا المظهر المتقشّف الخالي من الصور والتزيين في الكتب المطبوعة، فقد عوّضه إلى حدٍّ كبيرٍ جمال هذه الأحرف الجديدة وانتظامها وسهولة قراءتها، وهي أحرفٌ مطبوعةٌ بالحبر الأسود اللامع الذي لم يكن لأيّ يدٍ بشريةٍ أن تتمكّن من رسمه أو تكراره إلى ما لا نهاية على النحو الذي تسمح به هذه الوسيلة الجديدة ذات الإنتاج الميكانيكي.

في فرنسا، كانت مدينة ليون هي المكان الذي أُجريت فيه أولى تجارب إدخال رسومٍ إلى الكتاب، ونحو منتصف القرن السادس عشر فرض نفسَه فنُّ تزيين الكتاب، فجمعت الصفحة المطبوعة بذلك عناصر الإتقان كافّة: نوعية الورق، ووضوح الطباعة، وأناقة الحروف، ونِسب الهوامش، والعناصر المتنوّعة. وقد جذب فضاء التعبير الجديد هذا أعظمَ الفنانين نحو تزيين الكتاب بالرسوم، وتعاظمت أهميّة العنوان حتّى أصبح أساسيًّا في إنتاج أيّ كتاب. وبدلًا من أن يكون محصورًا بين عمودين وشريطين، شُكّل ضمن الفتحة المركزية لإطارٍ

هندسيٍّ مزيّنٍ يخضع للذوق المجازي في تلك الحقبة، وكان بطبيعة الحال محمّلًا فوق طاقته بصور تماثيل العذارى[355] وبخدعٍ بصريةٍ وشخوصٍ عاريةٍ عفيفة. تختلط بهذه التركيبات المجهدة علامة صاحب المكتبة الذي طلبها من أولئك الفنانين. لقد كانت هذه الأطر المشكّلة على شاكلة لوحيْ بابٍ تقدّم بخاصةٍ ميزة التمكّن من ترتيب عدّة خاناتٍ تسمح بوضع مشاهد صغيرة أو شخصياتٍ رمزية تساهم في الإشارة إلى دلالة الكتاب ومحتواه العام بلغةٍ رمزية، وذلك ضمن حيّز الواجهة.

يذكر جان مارك شاتلان[356] (Jean-Marc Chatelain) في دراسته عن «الكتاب المهيب»، أنّ «الكتب الفخمة في القرن السابع عشر هي آلاتٌ لإنتاج الأبدية»، ويلاحظ أنّ «الواجهة تفرض ذاتها في هذا الصدد، بوصفها قطعةً رئيسةً في هذه الفخامة المرتبطة بالكتاب». وبالفعل، غالبًا ما صُممت الواجهة كقطعة قماشٍ يبسطها المرء أمام خشبة مسرح، وهي هنا حقًّا لتعيّن على نحوٍ مفرط المهابة الدخول في حيّز الكتاب. شهدت أواخر القرن السادس عشر وبدايات القرن السابع عشر انتشار تقنيةٍ جديدةٍ أحدثت ثورةً في تزيين الكتاب، وكان الطابعون في ليون طلائعها: الحفر بحجمٍ لطيف. ومنذ ذلك الحين، قدِم إلى فرنسا حفّارون فلامنكيون عديدون للعمل، نشروا هذه الوسيلة وأدخلوا في الآن عينه في التزيين طريقةَ تحضيرٍ جافّةً ومعدنيةً جديدةً كلّ الجِدّة. تغلّبت الأسباب التقنية وحساسيةُ صفات المنجَز على القيمة

---

(355) تماثيل العذارى: تماثيل ضخمةٌ لعذارى قرية كارواي جنوب اليونان، استخدمها الإغريق كأعمدةٍ لسقوف المعابد.

(356) جان مارك شاتلان، عضوٌ مشاركٌ في مركز دراسات اللغة والأدب الفرنسيين في القرنين السابع عشر والثامن عشر. تتطرّق أعماله إلى تاريخ الكتاب والأفكار في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

التزيينية لتلك الألواح، ما أدّى إلى التخلّي شيئًا فشيئًا عن الخشب المحفور. في عمل هنري جان مارتان[357] (Henri-Jean Martin) الغنيّ عن تاريخ الكتاب والتقنية، يتحدّث عن واجهة الكتاب بوصفها تقوم بوظيفة العرض، إلى درجة أنّ الكتاب، أو بالأحرى إنجاز واجهاته ورسوماته، شهد بين أربعينيات القرن السابع عشر وستينياته أبهى نجاحاته، فقد كانت هذه الواجهات والرسوم تصمَّم مثل لوحةٍ بكلّ ما في الكلمة من معنى، وكان يُعهد بها بالفعل في أحيانٍ كثيرةٍ إلى رسّامين بارزين، مثل روبنز وبرنيني[358] (Le Bernin) وبوسان[359] (Poussin) وستيلا[360] (Stella)، وإلى حفّارين بارزين مثل فرانسوا شوفو[361] (François Chauveau) وكثيرين غيره ممّن قدّموا أعمالًا استثنائيةً تمامًا. غير أنّ المؤرّخين يتحدّثون عن انحدار الكتاب الفرنسي في القرن السابع عشر، ويقولون إنّ أسباب ذلك سياسيةٌ، وبخاصة الحروب الدينية التي أفقرت البلد فمسّت صناعات الرفاه وأدّت

(357) هنري جان مارتان (1924 ـ 2007)، مؤرّخٌ فرنسي متخصّصٌ في تاريخ الكتاب والنشر. وهو مؤسّس ما تمكن تسميته بمدرسة الكتاب الفرنسية، حيث عرّف ملامحها. وقد ولّدت هذه المدرسة عددًا كبيرًا من الأعمال، عبر أطروحاتٍ أدارها مارتان، كما أنّه أدار المجمل الموسوعي: **تاريخ النشر الفرنسي**.

(358) جيان لورنزو برنيني (1598 ـ 1680)، نحّاتٌ ومعماريٌّ إيطالي. احتلّ مكانةً مميزةً في تاريخ الفن الأوربي وتمتّع بمجدٍ عظيمٍ في حياته وأثّر في الفنانين المعاصرين له، وربّما لم يتراجع إلّا أمام مايكل أنجلو.

(359) نيكولا بوسان (1594 ـ 1665)، رسّامٌ فرنسيٌّ من القرن السابع عشر، ممثّلٌ عظيمٌ للمدرسة الكلاسيكية. كان لأعماله تأثيرٌ كبيرٌ في فنّ الرسم الأوروبي في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

(360) جاك ستيلا (1596 ـ 1657)، رسّامٌ فرنسيٌّ عمل في روما لدى البابا أوربان الثامن وتأثّر بكلاسيكية نيكولا بوسان.

(361) فرانسوا شوفو (1613 ـ 1676)، رسّامٌ وحفّارٌ فرنسي، يُعدّ واحدًا من أبرز أربعة حفّارين فرنسيين.

إلى فقر الفنانين. وفضلًا عن ذلك، ولاسيما في عهد لويس الرابع عشر، أعاقت النشرَ على الـدوام قواعدُ لا تعدّ ولا تحصى كانت تتعزّز باستمرارٍ بمختلف صنوف الرقابة الكنسية والملكية. يفسّر هذا الوضع تـداولَ كثيرٍ من الكتب سرًّا في فرنسا، بعد طباعتها في هولندا وإنكلترا اللتين التجأ إليهما البروتستانت منذ العدول عن مرسوم نانت[362].

في ما يخصّ «أبواب الكتاب» التي نتحدّث عنها، رأينا تطوّرًا يحاكي الحقبة في واجهات الكتب ذات المعمار المعقّد، والتي تجتمع فيها تعبيراتٌ كلاسيكيةٌ تناظِر الأعمال المجرّدة من الرسومات، يقرّ روبير بران[363] (Robert Brun) بقوله: «والكلّ ضمن ترتيبٍ فيه أبّهةٌ من دون أدنى اهتمامٍ بالواقعية وأدنى رغبةٍ في الراهنية». وبالفعل، فرض تكوين صفحة العنوان المذكورة آنفًا على شكل قوس نصرٍ أو حديقةٍ على الطراز الفرنسي، نفسَه بوصفه عُرفًا كلاسيكيًّا، إن كنت أستطيع التعبير بهذه الطريقة. علاوةً على الفكرة البديهية للتنظيم والانتصار والاحتفال، تمتاز قواعد الطباعة الحقيقية هذه بأنّها تشكّل إطارًا عمليًّا للتمكّن من

---

(362) مرسوم نانت: هو مرسوم تسامح أصدره ملك فرنسا هنري الرابع في العام 1598 ويمنح حقوقًا في العبادة وحقوقًا مدنية وحقوقًا سياسيةً للبروتستانت في بعض مناطق المملكة ويتنازل لهم عن عددٍ من أماكن اللجوء ويمنحهم تعويضًا سنويًّا تسدّده الخزينة الملكية. أنهى نشر هذا المرسوم الحروب الدينية التي اجتاحت مملكة فرنسا في النصف الثاني من القرن السادس عشر.

في العام 1685، عَدَل لويس الرابع عشر عن الجانب الديني في مرسوم نانت عبر توقيع مرسوم فونتينبلو الذي وقّعه أيضًا المستشار ميشيل لوتيلييه. وبدءًا من تاريخ صدور مرسوم فونتينبلو، أصبحت البروتستانتية ممنوعةً على الأراضي الفرنسية (باستثناء منطقة الألزاس التي لم يُطبَّق فيها مرسوم نانت يومًا، إذ لم تصبح ضمن المملكة إلا في العام 1648).

(363) روبير بران (1896 ـ 1978)، كان قيّم المكتبة الوطنية في فرنسا والمفتّش العام للمكتبات.

تلقّي صورٍ كاملةٍ منتظرة، ارتباطها المباشر بالمحتوى الواقعي للعمل قليلٌ أو منعدم. من جانبي، لديّ ضعفٌ مطلقٌ تجاه واجهة الكتاب الذي نُشر في باريس في العام 1637 بعنوان **لوحاتٌ من الرسم المسطح للفيلوستراتَيْن**[364] (*Les Tableaux de platte peinture des deux philostrates*)، حيث تحمل زوايا صغيرةٌ العنوانَ الذي يقع وسط مبانٍ تزيد من ارتفاعها لوحةٌ ريفيةٌ وتنتهي بقبّةٍ تلامس شمسًا بشرية الشكل، ترسل أشعتها على بساطٍ مموّجٍ من الغيوم التي تحمي الأرضيّات الواسعة والهندسية لحديقةٍ تغلقها جدرانٌ تؤطّر المجمل، إنها درّةٌ في هذا النوع.

ثمة شخصان لا يمكن إغفالهما لأنّهما هيمنا على تلك الحقبة، وهما جاك كالو[365] (Jacques Callot) (1592 ـ 1635) وأبراهام بوس[366] (Abraham Bosse) (1602 ـ 1676). فقد قدّم فنّ كالو الحفرَ الخفيف الهادف إلى تقديم تأثيرٍ إجمالي بمساعدة عددٍ قليلٍ من الخطوط المرتّبة ترتيبًا جيدًا. تأثّر كالو في هذا الطراز المرسوم بإقامته في فلورنسا، وهو طرازٌ يتعارض مع الطريقة الرصينة والمتقنة المستخدَمة من الجيل الذي

---

(364) **لوحاتٌ من الرسم المسطّح للفيلوستراتَيْن** كتابٌ ألّفه فيلوستراتوس ليمنوس (Philostratus Lemnos) (يوناني، 170؟ ـ 245) ونقله إلى الفرنسية بليز فيجينير (Blaise de Vigenère) (1523 ـ 1596) ونُشرت الترجمة في العام 1578. حرّر الأيقونات أو الصور وبقية الصور في القرن الثالث مؤلّفان يونانيان باسم فيلوستراتوس.

(365) جاك كالو (1592 ـ 1635)، رسّامٌ وحفّارٌ فرنسي، له مجموعة لوحاتٍ بعنوان: مآسي الحرب الكبرى، وهي عن حرب الأعوام الثلاثين التي كانت تدور آنذاك في أوروبا.

(366) أبراهام بوس (1602 ـ 1676)، عضو الأكاديمية الملكية للرسم والنحت، كان أحد أفضل الحفّارين الفرنسيين في القرن السابع عشر. تُعدّ أعماله شعارًا للفن الباروكي الفرنسي.

سبقه. نجد ضمن من اتّبعوا أسلوبه مجموعةً من الرسّامين الذين جعلوا علمه الخاصّ بالإضاءة وبحركات الجمهرة متاحًا للجمهور وأداموا هذا النمط من التعبير لمدّةٍ طويلة.

منذ ذلك الحين، سجّل الكتاب فخامته في سطوع بابه، وشيئًا فشيئًا انتشر تـذوّق القراءة في الأوسـاط الميسورة التي فرضت أن يكون تقديم الكتاب المنشور معتنًى به. وسرعان ما لم يعد الكتاب يجد مشترين إلا بشرط أن يكون مـزوّدًا بالرسوم المحفورة، أو على الأقل بكثيرٍ من التزيينات. وقد دفع تطوّر القرّاء إلى تحوّل الكتب في القرن الثامن عشر من كتبٍ ضخمةٍ يصعب حملها إلى كتبٍ أقلّ إرباكًا بالتدريج. وبالفعل، تقلّص حجمها إلى درجة أنّها وصلت في نهاية القرن إلى الأبعاد الضئيلة للتقويمات التي ستزدهر قبل الثورة وأثناءها ولمدّةٍ طويلةٍ بعدها. من وجهة النظر الطباعية، يعيّن القرن التاسع عشر قرنًا جديدًا: دُفعت فيه الصرامة الهندسية إلى الدرجة القصوى واختفت البقع ولم يعد هنالك أيّ إنقاصٍ لحدّة الزوايا، كما لم تعد الصفحة المؤلّفة مجرد رسمٍ، بل تحوّلت إلى رسمٍ منظوري ينظّم فيه كلّ شيءٍ تنظيمًا بارعًا ويواءم إلى درجةٍ تجعلنا نعتقد أنّ الطباعة تأثّرت باختراع المجهر. ومع ولادة الكتاب المعاصر اختفت واجهات الكتب المنحوتة والمهيبة، باستثناءاتٍ نادرة جدًّا، وتغلّب الغلاف فأصبح هو الباب.

الأبواب في مخطّطات

لقد بات التخطيط الذي يجري اليوم على الحاسوب بثلاثة أبعادٍ يسمح للمهندسين المعماريين المعاصرين بإجراء محاكاةٍ وعرضٍ في الفضاء للأوضاع والـرؤى كافّة التي يرغبون فيها. غير أنّه حتى وقـتٍ قريب، لـم يكن هنالك أصعب من تمثيل بـابٍ على مخطّط،

وسيقول لكم ذلك المهندسون المعماريون المسنّون. في مخطّطٍ معماريٍ بسيط، الباب فقيرٌ بالرموز نسبيًّا: انقطاعٌ في خط، أي بمعنى آخر فتحةٌ حرّة لا أكثر، وهي ليست حال النافذة التي تنخرط ضمن سماكة الجدار ويشار إليها بخطوطٍ قصيرة. ثمة رموزٌ بطبيعة الحال، لكن كيف يستطيع الدنيوي تأويلها؟ بل أفضل من ذلك، كيف جرى تمثيل الأبواب الكبيرة والجميلة والجيّدة الخاصّة بالمدن والمباني المميَّزة في المخطّطات الأولى التي أرادت أن تكون خرائط وتبدو لنا اليوم أشبه بمماثَلاتٍ مجرّدة طُورت من دون توسّط الرؤية الواقعية؟ قبل أن نحاول العثور في هذه المخطّطات على ما نُطلق عليه تسمية الواقع، يجب أن نبحث فيها عن الثقافة البصرية في عصرها، وترتيبات تلك الثقافة.

من أجل فهم «وضع خرائط» متوالية لأبوابنا واللغة الصوَرية التي اختُرعت شيئًا فشيئًا وتحوّلت على مدى الزمن، سأستند إلى العمل الرائع الذي كتبه جان بوتييه[367] (Jean Boutier) بعنوان **خرائط باريس من الأصول (1493) إلى أواخر القرن الثامن عشر** (*Les plans de Paris des origines (1493) à la fin du XVIII^e^ siècle*)، فهو يظهِر أنّ وضع خرائط المدن قد وُسم منذ بداياته وسمًا قويًّا بتصوير الفضاء هندسيًّا، بهدف قياسه وتمثيله انطلاقًا من معارف رياضيةٍ وأجهزةٍ طُوّرت لتحسين دقّة القياسات وتمثيلها. بالنسبة إلى تحقيق ما يُعدّ المخطّط الحقيقي الأوّل لمدينة باريس والذي يعود إلى عشرينيات القرن السادس عشر، نستطيع أن نلاحظ أنّ مصمّميه جمعوا بين الرسم والهندسة، عارفين أنّه لا يمكن رسم مخططٍ لمدينةٍ ما من دون قياسٍ، وأنّه لا يمكن وضع خريطةِ حاضرةٍ ما من دون اللجوء إلى الرسم وإلى الرموز التصويرية.

---

(367) جان بوتييه، مؤرّخٌ فرنسي ولد في العام 1953.

يقال إنّ عملية إعداد أوّل مخطّطٍ أُطلقت عليها تسمية «الغواش»[368]، وهو مخطّطٌ بأبعادٍ لم تكن معروفةً حتى ذلك الحين: 442 سم ارتفاعًا مقابل 514 سم عرضًا، قد أُجريت بين العامين 1523 و1530 بموجب «قرار» فرانسوا الأول، الذي أراد أن تُمثَّل فيه «معظم أماكن إقامتنا في مدينتنا الجيدة وحاضرتنا باريس». كان هذا المخطّط العملاق يشهد على أبّهة العاصمة عبر التفاصيل واستخدام اللّون، كما أنّه كان يبتغي أن يكون، مثلما يشير إلى ذلك نقش، صورةً عن «الإقامة الملكية». ولإجراء هذا الإعداد، يقال إنّ الـ« (grométrie)» استخدمت مرةً أخرى. هذا المصطلح ليس قراءةً مغلوطةً لكلمة « (géométrie)»[369] لكنّه على نحوٍ أكثر تأكيدًا إحالةٌ إلى كلمة (groma)، وهي أداة مسحٍ استخدمها المسّاحون الرومانيون لتحديد القياسات من أجل المباني في أرجاء الإمبراطورية وكانت لا تزال بكلّ تأكيدٍ تُستَخدم في القرن السادس عشر. على أيّ حال، نجد مصطلح (gromatica) عند جان بودان[370] (Jean de Bodin) بصدد قياس ممارسي المسح لكلّ مكان. كانت البوصلة المسماة (compas) تُستخدم في إعداد الوجهات الرئيسية في المدينة، فكان يتمّ الحديث آنذاك عن «مخطّطٍ منظوري» يهدف إلى رسم رؤيةٍ للمدينة تكون أكمل رؤيةٍ ممكنة مع «شكلها وارتفاعها». كانت المخطّطات والخرائط لوقتٍ طويل، ولو أنها حاولت أن تكون أدقّ ما يمكن، شحنةً رمزيةً، إضافةً إلى كونها على نحوٍ شديد الوضوح

(368) الغواش (gouache): ألوانٌ مائيةٌ معتمة.

(369) (géométrie): هندسة.

(370) جان بودان (1529 ـ 1596)، اقتصاديٌّ وفيلسوفٌ ومنظّرٌ سياسيٌّ فرنسي، أثّرت نظرياته الاقتصادية ومبادئه عن «الحكم الرشيد» في تاريخ أوروبا الفكري. أدخل عدة مفاهيم تطوّرت لاحقًا إلى حدٍّ كبير، من بينها: السيادة، ونظرية النقد الكمية.

أداةً سياسية. وقد اقترحتْ واقعًا يزيد من إمكان التلاعب به أنّه كان يهدف إلى إطراء كلٍّ من أبناء المدينة الحَضَريين والسلطة التي كانت تُبنى في ظلّها.

من أجل تصوير باريس، من المنطقيّ إلى حدٍّ ما وجوب تسجيلها منذ البداية في سلالة «المدن الدائرية» الأخرى وضمن مخطّطاتها، وهي مدنٌ أثّرت جميعًا في التاريخ تأثيرًا قويًّا. بذلك تحديدًا، كان شكلها يعزّز الاعتداد الباريسي المترسّخ أصلًا ترسّخًا كبيرًا، وبالتالي تتابعت مخطّطات عاصمة المملكة، وكان كلٌّ منها يقدِّر أنّه يُجري قطيعةً مع السابق، وأنّه بطبيعة الحال الأكثر تمثيلًا لواقع الحاضرة المعاصر. كانت دائرية باريس المحتواة ضمن سورٍ تجعلها على هيئة رحمٍ ومطمئِنةً، لكنّها أيضًا مدينةٌ مشتهاة، وإذا ما قرأنا البطاقات التي تحيط بالمخطّطات فغالبًا ما نكتشف أنّها غير مستقرّةٍ وصاخبةً، بسبب المعارك التي دارت على أبوابها، مثل ذلك المخطّط الذي وضعه في العام 1568 أندريه تيفيه[371] (André Thevet)، عالِم الأكوان الخاص بالملك. يحكي نصٌّ يمتدّ على سبعةٍ وخمسين سطرًا، عن المعركة التي جرت بين باريس وسان دوني بتاريخ 10 تشرين الثاني/ نوفمبر 1567، حيث اصطدمت القوات الملكية بقيادة القائد العام للجيوش الملكية دومونمورنسي[372] (de Montmorency) مع قوات البروتستانت بقيادة الأميرال كولينيي[373] (Coligny)

(371) أندريه تيفيه، مستكشفٌ وكاتب جغرافي فرنسي.

(372) آن دومونمورنسي (1439 ـ 1567)، كان قائد الجيوش الملكية في عصره وبالغ القوّة. يُعدّ رمزًا للنهضة الفرنسية وكان صديقًا حميمًا للملك فرانسوا الأول ثمّ للملك هنري الثاني.

(373) هو غاسبار الثاني دو كولينيي (1519 ـ 1572)، عاصر الحروب الدينية الثلاث، وكان يلقّب بالأميرال.

وأمير كونديه[374] (Condé). وهي طريقةٌ تظهِر لنا الريف الشمالي من باب المعبد شرقًا مع الإشارة إلى قرى بانتان[375] (Pantin) وبيلفيل[376] (Belleville) ولافييت[377] (la Villette) ولاشابيل[378] (la Chapelle) وسانتوان[379] (Saint-Ouen) ومونمارتر[380] (Montmartre). لكنّ الخريطة هي صورةٌ للمسرح الذي تَواجَه فيه الجيشان في ذلك اليوم. كما أنّ «نقّاشًا للحكايا» وناشر مطبوعاتٍ من ليون[381] أعاد طباعتها في العام 1570. هذا النقش هو في واقع الأمر أحد أول الأمثلة على الدعاية الكاثوليكية أثناء حرب الأديـان، ما يفسّر نزع عنوانه الأول عنه: **مدينة باريس** (*La-ville-de-Paris*)، والعنوان الفرعي: **صورة مدينة بـاريـس، الحاضرة والجامعة، مع مخطّط معسكر الجيشين**

---

(374) آل كونديه أحد فروع آل بوربون، وهم ينحدرون من لويس الأول (1530 ـ 1569) خامس أبناء الأمير شارل الرابع. اندثر هذا الفرع في العام 1830 بوفاة الأمير لويس السادس.

(375) بانتان: بلدةٌ فرنسيةٌ تقع شمال شرق باريس وهي محاذيةٌ لها.

(376) بيلفيل: بلدةٌ فرنسيةٌ محاذيةٌ لباريس وأُلحقت بها في العام 1860.

(377) لافييت: بلدةٌ محاذيةٌ لباريس.

(378) لاشابيل: منطقةٌ قديمةٌ من محافظة السين القديمة التي وُجدت من العام 1790 إلى العام 1860 قبل إدماجها بمدينة باريس.

(379) سانتوان: منطقةٌ فرنسيةٌ تقع في محافظة سين سان دوني (Seine Saint-Denis) في منطقة إيل دو فرانس. وهي محاذيةٌ لسان دوني وللدائرتين السابعة عشرة والثامنة عشرة من باريس وكليشي.

(380) مونمارتر: حيٌّ يقع شمال باريس، وهو أحد أهم معالمها السياحية.

(381) المقصود هو برنار سالومون (Bernard Salomon) (ولد مطلع القرن السادس عشر وتوفي بعد العام 1561)، وهو رسّامٌ وحفّارٌ فرنسي. رسم واجهات مبانٍ على الطراز الإيطالي وأجرى تزييناتٍ لدخولاتٍ مهيبة. وقد أطلق عليه أنطوان فيردييه (Antoine de Verdier) في العام 1585 لقب «نقّاشٍ ممتازٍ للحكايات». أنجز عدّة أعمالٍ رائعة في ليون في مجال الطباعة، ومن بينها الكتاب المقدّس في العام 1557.

(*Le portrait de la ville de Paris, cité et université, avec le plan du camp des deux armées*) ليصبح مطبوعةً تاريخيةً بعنوان واحد: «**الصورة الحقيقية للمعركة بين باريس وسان دوني. العاشر من تشرين الثاني 1567**» (*Portrait véritable de la bataille, donnée entre Paris et Saint-Denis. Le 10 novembre 1567*).

يقول أندريه تيفيه (1516 ـ 1592)، والذي نعرف عنه كتابه **علم الأكوان الشامل** (*Cosmographie universelle*) (1575)، عن باريس: «شكلها دائريٌّ تقريبًا»، لكنّه مثّل باريس بعدها لأوّل مرّةٍ وهي متّجهةٌ نحو الجنوب وليس نحو الشرق في الأعلى كما درجت عليه العادة حتى ذلك الحين، ومحورها نهر السين يسيل من الأعلى إلى الأسفل. يهدف التوجّه الذي قدّمه تيفيه، عبر وضع شمال العاصمة أسفل الخريطة وفي مقدّمة المخطّط، إلى جعله أكثر وضوحًا، وكذلك إلى إبراز الجيشين بنظام المعركة موزّعَين على طرفي الطريق الواصل بين سان دوني وباريس عبر الباب الذي يحمل الاسم عينه، لكنّه أبقى من أجل تمثيل واجهات الكنائس والمباني المهمّة على التوجّه الأصلي للمخطّطات السابقة مخطّطَه، فقلَبها بكلّ بساطةٍ نحو الشمال. هكذا نستطيع أن نرى باب سان دوني في القطبين المعاكسين لمكانه الحقيقي، وهو لا يزال مسجّلًا في السور، يقبع فوق حفرةٍ من الماء ويدافع عنه برجان صغيران رُسمت عليهما قنطرتان للسماح بمرور الناس. إنّها بداية الخلط الطوبوغرافي، وسوف يتكرّر هذا الواقع المغلوط للأبنية الموضوعة بالمقلوب بهدف إظهارها حتى منتصف القرن السابع عشر. أمّا التوجه نحو الجنوب، فسيصبح اتفاقًا معتمدًا في الغالبية العظمى من مخطّطات باريس بدءًا من العام 1760.

في العام 1609، نُشر في وقتٍ واحدٍ مخطّطان لباريس بأبعادٍ كبيرة: مخطّط فرانسوا كينيل[382] (François Quesnel) الذي كان رسّامًا

---

(382) فرانسوا كينيل (1543 ـ 1616 أو 1619)، رسّامٌ فرنسي.

للتاريخ وللصور الشخصية في البلاط، ومخطّط بينيديكت فاساليو (Benedit Vassalieu) الملقّب بنيكولاي (Nicolay) والذي كان مهندسًا عسكريًّا متخصّصًا في «إعداد الخرائط». يتعلّق الأمر بالنسبة إلى الأوّل بمدينةٍ «لا تمكن مقارنتها الآن إلّا بنفسها، بعدد المباني والبيوت والقصور والكنائس والمستشفيات والمدارس والشوارع والجسور والنوافير والأبواب التي تتكوّن منها، بحيث إنّها أشبه بريفٍ كبيرٍ منها بمدينة». إنّه إذًا مخطّطٌ لا يهدف إلى تمثيل الكمال فحسب، بل إلى تمثيل هيمنة باريس «على جميع مدن الكون». أعلى المخطّط، وفي نصٍّ يحمل عنوان **تاريخ مدينة باريس القديم** (*L'Antiquité de la ville de Paris*)، يذكر كينيل صراحةً الإنجازات الجديدة والمرئية لتجميلات باريس، والتي أرادها وحقّقها الملك الحاكم، مؤكّدًا واقع أنّ «هنري الرابع زيّنها أكثر من أيٍّ من سابقيه، سواءٌ بالأبنية الجميلة التي لا تنتهي والتي تمثّلها هذه الخريطة، أو بقوانينه الجيدة التي تُحفظ فيها ويُلتزم بها على نحوٍ قدسي».

مخطّط فاساليو خريطةٌ جديدة، مثله في ذلك مثل مخطّط كينيل، فقد أدار صورة المدينة بمقدار 45 درجة، ما جعلها تتوجّه نحو الجنوب الشرقي، بحيث بقي نهر السين يسيل من الأعلى إلى الأسفل لكن على نحوٍ معترضٍ وليس كمحور تناظرٍ للمدينة، وسمح ذلك بإظهار القسم الأساسي من المباني، ليس بواجهاتها فحسب، بل كذلك باللجوء إلى المنظور الهندسي وفق بُعدَي عمارتها. يلاحظ بوتييه أنّ ما قدّمه فاساليو كان في نهاية المطاف أكثر دقّةً في الرسوم من منافسه. تجب الإشارة إلى أنّ المباني الرئيسية كانت تمثَّل بمقياسٍ أكبر من المباني الأقل أهميةً، غير أنّ المدينة كانت لا تزال تصوَّر إجمالًا ضمن حدودٍ منيعة، لا تكون مُنفِذة أبدًا، ولا تصوّر الأبواب إلّا بفاصلٍ في السور. من أجل إعداد هذه المخطّطات الهجينة، يوصى

دائمًا بتوخّي الدقّة إلى أكبر حدٍّ ممكن، لكنّ التفصيل يضيع أحيانًا أثناء العمل.

وجب انتظار **الخريطة الجغرافية للبريد** (*Carte géographique des postes*) التي وضعها نيكولا سانسون[383] (Nicolas Sanson) في العام 1632 ثمّ **اللوحة المحمولة لبلاد الغال** (*Tableau portatif des Gaules*) لجان بواسو[384] (Jean Boisseau) في العام 1646 من أجل أن توضع مساراتٌ على خريطة. لكن في نهاية القرن السابع عشر، بدأت المخطّطات تبدي طابعًا نفعيًّا حقًّا، لأنّها باتت ضروريةً لأولئك الذين يريدون استخدامها. وقد وضع نـولان[385] (Nolin) «خريطته الطرقية» الشهيرة في العام 1690 ضمن هذا التوجّه، من أجل «المساعدة على التنقّل في باريس» التي أصبحت أشبه بشلّة صوفٍ لا يمكن فكّ تشابكها، بسكّانها الذين بلغ عددهم أربعمئة ألف نسمة. علاوةً على التوصيف الطوبوغرافي، يشير المخطّط إلى حدود الأحياء، وبالنسبة إلى ما يخصّنا هنا، يحدّد أيضًا أماكن مداخل العاصمة والتي كانت تدعى أماكن «تصريح المرور»، أي الحواجز العديدة المنصوبة في مخارج المدينة والتي سنعود إليها.

في ثلاثينيات القرن الثامن عشر، بدأ وضع مخطّطٍ مفصّلٍ للمدينة وضواحيها، وكان هذا المخطّط الأوّل أشبه بمسحٍ حضري. المعلومة فيه مفروزةٌ وموزّعةٌ داخل أطرٍ طوبوغرافيةٍ لا تطمح لشرح المدينة بأكملها، بل تنظّم بعض الوقائع الحضرية. سوف نلاحظ بخاصةٍ كلّ ما هو مبانٍ، أو تقريبًا كلّها، «بيوتًا مؤسّسية» ومساكن بلدية مهمّة، مثل مساكن قادة الخمسين (زعيم خمسين رجلًا في ميليشيا حضرية) وقادة العشرة

(383) نيكولا سانسون (1600 ـ 1667)، واضع خرائط فرنسيٌّ شهير في عصره.

(384) جان بواسو (..16 ـ 1657؟)، واضع خرائط فرنسي.

(385) جان باتيست نولان (1686 ـ 1762)، ناشرٌ وواضع خرائط فرنسي.

(الزعيم البلدي لحوالى عشرة رجال)، وضبّاط المدينة، والمفوضين، ومكاتب هيئات التجار، والسجون، والمصابيح، ومجموعات الحرس وحاجز الرقباء. بعد حوالى خمسين عامًا من ذلك، في العام 1782، لاحظ سيباستيان ميرسييه في كتابه **لوحة باريس**، أنّ «ذلك هو مخطّط باريس العاشر، لكنّ المدينة تتجاوز دائمًا حدودها، لم يُحدّد سورها بعدُ ولا يمكن أن يُحدّد». في هذا الفصل عن «أهالي العاصمة»، يتبصّر، منذ ذلك الحين، ضرورة الاستعانة بدليل: «أنا أتوه، أنا أضيع في هذه المدينة الشاسعة، لم أعد أنا نفسي أتعرّف إلى الأحياء الجديدة. السبخات التي تُنتج الخضار تتراجع وتُفسح المجال لمبانٍ. ها هي شايّو (Chaillot) وباسي (Passy) وأوتوي (Auteuil)[386] ترتبط حقًا بالعاصمة، لم يبقَ إلّا قليلٌ حتى تتلامس سيف (Sêve) معها، وإذا ما توسّعنا في غضون قرنٍ إلى فرساي، ومن الجانب الآخر إلى سان دوني، ومن جانب بيكبوس[387] (Picpus) إلى فانسين[388] (Vincennes)، فسنكون بذلك أمام مدينةٍ أكثر من صينية». وبالفعل، تحتاج باريس إلى مخطّط، إلى وضع علامات، بل إلى ترتيبٍ حضري يسمح لكلّ شخصٍ بأن يستدلّ على ما يريد ويستدلّ عليه الآخرون.

ازدحامٌ على الأبواب

لا يكفي أن يكون للقصر أو القلعة أو المدينة المغلقة أبواب، بل لا بدّ من وجود حرّاس، علمًا بأنّ حراسة بابٍ لم تكن يومًا مثيرةً جدًّا لأحدٍ، ولذلك لم يكن عدد من يسعون إلى تلك الحراسة كبيرًا. نعلم

(386) شايّو وباسّي وأوتوي: أحياء تقع غرب ضفّة نهر السين، في باريس، وهي تقع حاليًّا في الدائرة السادسة عشرة.

(387) بيكبوس: حيٌّ يقع في الدائرة الثانية عشرة في باريس.

(388) فانسين: بلدة تقع في منطقة إيل دو فرانس شرق باريس.

الآن أنّ الحياة اليومية في القصور المحصّنة المحروسة بجسرٍ متحرّكٍ قويٍّ كانت رتيبةً، باستثناء الأعياد والأحداث الكبيرة، كما أنّ القصر كان في كثيرٍ من الأحيان يبقى فارغًا تقريبًا، إذ كان السيّد يفضّل الرحيل مع قومه و«حاشيته» ليظهِر نفسه في مكانٍ آخر، إلّا عندما كان يحارب. وقد تراجعت وظيفة الخفارة في القصور الكبيرة إلى درجة أنّنا نستطيع أن نرى الخفراء الذين تمثّلهم منمنمات المدرسة البورغينيونية[389] في النصف الثاني من القرن الخامس عشر وهم نائمون، والحرّاس ناعسون عند الباب الخلفي. بل يُحكى أنّ مهمة الخفارة في قصر ميركورول[390] (Mercurol) في أوفيرن[391] (Auvergne) كانت توكل إلى أطفالٍ صغار «لم يكونوا يؤدّونها بجدّيةٍ كبيرة». والأكثر تعقيدًا من ذلك كان توفير حماية عدّة أبواب عندما يتعلّق الأمر بمدينة.

كان أهالي المدينة لوقتٍ طويلٍ منخرطين ماليًّا في صيانة الأسوار واضطرّوا إلى المشاركة جسديًّا في حراسة العتبة، وهو تطلّبٌ مزدوجٌ كان في البداية يفيد في جعل المجتمع المديني يتضامن، وكان -على صعيد داخل المدينة وبسبب الوضع العملي للسخرة المرتبطة بالدفاع- أصلَ التقطيع إلى أحياءٍ تدين بتسميتها وهويّتها عمومًا إلى الباب الذي ترتبط به، وذلك نظرًا إلى حجم المدن. في ما يتعلق بباريس، هكذا ولدت «الخفارة»، أي الشرطة، وهي تنظيمٌ يعود إلى سان لويس[392].

(389) بورغينيوني: نسبةً إلى منطقة بورغونيا الفرنسية التي تقع شرق وسط فرنسا.

(390) ميركورول: منطقةٌ فرنسيةٌ تقع في مقاطعة دروم.

(391) أوفيرن: منطقةٌ إداريةٌ فرنسيةٌ قديمة تقع في وسط فرنسا.

(392) في العام 1254، أصدر سان لويس أمرًا بإقامة الخفارة، ويقال إنّ ذلك كان تلبيةً لطلبٍ قدّمه معلّمو المهن في باريس الذين وجدوا الوسائل المتّبعة للحفاظ على نظام مدينتهم وأمنها ليلًا غير كافية، فطلبوا السماح لهم بحراسة أنفسهم بأنفسهم؛ كما طلبوا السماح لهم بالتسلّح على حسابهم.

على مدى العصر الوسيط وبقيادة فارس الخفارة، كان هنالك نوعان من الخفارة: «الخفارة الملكية» المكوّنة من الجنود المسلّحين بالأقواس، والنبلة الراجلين والخيّالة، الذين كانوا يقومون بدورياتٍ في الشوارع، بتظاهراتٍ للقوّة وضمن ضوضاءٍ غير معقولةٍ ناتجةٍ عن كلّ الحديد الذي كان يسلّح أولئك الرجال. وفي العام 1254، وبطلبٍ من الباريسيين أنفسهم، ظهرت «خفارة المهن» أو «خفارة البورجوازيين»[393] والتي أُطلقت عليها أيضًا تسمية «الخفارة الجالسة»[394]. في البداية، كان أولئك الذين يعيّنون للخفارة لليلةٍ واحدةٍ ينتمون إلى طائفةٍ مهنيةٍ واحدة، ويأتي دورهم كلّ ثلاثة أسابيع تقريبًا، حيث يذهبون مساءً إلى الحصن الكبير[395] (Grand Châtelet) ليوزَّعوا بين الساحات وتقاطعات الطرق وأبوابٍ معينة. وقد فُرضت هذه الخدمة الطوعية حتى الستين من العمر، لكن سرعان ما أعفت بعض الطوائف نفسها، مثل الكتّاب العموميين وصانعي رقّ الكتابة ومجلّدي الكتب، وتبعتها بعد وقتٍ قصيرٍ مهنٌ أخرى، إلى درجة إفساد الوظيفة ذاتها ووضعها موضع الخطر. عرفت الخفارة كذلك كثيرًا من حالات التغيّب «بداعي المرض» إلى حدّ أنّ السلطات التي تقع على عاتقها المسؤولية العسكرية في الدفاع عن باريس اضطُرّت إلى نشر قواعد وإيقاع عقوباتٍ مرارًا وتكرارًا وعلى نحوٍ منتظم. لإخافة الفارين من الخدمة، تقرَّر في البداية وجوب أن يرسل

(393) في الأصل، تعود تسمية بورجوازي (bourgeois) إلى سكّان البلدات (bourg) ممّن يحظون بوضعٍ مميز.

(394) تأتي تسمية «الخفارة الجالسة» أو «الخفارة النائمة» من واقع أنّ الخفير كان ملزمًا بعدم مغادرة موقعه طيلة الليل.

(395) الحصن الكبير كان حصنًا أنشأه لويس السادس على الضفة اليمنى لنهر السين في نهاية شارع سان دوني. وقد تمّ تدميره مطلع القرن التاسع عشر وحلّت محلّه ساحة شاتليه التي لا تزال موجودةً حتى اليوم. كان الحصن مقرًّا للشرطة ويحتوي زنازين وأوّل مشرحةٍ في باريس.

كلّ رجلٍ عُيّن للخفارة امرأةً من عائلته (الأم أو الزوجة أو الأخت) في حال لم يكن قادرًا على الذهاب بنفسه، تحت طائلة دفع غرامةٍ قدرها عشرة فلوس، بل السجن. بطبيعة الحال، نحن لسنا في الصين، حيث كان تولّي وظيفة حارس بابٍ شرفًا مرغوبًا إلى درجة أنّه لم يمكن أن يحظى به، وفق مارسيل غرانيه(396) (Marcel Granet)، إلّا تابعٌ مجرّبٌ كانت تقطع قدماه علامةً على أنّ عليه ألّا يتخلى عن حراسته في أيّ حالٍ من الأحوال! ففي فرنسا، حيث كان الأمر يعاش كالتزامٍ أكثر منه شرفًا، نجد نداءاتٍ عديدةً وقواعد مودَعةً في المكتبة التاريخيّة لمدينة باريس، من قبيل تلك «القواعد العامّة والأنظمة العسكرية التي ينبغي أن يلتزم بها بورجوازيو باريس ومدن فرنسا الأخرى في حراسة المدن والضواحي المذكورة» (*Règles générales et statuts militaires qui doivent être observés par les Bourgeois de Paris et d'autres villes de France à la garde des dites villes et faux-bourgs*). تذكّر إحدى تلك القواعد، وهي تعود للعام 1559، بأنّ «كلّ بورجوازيٍّ يرغب في القيام بواجبه وتلقّي الشرف، عليه أن يمسك بأسلحته واضحةً وجليّةً ومستعدةً دائمًا لأن تؤدّي وظيفتها». لكنّها توضح أيضًا أنّه من أجل أمن المدينة، «من الضروري للغاية أن يتأكّد البورجوازي من يوم الحراسة، وأن يحرص في اليوم المذكور على أن يستيقظ مع أوّل ضربةٍ على الطبل كي يكون مستعدًّا تمامًا فور سماعه جرس المجلس: لتحقيق ذلك، عليه ألّا ينتظر أن ينهي رنينه كي يصطفّ أمام العلم، حيث يجب أن يأتي ليضع أسلحته». ثمة ما لا يقلّ عن خمس عشرة فقرةً مطبوعةً في ستّ صفحاتٍ تدعم التذكير بالانضباط العسكري، وبالحدّ الأدنى

(396) مارسيل غرانيه (1884 ـ 1940)، عالم اجتماع فرنسي، وإثنولوجي واختصاصي بالشؤون الصينية، وهو من أوائل من استخدموا مناهج علم الاجتماع في دراسة الصين، وكان من مدرسة إميل دوركايم.

من التهذيب، وباحترام أماكن الحراسة. ينتهي المجمل بفصلٍ هو السادس عشر على سبيل الخاتمة: «باختصارٍ، وللقيام بالواجب بدقّةٍ في ما يخصّ حراسة أبواب مدينة باريس وضواحيها والمدن الأخرى في هذه المملكة، يجب أن يكون البورجوازي متواضعًا، ومطيعًا لضباطه، من دون تذمّرٍ أو معارضة ولو نسي عريفٌ موظفًا طيلة الليل في خفارته (وهذا أمرٌ لا يحدث إلّا في القليل النادر)، يجب بالأحرى على الخفير أن يعاني أشدّ المعاناة قبل أن يغادر مركزه، لكن بعد انتهاء خفارته يستطيع أن يشتكي إلى نقيبه. انتهى».

بلغت قلّة الحماسة لحراسة المدينة حدًّا دفع بعد قرنٍ من ذلك، وعلى رغم الإنذارات العديدة المتواصلة، إلى صدور «أمرٍ بأنّ الملك يريد لحراسة أبواب مدينته الجيدة باريس، أن يحرس ويُراقب ضبّاطٌ من رتبة عقيد ونقيب وملازم وحاملو شاراتها، صدر وأُقرّ في مكتب المدينة، حيث كان السادة عقداء المدينة مجتمعين يوم الإثنين 11 آب/ أغسطس 1636». في هذا النصّ الذي يخص العاصمة فحسب، نجد تعريفًا أدقّ للمهمّة، وهو يستحقّ أن أذكر هنا مقتطفًا كبيرًا منه لتكوين فكرةٍ عن الجوّ الذي كان سائدًا آنذاك ومنذ وقتٍ طويلٍ في خفارة باريس: «أوّلا على السيّد ديروش (Desroches) وفارس الخفارة، مع عقيديهما، أن يحرسا واحدًا بعد الآخر بابي بوسي (Bussi) ونيل (Nesle)، فيضعا 30 رجلًا على كلٍّ منهما يقودهم نقيبٌ أو ملازمٌ أو حامل شارة كلٌّ بدوره وهم يدقّون الطبول، من دون شارة، وسيبدأ العقيد المذكور السيّد ديروش يوم الأربعاء القادم في الخامسة صباحًا بإجراء الحراسة المذكورة، وستُرفع هذه الحراسة في الساعة الثامنة مساءً، حتى آخر شهر أيلول/ سبتمبر، ومنذ الوقت المذكور حتى عيد الفصح، ستبدأ الحراسات المذكورة في السابعة صباحًا، وتُرفع في الساعة السادسة مساءً، وفي تلك الأوقات المذكورة، سيقوم ضبّاط

الأحياء أو قادة الخمسين أو قادة العشرة المأمورون بذلك بفتح وإغلاق الأبـواب المذكورة، سوف يغلق جميع العقداء الأبـواب «واحـدًا تلو الآخر، ويُخطَرون قبل يومٍ من توقّف الفرق عن الحراسة المذكورة كي يستعدوا ليحلّ بعضها محلّ بعض». يلي ذلك التنظيمُ والتوصيف من أجل حراسات بابي سان فيكتور وسان برنار، وأبواب سان جيرمان وسان ميشيل، وسان جاك وسان مارسيل. ثمّ باب سان أنطوان، مكان العبور المهمّ مع أبواب سان مارتان وسان دوني ومونمارتر، حيث يقال عن كلٍّ من هذه الأبواب إنّه «سيحرسه خمسون رجلًا على الأقلّ كلّ يوم»، وفي المقابل يشار إلى أنّ أبوابًا أخرى، مثل «باب المعبد وأبواب أخرى مبنية أخيرًا هي مغلقةٌ بالكامل».

لن تتحسّن الأمـور، فبتاريخ 26 آذار/ مـارس 1649، عبّر كبار الباعة ومساعدو البلدية في باريس عن قلقهم من حالة الخفارة في المدينة، ومن «التجاوزات التي تُرتكب فيها بسبب الحرّية المفرطة التي يمنحها لأنفسهم البـورجـوازيـون والسكّان الذين يضطرّون للذهاب إلى الحراسات المذكورة». وهم يلامون على أنّهم «يتركون أسلحتهم لعناصر الحراسة المذكورين فور ذهابهم إليهم من دون أن يطلبوا إجازةً ممّن يتولّون القيادة [...] ويذهبون حيث يحلو لهم من دون أن يعودوا حتى اليوم التالي في الساعة التي يعلمون أنّ رفع تلك الحراسات يجب أن يحدث فيها، بحيث لا يجد المرء في معظم الأحيان ما يكفي من الأشخاص أثناء الليل في أماكن الحراسة المذكورة للذهاب ورفع الحراسات التي تبقى أحيانًا 3 ساعات كاملة قيد العمل [...]. ويبلغ من قلّة طاعتهم أنّ بعضهم كانوا متهوّرين بحيث شهروا الأسلحة ضدّ نقبائهم وملازميهم وحاملي شاراتهم، شاتمين ومجدّفين باسم الله بأنّهم لن يطيعوا. وهذا أمرٌ يناقض العرف على نحوٍ مباشر...».

إنّ التوصيف الذي يضعه سيباستيان ميرسييه للخفارة في كتابه **لوحة باريس** في العام 1782 لا يبعث إطلاقًا على الاطمئنان بصدد «أمن باريس أثناء الليل». وهو يتساءل أين «هو عمل الخفارة وعمل مئتي مخبر أو ثلاثمئة يذرعون الطرقات ويتعرّفون إلى المشبوهين ويتبعونهم». كما يؤكّد قلّة الصدقية التي كانت تُنسب لهذا العمل، حين يقول إنّ «الناس كانوا أحيانًا يكيلون الضرب للخفير، بل كان ذلك تسليةً يتسلّى بها الشبّان من أبناء العائلات والفرسان، إذ يكسرون المصابيح ويطرقون الأبواب وينشرون الصخب في المناطق السيئة، كما يسرقون العشاء الخارج من الفرن ويصفعون الخادمة، ثمّ يمزّقون ثوب المفوض». هكذا نفهم أن يشكّل «واجب الحراسة» عبئًا متزايدًا وأن يصبح أكثر فأكثر ثقلًا. لم يكن أحدٌ في أواخر القرن الثامن عشر من سكّان حيٍّ ما مستعدًّا للتطوّع إلّا على سبيل الاستثناء، ولسدّ غياب القوّات العسكرية الذي يمكن أن يؤدّي إلى إغلاقٍ تامٍّ لأحد الأبواب. في نهاية المطاف، سبق إحلالُ «رسم الواجب» محلّ الخفارة اختفاءها وأعلَن عنه.

لئن لم تكن وظيفة الحارس مسلّيةً، لأنّها سكونيةٌ وتكرارية، فلم يتمّ التخلّي عن الأبواب، بل على العكس، كان الناس يعبرونها من دون توقّفٍ في النهار. يجب أن نتخيّل باريس هذه، ضجيجها وأناسها الذين وصفهم بوالو في قصيدته الهجائية السادسة:

فما إن تبدأ أصوات الديكة بصياحها الحاد
تطرق مسامع الجيران
حتى يقوم صانع أقفالٍ شنيع، جعلته السماء الحانقة
ملاصقًا لبيتنا كي تعاقبني،
بقطعة حديدٍ ملعونة، أعدّها بضجيجٍ كبير،
بضرب مئتي ضربة مطرقة صدع رأسي بها،

فسمعت العربات تركض في كلّ مكان،
البنّاؤون يعملون والمخازن تُفتح:
بينما في الأجواء ألف جرسٍ منفعل
بتناغمٍ مأتميٍ تصل أصواتها إلى السحب
مختلطةً بضجيج البرَد والرياح.
ولتشريف الأموات، تُميت الأحياء.

إنها باريس التي أخذت رائحتها تزداد شناعةً منذ تأسيسها، حيث «لكلّ شخصٍ في بيته مخازن فساد، روائح عفن الأقبية»، مثلما يذكر ذلك سيباستيان ميرسييه، حيث يشعر السكان باستمرارٍ بالانزعاج من «أبخرة المدفونات» بسبب «منظّفي المراحيض (الذين) يصبّون المواد البرازية في مطلع النهار داخل المجارير والجداول تجنّبًا لعناء نقلها خارج المدينة. يسير هذا الكدر الرهيب ببطءٍ على طول الشوارع نحو نهر السين...»، بالنسبة إلى من يتمتّعون بحرّية التنقل، يشكّل الأمراء والمحاربون ورجال الدين والتجار وسائقو العربات والمراسلون والخيّالة والحرَفيّون وزارعو البقول وبائعو الأسماك والمترافعون في المحاكم والطفيليون والحجاج والمتسكّعون والعسكريون والمرحّلون والمحكومون بالشنق... السكّانَ الطائفين الذين يمرّون يوميًّا عبر الأبواب، وكذلك بالنسبة إلى المتنزِّه، فهو يريد لتنفّس هواء الريف النقي «في الأعياد وأيام الآحاد» الهربَ من نتانة مكبّ النفايات الحضَري هذا، لكن ما أن يضع قدمه خارج الأبـواب أو الحواجز «حتى يجد الأبخرة النتنة المتصاعدة من السماد المصنوع من البراز والقاذورات الأخرى تغطّي الأريـاف على بعد نصف فرسخٍ من العاصمة. نزهاته ملوّثةٌ، لأنّ أحـدًا لم يأبه بنقل الأوحـال إلى مكانٍ أبعد: هكذا تتأثّر الجادّات الجميلة وتفقد متعتها». يؤكّد ميرسييه أيضًا أنّه «توجد أيامٌ

يخرج فيها من أبواب العاصمة ثلاثمئة ألف رجلٍ بأرتالٍ مكتظة، ستون ألفًا منهم بعرباتٍ أو على صهوات الجياد: إنّها متعة، استعراض، عيدٌ عامّ.

بعد ستّ ساعات، تتبدّد هذه الجمهرة الهائلة، يعود كلٌّ إلى بيته: المكان الذي كانت حدوده محوطةً بالحواجز الحديدية، التي تُقلَب بفعل التدفّق الهائلِ للشعب الذي كان يصيح مناديًا بالرحمة، يفرَّغ، يبقى عاريًا، خاويًا، ولكلٍّ من هؤلاء الرجال المتجمّعين والمستعجلين ملجؤه أو ركنه الخاص.

في يوم نزهة لونشان[397] (Long-champ)، تخرج المدينة بأسرها مهما كان حال الطقس: إنّه اليوم الذي يحدّده العرف ليُظهِر المرء لباريس كلّها عربته وجياده وأتباعه. لا أحد ينحني في النزهة مثلما ينحني في صالون، فللنزهة طابع الخفّة الذي لا يستطيع أكثر الأجانب رشاقةً أن يمسك به».

ولو كان هذا الوصف يعود إلى الربع الأخير من القرن الثامن عشر، فهو يبقى صحيحًا جزئيًّا بالنسبة إلى جميع المدن الكبيرة في أوروبا منذ العصر الوسيط. في عالمٍ يعيش سعيًا دائمًا وحركةً أبدية، كانت التذبذبات السكّانية قويةً بمقدار الحراك الذي يمكن أن نعدّه واحدًا من أكبر الطموحات القروسطية، ففي كثيرٍ من الأوضاع كانت المهن، ولاسيما التجارية منها، تستدعي تنقلاتٍ متواترة وبعيدة، وسواءٌ تعلّق الأمر بأعضاء السلك الديني الذين تفرض عليهم مهمتهم رحلاتٍ بعيدة أحيانًا، أم بدعوة الحجاج وإلزامهم بعدم البقاء أكثر من ثلاثة أيامٍ في مكانٍ واحد، كان الجميع يتحرّكون. هنالك أيضًا جميع أولئكَ الذين يتنقّلون دوريًّا للذهاب إلى المعارض

(397) لونشان: قريةٌ صغيرةٌ تبعد أربعة أميال عن باريس، كان الذهاب إليها في نزهةٍ أحد الأحداث الرئيسية في المجتمع الباريسي.

في بواسي[398] (Poissy) وسنليس[399] (Senlis) وسواسون[400] (Soisson) وميلان[401] (Melun) وبروفنس[402] (Provins) ومعارض الشمبانيا الشهيرة في تروا[403] (Troyes) وبار سور أوب[404] (Bar sur Aube)، على مبعدةٍ أكثر إلى الشرق والجنوب والغرب والشمال، مرورًا في كلّ رحلةٍ بالأبواب الكبيرة التي توصلهم إليها. يجب أن نأخذ بالحسبان الصلة المطلقة والضرورية بين المدينة والنشاط الزراعي، تلك الصلة التي تجعلنا نرى يوميًّا مرور زارعي البقول الماضين إلى البساتين أو بائعي الأسماك الذين يمارسون يوميًا، خارج أوقات وصول الصيد البحري، الصيدَ في النهر وزراعة الأسماك في البحيرات، فيقدّمون المنتجات الطازجة لموائد الأديرة والأشخاص الأكثر ثراءً، ويكون قليلٌ من تلك المنتجات من نصيب الأشخاص الأقلّ فقرًا. خارج الأبواب، نجد «المهن الموضوعة في الخارج»، وهي مهنٌ تُدفع في كثيرٍ من الأحيان خارج المدينة بسبب الحاجة إلى الحيّز أو لأنّها مرتفعة المخاطر، ولاسيما المهن المرتبطة بالنار، كإذابة شحوم الإنارة والحدادة وغيرها من أعمال المعادن، المهن الملوّثة، ولاسيما تلك التي تصدر روائح كريهة: الجلود والدباغة، المهن التي تحتاج إلى الريح: الطواحين وما إلى ذلك. كلّ هذا منظّمٌ بموجب توزيعٍ طوبوغرافي بارع.

---

(398) بواسي: بلديةٌ في مقاطعة إيفيلين في إيل دو فرانس في وسط شمال فرنسا.

(399) سنليس: بلديةٌ في مقاطعة الواز في شمال فرنسا.

(400) سواسون: بلديةٌ في مقاطعة أيسن في بيكاردي شمال فرنسا.

(401) ميلان: مدينةٌ تابعةٌ لمقاطعة السين ومارن في إيل دو فرانس.

(402) بروفنس: بلديةٌ في مقاطعة السين ومارن في إيل دو فرانس.

(403) تروا: عاصمة مقاطعة أوب وتقع شمال شرق فرنسا.

(404) بار سور أوب: بلديةٌ في مقاطعة أوب.

لا يتحدّث أحدٌ عن «المهن المشينة»، تلك التي تمسّ الموت والفأل والإعدام والجنس والتي تجمع المبعدين، بل -وهو الأسوأ- المنفيين، فهؤلاء البشر تائهون في نظر المجتمع البشري، وهم يسكنون حكايات العصر الوسيط ومخاوفه الكبرى، ولم يعد لهم الحقّ في تجاوز أيّ بابٍ، إلى درجة أنّ زوجات المنفيين كنّ يوصفن بالأرامل، وأبناءهم باليتامى، ولا يعود لهم الحقّ في كفن.

لكن تحت الأسوار وُجدت مناطق لجوء، فكما في وثبةٍ كريمةٍ تعزّز الدفاع على نحوٍ مقدّس، كانت هنالك على الدوام أسس منشآتٍ استشفائية تقيمها أخويةٌ تعيش على الصدقات باسم «مستشفى الباب». وسرعان ما أُدمجت المستشفيات ضمن المدينة التي كانت تنمو ووجدت نفسها «داخل الأسوار» وحلّت محلّها ملاجئ لأشدّ الناس فاقةً، تُطلَق عليها أسماء القديسين الحامين للمدينة. وهكذا، بات المرء يمرّ أمام مستشفى من أيِّ الجهات كان دخولُه المدينة، وهذا يشهد على الإحسان البلدي وعلى العون المقدّم للفقراء، وكان ذلك أشبه بحزامٍ يضمن الحماية الإلهية ويُعلي شأن بعض المناطق التي كانت تستقبِل المقابر.

لكن تأتي اللحظة التي تعلن فيها ساعات المدينة وأجراسها عن قرب إغلاق الأبواب، قبل ساعة أو نصف ساعة. وكانت تلك لحظةً ينتظرها بنفاد صبرٍ المكلّفون بإيداع الأغراض على الأبواب وموظّفوها، وحرّاس المفاتيح، وخدم المدينة، والبوّابون، والنواطير، ورجال الجمارك، ودوريات الحراسة، ومؤتمنو رسم العبور لمغادرة أماكن عملهم. إنّها اللحظة التي تضبطها الشمس حيث تكون الخيول قد عادت إلى الحظيرة والمتاجر أُغلقت والأشغال توقّفت والمدينة هدأت. يستلذّ بوالو الباريسي بهذا الانتقال على وجه الخصوص، على الرغم من أنّه مثيرٌ للمخاوف:

إذ حالما تغلق الظلال المسالمة
المتاجرَ بقفلٍ مزدوج
حالما يراجع في بيته التاجرُ الهانئ
نقودَه ويعُدّها،
حالما يكون كلّ شيءٍ في السوق الجديد هادئًا ومطمئنًا،
يستولي السارقون في اللحظة عينها على المدينة.

ربّما لا يكون الناس جميعًا قد عادوا إلى بيوتهم، إذ يبقى بعضٌ منهم في الحمامات والنزُل والمطاعم، ويخرج الخفير ليؤكّد تنبّهه الواهن على بعض الأبواب الكبيرة التي بقيت مفتوحة. الليل يتقدّم، وتجتذب الحانات والخمّارات المقامة على أطراف المدينة الناسَ المشبوهين الذين جرجروا ولا يزالون يجرجرون أنفسهم حتى الآن أسفل الأسوار، التي أصبحت جادّاتٍ ثم طرقًا سريعةً محيطية. هنا، في تقاطع الدروب والشبكات، قريبًا من أماكن الثكنات والمخيّمات والمعسكرات غير المرغوبة، في هذه المنطقة غير المحدّدة، نستطيع أن نجد «السلطانات الليليات» والمتجوّلات في مدينة باريس. مومساتٌ تمرّدن ذات يومٍ من العام 1649 على واقع أنّه على أبواب العاصمة»... بقدرةٍ سحريةٍ ما/ وُضع عمود الإنارة/ الذي يمنع من قول مساء الخير/ الأنوار البذيئة/ محيلةً الحب إلى المزاريب»، وتأسّفن على الزمن المبارك حيث كان «المصباح مريحًا جدًّا/ كان الهواء يطفئه، يكسره/ كان الحب يمرّ خفيةً». بطبيعة الحال، يجب أن نأخذ بالحسبان عدم تجانس المداخل، وألّا نقلّل أبدًا من شأن أيّ باب، حتى «الأبواب الكاذبة» التي يمكن أن تولّد في الضواحي مداخل سرّيةً مرغوبةً جدًّا، وذلك لنقول إنّ للأبواب تراتبيتها وتخصّصها، شأنها شأن الأحياء. يشعر البورجوازيون المحروسون بصورةٍ شديدة السوء من الداخل، ويعلمون ذلك، بهذا

المحيط الخدَمي الذي يحاذي مدينتهم وكأنّه غشاء جنبٍ هشّ. إنه عصرٌ لا يمكن التحكّم به، مفعمٌ بالسلوكيات السيئة، بالمطالب الاجتماعية، بالعنف المحبوك. بالنسبة إليهم، تنمو طبقةٌ خطرةٌ كاملةٌ على المداخل وتتسلّح ضد هذا الحزام القاتم والمشجّع على انتشار الجريمة. بفعل ذلك، ومنذ أصبحت البلدة مدينةً، بات البورجوازي يتخيل أنّه يعيش هنا كلّ كدر السكّان. يتراءى للمرء أنّه يوجد ما يشبه الرغبة المنحرفة في المجتمع الحضري المنظّم تنظيمًا حسنًا لتخيّل هذا التراكم، هذا التركّز البشري الذي لا يمكن وصفه خارج الجدران، كما لو أنّ ذلك يسمح بالتحكم بالمسافة عبر تضخيمها. تمارس الضاحية، التهميش(405)، فِعْلَ المُرَشِّح المقلوب، فعْلَ طرد كلّ غريبٍ قد يرغب في الوصول إلى المدينة. وعلى العكس من ذلك، بالنسبة إلى أولئك الأكثر تنوّرًا، توجد ضروب منطقٍ خاصّة بإبراز الجبهة الحضرية، بل يوجد من يدركون أنّه لا يمكن اختزال تنوّع النمو الحضري بمجرد رسمٍ بيانيٍ شعاعي متّحد المركز ومتوقّع عادةً. لكنّ جميع هؤلاء الناس على الأبواب، المرئيين أو المتخيلين، يشاركون في استيهام «دخـولٍ» بالخلع والكسر مع المخاطرة بتضخيم الطائفة الحضرية، على الرغم من أنّها لا تستطيع حقًّا أن توجد إلّا ضمن غفلة العدد المطمئِنة.

رسوم عبورٍ وحواجز أخرى

لوقتٍ طويل، لم يكن بإمكان المرء أن يعبر باب حاضرةٍ من دون أن يوقفه على الحاجز مؤتمنٌ متحمّسٌ يطلب منه دفع رسم العبور

(405) يلمّح الكاتب هنا إلى كلمة ضاحية في اللغة الفرنسية (banlieue) وكأنّها مشتقةٌ من كلمتين: (ban) بمعنى استبعاد أو تهميش، و(lieu)، أي مكان. كانت كلمة (banlieue) تشير في القرن السابع عشر إلى أرضٍ بحدود فرسخ تحيط بالمدينة ويمتدّ فيها المنفى.

(octroi)، أي وفق تعريف قاموس فوروتيير للعام 1611، الرسم «الذي كان يُسمح للبلدية بتقاضيه على المنتجات العابرة إلى داخل سورها». رسوم العبور منحدرةٌ من حقوق الميناء الأثينية، من الجمارك (portoria) الرومانية، بقايا الأزمنة الميروفنجية[406]، ومصطلح (octroi) مستقى من اللاتينية القانونية التي احتوت على (otreid) في بداية القرن الثاني عشر ثمّ (octroi) في العام 1374، وهو (المصطلح) الذي يرتبط بمداخل المدينة، وقد أشير إليه بالفعل في باريس منذ القرن الثاني عشر. شكّلت المداخل التي تُجبى رسومٌ فيها مصدرَ انزعاج، بل كراهية جميع «الداخلين» منذ تعميم تطبيقها في القرن الثالث عشر وحتى اختفائها النهائي في العام 1948. عبر الكناية، أشارت كلمة (octroi) إلى الإدارة المكلّفة بتحصيل الرسوم المحلية، كما أشارت في الوقت عينه إلى «المكتب» الذي يمتثل فيه دافع الضرائب. لزمنٍ طويل، كانت تُرتَّب كيفما اتفق مراكزُ في مداخل المدن، حتى فرض لويس الرابع عشر (1643 ـ 1715) بناء مقرّاتٍ خاصّة بتحصيل رسوم العبور. في مقابل ذلك، طلبت المقاولة العامة[407] القوية، المكلّفة في النظام القديم بتحصيل الضرائب، من الملك إصلاح الأسوار الساقطة أو نصب جدرانٍ حيث لم يكن هنالك جدران، بحيث تكون المدينة مغلقةً ويكون على كلّ شخصٍ يريد دخولها أن يمرّ بأحد الحواجز المرتّبة بحسب الأصول. لكنّ بناء ستّين «حاجزًا» كانت تُفتح في سور العاصمة

(406) الميروفنجيون (mérovingiens): سلالةٌ حكمت جزءًا كبيرًا من فرنسا وبلجيكا الحاليتين، وكذلك جزءًا من ألمانيا وسويسرا من القرن الخامس حتى منتصف القرن الثامن.

(407) المقاولة العامة: في النظام الفرنسي القديم، هي شركة مموّلين خاصّةٌ وذات امتيازات، كانت مكلّفةً بجمع الضرائب غير المباشرة بين العامين 1726 و1790.

هو من مآثر نيكولا لـودو[408] (Nicolas Ledoux) (1736 ـ 1806)، المهندس المعماري الخاصّ بلويس السادس عشر، فقد بنى سُرادقات على الطراز الكلاسيكي المحدث، أطلق عليها بنفسه تسمية «أروقة بـاريـس»، ولا نـزال نستطيع أن نـرى بعض الأمثلة عليها في ساحة دانفير روشـرو[409] (Denfert-Rochereau) أو في ساحة ناسيون[410] (Nation). بطبيعة الحال، لم تنتظر وظيفة مدخل المدينة الضريبية عهد لويس الرابع عشر كي توجد، فقد كان هذا السعي للتحكّم بمرور الأشخاص والممتلكات مقابل مبلغٍ معينٍ، مطبّقًا في عددٍ لا بأس به من المدن في العصور القديمة. وقد سبق لي ذكر ذلك في «الدخول إلى المدينة» (Introitus in urbem) بصدد روما، حيث كان باستطاعة المرء أن يفكّر كذلك في أنّه يجب، وعلى نحوٍ ماديٍّ تمامًا، أن يعدّ تصاعديًّا أو تنازليًّا لدى عبوره حواجز ما نطلق عليه نحن تسمية رسم العبور، من دون الرغبة في إنكار أهمّية الحزام السحري عندما يقترب من «المدينة» (Urbs). لا بدّ أنّ الإجراءات القضائية المتعلّقة بمن وما يمكنه أو لا يمكنه دخول المدينة كانت موجودةً، تماماً مثل ما يمكن أن يخرج منها. وعلى الرغم من العثور على بعض الأعمدة المرتبطة بالعبادة مبعثرةً هنا وهناك، فإنّنا لا نعرف تمامًا ما كانت عليه منطقة الحماية هـذه التي تسمح بالتحكّم بانتقال الأشخاص والبضائع. يتحدّث المؤرّخ جان بيير غيلمبير (Jean- Pierre Guilhembert) عن «حدودٍ إداريـةٍ وضريبيةٍ وحيدة الاتجاه أو صريحة في روما في عهد الإمبراطورية القديمة، وحواجز رسوم عبورٍ معروفة قليلًا أو بصورةٍ

(408) كلود نيكولا لودو، مهندسٌ معماريٌّ فرنسي ومخطّط مدنٍ وأحد أهم مفسّري العمارة الكلاسيكية الحديثة.

(409) دانفير روشرو: ساحةٌ تقع في الدائرة الثامنة عشرة في باريس.

(410) ساحة ناسيون: ساحةٌ تقع في الجزء الشرقي من باريس.

سيئة اليوم بسبب ندرة المصادر». وهو يتساءل إن كانت وُجدت حقًّا، ولو أنّ آثارًا رمزيةً مثل بعض الحجارة المنقوشة وقصاصات نصوصٍ تجعلنا نخمّن وجود «أبواب صغيرة»، ولاسيما انطلاقًا من تشييد أسوارٍ جديدةٍ في القرن الثالث. الواقع أنّ الحدود الضريبية تترجَم في معظم الحالات في العمارة التي تنتمي إلى هويّتها وتسجّلها بحزمٍ في مشهد التخم الحضري الذي تستند إليه، لكن ليس لدينا في روما أثرٌ قاطع. يعتقد الباحثون في مجال الضرائب أنّ الحسّ الضريبي الروماني السليم ربّما كان يجد أنّ اقتطاع رسومٍ داخل التجمّع السكني أفضل من اقتطاعها على الحواجز. وإذا كانت الرسوم موجودةً، فالاختصاصيون لا يعلمون أين يحدّدون موقعها، إذ لا يذكر أيّ مصدرٍ عمليًّا سور تحصيل رسم عبورٍ حول العاصمة. هل كان خطّ رسم العبور جزءًا من الحدود الخمسة التي كانت تحيط بروما (الأسوار والمحيط والجدران والمناطق والبوميريوم)؟ ربّما كان البوميريوم وحده هو الذي شكّل خطّ رسم عبور، فقد عثر علماء الآثار أسفل الـ«أفنتان»[411] (Aventin) على ضفة نهر تيبر، على ذكرٍ لما يُسمّى «ضريبة على المواد الغذائية» (ansarium)، لكنّ النقش يشير فقط إلى أنّ «كلّ ما يدخل ويكون في خانة الاستخدام الشخصي يجب ألّا (يدفع) 'الضريبة على المواد الغذائية'»، من دون تحديد موضعٍ محدّد. أمّا المظهر المادي لـ«حواجز» رسم العبور، فيمكن استنتاجه من أحد الأصول المحتملة لاسم أحد شكلي الرسم الذي ربّما اشتُقّ، ككلمة «الرسم الجمركي» (foricularium) من التصغير (foriculae) الذي كان يشير إلى أبوابٍ صغيرة. ونفكّر أيضًا بـ«ضريبة التخوم» (finis vectigalis) التي كانت أوضح وأسهل استدلالًا عليها في المشهد الروماني، وقد أعاد

(411) أفنتان: إحدى التلال السبع التي بنيت عليها روما القديمة.

كلوتير الثاني[412] (Clotaire II) وداغوبير[413] (Dagobert) النظر فيها عبر مصطلح (vectigalis portoria) واعترضا عليها، إذ أرادا إلغاءها، لأنّها بحسب تقديرهما تمثّل إحدى بقايا الهمجية.

في العصر الوسيط، كانت العادة تقضي بأن تكون أبوابٌ معيّنةٌ تحت رعاية مؤسّساتٍ دينيةٍ أو عائلاتٍ أو أفرادٍ رفيعي المقام، كما كان يحدث أن يكون الباب مكان التقاء سيّد بمدينة، وأن يصبح ـبعد مفاوضاتٍ لاذعةٍ مع المشرفين على المدينةـ «بابه» الخاصّ بصورةٍ رئيسية، أي المكان الذي يقف فيه ليراه الناس. وقد رأينا بالنسبة إلى الدخولات المهيبة، كيف كان عبور العتبة المحسّنة في تلك المناسبة بتزييناتٍ مؤقتة، تصاحبها تظاهرةٌ جماعيةٌ ومواكب وكلماتٌ بروتوكولية، يتمّ أساسًا لفرضه على الجميع. وهكذا، كان يمكن أن تساهم ملكية بابٍ وبعض الدخولات الرمزية مساهمةً كبيرةً في تعزيز سلطة عظيمٍ ما، أو تأكيد سيادة سيّدٍ، بل وتنصيب ملك، ناهيك بالمنافع المادية التي يمكن استقاؤها منها. تذكّر دونيس[414] (Denys) بأنّ «أشكال التحكّم المفرط، وكذلك السجالات أو النزاعات أو المطالب (بما في ذلك في العام 1789) بصدد توقيت إغلاق الأبواب وفتحها تتجاوز عواقبها العملية، ولاسيّما في الأماكن الحصينة، وتكشف تبايناتٍ ليس بين القضاة ومقاولي تحصيل الرسوم، بين المدنيين والعسكريين، بين الأمن الاستراتيجي والمنطق الاقتصادي فحسب، بل بين الحضريين والقرويين، أو بين البروتستانت والكاثوليك».

---

(412) كلوتير الثاني (584 ـ 629)، ملك نستوريا وملك الفرنجة.

(413) داغوبير الأول (603 ـ 639)، ملك اوستراسيا وملك الفرنجة كافّةً (629 ـ 634) وآخر الملوك الميروفينجيين.

(414) كاترين دونيس (1960 ـ)، أستاذة تاريخ في جامعة ليل. تتطرّق أبحاثها إلى تاريخ الشرطة في القرن الثامن عشر والتاريخ العسكري وتاريخ المدن.

عندما اختفت الصورة القروسطية للمدينة بوصفها عالمًا منفصلًا، أصبح صعبًا على هذه الأخيرة أن تحرم نفسها من أيّ تخمٍ متطوّرٍ تطوّرًا كافيًا، من أيّ عتبةٍ مهما كانت مؤقّتة، ومن «حدّ رسم العبور» الذي يحيل المرء منذ وقتٍ طويلٍ وبطريقةٍ صادمةٍ ومتعثّرةٍ إلى تبصيره بدخوله المدينة، وذلك قبل ممارسة التحليل النفسي المدفوعة الثمن.

منذ أن دُمّرت الأسوار، كان دفع رسومٍ على مختلف السلع لدى دخول باريس يطرح مشكلة، فحيثما نُصبت حجارةٌ تحدّد بداية باريس، أقيمت في نهاية كلٍّ من الشوارع الرئيسية حواجز خشبيةٌ تقوم مقام الأبواب. ولراحة المحصِّلين المكلَّفين بقبض رسوم العبور، أقام مقاولو تحصيل الرسوم مكاتب مصنوعةً من الألواح الموضوعة على عجلاتٍ تدعى «بكرات» وتسمح بنقل كلّ مكتبٍ وفق تطوّر تعيين حدود المدينة. لكنّ التهرّب كان سهلًا وشائعًا، وفي نهاية المطاف استصدر مقاولو تحصيل الضرائب من لويس الرابع عشر، قرارًا بأن يحلّ محلّ هذه الحدود وهذه البكرات سورٌ متواصلٌ بدأ بناؤه في العام 1784 وانتهى في العام 1787.

لقد أدّت حصيلة رسم العبور والنواتج الضريبية لهذا التصميم المكاني، الذي يهدف قبل كلّ شيءٍ إلى تغذية المالية المحلّية، إلى مطبخٍ صُنعت مكوّناته من العجين البشري بمقدار ما صُنعت من التدفّقات الاقتصادية، من مأمورين بالدفاع الحضري والمحافظة على النظام العام بمقدار ما، من فلّاحين مستنزَفين، من بورجوازيين قلقين على مدينتهم ومَحافظهم، ومن أقوياء مستثنين. وأنتج المجموعُ مادّةً استهلاكيةً زاخرةً بالعصائر، غير أنّ طعمها السرمدي هو طعم مذكّراتٍ هوياتية، كان كثيرٌ من الناس يجدونه مرًّا.

الشهادات حول الحواجز ورسم العبور القادمة من «عامة الناس» (vulgum pecus) هي دائمًا سلبية. لكن بعيدًا عن التظلّمات

المتوقّعة والمنطقية، تقدّم لنا هذه الشهادات معلوماتٍ ثمينةً عن الارتباكات، بالمعنى الأوسع للمصطلح، التي كانت تثيرها مكاتب التحصيل على أبواب المدن. بطبيعة الحال، أكثر الناس تأفّفًا هم الذين سيُسمِعون صوتهم أكثر، وأقصد بذلك الباريسيين. هكذا، وفي كتاب **لوحة باريس** المنشور في العام 1782، ومؤلفه سيباستيان ميرسييه رجلٌ من الشعب وملاحِظٌ عظيم، يبدأ فصل «الحواجز» بتعريفٍ ساخر: «تكون عادةً من خشب التنّوب، ونادرًا من الحديد، لكنّها يمكن أن تكون من الذهب الخالص إذا استُخدم ما تدرّه لصنعها من هذا المعدن». ومن أجل الإشارة إلى أنّ عدم المساواة والجور يسيطران في مكاتب رسم العبور في المدينة الملَكية، يوضح أنّه «يُسمح فيها بعبور (عربات) الأمراء والوزراء فحسب». يعبّر الاحتقان العام ضد رسم العبور في تلك الأوقات التي سبقت الثورة، تعبيرًا جيّدًا عن تململ عامّة الشعب والفلاحين والبورجوازيين واشمئزازهم لأنّهم يدفعون رسومًا هي عينها التي يدفعها الأغنياء، رسومًا مجحفة، لأنّها لا تتناسب مع دخل المرء. وكما هي العادة، عندما يشعر المرء بالضغينة، يشتكي عند الكوّة، وعامل الكوّة هو الذي يجب عليه أن يتلقّى كلّ شيء. يحكي ميرسييه كيف يتمّ ذلك: «على الحواجز، يتقدّم مؤتمنٌ يرتدي حلّة مراسم ويكسب مئة بستولة[415] بائسة في السنة، عينه مفتوحةٌ على الدوام، لا يحيد أبدًا خطوةً، ويستطيع أن يرى فأرًا وهو يمرّ، يتقدّم إلى باب كلّ عربة ويفتحه فجأةً ويقول لك: 'هل لديك ما يخالف أوامر الملك؟'، يجب أن تكون الإجابة على الدوام 'انظر'، ولا شيء غير ذلك أبدًا، عند ذاك يصعد المؤتمن ويقوم بالزيارة المزعِجة

(415) البستولة (pistole): عملةٌ ذهبيةٌ كانت مستخدمةً في بلدانٍ عديدة، صُكّت بدايةً في إسبانيا منذ النصف الأول من القرن السادس عشر. على أثر ذلك، أُطلقت التسمية على كافّة العملات الذهبية الأوروبية التي تعادل قيمتها العملة الإسبانية.

وينزل ويغلق الباب. [...] إذا كان جيبك منتفخًا، يمسّه المؤتمن. تُفتَح الحزم كلّها. [...] هل أنت حرَفيٌّ أو تاجر؟ ستذهب حزمة بضاعتك إلى الجمارك. وعندما ينتظر المستهلك البضاعة، يأتي رجالٌ يقولون لك: «قم بفكّ هذا كلّه كي أرى، كي أفحص، كي أزِن وكي أرسّم ذلك كلّه».

يضاف إلى ذلك، وكما على كلّ الحدود، طابع التشكيك والتدقيق لدى الإدارة التي «تقوم بعملها»، وهو أمرٌ صحيح، لكنّها لا تساهم في تهدئة الدخولات: «يدفع المرء ويدخل عشرة مكاتب، يحصل على عشرين توقيعًا من أجل حزمة بضائع أو حقيبة. إذا كان بحوزتك كتب، يرسلونك مرّةً أخرى لجولةٍ صغيرةٍ في شارع فوان (Foin)، إلى الغرفة النقابية، وسيعلم مفتّش المكتبة ما هو ذوقك في القراءة.

مهما تمتمت واشتكيت وحكيت وبرهنت على أنّ هذا جنونٌ وسُعار، على أنّ إعاقة التجارة تعني منع الدولة من الإثراء، فلن يسمعك مؤتمنو الجمارك ورجالها الأقوياء، وكأنّ هذه الرزم مصادرة، كأنّها ملكٌ لهم ولن يعيدوها إليك إلّا بدافع السخاء المحض».

يضاف الازدحام إلى ضروب التنغيص الإداري: «في بعض أيام الأسبوع، تأتي الأبقار التي تُغلق المعبر لما يزيد على ساعتين، يجب أن تتركها تمرّ، لقد أُغلق الباب الرئيسي وفُتح بابٌ صغيرٌ لا يسمح إلا بمرور الحيوان، يعدّ المؤتمن القطيع كلّه».

لا أعلم إن كانت قطعان الأبقار المعدّة لتغذية أهالي باريس تصل إلى الأبواب كلّها، غير أنّ سيباستيان ميرسييه يضع في حاشية نصّه عن «الحواجز» أنّه كان في باريس آنذاك «ستّون حاجزًا على رأس الضواحي ومخارجها، أربعة وعشرون حاجزًا رئيسيًّا، ومدخلان عبر الماء، عن طريق زورقين».

بعد سبع سنواتٍ من ذلك، اندلعت الثورة الفرنسية ويمكننا توقّع ألّا يسمح الشعب باستمرار سوء معاملته على هذا النحو وبـ«جزّه» على كلّ مدخلٍ من مداخل المدن «المحررة»، ولاسيما في «مدن» صاحب الجلالة «الجيدة». أخيرًا، ولفرح الجميع أو غالبيتهم العظمى، أُلغيت في أيار/ مايو 1791 «رسوم الدخول» على الحواجز. بكلّ تأكيد، استُقبل هذا الإلغاء بوصفه لحظةً قويةً من الحرية، وعلى الأقلّ بوصفه تعبيرًا حقيقيًّا عن استيلاء الشعب على السلطة ضدّ النظام القديم. عندما أعلنت الجمعية الوطنية[416] «إلغاء حواجز باريس في شهر أيار/ مايو القادم، 1791»، أطلقت صحيفة **لوبير دوشين**[417] (*Le Père Duchesne*) العنان لفرحها. وقد نشرت قبل تطبيق المرسوم أغنيةً عن «إلغاء حقوق الدخول وطرد المؤتمنين» تُغنّى على لحن **الفأل الحسن** (*La Bonne Aventure*):

افرحوا أيها الفرنسيون [...]
جميع المؤتمنين أُنهكوا
لم يعودوا يفتّشون عندنا

- عاشت الجمعية، مرحى، عاشت الجمعية! [...] لم تعد هنالك زياراتٌ للرزم

---

(416) الجمعية الوطنية (Assemblée nationale): أسّستها الجمعيات العامّة الاستثنائية التي كانت تجمع النبلاء ورجال الدين والطبقة الثالثة، وكان الملك يستدعيها لمعالجة أزمةٍ سياسيةٍ معينة، بصورةٍ عامّةٍ حرب أو مسألة دبلوماسية، واتّخاذ قرارٍ يتعلّق بمساعدةٍ عسكريةٍ أو ضريبية. نصّبت هذه الجمعيات العامّة نفسها لتشكيل الجمعية الوطنية بتاريخ 17 حزيران/ يونيو 1789، وهو التاريخ الذي يُعدّ تاريخ ولادة النظام التمثيلي الفرنسي.

(417) لوبير دوشين: اسم صحفٍ شتّى ظهرت بأقلامٍ عدّة أثناء الثورة الفرنسية. استعارت هذه الصحف اسمها من شخصيةٍ نمطيةٍ من القرن الثامن عشر، تمثّل رجل الشعب المندفع على الدوام لشجب التجاوزات وصنوف الظلم.

ـ وداعًا أيّتها الحواجز، مرحى، وداعًا أيّتها الحواجز!

(اللازمة)

ـ سوف نشرب بوفرة،

النبيذ والجعة

وماءَ الحياة بكؤوسٍ مليئة،

مؤونة كاملة:

الثور والبقرات والعجول،

الزبدة والبيض

(اللازمة)

[...] لجميع المؤتمنين المساكين

يقولون لهم إنّهم ضمنوا الجبنة لأنفسهم

(اللازمة)

ـ نستطيع أن نذهب للبحث

فوق الحدود

من أجل الربح والنفع

عمّا هو ضروري

من دون خشية تعرّض هؤلاء المؤتمنين لنا

بالوقاحة والازدراء

(اللازمة)

ـ [...] لم يعد لدينا مكاتب. آهٍ كم هو أمرٌ حسن!

مرحى، كم هو أمرٌ حسن.

تأتي هذه الأغنية لتعزيز توصيف ميرسييه وتقدِّمُ فكرةً عن عدم شعبية رسم العبور، بل عن الاحتداد العام الذي كان يثيره. غير أنّ «حرّية الدخول هذه» لم تكن إلّا تواريًا وجيزًا بقي حتى 18 تشرين الأول/ أكتوبر 1798 حيث، أعاد القنصل بونابرت[418] (Bonaparte) رسم العبور في باريس ثمّ في مجمل البلاد، بحجّة ضرورات المساعدة العامة. على مدى القرن التاسع عشر، شكّلت الضرائب المحصَّلة باسم رسم العبور المصدرَ الرئيس لموارد المدن الفرنسية، غير أنّ المقلب الآخر لهذه الإجراءات الضرورية للدولة تمثَّلَ في إعادة إغلاق أبواب المدن. بقي «الحاجز»، ولاسيما موارده، هوسًا لدى السلطات وخبراء الضرائب العتاة، فبالنسبة إلى السلطات، المداخل أدوات غربلةٍ وتبدو لها الحواجز الوسيلة الوحيدة لمراقبة التهريب والتحكّم به وضمان الحفاظ على النظام في حالات الاضطرابات وأثناء الأعياد والاحتفالات الحضرية الكبيرة، وبالنسبة إلى خبراء الضرائب هي طريقةٌ حسنةٌ للوقوف في وجه مقاومة البلديات، مقاومة رغبتها الكامنة في الاستقلالية الحضرية، كما أنّها الوسيلة الوحيدة «المعتادة» لتحصيل الرسوم على المنتجات الشائعة، فضلًا عن كونها مصدرًا هائلًا للدخل الملموس!

في فصلٍ بعنوان «سكّان العاصمة»، يقدّم لنا سيباستيان ميرسييه أيضًا نظام أفكارٍ لما كان يمكن أن تقدّمه رسوم العبور في أواخر القرن الثامن عشر، حيث يمكن أن يعبر في بعض الأيام أكثر من «ستين ألف عربة»: «وفق هذا التدفّق الذي لا يمكن تصوّره والذي يدهِش أكثر العيون اعتيادًا

---

(418) نظام القناصل: نظامٌ سياسيٌّ فرنسي نتج عن انقلاب 18 برومير في العام الثامن للثورة (9 تشرين الثاني/ نوفمبر 1799) الذي قلب نظام المديرين. أقرّ الدستور آنذاك نظامًا سياسيًّا تسلّطيًّا يقوده ثلاثة قناصل نظريًّا، ويقوده عمليًّا القنصل الأول نابليون بونابرت الذي أصبح قنصلًا مدى الحياة في العام 1802. دام نظام القناصل حتى 18 أيار/ مايو 1804، حيث انتهت الجمهورية الفرنسية الأولى وأُعلنت الإمبراطورية الأولى.

على هذا المشهد، لن نفاجأ إن علمنا أنّ مدينة باريس وحدها تجلب لملك فرنسا حوالى مئة مليون سنويًا، إذا ما شملنا كلّ شيء، الدخولات وضريبة العُشر[419] وضريبة الرأس وجميع صنوف التكليف الضريبي التي يمكن أن تشكّل قاموسًا. يتجدّد هذا المبلغ المخيف الذي تنتجه منطقةٌ ضيّقةٌ بهذه الدرجة كلّ عام، وعندما يُطلِق الملوك الفرنسيون على العاصمة تعبير 'مدينتنا الجيدة باريس'، فليس ذلك من دون سبب: إنّها البقرة الحلوب الجيدة. في عهد لويس البدين[420] (Louis le Gros)، كانت مداخل باريس تدرّ ألفًا ومئتي ليرة».

في العام 1815 ومع لويس فيليب، أراد آل بوربون[421] (Bourbons) إلغاء رسوم العبور، غير أنّ جمهوريي العام 1848 رفضوا هذه الفكرة، على الرغم من شعارات «عاشت الجمهورية، تسقط رسوم العبور!» التي أطلقها المتمردون. وفي عهد الإمبراطورية الثانية[422]، بلغ من احتدام السجالات بهذا الصدد أنْ أطلقت الحكومة الإمبراطورية تحقيقًا واسعًا حول هذه المسألة.

---

(419) ضريبة العشر: ضريبة مؤقتة فُرضت في العام 1710، في السنة التي أعقبت المجاعة الكبيرة وفي خضمّ حرب وراثة الملكية في إسبانيا. عُلقت جزئيًا بين العامين 1717 و1741، ثمّ أصبحت دائمةً بعد ذلك.

(420) لويس البدين (1081 ـ 1137)، هو لويس السادس ملك فرنسا (1108 ـ 1137).

(421) آل بوربون: سلالةٌ حكمت فرنسا وإسبانيا من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر.

(422) الإمبراطورية الثانية: نظامٌ دستوريٌّ وسياسي أُقيم في فرنسا بتاريخ 2 كانون الأول/ ديسمبر 1852 عندما أصبح لويس نابليون بونابرت رئيس الجمهورية الثالثة إمبراطورًا للفرنسيين باسم نابليون الثالث. وقد حلّ هذا النظام السياسي محلّ الجمهورية الثانية وسبق الجمهورية الثالثة.

في العام 1880، وفي صدًى لأصحاب الأعمال الليبراليين الباريسيين الذين رأوا في رسوم العبور عقبةً أساسيةً أمام التطوّر الاقتصادي، صرّح رئيس غرفة تجارة باريس جورج لوسيور (Georges Lesieur) قائلًا: «كيف يمكن أن نقرّ بعد الآن بأن تبقى هذه الجمارك الداخلية التي تعزل الأهالي وتعيق التجارة والصناعة وتؤدّي إلى أسوأ العواقب على الحياة الاقتصادية العامة في حاضرتنا الكبيرة التي تحييها قوّةُ توسّعٍ متزايدة وترى كلّ يومٍ وسائل التجوّل فيها تتعدّد وتنشأ أوثق العلاقات بين أهالي المدينة وأهالي الريف؟».

لم يشأ أحدٌ أن يسمع الأقوال المنفلتة من عقالها المفرطة في حداثتها لهذا المناصر لليبرالية، إذ إنّ العقلية الريفية القديمة المألوفة حيث يمكن أن نرى ونعدّ كلّ يومٍ ثروتنا سادت على فكرة رأسماليةٍ لا حدود لها وبقيت رسوم العبور. يجب إدراك حجم النقود التي كان يمثّلها تحصيل الأموال هذا على المداخل. في عمل فيليب لاكومبراد[423] (Philippe Lacombrade) عن **فشل إلغاء رسوم العبور الباريسية في الحقبة الجميلة**[424] (*L'Échec de la suppression des octrois parisiens à la Belle Époque*)، يذكر المؤلّف على سبيل المثال كيف ضمّت الـ55 مدينة الأكبر في فرنسا في العام 1896 حوالى نصف الـ13 مليون شخص الخاضعين لرسوم العبور، واقتطعت المدن الاثنتا عشرة التي يزيد عدد سكانها عن 100 ألف نسمة 64.5 في المئة

(423) فيليب لاكومبراد، دكتور في التاريخ المعاصر، مكلّفٌ بالتدريس في جامعة مونبيلييه الثانية. له كتاب بعنوان **فرنسا في القرن التاسع عشر، من 1814 إلى 1914**.

(424) الحقبة الجميلة: حقبةٌ تمتدّ في أوروبا من أواخر القرن التاسع عشر إلى العام 1914، حين بدأت الحرب العالمية الأولى. وقد تميّزت تلك الحقبة بالتقدّم الاجتماعي والاقتصادي والتقني والسياسي. وقد وُلد المصطلح بعد الحرب العالمية الأولى ليشير إلى الحقبة السابقة للحرب العالمية واللاحقة للانهيار الاقتصادي من العام 1870 إلى العام 1896.

من الضرائب، في حين حصّلت باريس وليون ومرسيليا وحدها 54.6 في المئة. في باريس، اقتطعت مكاتبها الأربعة والأربعون 47.7 في المئة من مجمل الرسوم، 63.2 في المئة من الضرائب على النبيذ (مشروب صحي) و50 في المئة من الضرائب المقتطعة عن الكحول. أصبح هنالك تساهل، ففي العام 1897، توصّلت حكومة ميلين[425] (Méline) إلى التصويت على نصٍّ لإلغاء الرسوم على «المشروبات الصحية» (النبيذ وخمر التفاح والجعة)، «أرادوا إحداث شرخٍ في هذه العقبة التي تدعى رسم العبور والتي تحيط بالمدن»، هذا ما صرّح به نائبٌ قريبٌ من مجموعة الضغط المكوّنة من المدافعين عن «المشروبات الطبيعية»، كما أنّ المجلس البلدي في باريس تخيّل بدوره «إلغاء الرسوم المحصّلة في مكاتبه». لكن عندما يمسك المرء بغلّةٍ (recette) ما (من كلمة recepta اللاتينية، أي الأشياء المتلقّاة) فإنّه لا يفلتها! إذ على الرغم من موقف الاشتراكيين الباريسيين الذين رأوا في رسوم العبور «رسومًا يُحكم عليها بأنّها كيديةٌ ومعاديةٌ للديموقراطية»، لم يتحرّك شيء. على العكس من ذلك، وفي الطرف المقابل، دافع اليمين واليمين المتطرّف عن ذلك الرسم بثبات. عندما حظي القوميون بفوزٍ كبيرٍ في انتخابات أيار/ مايو 1900 البلدية، وبعد أن كانوا صبّوا انتقاداتهم على المضاربين السيئين والعمال الأجانب، اقترحوا تعزيز رسوم العبور، وأن تشمل «رسمًا على الأجانب»، مؤكّدين: «رسومنا مبرّرةٌ من وجهة النظر القومية والاشتراكية والاقتصادية». تعرّض طرحهم للجدل والنقاش، وفي نهاية المطاف وعبر التقارير والترتيبات والمراسيم المتناقضة، تناقص ما يدرّه رسم العبور على البلديات. عشيّة العام 1914، كان الناس لا يزالون يدفعون رسمًا على المشروبات والمأكولات والمحروقات والخشب

(425) حكومة جول ميلين: بقيت من 24 نيسان/ أبريل 1896 إلى 28 حزيران/ يونيو 1898، في عهد الجمهورية الثالثة التي أقرّت فصل الكنيسة عن الدولة.

المخصّص للصناعة ولوازم البناء والأعلاف على مداخل باريس، غير أنّ النفقات المرتبطة بتحصيل رسوم العبور أصبحت أثقل فأثقل على ميزانية البلديات. كان الناس عندما يعودون من الأرياف معتادين على التوقّف لدفع رسم في «المكتب» عن الأرنب وطائر التدرج والبطّة وفخذ الخروف ولاسيما عن المشروبات، ويحصلون مقابل ذلك على إجازةٍ تثبت أنّهم سدّدوا الرسم، ويستطيعون دخول المدينة متخفّفين (من حافظة النقود) وضميرهم مرتاح. لكنّ الرسوم واصلت إرهاق ميزانية أكثر المواطنين تواضعًا، وكانت تعليقات الصحافة عليها أسوأ فأسوأ، غير أنّها صمدت. أخيرًا وفي العام 1940، وصل إلى أبوابنا الألمان، الذين نستطيع أن نتخيّل أنّهم لم يسألوا عندما مرّوا تحت قوس النصر إن كان يجب دفع رسمٍ على الأسلحة كلّما دخلوا مدينةً ما. في نهاية المطاف، وبتاريخ 2 تموز/ يوليو 1943، ألغى لافال[426] (Laval) تحت وصايتهم وفي إطار نظام فيشي[427] (Vichy) بجرّة قلمٍ وجودًا لرسوم العبور امتدّ عدّة قرون. وقد أُعلن رسميًّا عن إلغائها في عهد جمهوريةٍ أكثر شرعيةً في العام 1948.

الجميع إلى الحدود

جميعنا أو أغلبيتنا العظمى مزوّدون بجواز سفر، وهو شهادةٌ توضع في الجيب وتُصدِرها سلطةٌ تضمن لنا، وفق مرسوم لويس الحادي عشر

(426) بيير لافال (1883 ـ 1945)، لعب دورًا مهمًّا في حكومة فيشي وتولى رئاسة الحكومة من 18 نيسان/ أبريل 1942 إلى 19 آب/ أغسطس 1944. أُعدم رميًا بالرصاص في 15 تشرين الأول/ أكتوبر 1945 في السجن بتهمة الخيانة العظمى والتآمر على أمن الدولة الداخلي.

(427) نظام فيشي: نظامٌ سياسيٌّ أداره الماريشال فيليب بيتان وكان مركزه فيشي، حكم فرنسا أثناء الحرب العالمية الثانية من 10 تموز/ يوليو 1940 إلى 20 آب/ أغسطس 1944 بعد احتلال القوّات المسلّحة التابعة للرايخ الثالث البلاد.

في العام 1464، تجوّلنا بحرّيةٍ في أراضٍ محددة. هذا «الذهاب والقدوم» الآمن، المستخدَم منذ القرن الثالث عشر، أي بعبارةٍ أخرى هذا «السلوك الآمن»، شكلٌ بسيطٌ لـ«شهادةٍ» يمكن حملها، أي أنّها صكٌّ غير مختومٍ يسلّم باسم صاحب الأراضـي، كـان يتيح إذًا عبور بعض المناطقَ والتجوّل فيها مع ضمان عدم توقيف صاحبه بما أنّه يخوّله بذلك رسميًّا. أُلغي «جواز السفر» (passe-port) (1420) الذي كان يمنحه أميرٌ ما لبعض الأشخاص الراغبين في دخول أراضيه والخروج منها والسفر فيها بحرّيةٍ في بداية الثورة الفرنسية باسم حرية تنقّل الأشخاص، وهذا أحد أوائل الحقوق التي أعلنها دستور العام 1791. لكن بعد هرب الملك إلى فارين[428] (Varennes)، أُعيد بموجب المرسوم الصادر في الأول من شباط/ فبراير 1792 وعاد إلزاميًّا لكلّ شخصٍ يريد أن يسافر في البلاد، بل أصبح بموجب مرسوم 18 كانون الأول/ ديسمبر 1807 وثيقةً تسمح للمواطن بمغادرة المقاطعة التي يقيم فيها ويحظى بعد تزوّده بـ«تأشيرة» (visa) (1522) بموافقةٍ مؤقتة على عبور الحدود الوطنية.

وجب مرور زمنٍ كي تُختَرَع حدود كالتي نعرفها اليوم، ولاسيّما كي تفلت من معناها الأول، أي كي تشير إلى شيءٍ آخر غير الساحة المحصّنة التي تقوم مقام «جبهة» (front) (1292) أمام العدو. قرابة العام 1360 فقط، اتخذت كلمة الحدود (frontière) معنى الحدّ الفاصل بين أرضين، وأشارت استطرادًا إلى الحد المشترك بين منطقتين، وباتت في النهاية تشير إلى الحدّ الفاصل بين دولتين (1770). إذا ما تتبّعنا تطوّر الحدود في أوروبا منذ حرب الثلاثين عامًا (1618 ـ 1648) إلى المرة الأخيرة والحديثة، حيث أعيد الكلام عن الحدود لإلغائها

(428) فارين: بلدةٌ فرنسيةٌ تقع شمال شرق فرنسا، اشتُهرت لدى اعتقال لويس السادس عشر وعائلته فيها بتاريخ 21 حزيران/ يونيو 1791 أثناء محاولة هروبٍ فاشلة. احتلّتها القوات الألمانية في مطلع الحرب العالمية الأولى.

أثناء معاهدة ماستريخت[429] (Maastricht) في العام 1992، نلاحظ أنّ لدينا هنا تاريخًا بشريًا ساذجًا من «فتح» المعابر و«إغلاقها» أقيم ضدّنا نحن. في كلمة حدود (frontière) كما سبق لي أن أشرتُ، لدينا كلمة «جبهة» (front)، أي خطر مواجهة، خطر تنافسٍ وتدمير، حيث تتقابل المطامح القومية الداخلية أو المطامح فوق الوطنية منذ صعود الجنسيات، التي ولّدت معظمَها في لحظةٍ ما كوابيسُ قومية التوجّه، أي بعبارةٍ أخرى قصص أبوابٍ نريد أن نَصْفِقها في وجه شخصٍ آخر كي لا نفقد ماء وجهنا، شخصٍ آخر نطلب منه بعنادٍ «جواز عبور- باب» (passe-porte) وفق الأصول، وهو جواز سفرٍ لم نعد ندين به للعاهل أو ممثليه وحدهم، بل يستند إلى تلك الفكرة المجرّدة والحديثة، فكرة السيادة الوطنية. لم أرَ يومًا بابًا تقليديًا يقوم بثورةٍ كاملةٍ على نفسه، لكنّي سمعت وقرأت كثيرًا عن شعوبٍ تقوم بالثورة، وهي ثورةٌ تبدأ كلّ مرة، وفي خضمّ الحماسة، بإلغاء الحدود في اليوم الأوّل، لكنّها تعيدها مباشرةً في اليوم التالي، تمامًا مثلما تقترح جواز سفرٍ جديدًا متكيّفًا مع الإيديولوجيا الجديدة القائمة. وعلى الرغم من الإدراك الأنثروبولوجي لحتمية إحلال التحالف والسماحة والتجارة محلّ الحرب والعزل والركود، مثلما لاحظ مارسيل موس[430] (Marcel Mauss)، من المثير

(429) معاهدة ماستريخت: كانت تدعى سابقًا معاهدة الاتحاد الأوروبي، وقّعت عليها الدول الأعضاء في الجماعة الأوروبية في العام 1992 بمدينة ماستريخت في هولندا، وذلك بعد أن استضافت المدينة عينها في 9 و10 كانون الأول/ ديسمبر 1991 المجلس الأوروبي الذي وضع مسودة المعاهدة. دخلت حيّز التطبيق في الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر 1993 وأفضت إلى نشوء العملة الأوروبية المشتركة، اليورو.

(430) مارسيل موس (1872 - 1950)، يعدّ «أبا الأنثروبولوجيا الفرنسية» وكان ابن أخت إميل دوركايم. نال إجازةً في الفلسفة ودرس اللغات (ولاسيما السنسكريتية) والعلوم الدينية بهدف جمع المادّة اللازمة لأطروحة دكتوراه عن الصلاة. نشر مقالاتٍ عديدة في مجلة **الحوليات** السوسيولوجية. وقد ابتكر مفهومًا حديثًا هو «الواقع الاجتماعي الكلي».

للدهشة أنّنا لا نزال نتمسّك بالحدود، بل نبني فيها جدرانًا، إذ نكتشف أنّها تبقى منطقة تماسٍ هشّة يسهل تأجيجها. كان فيكتور هوغو[431] (Victor Hugo) يحلم بتجاوزٍ للحدود ليكون وعدًا بالسلام المستدام. وعندما أراد أن يترك الأبواب جميعًا مفتوحةً، كان يتنبّأ بألّا يبقى في القرن العشرين سوى أمّةٍ واحدة، أمّةٍ خارجةٍ عن المألوف «ستكون كبيرةً وحرّةً وغنيّةً ومفكّرة وسلميةً وودّيةً تجاه بقية البشرية»، وفي ذلك كان يفكّر بأوروبا. نحن في القرن الواحد والعشرين، وصحيحٌ أنّ الحواجز قد فُتحت تقريبًا على قارّتنا، لكنّ جوازات السفر لم تتبع انمحاء حدودنا. لا يمكن أن نخترع لأنفسنا عالمًا خاليًا من الجدران والأبواب بهذه البساطة، حتّى إذا كانت بوّابات الإنترنت تسمح بكلّ صنوف العبور الذهني الممكنة وتدفعنا للاعتقاد بأنّنا دخلنا في مصيرٍ شاملٍ للعالم. لا تزال المجتمعات، والسياسيون أكثر منها، تقاوم وتخترع لنفسها قواعد ترغب في أن تكون ثابتة، لكنّ تيارات الهواء العالمية الهائلة التي تتغلغل كلّ يومٍ أكثر تحت أبوابنا لا تني تقلب تلك القواعد. والمفارقة أنّ الناس لم يحلموا يومًا بهذا المقدار بفتح الحدود، ولم يبنوا يومًا هذا الكمّ من الجدران على الحدود: أميركا / المكسيك، إسرائيل / غزة، أفريقيا الجنوبية / زمبابوي، العربية السعودية / اليمن، أوزبكستان / قرغيزيا، الصين / كوريا الشمالية... وغيرها. إنّها جدرانٌ تسدّ وتخيف وتمنع وتبرّد، منسوخةٌ من تلك التي نُصبت بتلك الاعتباطية أثناء الحرب

(431) فيكتور هوغو (1802 ـ 1885)، شاعرٌ وكاتبٌ مسرحيٌّ رومانسيٌّ فرنسي، يُعدّ أحد أهمّ الكتّاب باللغة الفرنسية؛ كما أنّه شخصيةٌ سياسيةٌ ومثقفٌ ملتزمٌ لعب دورًا عظيمًا في تاريخ القرن التاسع عشر. من أهم رواياته **نوتردام باريس** (*Notre-Dame de Paris*) (ترجمت إلى العربية بعنوان **أحدب نوتردام**) (1831) **والبؤساء** (*Les Misérables*) (1862). لعب دورًا سياسيًّا في المجلس التأسيسي والمجلس التشريعي، ولاسيما بصدد عقوبة الإعدام. وقد نُفي لمدة عشرين عامًا في عهد الإمبراطورية الثانية.

الباردة. وهي استثماراتٌ ماليةٌ وماديّةٌ نعلم على الرغم من ذلك أنّها منذورةٌ للاختفاء مثلما اختفت الخطوط الحدودية الرومانية منذ اليوم الذي لم تعد فيه إلّا دفاعيةً ولم تعد تحمل دلالاتٍ ثقافيةً وحضارية. لكنّ الأكثر فرادةً في هذه الحكاية، فضلًا عن الذهان الهذياني المعاصر للإرهاب، هو أنّ الأمر يتعلّق بخاصّةٍ بوضع سدودٍ أمام فقراء، أمام محرومين من الأراضي، أمام طالبي لجوءٍ ملاحقين، وبعبارةٍ أخرى هي ممارسةٌ واضحةٌ لحقّ عدم الضيافة بهدف الحفاظ على حقّ ضيافةٍ لا يكون مقبولًا إلّا ضمن الحدود التي أُقيمت بين المجموعات الموسرة. تهدف جميع استراتيجيات هذه الحواجز المادية إلى إزالة أوهام القادم، إلى القول مجدّدًا إنّ من ليس مدعوًّا وليس منتَظَرًا وليس لديه «جواز عبور الباب» غير مرحّبٍ به. بطبيعة الحال، تغيّر تقدير هذا الآخر على مدى القرون، وباعترافٍ أو بعدم اعترافٍ بالانتماء إلى مجتمعٍ أو إلى ثقافةٍ مهيبةٍ كانت في الماضي تُقوَّم عاليًا في نظر الأمم الأخرى، فإنّ على مَن يتقدّم اليوم إلى الباب أن يُبرِز معايير تستند إلى مستوى الحياة في بلده الأصلي. تكمن الخشية في أن يأتي «الداخل» الجديد ليثير الاضطراب في هذا السباق المجنون والرائع نحو الرفاهية الماديّة لواحدٍ من هذه البلدان التي تنظر إلى نفسها بأنّها «غنيّة». يقتضي السكن في الصناديق الحديدية معرفة الرموز إن أردنا فتح الباب.

5

قرن النواطير

«لحسن حظ السيّدة سيبو، أتى الزواج الشرعي وحياة الناطور في وقتهما للحفاظ عليها، بقيت مثل نموذجٍ لروبنز، محتفظةً بجمالٍ ذكوريٍّ كانت منافساتها في شارع نورماندي يفترين عليها بسببه، واصفين إياها بأنّها خرقاء بدينة. كان بالإمكان مقارنة درجات ألوان لحمها بالطلاء اللامع الشهيّ لكتل زبدة إيزينيي[432] (Isigny)، وبغضّ النظر عن بدانتها، كانت تظهِر مهارةً لا تُجارى في الوظائف التي يتطلّبها عملها. كانت السيّدة سيبو تبلغ العمر الذي تصبح فيه مثل تلك النسوة مرغماتٍ على حلاقة شعر وجوههن. ألا يعادل ذلك القول إنها كانت في الثامنة والأربعين من العمر؟ لو أمكن أن يرى دولاكروا[433] (Delacroix) السيّدة سيبو تقبع رصينةً بفخرٍ على مكنستها، لجعل منها بالتأكيد إلهةً للحرب!»

Honoré de Balzac[434], *Le Cousin Pons*, chap. XII, 1847

---

(432) زبدة إيزينيي: زبدةٌ شهيرةٌ تُصنع في بلدة إيزينيي سور مير التي تقع في منطقة النورماندي في فرنسا، على بحر المانش، وتشتهر بصناعة الأجبان والألبان منذ القرن التاسع عشر.

(433) أوجين دولاكروا (1798 ـ 1863)، رسّامٌ فرنسيٌّ من روّاد المدرسة الرومانسية الفرنسية.

(434) أونوريه دو بالزاك (1799 ـ 1850) كاتبٌ فرنسي، روائيٌّ ومسرحيٌّ وناقدٌ أدبيٌّ وفنّيٌّ وباحثٌ وصحافي، ألّف أكثر من تسعين رواية وقصة صدرت بين العامين 1829 و1855، جُمعت بعنوان **الكوميديا الإنسانية** (*La comédie humaine*). أحد كبار الروائيين الفرنسيين، اتّبع أساليب روائية متعددة. وصف صعود الرأسمالية وامتصاصَ البورجوازية طبقةَ النبلاء التي باتت عاجزةً عن التكيّف مع الوقائع الجديدة.

«سويسريو» الأبواب

من كان يحرس أبواب البيوت في باريس؟ الجواب نسبيٌّ، وهو يبقى مرتبطًا ببناء البيوت، ثم ببناء العمارات وبالتطوّر الحضري. البيوت التي يمكن الاستدلال عليها أكثر من غيرها هي الدارات الخاصّة، والتي رأينا أنّها كانت ملكًا بصورةٍ أساسيةٍ لطبقة النبلاء والأحبار والتجّار الأغنياء. حتى بداية الثورة، كان كلّ شيءٍ يتمّ بتقليد الملك والأشخاص الأقوى، ما يسمح لنا بفهم أن يريد كلّ شخصٍ على بابه حارسـ«ـه» السويسري، إلى درجة أنّ بوسعنا أن نقرأ في **قاموس تريفو**[435] (*Dictionnaire de Trévoux*) (1704) ما يلي: «يقال 'سويسري' السيّد فلان، السفير فلان... إلخ، يعني 'البوّاب'. ويأتي ذلك من عادة استخدام 'سويسريين' بوظيفة بوّابين للبيوت الكبيرة في كلّ مكان».

بلغ من سمعة المرتزقة السويسريين في فرنسا أن أصبح وجود «سويسري» في خدمة المرء كفيلًا بتعزيز نوعية الدار التي يخدم فيها، بل عظمة البيت، علاوةً على أنّه ضمانةٌ لحراسةٍ أكيدة.

يعود تاريخنا مع الارتزاق السويسري إلى زمنٍ بعيدٍ نسبيًّا لكنّه يستحقّ ذكره باختصار. في العام 1497، أسّس شارل الثامن فرقة حراسةٍ أُطلقت عليها تسمية «'السويسريون' المئة». وفي العام 1567، أهدى شارل التاسع نفسه كتيبةً من الحراس «السويسريين». كما أنّ هنري الرابع خصّص بعض الفرق لخدمة الحراسة وحدها، ثمّ أسّس لويس الثالث عشر في العام 1616 كتيبةً دائمةً من الحرس السويسريين، وقد وضع أولئك الحرس على أبواب قصوره: في حين كان على

(435) قاموس تريفو: عملٌ تاريخيٌّ يضم القواميس الفرنسية في القرن السابع عشر، كُتب بإدارة اليسوعيين بين العامين 1704 و1771، وأريد منه أن ينافس قاموس فوروتيير لحرمان البروتستانت في هولندا من مواردهم، إذ كانت أعمالهم السجالية تموّل عبر بيع قاموس فوروتيير.

«السويسريين المئة» أن يؤمّنوا حراسة «الداخل»، كان «الحراس السويسريون» مكلّفين بحراسة «الخارج». وقد احتفظ التصوّر الشعبي بخاصةٍ، بذكرى «مجزرة التويليري»[436] الشهيرة التي وقعت بتاريخ 10 آب/ أغسطس 1792 والتي ألغت الجمعية الوطنية على أثرها الوحدات السويسرية، على الرغم من أنّ الجمهورية واصلت استخدام تلك الوحدات في حملاتها. وبعد أن عادت الملَكية إلى الحكم، لم تكن تستطيع الاستغناء عن «سويسرييها» الذين كانوا يمثّلون تجسيدًا مؤسطرًا للإخلاص المطلق وأعادهم لويس الثامن عشر[437] (Louis XVIII) في العام 1814. وقد بقوا على أبواب القصر حتى العام 1830.

لقد كان وجود «السويسريين» على مدى أجيالٍ وطيلة زمن استخدامهم وشيوع استقرار عددٍ لا بأس به منهم نهائيًّا في باريس لدى انتهاء خدمتهم، سببًا في اندماجهم بالسكان الباريسيين، حتى إذا بدا أنّ هؤلاء السكان لم يقدّروهم أبدًا كما يجب مثلما تشهد على ذلك لفظة «السويسريات»[438] (suisseries). كان مصطلح «سويسرية» الذي أشار

---

(436) مجزرة التويليري: أحد الأيام الأكثر حسمًا في الثورة الفرنسية، بعد 14 تموز/ يوليو 1789، إلى درجة أنّ بعض المؤرّخين يصفونه بأنه «ثورةٌ ثانية». فقد استولى الشعب على قصر التويليري، مقرّ السلطة التنفيذية، وكانت تلك منذ بداية الثورة المرّةَ الأولى التي يكرَّس فيها يومٌ ثوري ضد الجمعية الوطنية. تصدّى الحرس السويسريون لمثيري الشغب. كان عددهم حوالى 950 رجلًا، قُتل منهم 600 أثناء المعركة أو في محاولتهم الاستسلام للمهاجمين وقد تولّاهم الغضب بسبب إطلاق النار على الجماهير. سُجن 60 منهم في القصر البلدي وقُتلوا هناك.

(437) لويس الثامن عشر (1755 ـ 1824)، ملك فرنسا ونافار بين العامين 1814 و1824 في حقبة عودة الملكية، باستثناء فترة قصيرة فقد فيها الحكم بعد عودة نابليون في العام 1815.

(438) السويسريات: غرفٌ صغيرةٌ في القرى المحاذية لباريس التي كان سكّانها مرغمين على إيواء جنودٍ سويسريين. للغرفة شبّاكٌ، وهي ترتبط بالمسكن لكن لها بابٌ على الشارع. وهي تتضمّن مدفأة حائطٍ وسريرًا وطاولةً وكرسيًا والأدوات التي يجب تقديمها للسويسري. لم يكن الأهالي يتلقّون من الضيف السويسري أيّ مقابل.

إليه **قاموس تريفو** مخصّصًا «في باريس والقرى المجاورة لتسمية غرفةٍ صغيرةٍ مكرّسةٍ لإسكان جنديٍّ سويسري. بفضل هذه 'السويسريات' التي تكون عادةً منفصلةً عن بقية البيت، لم يكن 'السويسريون' يضايقون مضيفيهم أبدًا».

بل كان في باريس في الدائرة الرابعة عشرة «معبر 'السويسريين'» أو «درب 'السويسريين'» الذي كان يؤدّي إلى بانيو[439] (Bagneux)، حيث كان يتمركز الحرس السويسريون، ويفضي إلى شارع برون (Brune). تحوّل المعبر إلى «شارع درب 'السويسريين'» الذي لم يصمد أمام بناء مستشفيي بروسّيه (Broussais) وسان جوزيف (Saint-Joseph).

كان فوروتيير قد أوضح في قاموسه (1690) بصدد البوابين، أنّ «السويسريين هم بوّابو السادة العظام». كان هؤلاء الرجال «الضخام وذوو السحنة الحسنة» الذين يقفون على عتبة الـدارات المهيبة، يساهمون بمهابتهم في تعزيز البوّابات الكبيرة التي كانت تدافع عن الفخامة الداخلية تجاه الخارج، ويعزّزون بمجرد وجودهم نوعية الساكن. في نسخة العام 1771 من **قاموس تريفو**، نجد توضيحًا بالمقارنة مع الإصدارات السابقة: «'سويسري': هكذا يسمّى 'سويسريٌّ' مؤتمنٌ على حراسة باب بيتٍ كبير. وهو يحمل السيف وحمّالة السيف ولا تُطلق عليه أبدًا تسمية بوّاب. ينتمي 'سويسري' الباب إلى السلك العسكري الخاصّ بالاستعراض. يميّزه زيّه الرسمي دونما التباسٍ عن الخادم العادي ويسمح برفض تسمية بوّاب، بوصفها غير ملائمة». في العام 1792، ذكر سيباستيان ميرسييه بوصفه مواطنًا واعيًا، أنّ «'سويسريّي' الباب [...] يتحدّثون عن سادتهم بوصفهم أندادًا لهم، ويقولون إنّهم خدموهم بمحض المجاملة».

---

(439) بانيو: بلديةٌ في الضاحية الجنوبية لباريس تبعد عن مركز المدينة 7.7 كم.

في عمل جان لوي دوكـور[440] (Jean-Louis Deaucourt) عن باريس ونواطيرها في القرن التاسع عشر، يذكر المؤلّف أنّه كانت لهذا القرب المتخيّل إلى هذا الحدّ أو ذاك سمعةٌ سيّئةٌ في صفوف الشعب، تصل إلى حدّ بثّ شائعةٍ مفادها أنّ بنات البوّابين السويسريين يغتنين، وبأنّه لطول الوقت الذي يمضينه على الباب وعدم مغادرتهنّ فناء الكنيسة، فإنّ «الكاهن الذي يتفحّصهنّ يقبلهنّ ذات يومٍ في المعبد. وهنّ أصلًا يعرفن جميع دروبه...».

وفي أواخر القرن الثامن عشر، كان يُقال عن أولئك المهاجرين السويسريين إنّهم لم يكونوا يأتون إلى باريس إلّا ليكونوا «بوّابين أو مصرفيين، فهذان الوضعان يعجبانهم»، بل كان يؤخذ عليهم أنّهم لم يعودوا يريدون الاندماج ولا التفكير إلّا في العودة.

بقيت هناك كراهيةٌ ما للسويسريين، يشهد عليها ميرسييه في كتابه **لوحة باريس**، الذي يحكي في فصلٍ صغيرٍ بعنوان «'سويسري' شارع الدببة»، عن الطريقة غير المعتادة لتسجيلهم في تاريخ العاصمة الشعبي، فقد ذكر كيف استنكر «السويسريون» أن «يحرق الناس كلّ سنة في الثالث من شهر تموز/ يوليو صورةً لذلك السويسري الثمِل الذي يُقال إنّه وجّه ضربةً بالسيف إلى تمثالٍ لمريم العذراء، ما أدّى إلى سفك كثيرٍ من الدماء [...]. كانت الصورة تُلبَس في الماضي الرداء السويسري، غير أنّ 'السويسريين' غضبوا، فوجب أن تُكسى بعباءة سائس». وعلى الرغم من أنّ لويس الخامس عشر ألغى رسميًّا عادة «حرق 'سويسري'» بطلبٍ من الحرّاس السويسريين، فقد أُحرق بالفعل حتى الثورة في شارع الدببة الواقع في الدائرة الثالثة تمثالٌ مصنوعٌ من خشب الخيزران كان مكسوًّا بزيّ «سويسري». لكنّنا نعلم اليوم أنّ تدنيس المحرّمات الذي جعل

(440) جان لوي دوكور، مؤرّخٌ فرنسيٌّ معاصر.

«الكارول» (la Carole) (تمثالٌ يصوّر السيّدة العذراء) تتألّم قد ارتُكب في الثالث من تموز/ يوليو 1417، حيث لم يكن ثمة جنودٌ سويسريون في باريس بعدُ، إذ يعود تاريخ أوّل تحالفٍ مع سويسرا إلى 28 آب/ أغسطس 1444.

في نهاية المطاف، وبفضل تدخّلٍ دبلوماسي، انتهى ذلك «التقليد»، غير أنّ هذه الشهادة عن تلك الشخصية (المَلومة ـعلاوةً على أنّها تبرِز ماضيها المتمثل في المهاجر المرتزق ـ على مناهضتها الثورة، بل على أنها بروتستانتية) الضخمة والفظّة التي جرحت والدة المسيح تأتي لتعزّز فكرة الحضور القوي لـ«السويسريين» أو لأسلافهم في باريس، والعلاقة المزدوجة التي كان الباريسيون يقيمونها معهم، بل إنّ زعمهم رفض تسمية بوّاب (وهي كلمةٌ فرنسيةٌ عادية) يندرج ـ وفق ميرسييه الذي يبدو أنّه لم يكن يحبّهم أبدًا ـ في إطار حرصهم المتغطرس على مزاياهم.

وبالفعل، استولى كثيرٌ ممّن لم يكونوا جنودًا أو لم يعودوا كذلك، على أبواب الأشخاص الذين يقدّمون لهم مالًا أكثر، وكأنّ ذلك إرثٌ لهم، وأصبحوا بوّابين، بل أستدركُ لأقول إنّهم أصبحوا حرّاسًا أشدّاء لأروع بيوت باريس، التي تضاف إليها الكنائس، حيث كان بعض «السويسريين» لا يزالون يقودون المراسم قبل حوالى أربعين عامًا. عندما كنتُ طفلًا، كان يحيّرني بشدّةٍ أولئك «السويسريون» بالسروال القصير والصدار المطرّز بخيوط الذهب والكَتِفيّتين العريضتين والحذاء ذي الإبزيم، وأكثر من ذلك بقبّعاتهم المنحرفة ذات الحافّتين الناتئتين ومِطْرَدهم[441] غير المؤذي والعصا الغليظة ذات الرمّانة التي كانوا يطرقون بها الأرض في كلّ خطوة ويجعلون بلاط الكنيسة يرنّ.

---

(441) المِطْرَد (hallebarde): سلاحٌ أبيض يتكوّن من رمحٍ وفأس، وهو سلاحٌ قديم.

كان أولئك «السويسريون» الذين لم يعد لديهم ما هو سويسري سوى رداءٍ يذكّر بالنظام القديم، سادةً مخيفين للمراسم، وفي واقع الأمر موظّفين يخدمون الكنيسة ويدقّون أجراسها، ويقومون بوظيفة البوّاب بطبيعة الحال. يجب على أولئك الراغبين في أن يتأمّلوا بإعجابٍ بعضَ «السويسريين» اليوم، الذهابُ إلى روما، إذ نجد فيها على أبواب الفاتيكان آخرَ «السويسريين»، سويسريين لا يزالون يمارسون نشاطًا بمسؤوليتهم عن أمن دولة الفاتيكان، ولا يزالون يرتدون الزيّ الذي رسمه مايكل أنجلو، لكن يجب ألّا نغفل عن أخذهم على محمل الجد.

الناطورة تمحو البوّاب

إن كان ثمة شخصيات رمزية، فإنّ النواطير الذين طالما نالوا الاعتراف بهم في دور المعلِن البائس على أبواب عماراتنا، يتمتّعون بحصّتهم من المجد والغموض في تاريخ باريس. عندما كنتُ طفلًا، كثيرًا ما تساءلت من أين يأتي هذا الاسم، وكنت أتخيل أنّ مهمّتهم الأولى ترتبط بواقع إبقاء الأضواء على أبوابنا في ليالي باريس السوداء، وبطبيعة الحال بـ«عدّ الشموع»[442] التي كانوا يوزّعونها على المستأجرين العائدين... لم تكن رؤيتي بلا أساس، لكنّ الأمر لا يستقيم اشتقاقيًّا. وبالفعل، فقد سجّل التاريخ أسماء أولئك النساء والرجال العاديين ضمن سلالةٍ ربّما تكون أكثر ارتباطًا بواقع حياتهم الصعبة. ظهرت الكلمة (concierge) في اللغة الفرنسية في العام 1195، والأرجح أنّها كانت موروثةً من الكلمة اللاتينية القروسطية (consergius) التي هي تحويلٌ لكلمة (conservius) اللاتينية الشعبية المكوّنة من (cum)، أي مع، و(servus)، أي عبد، كانت كلمة (conservius) تشير بالتأكيد إلى

(442) يوازي الكاتب هنا بين كلمة (concierge) التي تعني الناطور وعبارة (compter les cierges) التي تعني عدّ الشموع.

أن واحدًا من «رفاق العبودية» أولئك أصبح خادمًا في روما ووجد نفسه (بعد أن فقد المكانة ـ النسبية ـ أو لم يحصل عليها أبدًا) atriensis (servus، أي حارسًا لباب واحدٍ من تلك البيوت الكبيرة الأرستقراطية في عاصمة الإمبراطورية. وسواءٌ أكانت تلك الوظيفة معرّفةً أم غير معرّفة، فقد لاحظتُ في كتابي **إثنولوجيا غرفة النوم** (*Ethnologie de la chambre à coucher*) أنّه كان في مساكن بومبي أو فيزون لارومين[443] (Vaison-la-Romaine) عبيدٌ ينامون إمّا مباشرةً أسفل سرير سيّدهم أو سيّدتهم أو خارج الغرفة، حيث ينامون على سريرٍ حقيرٍ يتعامد مع الباب. ترتبط فكرة الناطور ـ العبد، اللذين كان الفصل بينهما صعبًا حتّى وقتٍ طويل، بالدور البائس الذي يلعبه البوّابون تحت تسميات (ostarius) و(ostaria ancilla) و(janitor) و(janitrix)، الذين قاموا حتى نهاية روما بدور الحارس الصارم الذي لا يُحسدون عليه في المساكن الكبيرة.

في ما يتعلّق بفرنسا، وبصورةٍ أخصّ بباريس، كان الناطور في بداياته مختلفًا كثيرًا عمّا لا يمكن أن نمتنع عن تخيّل ما كان عليه: ليس أقلّ من ضابط بيت الملك. وبالفعل، من أوغ كابيه[444] (Hugues Capet) إلى لويس الحادي عشر، كان هو المكلّف بقصر الحاضرة الذي لا يزال يعرَف حتى اليوم باسم دار الحراسة (conciergerie). كان يتمتّع بكمٍّ من الحقوق والامتيازات ويتولّى بخاصةٍ مهمّة مراقبة مدى صلاحية الولاية القضائية، والحرص على أن يمارس مساعدوه

---

(443) فيزون لارومين: بلديةٌ في مقاطعة فوكلوز في جنوب شرق فرنسا.

(444) أوغ كابيه (بين 939 و941 ـ 996)، دوق فرنسا (960 ـ 987) ثمّ ملك الفرنجة (987 ـ 996)، أوّل ملوك فرنسا من سلالة الكابيتيين التي حكمت فرنسا بدءًا من العام 987 وحتى الإطاحة بالملك لويس فيليب الأول وقيام الجمهورية الفرنسية الثانية في العام 1848.

«كلّ العدل والسلطان المنخفض والمتوسّط» من دار الحراسة حيث كان يقيم. ونفهم أنّ مهمّة الناطور كانت توكَل إلى قادةٍ بارزين حتى أواخر القرن الثاني عشر، عندما تداعت الوظيفة. في حدود العام 1360، عندما توقّف ملوك فرنسا عن السكن في قصر الحاضرة وجعلوا منه مقرًّا للغرف السيادية الخاصّة بالعدالة، أصبحت دار الحراسة سجنًا عرف كثيرون أبوابه (المغلقة) أثناء الثورة، وفقد لقب الناطور مقدارًا كبيرًا من مهابته، على الرغم من أنّ القواميس بقيت حتّى أواخر القرن السابع عشر تعرّف الناطور بأنّه «ذاك الذي يتولّى حراسة ومفاتيح قصرٍ أو بيت أميرٍ أو سيّدٍ كبير. وتُطلق عليه اليوم على نحوٍ أكثر شيوعًا تسمية قائد»، لكنّها تضيف أنّ «كلمة ناطور كثيرًا ما تُلفظ للإشارة إلى سجّان، إلى حارس السجون»، كما تشير كلمة «دار الحراسة» إلى «السجن الموجود في قصر». ويؤكّد المثال الوارد في **قاموس تريفو** هذا التحوّل: «يؤتى بالسجين إلى دار الحراسة، أي إلى السجون الملكية في برلمان باريس». علينا ألّا ننسى أنّ قصر العدل وأقبيته لا تزال حتى اليوم تستقبل يوميًّا سجناء، ولو بصورةٍ مؤقتة. أمّا المسكن الأصليّ والمهيب لناطور القصر، فقد أصبح متحفًا وتمكن زيارة جزءٍ منه.

كانت وظيفة البوّاب موجودةً منذ العصر الوسيط لكنّها كانت حقًّا جزءًا لا يتجزّأ من المشهد الباريسي منذ أواخر القرن الثامن عشر، ثمّ تفوّقت عليها وظيفة الناطور في مطلع القرن التاسع عشر. أمّا اللقب، إن جاز لنا القول، فلم يقَرّ بالمعنى الذي نفهمه اليوم، إلا في حدود العام 1804، وكانت تغلب عليه صفة المؤنث. هذا التغيّر في الجنس غير مفاجئ، إذ كانت النساء البوّابات يهتممن منذ أكثر من نصف قرن بالشقق البورجوازية. إذًا، حظيت «الناطورة» أكثر فأكثر بأدراج العمارات الباريسية وعتباتها ومنبسطات أدراجها ومقصوراتها، مسبوقةً

بسمعتها القديمة، واندرجت في حقلٍ دلاليٍّ كان يُساء التعامل معه منذ وقتٍ طويل. ومن نافل القول أنّ القرن التاسع عشر هو قرن النواطير، ويعود أحد أسباب هذا التوصيف إلى واقع أنّ بعض الأشخاص اهتمّوا بهذه المهنة عن قربٍ بُعيد انتهاء الثورة. تعود عبارة «بعض الأشخاص» هنا إلى السياسيين والصحافيين ورجالات المسرح والروائيين... وأخيرًا إلى المجتمع بأكمله، ذلك المجتمع الذي كان حُسن سيره يستند إلى حماسة نواطيره أو عدمها. يذكّر المؤرّخ جان لوي دوكور مصيبًا، أَنّ المحفوظات قليلةٌ في ما يتعلّق بالحقبات الماضية، كما هي اليوم، عندما يتعلّق الأمر بوظائف شديدة التواضع. وبدءًا من العامين 1792 و1793 فحسب، عندما بات واجبًا على كلّ قسمٍ من أقسام باريس[445] مَسْك سجلّاتٍ لوضع البطاقات الأمنيّة التي كان من المفترض أن يتزوّد بها كلّ مواطنٍ ذَكَرٍ، أي مع تسجيل السكّان في قوائم، بدأ التمكّن من دراسة «الأحداث العظمى لهذه الوجودات الغُفْل».

بعد أن درس دوكور عيّنةً من 460 بوّابًا بعمر 54 سنة في الحي الغربي من باريس، لاحظ أنّ «المصرِّح» يفكّر في مساره: الأصل والمهنة وما إلى ذلك، لكنّ الرجال وحدهم يؤخذون بالحسبان، ويشير عددٌ ضئيلٌ منهم إلى أنّهم «بوّابون»، مفضِّلين منح أنفسهم مرتبةً اجتماعيةً أسمى: «صاحب إيراد»، «مواطن»، وفي حال كانوا خدمًا فإنهم يذكرون صفة «رجل ثقة». والواقع أنّ هؤلاء الرجال كانوا في معظم الأحيان يقومون بنشاطٍ مزدوج: بوّاب ـ خيّاط، بوّاب ـ صانع سراويل، بوّاب ـ إسكافي... وكانت مهنة بوّاب ـ بائع نبيذ مخصّصةً للسويسريين، قبل أن

(445) الأقسام (sections): هي تقسيماتٌ فرعيةٌ لمدينة باريس أثناء الثورة الفرنسية من العام 1790 إلى العام 1795، بلغ عددها 48 قسمًا واستُحدثت بقرارٍ من الجمعية التأسيسية صدّق عليه الملك لتحلّ محلّ القطاعات، فأنهت بذلك وصاية الدولة على بلدية باريس. وقد لعبت هذه الأقسام دورًا مهمًّا في الثورة.

يستولي أهالي منطقة أوفيرن[446] (Auvergne) عليها. وهكذا، لم يكن واردًا عمليًا وجود صفة «بوّابة» رسميًا، في حين أنّ نساءً هنّ بالفعل من كنّ يعملن في غالبية الأحيان على الأبواب الباريسية.

بطبيعة الحال، ليس خيارًا أن يجد المرء نفسه يؤمّن خدمةً ملزِمة، بل مرهقة، فالفقر والبؤس في باريس نصيب أولئك الذين يبقون في محيط الأبواب، سواءٌ خارجها أو داخلها، وأن يصبح المرء بوّابًا أو بوّابة هو بالنسبة إلى عددٍ معتبرٍ من الناس وسيلةٌ لعدم الموت على الرغم من كلّ شيء، لا جوعًا ولا بردًا. لا يزال يُقال اليوم إنّ مَن يسكنون باريس هم مِن خارجها، في باريس القرن التاسع عشر، يجب أن نعدّ علاوةً على السويسريين أهالي سافوا[447] (Savoie)، وكذلك وصول مهاجرين من مناطق أقرب: نورماندي[448] (Normandie) وبيكاردي[449] (Picardie) وشامبانيا[450] (Champagne) والألزاس[451] (Alsace) وبورغونيا وبطبيعة الحال إيل دو فرانس، أي القرى الموجودة على أبواب باريس. يبدو جيّدًا أنّ البوّابات كنّ في باريس -التي كانت تعيش البناء والتخطيط الحضري- كثيراتٍ إلى درجة تشويش الرؤية الحضرية، بل تشويش العقل في هذه الحقبة التي كانت ذكوريةً بامتياز!

---

(446) أوفيرن: منطقةٌ إداريةٌ فرنسيةٌ قديمة تقع وسط فرنسا.

(447) سافوا: منطقةٌ تاريخيةٌ فرنسية تقع في جبال الألب الشمالية.

(448) نورماندي: كيانٌ تاريخيٌّ وجغرافيٌّ وثقافي يقع شمال غرب فرنسا، يحدّه بحر المانش.

(449) بيكاردي: منطقةٌ ثقافيةٌ شمال باريس.

(450) شامبانيا: مقاطعةٌ فرنسيةٌ قديمة، تقع شمال شرق فرنسا وتشتهر بأصناف النبيذ التي تصنعها.

(451) الألزاس: منطقةٌ ثقافيةٌ وتاريخية تقع شمال شرق فرنسا.

ونحن نكاد نستطيع تعداد عـددٍ لا يحصى من الاستعراضات المسرحية الهزلية المكتوبة والممثّلة في كثيرٍ من الأحيان في النصف الأول من القرن التاسع عشر بخصوص هؤلاء الرجال والنساء الذين كانوا يراقبون الأبواب والناس والعمارات الباريسية، ففي العام 1823 نُشر كتاب **مقصورة البوّاب** (*La Loge du portier*)، وفي العام 1827 **ابنة البوّاب** (*La Fille du portier*)، وفي العام 1829 **الناطورة والبوّاب** (*La Concierge et le Portier*) وفي العام 1833 **صورة الناطور** (*Le Portrait du concierge*) **والمستأجرون والبوّابون** (*Les Locataires et les Portiers*)، وفي العام 1837 **ابن البوّاب** (*Le Fils du portier*) **وأيّها البوّاب أريد شَعرك** (*Portier je veux tes cheveux*)، وفي العام 1845 **تحدّثوا إلى البوّاب** (*Parlez au portier*)، بل حتى قُدمت شبه دراما في العام 1869 على مسرح القصر الملكي بعنوان **بوّابتان من أجل حبل** (*Deux portières pour un cordon*). إنّ جميع هذه المسرحيات التي ينبغي أن نضيف إليها الروايات التي لا تُعدّ ولا تُحصى، والتي تعالج النواطير أو تصفهم، تذكّرنا بهوس هذا المجتمع الذي يكتسب السمة الحضرية بسرعةٍ كبيرةٍ ويواجه قياس تلك المساحات الجديدة المتقلصة حيث يتغلّب الداخل بوضوحٍ على الخارج، وحيث يتعقّد عبور العتبات كلّ يومٍ أكثر.

سوف أذكر من الأثر الذي كتبه أوجين سكريب[452] (Eugène Scribe) وعنوانه **مقصورة البوّاب**، وكان أثرًا واسع الانتشار وقُدّم في مسرح الجمنازيوم (Gymnase) بتاريخ 14 كانون الثاني/ يناير 1823، التوصيفَ المشهدي للمقصورة مثلما كانت تنظر إليها عينٌ من تلك

(452) أوجين سكريب (1791 ـ 1861)، كاتبٌ مسرحيٌّ فرنسي.

الحقبة، أي الجانب العكسي الدقيق للديكور، أو بالأحرى إبراز تكلّف مدخل دارٍ خاصة، وكذلك عرض بعض السمات الإيجابية لهذه المهنة المغمورة في أوج توسّعها، مثل واقع أنّ «استقلالية الحبل لا تستحق عبودية الـزيّ» (المشهد السادس). سوف أستخدم من ذلك العمل أيضًا العبارات المكرورة التي تخصّ النفاق البورجوازي بمقدار ما تخصّ النماذج الأصلية لـ«ساحبي الحبل»، ولاسيما تلك الطقطوقة في المشهد التاسع التي تحكي، على ألحان «الدائرة الانفرادية» (*La ronde solitaire*) ما تعرفه باريس برمّتها:

من يعرف أخبار
حيّنا كلّه؟
بسرديّاتٍ أمينة
من الذي سينشرها؟
من يعرف أنّ غسّالة البياضات
تمرّ وهي في حنطور؟
من يعرف أنّ الحلّابة
تضع ماءً في حليبها؟
إنّها بوّابتنا،
هي التي تعرف كلّ شيءٍ وترى كلّ شيء
وتسمع كلّ شيء، هي في كلّ مكان.

مكتبة
t.me/t_pdf

في العام 1841، نشر صحافي من دوريـة **غازيت دي تريبونو** (*Gazette des Tribunaux*) اسمه جيمس روسو (James Rousseau) كتابًا بعنوان **فيزيولوجيا البوّابة** (*Physiologie de la portière*) يتضمّن

رسومًا لدوميه[453] (Daumier)، ترك في الأذهان الباريسية أثرًا لا يمحى. كانت التهمة قاسيةً، لكنّ علم الاجتماع الخاصّ بهذه «المنفّذة لأعمال المالك الدنيئة والعدوّة الطبيعية للمستأجرين» مثيرةٌ للاهتمام، شرط إعادتها إلى سياقها التاريخي. يكتب المؤلّف ساخرًا: «الأمر المؤكّد تمامًا هو أنّ البوّابة لا تنحدر من بوّابة. ربّما لا توجد فئةٌ أخرى يحرص فيها المرء بهذا المقدار على ألّا يرى نفسه تعيش مجدّدًا في شخص أبنائه [...]. هل رأيتم يومًا بوّابة كان لها أبٌ أو أمّ؟ إنّها نتاج العالم الغفل، تأتي من العالم بالتجاور، مثل الفطور والكمأة. كلّ ما تمكن معرفته عن سوابق البوّابة هو أنّها عاشت مآسي وأنّها لم تولد لتسحب الحبل».

هي امرأةٌ مهجورة، أو أرملة ضابطٍ من ضبّاط العهد الإمبراطوري قُتل في ساحات المعركة، هكذا يقرّ جيمس روسو قائلًا إنّ «أحدًا ليست لديه أَنَفَةٌ أكثر من البوّابة، يتغلّب شيطان الكبرياء والغرور باستمرار. يصيحون باستمرارٍ قائلين لها: 'الحبل من فضلك' وهي تسحبه متبرّمةً في كلّ ساعةٍ من ساعات النهار والليل».

بعد العام 1842، فرض أوجين سو[454] (Eugène Sue)، الذي ستتأنّث في روايته **أسرار باريس** (*Les Mystères de Paris*) شخصية الناطور السيّد بيبليه (Pipelet) بسرعةٍ كبيرة، بديلًا من المرأة الصاخبة في الضواحي الخارجة مباشرةً من الثورة، مطلقًا على شخصية الناطورة تسمية (la Pipelette) المنحوتة من فعل (piper) الذي كان يعني

(453) أونوريه دوميه (1808 ـ 1879)، حفّارٌ ورسّام كاريكاتير ومصوّرٌ ونحّاتٌ فرنسي، تناولت أعماله الحياة الاجتماعية والسياسية في فرنسا القرن التاسع عشر.

(454) ماري جوزيف سو (الملقّب بأوجين سو) (1804 ـ 1857)، كاتبٌ فرنسي، اشتهر بروايتين نشرهما متسلسلتين في الصحف هما: **أسرار باريس** (*Les Mystères de Paris*) و**اليهودي التائه** (*Le juif errant*).

سقسق، قرقر. باختصار، اقترح سو حركةً لا تتوقف للشفاه «باب ـ بوب ـ بيب» (قاموس روبير)، أي امرأة باسلة إلى هذا الحد أو ذاك، مصابة بثرثرةٍ لا تنتهي، وبعبارةٍ أخرى، وللبقاء ضمن إيديولوجيا الحقبة: ناطورة حقيقية. نستطيع أيضًا ذكر **مذكّرات بيلبوكيه** (*Mémoires de Bilboquet*)، وهو ناطورٌ آخر شهيرٌ في باريس، في كتاب **باريس البوّابة** (*Paris Portière*) الذي نُشر العام 1854.

في الربع الأول من القرن التاسع عشر، وسعيًا للحصول على أكبر دخلٍ ممكنٍ من الاستثمارات، أدرك تجّار الأراضي أنّ بناء عماراتٍ في أحياء باريس الجديدة بدلًا من البيوت الإفرادية أفضل لهم، لكنّهم، من أجل النجاح في هزيمة نفور الطبقات العليا من التكدّس في مسكنٍ جماعي واجتذاب زبائن من المستأجرين الميسورين، أدركوا أنّه يجب ـ على مثال النموذج الأرستقراطي ـ إبراز ما يكوّن امتياز هذه المساكن، والمقصود هو النواطير، أي بعبارةٍ أخرى خدمٌ متخصّصون في فتح الباب وقادرون على صيانة العمارة ويغربلون في الوقت عينه حركة القدوم والذهاب، وذلك استنادًا إلى التعريف التقليدي للبوّاب، «ذاك الذي يحرس الباب ويهتم بفتحه وبإخطار قاطن المسكن المطلوب» (ريشليه[455] Richelet، 1680). وفق سيباستيان ميرسييه، يبدو أنّ دور البوّاب كان يقتصر في العام 1782 على «الصفير عندما يأتي أناسٌ لزيارتكم، بعددٍ من الصفرات يساوي الطوابق اللازمة للوصول إلى الشقّة التي تقطنها». ويضيف أنّه كان يوضع في هذه الوظيفة الجديدة، وظيفة الناطور، «شخصٌ مكلّفٌ بحراسة بيتٍ يتلقّى من المالك أو المالكين راتبًا ومسكنًا مجانيًّا يُدعى مقصورة ويكلَّف بإبقاء البيت نظيفًا وفتح باب الدخول وإغلاقه وتوصيل الرسائل إلى الشقق

(455) سيزار بيير ريشليه (1626 ـ 1698)، نحويٌّ ومعجميٌّ فرنسي، ألّف واحدًا من أوائل قواميس اللغة الفرنسية.

وتقديم تعليماتٍ للزائرين». بعد قرنٍ من ذلك، في **حقوق وواجبات المالك والمستأجر والناطور** (*Droits et devoirs respectifs des: propriétaire, locataire et concierge*) للعام 1887 المنشور في المكتبة الصغيرة الشعبية للقانون التطبيقي، نتعرّف إلى الناطور بوصفه «رجل خدمةٍ مأجورًا»، لكنّ تلك الوثيقة تؤكّد مجدّدًا أنّه «خادمٌ، ويمكن طرده في غضون ثمانية أيام مثل الخادم [...]. يجب أن تكون مراقبته مستمرّة، وبالتالي يجب عليه عدم ترك المقصورة». وتعرّف الوثيقة وظائفه بخاصّة: «يجب عليه أن يفتح الباب في كلّ ساعةٍ من النهار أو الليل للمستأجرين أو لعرباتهم (محكمة السين Seine، 7 شباط/ فبراير 1857)، والمالك ملزمٌ بأن يوجّه له بهذا الصدد أوامر قطعية، وإلّا أصبح مسؤولًا شخصيًّا (محكمة السين، 12 حزيران/ يونيو 1840). يجب عليه أن يشير إلى مكان باب المستأجر الذي يُسأل عنه، وعليه أن يدع جميع الزائرين يصعدون، أيًّا كانوا». نستطيع أن نضيف الملاحظة التالية في ما يتعلّق بمشاركة العمارة في راحة الناطور: «في باريس، درجت العادة أن يقتطع الناطور لنفسه قرمةً من الخشب كلّما أحضر فحّامٌ خشبًا لأحد المستأجرين، 'وهي عادةٌ ليست إلزاميةً على الإطلاق'».

من أجل إدخال هذه الخدمة إلى العمارات البورجوازية، تحالف المقاولون مع المهندسين المعماريين، فطلبوا منهم إقامة مسكنٍ صغيرٍ غير مرئي كثيرًا، مدرجٍ جماليًّا في طراز العمارة، لكنّه منظّمٌ بخاصّةٍ بحيث يرتبط بالمدخل ارتباطًا مباشرًا ويسمح بمراقبة عمليات المرور من دون أن يُثقل ذلك على قاطني المكان. وبعبارةٍ أخرى، هو فضاءٌ مختلفٌ عن المأوى التقليدي لبوّابي الماضي، ونسخةٌ مدنيةٌ من محرس المراقب، يقحَم أكثر ممّا يقام في مكان التقاء منظومات التحرّك في البيت. في معظم الأحيان، «كان ركنًا مكوّنًا من كوخٍ ذي واجهةٍ زجاجيةٍ مقتطعةٍ من ممرٍّ معتم، تثقبه كوّةٌ تُرفع إلى الأعلى تنبعث منها رائحة

الكرنب وجلد السيور»، مثلما تذكر صحيفةٌ تعود للعام 1850. تمثّلت الفكرة في توضيب نوعٍ من المخبأ الاستراتيجي المتموضع بحيث يمكن أن يرى المرءُ بالحدّ الأقصى من الداخل من دون أن يراه أحد. وكان وجوده ذاته يستند إلى فكرةٍ منحرفةٍ جدًّا غير أنّها واسعة الانتشار، تفيد بوجوب التحسين المستمرّ للمراقبة لصالح المالك وضدّ المستأجرين. في عمق هذا الركن، كانت تقبع أحيانًا عائلةٌ بأكملها، متكدّسةٌ ولا تتمتّع بالتدفئة الحسنة ولا بالشروط الصحية.

اتّخذت «المقصورة الحديثة» مكانها على نحوٍ أكثر تعمّدًا في المدخل ذاته، ولو بقي مسكن الناطور وسط المرايا والرخام وعلى مرأى من الجميع، وكأنه الانعكاس المقلوب لقاطني العمارة الآخرين. كان على الناطور أو الناطورة أن يبقى / تبقى ويكون / تكون العين التي ترى كلّ شيء، ولو كان ثمن ذلك معرفته / معرفتها بكلّ شيء، كما لو أنّ تخيُّل المقصورة يتضمّن أنّ ما وراء بابها، الساتر الذي يوضع في كثيرٍ من الأحيان للحفاظ على بعض الخصوصية، ولاسيّما لفصل الفضاء العام عن الفضاء الخاصّ، تختبئ الحياة الحقيقية لأناس الشعب. ما من شكٍ في أنّه كانت تنتظم هنا بالنسبة إلى البورجوازي، وبمكر، فوضى تنبعث منها في كثيرٍ من الأحيان روائح قويةٌ تخيّم مثل تهديدٍ على سكّان العمارة فردًا فردًا، وعلى الحي، بل على باريس بأكملها... يقدّر جان لوي دوكور، ولسببٍ صحيحٍ، أنّه «كان مريحًا الانقضاض على الناطور المتّهم بإدخال رائحة البروليتاريا وعاداتها الفظّة وغير المحتشمة إلى العائلة البورجوازية» إلى حدّ إفقاده هويّته بوصفه إنسانًا.

لم يكن انعدام الأمن في باريس أمرًا جديدًا، إذ إنّ المدينة كانت سيئة الإنارة إلى حدٍّ كبير، وبالتالي خطرة. على رغم أنّه استحدِثت في العام 1662 الإنارة المتحرّكة مع «حاملي المشاعل» الذين كانوا يرافقون الناس وينيرون بصورةٍ خاصّةٍ دربهم حتى بابهم بمساعدة مشاعل من

الشمع، مقابل خمسة فلوس لشريحة الشمع. لاحقًا، في العام 1769، أصبح أولئك الكشّافون العامّون مزوّدين بساعةٍ رمليةٍ تسمح لهم بتقاضي مقابلٍ لخدمتهم: ثلاثة فلوس مقابل كلّ ربع ساعة من الإنارة. كانت فائدتهم تعود بخاصّةٍ إلى واقع أنّهم يستطيعون أن يقودوكم حتى باب شقتكم ولو كان تحت تخشيبة السقف. وللبقاء في هذه الحقبة، أرغم أمرٌ صدر في العام 1778 على إغلاق أبواب «المنازل ذات الممرّات»[456] في الساعة العاشرة مساءً، ولم يكن ذلك شأنًا بسيطًا، إذ لم يكن جميع المستأجرين يملكون المفتاح العمومي الضروري للدخول. في العام الخامس[457] (An V) (1797)، تواصلت محاولة تطبيق هذا الأمر، كما تُثبت الغرامات العديدة لمخالفة الإغلاق «نظرًا إلى أنّ أولئك الذين كانوا يتركون بابهم الخارجي مفتوحًا يسهّلون هروب اللصوص»، مثلما كُتب في تقريرٍ للشرطة بصدد شارع لومبار (Lombards) بتاريخ 24 كانون الثاني/ يناير من العام الثاني (An II). لم يكن التأجير والمساكنة والسكن أمرًا يخلو من المتاعب بالنسبة إلى المالكين، الذين رأوا على ما يبدو عددًا من المستأجرين المتخلّفين عن الدفع يهربون «بصمتٍ مطبق، حاملين معهم المفاتيح أو القفل». هذا هو السبب في أنّ المالكين بحثوا عن بوّابين ونواطير صارمين لمراقبة عمليات الدخول والخروج، إلى حدّ إقامة ضروبٍ من الاستبداد المحدّدة مكانيًا، أدخلتها الفكاهة الشعبية في المخيلة الباريسية، وتبعها في ذلك خيال رسّامي الكاريكاتير ورجالات المسرح والروائيين، فقد وضع بالزاك على لسان **فيراغوس** (*Ferragus*) بطل الرواية التي تحمل الاسم عينه والمنشورة في العام 1833، ما يشبه ملخّصًا لدور هذه الخدمة بتصرّف الجميع، وهو التصوّر الذي بقي سائدًا حتى وقتٍ

(456) المنازل ذات الممرات: هي منازل يصل ممرٌّ بينها وبين الشارع.

(457) من التقويم الجمهوري.

قريب: «ناطور أو بوّاب أو 'سويسري'، أيًا كان الاسم المنسوب لهذه العضلة الأساسية لدى الوحش الباريسي، فهو لا يزال متوافقًا مع الحيّ الذي ينتمي إليه وكثيرًا ما يختصره».

بالنسبة إلى عصرنا هذا، تضمّن قانون 13 كانون الثاني/ يناير 1939 أوّل تعريفٍ حقيقيٍ لوضع الناطور بوصفه عاملًا عاديًّا. أمّا «الحبل»، فقد اختفى في خمسينيات القرن العشرين وأصبح للمهنة تمثيلٌ وإعلامٌ عبر دورية **ليكو دي كونسييرج**[458] (*L'Écho des concierges*) التي تمكن مطالعتها على الإنترنت. لكنّ ملحمة الناطورات الباريسيات تبقى موضوعًا مفعمًا بالعواقب في مجتمعنا، الذي أصبح حضريًّا بالكامل تقريبًا ووجب انقضاء بعض الوقت كي يُعاد تأهيلهنّ بعد الحرب الأخيرة، حيث نُسب إليهنّ، مثلما نُسب إلى كثيرٍ من الحرّاس، دور الواشي السيئ (وكثيرًا ما كان ذلك حقيقيًّا) في ظل الفاشيّات والغزاة الذين لوّثوا أوروبا. على الرغم من ذلك، يصعب الإفلات من النواطير الباريسيين، من مقصوراتهم، من سخريتهم ومن كلابهم... من عبارات «السيّدة الناطورة» التي رسّخها بصورةٍ ممتازةٍ سيمنون[459] (Simenon) في خمسينيات القرن العشرين، والتي تقمّصتها بصورةٍ أصيلةٍ شخصياتٌ مثل بولين كارتون[460] (Pauline Carton) وتُنقل على الشاشات حتى اليوم.

لقد تغيّر العالم، وهم (هنّ) أصبحوا يكتبون مذكراتهم (أصبحن يكتبن مذكراتهن) ويحكون (يحكين) عن عنائهم (عنائهنّ) ودورهم (دورهنّ)، كما نقرأ في **درج الخدمة** (*L'Escalier de service*) الصادر

---

(458) أي: صدى النواطير.

(459) جورج سيمنون (1903 ـ 1989)، كاتبٌ بلجيكيٌّ تخصّص في الرواية البوليسية، كما قدّم دراساتٍ نفسيةً، وغاص في النفس البشرية.

(460) بولين كارتون (1884 ـ 1974)، ممثّلةٌ ومغنّيةٌ وكاتبةٌ مسرحيةٌ وسينمائيةٌ فرنسية.

في العام 1982، أو **في ناطور غائب عن مقصورته هو ناطورٌ مشبوه** (*Un Concierge qui n'est pas dans sa loge est un concierge suspect*) في العام 1986، و**القرن العشرون، قرن مدام لوسي ناطورة باريس** (*Le XXe siècle de Madame Lucie, concierge de Paris*) في العام 1987، أو العمل الحديث والممتع الذي كتبته موريل باربري[461] (Muriel Barbery) بعنوان **أناقة القنفذ** (*L'élégance du hérisson*)، الذي صدر في العام 2006 وبيعت منه أكثر من مليون نسخة، والذي ربّما أتى (بقلبه العبارات المكرورة) ليغلق الرؤية الكاريكاتورية لعالمٍ غنيٍّ بالمتخيَّل الحضري التقليدي ومُختفٍ تقريبًا.

لكلّ بابٍ رقمه

في حدود العام 1280، بلغ عدد شوارع باريس 310 شوارع، وعندما توفّي لويس الرابع عشر كان عددها 653 شارعًا، وعندما اندلعت الثورة كان عددها 1262 شارعًا، وفي عهد الجمهورية الثانية ارتفع عدد الشوارع فجأةً إلى 3750 شارعًا، مع البلدات المجاورة التي أُلحقت بباريس في العام 1860، وفي العام 1901: 4325، وفي العام 1957: 5218، وبلغ عددها 6088 في العام 1997... وكلّما كانت باريس تتوسّع، أصبح العثور على شخصٍ ما والتلاقي معه فيها أكثر صعوبةً. كان الدومينيكان[462] (Dominicains) هم أوّل من أشاروا إلى أنفسهم في هذا المشهد الحضري الحديث الظهور. كانت تلك مبادرةً خاصّة، لكنّها كانت بالتأكيد ضروريةً من أجل أن يتمكّن

(461) موريل باربري، روائيةٌ فرنسيةٌ ولدت في الدار البيضاء في المغرب في العام 1969، كما أنّها أستاذةٌ للفلسفة.

(462) الدومينيكان: أتباع أخويّة الإخوة المبشّرين التي أسسها سان دومينيك في القرن الثالث عشر، وتحوّلت تسميتهم في القرن الخامس عشر إلى «اليعقوبيين».

الزائرون أو الحجّاج أو المحتاجون الباحثون عن الدير من الذهاب إليه من دون أن يخاطروا بالتوغّل في أحد تلك الأزقّة المسدودة، وبالانتهاء حرفيًّا في أحد تلك الانهيارات شتاءً أو سوائل المزابل صيفًا. وهكذا، أُشير في العام 1643 على لوحةٍ رخاميةٍ في الطريق من باريس «داخل الأسوار» (intra muros) إلى الطريق الذي يمكن سلوكه للذهاب إلى الرجال القدّيسين باسم «شارع سان دومينيك، شارع الأبقار سابقًا».

في **قاموس شوارع باريس** (*Dictionnaire des rues de Paris*)، يذكر مؤلّفه برنار ستيفان[463] (Bernard Stéphane) كيف كان يوضع عنوانٌ في العام 1654 في حال عدم وجود عنوانٍ دقيق: «إلى الآنسة لويزون، المقيمة عند أليزون، تمامًا في الطابق الخامس قرب ملهى القفص في حجرةٍ لها إطارا بابٍ قرب سان بيير ديزاسي[464] Saint-Pierre des Assis». في حقيقة الأمر، استُخدمت كعناوين منذ القرن الخامس عشر وحتى الثورة، لافتاتُ المتاجر والورشات المعلّقة أمام جميع البيوت، أو الشعارات، أو التماثيل الصغيرة المصنوعة من الجبس أو الخشب، ما كان يفضي في سبيل العثور على طالبٍ مثلًا، إلى النوع التالي من الكتابة (يذكرها إيلّيريه[465] Hillairet في كتابه **قاموس شوارع باريس** *Dictionnaire des rues de Paris*): «يقيم هذا الطالب في شارع آرب Harpe، عند صانع القبعات آلامان فلوري À la Main Fleurie، في الحجرة الثالثة مقابل جيبوسيير Gibecière، قريبًا من أربالستر Arbalestre». أضرب مثال طالبٍ لأنّ الجامعة سبقت

(463) برنار ستيفان، متخصّصٌ في باريس القديمة وصحافيٌّ فرنسي.

(464) سان بيير ديزاسي: كنيسةٌ في مدينة باريس.

(465) جاك إيلّيريه (1886 ـ 1984)، مؤرّخٌ فرنسيٌّ متخصّصٌ في تاريخ مدينة باريس.

الجميع بتدشين خدمة مراسلاتٍ بين الطلاب الباريسيين والعائلات في الأرياف، ولأنّنا ندين لها بإقامة جهازٍ خاصٍّ أطلقت عليه تسمية جهاز «بريد الرسائل والطرود». بيعَ هذا الامتياز إلى الجامعة في العام 1719، وأوكلت إدارةُ المراسلات والبريد الملكي إلى «الشركة العامة للبريد» التي أقيم أول مكتبٍ لها في شارع بولي (Poulies) الذي يسمّى اليوم شارع اللوفر. لكنّ توزيع البريد -ولو كان نادرًا- والنجاح في طَرْق الباب الصحيح للتمكّن من تسليمه باليد، لم يكن أمرًا سهلًا، في ظل «الخليط» الباريسي الذي كان لا يتوقّف عن التحوّل، والمتكوّن من البيوت والشوارع والطرق المسدودة.

أصبحت الإشارة إلى الشوارع ضرورةً، وجرت لذلك محاولةٌ أولى في العام 1726 لإحلال رقمٍ محل اللافتات، وأشار قرارٌ (يخصّ على ما يبدو البيوت التي تتضمّن بابًا للعربات فحسب) إلى وجوب أن يُحفر رقمٌ على إحدى عضادتي الباب. لم يحظَ هذا القرار بأيّ نجاح، لذلك أصدر ملازم شرطة باريس بتاريخ 16 كانون الثاني/ يناير 1728 قرارًا آخر يفرض على المالكين أن يضعوا في أوّل كلّ شارعٍ وآخره «لوحةً من الصفيح باللون الأصفر تحمل اسم كلّ شارعٍ باللون الأسود»، لكنّ الناس كانوا يفكّونها، وفي حال لم يفعلوا ذلك كانت العوامل الجوية والمطر تمحو حروفها وتتلفها بسرعة. أصدرت الشرطة قرارًا جديدًا بتاريخ 30 تموز/ يوليو 1729 يقضي بوضع «لوحاتٍ حجرية» منحوتة باسم الشوارع. ونصّ الأمر على أن تكون الأحرف «بارتفاع إصبعين ونصف»، وعلى إجراء «ثَلْمٍ يشكّل إطارًا حول الحجر المذكور على مسافة ثلاث أصابع من النتوءات التي ستعلَّم بالأسود، مثلها في ذلك مثل الأحرف». حتى في زماننا الحالي، يمكن أن نرى بعض آثار هذه المنظومة في بعض زوايا الشوارع، كما في حيّ الهال (Halles) شارع «كانكانبوا» (Quincampoix)، أو في موفتار (Mouffetard) شارع

«بو دو فير» (Pot de Fer). ثابر الباريسيون على عدم استساغة تغيير نظام استدلالهم، وكرّر المحافظ في الأعوام 1740 و1765 و1775 إصدار القرارات، وعلى رغم ذلك ـوفق أقوال سيباستيان ميرسييهـ بقيت المقاومة كبيرة، ففي الفصل الصغير المعنون «لوحات الشوارع» من كتابه **لوحة باريس**، لم تكن مقاومة النبلاء والأشخاص الأكثر نفوذًا في الضواحي قليلةً. «بالفعل، كيف يمكن إخضاع دار السيّد المستشار والسيّد المقاول العام ومولانا المطران لرقم 'بشع'؟ وبماذا يفيدهم رخامه المتعجرف؟ فالجميع يشبهون قيصر، لا أحد يريد أن يكون الثاني في روما، حيث يجد بابُ عرباتٍ لأحد النبلاء أنّه مسجّل بعد متجر أحد العوام، ما سيؤدّي إلى انطباعٍ بوجود نوعٍ من المساواة يجب حقًّا تجنّب ترسيخه».

بعد أن صوّتت الجمعية التأسيسية[466] بتاريخ 14 آب/ أغسطس 1792 على هدم الأنصاب التذكارية التي تذكّر بزمن الإقطاع السيئ، أوصت في العام 1793 بحذف صفات الملَكية وأضافت في العام 1794 تعليماتٍ خاصّةً بالمرسوم تتضمّن إلغاء كلمة «قديس» (saint) من أسماء الشوارع. وامتثلت لجنة الأشغال العامة في بلدية باريس، ودام «الحذف» من 28 كانون الأول/ ديسمبر 1794 إلى منتصف شهر تموز/ يوليو 1795. منذ ذلك الحين، عاد القديسون مجدّدًا وجزئيًّا إلى لوحاتهم. سوف أستعرض بسرعةٍ معركة تسمية الطرق ثمّ الشوارع والأزقة والدروب المسدودة (الردوب)[467]، علمًا بأنّه ـمثلما قال ميرسييه ساخرًاـ «أمرٌ لا يستهان به أثناء عبورنا في هذا العالم أن نمنح اسمنا لزقاقٍ مسدود أو لردب [...]. وعلى الرغم من الجهود التي بذلها

(466) الجمعية التأسيسية (La Convention nationale): حكمت فرنسا من 21 أيلول/ سبتمبر 1792 إلى 26 تشرين الأول/ أكتوبر 1795 أثناء الثورة الفرنسية.

(467) الردوب: جمع رَدْب، وهو دربٌ لا مخرج له.

السيّد فولتير وهو ينادي باستخدام كلمة impasse، 'زقاق مسدود'، غير أنّ أحدًا لم يستخدمها، ولا يزال الناس يقولون: 'ردب' فور أودام cul-de-sac du Fort aux Dames، 'ردب' فويانتين cul-de-sac des Feuillantines، 'ردب' أورشليم cul-de-sac de Jérusalem، 'ردب' كاترفان cul-de-sac des Quatre Vents... وما إلى ذلك». باختصار، لم يكن منح أسماءٍ للشوارع أمرًا بديهيًّا، لاسيما أنّ التعديلات الحضرية جلبت، كما في عهد لويس الرابع عشر، طرقًا جديدةً حلّت محلّ الأسوار، ما يفسّر وجود شارع «خنادق سان جاك» (Fossés-Saint-Jacques)، أو شوارع جديدة مثل «الشارع الجديد للحقول الصغيرة (rue Neuve des Petits-Champs)... وغيرها كثير. وفي انتظار ذلك، يجب إطلاق تسمية. يقدّم لنا سيباستيان ميرسييه فكرةً عن هذا الأمر: «سوف نرى مكان الصالة الجديدة للكوميدي فرانسيز[468] (Comédie française) شوارع كورني[469] (Corneille) وراسين[470] (Racine) وموليير وفولتير وكريبيّون[471] (Crébillon)

(468) كوميدي فرانسيز: مؤسّسةٌ ثقافيةٌ فرنسيةٌ تأسّست في العام 1680، ومقرّها منذ العام 1799 في صالة ريشليو في قلب القصر الملكي. ويعدّ موليير «رئيسها» على الرغم من أنّه كان فارق الحياة قبل سبع سنواتٍ من تأسيس هذه المؤسّسة التي يُطلق عليها اسم «دار موليير».

(469) بيير كورني (1606 ـ 1684)، كاتبٌ مسرحيٌّ وشاعرٌ فرنسي، له اثنتان وثلاثون مسرحيةً أشهرها **السِيد** (*Le Cid*). تميّز فنّه بخصائص عدّةٍ جعلت منه فريدًا بين أقرانه، ويُعدّ مبدع الفنّ المسرحي الكلاسيكي في فرنسا.

(470) جان راسين (1639 ـ 1699)، كاتبٌ مسرحيٌّ وشاعرٌ فرنسي يعدّ أحد أكبر مؤلفي التراجيديا في العصر الكلاسيكي في فرنسا. نال دعم الملك لويس الرابع عشر واختلف مع موليير. من أبرز أعماله مسرحية **أندروماك** (1667). انتُخب في الأكاديمية الفرنسية في العام 1672 وبلغ ذروة مجده بفضل مسرحيتي **إيفيجيني** و**فيدرا**.

(471) بروسبير جوليّو كريبيّون (1674 ـ 1762)، كاتبٌ مسرحيٌّ فرنسي.

ورونيار[472] (Regnard)، وهذا سيثير بدايةً غضب القضاة ـيجب توقّع ذلكـ بوصفهم يمتلكون الامتياز المجيد والقديم، امتياز أن يمنحوا وحدهم أسماءهم البارزة للشوارع، لكنهم سوف يتأقلمون شيئًا فشيئًا مع هذا الابتكار، ومع النظر إلى كورني وموليير وفولتير بوصفهم رفقاء لهم في مجدهم. أخيرًا، سنجد شارع راسين إلى جانب شارع بابي[473] (Babille)، من دون إثارة كثيرٍ استغرابٍ لدى زعماء الأحياء وقادة العشرة وغيرهم من كبار موظفي دار البلدية». اليوم، أصبح المجلس البلدي هو صاحب الحقّ في تسمية اسم الطرق في باريس، ويجب عليه الاستئناس برأي مجلس الدائرة[474] المعنية وإخضاع مشروع التسمية للجنة تفحص مشاريع تسمية الطرق.

تواصَل توسّع المدينة بمساكنها وسكّانها، وعلى الرغم من تسمية بعض الشوارع تزايدت صعوبة الاستدلال فيها بسهولةٍ، فعلى رغم الأمر القاضي بوضع أرقامٍ فوق الأبواب، سرعان ما بدأت فكرة الترقيم بالتسلسل العددي وحده في طرح إشكالية، فقد كانت الأرقام تتوالى على أحد جانبي الشارع، من بدايته إلى نهايته بإتباع الحارات والأزقّة المسدودة المرتبطة به، لتكمل تصاعديًا بعد ذلك عبر الجانب الآخر حتى بدايته! في نهاية المطاف، لم يتّسم الترقيم بكثيرٍ من المنطق، مثلما

---

(472) جان فرانسوا رونيار (1655 ـ 1709)، كاتبٌ ومسرحيٌّ فرنسي. عاش في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، كان يُعدّ ثاني أفضل شاعرٍ كوميديٍّ فرنسي بعد موليير، وقال عنه فولتير: «من لا تسرّه أعمال رونيار لا يستحق أن يُعجب بموليير». علاوةً على المسرح، كتب سردياتٍ لرحلاته وقصائد متنوعة.

(473) لوران جان بابي، كان قاضيًا عندما أنشئ هذا الشارع في العام 1762 وفي العام الذي أعقبه.

(474) الدائرة (arrondissement): تقسيمٌ إداريٌّ ضمن مدينة باريس، بدأ في العام 1795، حيث قُسمت المدينة إلى اثنتي عشرة دائرة، ويبلغ عددها حاليًا عشرين دائرة.

هي الحال على سبيل المثال عندما يجد المرء في شارع غارانسيير (Garancière) الرقم 1096 مقابل الرقم 1 أو 2 من الشارع عينه.

عشيّة الثورة، يذكر ميرسييه أنّ «الناس بدأوا بترقيم بيوت الشوارع، وقد أوقفوا هذه العملية المفيدة لسببٍ لا أعرفه. ما الذي يمكن أن يكون العائق؟ سيكون أكثر راحةً وسهولةً أن يذهب المرء على الفور إلى بيت السيّد فلان، رقم 87، من العثور على السيّد فلان 'في الشريط الأزرق' أو 'في اللحية الذهبية'، باب العربات الخامس عشر على اليمين أو على اليسار من الشارع كذا». ويضيف بسخرية: «لكن يُقال إنّ أبواب العربات لم تشأ السماح بأن يرقّمها المسجّلون». وقد أشرتُ أعلاه إلى سبب هذه المقاومة، وفق مقالةٍ نشرتها صحيفةٌ باريسيةٌ تعود للعام 1797، حين لم يكن ترقيم المساكن مضبوطًا بالكامل بعدُ: «ذهب صديقان لمقابلة سيّدٍ يدعى شارل يسكن في الرقم 16 من شارع سان مارتان. دخلا الشارع من بدايته. ظهر رقم 16 أمامهما، لكنّه كان رقم القسم: الرقم الصحيح للبيت الذي يحمله هو رقم 297. واصلا دربهما وشاهدا رقم 16 آخر، لكنّه رقم الدائرة: الرقم الصحيح للبيت الذي يحمله هو 1206. واصل الصديقان تقدّمهما، وصادفا رقم 16 ثالثًا، لكنّه كان الرقم الذي وضعته الإدارة القديمة لمصلحة الطرق: الرقم الصحيح للبيت الذي يحمله هو 132! أخيرًا، تخلّيا عن هذه الرحلة الاستكشافية بعد أن فشلا أمام رقم 16 مكرر».

تبقى معرفة أين، أو بالأحرى كيف تقررت بداية الشوارع في باريس، أي بعباراتٍ أخرى كيف سينجح المرء في الاستدلال داخل العاصمة؟ في 4 شباط/ فبراير 1805، صدر مرسومٌ أمر بأسلوبٍ دقيقٍ بالترقيم الإلزامي للبيوت الباريسية ضمن مهلة ثلاثة أشهر. وقد حدّد هذا المرسوم وجوب ترقيم كلّ بابٍ، وأوضح أنّ الأرقام الزوجية مخصّصةٌ للجانب الأيمن من الشارع، والأرقام الفردية لجانبه الأيسر،

بحيث يبدأ الرقم الأوّل في مدخل أقرب شارعٍ من نهر السين ويصعد مجراه للشوارع الموازية. وبتاريخ 23 أيار/ مايو 1806، أصدر نابليون الأول بنفسه مرسومًا بأن «تنفّذ التسجيلات الجديدة بالزيت، وتكون في عهدة بلدية باريس». لكن وجب انتظار العام 1847 لإجراء تجديدٍ عامٍّ لترقيم العمارات كي يُعاد صنع مجمل لوحات الشوارع بالكامل ضمن طرازٍ موحّدٍ وفريدٍ في العالم: «لوحاتٌ من الخزف الأزرق المشويّ بنارٍ قوية». كان من المفترض أن يكون رقم العمارة بقياس 8 سم ارتفاعًا و12 سم عرضًا، وأن يوضع قرب جرس العمارة. بعد قرنٍ من ذلك، وعبر مرسوم العام 1938، حُـدّدت الخصائص التقنية على نحوٍ أكثر دقّةً: «تكون اللوحات المخصّصة لكتابة اسم الشارع مستطيلة الشكل وتكون أبعادها مختلفةً وفق حجم الاسم الذي سيُسجّل. يتراوح عرضها بين 70 سنتيمترًا ومترٍ واحد، ويتراوح ارتفاعها بين 35 و50 سنتيمترًا. وتكون على الطراز التالي: الأحرف أو الأرقام باللون الأبيض، الخلفية زرقاء لازوردية، الإطار أخضر برونزي بعرض 3.5 سنتيمترات، مع تظليلٍ رفيعٍ بالأبيض والأسود». وأوضح مرسومٌ للعام 1982، أنّ الأمر يتعلّق بـ«أزرق فتالوسيانات النحاس» و«أخضر أوكسيد الكروم». هكذا نستطيع الافتخار بهذه اللوحات اللازوردية التي تذكّر بزرقة باب عشتار في بابل، والتي ربّما لا تزال تفعل، إلى هذا الحد أو ذاك، وسواءٌ أكانت أرقامًا تعويذيةً أم لا، إلى حدٍّ ما على طريقة الطلاسم التي تصفها على أبوابنا جميع ضروب الفولكلور في العالم. غير أنّ البنية الحضرية المعقّدة لم تعد تستطيع العمل من حيث الاستدلال مثلما كانت تعمل تقليديًا في العالم الريفي، ففي قريتي بمنطقة بورغونيا، ومنذ ثمانينيات القرن العشرين حيث خُصصنا برقمٍ لكلّ باب، أتذكّر أنّ البلدية هي التي زوّدتني باللوحة الصغيرة الزرقاء المطلية بالمينا، كما في باريس، وبأنّ تثبيتها كان على عاتقي، ما يفسّر لماذا يبدو هذا الرقم 4 مائلًا قليلًا.

اليوم، يجب أن يحصل كلّ بيتٍ وكلّ عمارةٍ على شهادة ترقيم، والرقم مطلوبٌ من المسّاحين والكتّاب العدل وغيرهم كثر. لهذا الأمر سببٌ عملي، لكن يجب ألّا يغيب عن نظرنا أنّ المسكن الثابت، أو بالأحرى إرادة جعلنا حضريين للتمكّن من معرفة أبوابنا والعثور عليها في كلّ لحظةٍ، تفرض نفسها أكثر فأكثر بوصفها حقًّا سياديًّا لكلّ دولةٍ توصف بأنّها حديثة، وهو أمرٌ يجب أن يدفعنا إلى التفكير.

مغلّفاتٌ لكلّ ساعة

يخصّ الهوس بالمراسلات الذي سيعرفه القرن التاسع عشر النساء القابعات في المنازل والمهتمين بهنّ على نحوٍ أخص. سوف تبثّ المغلّفات والبطاقات التي يرسلها هؤلاء وأولئك الحيويةَ في عالمٍ كاملٍ، يضمّ أصحاب إيراداتٍ وعاملين في البريد وسُعاةً خاصين ونواطير سيمضون ليطرقوا أبواب الحضريين والحضريات المعنيين يوميًّا ويدفعوا قلوبهم للخفقان. في وصف ميشيل بيرو[475] (Michelle Perrot) لشعائر الحياة البورجوازية الخاصّة، تذكيرٌ بأنّ الحياة في تلك الحقبة كانت محكومةً أكثر فأكثر برموز. سوف تتطوّر الممارسات التراسلية إلى درجة أنّ الأميّين، كما في كلّ الأزمنة، سوف يلجأون على نحوٍ متزايدٍ إلى كتّابٍ عموميين للمشاركة في «حمّى الكتابة»، هذه التي ستستولي على أكثر من شخص. وسيؤدّي هذا الشغف الكتابي أيضًا إلى تحوّل منظومات التواصل وتحسّنها.

لئن كانت فرنسا في أزمنة البلاط المتجوّل شهدت حكوماتٍ تراسلية، فإنّ البريد لم يسيَّر في مجمل المملكة إلّا في القرن الخامس عشر، مع تعميم الورق وإقامة لويس الحادي عشر في العام 1477 محطّات البريد الأولى، وبدءًا من القرن السابع عشر أصبحت الشركة

(475) ميشيل بيرو (وُلدت في العام 1928)، مؤرّخةٌ ومناضلةٌ نسويةٌ فرنسية.

العامة للبريد هي التي تؤمّن توزيعه، أمّا في باريس، فبدأت تتوافر في خمسينيات القرن السابع عشر، لكن لم يكن هنالك آنذاك إلا أربعة مكاتب للبريد تعمل في العاصمة، وكان هدفها هو بالأخصّ السماح بإرسال المراسلات إلى الريف وإلى الخارج. في العام 1653، وبمبادرةٍ من جان جاك رونوار دو فيابيه[476] (Jean-Jacques Renouard de Villayer)، بدأ وضع علبٍ جدارية في زوايا الشوارع الرئيسية في العاصمة حيث يستطيع كلّ شخصٍ أن يودع رسائله بشرط أن تكون محوطةً بقصاصةٍ تسمّى «الدفع مقابل النقل» يجب على المتلقي تسديدها لدى وصولها. ومع أن هذا البريد لم يكن يُجمع إلا ثلاث مراتٍ يوميًّا، لم يكن في باريس في العام 1692 إلا ستّ علبٍ بريدية، لكن مع تعاظم عادة التواصل والحاجة إليها بالتوازي مع تعاظم حجم المدينة، فاق عدد علب البريد في العام 1780 خمسمئة علبة، وبعد عشر سنواتٍ من ذلك بات توزيع الرسائل من اختصاص الدولة، وبدءًا من العام 1791 تطوّرت مهنة ساعي البريد في المدينة، لكنّ عدد الرسائل والهوس الحقيقي بالكتابة لم يتطوّرا حقًّا إلّا في العام 1849، مع اختراع الطابع البريدي، أي الضريبة التي يدفعها المرسل مباشرةً.

تميّزت الحياة البورجوازية الخاصّة في القرن التاسع عشر بإبراز العلاقة الاجتماعية، وبخاصةٍ ضمان استمراريتها، وهو أمرٌ ساعدت فيه على نحوٍ كبيرٍ جدًّا، الرسائل والكلمات المرسلة، المودعة أو المدسوسة مباشرةً تحت الأبواب. وكان سيباستيان ميرسييه قد لفت النظر، منذ العام 1782، إلى هذا الجنون الباريسي بامتياز، وهو جنونٌ أُطلقت عليه تسمية

(476) جان جاك رونوار دو فيابيه (1607 ـ 1691)، عميد مستشاري الدولة في عهد النظام القديم. انتُخب في الأكاديمية الفرنسية في العام 1659. أسّس في العام 1653 «البريد الصغير»، وابتكر نظام العلب البريدية التي وضعها في شوارع باريس الرئيسية، وكذلك أوائل «سعاة البريد» الباريسيين.

«التكاتب على الأبواب». ذكر أنّ «المجتمع الراقي كان يكرّس أربع أو خمس ساعات، مرتين أو ثلاث مرّاتٍ أسبوعيًا، للقيام بالزيارات. كانت الطواقم تجوب شوارع المدينة والضواحي كلها. وبعد مراجعاتٍ كثيرة، حدّد الناس عشرين بابًا على الأكثر لإرسال الرسائل منها وتلقّيها، يظهر المرء ربع ساعة في حوالى نصف دزينةٍ من البيوت، إنّه يوم الماريشالة، الرئيسة، الدوقة، يجب الظهور في الصالون، وتقديم التحية، والجلوس كلٌّ بدوره على الأريكة الفارغة، ويعتقد المرء بجدّيةٍ أنّه يستطيع تطوير معرفته بمئة وستين إلى ثمانين شخصًا. تميّز تحرّكات الذهاب والمجيء هذه في باريس رجلًا من المجتمع الراقي، فهو يقوم بعشر زياراتٍ كلّ يوم، خمسٌ منها حقيقية وخمسٌ منها على بياض، وعندما يكون قد عاش هذه الحياة المتنقّلة والمتبطّلة، يقول آنذاك إنّه أدّى أهمّ واجبات المجتمع».

كلّما تقدّمنا في القرن التاسع عشر، كانت الحياة مضبوطةً واتّسمت الأوقات، كتوقيت الزيارات ومدّتها، بالشعائرية. بات تنظيم المرء نهاراته والانشغال بإجراء الزيارات أو تلقّيها هوسًا في المجتمع الراقي. هكذا كان المرء يمرّ... وبطبيعة الحال، كان في حال لم يعلن عن مجيئه أو أتى في اليوم الخطأ، يجد الباب مغلقًا، وآنذاك يكون لديه عددٌ من الخيارات، يتمثّل أحدها في أن يترك مع الخادم أو الناطور كلمة، ويتمثّل آخر في أن يمرّر من تحت الباب «بطاقةً مثنيةً» أو مطويةً وفق الدُّرجة الشائعة آنذاك، أي بعبارةٍ أخرى بطاقة زيارةٍ مصحوبةً ببضع كلماتٍ تحجب خيبة أمله الناجمة عن مجيئه في الوقت غير الصحيح، لكنّها تؤكّد أحرّ مشاعره أثناء هذا المرور المباغت، وهي طريقةٌ يشير فيها إلى احترامه الشخص الغائب ويجدّد إشارةً إلى صداقته له. وإذا كانت البطاقة غير مثنية الحافّة في الجانب الأيمن العلوي، كما درجت عليه العادة، فهذا يعني أنّ خادمًا أو موظّفًا في هيئةٍ لـ«واضعي البطاقات»

هو الذي أودعها، أو على نحوٍ أبسط أنّ ساعي بريد المدينة هو الذي وزّعها! وبعد أن كان يُنظر إلى «الزيارات بالبطاقات» في ثلاثينيات القرن التاسع عشر بوصفها مبتذلة، تعاظمت أهميتها فيما بعد، بل إنّ النساء طبعن على بطاقاتٍ مستطيلةٍ صغيرة «يوم الزيارة» الخاصّ بهن، أي اليوم الذي يفتحن فيه أبوابهنّ لأصدقائهنّ كلّ أسبوع. لم يكن نادرًا أن يضاف إلى تلك البطاقات التوقيت الموصى به لإجراء هذه الزيارة المضادة، وكان التوقيت الأكثر شيوعًا هو بين الخامسة والسابعة مساءً. وإذا كان الأمر يتعلّق بكلمةٍ خاصّة أو بإبلاغٍ عن مناسبةٍ عائليةٍ صغيرة، كان يمكن توصيل «بطاقة الأسرة» الخاصّة، وهي بطاقة زيارةٍ ذات قياسٍ أكبر وشبه مربعة لا تذكر إلّا اسم الزوجين وعنوانهما ويمكن أن يكون المرء فيها أكثر خصوصيةً. نادرًا ما كان البريد يحمل لك «بطاقةً مهنية»، إذ كنت تتسلّم مثل هذه البطاقات مباشرةً من الطبيب أو المحامي أو التاجر الذي يتابع شؤونك ويذكّرك على هذا النحو بصفته وعنوانه.

كما كانت هنالك «البطاقات المشبوكة» أحيانًا بهدية، لكن في معظم الأحيان خلف باقةٍ من الأزهار تُسلّم على باب سيّدةٍ يرغب المرسل في قول بعض الأمور لها. ودلالة هذه الكتابات المزهرة التي كانت كلّ فتاةٍ كريمة المحتد، وحتى مولودة في الريف تعرف كيف تؤوّلها، تجد مصدرها في **دليل لغة الأزهار الصغير** (*Petit langage des fleurs*). إنّه دليلٌ مبسّطٌ حقيقي يعبر الأبواب ويذهب مباشرةً إلى القلوب. هكذا تتلقّى الفتاة زهرة أكاسيا بيضاء دلالةً على الحب الأفلاطوني، وأزرار وردٍ لتهنئة فتاةٍ غضّةٍ وواعدة، وأزهار ليلكٍ لتأكيد الانفعالات الأولى، أو أزهار السمسم كي تفتح لك المرسَل إليها قلبها. تدلّ زهرة رقيب الشمس على تصريحٍ بالحب، وزهرة أبي خنجر أو القرنفل على نيران الحب. أمّا الكاميليا، فتؤكّد مواهب السيّدة، في حين أنّ الوردة المجرّدة من أشواكها طريقةٌ شريرةٌ نوعًا ما للتعبير عن المتعة السهلة، وزهرة

أذن الفأر طلبٌ من صاحبة العلاقة ألّا تنساك... كما كان بالإمكان قول الأمور على نحوٍ أكثر مباشرةً: الأسلِ المزهر: أنتِ تجذبينني، الزراوند: أريد ضمّةً منك، الشمشار: أنت حقًّا صارمة. مع هذا كلّه، إن لم ينفع شيء، تعبّر كميةٌ من الأوراق الميتة عن السوداوية تعبيرًا ممتازًا. بعد منح حامل الأزهار الصغير مبلغًا من المال وصرفه، تمرّ أحيانًا إعلاناتٌ أخرى من دون الاضطرار لفتح الباب بفضل هذه الطريقة الجديدة في التواصل عن بعد: البريد. لكن بحسب الناطور وشؤونه الملحّة وسوء طويته، كثيرًا ما كان يحدث أن يعثر المرء على مغلفات النهار موضوعةً أمام الباب أو مدفوعةً أسفله. يقوم المرسل إليه، مثلما فعلنا كلّ صباحٍ طيلة أكثر من قرنين ولا نزال نفعل بدرجةٍ أقلّ اليوم بسبب الإنترنت، بجمع الرزمة، لكنّه ينظر في ظهر المغلفات ليعرف مصدرها، حتى قبل أن يفتحها. كانت أعيننا قد اعتادت شيئًا فشيئًا التعرّف إلى الرسائل التي تعلن عن محتواها بقياسها وهيئتها. بالنسبة إلى المغلّفات الخارجة عن المقاييس المعتادة، إمّا لصغر حجمها أو لكبره، والمجمّلة عمومًا، كان المرء يعلم بالتأكيد أنّ الأمر يتعلّق بحدثٍ سعيد: أمنيات بداية العام الجديد، زواج، ولادة، المناولة في شهر أيار/ مايو... وما إلى ذلك. أمّا المغلفات الصارمة والمختومة بشعار الجمهورية، أو تلك التي تتضمّن ترويسة مؤسسةٍ ما، فلم يكن تلقّيها يومًا علامةً حسنة: ضرائب، غرامات، فواتير، استدعاءات. لنتجاوز الكتابات النزوية أو المتوقّعة من العائلة، وتلك الأكثر عصبيةً وإنفاذًا للصبر، الخاصّة بالغراميات، رسائل حقيقية وبطاقات كانت كثيرة العدد إلى أن أزاحها الهاتف عن عرش مظهرها العلائقي نصف المباشر لكن الأساسي ليغذّي تاريخ العائلة. في هذه الحالة، توجد أيضًا في بعض الأحيان رسائل أكثر جذريةً يشي إطار مغلفاتها الأسود بكلّ شيءٍ عنها حتى قبل أن نفتحها.

إخطار الوفاة ليس إعلانًا عن أمرٍ غير حاسم، وحتى الورق اتّخذ لون الخبر القاتم. يجب أن ندرك أنّ ورق الرسائل في القرن التاسع عشر، وعلاوةً على المغلّف المؤطّر بالأسود، كان مرمّزًا بصرامةٍ بالنسبة إلى الأقارب المصابين مباشرةً: تكون له حاشيةٌ سوداء بعرض سنتيمترٍ واحد في بداية الحداد، تتقلّص تدريجيًّا لتصل إلى ربع سنتيمتر في نهاية الحداد، قبل أن تعود إلى اللون الأبيض بعد انتهاء الحداد. أمّا الأرامل، فوجب عليهنّ، إلّا في حال تزوّجن مجدّدًا، الاستمرار في الكتابة بمفردهنّ خلف أبوابٍ خرساء على ورقٍ مؤطّرٍ بالأسود ضمن انتظارٍ يتجدّد كلّ يومٍ لأن يأتي حفيف مغلّفٍ ينزلق سرًّا من تحت الباب ليكسر الصمت الذي كان المجتمع يفرضه عليهنّ آنذاك.

باب الاحتشام

أنا محتشم، أنتم محتشمون، نحن محتشمون، ضحايا أو ممتثلون للحثّ المهدِّد إلى هذا الحدّ أو ذاك على إخفاء أجسادنا في أفعالها... ماذا يعني ذلك بالنسبة إلى موضوعي؟ الجواب: وفق الثقافة التي نجد أنفسنا فيها، لدينا أبوابٌ مرتفعةٌ إلى هذا الحدّ أو ذاك أو ليس لدينا أبوابٌ لإخفاء بعض نشاطاتنا المتحفّظة! اعذروني على التعميم لكنّ الأمر يتعلّق لديّ بمحاولة معرفة منذ متى لم نعد نريد أن يرانا أحد ونصبنا أبوابًا داخليةً بيننا وبين بقية المجتمع يمكن أن تنغلق من دون تفسيرٍ؟ أترك لجان كلود بولون[477] (Jean-Claude Bologne) الحديث عن العلاقة بين مطاردة العري والبحث عن المجاملات في كتابه الرائع **تاريخ الاحتشام** (*Histoire de la pudeur*)، إذ إنّ همّي

(477) جان كلود بولون (ولد في العام 1956)، شاعرٌ وروائيٌّ وصحافيٌّ ومدرّسٌ ومحاضرٌ بلجيكي. يمزج أحيانًا بين التاريخ والرواية وتُرجمت أعماله إلى عدّة لغات.

أكثر تقنيةً: كيف فرض الباب ذاتَه ليغلق علينا في أماكن محدّدةٍ بضع دقائق يوميًّا. ما أعلمه هو أنّه لم يكن واردًا لوقتٍ طويلٍ وجود أبوابٍ تغلق على الحميمي، وذلك على الرغم من توصيات يسوعيٍّ في العام 1648 في كتاب **الكياسة الفاضلة** (*La Civilité honneste*) «بالحفاظ على الشرف في كلّ مكانٍ، في المراحيض العامة [...] إن كنت ستذهب فيما بعد لتلبية حاجاتك الطبيعية، فلا تفعل بحضور الناس». غير أنّ الناس تجرّؤوا ولوقتٍ طويل على التبوّل في المدافئ، وخلف الأبواب وستائر الشرفات، وعلى الدرج وأماكن أخرى، إلى درجة أنّ أوروبا بأكملها قالت في نفسها إنّه ربّما كان من طباع الفرنسيين عدم التبوّل بمفردهم! كما قيل إنّه وُجدت متعةٌ خاصةٌ في «الجلوس على كرسيٍّ مفتوح»، عندما كان لدى المرء كرسي... لكن في العام 1578، أمر هنري الثالث، وقد اشمأزّ من ذلك المقدار من القذارة المحيط به، بتنظيف القصر كلّ صباحٍ بالفرشاة قبل نهوضه. وفي العام 1606، أصدر هنري الرابع قرارًا ضد «أيّ تفريغ حمولةٍ في غير مكانه». أمّا لويس الرابع عشر، الذي لم يستهن بطقس الكرسي الذي كانت تُدعى لحضوره العائلة وبعض أفراد الحاشية، باحترامٍ كاملٍ لحقّ الأسبقية، فلم يكن لديه حلٌّ آخر للهرب من القاذورات التي لا يمكن تجاوزها والتي كانت تغزو المكان، إلّا بالانتقال من قصرٍ إلى آخر ليكون ممكنًا تنظيف واحدٍ أثناء توسيخ الآخر. هكذا تنقّل من فرساي إلى اللوفر، ومن اللوفر إلى فونتينبلو[478] (Fontainebleau)، هاربًا من الرائحة ومن فظاعة القاذورات المعروضة في كلّ مكان... غير أنّ المؤرّخين ذكروا وجود مراحيض عامّة مفتوحة للجميع ومرتّبة على نحوٍ ممتازٍ في مخازن الغلال، لكنّها ربّما كانت بعيدةً جدًّا بالنسبة إلى من يشعر بالحاجة إلى

(478) فوتينبلو: مدينةٌ فرنسيةٌ تقع في منطقة إيل دو فرانس على بعد 61 كيلومترًا جنوب شرق باريس.

تلبية الحاجات الملحّة لهذه الانبعاثات التي لا تعرف الانتظار. لئن كان الناس في القرن السابع عشر يُصدمون بسهولةٍ من كلمةٍ بذيئةٍ أو من مقطعٍ لفظيٍّ قذر، فهم لم يكونوا يفكّرون في الدفاع عن حميمية حجرة، وذلك على الرغم من اغتيالات الرجال من ذوي البناطيل المُنْزلة والمجرّدين من أيّ دفاع. لم يكن الناس يشعرون على الإطلاق بأنّهم في خطرٍ عندما يكون الباب مفتوحًا، أمّا شعور الاحتشام، فلم يكن كافيًا كي يفكّروا في وضع أبوابٍ نوعية، بل استخدام مفاتيح للأبواب الداخلية، كانوا يفضّلون استغلال ظلّ المَخادع والأبواب المزدوجة والزوايا المنعزلة. لكنّ الأمور أخذت تتغيّر مع تخصيص الحجرات، الذي بدأ في القرن السابع عشر. ستميل المساحات المتعدّدة الوظائف للاختفاء، مؤدّيةً عند الحضريين إلى مزيدٍ من التحكّم بالنفس، وفي الشقق إلى مزيدٍ من الترتيب المنزلي. وبالفعل، وعلى نحوٍ شديد التدريج، سوف تُدفع الفوضى وضروب العناية بالجسد إلى مساحاتٍ متقلّصة وتزداد خصوصيةً. في هذه التعريفات الجديدة للحيّز، ستكون مساحات الأُلفة الاجتماعية، مثل صالة الطعام والصالون، أكثر فأكثر انفصالًا عن أجزاء المسكن الأخرى. سيخصِّص الناس أماكن يستطيعون فيها أن يمارسوا بكلّ سكينةٍ الحركات المألوفة، بل ينقادون فيها لأنفسهم بعيدًا عن حضور الآخرين وحكمهم. سوف تكون الخصوصية مقتصرةً على أماكن يتزايد تحديدها وتقطيعها. مع القرن الثامن عشر، سوف نشهد حركةً عامةً لبزوغ فردانيةٍ قيد الفعل، فقد شجّع الاعتراف بالأفراد على انطوائهم على دوائرهم الخاصة، بل على أنفسهم، وسوف يتمّ حصر تحرّكاتٍ بعينها بحرصٍ شديدٍ بعيدًا عن الفضول، إلى درجة أنّ المرء لم يعد يستطيع الانسياق إليها إلا في أماكن معزولةٍ ستكون مخصّصةً لها على نحوٍ نوعي. من بين هذه الأماكن التي تستبعد الآخرين، نجد «خِدر المرأة»، وهي حجرةٌ صغيرةٌ جدًّا تجاور الغرفة،

مريحةٌ وغالبًا ما تكون مزيّنةً وكأنّها علبة سكاكر، تستطيع السيّدة أن تنسحب إليها لتنفرد بنفسها وتسترخي، وهي مصمَّمةٌ أيضًا، وفق **قاموس تريفو**، «للحَرَد من دون شاهدٍ عندما يكون المرء في مزاجٍ سيئ»، وبالتالي سوف تتلقّى كميّةٌ من الحجرات الصغيرة والزوايا المنعزلة، كي لا نقول من الزوايا الصغيرة[479]، في بيوت الحقبة تخصيصاتٍ نوعية. من بين هذه الأماكن الجديدة، يكتب المهندس المعماري جان فرانسوا بلونديل[480] (Jean-François Blondel) في العام 1737: «إلى جانب غرفة النوم هذه توجد كبينة صغيرة حيث تقام مواضع ذات صمام ملائمةٌ جدًّا لوضعها قرب الشقق الكبيرة، لأنّ أيّ روائح سيئة لا تنبعث منها. كما تُدعى الكبائن التي تكون فيها هذه المواضع أيضًا 'كبائن ذات صمام'. وهي تزيَّن على نحوٍ جميلٍ للغاية ومن عادة مَن يدخلها وضع مؤخّرته في مقعدٍ مصنوعٍ من الخشب المطعّم أو المشغول، يوضع ضمن كوّةٍ على شكل تجويف، وعلى جانبيه بابان صغيران، يفيد أحدهما كممرٍّ للدخول إلى خزانة الملابس ويمكن أن يفيد الآخر كخزانةٍ توضع فيها المياه المعطّرة». في ذلك الوقت وبدعمٍ من المعماريين، ومع تطوّر العقليات البورجوازية المستلهمة من النموذج الأرستقراطي، ستشهد «الكبائن» و«خزائن الملابس» وغيرها من «وسائل الراحة» قفزةً غير متوقّعةٍ في السعي إلى الاقتصاد في الحركة والتبعية. نحن نعلم أنّ لويس الخامس عشر أمر في نهاية حكمه بوضع «كرسيٍّ إنكليزي» ملحقٍ بغرفةٍ جديدة، يغذّيه بالماء خزّانٌ وُضع في طابق السطيحات وأنبوب تفريغٍ صُنع من الرصاص، يرتبط بالحفرة

(479) لا يزال الفرنسيون يستخدمون حتى اليوم تعبير الزاوية الصغيرة للدلالة على المرحاض.

(480) جان فرانسوا بلونديل (1683 ـ 1756)، معماريٌّ فرنسيٌّ انضمّ إلى الأكاديمية المعمارية في العام 1728.

ارتباطًا مباشرًا. ربّما كان ذلك «موضعًا ذا صمام» يسمح بتجنّب الروائح بفضل ما يشبه عارضةً متأرجحةً تنخمص تحت وزن المادة وصمامًا يعمل بزرّ سحب. وتحت تأثير «النمساوية» ماري أنطوانيت، تبنّى لويس السادس عشر عاداتٍ صحيةً جديدة عندما أمر بتركيب «مواضع» رائعة «على الطراز الإنكليزي» مع تنظيفٍ آليٍّ للحوض و«رشقة نظافةٍ» للمستخدم. لكن إذا كانت كلمة كبينة (cabinet) بقيت تشير في مطلع القرن الثامن عشر إلى مكان العمل أو الترتيب، فقد أشير في بعض البيوت المتميزة في النصف الثاني من ذلك القرن إلى «بيت الراحة»، «المكان السرّي لحاجات الطبيعة» المزوّد بمقاعد خاصّة وعلاماتٍ مميّزةٍ أخرى للراحة. لكنّ أكثر حركات النظافة تواترًا كان لا يزال الغسل التقليدي للوجه واليدين، ولاسيّما قبل تناول الطعام. بطبيعة الحال، كانت «أماكن الانزواء» النادرة مصمّمةً للحفاظ على الحميمية فيها، لكن كذلك من أجل ترتيب الأدوات المرافقة لها: حوض التسخين، حوض استخدام الصابون، حوض اللّحية، الأواني المجوّفة الكبيرة، سطولٌ للقدمين تسمح بغسل الأجزاء الأقل ظهورًا من الجسم. يقدّم سويفت[481] (Swift) في قصيدته **كبينة تزيين سيّدة** (*Le Cabinet de toilette d'une dame*) لمحةً مشوّقةً بالحدّ الأدنى عن النظافة الشخصية في العام 1730، ويصل توصيفه إلى درجة أنّني لن أذكر هنا إلّا بعض المقاطع التي تستطيع حساسياتنا المعاصرة والمعقّمة أن تتقبّلها: «أنفقت النبيلة سيليا خمس ساعاتٍ لترتدي ملابسها (ومن يستطيع القيام بذلك بوقتٍ أقل؟)، خرجت مهندمةً كإلهةٍ وكلّها دانتيل وبروكار وأقمشة موشاة بالذهب... يمرّ ستريفون (Stréphon) ويجد

(481) جوناثان سويفت (1667 ـ 1745)، أديبٌ وسياسيٌّ إنكليزيٌّ ـ أيرلندي، اشتُهر بأعماله الساخرة المنتقدة عيوب المجتمع البريطاني والسلطة الإنكليزية في أيرلندا، ومن أشهر رواياته **رحلات غوليفر**.

الحجرة فارغة. يدخل بصمتٍ وهدوءٍ ويستقصي [...]. أمشاطٌ متنوّعةٌ لاستخداماتٍ متنوّعة، لكنّ القذارة متغلغلةٌ فيها إلى درجة أنّ فرشاةً لا تستطيع أن تشقّ طريقها فيها [...]. أوعيةٌ وقوارير صغيرةٌ مصفوفةٌ كالبصل[482] تمتلئ بالمستحلبات أو بالكريمات أو المراهم أو مساحيق التجميل أو المستخلصات، والدهون للأنوف التي تبدو كأنّها مصابة بالجرب. وغير بعيد حوضٌ وسخ ـ الوساخة الآتية من يدي سيليا ـ، أوعيةٌ متعدّدةٌ لتلقّي القاذورات [...]. هل يجب أن نحدّثكم عن الصندوق؟ [...] عبثًا... [...] أتمنى ألّا يُرى عند سيليا ثانيةً الأثاثُ الخالي من المجد!». للغرابة، كانت الثورة هي التي روّجت التصرفات التي كانت حتى ذلك الحين تقتصر على الأوساط البورجوازية. في الوقت عينه الذي ساد هذا الشعور الجديد باحترام احتشام كلّ فرد، فرضت الرغبة في التحكّم نفسَها على الأماكن العامة كافّة. نُشر في باريس في العام 1791 بأمرٍ من الجمعية الوطنية، كتاب **المُشتمل** (*Panoptique*) الشهير لجيريمي بنتام[483] (Jérémie Bentham)، وتضمّن تصميمًا للسجن يُفترض فيه أن يسمح برؤية كلّ شيءٍ والتحكّم بكلّ ما يوجد في السجن وبالسجناء بواسطة حارسٍ واحدٍ موجودٍ في مركزه. ويقترح الكاتب «استحداث منافع في كلّ زنزانة [...] لأنّ قواعد

---

(482) الترتيب في صفوفٍ كالبصل: كنايةٌ عن الترتيب حسب الحجم، على عادة القرويين.

(483) جيريمي بنتام (1748 ـ 1832)، مصلحٌ اجتماعيٌّ وحقوقيٌّ وفيلسوفٌ بريطاني. يعدّ مؤسّس المذهب النفعي الحديث. أثّرت أفكاره في تطوير مفهوم الرفاه. نادى بمفهوم الفرد والحرّية الاقتصادية وبفصل الكنيسة عن الدولة، ودعا إلى منح النساء حقوقًا مساويةً للرجال والحقّ في الطلاق، وإلى إلغاء الرقّ وحكم الإعدام وإلى عدم تجريم المثلية الجنسية. كما دعا إلى منع العقاب الجسدي، بما في ذلك عقاب الأطفال جسديًا، وعُرف في سنواته الأخيرة بوصفه مدافعًا مبكرًا عن حقوق الحيوانات. وعلى الرغم من أنّه دافع بقوّةٍ عن توسيع الحقوق القانونية الفردية، فقد عارض فكرة القانون الطبيعي والحقوق الطبيعية.

الصحّة العامّة تفرض ذلـك»، لكنّه أوضح أنّ ذلك «موضوعٌ يجب تفحّصه بالتفصيل، لأنّه ليس من أسمى المواضيع ولا من أكثرها بعثًا للسرور». كما أنّ هذه الرهافة، علاوةً على أنها تشرّف الكاتب، تُظهر لنا أنّ شعور الاحتشام، ومن دون أن يفقد الانشغال بالتحكّم، يطغى لديه على العقليات والمشاريع الأكثر شموليةً، مثل عمارة الرعب والانغلاق هذه، فيتخيّل أنّ «حاجزًا خفيفًا، يمكن أن يضعه السجين عندما يريد، قد لا يُعدّ فائضًا عن الحاجة، إذ يمكن أن يوضع بحيث لا يحجب عن نظر المفتّش أيّ عمليةٍ ممنوعة، علاوةً على أنّه يحافظ على الحشمة». يجب انتظار العصر الصناعي لنرى تصوّرًا جديدًا للراحة وللفضاءات الحميمة ينتشر في طبقات الحضريين الوسطى. في كتاب روجيه هنري غيران[484] (Roger-Henri Guerrand) **تاريخ المتفعات** (*Histoire des commodités*)، يتحدث المؤلّف عن «التضييق الشديد» في القرن التاسع عشر، وهو يقتفي أثر تلك اللحظة التي تطوّر فيها الرعب البورجوازي من «الطبيعي» إلى درجة وجوب إخفاء كلّ ما هو من طبيعتنا وعدم مشاركة أسرارنا مع أيٍّ كان، من أبناءٍ أو أجانب عن العائلة. إنّ هذه الرغبة في تحديد حجرة تزيينٍ وتسميتها وإغلاقها أو في قضاء حاجةٍ داخل شقّةٍ هي أصلًا مغلقةٌ على الخارج، سوف تكون بمثابة إبعادٍ عن المسرح العائلي وإعادة نظرٍ في الطغيان المنزلي العذب الذي يعرفه جميع أهل البيت ويقبلونه. كما أنّ إغلاق المرء على نفسه وإبعاد غرفٍ عن أنظار الأجانب القريبين وأنظار الخدم واستبعادهم عن العالم الذي كانوا معتادين تشارُكَه (وغالبًا إدارته)، سوف يؤدّيان إلى قطيعةٍ جذريةٍ في أسلوب عيش العائلات الأكثر ثراءً. وسوف يتمّ هذا التحوّل تحت التأثير المتزايد الـذي تمارسه ربّات المنزل اللواتي

(484) روجيه هنري غيران (1923 ـ 2006)، مؤرّخٌ فرنسيٌّ متخصّصٌ في تاريخ الحياة اليومية في المناطق الحضرية.

استبعدهنّ الرجال من أيّ مشاركةٍ في الشؤون العامّة أو الحياة العامّة، في الوقت عينه الذي جعلوهنّ يكرّسن جميع متعهنّ لتصوّر أنفسهن. سوف تقوم ربّات المنازل بدافع المقاومة أو التحدّي بـ«الاعتناء» ببيوتهنّ بأنفسهنّ، أي أنّهنّ بعبارةٍ أخرى سوف يولين اهتمامًا مباشرًا بتنظيم المنزل. وتمامًا مثلما يُغلَق الحمّام، الذي أصبح مكانًا محرّمًا على عري السادة الذين لم يعودوا يتحمّلون أن يراهم خدمهم، سوف تغلق السيّدة بابها لتنفرد بنفسها في خِدرها، بل أسوأ، في مرحاضها، وتقيم علاقةً جديدةً مع ذاتها، مطالِبةً بالوحدة، لكنّها بذلك تقوم أيضًا بانغلاقٍ جذريٍّ إلى حدٍّ ما تجاه الآخر. يمكن أن يريح دفْعُ قفلٍ وإدارة مفتاحٍ بعضَ الناس ويثقلِ على آخرين. في البداية، شعر الخدم بهذا التحوّل بوصفه إعلانًا فظًّا وقطعيًّا عن استبعادٍ وشيك. يأتي الالتباس الشديد في موقع الخدم من أنّهم في الآن عينه في الداخل والخارج، منخرطون في العائلة ومستبعدون فجأةً عن صُلب حميمية المنزل، عن الزوجين، عن الجسد السرّي الخاصّ بالسّادة وعن الأماكن التي كانوا حتى ذلك الحين يساهمون في العناية بها والمحافظة عليها، بل في تعاظمها وتفاخمها بمجرّد حضورهم. لكن في أزمنةٍ أصبح الناس ينطوون على أنفسهم، ألم يكن الخدم يفتحون أعينهم مستغربين؟ ألم يكونوا يرون؟ ألم يكونوا يعلمون أمورًا أكثر ممّا يجب؟ إنّ تأنيث وظيفة الخادم وتحويل الخادمة إلى «صالحة[485] لفعل كلّ شيء» قد جعلا تلك الوظيفة تخسر من قيمتها وتصبح أكثر بروليتاريةً بسرعةٍ كبيرة، وتمسي في الوقت عينه أكثر مهنيةً. كلّما كانت هوية الرجل والمرأة بيتيةً وتطوّر مفهوم الداخل بحماية الأبواب، قلّ السماح بالبحث عمّا يجري عند الخواصّ وإخبار الآخرين به. أخذت الحياة البورجوازية الخاصة تنعزل، وفي أواخر القرن التاسع عشر، تسرّب هذا الانشغال الجديد

(485) كلمة (bonne) تعني باللغة الفرنسية خادمة وصالحة.

بالانغلاق إلى الخارج. كذلك، بات المهندسون المعماريون منشغلين بفكرة اقتراح قواعد الصحّة العامّة وتطوير نفاذ الجمهور إليها مع الاحترام الكامل لشيءٍ من الحميمية. وسوف يستجيبون لهذا الهوس الجديد بما يشبه تعبيرات الاستراتيجية العسكرية: يجب العثور على عمارةٍ تسمح بالتحكّم بالحيّز وتسعى في الوقت عينه إلى إراحة الرجل والمرأة والطفل الذين يشغلون هذا الحيز ويحافظون عليه! ينقل روجيه هنري غيران عرض مشروع مدرسةٍ رائدةٍ أراد مهندسٌ معماري أن ينجزه لمدينة ليل في ثمانينيات القرن التاسع عشر ويقيم بعض الصلات مع الرؤية «الاشتمالية» المقترحة قبل قرنٍ من ذلك. يتعلّق الأمر بمدرسةٍ توضع فيها المنتفعات، المنفصلة لكلّ صف، في آخر ممرٍّ موجودٍ في الهواء الطلق ومفصولٍ عن الصف ببابٍ مزجّج، يستطيع المعلّم أن يرى من كرسيه المنتفعات التي تكون مغلقةً بأبوابٍ بنصف الارتفاع المعتاد، مع ترك فتحةٍ في القسم السفلي بحيث يرى المعلّم من الخارج قدمي التلميذ ورأسه عندما يكون جالسًا، من دون أن يتمكّن تلاميذ الصفّ الآخرون من رؤيته، وهكذا نتوصّل إلى نتائج جدّية لا يمكن الحصول عليها عندما تكون المراقبة منعدمةً أو موكلةً إلى وكيلٍ ثانوي، كناطورٍ على سبيل المثال». كان جميع الحضور متّفقين بدايةً على واقع أنّ الأبواب يجب ألّا تصعد حتّى أعلى الإطار ولا تهبط حتى الأرض، ما كان يسمح فضلًا عن ذلك بالتهوية. وكان أمرًا بديهيًّا أن يكون تدخّل السلطة مسهّلًا على الدوام: «عدم وجود قفلٍ داخلي، وتبنّي علامةٍ تشير إلى إشغال المكان [...]، وكان ذلك يسمح كذلك بتجنّب أيّ 'عادةٍ معيبةٍ' يكون المرحاض مكانها المختار». اهتمّت مدينة باريس أيضًا بالنظافة، وواصلت (بموجب مرسوم) الدفع باتجاه تعيين الفضاءات الداخلية. في قرارٍ صدر عن المحافظة بتاريخ 8 آب/ أغسطس 1894 ويحدّد شروط القواعد المتعلّقة بالصرف الصحّي في باريس، تنصّ

المادة الأولى على أنّه «يجب أن يكون في كلّ منزلٍ يُبنى مرحاضٌ لكلّ شقّةٍ أو كلّ مسكنٍ أو كلّ مجموعةٍ من ثلاث غرفٍ تؤجّر على نحوٍ منفصل. ويكون هذا المرحاض دائمًا إمّا في الشقّة أو المسكن، أو قرب المسكن أو الغرف المخدّمة، وفي هذه الحالة، يكون مغلقًا بالمفتاح». وتحدّد المادّة الرابعة بأنّ «كلّ حوض مرحاضٍ يكون مزوّدًا بجهاز إغلاق هيدروليكي دائم». بعبارةٍ أخرى، غيّرت «ثورة السيفون» كلّ شيءٍ، بحيث كان بوسع مهندسٍ معماري في العقد الأوّل من القرن العشرين أن يقول أمام طلابه: «أمّا المرحاض، فنحن نضعه من دون أيّ خشيةٍ وسط الشقّة». من أجل هذه الحجرة الصغيرة الجديدة، يوضح قرارٌ صدر عن المحافظة بتاريخ 22 حزيران 1904، أنّ «عرض المراحيض يجب ألّا يقل عن مترٍ واحد، وطولها عن مترٍ وعشرين سنتيمترًا وارتفاعها عن مترين وستين سنتيمترًا»، بالإضافة إلى أمرٍ لم يذكره القرار، وهو ضرورة وجود باب. منذ ذلك الحين، يجب أن يكون لكلّ مسكنٍ جديرٍ بهذا الاسم مرحاضٌ واحدٌ على الأقل، بيد أنّه من الأفضل أن يوجد واحدٌ لكلّ غرفة، وواحدٌ للضيوف، وواحدٌ للخدم، وما إلى ذلك. بعد كثيرٍ من المقاومة والوجود الخانق لـ«المباول العامة»، أدّى الهوس بالصحّة العامّة والفرح بأن يذهب كلّ شيءٍ إلى الصرف الصحّي، إلى ازدهار أماكن مغلقةٍ متاحةٍ للنساء في قلب المدينة. إنّها «أكواخ الحاجة» الشهيرة الموضوعة تحت مراقبةٍ يقظةٍ لموظّفين في البلدية مسؤولين عن نظافتها. على كلّ بابٍ لوحةٌ مطليةٌ بالمينا تشير إلى التعرفة: «10 فرنكات. الإكراميات ممنوعة»، وتحدِّد بخاصةٍ استخدامَها: «يعمل عدّاد دخولٍ كلّما أُغلق الباب، والموظّفون مطالبون بالدخولات المسجلة. 'على كلّ شخصٍ يغلق الباب عدّة مرّاتٍ أن يدفع سعر الدخول عينه'». يجب أن نضيف أنّ لكلّ شخصٍ رأيًا بصدد تلك الأماكن كثيرًا ما يرتبط بمغامرةٍ خاصّةٍ تتحوّل أحيانًا إلى أسطورةٍ عائلية.

إذا ما عُدتُ في ذاكرتي إلى ما قبل العام 1965، أرى مجدّدًا في الريف «كبائن الحديقة»، وهي عبارةٌ عن كوخٍ صغيرٍ يوضع فيه لوحٌ جميلٌ من خشب البلوط على جدارٍ مشيّد، يغطّيه غطاءٌ سميكٌ من خشب الشمشار، وبابٌ خشبيٌّ عريضٌ كان يجب وضع عائقٍ خلفه من الداخل كي يبقى مغلقًا، وحيث كنت، مثل هنري ميشو، أتأمّل في مواجهة القُفْل علّة مثل هذا الانغلاق من عدمه. من منّا لم يحاول أن يحلّ لغز المراحيض المغلقة من الداخل، والذي صنع عنه باتريس لوكونت[486] (Patrice Leconte) فيلمًا هزليًّا في العام 1975؟ ها نحن مرتبكون بالفعل، لأنّ لدينا في البيت بابًا مردودًا على حميميّتنا ولا يمكن التحكّم به إلّا من الداخل. غير أنّ هذا الانغلاق أفاد كثيرًا من العائلات المتعدّدة الإخوة والأخوات، كالتي أنحدر منها، ليعزل المرء نفسه برهةً بكلّ طمأنينةٍ من أجل قراءة آخر عددٍ من سلسلة **تانتان**[487] (*Tintin*) سلّمه ساعي البريد، وذلك على الرغم من الركلات على الباب من بقية إخوتي الذين كانوا في الخارج يطالبون بالمجلة المصوّرة! بعد بلوغ سن الرشد، يبقى هذا المكان المغلق مفيدًا (ويبدو أنّ ذلك أكثر شيوعًا عند الرجال منه عند النساء)، للانكباب على مجموعاتٍ من القصص المصوّرة أو مجلّات الرحلات التي يحبّ المرء تصفّحها بين حينٍ وآخر وتوضع هنا، في ما كنّا نطلق عليه بلغتنا العائلية تسمية «ساموير» بعد أن حكمت أمُّنا المحِبّة للإنكليزية على كلمة «بيت الخلاء» (water-closet) بأنّها ربّما كانت مبتذلةً جدًّا أو قليلة الشاعرية، مفضّلةً القول إنّنا «في مكان ما» (Some Where)... سوف أذكر أيضًا أسطورةً

---

(486) باتريس لوكونت، مخرجٌ وممثّلٌ وكاتبٌ ساخرٌ فرنسيّ، وُلد في باريس في العام 1947.

(487) مغامرات تانتان: سلسلة رواياتٍ مصوّرة من تأليف الكاتب البلجيكي جورج ريمي (1907 ـ 1983).

عائليةً أخرى من طرف أبي، تحكي أنّ عمًّا من تولوز وضع بداعي المزاح (؟) قبل الحرب (الحرب الثانية) جرسًا مكان الترباس، كان يرنّ طيلة إغلاق الباب! كذلك، كان جرسٌ صغيرٌ يرنّ مع انبساط لفافة الورق الصحي. سأتوقف عند ساديّة هذا النوع من التجهيزات أكثر ممّا سأتوقف عند طرافة الشخصية وبخلها الأسطوري، حتى إذا كان شاغلو مثل هذه المنظومة يخرّبونها باستمرار. لا أعرف ما أقول اليوم عن استخدام هذه الأماكن سوى أننا نواصل إيصاد الباب خلفنا وإغلاقه بالمزلاج، في حين أنّ صغر حجم الأبواب أو غيابها، أو حتى إمكان التبرز وسط الآخرين في بلدانٍ أخرى مثل الولايات المتحدة والصين، بل والأسوأ في الهند، يبقى استفهامًا بالنسبة إلينا نحن الفرنسيين، فنحن نُكثر من السفر، لكننا في نهاية المطاف معياريون على نحوٍ حسن.

باب المجاملات

لكلّ أسلوب حياةٍ جديدٍ شعائر جديدةٌ وتوقيتاتٌ جديدة. يتعلّق الأمر بالنسبة إلى البورجوازيات الحبيسات خلف بابٍ وحبيسات فضائهنّ المنزلي بكسر الملل، عبر تمضية الوقت بشكلٍ مبهجٍ قدر الإمكان. بطبيعة الحال، يكتب كثيرٌ منهنّ يومياتٍ عندما يكنّ وحيداتٍ في غرفهنّ والباب موصد، علاوةً على الوقت الذي يمضينه خلف الباب الداخلي المغلق في الزينة، التي تستغرق وقتًا طويلًا هي أيضًا في الفترة الصباحية، وتتجدّد أحيانًا عصرًا إذا كان هنالك استقبال. يوجد بخاصةٍ فنّ العيش في زمانهنّ وفق الشرائع التي ينشرها «الاختصاصيون في التدبير المنزلي» والكتيّبات العديدة عن فنّ آداب السلوك التي ازدهرت في القرن التاسع عشر والتي سوف أستلهم منها بمقدار ما تعلّم منها الآخرون، مستعينين بعضهم ببعض. على سبيل المثال، حظي بنجاحٍ

كبيرِ كتيّب السيّدة غاكون- دوفور[488] (Gacon-Dufour) الذي طُبع لأوّل مرّةٍ في العام 1823 وعنوانه **الدليل الكامل لربّة المنزل والمدبّرة الممتازة** (*Manuel complet de la maîtresse de maison et de la parfaite ménagère*). والسبب في ذلك أنّه متخصّصٌ على وجه التحديد بفنّ العيش في باريس. تصف هذه الكتيّبات كافّة بدقّةٍ لا تصدّق دور كلّ امرأةٍ وكلّ رجلٍ في الإخراج اليومي والمتكرّر للمسرح المنزلي الصغير. تستحقّ أن تُذكر شعائر الحياة الخاصّة البورجوازية والتي وصفتها آن مارتان فوجييه[489] (Anne Martin-Fugier) على نحوٍ ممتازٍ، لشدّة ما ترتبط بضبط عمليات الدخول والخروج التي لم يكن بوسعها أن تفلت من أحد، بالطريقة التي رُمّزت وضُبطت دقيقةً بدقيقة تقريبًا. سوف أقتصر على عادات بورجوازية القرن التاسع عشر، متخيّلًا حياة شقّةٍ موسرة نسبيًّا في ضاحية سان جيرمان حيث توفّر ربّة المنزل «الإيقاع» (tempo) منذ الفجر. السيّدة هي رسميًّا أوّل من ينهض من النوم، تمامًا مثلما هي آخر من يأوي إلى السرير، فتتحرّى المكان وتعطي أوامرها للخادمة التي تكون قد نهضت منذ وقتٍ طويل وأطعمت الأطفال وألبستهم ثيابهم بانتظار التفتيش الذي تقوم به سيّدتها والأمرِ باصطحابهم إلى المدرسة. بعد أن تدفع السيّدة بضعة أبوابٍ وتُصدر أوامرها للطبّاخة وعاملة التنظيف، تتناول «فطورها الأول» أو «الفطور بالفنجان» مع زوجها، ثمّ تدفع باب المطبخ لتقديم توصياتها بصدد وجبات النهار، والمشتريات التي يجب القيام بها، والخشب الذي يجب إدخاله، والملاءات التي يجب تغييرها، والبياضات التي يجب غسلها، والغسيل الواجب إحضاره، وما إلى ذلك من المهام. ومثلما يمكن أن

(488) السيّدة غاكون دوفور (1753 ـ 1835)، أديبةٌ واقتصاديةٌ فرنسية.

(489) آن مارتان فوجييه، مؤرّخةٌ فرنسيةٌ معاصرة، متخصّصة في تاريخ الحياة الاجتماعية والثقافية الفرنسية في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

يقول بالزاك، «إنّها تصيح وتُملي الأوامر في كلّ مكان»، بانتظار وجبةٍ خفيفة، أو -إذا جاعت- «فطورٍ» دسمٍ «بالشوكة» في حدود العاشرة صباحًا. أخيرًا، وبعد خروج الخادمة وتبخّر الأطفال وخروج الزوج، وبعد أن تكون أبواب الشقّة أُغلقت على السيّدة وحدها، تمنح نفسها بعضًا من الوقت لالتقاط أنفاسها. سوف تقرأ بريدها الذي تصعد به الناطورة إلى بابها ويتلقّفه خادمٌ ويضعه في مكانٍ محدّدٍ في المدخل، بل تردّ عليه إن كان عاجلًا من دون انتظار الجلسة الكبيرة الأسبوعية المخصّصة لـ«البريد». في بعض الأحيان، إن كان مزاجها مواتيًا، ربّما تجد شيئًا من الوقت في آخر الفترة الصباحية للعزف على البيانو أو للمضيّ قُدُمًا في حياكة أقمشة المفروشات التي ستغطّي المقاعد البالية. يبقى أنّ المرأة اللائقة لا تجتاز الباب صباحًا إلّا إذا أرغمها على ذلك سببٌ مقبول، إنسانيٌّ أو ديني. لكن ثمة يومٌ تفوق أعباؤه أعباء الأيام الأخرى، هو «يوم السيّدة»، أي يوم الاستقبال الأسبوعي الذي يجنّد الجميع منذ الفجر، بل أحيانًا منذ اليوم السابق.

في خضمّ اهتياج الأيام الكبيرة، تمتلئ الممرّات والمدخل والمطبخ، وحتى خزانات آنية الطعام في غرفة الطعام والصالون، بالصياح والخطوات المستعجلة وصفق الأبواب. غرفة الانتظار (antichambre) هي منطقةٌ عازلةٌ رائعة تسمح بأن ندعو الزائر أيًّا كان إلى الداخل من دون أن نتركه خارجًا، وفي الوقت عينه لا يكون في «الداخل» بالكامل، على الرغم من أنّه أصبح فيه ومنه يستطيع التواصل من دون الدخول قبل أن يعود على أعقابه، إلّا إذا أُدخل الصالون. تلعب غرفة الانتظار هذه دورها على نحوٍ كامل، أمّا في الشقق التي ليس لها مدخل خدمة، فيَستخدم الردهةَ المزوِّدون الذين يأتون لتسليم ما لديهم صباحًا، حيث توضع هنا، بانتظار اختفائهم، البضائع ويُدفع ثمنها. في الواقع، ليس من المناسب عرض هذا النوع من الصفقات أمام الزائرين،

ولا حتى أن يصادف هؤلاء الحلواني الذي يأتي ليوصل لك الحلوى التي ستأكلونها وتعرف أنت سعرها. في ذلك اليوم، توضع في الخارج الدوّاسة العتيقة أو قطعة قماشٍ أو سجادةٌ في الداخل لتجنّب إتلاف الأرضية المشمّعة، يُفتح الباب ويغلَق بسرعةٍ ويفرَغ المدخل ممّا فيه باستعجال. في بيتٍ معتنًى به، تكون غرفة الانتظار موضوع مراقبةٍ حثيثة، إذ يجب ألّا تزدحم طويلًا بالرزم والملابس، وبخاصّة يجب أن تحتوي على الحدّ الأدنى من الأثاث، كما ينبغي أن تحتوي في البيوت العريقة على لوازم التواصل: على طاولةٍ صغيرةٍ من خشب البلوط، يوضع نشّاف مع ورق رسائل ومغلفاتٌ ومحبرةٌ وبعض حاملات ريش الكتابة كي يتمكّن زائرٌ لم يتمّ استقباله من كتابة كلمةٍ أو ذكر موضوع زيارته أو تقديم طلبٍ أو دعوة... وما إلى ذلك. يجب ألّا يغيب عن أذهاننا أبدًا أنّ الردهة هي الحجرة الأولى التي يدخل إليها المرء للنفاذ إلى بقية الشقّة، وأنّها معبرٌ إلزامي يجب ألّا نطيل المكوث فيه. صحيحٌ أننّا نستقبل فيها، لكنّ المحطّات لا تكون فيها طويلةً أبدًا: نتلقّى الزيارة ونقبلها أو لا نقبلها. لا ندخِل إلى هذه الحجرة شخصًا يسلّمنا رسالةً أو رزمة، لكنّها أيضًا حجرةٌ استراتيجيةٌ في الشقّة، فمجرّد فتح الباب يسمح لمن يمكث فيها على العتبة بتفحّص نوعية المكان والحكم عليه بنظرةٍ واحدة. لكن إذا كانت هنالك ضرورةٌ لتفسيرٍ طويلٍ نوعًا ما، أو في حال مرّ بعض الجيران، فإننا ندخِل المحادث إلى غرفة الانتظار كي لا يسمعنا صاعدو الدرج ونازلوه، ولتجنّب تيارات الهواء، وفي حال شعر الخادم أنّ القادم شخصٌ محترم، فهو يدخِله كي لا يبقى على الباب، وإذا كان زائرًا ينتظره أهل البيت أو صديقًا مقربًا من العائلة، ففي غرفة الانتظار نتسلم ملابسه الخارجية، ومن هناك يدفع بابًا ويدخل الصالون.

لكن ها هي ساعة «الغداء»، التي كانت تدعى في الأرياف ساعة «العشاء». يجلس الزوجان إلى المائدة مع أو من دون الأطفال، الذين

يبقون في كثيرٍ من الأحيان حبيسي المطبخ بإشراف الخادمة، إلّا في وجبة يوم الأحد، حيث يكون الجميع معًا في العاصمة. تظهِر «عادات العالم الراقي» أنّه من المفضّل تجنّب تمديد هذه البرهة التي تقطع النهار أكثر ممّا يجب، وكثيرًا ما تكفي وجبةٌ خفيفةٌ عندما يبقى المرء في بيته. وتأتي فترة ما بعد الظهر بكلّ «واجباتها الاجتماعية»، وتجعل بعضهم يركضون وتدفع آخرين إلى البقاء في أمكنتهم. تكون فترة العصر في يوم الاستقبال مهولةً عمومًا، حيث ستعاين السيّدة بين الثالثة والسابعة بعد الظهر حوالى خمسة عشر شخصًا يتوالون على بابها، رجالًا ونساءً على حدٍّ سواء، من الأقارب أو الغرباء، يركضون حرفيًّا من «يومٍ» إلى آخر، قاضمين أثناء مرورهم قطعة حلوى أو مبلّلين شفاههم بفنجان شايٍ فاتر، مقدّمين في الوقت عينه تحيّاتهم الودّية.

تنقل آن مارتان فوجييه جدول أعمال امرأةٍ خارج «أيّامها»، وهذا أمرٌ يثير اهتمامي من حيث عدد المرّات التي سيُفتح فيها الباب ويُغلق في عصر يومٍ واحد. فرص أن تُزار هذه المرأة متعدّدةٌ ومضبوطةٌ تمامًا. هنالك زيارات «هضم الطعام» في الأيام الثمانية التي تلي عشاءً أو حفلًا راقصًا دُعي المرء إليه، سواءٌ أكان قد تمكّن من الذهاب إليه أم لا، زيارات «المجاملات» ثلاث أو أربع مرّاتٍ سنويًّا للأشخاص الذين نرغب في الحفاظ على التواصل معهم، الزيارات للرئيس في العمل والتي يقوم بها الزوجان معًا، زيارات «التهنئة» بتلقّي وسامٍ أو تعيينٍ أو ولادةٍ أو زواج، زيارات «الاستئذان» بالرحيل، وزيارات «العودة» للتبليغ بأنّنا عدنا. كما كان يحدث أن يودِع المرء مع الناطور على باب سيّدةٍ ما، رسالة بأنّها كانت غائبةٌ، لـ«إظهار» أنّه قد أتى بالفعل ليزورها! أخيرًا، هنالك الزيارات الملزِمة، والتي تعرَف على نحوٍ أكثر بأنّها زيارات «مواساة». أثناء الزمن المحدد للحداد، كثيرًا ما تهدأ الأمور، ويفرض الحداد بزمنه ودرجاته إن كان مناسبًا اجتياز بابٍ أم لا.

لم يفز منتقدو أصول اللياقة بالكامل، ولا المدافعون عنها المتخيلون أنّ القيامة ستقوم مع قلّة التهذيب الموروثة لدى «عامّة الناس». أخيرًا، لم يعد كثيرٌ من الناس في تلك الحقبة يخاطرون بشرفهم في مبارزةٍ لردّ الاعتبار بصدد عدم احترام سلوكٍ حسن، على الرغم من أنّ هنالك من واصلوا المناداة بالحفاظ على التهذيب، لأنّه ليس اختيالًا، وذلك في مجتمعٍ يتمدّن ويتعقّد ويتكثّف. التهذيب أحد أسس القرن التاسع عشر، يستند إليه المجتمع أو يرغب في الاستناد إليه. يقدّر الناس أنّ «معجزة» التهذيب تسمح في آنٍ واحد بجمع البشر وإبقائهم على مسافةٍ معينة، مع ترك كلّ شخصٍ في فضائه الخاص وتبجيل تفرّده. نكون مهذّبين حقًّا عندما نرى بعيون الآخر. يرى كاراكو[490] (Caraco) الذي يهتمّ بالتودّد، أنّ «الحرّية تبدأ مع قواعد السلوك ولا يمكن أن تبقى من دون الالتزام بهذه القواعد». يتّفق الجميع في المجتمع البورجوازي على الاعتقاد بأنّ مدوّنةً بسيطةً ومتّفقًا عليها يجب أن تسمح بالحدّ الأدنى من الكياسة. ها قد أتى عصر السلوكيات الاجتماعية الحسنة التي ستفرض ذاتها على باب الصالونات الصغيرة والواسعة.

مع تمدّن باريس وسلوكيّاتها العديدة المرتبطة بالتهذيب، تسارع الوقت وبات عددٌ متزايدٌ من النساء يخترن إلغاء «أيّامهن» لاستقبال الضيوف مساءً بحضور الزوج. شيئًا فشيئًا، ستتحوّل الدعوات الصغيرة إلى استقبالاتٍ كبيرةٍ، وحفلاتُ الشاي إلى مآدب عشاءٍ كبيرة. بانتظار ذلك، تبدأ السلوكيّات الحسنة على الأبواب، على الأبواب كافّة، حيث يجب على الرجال، وفق مأثورٍ قديمٍ يتعلّق باللباقة، أن يحترموا النساء ويحموهنّ. بما أن الرجل أيمن الساعد في الغالبية العظمى من الأحيان، باتت اللياقة تتطلّب أن يقدّم الفارس ذراعه اليسرى للسيّدة التي تتنزّه معه

(490) ألبير كاراكو (1919 ـ 1971)، كاتبٌ وفيلسوفٌ فرنكوفونيٌّ من أصلٍ تركي، كثيرًا ما يُحكم عليه بأنّه عدميٌّ وتشاؤمي.

في حال كان من المفترض فيه أن يؤمّن الدفاع عنها، حيث تفيد ذراعه اليمنى «في حمايتها ماديًا من الأخطار وتسهيل الدروب أمامها وإبعاد الحشد في آنٍ، أي ضمان المرور وتوجيه المسير»، باستثناء العسكريين الذين يجب أن يقدّموا ذراعهم اليمنى ليظهِروا -على العكس من ذلك- أنّهم منزوعو السلاح على نحوٍ استثنائي. وللسبب عينه، يدخل الرجل إلى الأماكن العامّة أوّلًا، مبقيًا الباب مفتوحًا ليمرّر السيّدة، ومبتعدًا ليسمح لها بالمرور، حيث يجب ألّا تفتح سيّدةٌ معها مرافقٌ أي باب بنفسها أبدًا. وإذا التقى رجلٌ وامرأةٌ أمام باب، يجب على الرجل الابتعاد ليسمح بعبورها قبله، وأن يفتح لها الباب ويمسك به في الخارج، بمساعدة ذراعه الممدودة. يجب عليه أن يفعل ذلك من دون تباهٍ ومن دون أن يبدو عليه أنّه يريد تقديم خدمةٍ تستدعي الشكر. وتمرّ السيّدة وهي تقدّم للرجل تحيةً خفيفةً وتعتذر. إذا رجت السيّدة السيّدَ بأن يمرّ أوّلًا، عليه أن يطيع مع بعض الاحتجاج، فالطاعة في هذه الحالة هي العلامة المميّزة على التهذيب الحقيقي. وعندما تلتقي سيّدتان أو سيّدان أمام باب، فإنّ الأدنى مقامًا أو الأصغر سنًا سيتنحّى جانبًا للسماح بمرور الأعلى منه، وإذا أراد الأعلى تشريف الأدنى، فهو يجعله يمرّ أوّلًا، وعلى الأدنى أن يطيع من دون مقاومة. أمّا عندما يتعلّق الأمر بشخصين لهما الصفة عينها، فسيكون هنالك تردّدٌ وجيزٌ لحظة عبور الباب، الشخص الذي يكون أبعد عن العتبة سيترك الآخر يمرّ، وهنا أيضًا من دون تباهٍ، لكن يندر أن لا تكون هنالك فوارق بين شخصين حاضرين، إن لم يكن في الموقع فعلى الأقل في السنّ أو في قِدَم الخدمة الذي يقدّم أحدهما على الآخر، هذا ما توضحه الكتب الجيّدة. في الأماكن العامة، يحدث أحيانًا أن يجد رجلٌ نفسه على بابٍ يصل إليه في الاتجاه المعاكس عددٌ كبيرٌ من النساء، وفي هذه الحالة، يكون مضطرًّا لأن يمرّ من دون انتظار مرور المجموعة بأكملها، وهو يفعل ذلك عندما يكون عدد الناس أمامه

هو الأقل وعندما لا يكون هنالك أشخاصٌ مسنّون، متنحّيًا قدر الإمكان. اعلموا أخيرًا أنّه «ليس من حسن التصرف التأخّر إلى ما لا نهاية أمام بابٍ وإضاعة الوقت في ضروب الكياسة البالية»، هذا ما ورد في كتاب **دليل المجاملات** (*Guide des convenances*) لليزلوت (Liselotte).

هنالك عبورٌ حرجٌ آخر في هذه الأبنية الجديدة المرتفعة: صعود الدرج. على الدرج، صعودًا وهبوطًا، على الرجل دائمًا أن يتقدّم السيّدة. وهي عادةٌ تتعلّق بطول أثواب السيّدات اللواتي يضطررن لرفع أسفلها قليلًا لصعود الدرج أو هبوطه، وهكذا لا يتمكّن الرجل الموجود أمامهنّ من رؤية الكاحلين أثناء الصعود، كما يستطيع أن يمسك بهنّ أثناء الهبوط في حال تعثّرن. فضلًا عن ذلك، عندما يصادف رجلٌ امرأةً على الدرج، عليه أن يلتصق بالحائط ليتركها تمرّ، أيًّا كان عمر كلٍّ منهما وموقعه الاجتماعي.

تأتي لحظة الوصول إلى بيت المضيف. يجب رنّ الجرس رنّةً واحدةً مقتضبة. يُفتَح الباب لك فتدخل غرفة الانتظار. في يوم استقبال سيّدة المنزل، يقف الخادم أو الخادمة في تلك الغرفة، ويجب ألّا يجعلا الضيف ينتظر أمام الباب. يترك الرجال المعطف والمظلّة والعصا والقبعة، وتترك النساء المظلّة والمعطف لكنّهن يحتفظن بفراء تدفئة اليدين. ودائمًا توجد في غرفة الانتظار مرآةٌ تسمح بإلقاء نظرةٍ أخيرةٍ على الهندام والتأكّد من تصفيف الشعر. وبعد أن يساعد الخادم الضيوف على نزع ما ليسوا في حاجةٍ إليه، يُدخلهم الصالون وهو يدفع الباب ذا المصراعين. يحكي موباسان[491] (Maupassant)

(491) غي دو موباسان (1850 ـ 1893)، كاتب قصّةٍ فرنسي تتلمذ على يد مواطنه فلوبير الذي فرض عليه متطلّبات علم الجمال الواقعي وعرّفه على ويسمان ودوديه وزولا. كتب أكثر من 300 قصّة في 10 سنوات، فنشرها في الصحف ثمّ في مجموعاتٍ قصصية.

في قصّته **صديق جميل** (*Bel ami*) كيف تصرّف دوروا (Duroy) «وهو يُلقي اسمه خلف الباب المدفوع في صالونٍ يجب الدخول إليه. فجأةً، فقد دوروا رباطة جأشه فشعر بأنّه ضائعٌ، بسبب الخشية، وأخذ يلهث، فهو سيقوم بالخطوة الأولى في وجوده المنتظر والمرتجى، ثم سار قُدُمًا». بعد الدخول، يتوجّه المرء إلى ربّة المنزل ويشدّ على يدها، وبعد ذلك فحسب يقوم بتحيةٍ دائريةٍ ويتّجه إلى الناس الذين يعرفهم أصلًا.

عندما يتعلّق الأمر بعشاءٍ كبير، يقدّم المرء بطاقة دعوته في المدخل، وعندما يتعلّق بحفلةٍ راقصةٍ كبيرة، يقف حاجبٌ على الباب ويعلن اسم المدعو ما لم يتعلّق الأمر بحفلةٍ راقصةٍ تنكّرية، فيُطلب من المدعوين عندئذ تسجيل أسمائهم في سجلٍّ موضوعٍ على الباب، إلّا إذا أخذ الحاجب الأسماء بصوتٍ منخفضٍ ونقلها إلى ربّة المنزل المستقبِلة على الباب داخل الصالون. لكن خلافًا لما يقال، فقد كان مصطلح «المنادي» (aboyeur) يُطلَق في القرن التاسع عشر على فردٍ مكلّفٍ بالتفوه بالكلام المنمّق على باب أكواخ المشعوذين وليس على باب الصالونات.

لدى وصول جميع المدعوّين المتوقّعين، يفتح الخادم باب صالة الطعام على مصراعيه معلنًا: «سفرة السيّدة جاهزة»، فتنهض ربّة المنزل من فورها وتتأبّط ذراع الشخص الذي تريد تكريمه، ما لم يكن هنالك رجل دينٍ بين الحضور، وتتنحّى جانبًا للسماح بمرور المدعوين، وتبقى هي وفارس سهرتها في المؤخرة. أمّا ربّ المنزل، فيكون أوّل من يجتاز الباب، تتأبّط ذراعَه أبرز سيّدة في المجتمع. وعندما ينتقل المرء من الصالون إلى صالة الطعام، يجب أن يسمح للشخصيات الأهمّ بالعبور قبله، وأن «يتبع مرتبته، لا أكثر ولا أقل». باتت أصول اللياقة في أواخر القرن التاسع عشر تقضي بعدم تقديم الذراع للذهاب إلى المائدة في حفلة عشاء، بل تقديمها لجارة المائدة في نهاية العشاء. وقد

أدّى ذلك إلى شيءٍ من الاستياء لدى ليزلوت، التي كتبت الملاحظة التالية: «يبدو أنّ الأناقة القصوى تقضي الآن بتقديم الذراع اليمنى!». ويجب ألّا يتجاوز زمن الوجبة ساعةً واحدة، وبعد أن تضع ربّة المنزل المنديل غير المطوي على الطاولة، تنهض وتتأبّط ذراع فارسها الأول، وفي طريق العودة تكون هي التي تعبر باب الصالون أوّلًا. بعد إخلاء صالة الطعام، تُغلَق الأبواب خلف الندماء لرفع الطعام وأدواته عن الطاولة من دون ضجيجٍ، ولتهوية الغرفة. وبعد إتمام ذلك، يعيد كبير الخدم فتح باب الصالة على مصراعيه، إذ يمكن أن يعود لاستخدامها الأشخاص الذين يريدون أن يتحرّكوا أو ينعزلوا أو يجلسوا إلى المائدة أو يدخّنوا السيجار.

من يريدون الانسحاب باكرًا، أي بعبارةٍ أخرى الهرب على الطريقة الإنكليزية، يشدّون بصمتٍ بعض الأيدي ويقومون ببعض الإشارات المتحفّظة ويمضون. ستكون ربّة المنزل ممتنّةً لهم عندما لا يكونون قد أيقظوا برحيلهم فكرة الهرب عند الآخرين، إذ تقضي اللياقة بأن يبقى المرء ساعةً ونصف الساعة على الأقلّ بعد انتهاء الوجبة. لكن بعد أن يشرع المرء بالذهاب، عليه دائمًا أن يكمل ما بدأه.

على الدوام، يقوم سادة المسكن باصطحاب مدعوّيهم بأنفسهم حتى باب الشقّة، وهو بابٌ لا يحقّ لأحدٍ غيرهم فتحه. وهم لا يساعدون الضيف على ارتداء معطفه إلّا في ما ندر، ويغلقون الباب خلف الذاهبين بهدوءٍ بعد القيام بإشارةٍ أخيرة بالرأس وقول «شكرًا على هذه الأمسية» ليس فيها كثيرٌ من الإلحاح للنازلين على الدرج. سنفهم أن يكون على الضيف المدعوّ التعاون لإنجاح الرحيل، إذ لا يجهل أحدٌ أنّ الرحيل هو لحظةٌ حرجةٌ في الحياة الاجتماعية لأنّها تتضمّن خشيةً لدى مجمل الأطراف من انتهاء علاقةٍ ما نهائيًّا.

الموت يعلن عن نفسه على الأبواب

في طفولتي، لدى عودتي من الثانوية، كثيرًا ما كنت أجد باب العمارة وقد أُلبِس دثارًا كبيرًا أسود أو رماديًا يعلوه الحرفان الأوّلان من اسم، وجميع سكان العمارة متجمّعون بصمتٍ على الرصيف. كانوا ينتظرون أن يعبر البابَ الميتُ، أحد الجيران. كان الجميع يبتعدون آنذاك عن العتبة للسماح بمرور التابوت القابع على أكتاف رجالٍ متشحين بالسواد يحملونه حتى عربة دفن الموتى، وهي شاحنةٌ صغيرةٌ تعود ملكيّتها لمصلحة دفن الموتى، سوداء كالموت، تُعلّق عليها أحيانًا بعض أكاليل الزهور الكئيبة... منذ الإمبراطورية الثانية، كان لباريس عاداتها وقواعدها في تشريف موتاها وإخلائهم إلى خارج أبوابها. في تلك الحقبة، لم يكن الناس بعدُ يخبّئون الموت والموتى، بل على العكس، كانوا يبرزونه حتى الطريق العام، حيث «الجنازات» ـالتي ألهمت وسلّت السرياليين كثيرًاـ تذرع الشوارع ببطءٍ وتجعل المدينة تصمت لدى مرورها. كان السواد يسيطر على تلك الجنازات، سوادٌ للمرافقة ولإظهار أنّ واحدًا من أشباهنا قد غطّته الظلمات.

في القرن السادس عشر، ظهرت وتطوّرت خارج الوسط الملكي عـادةٌ كانت في البداية شديدة الاستثنائية، وهي عادة أن تُطلى على سبيل المثال غرفة أرملةٍ باللون الأسود. ولا يزال بوسعنا حتى اليوم أن نتأمّل في قصر شونونسو[492] (Chenonceau) إحدى «غرف الأرامل»، إنّها غرفة الملكة لويز دولورين (Louise de Lorraine) زوجة هنري الثالث، المطلية بأسود نُثرت عليه عبراتٌ من الذهب ورُسمت عليه عظامٌ وقبور. وقد أظهرت المؤرّخة موريـيل غود فيراغو[493] (Murielle

(492) شونونسو: قصرٌ فرنسيٌّ يمتدّ عبر نهر شير قرب قرية شونونسو في وادي نهر اللوار.

(493) موريـيل غود فيراغو، مؤرّخةٌ فرنسيةٌ متخصّصةٌ في القرون الوسطى.

(Gaude-Ferragu التي اشتغلت على حسابات مآتم الأمراء في العصر الوسيط الأدنى، أنّ عادة إعتام الحجرات، ولاسيما غرفة الأرملة، كانت موجودةً منذ العام 1383 في بلاط سافوا[494] (Savoie)، حيث مُدّت عند موت أماديوس السادس[495] (Amédée VI) شراشف سوداء في غرفة زوجته بون دو بوربون (Bonne de Bourbon). يبدو أنّ فكرة إكساء الجدران بالحداد، أي التعبير عن الألم أو التألّم، قد ظهرت منذ النصف الثاني من القرن الرابع عشر، حيث كان يحدث أن تُصبغ أعمدة جزء من الكنيسة بالأسود لتسجيل الحدث. في الحسابات المأتمية لشارل دورليان[496] (Charles d'Orléans)، كُتب بوضوحٍ أنّه لدى موت الدوق في العام 1465، حصلت زوجته ماري دوكليف (Marie de Clèves) على «قماشٍ أسود لتمدّه في غرفتها وفي صالة الاستقبال في قصرها في بلوا[497] (Blois)». وتنقل هذه الحسابات أيضًا أنّه من أجل هذا المأتم، «عملَ مسقِّفٌ وأجيره يومين ونصف اليوم في مدّ الملاءات ثم رفعها في كنيسة سان سوفور دو بلوا (Saint-Sauveur de Blois)». كانت عادة هذه الإخراجات الخاصّة تتطوّر، وهكذا شهدنا في القرن السابع عشر ظهور مهنة متعهّد دفن الموتى في إنكلترا بدايةً، ثمّ في هولندا. وفي بقية أرجاء أوروبا، كان المنجّدون يقومون بهذه الوظيفة، يساعدهم في ذلك النجّارون وفارشو الأنسجة الذين لم ينضمّ إليهم النجّارون ولم يفرضوا أنفسهم إلّا لاحقًا، عندما بدأت التوابيت تتعمّم.

---

(494) سافوا: منطقةٌ تاريخيةٌ شمال جبال الألب.

(495) أماديوس السادس (1334 ـ 1383)، كونت سافوا بين العامين 1343 ـ 1383.

(496) شارل دورليان (1394 ـ 1465)، دوق أورليان من العام 1407، اشتُهر بإنتاجه الشعري الذي نظم معظمه أثناء أربعٍ وعشرين عامًا قضاها أسيرَ حرب.

(497) بلوا: مدينةٌ فرنسية، عاصمة إقليم لوار وشير وسط فرنسا وتقع على ضفاف نهر اللوار.

في تلك الحقبة، كانت أبواب بيوت المتوفّين وواجهاتها هي التي تزيَّن بصورةٍ خاصّةٍ عبر تثبيت «زنّار حدادٍ» عليها، أي بكسوتها بوفرةٍ من الستائر «القاتمة». أمّا في القرن الثامن عشر، ولئن كانت «المواكب» قد بقيت مهيبةً بالنسبة إلى الأثرياء، فلم يكن هنالك أيّ حاجةٍ إلى السعي لإعتام الأماكن، حيث كانت معظم عمليات الدفن تتمّ بعد هبوط الليل، تقليدًا لملوك فرنسا الذين كانوا يُدفنون ليلًا.

لماذا هذه الحاجة إلى الأسود؟ كان المطلوب في الواقع هو «القاتم» كما كانوا يقولون، مثل الرمادي والبني والبنفسجي والأزرق. لم يفرض الأسود نفسه إلّا في وقتٍ متأخّرٍ، باعتبار أنّ الطلاء الأسود كان محصورًا بالأوساط الأرستقراطية، كما أنّه كان مرتفع الثمن. وقد بقي الأبيض لوقتٍ طويلٍ لونًا للحداد في الأوساط الشعبية، كما في أفينيون[498] (Avignon) وفي كونتية فيناسك[499] (Comtat Venaissin). لكن كما هي الحال على الدوام، وفي تقليدٍ لمجتمعات الوجاهة، أي الأرستقراطية، والتي كان يقلّدها منذ وقتٍ طويلٍ الأثرياء البورجوازيون، انتهى الأمر في القرن التاسع عشر باللون الأسود ليفرض نفسه في كلّ مكانٍ على أبوابنا، إلى أن تراجع كعلامةٍ على الحداد وطاول، عبر الدُّرجة، الملابس المدنية. كيف يجب تأويل أن يرتدي المديرون الشباب في مجتمعنا المفرطِ نشاطًا ملابس سوداء، مثلما يحمل المرء انتماءه إلى عصبة الناشطين كما يحمل رايةً؟ أنا أعلم أنّ اللون الأسود أنيقٌ ويجعل جسدك يبدو أنحف، لكن ألا يعبّر هذا اللون

(498) أفينيون: بلديةٌ في إقليم فوكلوز في جنوب شرق فرنسا، تشتهر بقصر البابوات حيث عاش كثيرٌ من الباباوات من مطلع القرن الرابع عشر إلى مطلع القرن الخامس عشر.

(499) كونتية فيناسك: تشكّلت اعتبارًا من العام 1125 على أثر انقسام كونتية بروفانس وكانت ملكًا لماركيزات تولوز. وهي تقع جنوب شرق فرنسا.

في اللاوعي عن احتجاجٍ صامت، عن إشارةٍ صغيرةٍ لحداد الحياة التي لا نستطيع عيشها، بل عن طهرانيةٍ تنمو على أبوابنا؟

لقد كان القرن التاسع عشر بالفعل قرن الموت، في حال صدّقنا توسّع وعظمة مصلحة دفن الموتى التي فرضت قوّتها حتى بين العائلات الأكثر تواضعًا. وحتى إذا كانت لا تزال توجد اليوم **دراسة التشريع والتنظيم الجنائزي** (*Traité de Législation et Réglementation Funéraire*)، فلم يعد لها كبير صلةٍ بالكتيّبات التي كانت تُصدرها في القرن التاسع عشر محافظة منطقة نهر السين لـ«دائرة المواكب الجنائزية والدفن في مدينة باريس». ولقد أسعدني الحظ فنبشتُ في مكتبة الجامعة الكاثوليكية بباريس كتيّبًا نُشر في العام 1853 وكان مرجعًا، إذا ما صدقت حالته والكتابة الدقيقة الموجودة على هوامشه، لتحديث أسعار الدفن. يبقى سؤال: من يمكن أن يكون مؤلّف هذه الخربشات التي تصعب قراءتها؟ محاسبًا مقطِّبَ الجبين، مفتّشًا كبيرًا لمصلحة دفن الموتى، نائبًا مفتّشًا، منظّم مواكب جنائزية، سائق عربة، معلّم مراسم، ضابطًا ذا وشاح، حمّالًا أو أجيرًا للسير خلف الشخصيات المهمة؟... في تتبّعٍ لدرجات هذا المشروع الفريد في العالم وتدرّجه. على أيّ حال، تخيلوا جردًا مفرحًا لشخصٍ لا يزال حيًّا وفي صحّةٍ جيدة، حيث تظهر على طول ثمانٍ وستين صفحةً بسطورٍ مرصوصةٍ وبالخطّ الصغير الإمكانات كافّة التي يمكن أن تقدّم في كلّ مرّة لما لا يقلّ عن تسع فئاتٍ من الدفن، «خدمة عادية»، تزيد عليها «خدمة استثنائية»، يصحبهما مسردٌ بالأخطاء المطبعية، إضافةً إلى التصحيحات التي قام بها الكاتب لكلّ شيء، من أجمل الخيول البيضاء وأكثرها كلفةً إلى أقلّ غرامٍ من الشمع المستهلك عبر قياس طوله بالسنتيمتر.

في ما يتعلّق بالظهور على أبواب بيت المتوفّى، كانت المصلحة تقترح لدفنٍ من الدرجة الأولى، «زوجًا من الستائر ذات الحاشية

والمجدولة بالفضة مع مشاجب وأربطة ستائر» (30 فرنكًا)، مع إضافةٍ خاصةٍ لهذه الدرجة، مثل مدّ «بسُط شقّة» حيث تريد العائلة، في مقابل «50 فرنكًا لكلّ مترٍ من المساحة». وفي الدرجة الخامسة، كانت إضافةٌ مطلوبةً أيضًا «من أجل النجارة والهيكل الضروريين لبُسُط باب العربات، عندما لا يعلوه سقف، أو لاستخدام أجهزةٍ مكرّسةٍ لوضع البسط من دون مسامير ولا سلالم، عندما يطالب المالكون باستخدامها للحفاظ على بيوتهم من التلف». في الفصل الثالث، ومن أجل تجهيز الكنيسة أو المعبد، كانت مصلحة دفن الموتى تقترح وضع بساطٍ على البوّابة المزيّنة إلى هذا الحدّ أو ذاك بـ«شريطٍ ذي حواشٍ ومجدولٍ بالفضة، وتزيينٍ بالفضة يتوّج البساط»، بل مبطّنٍ بـ«زوجٍ من الستائر ذات الحواشي والمجدولة بالفضة مع مشاجب وأربطة ستائر»، بل حتى بـ«سُتُرٍ على الطراز القديم»، مقابل مبلغ 168 فرنكًا. بالنسبة إلى البسط التي ستمدّ، تتباين النوعيات، من الشرشف الناعم إلى المخمل الحريري، مرورًا بـ«شريط حدادٍ مخمليٍّ ذي حاشية ومجدولٍ أو مطرّزٍ بفرو القاقم» يُمدّ حول الكنيسة أثناء المآتم المهيبة. نستطيع أن نضيف «سعفًا على البسط الداخلية»، بل حتى أن نعلّق قبةً تحتوي على ريش نعامٍ صغير في قبّة الكنيسة، واستئجار خدمات رجلي دين أو ثلاثة، وأطفال كورس، وضابطٍ بوشاح، ورجالٍ للمأتم، وأجراء يسيرون خلف الشخصيات المهمة، و«سويسري»، وشمّاسَي كنيسة، ومعلّمي قدّاس، وسائق عربة، وحوذي، وأربع عشرة عربةً مجلّلة، ووضع شاراتٍ تزيينيةٍ على الخيول وريشاتٍ صغيرة أينما نريد... مقابل مبلغٍ فلكيٍّ لم يكن متاحًا إلّا لقلّةٍ من الناس.

أمّا الموت المعلن مسرحيًّا إلى هذا الحد أو ذاك على أبواب بيت الميت، فيمكن أن يصل، بالنسبة إلى دفنٍ من الدرجة الأولى، إلى «تغطية واجهة البيت الخارجية» مقابل 100 فرنك، ويُخفض المبلغ إلى 36

فرنكًا للدرجة الثالثة مقابل «بساطٍ للباب»، و18 فرنكًا للدرجتين الرابعة والخامسة، و15 فرنكًا للدرجة السادسة، و12 فرنكًا للدرجة السابعة، وبالنسبة إلى الدرجة الثامنة، لم تعد تُقترح إلّا «حواملُ [خشبية]» مقابل فرنكٍ واحد، و«ملاءةٌ مأتميةٌ مجدولةٌ بخيط» مقابل 3 فرنكات. في الدرجة التاسعة، لا نستطيع حتّى أن نتساءل إن كان هنالك ميْت. غير أنّ مصلحة دفن الموتى موجودةٌ مقابل 3 فرنكات، وهي تنظّم مقابل 18,75 فرنكًا موكبًا راجلًا حتى الكنيسة، مع الإشارة في الدليل إلى أنّه يمكن استئجار «معطفٍ من ملاءةٍ ناعمة» أو «حجابٍ» مقابل 4 فرنكات، وفي ما يخصّ الشموع العسلية، فهي تُحتَسب كما كلّ شيء، بالكيلوغرام: نصف كيلوغرام مقابل 4 فرنكات، ثلاثة أثمان الكيلوغرام مقابل 3 فرنكات. أخيرًا، ولمساعدة أولئك الذين يغادروننا، وإن لم نكن نستطيع إظهار ذلك على الأبواب، تقترح المصلحة «دقّ مجموعةٍ من الأجراس أثناء صلاة الملاك الصباحية» مقابل 5 فرنكات، وأخرى مساءً، علمًا بأنّ «كلّ مجموعةٍ غير متضمّنةٍ» تكلّف فرنكين ونصف الفرنك.

في العائلات، وبالنسبة إلى الأرامل على نحوٍ أكثر صرامةً، يفرض الحداد زمنه ودرجاته التي ستُملي لحظة التمكّن من الخروج من الاحتباس وعبور الباب مجدّدًا. في الأسابيع الستّة الأولى من الحداد، لا يخرج المرء بتاتًا، ولا تستقبل الأرملة ـ التي ترتدي ثوبًا أسود من الصوف ولا تتعطّر ـ إلا أصدقاء حميمين، ولِمامًا. يرتدي جميع سكّان المنزل السواد، بمن فيهم الأطفال والخدم، بل تُمنع المرأة من الشغل بالإبرة. في الأشهر الستّة التالية، وامتثالًا للحداد الثاني، تستطيع الأرملة أن تعاود الخروج قليلًا على الملأ بثوبٍ حريريٍّ أسود وهي تعتمر قبّعةً من الشاش الصوفي وترتدي قفّازين أسودين، وإذا ما ارتدت مجوهرات فستكون من الخشب القاتم والمقسّى. أخيرًا، تأتي ثلاثة أشهرٍ من نصف الحداد حيث يحافَظ على الألوان الموصوفة بالقاتمة، كالرمادي

والبنفسجي والليلكي، ويكون الخروج إلى أماكن لائقة مقبولًا على أن تعود الأبواب، قابلةً مجدّدًا أن يزورها المرء.

تمرّد الأبواب

أيًا كان نظام الدولة، فهي تبحث على الدوام عن وسائل جديدةٍ لإدخال المال إلى صناديقها، ولم ينقص الخيال يومًا في هذا المجال. يسعى فرض رسمٍ إلى بلوغ الثروة المفترضة لدى دافعي الضرائب، وذلك بالاستناد إلى معيارٍ يمكن التعرف إليه وتحديد كمّيته. هكذا، وفي عهد حكومة المديرين[500]، فكّرت الهيئة التشريعية في العام 1796 بفرض ضريبةٍ على الأبواب والنوافذ. تعلّق الأمر بفرض رسمٍ على المقرّات المستخدمة «للسكن والتجارة والصناعة على حدٍّ سواء»، وهو مدًى يمكن الاستدلال عليه من الخارج بعدد الأبواب والنوافذ، عبر تقريرٍ قدّمه كروتيه[501] (Cretet) في جلسة 17 فنتوز[502] من العام 7 لمجلس القدامى[503] حول قرار 11 فنتوز من العام عينه والمتعلق بـ«فرض رسمٍ إضافيٍّ على الأبواب والنوافذ»، نعلم أنّ «مجلس الخمسمئة[504] ارتأى أنّه لا بدّ من اتّخاذ الإجراءات اللازمة لجعل الواردات بمستوى نفقات

---

(500) حكومة المديرين (Directoire): هيئةٌ مؤلّفةٌ من خمسة مديرين تمثّل السلطة التنفيذية بعد الثورة الفرنسية في 1789، وقد استمرّ هذا الشكل من الحكم من العام 1795 إلى العام 1799.

(501) إيمانويل كروتيه (1747 ـ 1809)، مديرٌ وسياسيٌّ فرنسي كان وزيرًا للداخلية في عهد نابليون بونابرت ومسؤولًا عن كثيرٍ من إجراءات التنظيم الحضري في باريس.

(502) فنتوز (ventôse): الشهر السادس من التقويم الجمهوري (من 19 أو 20 أو 21 شباط/ فبراير إلى 21 أو 22 آذار/ مارس).

(503) مجلس القدامى، أو مجلس الشيوخ: الهيئة التشريعية العليا في فرنسا بين العامين 1795 و1799 في عهد حكومة المديرين.

(504) مجلس الخمسمئة: الهيئة التشريعية الدنيا في عهد حكومة المديرين في فرنسا.

العام 7»، فأعلن ضرورة فرض «رسمٍ على الأبواب والنوافذ يساوي الرسم الذي يفرضه قانون 4 فريمير»[505] المنصرم، مع تساهلٍ معلن، إذ يقترح أنّ هذا الرسم «يستثني من الازدواج الضريبي فتحات المساكن التي ليس لها إلا بابٌ واحدٌ ونافذةٌ واحدة»، أي بعبارةٍ أخرى «المواطنين الذين ليس لديهم إلا بابٌ واحدٌ وإطارٌ زجاجي» لكن بمرافقة «الرسم الإضافي المفروض على أبواب العربات» كي لا يُهمَل شيء. كان من المفترض أن يدرّ المجموع على الدولة 25 مليونًا. كان ذلك عصرًا بلغت فيه «الحساسية المواطنية» للعدالة والظلم حدّها الأقصى، فباتت العلاقة بالضريبة عاطفيةً وتلقّى أفقر الناس هذا الرسم الذي يمكن أن يبدو شديد الاعتباطية بوصفه وصمًا إضافيًا، في حين تلقّاه أغناهم بوصفه انتهاكًا مباشرًا للملْكية. لطالما كانت فائدةُ ضريبةٍ جديدةٍ وشرعيتُها مثار جدل، لكن في ذلك العصر، لم يكن النزاع المستتر بين المدن والأرياف يساعد في فهم الأمور. في ظلّ نظام تموز/ يوليو[506] صيف العام 1841، وبمناسبة الإعلان عن إحصاءٍ جديد، تحوّل الهيجان إلى تمرّداتٍ متفرّقةٍ وعنيفةٍ ضدّ الرسوم كافّة التي حُكم عليها بأنّها ظالمة، ومن ضمنها تلك الضريبة التي أرادت الحكومة تجديدها، الضريبة على الأبواب والنوافذ. عندما أصبح النائب عن منطقة الراين الأسفل[507] (Bas-Rhin) جان جورج أولمان[508] (Jean-Georges

---

(505) فريمير (frimaire): الشهر الثالث من التقويم الجمهوري (من 21 ـ 22 تشرين الثاني/ نوفمبر إلى 20 ـ 21 كانون الأول/ ديسمبر).

(506) نظام تموز/ يوليو: حقبة الملَكية الدستورية التي بدأت بثورة تموز/ يوليو 1830 (أو الأيام الثلاثة المجيدة) وانتهت بثورة العام 1848.

(507) الراين الأسفل: مقاطعة فرنسية في منطقة ألزاس ـ شمبانيا ـ أردين ـ لورين، تقع على الحدود مع ألمانيا.

(508) الصحيح هو جان جورج أومان (Jean-Georges Humann) (1780 ـ 1842)، مصرفيٌّ وسياسيٌّ فرنسي، تولّى عدّة مرّاتٍ وزارة المالية في ظل عهد تموز/ يوليو الملكي.

(Hulman وزيرًا للمالية في حكومة سولت[509] (Soult)، قرّر سدّ نقص الأموال العامة عبر «تطبيق اقتطاع الضريبة المهنية والرسم على الأبواب والنوافذ». ولتلك الغاية، أمر بإجراء إحصاءٍ عامٍّ للمساكن للتمكّن من تسجيل الأبنية الجديدة في كشوف البلدية التي كانت تستخدَم آنذاك لتوزيع الضريبة بين دافعي الضرائب المحليين. لكن خشيةً من التسويات ومن التجاوزات المعتادة، أُرسل لهذا الغرض عناصر من مصلحة الضرائب لمساعدة رؤساء البلديات في هذه المهمة. نظر الجميع إلى هذا «الإحصاء» بوصفه إجراءً يمسّ الحرّيات البلدية والفردية، واندلعت من تموز/ يوليو إلى أيلول/ سبتمبر 1841 في كلّ مكانٍ تقريبًا أحداث شغبٍ بالغة العنف، إلى درجة الحديث عن «صيفٍ أحمر» في فرنسا، وفق تعبير جان كلود كارون[510] (Jean-Claude Caron).

لئن لم يكن الإعلان عن ضريبةٍ جديدةٍ المحرّض المباشر على ضروب المقاومة، بل على أعمال عنفٍ شعبية لا يمكن التحكّم بها، فهو شكّل خلفيّتها في غالب الأحيان. هنا، كان إحصاء الأبواب والنوافذ الذي أعلنته الصحافة وشجبته النخب المتعلّمة في المدن بوسائل بلاغية تمتزج بالسياسة، أمرًا لم يُفهم جيدًا، إلى درجة الخلط في بعض الأرياف بين الإحصاء والتفتيش الضريبي. وبتأثيرٍ من المخيّلة الشعبية الفائضة والخشية من الاستنزاف الكامل، صدّق أهالي الأرياف تمامًا الشائعات التي كانت تصلهم، وكانوا في الوقت عينه مصدرًا لها. تواجهت الشائعات الكاذبة والتصحيحات الرسمية طيلة عدّة شهورٍ عبر الملصقات، إلى درجة الحديث عن «حرب جدرانٍ» حقيقية، ولاسيّما

(509) جان دوديو سولت (1769 ـ 1851)، عسكريٌّ وسياسيٌّ فرنسي. تولّى رئاسة الوزارة في بلاده بين العامين 1832 و1834.

(510) جان كلود كارون، مؤرّخٌ فرنسي وُلد في العام 1955، وهو أستاذٌ للتاريخ المعاصر ومتخصّصٌ بثورات القرن التاسع عشر في فرنسا.

في الجنوب، حيث يوجد تقليدٌ طويلٌ من النضال ضد الضرائب. وتحدّى الناس «شرطة مصلحة الضرائب»، فقيل عن أفرادها إنّهم سوف يدخلون حتى إلى الغرف ويفتّشون المهود ويحصون بطون النساء. وسرعان ما طغت على الاستيهامات والميثولوجيا المناهضة للضرائب شائعاتٌ واهية بمقدار ما هي غريبة، لكن مثابرة. وإذا ما وضعنا جانبًا النقاشات التي لا تنتهي بصدد ما يمكن أن يكون بابًا أو نافذة، معبرًا أو فتحة، مستودع غلالٍ أو إسطبلًا، مستودعًا أو كوخًا، والفارق بين منفذٍ مُغلق ومنفذٍ مسدودٍ بحائط، قيد الاستخدام أو بطل استخدامه، وكذلك إذا أغفلنا معرفة إن كان المرء قاطنًا «شرعيًّا» أو قاطنًا «غير مستقرٍّ» في البلدة أو القرية، وأخيرًا إن كان يجب على البلدية أن تتعاون مع الدولة إلى هذا الحدّ أو ذاك، فإنّ الإعلان عن الإحصاء أدّى في نهاية المطاف إلى إدخال مناطق كاملة في حيرةٍ عميقة. وقد مضى بعض البلديات إلى حدّ الإعلان أمام دور البلدية أنّه «يجب على الإدارة البلدية رفض تقديم مساعدتها لعناصر المساهمات الضريبية في عمليات الإحصاء المتعلّقة بالضرائب»، كما في أفينيون. ووافق بعض البلديات الأخرى، كما في منطقة أوت غارون[511] (Haute-Garonne)، على الامتثال لتلك العمليات، ولو كان ذلك فقط «لجعل أولئك الذين نجحوا حتى الآن في أن يستثنوا شخوصهم أو أملاكهم يساهمون في التكاليف». يظهِر جان كلود كارون أنّ القلق تجاوز بكثيرٍ مسألة فرض رسومٍ على الأبواب. وهو يذكر تقريرًا كتبه الجنرال قائد الفرقة العسكرية السادسة عشرة بتاريخ 18 تموز/ يوليو 1841: «يقولون لهذا إنّه سيدفع كذا عن كلّ رأس خدم، ويقولون لذاك إنّ فساتين وتسريحات النساء وبناته سوف تخضع لضريبة، ولآخر إنّ الضريبة ستمسّ خزائنه، بل حتى جواريرها، وما إلى

(511) أوت غارون: إقليمٌ فرنسيٌّ في جنوب غرب فرنسا، تعد مدينة تولوز المدينة الرئيسية فيه.

ذلك». في منطقة أوت غارون، وأمام عدم شعبية المحافظ الذي دحره الضغط الشعبي في آب/ أغسطس 1841، ينقل موظّفٌ أقوال تاجراتٍ بالمفرّق ونساءٍ فقيراتٍ من الشعب، ذكرن أنّ المحافظ أُرسل من أجل «قبض فلسٍ عن كلّ قميصٍ وكلّ منشفة، أي بعبارة أخرى عن كلّ قطعةٍ من البياضات»، وفي جبال البيرينيه الشرقية، يتحدّث قائد الدرك بتاريخ 12 آب/ أغسطس عن سرعة تصديق الفلاحين، والتي وصلت إلى حدّ اقتناعهم بأنّ من سيتجاوز عدد طيوره ستةً ستُفرَض عليه ضريبةٌ كبيرة». علاوةً على المواشي، دار الحديث في مناطق أخرى عن رسومٍ على الأسرّة وبياضات الجسم والمائدة، على العاملين والأثاث، بل على جميع الأشياء في البيت، «بما فيها الملاعق والشوكات!»، بل إن قيمة الضرائب الجديدة ذُكرت: 50 سنتيمًا عن كلّ دجاجة، 40 فرنكًا عن كلّ ثور، أو خمس الكفالات المنزلية، فرنك واحد عن كلّ خزانة أو كرسي، 0.75 عن كلّ سريرٍ وملاءة، 0.50 عن كلّ طاولة. هكذا خطّط القرويون البريانسونيون[512] لإفراغ محتويات خزائنهم وإخفائها في الغابات. وفي منطقة أرييج[513] (Ariège)، فُكّكت الخزائن بالكامل «لإبعادها عن عيون المراقبين». وفي أماكن أخرى، دار الحديث عن الرسوم التي ستُفرَض على الأدوات وعلى مجوهرات النساء، «بحيث يتغيّر مستوى فرض الضريبة بحسب تعلّق الأمر بخاتمٍ أم بصليبٍ من الذهب». ثمّ تأتي القمصان وأزواج الجوارب والمناديل... وحتى النساء اللواتي يضعن مواليدهن: ضريبة 20 فرنكًا عن البنت وفرنك واحد عن الصبي، تدفع النساء الحوامل ضريبةً شخصيةً مضاعفة! لكن عندما قام عريفٌ من الدرك بتحقيقه، أعلن جميع الناس جهلهم بمصدر هذه

(512) البريانسونيون: نسبةً إلى بريانسون (Briançon)، وهي محافظةٌ فرنسيةٌ في منطقة جبال الألب العليا.

(513) أرييج: مقاطعةٌ فرنسيةٌ تقع في أقصى جنوب فرنسا.

الشائعة وبمن اخترعها. نُظّمت ضروب مقاومة، ولاسيّما داخل مثلث بوردو- مونبيلييه- بيربينيان[514]، لكنّ المركز الرئيس كان في تولوز[515] (Toulouse)، حيث شهد الناس يومي 4 و14 تموز/ يوليو انتفاضةً شعبيةً حقيقيةً خرجت المدينة أثناءها عن سيطرة السلطات طيلة يومين. لم يكن هذا التمرّد رفضًا لدفع الضريبة على الفتحات -وإن كانت تلك هي الحجة المعلنة- بمقدار ما كانت تعبيرًا عن الدفاع عن استقلاليتها البلدية. بتاريخ 9 و10 أيلول/ سبتمبر، انتفض العمال في كليرمون فيران[516] (Clermont-Ferrand) والبلديات المجاورة، وشارك في الانتفاضة المزارعون، الذين انتفضوا في كرهٍ متفشٍّ لمصلحة الضرائب احتجاجًا على هذا الإحصاء الجديد للأبواب والنوافذ. واقع الحال أنّهم في هذه المناطق الموالية بقوّةٍ للجمهورية، أظهروا كذلك معارضتهم للحكم الملكي الذي قام في تموز/ يوليو. استعادت الفرقةُ المدينةَ بعد سقوط خمسة عشر شخصًا تقريبًا، ما أثار بالعدوى حوادث شديدة الخطورة في أرياف منطقة أوفيرن[517] (Auvergne).

أمّا في الواقع، فقد كانت «ضريبة الأبواب والنوافذ»، وهي ضريبةٌ توزيعيةٌ استُحدثت في عهد المديرين، خفيفةً نسبيًّا، ولاسيّما أنّ المجلس البلدي هو الذي كان يقدّرها على الرغم من أنّ مجلس النوّاب هو الذي قرّرها. ليس هنالك ما يفاجئ في أن يؤدّي ذلك إلى بعض التسويات المحلية الصغيرة، بحيث لا تتغيّر الأمور كثيرًا (ولو اقتصر ذلك على تعريف كلّ منطقة، بل كلّ بلدية، إن لم يكن كلّ بيت

---

(514) بوردو (Bordeaux) ومونبلييه (Montpellier) وبيربينيان (Perpignan) مدنٌ تقع جنوب فرنسا.

(515) تولوز: مدينةٌ فرنسيةٌ تقع جنوب غرب فرنسا.

(516) كليرمون فيران: مدينةٌ فرنسيةٌ تقع جنوب غرب فرنسا.

(517) أوفيرن: منطقةٌ جغرافيةٌ ثقافيةٌ وتاريخيةٌ بالغة القدم، تقع وسط فرنسا.

للباب والنافذة). وافق الناس على أن تُجرى إحصاءاتٌ كلّ خمس سنوات (السنة التي تنتهي بـ1 وبـ6) تسمح بتعداد السكّان وكذلك الإنتاج والثروات العامة في البلاد، ولاسيّما أنّ تعداد السكان كان أساسًا لتصنيف البلديات الضريبي، أي إثراءها أو إفقارها. لكن من أجل الضريبة المهنية والضريبة على الأبواب والنوافذ، لا يُحصى عدد السكّان داخل الجدران أو داخل حواجز ضريبة العبور فحسب، بل كذلك السكان المتجمّعون والمتناثرون. وكانت هذه العملية معقّدةً، بما أنّه من أجل الضريبة المهنية وحدها كانت هنالك سبع درجاتٍ لدافعي الضرائب وكانت نسب الضرائب التي يدفعونها تختلف بحسب حجم المدينة، فكلّما كانت المدينة أكبر كان المكلّف بتلك الضريبة يدفع أكثر.

بالنسبة إلى الضرائب على الأبواب والنوافذ، يشير كارون إلى أنّه وُجدت ستّ درجاتٍ من البلديات، ويقدّم مثالًا على ذلك أنّ الرسم المفروض على باب متجرٍ يبلغ 1.60 فرنكًا في مدينةٍ يقلّ عدد سكانها عن 5000 نسمة، مقابل 18.80 فرنكًا في المدن التي تعدّ 100 ألف نسمة فأكثر. سنفهم أن يصبح عدّ الأبواب والنوافذ في هذه الشروط رهانًا اقتصاديًّا وسياسيًّا في آنٍ، وأن تحدث توتّراتٌ وصلت عند احتدامها إلى حدّ إثارة تمرّدٍ في الأوساط الحضرية المسيّسة وكذلك في الأوساط الأكثر شعبيةً وقلقًا في الأرياف.

على أيّ حال، اخترعت الثورة الفرنسية والإمبراطورية الأولى نظامًا ضريبيًّا بقي على حاله عمليًّا حتى الحرب العالمية الأولى. أمّا «ضريبة الأبواب والنوافذ» التي اتّهمها اختصاصيو الصحّة العامّة بأنّها تسهّل تطوّر السكن غير الصحّي وانتشار السل بسبب نقص الفتحات الذي تفضي إليه، فقد أُلغيت في نهاية المطاف في العام 1925، وهذا يفسّر أنّنا لا زلنا نستطيع أن نرى حتى الآن في عددٍ من البيوت القديمة

آثارًا لأبوابٍ ونوافذ مغلقة بجدران إلى هذا الحد أو ذاك، وتبقى صورةً سلبيةً عن ندوبٍ لزمنٍ كان الضغط الضريبي يجد فيه ضروبًا عنيدةً من المقاومة، إنّها مصلحة ضرائب لا تستطيع إنكار أنّ الانفتاح[518] لم يكن يومًا نقطة قوتها.

أبواب السجون

السجن مكان احتباسٍ غير إرادي لكنّه مؤسساتي، وعلاوةً على أنّه مَحْبِس، فقد بُني في وقتٍ باكرٍ جدًّا لبثّ الذعر في نفس المجرم وإخضاعه، وكان من المفترض أن يؤدّي مجرّد ذكره إلى شكلٍ غامضٍ من القمع لدى المجرم، وذلك خارج المبنى الذي يُحتبس فيه وداخله على حدٍّ سواء. إنّ رمي المرء في «الزنزانة» (carcer) وموته في سجن روما المعتم والرهيب، هو ما كان بانتظار كلّ أسير حربٍ بعد حفل الانتصار. كان المبنى يقع شمال غرب الميدان، ويثير اسمه وحده الرعب (terror) عندما يُلفظ، تمامًا مثلما تثيره رؤية واجهته الخالية من النوافذ، ولاسيما بابه. وكانت الأدبيات والوثائق القانونية الرومانية تُجري مقاربةً حتميةً بين عالم الظلمات وعالم السجن. كانت الزنزانة تقع تمامًا في نقطة الالتقاء بين مكان ممارسة عدالة الحاضرة والطريق الذي يُحتفَل فيه بالانتصار على أعداء روما، وتذكّر خصوصًا بالغسق، تلك اللحظة التي ينحني فيها النهار وينثني وينسحق أمام الليل الآتي، نهاية النهار، حين يتمّ إعدام السجناء. لاحقًا، لن تحكي شيئًا آخر تلك الزنزانةُ المنخفضة المعتمة المصنوعة لمعاقبة السجين وإرعابه عبر رميه في ليلٍ دائم. هذا هو العزل، تطبيق عقوبةٍ مؤلمةٍ ومشينةٍ بحماية الأبواب الثقيلة المشهورة باستحالة عبورها.

(518) في اللغة الفرنسية، تشير كلمة (ouverture) إلى الفتحة والانفتاح في آنٍ واحد.

تكفي قراءة شهادة بالتار[519] (Baltard) وهو يصف الأبواب المرعبة للسجون في كتابه **وصف مباني السجون** (*Architectonographie des prisons*) والذي أهداه إلى صاحب السعادة الملكية المونسينيور وليّ العهد في العام 1829، على أمل تغيير عمارة الرعب هذه قليلًا: «هكذا يقدّم باب سجن فرنسا الصغيرة في شارع بافيه (Pavée) قبّةً منخفضةً مسلّحةً بأحجارٍ ناتئةٍ على شكل رأس ألماسة، وهكذا لا يقدّم مدخل سجن سانت بيلاجي (Sainte-Pélagie) في شارع كليه (Clef)، والذي بُني لاحقًا، إلا جدارًا كبيرًا تخترقه أبوابٌ واطئةٌ ويعلوه إفريزٌ تبدو عليه اسطواناتٌ حجريةٌ مدبّبة النهايات، وكأنّها تتوعّد بسقوطها الطائش من يتجرّأ على المثول أمام الباب.

[...] ألم تسمع القضاة وقد ألهمتهم استنتاجاتٌ خاطئة، يمتدحون هذه المنظومة من الأبراج والقبب والحجارة الناتئة والأبواب المنخفضة بإفراطٍ، وكأنها منظومةٌ متميّزةٌ أساسًا، ويريدون أن يكون كلّ شيءٍ منفّرًا في ترتيب واجهة سجن؟

[...] بدلًا من أن تكون أبواب الكوّات منخفضةً وخطرةً بموجب ضرورة الانحناء للمرور منها، ستكون بقياساتٍ تسمح بالدخول من دون أن يتعرّض المرء لأن يصاب رأسه. ستكون مغلقةً بمصاريع أو درفاتٍ خشبية تسهّل مراقبة الحرّاس للداخلين أو الخارجين من السجن عبر إرغامهم على إبقاء الرأس مرفوعًا».

وصف بالتار في تقريره هول الأبواب، وقد كتبه رغبةً منه في القيام بشيءٍ من التصدّي للبريطاني جيريمي بنتام (1748 ـ 1832) الذي كان نفوذه يتزايد لدى الأذهان الشمولية منذ الثورة. في تلك الأيام التي يُصلِح فيها السجن نفسَه ليكون عقابًا بحدّ ذاته وليس مجرّد مكانٍ للعذاب،

(519) لويس بيير بالتار (1764 ـ 1846)، مهندسٌ معماريٌّ ورسّامٌ وحفّارٌ فرنسي.

تصبح «رؤيـة كلّ شيءٍ والتحكّم بكلّ شيء» هوسًا. نشرت الجمعية التأسيسية في العدد الأول من دورية **سوكور بوبليك** (*Secours publics*) «مذكّرة حول المبدأ الجديد لبناء بيوت التفتيش، ولاسيما بيوت السطوة» بعنوان «المشتمل» (Panoptique) في ترجمته الفرنسية في السنة عينها التي نُشر فيها في إنكلترا. «سوف نفهم بيسرٍ أن تكون فكرةٌ سهلةٌ بمقدار ما هي جديدةٌ، فكرةُ منح رجلٍ واحدٍ قدرةً على المراقبة، تجاوزت حتى الآن اجتماع قوى عددٍ كبير»، هذا ما حذّر منه المؤلّف، الذي أرسل بنفسه مقتطفاتٍ من مذكّرته إلى فرنسا منذ العام 1791. وُضعت مذكّرة الجمعية (عنوانها بالإنكليزية *Panopticon, or the inspection-house*) بهدف حلّ وعقلنة مراقبة الجميع، المحميين أكثر ممّا يجب -في نظر المؤلف- بالأبواب التقليدية، وهي أبوابٌ ثقيلةٌ وغير عملية. في مبنًى دائري، أو بالأحرى في مبنيين متداخلين وبارتفاع ستة طوابق، «نستطيع تصوّرهما زنازين مفتوحة من الجانب الداخلي لأنّ شبكًا حديديًّا قليل البروز يعرّضهما للنظر بالكامل. يقوم دهليزٌ في كلّ طابقٍ بالوصل في ما بينها، لكلّ زنزانةٍ بابٌ يفتح على هذا الدهليز. يحتلّ برجٌ المركز، إنّه مسكن المفتشين، ولا يُقسم إلّا لثلاثة طوابق، مرتّبة بحيث يشرف كلٌّ منها على طابقين كاملين من الزنازين. كما يحيط ببرج التفتيش دهليزٌ تغطّيه ستارةٌ ذات أضلاعٍ معدنيةٍ تسمح لأنظار المفتش بالغوص في الزنازين وتمنع أن يراه مَنْ في الخارج، بحيث يرى بنظرةٍ واحدة ثلث سجنائه، أو كلَّهم في دقيقةٍ واحدةٍ إذا تحرّك ضمن مساحةٍ ضئيلة. لكنّ فكرة حضوره إذا كان غائبًا، تبقى فاعلةً بمقدار حضوره بنفسه». ويخلص بنتام إلى القول: «ستُطلَق على بيت العِقاب هذا تسمية المُشتمِل، تعبيرًا بكلمةٍ واحدةٍ عن ميزته الأساسية، أي القدرة على رؤية كلّ ما يجري فيه بنظرةٍ واحدة. [...] في المشتمل لا تعود هنالك حاجةٌ إلى فتح المقصورات (الخاصّة بالسجناء)، فهي جميعًا مفتوحةٌ أمام عينيه (كمفتش)».

يذكّر ميشيل فوكو[520] (Michel Foucault) صوابًا في كتابه **المراقبة والعقاب** (*Surveiller et punir*) بأنّه يجب ألّا يُفهم المشتمل بوصفه مبنًى له علاقة بالحلم: «إنّه رسمٌ بياني لآلية سلطةٍ أعيدت إلى شكلها المثالي، وتشغيلها المجرّد من أيّ عقبةٍ أو مقاومةٍ أو احتكاك...». وهو يكتب ذلك بالصلة مع نظام بنتام المعماري والبصري المفرط في نفعيّته، ويذكّر بأنّ «المشتمل أشبه بقفصٍ قاسٍ وذكي» وليس يوتوبيا «في مواجهة السجون المتداعية والمزدحمة». إنّه حقًّا «شكلٌ من التكنولوجيا السياسية التي نستطيع، ويجب أن نفصلها عن أيّ استخدامٍ محدد. [...] وهو يسمح بجعل ممارسة السلطة أفضل». وبالفعل، أراد بنتام تغيير التقنية وجعل الأبواب شفّافةً لتغيير الواقع اليومي ليس للسجناء، بل للحرّاس. وهو لم يرد تغيير شيءٍ في النظام القضائي أو إلغاء شيءٍ من الرعب الذي يعبّر عن ذاته فيه ويظهر ويمتدّ في أماكن العدالة كافّة، بل على العكس من ذلك، أراد أن يجعل النظام أكثر فاعلية، وأن يذوب في المسار الذي تحدّده العدالة، أو بالأحرى في تقليد «إحقاق العدالة» وتطبيقه على أفضل نحوٍ ممكن.

(520) ميشيل فوكو (1926 ـ 1984)، فيلسوفٌ فرنسي ومؤرّخٌ للأفكار وناقدٌ أدبي ومنظّرٌ اجتماعي وفقيهٌ لغوي. تتعلّق نظرياته بالعلاقة بين المعرفة والسلطة وكيف يمكن استخدامهما كشكلٍ من الضبط الاجتماعي عبر المؤسّسات الاجتماعية. وعلى الرغم من أنّه كثيرًا ما يُذكر بوصفه ينتمي إلى تيار مابعد البنيوية ومابعد الحداثة، فقد رفض تلك التصنيفات، وفضّل تقديم أفكاره بوصفها تاريخًا نقديًّا للحداثة. وضع نظريةً للشروط التاريخية المتعلّقة بإنتاج المعرفة والسلطة والذاتية، وركّز منهجه على تحليل «الخطابات». ودرس وحلّل تاريخ الجنون في كتابه **تاريخ الجنون**، وعالج مواضيع مثل الإجرام والعقوبات والممارسات الاجتماعية في السجون. ابتكر مصطلح «أركيولوجيا المعرفة». كما أنّه أرّخ للجنس، من حب الغلمان عند اليونان وصولًا إلى معالجاته الجدلية المعاصرة، كما في كتابه **تاريخ الجنسانية**. له أكثر من ستين كتابًا.

في المقابل، أراد بالتار إدخال الإنسانية مجدّدًا إلى السجون، فقد كتب متحدّيًا عالم العدالة والعقاب في كتابه **وصف مباني السجون**: «ألم تسمع القضاة وقد ألهمتهم استنتاجاتٌ خاطئة، يمتدحون هذه المنظومة من الأبراج والقبب والحجارة الناتئة والأبواب المنخفضة بإفراطٍ وكأنها منظومةٌ متميّزةٌ أساسًا، ويريدون أن يكون كلّ شيءٍ منفرًا في ترتيب واجهة سجن؟».

من جانبي، ولأنّني لم أتمكّن من زيارة قصور العدل كافّة في فرنسا، فقد ركّزتُ على قصر العدل في باريس. إذا ما تفحّصنا هذا القصر جيدًا، فإننا نرى كيف أنّ العلامات والرموز المنفّرة التي ستلاحق المُدان تبدأ في هذا المكان. في القصر، كما في كلّ قصر، نرى الفخامة، وهي ـ كما نعلم جميعًا ـ في الأساس مصنوعةٌ للتأثير في الضيف، لكنّها هنا لإثارة خشيته، بل لبثّ الرعب في قلبه. لقد أوكلت المؤسسة القضائية مهمّة تخيّل العدالة وتحقيق التعبير عنها لفنّانين. هكذا نستطيع أن نرى على باب المحكمة التأديبية رأس أسدٍ مخيفًا يمسك بأفعى في شدقه. وهي صورةٌ أسطوريةٌ بالفعل، لكنّنا نشعر نحن البشر الأحرار الذين يمرّون في رصيف الصاغة[521] (quai des Orfèvres) أنّ الأسد والأفعى التي تعضّ عُفرته يمكن أن ينفصلا في أي لحظةٍ وينقضّا علينا كالبرق. كما أنّ القصر مزيّنٌ بمئات الأفاعي. يقول بعض الناس إنّها موجودةٌ لترمز إلى الحكمة، لكنّني عندما أنظر إليها أشعر بأنّها هنا كي نخشى العدالة التي تمارَس تحت هذه القبب. حتى إذا كان تمثالا الحكمة يمسكان بأيديهما مرآةً وأفعى، فهما قابعان في الخارج، ينظر أحدهما إلى ساحة دوفين (Dauphine) ويقبع الآخر على عرشه في باحة أيار/ مايو (Cour du Mai). أمّا زيوس، الذي كان يشيع العدالة على جبل الأولمبوس، فهو

(521) رصيف الصاغة: طريقٌ ورصيفٌ على نهر السين في الدائرة الأولى بباريس.

يتصالح مع مينيرفا[522] (Minerve) ويقاسمها في هذه الأماكن قوّة العقل، وذلك للتعبير عن أنّ الموجودين يحاولون هنا الموازنة بين صاعقة الآلهة وحكمة البشر. هرقل موجودٌ أيضًا هنا، فهو يحرس أبواب الغرفة الأولى في محكمة النقض ويراقب من فوق باب الإيداع وصول المتّهمين إلى باحة سان مارتان. هرقل صارم، مقدام، على رأسه أسد نيميا[523] (Némée)، وهو يقول مجدّدًا للمُدان الذي يمرّ إنّ العدالة معصومة. لكنّ الرمز الذي يظهر في كلّ مكان على الأبواب والجدران وأعناق الآلهة والإلهات هو ميدوزا (Méduse)، وهي واحدةٌ من الأخوات الرهيبات الثلاث غورغون[524] (Gorgones). تحوِّل ميدوزا إلى حجرٍ أولئك الذين ينظرون إليها، ولجعلها أشدّ وعيدًا، وُضعت أفاعٍ على رأسها. هكذا، فإنّ الفوريه[525] (Furies)، وهن شرّيراتٌ بعيونٍ جاحظةٍ وأفواهٍ مفتوحةٍ وأسنانٍ بارزةٍ وألسنةٍ متدلّيةٍ وسيوفٍ في السقف، وحوشٌ ذات مخالب، سواءٌ أكانت ذهبيةً أم مرمرية، تتوعّد الناظر في كلّ صالةٍ من صالات قصر العدل، تمامًا مثل الآلهة العديمة الشفقة والكواسر في كلّ مكان، المستعدّة للقفز من الأعمدة والأبواب التي ثُبّتت عليها. بالتار محقّ، فقد جُمعت هذه الرموز كلّها لإرهاب من يمرّ والحطّ من قيمته وإرغامه على أن ينظر إلى ضميره. ولا أنسى الباب الخارجي في القصر، المصنوع من مصاريع ثقيلةٍ من البرونز، ولا

(522) مينيرفا: إلهةٌ بالغة القِدَم في الميثولوجيا الرومانية، وهي إلهة الحرب والحكمة والاستراتيجيا والذكاء والفكر المتّقد والآداب والفنون والموسيقى والصناعة.

(523) أسد نيميا: الأسد الأسطوري الذي قتله هرقل في الميثولوجيا اليونانية.

(524) الغورغون: في الميثولوجيا اليونانية، ثلاث أخواتٍ رهيبات يحوّلن من ينظر إليهنّ إلى حجر، وأشهرهنّ ميدوزا، التي هي وحدها فانية.

(525) الفوريه أو الإيرنويس: إلاهات الانتقام في العالم الآخر في الأسطورة اليونانية، وهنّ أليكتو وميغايرا وتسيفوني.

الأبواب الميسينية ذات الشكل شبه المنحرف، المصنوعة من الفونت، والتي توجد للتذكير بأنّنا هنا ندخل معبدًا.

في الداخل، يلعب كلّ بابٍ دوره، مثل الأبـواب المصبوبة في جدار صالات الحضور والموجودة لإظهار المشبوهين والمتّهمين. يتناقض تحفّظها تناقضًا كاملًا مع الأبواب المخصّصة للقضاة حصرًا، فهذه الأخيرة مرئيةٌ جيّدًا، ويتعلّق الأمر بخدمة الطقس القضائي عبر مسرحته: يدقّ جرسٌ لإعلان وصول هيئة المحكمة، وعندما يدخل القضاة بأثوابهم المتموّجة، يجب الوقوف والتزام الصمت! أما الباب ذو المصاريع المزدوجة والخاصّ بالجمهور، فهو أكثر جاذبيةً بقليل، بل إنّه مجهزٌ بكوّاتٍ للسماح برؤية ما يجري في الحجرة من دون حاجةٍ إلى دخولها. خارج الديكور وفي جانب الكواليس، عالم المستدعين والحرّاس: حديد، كثيرٌ من الحواجز المشبكة: حواجز الإيداع وحواجز الاحتجاز وترتيبات منع الهروب ومنع السقوط، الشّباك السميكة على النوافذ والحديد المشغول المثير للرهبة والذي يعود تاريخ صنعه إلى العصور الماضية كما في أعلى مصلّى الجيروندديين[526] (chapelle des Girondins). هذه القضبان الفولاذية الهائلة موجودةٌ هنا لتذكّرنا بأنّه قبل الثورة كان هنالك العصر الوسيط والفنّ الذي لا يجارى بحدّاديه وصانعي أقفاله المبدعين في ابتكاراتهم. كان صانعو الأدوات القاطعة والحـدّادون العاديّون وصانعو المسامير، العاملون مع معلّم صنع الأقفال، يشتغلون على الأبـواب التي ستحبس أناسًا ليجعلوها آمنةً بمقدار ما تكون أبواب الصندوق الحديدي آمنة.

تطوّرت تقنية الحبس في الوقت عينه الذي ظهرت في القرن الثالث عشر كلمة «حبس» (emprisonnement). وفي القرن عينه، تطوّر

(526) الجيروندديون: نسبةً إلى إقليم جيروند (Gironde) الفرنسي التابع لمنطقة أكيتانيا (Aquitaine).

أيضًا «القفل الفرنسي»، أي «القفل ذو اللسان الهامد». وبهدف تقديم فكرةٍ عن ابتكار هذه الأقفال الأولى وتعقيدها النسبي، والتي يجب فهمها عبر وفرة أسماء القطع المستخدمة بمقدار ما يجب فهمها عبر آليات الإغلاق، سوف أستعير التوصيفات التي قدّمها إيميه ستروبان (Aimé Stroobants)، الباحث المتخصّص في استخدام الحديد المشغول في أواخر العصر الوسيط، بصدد طرازين قديمين: «الأقفال ذات اللسان الهامد هي أقفالٌ ذات حواجز ثابتة، لا يستطيع لسانها أن يدخل في مزلاجٍ أو يخرج منه إلا بمساعدة مفتاح. عندما يدور المفتاح، يرفع ثلمًا يبقيه نابضٌ في مكانه، فضلًا عن ذلك، يحرّر المفتاح ظفرًا، أي مصدّ اللسان المرتبط بالحزوز المحفورة في الجزء العلوي من اللسان. وعندما يواصل المفتاح دورانه، يؤثّر في أسلات اللسان ويدفعه إلى الأمام أو إلى الخلف. [...] بعد تعليب هذه الأقفال، كانت تُربط أيضًا بالخشب بمساعدة 'مسامير' أو 'قوامط' ربط». على الرغم من أنّ «الأقفال ذات الحدبات» أحدث زمنيًّا، إذ تعود على ما يبدو إلى أواخر القرن الخامس عشر أو بداية القرن السادس عشر، فهي لا تزال تُعَدّ من ضمن هذه الأقفال القديمة. يذكّرنا واقع أنّ المفتاح لا يدخل إلّا من طرفٍ واحدٍ، بأنّه لوقتٍ طويلٍ جدًّا، لم يكن ممكنًا إغلاق الأبواب إلّا من جانبٍ واحدٍ فحسب، وسنفهم أنّه الجانب الخارجي بالنسبة إلى أبواب السجون! يتكوّن القفل ذو الحدبات «من قسمين متمايزين: المغلاق، المتراكب مع رتاج، والصندوق أو اللوحة التي تضمّ الآلية. ينزلق المغلاق في الحلقات المثبّتة على المصراع ويُغلق بواسطة رتاجٍ ضمن القفل، حيث يحتجز اللسان الداخلي حدبة تحويل الحركة. مع هذه الأقفال، لم يكن المرء يستطيع فتح الباب إلّا من جانبٍ واحدٍ فحسب. وكثيرًا ما كان لها صندوقٌ بارز، كما كانت تُربط بالباب بمسامير أو قوامط ربط». يجب أن نضيف إلى هذه الأقفال في

أماكن الأمان جميع التنوّعات الممكنة والمتينة من المزاليج والأقفال والترابيس والمزاليج المرفوعة، وكذلك الوَصاوِص[527] التي تناسب البشر، والتي تشير منذ العام 1798 إلى هذه «الفتحة الصغيرة المصنوعة في بابٍ لاختلاس النظر من دون أن يرانا أحد».

يزوّدنا مقاولٌ شارك في العام 1812 ببناء سجنٍ في شاتيليرو[528] (Châtellerault) من خلال تقديره التكاليف، بمعلوماتٍ ثمينةٍ عن أبوابنا، فبالنسبة إلى «أشغال الحديد»، يَعُدّ «ما لا يقلّ عن 35 كيلوغرامًا من الحديد لباب الدخول الكبير و210 كيلوغرامات لأبواب الأمن الأربعة عشر (5 كيلوغرامات لكلّ لوحٍ وكلّ مفصلة). تبرشَم مسامير ذات صواميل في الألواح. يسمح 15 قفلَ أمانٍ قويًّا ومزلاجٌ بإغلاق هذه الفتحات. نقاط التقاطع كافّة محميةٌ بحديدٍ متشابك». هكذا، السجن مجهّزٌ بكلّ هذا الحديد الموجود هنا للبناء والتعزيز، لكن أيضًا، وسأعود إلى ذلك، لبثّ الرعب. وفي «دراسة عن وضع طبقات السجناء أو المحتجزين كافّة وآلامهم المعنوية والجسدية» أجراها جينوفييه (J.F.T. Ginouvier) ونُشرت في العام 1824 بعنوان **لوحة لداخل سجون فرنسا** (*Tableau de l'intérieur des prisons de France*)، يُذكر بالفعل ضجيج كلّ هذه الخردة التي يتمّ التعامل معها من دون توقّف. يشعر السجناء ضمن شروط الحبس التي وجد المؤلّف أنّهم يعيشونها بهذه الأصوات كتعذيبٍ حقيقي، وهي تُستخدم لهذا الغرض أيضًا. وهو يتذكّر «صالةً كما لو أن بابها السميك يتأوّه برهبةٍ على مفصّلاته»، ويحكي كيف أنّ «هذا المحتجَز يُستخدَم من أدنى حمّالي المفاتيح شأنًا، في حين أنّه يسلِّم ضمن الإهانات التي يتعرّض لها، إلى خبثهم ونزواتهم من دون أيّ دفاع. [...] نرى الكرامة في السلاسل وهي توزِّع

(527) الوصواص: العين السحرية.

(528) شاتيليرو: بلديةٌ في مقاطعة فيين في فرنسا.

بلا حسابٍ علامات الاحترام على الوضاعة التي تبرشم هذه السلاسل عينها». في هذه السجون التي أصبح فيها للحبس منذ إصلاح العام 1791 أسماء من قبيل: العزل والمضايقة والاحتجاز والسجن، يستنكر جينوفييه أيضًا أن «تُدفَع في اللحظة عينها مغاليق ثقيلةٌ بطقطقةٍ قاتمة. نحن هنا حقًّا أمام تجديدٍ للتعذيب القديم، لا تُمزَّق أعضاء المتّهم بلا رحمة، لكنّ روحه تجد نفسها ممزَّقةً بسبب أهوال الهجر، ومضطربةً ومسحوقةً بألف فزعٍ تتوالد باستمرار وبلا توقّف».

حدثت ثورةٌ في ثلاثينيات القرن التاسع عشر عندما فرضت كلمة (taule)[529] نفسها في السجون في خضمّ الصراع بين الأبواب الخشبية والأبواب الحديدية. وقد بلغ من مدى هذا التحوّل التقني الذي فُرضت فيه الحدائد المطروقة بدلًا من الحديد المسبوك، أنّ السجناء الموجودين خلف أبوابهم الجديدة فرضوا بدءًا من العام 1837 كلمة (taule) بدلًا من كلمة (prison) للدلالة على السجن. ليس هنالك أدنى شكٍّ في ما يتعلّق بالأمان، لكن على العكس من ذلك، ليس هنالك أدنى شكٍّ أيضًا في ما يتعلّق بالضوضاء المضاعفة عشرات المرات في قفص الملل الهائل في عالم السجن. تتحدّث آن ماري مارشيتي[530] (Anne-Marie Marchetti) في كتابها **أحكام مؤبدة** (*Perpétuités*)، وعنوانه الفرعي: «الزمن اللانهائي للعقوبات الطويلة»، عن أبواب السجن التي تحدّد إيقاع النهار مثل موسيقى إيقاعيةٍ بطيئة الحركة. «تقدِّم الأبواب العلامة التي يُضبط عليها اليوم في السجن، حيث يرافق فتحها اللحظات المهمّة في حياة الاحتجاز، 'الحركات' المتنوّعة: الذهاب إلى الورشات، النزهات، الدروس، الوجبات، مرور 'سخرة الطعام'، صفق الأبواب،

(529) تُطلَق الكلمة أيضًا على الغرفة التي يقيم المرء فيها.

(530) آن ماري مارشيتي، عالمة اجتماعٍ فرنسيةٌ معاصرة تعمل على قضايا عالم السجون وتدرّس علم الاجتماع في جامعة أميان.

أصوات الخطوات، المفاتيح التي تتصادم، الطرْقات على الباب...». ويأتي الإغلاق الأخير، تقول إحدى السجينات: «أفضل وقتٍ في النهار هو المساء، عندما يُغلَق الباب، إذ لا يعود هنالك حارس، ويصبح المرء حرًّا [...] عندما يُغلَق الباب مساءً، أسمع على نحوٍ أفضل الناس الذين يضحكون عند جارتي، وأشعر بعزلةٍ أقلّ، وأستطيع أن أستمع إلى موسيقاي». الأمر معاكسٌ بالنسبة إلى آخرين، فهي أسوأ لحظةٍ في اليوم، أبواب الزنازين التي تُغلَق واحدًا واحدًا على كلٍّ من المحتجزين. «إنّها اللحظة التي أنظر فيها إلى ساعتي أكثر من أيّ وقتٍ آخر، اللحظة الوحيدة الصعبة هي الساعة السابعة، الإغلاق، ثمة ومضةٌ تدوم بضع ثوانٍ لكنّها رهيبة، كنّا اثنتين ويجد المرء نفسه وحيدًا، بضربةٍ واحدة ينتهي كلّ شيء».

يجب ألّا ننسى أبدًا أنّ الدخول إلى المؤسسة العقابية أمرٌ يعيِّن نهاية التحكّم بالزمن، زمن المرء الخاصّ، وأنّ العقوبة الحقيقية هي - بين العقوبات وإسقاط العقوبات - عدمُ التيقُّن متى ستُفتح مجدّدًا على الحياة الاعتيادية هذه الأبوابُ التي تحول بينك وبين المجتمع، ولو أن الأمر كان أُعلن في نهاية المحاكمة. ثمة عدم يقينٍ آخر: هل سيكون الوضع في الخارج عندما نخرج مماثلًا لما كان عليه عندما غادرناه؟ يقول جميع المتّهمين بأنّهم اضطرّوا إلى تعلّم الانتظار أمام كلّ بابٍ يجتازه المرء: باب زنزانته يعني السنوات، أبواب المستوصف تعني شيئًا من المواساة والطمأنينة أحيانًا، في حين أنّ عبور أبواب الردهات الصغيرة (لا بدّ أنّني عبرت ما لا يقلّ عن أحد عشر بابًا منها عندما ذهبتُ لإلقاء محاضرة لـ«طلّابٍ ممنوعين» في فرين(531) Fresnes) يتوقّف على المزاج، حتّى إنّ المرء يمكن أن يجتازها ببضع ثوانٍ أو دقائق لا

(531) فرين: ثاني أكبر سجون فرنسا ويقع في مدينة فرين.

تنتهي، وفق مزاج البوّاب الموجود في ذلك اليوم، بحسب ما فهمتُ من مروري القصير جدًّا بأحد السجون. ينقل الباحث الأنثروبولوجي بروس جاكسون[532] (Bruce Jackson) أنّه في «قسم الموت» في سجن إيليس (Ellis) الموجود في ولاية تكساس، في هذا الحيّز الذي ليس له بابٌ سوى شِباك وشِباك، أكثر ما يمسّ السجناء هو ـ وللمفارقة ـ الاستحالة المطلقة للرغبة في الانعزال. «في واقع الأمر، ما يحبط معنوياتي أكثر من غيره هو الضجيج الموجود هنا على نحوٍ دائم. إنّه لا يتوقّف أبدًا. وهو حقًّا أسوأ من كلّ ما تبقّى. لقد نال جميع غرباء الأطوار هؤلاء الذين يهذون بالله الموافقة على تشغيل التلفزيونات في التاسعة صباحًا للتمكّن من رؤية جميع أولئك الإنجيليين الذين يُكثِرون من الصياح. [...] الرجال يشتكون بصخبٍ ويصيحون ويطالبون بتغيير القناة». بعد ضوضاء الخردة الحديدية القديمة، ها نحن أمام الهدير الحادّ الصادر عن التلفزيون بوصفه تعذيبًا جديدًا لسجناء ليس لديهم باب، إلى درجة أنّ قسم الموت، مثلما يلاحظ المؤلف ويعتقد المحكومون، يميل أحيانًا إلى أن يشبه مختبرًا تجريبيًّا نفسيًّا. المسألة ليست قريبةً من الحل، ففي صحيفة منطقتي التي أفتحها هذا اليوم الثلاثاء 9 آب/ أغسطس 2011 مع إنهائي هذا الفصل، عنوانٌ بالحروف الكبيرة: «عريضة ضد ضوضاء السجن». كيف يمكن تحديد مقدار ضوضاء الأبواب؟ أمضى الشاعر اليوناني الكبير يانيس ريتسوس (Yannis Ritsos) سنواتٍ طويلةً من الاحتجاز بعد الحرب، ثمّ عرف النفي (1967 ـ 1970) في عهد طغمة الكولونيلات، وهو يحكي في قصيدته **ضروبٌ من الرضا** (*Satisfactions*) (1968) كيف يمكن أن يُطمئن ضجيج الترباس أيضًا الرجلَ الموضوع في حماية قفل. أشكالٌ بسيطةٌ جدًّا من الرضا:

(532) بروس جاكسون (ولد في العام 1936)، باحثٌ في الدراسات الفولكلورية أميركي وصانع أفلامٍ وثائقية ومصور.

صوت مفتاحٍ في القفل ـ هذا الصوت في الليل،
فكرةٌ عن المفتاح، شكله وآليّته البسيطة،
وهذا التكيّف السرّي للامتثال. بطبيعة الحال،
لم يكن ذلك من أجل السمعة، وماذا أصلًا؟ من نمتدح؟ ـ
مجهولٌ ذاك الذي كان يحمل المفتاح، مجهولٌ هو الباب.
الاعتداد الوحيد ربّما: أنّ لدينا هذا الصوت.
في حين كان بوّابٌ عجوزٌ يمرّ في آخر الممرّ،
ورأسه مغطّى بمنشفةٍ بيضاء.

مكتبة
t.me/t_pdf

6

فولكلور كامل

«كثيرًا ما حدث له أن فتح بابًا من جديد، فقط لتأكيد أنّه لم يغلقه خلفه إلى الأبد، وأن التفتَ نحو عابر سبيلٍ غادره لإنكار أنّ رحيله نهائي، مبرهنًا بذلك لنفسه على حرّيته الوجيزة كإنسان. لكنّ الحتميّ قد تمّ هذه المرة».

Marguerite Yourcenar(533), *L'Œuvre au noir, 1968*

---

(533) مارغريت يورسنار (1903 ـ 1987)، أديبةٌ فرنسية نالت الجنسية الأميركية وكتبت رواياتٍ وقصصًا «إنسانية» وكذلك سيرة ذاتية. كما أنّها شاعرةٌ ومترجمةٌ وباحثةٌ وناقدةٌ أدبية. كانت أوّل امرأة تنضمّ إلى الأكاديمية الفرنسية بالانتخاب.

ذكر فرويد[534] (Freud) أنّه «في الحياة النفسية لا شيء ممّا تشكّل ذات يومٍ يمكن أن يغرق، وكلّ شيءٍ يبقى محفوظًا بطريقةٍ ما ويمكن أن يُستدعى للظهور ثانيةً في ظروفٍ مناسبة، بفعل نكوصٍ يمضي بعيدًا إلى حدٍّ ما»، بل إنّه اقترح «فرضيةً فانتازيةً مفادها أنّ المدينة (روما) ليست مكان سكنٍ للبشر، بل هي كائنٌ نفسانيٌّ له ماضٍ طويلٌ وغنيٌّ على نحوٍ مشابهٍ لماضي البشر، حيث لم يختفِ شيءٌ ممّا ولد فيه في ذلك اليوم، ولا تزال توجد، إلى جانب الطور الأول للتطوّر، المراحل السابقة كافّة ». روما التي يتحدّث عنها فرويد هي (roma quadrata)، روما الأصول التي أسّسها رومولوس، مع ذكرى «المعبد» (templum) والسور بالصلة مع «حفرة التأسيس» (mundus).

يتحدّث الباحث في الفولكلور أرنولد فان غينيب[535] (Arnold Van Gennep) عن العبور المادي، وعن الحدود بوصفها خطًّا مثاليًّا بين أنصبة العلام والأعمدة، و«يحدث أن يكون النصب الطبيعي صخرةً أو شجرة، نهرًا أو بحيرةً مقدّسة، ويُمنع تجاوزه أو عبوره تحت طائلة العقوبات الطبيعية». عمومًا، تترافق الأشياء التي وُضعت هنا أو عُيّنت بشعائر تكريسٍ خاصة. يتعلّق الأمر بحيّزٍ محدّدٍ من الأرض استحوذت عليه مجموعةٌ بحيث يعني دخولك إلى هذا الحيّز المخصّص كأجنبيٍّ

---

(534) سيغموند فرويد (1856 ـ 1939)، طبيبٌ نمساويٌّ تخصّص في الأمراض العصبية، وهو مؤسّس التحليل النفسي. اشتُهر بنظرياته عن الوعي واللاوعي وكان له أثرٌ عظيمٌ على الباحثين من بعده. له عدّة مؤلفات ترجمت إلى لغاتٍ عديدة، من بينها: **تفسير الأحلام، موسى والتوحيد، الشذوذ الجنسي**.

(535) أرنولد فان غينيب (1873 ـ 1957)، باحثٌ فرنسي بارزٌ في الفولكلور والإثنوغرافيا. اشتُهر بأعماله المتعلّقة بشعائر العبور وطقوسه وأعماله المهمّة المتعلّقة بالفولكلور الفرنسي الحديث.

انتهاكًا لتحريم المرور، وفي الحدّ الأدنى تدنيسًا للحرمات. لا يمكن أبدًا عبور نصب أو رواقٍ أو بابٍ من دون شيءٍ من التخوّف بسبب ذلك جزئيًّا، وهو ما يمكن أن نطلق عليه تسمية الآخر أو المجهول. نستطيع على سبيل المثال إغلاق دربٍ خلفنا بواسطة حزمةٍ من النبات أو قطعةٍ من الخشب المتصالب أو وتدٍ أو عارضةٍ أو تمثالٍ فجّ أو حتى منظومةٍ شديدة التطوّر يمكن أن تصل إلى حدّ وضع «حرّاسٍ للعتبة». وهم حرّاسٌ اتّخذوا في مصر أو في بابل شكل تنينٍ مجنّح أو أبي الهول أو الأسد، ممّا يمكن أن يصل حجمه إلى أبعادٍ هائلة. كان «حرّاس العتبة» أولئك ضِخامًا ومخيفين إلى درجة أنّه لم تعد لهم علاقةٌ بالمعبر المراقَب. لقد تراجع الباب والعتبة اللذين كانوا يدافعون عنهما إلى الخلفية، أمّا ابتهالات الدفاع وأضاحيها، فقد انتهى بها الأمر إلى التحوّل لتتوجّه إلى تلك الآلهة الجديدة، المخيفة والحصرية. يلاحظ فان غينيب أنّ «شعيرة العبور الأصلية والمادّية ضاعت لتصبح شعيرة عبورٍ روحية. لم يعد المعبر يتشكّل من فعل العبور، بل من قوّةٍ تؤمّن هذا العبور تأمينًا غير مادي».

لقد أبرز فان غينيب فكرة «دوران مفهوم المقدّس»، وأظهر أنّ القطاعين المستحوَذ عليهما مقدّسان بالنسبة إلى من يوجد في المنطقة، أيًا كانت الجهة الموجود فيها. وكلّ من يمرّ من إحدى الجهتين إلى الأخرى يجد نفسه في وضعٍ سحريٍّ ـ ديني، وهو يطوف بين عالمين، ويدخل في «هامش». في كلّ «دخـولٍ» إلى مكان، وكذلك في كلّ «خـروجٍ» منه نخاطر مادّيًا وسحريًا بعبور الحدود: نفلت من حمايةٍ نسعى إليها لندخل في منطقةٍ خطرة، وهذا تعدٍّ يجعلنا نغيّر وضعنا. يعترف جميع الناس بأنّ التردّد على محيط المدن أمرٌ خطرٌ على الدوام. يسري هذا الأمر على المعابد أو على الأماكن المهيبة، مثل القصر أو الكنيسة، وهذه الأجزاء من الحيّز المحيط هي بالتحديد التي تُساهِم في

تعريف منطقةٍ ملتبسة التخوم، معالمها البصرية سيئة التحديد هي أيضًا. هنا يمكن أن تولد علاماتٌ هويّاتيةٌ وتفرض نفسها إلى درجة تكوين اعتقاداتٍ يمكن جزئيًّا أن تحكم حياة البشر.

يلاحظ جيمس فريزر[536] (James Frazer) أنّ قواعد السحر الساذجة هي «الساق الأمّ التي تتعلّق بها ثمار القانون الذهبية». صحيحٌ أنّ الحياة الشعبية تكشف في كثيرٍ من الأحيان تقاليد واعتقاداتٍ اختفت، وهذا ما يدفع مؤلّف **الغصن الذهبي** (*Rameau d'or*) إلى القول إنّ السحر كان أوّل خطوةٍ علميةٍ، وأنّ الدّين كان «جهد الإنسان للمصالحة مع القوى العليا». أمّا لوسيان ليفي برول[537] (Lucien Levy-Bruhl)، فقد أظهر أنّ ما سبق الصلات الصوفية يردّ سلفًا على الأسئلة التي تطرحها التجربة.

في حكاياتنا عن العتبة والباب والمعبر، بدت الأفعال السحرية لوقتٍ طويلٍ جدًّا طبيعيةً بالشروط التي اختُرعت فيها وكانت تمارَس فيها. علينا ألّا ننسى أنّه ما من مجتمعٍ بشريٍّ معروفٍ قد عاش من دون شعائر، ولذلك يجب أن نرى في الشعائر الجماعية وسيلةً لإعلاء شأن التضامن الاجتماعي والحفاظ على المجموعة. إنّ شعائر الاقتراب أو الدفاع أو العبور العديدة، الأوروبية وخارج أوروبا والتي سوف أعرضها لاحقًا،

(536) السير جيمس جورج فريزر (1845 ـ 1941)، أنثروبولوجيٌّ اسكتلنديٌّ بارز، مؤلّف كتاب (*The Golden Bough*) (1890). انظر: جيمس جورج فريزر، **الغصن الذهبي: دراسةٌ في السحر والدين**، ترجمة أحمد أبو زيد (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1971)، وهو دراسةٌ في السحر والدين. ومن كتبه الأخرى: **الطوطمية والزواج بغير ذوي القربى** (*Totemism and Exogamy*) (1910) **والطوطمية** (*Totemism*) (1890) وهو عن نظام الطوطم في المجتمعات البدائية.

(537) لوسيان ليفي برول (1857 ـ 1939)، فيلسوفٌ وعالم اجتماعٍ وأنثروبولوجيٌّ فرنسي، تطرّق في أعماله في مطلع القرن العشرين بصورةٍ رئيسيةٍ إلى دراسة الشعوب التي لا كتابة لديها. كان أحد المتعاونين مع إميل دوركايم.

لا تعود في تاريخها إلى البارحة، وقد صار كثيرٌ منها في طيّ النسيان، لكنّها لا تزال تعبّر عن نفسها عبر الرموز التي حُدّدت. وكان تعقيدها البطيء الذي يبدو أحيانًا وكأنّه وصل إلى حدّ العبث، ضروريًّا لتطوير فاعلية الشعائري. تتطلّب مزاولة شعيرةٍ دقّةً على الدوام، أمّا الحركات والكلمات المرافقة لها، فتتطلّب ضبطًا وصِحّة. لا تتحمّل العمليات السحرية الحقيقية أيّ تعديلٍ فيها. في عالمٍ متحرّكٍ على الدوام ويصعب التحكّم به، يضمن الثبات والتكرار فاعلية الشعيرة. وهذا الاستقرار هو حقًّا ما يجعل الشعيرة وثيقةً إثنوغرافيةً[538] (ethnographique) لا يمكن أن يحلّ محلّها شيءٌ لفهم الطريقة التي استخدمتها كلّ ثقافةٍ وكلّ مجتمعٍ في ترسيخ وتعقيد علاقتهما بالكون باستمرار، ليسجّلاها أخيرًا ضمن الاعتقادات التي كنّا نتخيّل أنّها راسخة. لقد شرحتُ مطوّلًا أنّ الانتقال من حالةٍ إلى أخرى وتغيير الفصول والاستعداد لـ«الدخول» أو «الخروج» ليست أفعالًا اعتياديةً وهي تتطلّب من البشر احتياطاتٍ وتيقّظًا خاصًا.

بالعودة إلى تأسيس روما الأسطوري، قليلٌ من الناس يتذكّرون أنّ مهمّة الأحبار الأولى تمثّلت في صيانة الجسر المرمي على نهر تيبر، ولاسيما صيانة الـ (religiones)، تلك العقد المصنوعة من القشّ والتي تمسك بالعوارض. الطابع الرمزي لهذه العقد من أجل إعادة الربط (re-lier) واضحٌ، لكن من المثير للاهتمام معرفة إن كان لا يزال يوجد اليوم عمليًّا في أرجاء أوروبا كافّة، هذا «الربط» (religion)[539]

---

(538) نسبةً إلى الإثنوغرافيا (ethnographie) وهي الأنثروبولوجيا الوصفية. يُستخدم هذا المصطلح بمعنيين مختلفين: أوّلًا بمعنى البحث الإثنوغرافي، أي الدراسة الميدانية التي تركّز على مجتمع محلي أو ثقافةٍ محلية، وثانيًا بمعنى الدراسة الإثنوغرافية التي تهتم بالنصوص المكتوبة كتراث كتب الرحالة وبالتقارير العلمية (المونوغرافية).

(539) كلمة (religion) تعني أيضًا الدين.

(من religere، مربوط مع)، أي تعليق بضع قشّاتٍ معقودةٍ أو مضفورة فوق ساكف الباب أو فوق معبرٍ على سبيل الحماية والتعبير عن الترحيب، حتى إذا كنّا نتخيّل أنّ الهدف الوحيد من ذلك الفعل تزييني. في إيران، يُطلب في اليوم الأول من كلّ شهرٍ من شخصٍ «قدمه خفيفة»، أي محظوظ، أن يثبّت على وتدٍ أو على ساكف الباب غصن شجرةٍ دائمة الخضرة، على صورة المصير الذي نتمنّاه للعائلة. كذلك، في يوم الأربعاء السابق للسنة الجديدة، يصرّ الناس في بعض الكانتونات على أن يكون شخصٌ محظوظٌ أيضًا أوّلَ من يدوس أرض المنزل، مدشّنًا بذلك بأفضل الشروط، السنةَ التي تبدأ وسعادة أهل البيت. لا يمكننا أن ننسى المزوزة[540] (Mézouza) الموضوعة على القائم الأيمن لباب كلّ بيتٍ يهودي تذكيرًا بعهده مع الله وللحصول على حمايةٍ إلهيةٍ لداخله على حدٍّ سواء.

كان الرومانيون يضعون الباب بحماية الآلهة المتيقّظة، لكنّهم كانوا يعتقدون أيضًا أنّ أرواح الأموات تقيم فيه، ولاسيما في المفصّلات حيث يقف الموتى الجدد كلّ يوم سبت. وقد بقيت هذه الفكرة إلى وقتٍ متأخّرٍ في بوهيميا[541] (Bohême) حيث ظلّ الاعتقاد سائدًا حتى القرن الثامن عشر بأنّ الأرواح المتألّمة تقطن في الأبواب، وهذا يفسّر القول المأثور التالي: «يجب عدم إغلاق بابٍ بعنفٍ لأنّ الأرواح تُمضي عقوبتها فيه».

أمّا العتبة (seuil) التي يشير فوروتيير في قاموسه إلى أنّها مشتقة من كلمة (solum)، أي منزل، فهي مكانٌ لطالما كان مثار خشيةٍ كبيرة وموضع تبجيلٍ وحاملًا «شحنةً» كبيرة، وبالتالي كثيرًا ما يكنس الإنسان القاذورات عنه. يشير **قاموس التقاليد الشعبية الميسينية الصغير**[542]

---

(540) المزوزة في الديانة اليهودية غمدٌ يتضمّن نصوصًا توراتية.

(541) بوهيميا: منطقةٌ تاريخيةٌ في وسط أوروبا تشغل الأجزاء الغربية ومعظم الأجزاء الوسطى من جمهورية التشيك.

(542) ميسيني (messin): نسبةً إلى مدينة ميتز (Metz).

إلى (*Petit dictionnaire des traditions populaires messines*) أنّ المرء كان يقدّم بيضةً لكلّ طفلٍ يدخل للمرّة الأولى مسكنًا غريبًا عنه. وبالنسبة إلى الراشدين، كانت «هدية الترحيب» (présant de byinvenawe) تتكوّن من ثلاث عشرة بيضةً. لكن قبل تقديم هذه الهدية لشخصٍ غريب، كان ينبغي التأكّد من أنّه ليس ساحرًا، لأنّ الساحر يستطيع على الدوام أن يلقي الفأل السيئ عبر استخدامٍ معيّنٍ لبيضةٍ تلقّاها هديةً في هذه المنطقة عينها، وإلى وقتٍ غير بعيد، كان بعض المزارعين يضمنون عدم إصابة مواشيهم بالكلَب بمفتاح سان أوبير (Saint-Hubert) الذي كانوا يحضرونه بعد أن يحجّوا إلى منطقة أرديـن[543] (Ardennes). نشير إلى أنّ الخطوط الحمراء التي نراها أحيانًا في القمر كانت تُدعى أيضًا «مفاتيح القديس بطرس».

اهتمّ الباحث في الفولكلور بول سيبيّو[544] (Paul Sébillot) هو أيضًا بالأبواب والعتبات. وهو يذكر أنّ العتبة في منطقة فال دا أوستا[545] (Val d'Aoste) كانت ترتَج بخيطٍ يُخفى تحت الأبواب بغرض منع الساحرات من دخول كنيسةٍ أو الخروج منها. وفي منطقة لانغدوك[546] (Languedoc)، يرشّ الكاهن الملح أمام الباب، في حين تُنثر على العتبة في منطقة والونيا[547] (Wallonie) حفنةٌ من التراب تُجمع من تابوتٍ على العتبة، أو يوضع على تلك العتبة أثناء القدّاس سنّان من مشطٍ حديدي عُثر عليهما.

---

(543) أردين: منطقةٌ طبيعيةٌ تقع في فرنسا وبلجيكا ولوكسمبورغ.

(544) بـول سيبيّو (1843 ـ 1918)، عالم إثنولوجيا وكاتبٌ ورسّام فرنسي أصله من منطقة بريتانيا وكرّس عددًا من أعماله لمنطقته الأصلية.

(545) فال دا أوستا: إقليمٌ إيطاليٌّ يتمتّع بالحكم الذاتي ويقع شمال غرب البلاد.

(546) لانغدوك: منطقةٌ تقع جنوب فرنسا.

(547) والونيا: منطقةٌ تشغل جنوب بلجيكا وينطق سكّانها بالفرنسية.

بطبيعة الحال، تتمتّع أبواب المصلّيات والكنائس بقدراتٍ علاجيةٍ كبيرة. ففي فونتين لاغييون[548] (Fontaine-la-Guyon) في محافظة أور إي لوار[549] (Eure-et-Loir)، كان الشخص المصاب بآلامٍ عصبيةٍ في الوجه أو بآلامٍ في الرأس يغرس دبابيس في أبواب مصلّى القدّيس أنطوان ليثبّت الألم فيه. وفي القرن السابع عشر، كان على الرجل الذي أصيب بما يدعى «انعقاد الدبّوس»، وهي حالة عجزٍ خطرةٌ جدًّا بالنسبة إليه، أن «يبول صباحًا لثلاثة أيامٍ أو أربعة في ثقب» قفل الكنيسة التي تزوّج فيها، وهي أفضل وسيلةٍ للحصول على نجاحٍ مؤكّد.

كذلك، تتمتّع المزاليج والمغاليق بقدراتٍ خاصةٍ بها، ما يفسّر أنّ حديد بوّابات بعض الكنائس كان، وربّما لا يزال، موضوعًا لممارساتٍ ترتبط عادةً بمسألة الحبّ أو الخصب. هكذا وفي بروفان، كانت الفتيات يحرّكن مزلاج باب مصلّى القديس نيكولا وهنّ يكرّرن الصيغة التالية: «يا قدّيس نيكولا، يا قديس نيكولا، زوّج بناتك ولا تنسَ ذلك». وفي دير برانتوم[550] (Brantôme) بمنطقة بيريغور[551] (Périgord) أو في سان ليونار[552] (Saint-Léonard)، كانت النسوة يمسكن بعد القدّاس بمغلاق باب الكنيسة ويحرّكنه ذهابًا وإيابًا بالجهاز المستخدم عادةً. وفي روكامادور[553] (Rocamadour)

(548) فونتين لاغييون: مقاطعةٌ فرنسيةٌ تقع في وسط شمال فرنسا.

(549) أور إي لوار: محافظةٌ فرنسيةٌ تستقي اسمها من نهرَي أور أحد روافد نهر السين، ولوار أحد روافد نهر سارت.

(550) برانتوم: مقاطعةٌ قديمةٌ تقع جنوب غرب فرنسا.

(551) بيريغور: اسم كونتيةٍ كانت تغطّي محافظة دوردون الحالية، جنوب غرب فرنسا، وتتميّز بتراثٍ ثقافيٍّ وأركيولوجيٍّ وتاريخيٍّ واسع.

(552) سان ليونار: اسمٌ تشترك فيه عدّة مناطق في فرنسا، إضافةً إلى سويسرا وإيطاليا وبلجيكا وكندا.

(553) روكامادور: مقاطعةٌ تقع جنوب غرب فرنسا.

في منطقة رويرغ[554] (Rouergue)، كنّ يكتفين بتقبيل المغلاق. أمّا قرب روكروا[555] (Rocroy)، في فوماي[556] (Fumay)، فتمضي الفتيات فور أن يسمح لهنّ طول قامتهنّ بالوصول إلى مزلاج القفل لتقبيل المسامير التي تثبّته لاعتقادهنّ بأنّ تلك وسيلة لا تخيب للحصول على زوجٍ لاحقًا. وفي منطقة بريتانيا[557] (Bretagne)، ترمي الفتيات فلسًا نحو المذبح لمعرفة إن كنّ سيتزوّجن في غضون السنة عينها، وذلك عبر شقوق باب مصلّى مكرّسٍ للسيّدة العذراء. فإذا بقيت قطعة النقود على المذبح، يكون الردّ إيجابيًّا. وفي منطقة كروازيك[558] (Croisic)، كانت تمارَس استشارةٌ مختلفة عبر الرمي، إذ يقف الشبان والشابات على بعد خطوتين من شقّ درفةٍ في مصلّى سان غوستان[559] (Saint-Goustan) ويرمون مشبكًا. فإذا مرّ المشبك من المرة الأولى، يعني ذلك زواجًا في غضون السنة عينها، وإلّا فسوف يتأخّر سنواتٍ يساوي عددها عدد مرّات الفشل في رمي المشبك.

وفي والونيا، يوضع فوق الباب عشٌّ (*potale*) عليه تمثالٌ صغيرٌ للسيّدة العذراء أو لقدّيسٍ مجرّب. يمنح المرور تحت التمثال البركة للداخلين إلى المنزل ويعيق فعل الساحرة (makrale) الشريرة التي تريد

---

(554) رويرغ: إمارةٌ سابقة في جنوب فرنسا، تتوافق تقريبًا مع محافظة أفيرون الحالية.

(555) روكروا: بلدةٌ فرنسيةٌ تقع في محافظة أردين على الحدود البلجيكية.

(556) فوميه: بلدةٌ فرنسيةٌ تقع في محافظة أردين على الحدود البلجيكية.

(557) بريتانيا: كيانٌ جغرافيٌّ وثقافيٌّ فرنسي، يحتلّ شبه جزيرةٍ تقع في أقصى غرب فرنسا.

(558) كروازيك: بلدةٌ تقع غرب فرنسا على شبه جزيرةٍ غرانيتيه في المحيط الأطلسي.

(559) مصلّى سان غوستان: مكان عبادةٍ كاثوليكي يقع في كروازيك، نُسبت إليه منذ القرن الحادي عشر معجزةٌ ترتبط بالراهب غوستان.

أن ترمي اللعنة. يحكى أنّ حاجًّا روسيًّا كان يُمضي إقامةً في القسطنطينية مرّ أمام ميدان سباق الخيل فلاحظ فوق بابين تمثالين صغيرين يمثّل كلٌّ منهما امرأة. وعندما شعر بالحيرة بسبب تعبيرهما العابس، سأل عمّا تفعلانه هنا، فقيل له إنّ دورهما يتمثّل في تضليل النساء غير المخلصات لأزواجهنّ ومنعهنّ من الدخول إلى الميدان. وعندما سأل عمّا يمكن أن تفعله أولئك النسوة، تلقّى ردًا على الطريقة البيزنطية مفاده أنّهنّ يذهبن في تلك الحالة للتسلّي في مكانٍ آخر.

أوّل دخولٍ إلى بيتٍ جديدٍ هو نوعٌ من التكريس للمكان، لكنّ المرء لا يستطيع القيام بهذا التكريس مباشرةً، إذ يمكن أن يمسك الشيطان بأيّ كائنٍ حيٍّ يدخل قبل أن يحتاط بإبعاد الروح الشريرة. وهذا هو السبب في أنّ الناس كانوا في والونيا ومناطق أخرى كثيرة في ألمانيا يضعون في البيت الجديد هرّةً حيّةً ويحبسونها فيها من دون طعامٍ حتّى تموت. وبعدئذٍ، يمكن الدخول والاستقرار بكلّ أمان، لكن بعد أن يوكَل للسلف المكلّف بالدخول أوّلًا الصليب وعلبة الملح وأعواد الثقاب كي يوقد النار في الموقد.

كانت النباتات تلعب دورها الكامل في حراسة الأبواب لإعاقة الساحرات والصاعقة. ففي أنهالت[560] (Anhalt) بألمانيا، يُعلَّق في ساكف باب الإسطبل كيسٌ يحتوي على تسعة أنواعٍ من الأعشاب أو على الشيح الأحمر مساء عيد القديس جاك أو عيد القديس فيليب. وككثيرٍ من النباتات العطرية، لعب الثوم والمردكوش وثمرة الغبيراء دورًا مهمًّا في فئة الحواجز ضدّ الشياطين والمصائب. في هذا المجال، الشمشار معروفٌ جيدًا في العالم الكاثوليكي، ففي كتابٍ عن «الطبّ الشعبي» يعود للقرن الثامن عشر عُثر عليه في ويترسويلر[561] (Weiterswiller) بمنطقة الألزاس، يمكن أن نقرأ اعتقادًا مقترحًا بوصفه «ضمانةً» ضدّ

(560) أنهالت: مقاطعةٌ كانت إحدى دول شمال الإمبراطورية الألمانية.

(561) ويترسويلر: بلدةٌ فرنسيةٌ تقع في محافظة الراين الأدنى، شرق فرنسا.

الحريق: «عندما تبني بيتًا جديدًا، ستكتب على ثلاث ورقات: 'الربّ الأب'، 'الربّ الابن'، 'الربّ الروح القدس والثالوث المقدّس'. (وعلى كلّ عنوان:) 'للشمس والقمر شكلهما فوق الماء والبلاد'. وكي لا يظهر أيّ حريقٍ وأيّ لهبٍ في هذا البيت، نصنع ثلاث علبٍ من الصفيح ونضع فيها هذه الأوراق وندفن العلب في ثلاث زوايا، تحت العتبة أو تحت الصخرة، كي لا تتلف». في هذا الكتاب، يُنصَح أيضًا بدفن إناءٍ تحت العتبة يتضمّن أشياء مختلفةً كقميص عذراء، وهو فعّالٌ جدًّا لحماية البيت من الحريق. وبالفعل، كثيرًا ما كانت تُدفن أباريق أو أوانٍ تحت عتبة المنازل في منطقة الألزاس أو في أقبيتها. واكتفى أناسٌ آخرون بتثبيت حدوات حصانٍ فوق ساكف الأبواب، حيث إنّ الحديد طاردٌ يبطل فعل الشياطين.

في منطقة بروفانس، تقضي شعائر حماية البيت بتزيين ساكف الباب بأشياء لامعةٍ مثل الأطباق المقعّرة المصنوعة من الطين والمبرنقة كي تتمكّن من عكس الأرواح الشريرة التي قد تأتي وتخيف نفسها بنفسها كما هو معروفٌ جيدًا. كما شاء الاعتقاد أيضًا أن توجد قدرةٌ وقائيةٌ لجوزة البلّوط اللامعة. كذلك، كانت إخافةُ العدوّ المحتمل أو اللصّ أو الجار السيئ أو الشيطان الزاحف، ممكنةً عبر تسمير بومةٍ أو عقابٍ مقطّعٍ إلى أربعة أقسام على الباب الكبير الخاصّ بالإسطبل أو، وهو أمرٌ أقلّ قسوةً ولا يقلّ فاعلية، بأن نثبّت عليه شوكًا بثلاثة أغصانٍ يذكّر بالصليب. ومن أجل حمايةٍ أكثر ديمومةً، كان العُرف في بروفانس يقضي بأن تُزرع قرب مدخل المنزل الغبيراء، وهي شجرةٌ ذات فضائل إيجابية، على العكس من الميس الذي يُعدّ ضارًّا.

كما أدّى الباب أيضًا إلى «ألعاب الباب»، على مثال ألعاب «باب سان جان» أو «باب سان نيكولا»، وهي ألعابٌ شُبّه معظمها برقصات اليوم لكنّ الأطفال لا يزالون يرغبون في ممارستها في باحات المدارس،

بأن يشبك اللاعبون أيديهم معًا فيشكّلون سلسلةً طويلة. يرفع اللاعبان الأوّلان ذراعيهما ويمرّ الآخرون على التوالي، بدءًا بالأخير، تحت القوس الذي يشكّله بذلك اللاعبان الموجودان في المقدّمة.

كذلك، ثمة عادةٌ قديمةٌ للدفاع عن النفس وإخافة الأرواح الشريرة والغرباء العابرين بالمقدار عينه، وهي عادة استخدام الحيوانات النافقة أو رأس حيوانٍ على الباب. يحكي بلينيوس الأكبر كيف كان الناس يثبّتون بالمسامير رأس ذئبٍ مجفّفٍ على باب المزارع للتصدّي للشرور، أو يضعون قليلًا من دم الضبع على أعمدة الأبواب لمقاومة ألاعيب السحرة. وفي ألمانيا، كان الناس يحصلون على النتيجة عينها باستخدام رأس حصانٍ أو كبش، أو قرني كبش، أو على نحوٍ أكثر بساطةً باستخدام البيلسان. وفي البلد عينه، كانوا يكتبون بالحوّار على الباب كلمة «نيكيز» لإبعاد الفئران عشية عيد سان نيكيز[562] (Saint-Nicaise). أمّا في منطقة بالاتينا العليا[563] (Haut Palatinat)، فقد كان الناس يدفنون أجمل حَمَلٍ تحت باب الحظيرة لمنع الخراف من الإصابة بالدوار. وفي أماكن أخرى، كان يوصى بدفن حيوانٍ منزليٍّ ميْت واقفًا تحت الباب الرئيسي للبيت، بحيث يكون رأسه متّجهًا إلى البيت، وذلك لضمان ألّا يموت أيّ حيوانٍ من القطيع. هكذا، يستطيع البيت وقد حُمي جيدًا من الخارج وتحصّن بالاعتقادات، أن يستقبل القادمين الجدد إليه ويسهر في المقابل عليهم.

فلتتوقف الشياطين

ها هو وقت قادمٍ جديدٍ من الداخل، أي بعبارةٍ أخرى تلك اللحظة الشائكة، لحظة الولادة، حيث تمتلئ الأبواب التي يجب تجاوزها، علاوةً

(562) أو القديس نيكاسيوس، كان المطران الحادي عشر لمدينة رانس، وأسّس في مدينته كنيسةً مكرّسةً للسيّدة العذراء بُنيت عليها كاتدرائية رانس.

(563) بالاتينا العليا: أحد قطاعات بافاريا جنوب شرق ألمانيا.

على جسم الأم، بالمخاطر والأفخاخ التي ينبغي الاحتراس منها باستمرار. إنّه وقت تنبّه الجميع في مواجهة نفوذٍ ضارٍّ مفترَضٍ يمكن أن يتسلّل عبر أصغر فتحة، عبر أخفّ تيار هواء، أصغر بابٍ سيئ الحماية. إنّه وقت وضع الاستراتيجية الكبيرة المضادة للشياطين. في جميع أنحاء العالم، تجب حماية الكائن الصغير الهشّ الذي وصل إلى عالم البشر مهما كلّف الأمر.

بالنسبة إلى أوروبا وكي نبقى ضمن إحداثياتنا، يبدأ أهل الطفل في منطقة الألـزاس حين ولادته بفكّ كلّ ما يمكن فكّه في المنزل، ويجب على الأخصّ عدم إغفال الحرص على أن تُفتح أقفال الأبواب الداخلية. الأرواح الجهنمية متعدّدة الأشكال ويمكن أن تتغلغل عبر أصغر فتحة: المواقد والنوافذ والأبواب. وهذا يفسّر أنّنا نجد علاماتٍ سحريةً مرسومةً على السواكف. وفي درودنفوس (Drudenfuss)، ترسم القابلة أو ربّ الأسرة شكلًا خماسيًّا على باب الدخول وعلى فتحة المدخنة وحوافّ النافذة. وخلافًا لأبواب المسكن الأخرى، ينبغي أن تُقفل جميع أبواب البيت الخارجية والنوافذ لحظة الولادة. وكانت فاعلية عمليات الإغلاق هذه تزداد نجاعةً في منع الأرواح إذا علمنا أنّ النجّار الذي صنعها لم ينسَ أن يصنع «صليب المسيح» من بقايا الخشب. ولأنّ الحديد شيءٌ مخيفٌ للأرواح الشريرة كافّة، تُزرع سكينٌ في باب الدخول لتعزيز الدفاع، أو توضع على سرير المرأة أثناء ولادتها طفلها، أو داخل السرير. وتكون الفاعلية أشدّ إذا كانت السكاكين أو الأدوات القاطعة الأخرى متصالبة. يمكن أن نلاحظ أنّ العادة الشائعة في جميع أرجاء أوروبا، والقاضية بتثبيت حدوة حصانٍ فوق ساكف الأبواب، تمضي تمامًا في الاتجاه عينه. ولمزيدٍ من الاحتراس، تُبعَد القطط (حيث يتنكّر السحرة أحيانًا فيها). لهذه المناسبة، تُسمّر كوّات مرور القطط في الأبواب وتوضع مكنستان مقلوبتان أمام غرفة الحامل قبيل ولادتها، تزيّنان بثلاث حبيباتٍ من الملح. منذ النجاح العالمي

الذي نالته سلسلة هاري بوتر (Harry Potter) والذي أقول عرَضًا إنّه يفتح الأبواب وهو يتلفظ بكلمة «ألوهومورا» (Alohomora)، يعلم كلّ امرئٍ اليوم أنّ المكنسة المقلوبة تعني القضاء على قدرة السحرة. أمّا الملح، رمز الإلهي، فسنفهم أنّ حبيباته الثلاث تمثّل الثالوث المقدّس للغاية. نستطيع أن نضيف بعض المكوّنات إلى هذه الحماية العالية، كما في هومباخ[564] (Humpach) حيث تقضي العادات بأن تسحق الجدّة بصلةً بقبقابها أمام باب غرفة المرأة وهي تلد وأمام غرفة المولود إن كانت متمايزةً عن غرفة الأم، فالبصل رمزٌ للحياة، ولطالما كان وسيلةً بالغة الفاعلية لإبعاد الأرواح التي تخشى النباتاتِ ذات الرائحة القوية، وأكثر من ذلك لذرف الدموع... مكافحة الشياطين أشدّ وضوحًا في زوندهوفن[565] (Sundhoffen): كان الناس يحتمون من الشيطان بالطَّرق ليلًا على الأبواب وتثبيت مكانس مقلوبة مصنوعة من الوزّال. وكانوا أيضًا يكتبون أحيانًا على الغرفة التي يوجد فيها المولود: «ابتعدي أيّتها الأرواح الجهنّمية، فليس لديك ما تفعلينه هنا. هذا الطفل ملكٌ لمملكة يسوع، فاتركيه ينام بسلام». أمّا عندما تموت الوالدة أثناء الوضع، فتتعقّد الأمور. وقد ذُكر في أحكام محكمةٍ تتعلّق بالسحر في إنسيسهايم[566] (Ensisheim) يعود تاريخها إلى العام 1593، أنّ المرأة التي تموت أثناء الوضع تعود كلّ ليلةٍ لمدّة أربعة أسابيع لترضع طفلها. وأشيرَ في تلك الأحكام إلى عادة وضع حذاءٍ في تابوت المتوفّاة

(564) هومباخ: الأرجح أنّ المقصود هو بلدة هنسباخ (Hunspach) الفرنسية الواقعة في منطقة ألزاس ـ شمبانيا ـ أردين ـ لورين.

(565) زوندهوفن: بلدةٌ فرنسيةٌ تقع في محافظة الراين الأعلى، في منطقة ألزاس ـ شمبانيا ـ أردين ـ لورين، قرب الحدود الألمانية.

(566) إنسيسهايم: بلدةٌ فرنسيةٌ في حوض البوتاس، تقع في محافظة الراين الأعلى في منطقة ألزاس ـ شمبانيا ـ أردين ـ لورين، وهي ضمن المنطقة التاريخية والثقافية للألزاس.

المسكينة. كما تحكي أسطورةٌ من إنغرسهايم[567] (Ingersheim)، أنّه في حال نسي الناس وضع حذاءٍ عند قدمي امرأةٍ توفّيت أثناء الوضع، فإنّها تعود منذ الليلة الأولى إلى مسكنها وتطرق الباب قائلةً: «لماذا لم تضعوا لي حذاءً؟ عليّ أن أمشي على الأشواك، بل على العوسج والحجارة المدبّبة من أجل القدوم!»، وعلى زوجها آنذاك أن يضع زوجًا من الأحذية أمام الباب، فتسارع إلى أخذه فور إغلاق الباب مجدّدًا. ويتواصل الأمر مدة ستّة أسابيع، وفي حال لم يفعل، تعود روح الأم لتُرضع صغيرها. ينجم عن هذا الأمر مثلٌ ألزاسي يقول: «عندما تموت امرأةٌ أثناء الوضع فإنها تذهب إلى السماء مباشرةً مع حذائها وجوربها». وفي ناخغيبورت (Nachgeburt) بألمانيا، كان على القابلة بعد الوضع أن تدفن المشيمة، ذلك «الثوب الدمشقي الحريري الذي يرتديه الإنسان الذي لا يزال عاريًا»، في مكانٍ لا تستطيع بلوغه أشعة الشمس أو القمر، وبعيدًا عن القطّ أو الكلب، لتجنّب أيّ خطبٍ جليل! وكان ينبغي بخاصةٍ الحرص على أن تُدفن هذه المشيمة ضمن منطقة حماية المنزل، كي لا تتمكّن الأرواح الشرّيرة من مهاجمتها، وبالتالي من الإضرار بالأم. ومن أجل ذلك، توجد مناطق مناسبةٌ، مثل القبو أو تحت الدرج أو ـوهو الأكثر شيوعًاـ تحت عتبة المنزل. هكذا حُمي ملايين الأطفال بفضل الأبواب المعزّزة، إلى حدّ أنّها باتت منيعةً بدرجةٍ رائعة ضدّ الغالبية العظمى من الشياطين التوّاقة إلى اللحم الغضّ.

ادخلا، ادخلا أيها العروسان

ثمة لحظةٌ مهمّةٌ أخرى يكون لاجتياز الأبواب فيها معنًى خاص: وقت الزفاف أو الاتحاد، (*gamos*) باليونانية. لطالما استخدم الرسّامون

(567) إنغرسهايم: بلدةٌ فرنسيةٌ تقع في محافظة الراين الأعلى، في منطقة ألزاس ـ شمبانيا ـ أردين ـ لورين.

الباب في الرسم الأيقوني للزواج من أجل تعيين نقطة وصولٍ أو انطلاق، كما لو أنّ كلّ شيءٍ يتمّ من بابٍ إلى باب. في يوم الزفاف، يزيَّن باب الخطيبة الرئيسي وبيتها بحبالٍ من الأزهار والفاكهة. تصل الخطيبة مزيّنةً بالحليّ الثمينة، وفي قدميها حذاءٌ خاصّ وعلى رأسها تاجٌ من الريحان أو إكليلٌ وعلى وجهها غلالة، وذلك بعد أن تكون قد ودّعت طفولتها بأن تكرِّس لأرتيميس[568] (Artémis) ألعابها (الدمى وآلات الموسيقى الصغيرة والكرة) والسيكريفالوس (cécryphale) (وهو شبكةٌ للشعر تضمّ شعرها أيام كانت عازبة)، وكذلك إبزيم الشعر. بعد أن تقوم باستحمام ما قبل الزفاف فجرًا، تزيَّن ثمّ تغطّى بغلالةٍ بيضاء طويلة وتقودها «الوصيفة» (nympheutria) التي تعتني بها من باب غرفتها حتى طاولة المأدبة التي تقدّم في منزلها بعد أضحيةٍ ملائمة.

في نهاية المأدبة، تُقام شعيرة كشف الغلالة: نكتشف وجه الشابة، وهي طريقةٌ تفيد العروس في إظهار نفسها لزوجها وأهله وتعلن انتهاء حفل الزفاف عند أهلها. آنذاك، يهدي الخطيب عروسه زيناتٍ لامعة (غلالاتٍ مطرّزة، عقدًا، تاجًا) تضعها عندما ستأتي لتقرفص فوق رماد ما سيصبح موقدها. لن تتمّ شعيرة الهدايا الحقيقية إلّا في اليوم التالي للزفاف. ينتظم الموكب مقابل باب بيت المرأة ليذهب إلى بيت الزوج. يسير العرس المكوّن من الأقارب والأصدقاء على لحن أغاني الزفاف وعلى ضوء المشاعل. وعندما تصل الشابة إلى باب «دار» (oikos) الزوج وهي تحمل الشعير في مقلاة، يستقبلها أهل زوجها بقطعةٍ من الحلوى بالسمسم والعسل وثمرة سفرجل وحبة تمرٍ علامةً على الخصب.

---

(568) أرتيميس: في الميثولوجيا اليونانية، إلهة الصيد وإحدى الإلهات المرتبطة بالقمر (مقابل أخيها أبولون الذي يُربط بالشمس). أمّا في الميثولوجيا الرومانية، فهي تماثَل بالإلهة ديانا. وهي سبب الوفيات المباغتة والمرض الذي يودي بحياة النساء أثناء الوضع.

تلي ذلك شعيرة «كاتاخوسماتا» (katakhusmata)، التي تتمثّل في قيادة العروس إلى جوار النار العائلية ونثر الجوز والتين المجفّف على رأسها. عبر هذا التنقّل وهذا الذرّ للأطايب (وهي الشعيرة عينها الممارسة لدى وصول عبدٍ جديدٍ إلى البيت!)، تصبح الشابّة ضمن دارها الجديدة وستضمن استمرارها عبر إنجاب أطفالٍ شرعيين. ثمّ يذهب الزوجان إلى «غرفة الزفاف» (thalamos) التي رُبطت على بابها دميةٌ ومنخلٌ ومدقّ جرن، رمزيّتها بديهية. القوى الإلهية المرتبطة بالزواج عديدةٌ بمقدار عمليات «العبور» التي تحدث في تلك اللحظة: العبور من الطفولة إلى الرشد، من وضع الفتاة إلى وضع المرأة والدخول في الجماعة المدنية. سوف يجري هذا الدخول البالغ الأهمية كما رأينا بحماية أرتيميس التي نشكرها على سهرها حتى ذلك الحين على الأطفال واليافعين، وبحماية أفروديت الموجودة على الدوام حيثما تعمل الرغبة، ومن دونها لا يمكن أن يكون الاتّحاد الزواجي كاملًا. سوف تمتدح المرأة بصورةٍ أخصّ هيرا[569] (Héra) التي كثيرًا ما تحمل اسم «تيليا» (Téléia)، أي المكتملة، لأنّها صورة النضج الذي تبلغه المرأة في الزواج وصورة شرعية الاتّحاد. كما أنّها هي التي ستحمي في المستقبل وضعها كزوجةٍ شرعية.

سوف يلعب الباب على الدوام دورًا خاصًّا في احتفالات العبور، ولاسيما أثناء طلبات الدخول إلى العائلة والتي تنجم عنها في كثيرٍ من الأحيان عمليات رفضٍ شعائرية للاستقبال وعمليات خطفٍ أو وضع علاماتٍ خاصّةٍ عنيفةٍ إلى هذا الحدّ أو ذاك. وللبقاء على أبواب باريس، جمع الأخوان سينيول[570] (Seignolle) في

(569) هيرا: إلهة الزواج في الميثولوجيا اليونانية.

(570) هما كلود وجاك سينيول، الأول كاتبٌ فرنسي جاب مع أخيه طيلة سنتين منطقة أوربوا حيث جمعا التقاليد الريفية واهتمّا بشعائر الأعياد والتطيّرات، ونشرا في العام 1937 كتابًا بعنوان: **فولكلور أوربوا**، وتبع ذلك الكتاب عددٌ كبيرٌ من الكتب المكرّسة للثقافة الشعبية، وكذلك أعمالٌ أدبيةٌ أكثر شخصيةً.

أوربـوا[571] (Hurepoix) منذ وقتٍ غير بعيد تقاليد بقيت ساريةً مدّةً طويلة في قرى تاج العاصمة، ففي أنتوني[572] (Antony)، عندما تُخطَب شابة كان الشبّان يذهبون ليلًا ليعلّقوا غصن شجرة صنوبر مزيّنًا بالشرائط على باب الخطيبة الجديدة. تتمثّل الغاية من هذا «الوضع» في إظهار أنّ قلب الفتاة التي تسكن هذا البيت أصبح مشغولًا. وفي هنغاريا، كما في رومانيا، تتواصل حتى الآن في الأوساط الريفية عادة زرع «شجرة أيار/ مايو» أمام باب الفتاة التي يتمّ التودّد إليها، مزيّنة بشرائط وغلالات بمناسبة الأول من أيار/ مايو. أمّا في لابوني[573] (Laponie)، فيذهب الرجل الراغب في الزواج إلى «كوخ» (kota) أبوَي الفتاة ويربط حيوان «الرنّة» (herk) الخاصّ به بأقرب شجرة بتولا ثمّ يدخل الكوخ، وبعد أن يقدّم التحيّة للأبوين يجلس على عتبة الكوخ الداخلية، كما هي العادة بالنسبة إلى الغرباء. يقول أنتا[574] (Anta) في مذكّراته: «فذهب كايريك شخصيًّا ليجلب جلد رنّةٍ ذكرٍ ناصع البياض ووضعه على الأرض بينه وبين زوجته ثمّ دعا أنتا للجلوس عليه». في العادات القديمة، كان ممثّلو المتقدّم للخطبة يجلسون في أمكنة الشرف في الخيمة، أي قرب أبوَي الفتاة، وكان من المفترض بالخطيبين الشابين ألّا يشاركا في النقاشات التي تخصّهما إلّا عندما يُسألان عن رأيهما، وكانا يبقيان قرب الباب، أي في الموقع الأكثر تواضعًا. يقضي معظم أصول المجاملة بأن يبرهن

---

(571) أوربـوا: منطقةٌ فرنسيةٌ قديمة أصبحت منطقةً طبيعية وتقع جنوب باريس، عاصمتها التاريخية هي دوردان، لكنّ أبرز مراكزها الحضرية مدينة إيفري، عاصمة المحافظة.

(572) أنتوني: بلدةٌ فرنسية تقع في منطقة إيل دو فرانس.

(573) لابوني: منطقةٌ جغرافيةٌ ثقافية تقطنها قومية السامي، وهي موجودةٌ في شمال أوروبا ومقسّمة بين النرويج والسويد وفنلندا وشبه جزيرة كولا في روسيا.

(574) أنتا: بطل روايةٍ عنوانها **أنتا، مذكرات لابونيّ** (*Anta, Mémoires d'un Lapon*) (1989)، من تأليف أندرياس لابّا (Andreas Labba).

خطيب المستقبل على التواضع، في حين يتمثّل دور ممثّله في امتداحه أمام حميه وحماته المقبلين، أثناء طلب الزواج. خلف موقد الخيمة المعلّم بحلقةٍ من الحجارة، وفي الطرف المقابل للمدخل، يوجد المكان المقدّس الذي يوضع فيه الطبل السحري وأسلحة الصيّاد. كان هذا المكان محرّمًا على النساء، ومن هناك كان يُخرَج الموتى وتدخَل الدببة المقتولة بشعائر متكاملة. يدفع كثيرٌ من الاعتقادات إلى الإيمان بمنع البصق في هذا المكان أو حتى المرور من فوقه، فهو مكانٌ يواجه الباب ويجب ألّا يُستخدم إلّا لعمليات دخولٍ أو خروجٍ استثنائية. وفي منطقة تورين[575] (Touraine)، كان العريس يذهب قبل العرس بصحبة بعض الشبّان المشاركين في العرس ليجلب عروسه من بيت أبيها. كان عليه أن يدقّ ثلاث مراتٍ على الباب الذي يبقى مغلقًا، ويغنّي: «سيّدي أعطني ابنتك...». وبطبيعة الحال، كان الأب يتظاهر بالرفض، بل كان انتظار العريس أمام الباب يدوم طويلًا في بعض الأحيان، ثمّ يفتَح الباب وتبدو العروس وهي ترتدي تنّورةً وقميصًا أبيضين أمام عريسها. ثمّ يأتي يوم الزفاف حيث تتشيّأ رمزية الباب، ففي لينيول (Ligneul) بمنطقة تورينغن[576] (Thuringe)، تقضي التقاليد بأن تنفّذ العروس الذاهبة إلى الكنيسة لنيل المباركة «عثرة العروس»، إذ عليها قبل دخول الكنيسة أن تصطدم عمدًا بحجرٍ في الساحة وتقول في نفسها «مثل الأخريات...»، وعندما يتعلّق الأمر بزواج واحدةٍ من بنات مريم[577]، يستقبل وفدٌ من الفتيات العروس على باب الكنيسة ويقدّم لها الماء المبارك. تمسك إحدى صديقاتها بالراية وتمسك أربع صديقاتٍ أخرياتٍ بالشرائط

(575) تورين: إحدى المقاطعات الفرنسية القديمة، تقع وسط فرنسا، عاصمتها مدينة تور (Tours).

(576) تورينغن: إحدى الولايات المستقلة في ألمانيا.

(577) بنات مريم: تجمّعٌ من البنات المكرّسات للسيّدة العذراء.

الموصولة بها. وفي أنتوني قرب باريس، وعندما لا يكون العريس من المنطقة، يُغلَق الطريق الذي يسلكه الموكب عند الخروج من الكنيسة بشريطٍ يجب على أحد العروسين أن يقصّه وتقدَّم القطعة المقصوصة للشبّان الذين مدّوا الشريط. أمّا في بوليون[578] (Bullion)، فتوضع مكنسةٌ عبر باب بيت العروسين، وعلى العروس أن تضعها في مكانها عندما تدخل إلى بيتها. وإن لم تفعل، فهذه إشارةٌ إلى أنّها لن تكون مدبّرةً جيّدةً للمنزل. وفي لاسيل ليبورد[579] (La Celle-les-Bordes)، يوضَع على عتبة باب العروسين ملقطٌ ومكنسةٌ ومجرف فحم، وعلى العروس أن ترتّب كلّ شيءٍ لدى دخولها. وفي سيرناي لافيل[580] (Cernay-la-Ville)، يجد العروسان لدى عودتهما من الكنيسة أمام بابهما مكنسةً وملقطًا، إضافةً إلى خرقةٍ متّسخةٍ ومجرف. ولئن كان على العروس أن ترتّب تلك الأشياء، فالزوج هو من تقع على عاتقه مهمة وضع المجرف في مكانه لتأكيد أنّه سيكون مجتهدًا. وفي فيرلوغران[581] (Vert-le-Grand)، يوضَع كرسيٌّ خلف الباب ومعه منشفة طعامٍ متّسخة. فإذا جلست العروس عليه من دون أن ترفع المنشفة من على الكرسي، فيعني ذلك أنّها لن تكون مدبّرة بيتٍ جيدة.

في ليلة العرس، وفي كثيرٍ من مناطق فرنسا، لا يزال العروسان حتى اليوم يهربان من المجتمع في الليلة عينها ويختبئان في مكانٍ يُفترض أنّه سرّي. صبيحة اليوم التالي، يعثر المحتفون بالعرس على العروسين ويصيحون بوقاحة: «افتحي بابك يا سيّدتي العروس وإلّا كسرناه...»، أو يصيحون: «وعاء الخبز»، وهو حساءٌ من النبيذ المحلّى المضاف إليه

(578) بوليون: بلدةٌ فرنسية تقع في مقاطعة إيفلين في منطقة إيل دو فرانس.

(579) لاسيل ليبورد: بلدةٌ فرنسية تقع في مقاطعة إيفلين في منطقة إيل دو فرانس.

(580) سيرناي لافيل: بلدةٌ فرنسية تقع في مقاطعة إيفلين في منطقة إيل دو فرانس.

(581) فيرلوغران: بلدةٌ فرنسية تقع على بعد اثنين وثلاثين كيلومترًا جنوب باريس.

البسكويت، وفي حال عدم صدور ردّ يُقتحم الباب بلا حياءٍ، وللانتقام يقلب الزوّار السرير ومَن عليه ويرغمون العروسين على أن يشربا من وعاءٍ كثيرًا ما يكون مزيّنًا بعينٍ أو يكون محتواه مريبًا إلى حدٍّ كبير. وفي كوربوز[582] (Corbeuse) كان اللغط عينه موجودًا، بل يصل إلى حدّ كسر زجاج النوافذ ونزع الباب من إطاره في حال لم يفتح العروسان الباب. يدوم العرس ثلاثة أيامٍ في سافينيي[583] (Savigny) وفيتري سورسين[584] (Vitry-sur-Seine)، وفي آخر تلك الأيام، يذهب وصيف الشرف صباحًا إلى القرية ليدقّ على باب المدعوّين ويطالبهم بالمؤونة (دواجن، نبيذ... إلخ) ليضمن آخر وجبةٍ مشتركة. سوف نعثر على هذه العادات التي يمكن وصفها بأنّها عقباتٌ أو اختبارات، حيث تلعب الأبواب دورًا كبيرًا في معظم مناطق فرنسا وفي جزءٍ كبيرٍ من أوروبا، ويتشكّل «المرور» من العزوبة إلى الزواج من عمليات خروجٍ ودخولٍ لا تمسّ رجلًا وامرأةً فحسب، بل كذلك عائلةً بأكملها، وبالتالي مجتمع القرية بأكمله.

عندما يُغلَق الباب

«المرور» الأخير في اليونان هو تلك اللحظة التي «تقطع فيها ربّات القدر[585] الخيوط»، أي اللحظة التي يموت فيها المرء. بطبيعة الحال، الشعائر الجنائزية أكثر خطورةً، لأنّها تحكم على نحوٍ أكبر استمرار

(582) كوربوز: بلدةٌ فرنسية تقع على بُعد تسعةٍ وأربعين كيلومترًا جنوب غرب باريس.

(583) سافينيي: اسمٌ يطلق على عدة بلداتٍ في فرنسا.

(584) فيتري سورسين: بلدةٌ فرنسية تقع على بعد حوالى أربعين كيلومترًا جنوب باريس.

(585) ربّات القدر (Parques): هنّ في الدين الروماني أو الميثولوجيا الرومانية الإلهات المتحكمات بمصير البشر، من الولادة إلى الموت. ويمثّلن عمومًا على هيئة غزّالاتٍ يقسن حياة البشر ويحسمن المصير. وهنّ رمز تطوّر الكون والتغيّر الضروري الذي يحكم إيقاعات الحياة ويفرض الوجود وحتمية الموت.

المتبقّين على قيد الحياة وسلامهم. في أثينا، كان جسد الميت يحنّط ويعرض عمومًا في دهليز البيت. وكان هذا الحضور للميت في المنزل يتطلّب اتّخاذ عددٍ من الاحتياطات والقيام بشعائر التطهير لمنع ومحو أيّ خطرٍ للتلوّث في هذا البيت المضطرب. تُطفأ نار الموقد وتُشعل نارٌ جديدةٌ وتوضع أمام باب المسكن آنيةٌ تمتلئ بالماء المطهِّر لتطهير المنزل والزائرين معًا. وفي أثينا، تتجدَّد احتياطاتٌ أثناء «عيد الأموات» (Anthestéries) في آخر شهر شباط/ فبراير، الذي يستمرّ ثلاثة أيامٍ ويقابِل إلى حدٍّ ما كرنفالنا العصري، حيث يمكن أن تعود أرواح الموتى إلى عالم الأحياء. آنذاك، تُغلق المعابد وتُدهن مداخل البيوت بالدبق لمنع الأشباح من دخولها. في نهاية ذلك اليوم الثالث، تُصرف أرواح الموتى بالكلمات التالية: «اخرجي أيتها الكيرات[586] (Kères) فقد انتهى عيد الأموات!». هكذا كان البيت الميسيني يُحمى جيّدًا وبابه يُحصّن باستمرار، فألهم بقوّةٍ فولكلورنا الأوروبي بتنوّعاته، كما بقي في الوقت عينه على قيد الحياة ببسالةٍ حتى أيامنا.

أمّا بالنسبة إلى الرومانيين، فيظهر حضور الموتى الملموس في الحاضرة الرومانية عبر تنظيم حيّز الزمن المدني وبنيته. لقد كان شعور الرومانيين تجاه الموت قويًّا إلى درجة أنّهم كانوا يعيشون كلّ حالة موتٍ بوصفها تلويثًا يمكن أن تمتدّ عدواه إلى عائلة المتوفّى بأكملها. وبالتالي، يتمثّل واجب الجميع، في العائلة كما في الدولة، بالتطهّر منه. هكذا كان للشعائر الجنائزية وظيفةٌ مزدوجةٌ هي توفير مكان راحةٍ للميت وحماية الأحياء. يبدأ هذا الدفاع بنداءٍ مهيبٍ يطلَق من باب

(586) مفردها كير (Kèr)، في المثيولوجيا اليونانية إلهاتٌ جحيمياتٌ كنّ يسكنّ ميادين القتال ليرتوين من دم الموتى ويستولين على المحتضرين ويقدن أرواح الموتى إلى الجحيم. وهنّ يجلبن البؤس والدمار معهنّ ويلوّثن كلّ من يلامسنه، فيسبّبن العمى والشيخوخة والموت.

المتوفّى، صرخة مأتمية لا جواب عليها، (conclamatio)، للإعلان عن أنّ الميت هو الآن خارج إطار أيّ صوتٍ بشري. وبعد ذلك، يحضَّر الميت ويُعرَض على سريرٍ لبضعة أيام. يُشار إلى منزل الميت بأغصانٍ صغيرةٍ من السرو أو من الصنوبر، تعلّق على الباب الذي يدهَن بالأحمر.

بعد رحيل الموكب الجنائزي من أجل دفن الميت في القبر الذي يقع دائمًا خارج أبواب الحاضرة، يُكنس البيت، ويطهَّر بالنار والماء جميع من اقتربوا من الميت ورافقوه إلى مسكنه الجديد. في الأيّام التالية، على جميع أفراد الأسرة الامتناع عن العمل، بهدف استكمال الشعائر الجنائزية، وهي الطريقة الوحيدة للتحرّر بالكامل من هذا التلوث، إذ ربّما يستثير الميتَ الذي لا يوفى حقّه من التكريم الجنائزي الصحيح تجليات مطالبة بالعودة لتعذيب الأحياء على شكل طيف. كانت اللارات(587) (Lares) المنزلية تُمنَح حملًا، وتتلقّى سيريس(588) (Cérès) خنزيرةً، وتأتي وليمةٌ عائليةٌ لتختتم الشعائر. هكذا، تعود العائلة نقيّةً وتستطيع مجدّدًا القيام بانشغالاتها المعتادة.

يتحدّث أوفيديوس(589) (Ovide) عن شعيرةٍ غريبةٍ إلى حدٍّ ما تُقام في الفترة المكرّسة علنًا لذكرى الموتى. كانت هذه الشعيرة تنفّذ على شرف والدة اللارات، تاسيتا (Tacita) الصامتة، على النحو التالي: «تتجمّع فتياتٌ حول امرأةٍ عجوز. تضع هذه المرأة بثلاثة أصابع ثلاث حبّاتٍ من البخور على عتبة المنزل تقدمةً لأرواح هذا 'المعبر'، ثمّ

(587) اللارات: آلهة الحماية عند شعب روما القديمة، تمنح الحماية للأسرة والمنزل.

(588) سيريس: إلهة الزراعة والحصاد والخصب عند الرومان القدماء.

(589) أوفيديوس ناسو المعروف باسم أوفيد (43 ق.م. ـ 17 م.)، شاعرٌ رومانيٌّ قديم، من أشهر أعماله **التحوّلات**.

تربط دميةً من الرصاص بخيطانٍ تلفّظت بعباراتٍ سحريةٍ عليها. ثمّ تدير سبع حبّات فولٍ سوداء في فمها. وبعد ذلك، تخيط وتشوي بالنار رأس سمكة سردين دُهنت قبلًا بالدبق وتخترقها إبرةٌ من البرونز. وبعد أن تسفح العجوز بضع قطراتٍ من النبيذ، تتقاسم السائل المتبقّي مع الفتيات، ثمّ تتلفّظ بعبارةٍ مهيبة: 'لقد ربطنا الألسنة المعادية والأفواه الكارهة'، وتنسحب من العتبة وهي ثملةٌ بوضوح». بالنسبة إلى الرومانيين، كانت الإحالة إلى تاسيتا الخرساء، التي تمسّ بالخرس جميع الآخرين، وتجعل الأحياء المفرطين في ثرثرتهم يعادلون الموتى بحرمانهم من الكلام، أمرًا واضحًا بشكلٍ كافٍ. أمّا وضع دمى من الرصاص على قبر الميت ورأس سمكة سردين مثبّت بمسمار، فكان يسمح بالتحوّط من هجمات ألسنة السوء طيلة السنة التالية. يجب فهم هذه الشعيرة بوصفها عمل «سحرٍ ودّي» حيث يجب أن تبقى الأفواه المسيئة مغلقةً بمقدار إغلاق فم سمكة السردين. يحكي أوفيديوس عن حبّات الفول كيف أنّه أثناء الليموريا[590] (Lemuria)، في 9 و11 و13 أيار/ مايو، تلك اللحظة الرهيبة التي يخرج فيها الأسلاف باسم (lémures) من قبورهم ويغزون المنطقة الحضريّة ليحاولوا العودة إلى البيوت التي عاشوا فيها، كانت تُقام وسيلة دفاعٍ سحرية في كلّ بيتٍ من بيوت روما: في منتصف الليل، ينهض ربّ الأسرة من سريره بقدمين عاريتين ويصفّق ليُبعد عن وجهه الظلال ويلتفت بسرعةٍ ويرمي خلف ظهره حبات فولٍ سوداء على سبيل «افتداء» نفسه وأهله. وكان يستحضر تسع مرّات «أرواح آبائه الموتى» قبل أن يجتاز باب البيت. أثناء الأيام الخطرة، علاوةً على (Lumeria)، وبالتحديد في 24 آب/ أغسطس و5 تشرين الأول/ أكتوبر و8 تشرين الثاني/ نوفمبر و23 كانون الأول/

(590) الليموريا: أحد الأعياد الدينية في روما القديمة، وهو مخصّصٌ لطرد الأرواح الشريرة.

ديسمبر، كان الناس يسعون للحدّ من هذيان الموتى الشبحي من دون تكديرهم، حيث إنّ كلّ شخصٍ يخضع لأرواح موتاه ويخشى أن تُطلِق وباءً أو أن تُلقي بلعنة، والأسوأ أن تأخذ معها أحياء إلى مكان إقامة الموتى.

الأبواب في الفولكلور الأوروبي علاماتٌ للطالع، أي أنّها تتكلّم، فضلًا عن وجوب الدفاع عنها. ففي منطقة ميتز على سبيل المثال، كان الناس يؤوّلون فتح باب مقبرةٍ في يوم جمعة بوصفه إعلانًا أكيدًا عن وفاةٍ ستحدث في الأسابيع الستة التالية. وفي الألزاس، كان يجب تجنّب ترك أبواب الكنيسة مفتوحةً يوم الجمعة أو يوم السبت، وإلّا فمن المؤكّد أن تحدث وفاةٌ في الأسابيع التالية. وكذلك في إيتنهايم[591] (Ittenheim)، حيث يمكن أن تقوم أرواح المتوفّين بفعلٍ على الأبواب. تُحكى قصة تلك المرأة المريضة التي أُدخلت المستشفى، إذ لم يكن باب بيتها يُغلق منذ عدّة سنوات. غير أنّ الناس لاحظوا ذات يومٍ أنّه عاد ليُغلق، وعلموا في اليوم عينه أنّ المرأة ماتت في المستشفى. لَم يُفاجأ أحدٌ في القرية، إذ إنّ الانغلاق المفاجئ لهذا الباب توافق بطبيعة الحال مع مجيء روح تلك المرأة التي أتت لتعيد الترتيب إلى بيتها الذي وُلدت فيه. وفي بترسباخ[592] (Petersbach)، لا يزال الناس يحرصون حتى اليوم على أن يخرج التابوت من الباب بحيث يخرج «الرأس» أوّلًا وليس القدمان كما هي العادة، كي تتمكّن روح المتوفى من أن تطير من البيت. وكذلك الأمر في بروفانس، فبعد أن يعلِن الأصدقاء والجيران (leis assachiè) الخبر للقرية بأكملها من بابٍ إلى باب، يتركون نافذةً مواربةً كي تتمكّن الروح من مغادرة مسكنها الأرضي من دون عقبات. أمّا في تورين، فكثيرًا ما كان التابوت

(591) إيتنهايم: بلدةٌ فرنسية تقع في مقاطعة الراين الأدنى شرق فرنسا.

(592) بترسباخ: بلدةٌ فرنسية تقع في مقاطعة الراين الأدنى شرق فرنسا.

يوضع على أربعة كراسٍ في الدهليز وإلى جانبه صحنٌ من الماء المبارك الذي نُقعت فيه قشّةٌ من الشمشار. توضع أغصانٌ من الشمشار على الأبواب كافّة، من أبواب الحظائر إلى أبواب الحقول، وعندما يؤخذ التابوت والميْت داخله تُغلَق النوافذ والأبواب وفتحات البيت كافّةً، بهدف الاحتفاظ بروح الميت في الداخل. وعندما يصل التابوت إلى أمام أبواب الكنيسة، يوضع على «حجر انتظارٍ» قبل أن يدخل إليها ضمن موكب.

في والونيا، عندما يموت كائنٌ و«يحزم متاعه»، يُقال إنّه «يحكّ بأصابعه مردّ الملاءة»، إشارةً إلى أنّه سينتقل قريبًا في ملاءته التي أصبحت لحدًا إلى «بلاد المناجذ». ويعترف شهود هذا الرحيل بشيءٍ من الارتياح، بأنّه يموت موته الجميل، في بيته، في سريره، وبأنّ الفرصة ستسنح له بالتالي كي «يحصل على حقوقه كافّة». وعندما يلفظ المحتضر أنفاسه الأخيرة، تُغلق عيناه كي لا تستدعي نظرته آخرين. لكن يمكن أن يشعر الحضور بالقلق إذا عبر الموتُ البابَ في يوم أحد، لأنّ ذلك قد يكون إشارةً إلى موتٍ آخر وشيكٍ في العائلة أو الجوار. ويوضع على باب بيت الميت صليبٌ خشبي من أجل طلب الصلوات وحماية أهل البيت. في بعض الأماكن، يركع الناس ويصلّون برهةً على طريق الكنيسة أو قبل تجاوز تقاطع طرقٍ لأنّ «تقاطعات الطرق أماكن تجمّعٍ للساحرات».

في بورغونيا، وعلى نحوٍ أكثر تحديدًا في منطقة مورفان[593] (Morvan)، كان الأقارب يشعلون سراجًا فور ظهور علاماتٍ ملموسة على موتٍ وشيك، يمرّرونه من يدٍ إلى يد ويرسم كلّ شخصٍ علامة الصليب بالسراج على المحتضر. وفي حال بقي هذا الأخير

(593) مورفان: منطقةٌ جبلية تقع وسط فرنسا.

عاجزًا عن لفظ آخر أنفاسه، يوضع تحت وسادته نير ثورٍ بالمقلوب لمساعدته على «العبور». وبعد مجيء الموت، يجب إيقاف ضروب الأعمال كلّها، ويوقف الناس الزمن عن طريق إيقاف رقّاص الساعة ويفرغون الماء من الأوعية المنزلية للتأكّد من أنّ روح المرحوم لم تبقَ فيها، ويغلقون أبواب الخزائن والحجرات كافّة، بل حتى الدروج، ويغطّون المرايا والأثاث بالبياضات البيضاء التي تُترك في مكانها حتى العودة من الدفن. كانت المكفّنة تهيّئ الميت وتلبسه أجمل ثيابه، وبعد أن تضع عليه صليبه حول يديه، علامةً على «المسيحية»، تضع في فمه قطعة نقودٍ كي يتمكّن من «دفع كلفة العبور»، وآنذاك يمكن ردّ الباب عليه.

7

أبوابٌ جديدة

«ادخل من دون أن تطرق الباب!ـ 'لقد أضْفَت زيادة استخدام التقنية دقّةً وفظاظةً على الحركات التي نقوم بها وعلى البشر في الوقت عينه. فهي تخلّص الحركات من أيّ تردّدٍ وأيّ احتراسٍ وأيّ دماثة، وتخضِعها للمطالب المتصلّبة، والتي يمكن القول بأنّها لا ماضيَ لها، وهي مطالب الأشياء. هكذا نسينا ما تعلّمناه عن إغلاق الباب بهدوءٍ من دون إصدار ضجيج، مع إغلاقه جيّدًا في الوقت عينه. يجب صفق أبواب السيارات والبرّادات، في حين تميل أبوابٌ أخرى إلى أن تنغلق من تلقاء ذاتها، على نحوٍ آلي، فتدعو بذلك من يدخل إلى عدم الارتباك وتعفيه من النظر خلفه، كما تدعوه إلى احترام الداخل الذي يستقبله. لا نفي الإنسان الحديث حقّه إن لم نعِ كلّ ما تدفعه الأشياءُ المحيطة إلى تكبُّدِه باستمرار، حتى في أعمق أعصابه انتشارًا. ما الذي يعنيه بالنسبة إلى الذات أنّه لم تعد لديه نافذة ذات مصراعين ليفتحها، بل ألواحٌ زجاجيةٌ فظّة يكفي أن يجعلها تنزلق؟ وأن تختفي سقّاطات الأبواب الحساسة وتحلّ محلّها مجرّد قبضاتٍ نديرها؟ وألّا يعود هنالك دهاليز ولا أدراج خارجيةٌ بين البيت والشارع، ولا جدران حول الحدائق؟ من منّا لم تراوده الرغبة في سحق الحيوانات أو المارّين أو الأطفال أو راكبي الدرّاجات الهوائية على الطريق لإحساسه بقوّة محرّك سيّارته وهو يقودها؟ في الحركات التي تتطلّبها الآلات من مشغّليها، ثمة خشونةٌ ومثابرةٌ غير منتظمةٍ وعنف تميِّز ضروبَ الوحشيّة الفاشية. لئن كانت

التجربة المكتسبة قد بهتت، فإنّ ذلك يعود إلى حدٍّ كبيرٍ إلى أنّ الأشياء، لخضوعها لمقتضياتٍ نفعيةٍ محضة، تستبعد بشكلها أن نفعل بها أيّ شيءٍ سوى استخدامها. لم يعد أيّ شيءٍ فائضٍ مقبولًا، لا في حرّية التصرّف ولا في استقلالية الأشياء، إنّما هذا الفائض هو الذي يمكن أن يبقى بوصفه نواةً للتجربة، لأنه لا ينضب لحظة الفعل».

Theodor W. Adorno[594], *Minima Moralia*, 1943

(594) تيودور أدورنو (1903 ـ 1969)، فيلسوفٌ وعالِم اجتماعٍ ومؤلّفٌ موسيقي وعالم موسيقى ألماني. يعدّ مع هربرت ماركيوز وماكس هوركايمر أحد الممثلين الرئيسيين لمدرسة فرانكفورت التي طوّرت النظرية النقدية. قدّم مع ماكس هوركايمر مفهوم «الصناعة الثقافية».

أنا لست طبيبًا متخصّصًا في أمراض الأنف والأذن والحنجرة، ولستُ طبيب عيونٍ ولا متخصّصًا في أمراض الشرج ولا في الأمراض النسائية، ولا ممّن يتمركزون حول الذات أيضًا، ولا حتى طبيبًا، على الرغم من أنّني أحمل لقب دكتور. لكنّني أعي -مثلنا جميعًا- أبوابي، لأنّني أصونها باستمرارٍ من دون تفكيرٍ خاصٍّ بوظائفها. ولئن كنتُ أعدّد هذه الاختصاصات، فذلك للإشارة إلى أنّنا تركنا بالكامل للعلميّين عناء تعريف أعضائنا ووصفها. إلّا أنّ هؤلاء المتخصّصين في التشريح أكثر اهتمامًا بأمراض «أبوابنا» ووظائفها بوصفنا من الثدييات من اهتمامهم بواقعها البشري. لكن لحسن الحظ، قوَّم المحللون النفسيون بطريقةٍ أخرى «فتحاتنا»، وبعد أن استمعوا جيّدًا إلى ما نقوله عنها، لم يتردّدوا في أن يحشروا أنفسهم في أقفالنا، بدءًا بالدكتور فرويد، فقد كان - بعد العرّافين الأوائل ممّن كانوا يستعينون بتفحّص أحشاء الذبائح الحيوانية - أوّلَ من اقترح مقاربةً تشريحيةً - شعريةً لـ«أبوابنا»، واصلًا بين استخدامها السري وأسباب بناء علاقتنا بالآخر وبالأحداث الشخصية. في العام 1925، انكبّ باهتمامٍ على **الحلم وتفسيره** (*Le Rêve et son interprétation*)، ولاحظ «وجود رموزٍ لها تأويلٌ فريد. وهكذا، فإنّ 'الإمبراطور والإمبراطورة'، 'الملك والملكة'، تعني 'الأب والأم'. 'الغرفة' تعني 'المرأة'، وتمثّل أبواب الدخول والخروج فتحات الجسم الطبيعية». هذه المماثلة مثيرةٌ للاهتمام وسوف أعود إليها لاحقًا بطبيعة الحال، لاقتناعي بوجود سمةٍ شفهيةٍ في كلّ باب.

إنّ العينين والأذنين والأنف والفم والعضو التناسلي والمستقيم، والتي يجب أن نضيف إليها مسام جلدنا كافّة، تطلعنا على واقع العالم بمقدار ما تطلعنا على الصعوبة التي نعانيها في الوصول إليه. لكن توجد أيضًا أبوابٌ داخلية قليلة الحضور في إدراكنا حيث لا تتجلّى، كالغدّة الدرقية،

وهي بابٌ زائفٌ حقيقي، من حيث إنّ هذا العضو الغضروفي الذي يقع أمام الحنجرة سُمي باليونانية (thureoeidês) أي «ما يشبه درعًا»، على يد طبيبٍ من القسطنطينية هو أوريباسيوس[595] (Oribase) (395 _ 450). غير أنّ ناسخًا أخطأ عندما نسخ الكلمة وكتب (thuroeidês)، «ما يشبه بابًا، نافذةً». عاشت الكلمة بهذه التسمية وبقيت في اللغة التشريحية، وعبثًا اقترح **قاموس تريفو ثمّ قاموس ليتريه**[596] (*le Littré*) إعادة التهجئة الاشتقاقية (thyréoïde)، إذ فشلا في مسعاهما. لا يغيّر الناس منظومةً لاتّسامها بالحشو، ولاسيما إذا كانت ترتبط بالعلم. وهكذا، أصبحت الغدّة الدرقية (thyroïde) بابًا زائفًا حقيقيًّا منذ أمبرواز باريه[597] (Ambroise Paré) (1560)، وهي بابٌ يمكن كسره، بجعله يخضع لاستئصال الغدّة الدرقية، وقد تزايد الاعتراف بأهميّته بعد أن بتنا نعلم أنّه يقوم في نهاية المطاف بدور الدرع، حيث يثبّت اليود في حال التعرّض للإشعاع، ويتزايد الحديث عنه في عصرنا المضطرب بيئيًّا، ولاسيما في معرض الحديث عن «خلله» الذي يتفاقم ويبدو أنّه يؤثّر في أخلاطنا. يتدبّر الشعراء أنفسهم بالكلمات وهم على درايةٍ بالوقائع قبل الباحثين بكثير. يذكّرنا عالم النفس فرانسوا فيغورو[598] (François Vigouroux)، في حال نسينا،

(595) أوريباسيوس (320؟ _ 403 م.؟)، طبيبٌ يونانيٌّ اشتهر بتجميعاته المستندة إلى نصوص أبقراط وجالينوس، واهتمّ بعلم الصيدلة المستند إلى النباتات وعلم التشريح.

(596) ظهر قاموس ليتريه بين العامين 1873 و1877 بأربعة مجلدات، وهو قاموسٌ أدبيٌّ يمتلئ بالاستشهادات، أصدره إميل ليتريه.

(597) أمبرواز باريه (1510 _ 1590)، جرّاحٌ وعالم تشريحٍ فرنسي. يعدّه كثيرون أبًا للجراحة الحديثة. اخترع أدواتٍ جراحيةً عديدة.

(598) فرانسوا فيغورو (1936 _ 2013)، عالم نفسٍ وكاتبٌ فرنسي. من كتبه: **سرّ العائلة** (*Le secret de famille*) (1993) **وروح المنازل** (*L'âme des maisons*) (2011) **وروح الأشياء** (*L'âme des objets*) (2008).

بأنّ الغدّة الدرقية معروفةٌ في بعض التقاليد بوصفها «'باب الآلهة'، لأنّها تقيم صلة الوصل بين منطقة الشعور ـ القلب ـ ومنطقة الفكر والوعي ـ الرأس»، وربّما لم يكن ذلك خطأً بالكامل.

من بين أبوابنا الداخلية، أودّ التحدث أيضًا عن «البروزات البوّابية»[599]، التي تطلق عليها اليوم تسمية «الجهاز البوّابي»، أي بعبارةٍ أخرى أبواب الكبد، التي أشار إليها قاموس فوروتيير في القرن السابع عشر بالتوصيف التالي: «تُطلَق تسمية باب على وريدٍ عظيم الحجم يخرج من الجزء الأجوف في الكبد ويشبه جذع شجرة، تخرج منه عدة أوردةٍ أخرى تدخل في المرارة، وبطين القلب، والطحال، والأمعاء والثرب[600]. يُطلِق عليه بعض الناس تسمية يد الكبد، لأنّه يجتذب الكيلوس[601]، وهذا هو السبب في أنّ العرب يطلقون عليه تسمية وريد الحليب».

يصعب علينا أن نتخيّل الكبد بوصفه بابًا ولو عرفنا أهميّته عندما يقع في القصور. على الرغم من ذلك، ومن بين الأعضاء جميعًا، لا شكّ في أنّ الكبد هو العضو الذي تفحّصه الناس أبكر من غيره ولوقتٍ أطول من غيره بوصفه «باب القرارات». من العرّافين الآشوريين أو البابليين الذين كانوا يتقصّون أحشاء الذبائح ويفكّون رموز رسائلها المنذرة، إلى تكهّنات «المُداوي العرّاف» (curandero) في الأنديز[602] (Andes)

(599) البروزات البوّابية: هي الفصّ المربّع في الكبد.

(600) الثرب: طيّتان من الصفاق تمشيان من الكبد إلى المعدة.

(601) الكيلوس: سائلٌ يميل لونه إلى البياض ذو مظهرٍ حليبي، موجودٌ في الأوعية اللمفاوية في المعي الدقيق (الأوعية الكيلوسية) أثناء الهضم. وهو يتكوّن من مزيجٍ من الدسم والعصارات الهاضمة والسائل اللمفاوي.

(602) جبال الأنديز: سلسلةٌ جبليةٌ واسعة تمتد على طول الساحل الغربي لأميركا الجنوبية وتشترك بها سبع دول.

الذي لا يزال حتى اليوم يتفحّص المساحة الواقعة بين فصوص كبد خنزير الهند، لطالما كان الكبد أشبه بخريطةٍ لمعرفة الدروب التي سلكها المرء والأبواب التي يمكنه دفعها والمخاطر التي يتعرّض لها.

أمّا «أبواب الحليب» (portes du lait) (1869) التي اكتُشفت في وقتٍ مبكر جدًّا، «وهي فتحاتٌ تتغلغل عبرها أوردة أثداء البقرة في جدران الصدر»، كما يقول الطبّ البيطري لوصف هذه الفتحات التي تسحب الحليب من خزّانه، فعلينا ألّا ننسى أنّنا كنّا في مجتمعاتنا الرعوية نتعلّق بحلمات أمهاتنا (mamans) (كلمة مشتقة من mamma، أي ثدي، العام 1121)، تلك الثدييات التي سُمّيت تسميةً جيدة، وأنّه بفضل هذه الأبواب المفيدة تمّ تبنّي كثيرٍ من «الإخوة بالرضاعة»، علمًا بأنّه لم يكن في وسعهم أن يجتازوا أبوابنا لولا ذلك.

بماذا يفيد الباب؟ الانتقال، بما أنّنا نعبره في اتجاهٍ وآخر، وهي مغامرةٌ قديمةٌ تلاحقنا مذ كنّا مجرّد قنافذ بحرية نتعلّق بقيعان البحار ونقوم بتشغيل بابينا اللذين كان أحدهما يفيد في البلع والآخر في البصق ثانيةً! منذ ذلك الحين، تغيّرنا بعض الشيء، وفي تاريخ التطوّر (الذي يجب عدم الخلط مطلقًا بينه وبين التقدّم!) نلاحظ إقامة فتحاتٍ تتركّز بصورةٍ أساسيةٍ على الوجه، وهو مكان التواصل العاري دائمًا، والذي يقوم بالخدمة، إن جاز القول. بالنسبة إلى الأبواب المغلقة، يتركّز الأمر في الأسفل على ارتفاع الحوض، وبالتالي فالرأس هو مركز حقل العلاقة، يصونه وينزّهه العضو الذي يتحرّك بواسطته، أي الجسد، منذ «تحرّره» من العمود الفقري ووضعه متوازنًا أعلى انتصاب قاماتنا، وقد وسّع على نحوٍ معتبرٍ حقل علاقتنا الخارجية. وبالفعل، نُظِّم الحقل الوجهي كما يقول علماء الأحياء القديمة إلى درجة أنّنا أصبحنا قادرين على التمايز عن أبناء عمومتنا من الثدييات: تقاربت عينانا، وأصبحت أذنانا جانبيتين، وفُتح منخرانا وما خلف شفتينا، وهما مجسّان متعاكسان

يجمعان كافّة احتمالات الإدراك اللمسي والتناول المرهف للطعام، وأصبحت أسناننا أدواتٍ تكيّفت مع وظائفنا المضغية بوصفنا آكلي لحومٍ ونباتاتٍ معًا. من البديهي أنّ أجزاء الجسد المرئية مختلفةٌ عن تلك غير المرئية. وعلى مثال فمنا، تقتصر دفاعاتنا على القواطع والأنياب، تاركين لغيرنا الخراطيم والقرون والحوافر والأنياب العملاقة.

نعود إلى «أبواب جسدنا» الهشّة والبشرية للغاية، فهي تلعب دورًا بارزًا في إدراكنا العالم في الصورة التي نشكّلها عن جسدنا. يلحّ الطبيب النفسي بول شيلدر(603) (Paul Schilder) على القول إنّ «أهم نقاط الجسد هي فتحاته»، وهو محقٌّ حين يضيف أنّ «لكلّ بابٍ من أبواب الجسم سيكولوجيته الخاصّة وتنسيقه الخاصّ للحسّ».

في ما يخصّ «أبواب الجسد» المرئية على وجهنا، هل نستطيع أن نقول على سبيل المثال إنّ العينين بابان؟ إنّهما في غالب الأحيان توصفان بأنهما نافذتان، وبالفعل، لا ندخِل شيئًا في عينٍ خشية فقئها، وعندما نضع الأصبع في العين، فهذا يعني أنّنا مخطئون! (كما أنّ ذلك مؤلم، وهذا دليلٌ على أنّ العين ليست حفرة). وبالفعل، العين ليست فتحةً بل إنّ كرتها هي النقيض تمامًا، بما أنّها الامتداد البارز لدماغنا. غير أنّ الشعراء لا يخطئون في ذلك، وعندما يذكّر غييوم أبولينير(604) (Guillaume Apollinaire) مادلين ببداية غرامهما في قصيدته **أبواب جسدِك التسعة** (*Les neufs portes de ton corps*)، يبدأ بالنظرة: «لأنني

(603) بول فرديناند شيلدر (1886 ـ 1940)، طبيبٌ نفسيٌّ ومحلّلٌ نفسيٌّ أميركيٌّ من أصلٍ نمساوي، اشتُهر بدراساته عن الفُصام وتصدّع الشخصية، كان تلميذًا لفرويد، وهو أحد أوائل من نادوا بعلم نفس الأنا، وأحد مؤسّسي العلاج ضمن مجموعة، ومؤسّس مفهوم صورة الجسد.

(604) غييوم أبولينير (1880 ـ 1918)، شاعرٌ وكاتبٌ من أهمّ الشعراء الفرنسيين في مطلع القرن العشرين. من مؤسّسي السوريالية.

دخلت فيك عبر عينيك النجميتين». صحيحٌ أنّ كثيرًا من الأشياء لم تكن لتدخل فينا من دون أعيننا، فالعينان تلعبان دورًا أساسيًّا في تطوير صورة الجسد، وهنالك حقيقةٌ سيكولوجيةٌ صلبة في الفكرة الأبيقورية القديمة التي تخرج بموجبها الصور من الأشياء لتدخل في أعيننا. يلاحظ شيلدر أنّ «العينين هما دائمًا جزءٌ مفضّلٌ من صورة الجسد وعضو استقبال، رمزيًّا على الأقلّ»، وهو يعتقد أنّ «دلالة العين الرمزية ترتبط ارتباطًا وثيقًا بوظيفة العين، التي تجعل منها فتحةً رمزيةً يدخل العالم إلينا عبرها». والواقع أنّ النظر فعْلٌ، مثله في ذلك مثل الشرب والأكل، وأنّ العينين تعملان كبابٍ ذي اتجاهين تحدّثت عنه مطولًا في كتابي **وَلَهُ النظرةِ** (*La Passion du regard*). يتعلّق الأمر حقًّا ببابٍ يلقي عبره الدماغ نظراتٍ على الواقع، فتحةٍ فعّالةٍ في واجهاتنا الجامدة. علينا ألّا ننسى، بما أنّنا نهتم هنا بالأبواب، أنّه ليس بوسعنا أن ننظر من ثقب القفل لولا العينان.

بعد عبور بابَي مادلين الأوّلين، «العين اليمنى» و«العين اليسرى»، يؤكّد لها أبولينير منصرفًا إلى تصريحه بالحبّ، أنّه يجب أيضًا ألّا نغفل الأذنين: «وعبر أذنيك والكلمات التي أتحكّم بها وترافقني». المثير للاهتمام هو أنّه لا ينظر إليهما إلّا بوصفهما مُرسِلتين فحسب، إذ عدّهما «بابين لصوتي» ولم يهتم إلّا قليلًا (كما في كلّ القصيدة) بالمستقبِلة. ماذا يمكن أن يُقال بصدد هاتين الفتحتين المرسومتين على نحوٍ غريبٍ على طرفي رأسنا، سوى أنّ «السماع» يريد دائمًا أن يكون ودّيًا، وأنّنا نفتح أذنينا بسهولةٍ أكبر لمن يعلن عن وجوده بتهذيبٍ وعلى نحوٍ أقلّ سهولة باب الصيوان لمن يدقّ عليه بإلحاحٍ مفرط. لا أستطيع بهذا الصدد تجاهل ولادة غارغانتوا[605] (Gargantua)، الذي كانت أمّه

(605) غارغانتوا: شخصيةٌ أدبيةٌ تلقّفها الكاتب الفرنسي فرانسوا رابليه وبنى عليها روايةً من خمسة أجزاء، صدر أوّلها في العام 1532 باسم **بانتاغرويل**، وهو عملاقٌ خرج من أمه عبر أذنها اليسرى.

غارغاميل (Gargamelle) تلقّت خلال المخاض قابضًا طبيًّا قويًّا إلى درجة عدم تمكّنها من فتح مَصرّاتها، ما أدّى إلى «ارتخاء الفصوص المشيمية»، كما كتب الدكتور رابليه[606] (Rabelais)، «فعبرها الطفل بقفزةٍ ليدخل في الوريد الأجوف الصاعد، ثمّ صعد عبر الحجاب الحاجز حتى أعلى الكتفين، في المكان الذي ينقسم فيه الوريد المذكور إلى قسمين، فمضى باتجاه اليسار وخرج من الأذن اليسرى». أثناء الحقبة الفيزيائية[607] (période physique) (والعنصرية) الكبيرة، انكبّ الأنثروبولوجيون، كما فعلوا بالنسبة إلى الفتحات كافّة، على «نتوء داروين» (حافّة الأذن العلوية)، آخر شاهدٍ في رأيهم على ماضينا الحيواني. لكن سواءٌ أكانت الأذنان مدبّبتين أم دائريتين، فإنّ ذلك لا يفسّر لماذا تجعلان نفسيهما بابين للحميميّ عندما يهمس فيهما العاشق، ولا كيف ترتبطان بجنسانيتنا عبر الدماغ، ولاسيما عندما يعضّهما ذلك العاشق. حذار! هنالك آذانٌ عفيفةٌ تفضّل أن تترك الكلمات السيئة عند دخولها تضيع في متاهة تلافيفها، وآذانٌ أشدّ وقرًا لا تعود تسمع عواء الأوامر في الدهليز. كما حدّثوني عن بهلواناتٍ كان الواحد منهم يتمكّن من النوم على كلتا أذنيه[608]، وأنا من جانبي أفضّل أن أترك أذنيّ تتنزّهان عند الأبواب، كي تعلّماني أمورًا عمّا لا نفهمه جيدًا.

«منخر حبيبتي الأيسر هو الباب الخامس لحبّي ورغباتنا [...]. المنخر الأيمن هو الباب السادس لحبّي ولذّتنا».

---

(606) فرانسوا رابليه (1494 ـ 1553)، كاتبٌ فرنسي من عصر النهضة، وطبيبٌ وراهبٌ وعالمٌ باليونانية وأحد إنسانويي عصر النهضة.

(607) الحقبة الفيزيائية: المقصود حقبة الأنثروبولوجيا الفيزيائية أو الطبيعية أو الحيوية (anthropologie physique)، وهي فرعٌ من الأنثروبولوجيا يختصّ بدراسة آليّات التطوّر البيولوجي والقدرة على التكيّف وتنوّع الأعراق. مؤسّس هذا الفرع هو العالِم الألماني يوهان فريدريش بلومنباخ (1752 ـ 1840).

(608) النوم على كلتا الأذنين: تعبيرٌ مجازيٌّ يعني الطمأنينة الكاملة.

يرى أبولينير هنا أيضًا «مدخلًا» إلى الجسد: «دخلت فيه خفيةً برائحتي كرجل». خذ شهيقًا، تنفّس، فشبّاكا رئتينا، المنخران، وهما بابان صغيران بجانحين متبدّلين، يهوّيان الجسد حتى أعمق أعماق دماغنا، وكثيرًا ما يتحوّلان بابين لسقف الحنك، بل يحدث أن يصبح المرء «أنفًا»[609] لشدّة الاجتهاد، وهو ليس أقلّ الأبواب شأنًا في عالم العطور.

لقد لاحظ المحلّل النفسي غيورغ غروديك[610] (Georg Groddeck) أنّ الطفل يصنّف الأشياء والناس وفقًا للرائحة، ويؤكّد أنّ «الكائن البشري، ومن أجل تقدير ما يعجبه أو ما لا يعجبه، يستخدم أنفه على نحوٍ مكثّفٍ أكثر من الكلب، وإن شئت بطريقةٍ أكثر تنفيرًا منه». لقد أولى الناس هذا الأنفَ الظاهرَ وسط الوجه اهتمامًا خاصًّا، وليس بالخير دائمًا. أفكّر في «الدليل الأنفي» الذي طالما انشغل به الأنثروبولوجيون الفيزيائيون المذكورون أعلاه، أي الشكل الظاهري لهذا الباب المؤدّي إلى الجسد، فاستخدموه لمحاولة وصف الآخر وتصنيفه إثنيًّا إلى حدّ أنهم جعلوا منه تعبيرًا عن عِرق. لقد آن الأوان كي تختفي هذه «الدلائل» الفيزيائية إلى الأبد طالما أنّها مسؤولةٌ عن موبقاتٍ لا تصدَّق. يجب أن نُبقي في ذاكرتنا أنّ أحد أكثر الأفعال الهمجية تكرارًا في التاريخ هو تشويه التماثيل الموضوعة على أبواب الأوابد عبر كسر أنفها!

إليكم الآن «الباب السابع»: الفم. «لقد رأيتك أيها الباب الأحمر، يا هوّة رغبتي»، هذا ما كتبه أبولينير، الذي شدّد على باب مادلين

---

(609) الأنف: لقبٌ يُطلق على من يمتهن التعرّف إلى الروائح، ولاسيما في صناعة العطور.

(610) غيورغ غروديك (1866 ـ 1934)، طبيبٌ ومعالجٌ نفسيٌّ ألماني، قال عنه فرويد إنه «محلّلٌ لا يُشقّ له غبار». كان أوّل من أدخل التحليل النفسي إلى العلاج الجسدي النفسي.

«الأحمر والحنون». نتخيّل شفتين منقلبتين خُلقتا للرضاعة وتتحضّران للقبلة، للرشف، لكنّهما تخفيان أيضًا بابًا منزلقًا من المينا البيضاء سيفيد في تقطيع كلّ من يمثُل أمام الباب وتمزيقه وسحقه. قبل ظهور دُرجة ثقب الجسد أخيرًا، كان الفم، هذا الباب الذي يحرّك مشاعرنا من دون جهدٍ ظاهر، لوقتٍ طويل الفوّهةَ الوحيدة في جسدنا التي استُخدمت في التزيينات: تبرزه النساء بأحمر شفاهٍ أشدّ حمرةً، ويعلوه أحيانًا عند الرجال شعرٌ ممشّط. يلعب هذا الباب السابع بخاصّةٍ دور المقرّ الاجتماعي الظاهر للسمة الشفهية. هنا، في المرحلة الأولى من الليبيدو[611] (libido)، يستخدم الإنسان الصغير فمه ليتذوّق العالم ويدرك مادّيته، حاملًا إلى فوّهته الفموية كلّ ما هو أمامه، ممّا يدعوه المحلّلون النفسيون بخاصّةٍ «الموضوع الجزئي»، إلى أن تقدّم له مصّاصةٌ لتخفيف قلقه، أو حتى يحمل إليها إبهامه. إنّ إشغال هذا الفم الذي يفيد أيضًا في الإشارة والنداء والإحساس هو بالنسبة إلى الطفل (enfant) (اشتقاقيًّا هو من لم يتكلّم بعد) البحثُ عن شعور السكينة والارتياح الذي كان يعرفه عندما كان في رحم أمه. ها هو الفم، الباب الطفولي، يتحوّل إلى بابٍ طفليٍّ ويحرس أعلى الجسد.

كما أنّ الفم في الميثولوجيا هو باب تغيير الهيئة، باب القبلات، كالذي سمح لإيروس بإعادة الحياة إلى بسيشيه، الملامسة السحرية للشفتين هي التي تستطيع تحويل ضفدعٍ إلى أميرٍ ساحر أو إيقاظ الأميرات النائمات. وهو أيضًا في الكتاب المقدّس باب النفَس، الذي سمح لله بخلق آدم وللبشر بجعل روحهم تنتقل. وعبر هذا الباب

(611) الليبيدو: كلمةٌ لاتينيةٌ تعني التلذّذ استنادًا إلى شهوةٍ حسّية. وعلى ضوء التحليل النفسي، يعني المصطلح الطاقة النفسية الأساسية لدى الكائن الحي، وارتبط بدايةً بالطاقة الجسدية ولكن بعد اكتشاف غرائز الموت والحياة، أصبح يعني طاقة الحياة النفسية.

ذي التيارات الهوائية، يمرّ «البنيوما»[612] (pneuma) ونستنشق الهواء على سقف الحلق، وعبره كذلك نستطيع معرفة الـدُّوارات اللذيذة للمواعيد السرّية.

الفم لا يكون بريئًا أبدًا، إذ إنّ الحساسية المفرطة التي ورثها من ماضينا الحيواني القريب للغاية تجعله في واقع الأمر عضَوا جنسيًّا فرعيًّا يُعلن عن الباب السفلي، وهـو يعمل بوصفه دهليزًا يسكّن بالقبلات التي يسخو بها حتى حينِ الدافعَ الجنسي لدى الآخر من دون الحاجة للانتقال إلى الفعل، وفي الوقت عينه يعِد بخاتمة، إنّه يدعو إلى الامتزاج، يَضحك ويَبكي، يتحدّث بمفرده مثل بابٍ يريد أن يكون مستقلًّا عن بقيّة الجسد، لكنّه يستغيث من دون توقّف.

وهو لا يجهل أنّه في موضع تنافسٍ ضمن الحزام المنخفض في الأبـواب التي تشكّل المنطقة الحسّاسة في كينونتنا الليبيدية وتربط بين أبوابنا كافّة. وبالفعل، ثمة كثيرٌ ينبغي أن نفعله بتأثير بابين آخرين: أحدهما في الأمام

«أكثر كلوحًا من إيريبوس[613] (*Erèbe*)

أكثر قداسةً من دودونيه[614] (*Dodone*)

ويتنبّأ بمصدرٍ طازج بدرجة أكبر»

والآخـر، في الخلف، يؤرّق الشاعر. يقول أبولينير عن نفسه إنّه «قد أصبح سيّدًا» على الأبـواب، من الأوّل حتّى الثامن ضمنًا. هذا

(612) البنيوما: لفظةٌ يونانيةٌ قديمة تعني النفَس، وفي السياق الديني تعني النفْس أو الروح.

(613) إيريبوس: في الميثولوجيا اليونانية إلهٌ جحيمي يشخصن الظلمات وعتمة الجحيم.

(614) دودونيه: معبدٌ كهاني مكرّسٌ لزيوس والإلهة الأم يقع في إيبيريا على سفوح جبل توماروس، ربّما يعود للألفية الثانية قبل الميلاد.

الباب مدخلٌ خاصٌ بأنثى الثدييات ويُفتح ببابٍ مزدوج. وهذا الطريق المسدود ظاهريًا هو الصمام الذي يمكن أن يؤدّي إلى الحياة بظواهر جَنْيٍ وإنضاج، أو كما يقول الإنكليز، (the folding-door)[615]، ويـؤكّدون مضيفين (that is, the door of the belly, either it takes up semen or because the fetus emerges from it)[616]. فكّروا في أنّ المنطقة القطَنية تدعى أيضًا المنطقة العجُزية، وأنّ عظم العجُز هذا (sacrum)، هذا العظم المقدّس (sacré)، يخفي داخله مشكلة الأم، هذا ما يذكّر به غروديك في **كتاب الهُوْ** (*Le livre du ça*). يبعث التحليل النفسي الاضطراب في نفوسنا، فهل نحن أمام فمٍ لم يكن من المفترض أن يكون له شاربٌ، أم أمام شاربٍ كان من المفترض ألّا يكون له هذا الفم؟ يبقى أنّه باب، إذا ما نظرنا إلى ردّ فعل المتفرّجين أمام لوحة **أصل العالم** (*L'Origine du monde*) للرسام كوربيه[617] (Courbet)، وهي لوحةٌ بقيت لوقتٍ طويلٍ ملكًا للدكتور لاكان قبل أن تتاح لأنظار الناس بعد تعليقها في مكانٍ بارزٍ في متحف أورساي[618] (Musée d'Orsay)، وتثير خشيةً اجتماعيةً على نحوٍ نوعي تتحوّل فيه الرغبة في الرؤية إلى رعبٍ من أن يرانا الآخرون! إنّ هذا الفم العمودي هو حقًّا باب الاستيهامات، وهو فمٌ تحميه ثنياتٌ تصدّ وتدعو، ولذلك

---

(615) الباب المنثني.

(616) «باب البطن، إمّا لأنّه يقبل المنيّ أو لأنّ الجنين يبرز منه».

(617) غوستاف كوربيه (1819 ـ 1877)، رسّامٌ ونحّاتٌ فرنسي، زعيم التيار الواقعي. عُرف بواقعية أعماله المتعارضة مع معايير النزعة الأكاديمية والمتجاوزة تراتبية الأنواع.

(618) متحف أورساي: متحفٌ وطني يقع في باريس، دُشّن في العام 1986 بعد إعادة تأهيل محطة أورساي القديمة. يُعرض فيه الفن الغربي بين العامين 1849 و1914 بكلّ تنوعاته، من الرسم إلى النحت والفنون التزيينية وفنّ التصوير الضوئي والعمارة وغيرها.

فإنّ أبولينير «بعد أن أدمى الفناءَ الذي يسهر عليه وحشُ البراءة الرائع» تمنّى أن «يطلِق أشدّ الينابيع الفوّارة في العالم حرارةً». كلّ شيءٍ قيل، أو تقريبًا، لو لم يذكّرنا معالجونا بأنّ أهمّ بابٍ في هذا المكان، عند الرجل والمرأة على حدٍّ سواء، ليس الفتحة (méat))من كلمة meatus اللاتينية التي تعني: معبر، مجرى(، إذ يؤكّد المحلّلون النفسيون وعلماء الجنس المطّلعون أنّ الاستثارة الجنسية عند الرجل كما عند المرأة تتركّز وتتضاعف مراتٍ عدّة على الخطّ الواصل بين فتحة الإحليل والشرج، الباب الموجود في الخلف كما يقول الكاديون[619] (Cajuns)، «باب ضروب السحر الذي لا نتجرّأ على الحديث عنه أبدًا» كما يقول الشاعر المجرّب. لكنّ الشرج، هذا الباب الشديد القذارة الذي لا نجرؤ اليوم على ذكره صراحةً ونخفيه بمحظور، كان لوقتٍ طويلٍ محترمًا، بل مراقبًا في البلاط على يد «ضبّاط الشؤون» الجديين للغاية، والذين كانت مهمتهم تتمثّل في تفحّص المفرزات بما أنّ الفضلات تُطرح عبره.

ربّما أميل إلى الاعتقاد، مثل فرويد، بأنّ زمن إخفاء صفات جنسية على أبوابنا هو الذي يجعلنا نتحمّل مظهرنا الجسدي المثقوب من كلّ مكان، وبأنّ كلّ هذه الأبواب تصطفق بين الهُوْ (الجنسانية الطفلية) والأنا، وباعتبار أنّ الأنا ليس قويًا بما يكفي ليكبت بالكامل الدافع الطفلي، فإنّ أبوابنا هي معبر، ممرٌّ لتحويل ليبيدو الأنا الجسدي إلى الأنا الفكري. نعم، جميع هذه الأبواب قابلةٌ للاستبدال في ما بينها، باعتبار أنّ الأنا ليس قويًا بما يكفي ليكبت بالكامل الدافع الطفلي. لكن أليست

(619) الكاديون أو الأكاديون: مجموعةٌ إثنيةٌ في لويزيانا يتحدّث أعضاؤها الفرنسية، وتتضمّن - في من تتضمن - المنحدرين من أكاديا (في كندا) الذين رُحّلوا أثناء النصف الثاني من القرن الثامن عشر من بلادهم.

السرّة، هذه المرضعةُ الموغلة في القدم، هي الباب الحقيقي لأناي الأول، والذي أصبح هذه العقدةَ المربوطةَ عليّ والتي تحكم عليّ بأن أبقى أنا نفسي أزليًّا «طيلة الحياة» (ad vitam)؟

الرتل أمام الكوّة

كتب جان تارديو[620] (Jean Tardieu) في مسرحية **الكُوّة** (*Le Guichet*): «انتظر دورك، انتظر أن ينادى عليك! يقول المأمور. الزبون ـ لكن... أنا وحدي! المأمور (وقحًا وضاريًا) ـ هذا غير صحيح! نحن اثنان! خذ (يعطيه قرصًا). إليك رقم دورك!». وكان شارل بيغي[621] (Charles Péguy) قد لاحظ قبل ذلك في صحيفة **لا ريبوبليك**[622] (*La République*) أنّ «المتراس لم يعد هو ما يميّز بيننا اليوم، ما يفصل إلى اثنين شعب فرنسا الطيب، سكّان المملكة. إنّه ترتيبٌ أصغر بكثير، لكنّه أكثر انتشارًا بكثير، ولاسيما اليوم، تُطلَق عليه تسمية الكوّة. تقتصر كلفة الكوّة على بضعة أطرٍ من الخشب متحرّكة إلى هذا الحدّ أو ذاك، شبكٍ معدني مثبّتٍ نوعًا ما، لكن فرنسا تُحكم بهذا القليل حكمًا ممتازًا». الاصطفاف في الرتل أمام بابٍ أو كوّةٍ هو نشاطٌ، بل شعيرةٌ، تواجهنا جميعًا يومًا ما. لم يخطئ جورج دوهاميل[623] (Georges Duhamel) في المجلّد الرابع من كتابه **سرديات** (*Récits*)، وهو يحمل عنوان **زمن الحرب** (*Temps de guerre*)، عندما كتب: «تستحقّ الكوّة تقديرنا،

---

(620) جان تارديو (1903 ـ 1995)، كاتبٌ وشاعرٌ فرنسي له مؤلفاتٌ عديدةٌ متنوعة الأساليب.

(621) شارل بيغي (1873 ـ 1914)، كاتبٌ وشاعرٌ وباحثٌ فرنسي.

(622) لا ريبوبليك: صحيفةٌ يوميةٌ فرنسية، أسّسها ليون غامبيتا في العام 1871، وترأّس تحريرها أوجين سبولر، واصلت الصدور حتى العام 1924.

(623) جورج دوهاميل (1884 ـ 1966)، طبيبٌ وكاتبٌ وشاعرٌ فرنسي، انتُخب عضوًا في الأكاديمية الفرنسية.

فقد روّضت وقهرت شعب فرنسا، هذا الشعب الذي يطيب للناس أن يقولوا إنّه عصيٌّ على الترويض. الكوّة شكلٌ للانضباط لا يمكن حقًّا أن يقاومه أيّ شعب». وبالفعل، يكمن أحد نشاطاتنا الرئيسية كمواطنين في المقام الأول، في الحصول على الخدمات أو تأدية الواجبات أمام كوّة، وكمستهلكين في المقام الثاني لا نتردّد في «الوقوف ضمن الرتل مثل الجميع» والانتظار لوقتٍ طويلٍ من دون تذمّر، أو تقريبًا لشراء بطاقات نقلٍ أو حفلات، للصعود في طائرة أو حافلة، أو - على نحوٍ أكثر إبهاجًا - للشراء في موسم التخفيضات. لكنّنا في هذه الأرتال أقوياء بيقينٍ، هو يقين معرفة أنّنا سنجد عاملًا أو عاملة من المفترض فيه أو فيها حَلّ مشكلتنا هناك، خلف هذا الباب أو خلف هذه الفتحة الصغيرة الموجودة بارتفاع الإنسان، والتي تشير نسختها الحديثة إلى أنّها ينبغي أن تسمح بالحديث «لشخصين على الأقلّ يتواجهان عبر زجاجٍ يبقيهما معزولين واحدهما عن الآخر». لكن تبقى الخشية من أن نتلقّى عندما نصل الردّ التالي: «لا يا سيّدي، لست في الرتل الصحيح، توجّه إلى الكوّة المجاورة»، وذلك من دون أيّ مبالاةٍ بقلقنا. آنذاك، يجب بدء كلّ شيءٍ من جديد، وما قبِلنا أن نفعله (الاصطفاف في الرتل والبقاء فيه من دون تحريك ساكن) يتّخذ أبعادًا تكاد تكون مرعبة. في هذا الرتل الجديد والظالم، تعود مجدّدًا ضروب القلق الحتمية التي كانت كامنةً أثناء انتظارنا السابق. وفي حين أنّنا كنّا قبلًا نصطفّ بكلّ غباءٍ في الرتل وفي حالةٍ من الخواء شبه الكامل، تبدأ بعض الأسئلة تغزونا إلى درجة التأثير أحيانًا في عقلنا نوعًا ما. في وقتٍ مبكّرٍ جدًّا، قاس الفلاسفة زمن الخواء الحرج هذا، متذكّرين أنّ الفرد يحتاج في مواجهة واقعنا الأرضي، المدرج في شبكةٍ باتت موقوتةً، إلى الفعل بدلًا من الانغماس في الإيمان بانتظارٍ نهائي لما ينتظره. وهم يؤكّدون أنّ الانتظار، وهو مقصدٌ الكائن الحي، يجعلنا نوجد، وأنّنا عندما نقف في

الرتل على هذا النحو نكون فريسة نشاطٍ يحمل مشروعًا مفعمًا بالآمال التي باتت مبتذلةً، ونعلم أنّ تحقّق النهاية السعيدة سيزوّدنا بأسمى آيات الرضى فور وصولنا إلى هذه الكوّة اللعينة. وفق أحد الفلاسفة، الانتظار محرّضٌ نبيلٌ على الأمل ويبقى معشّشًا في كينونتنا في أكثر منابع الاندفاع الحيوي سرّيةً، ويؤكّد عالم لاهوتٍ هذه المرّة أنّ الانتظار يخلق الرغبة في مواصلة العيش كإنسان... غير أنّ للانتظار حدودًا، ويعلم ذلك علماء النفس والرياضيون والمهندسون المعماريون. فخلافًا للمظاهر، لم تعد هذه الظاهرة تفسّر اليوم بوصفها رمز عوَزٍ محدّدٍ أو تعبيرًا عن نقصٍ إداري، بل بوصفها نتيجةً مقصودةً ومرغوبةً لعملية «حكمٍ رياضي» يسعى إلى حلّ الانتظار أمام كلّ بابٍ موعودٍ عبر تسوية مشكلةٍ مزدوجة: نفاد الصبر والأولوية. الكوّة غير موجودةٍ هنا بالصدفة، يجب أن نعلم ذلك جيدًا، فباب الحماية المطلق هذا ردٌّ ماديٌّ ومجسّدٌ على انتظارنا الأخروي. أخيرًا، أصبح لدى المهندسين المدنيين والمعماريين في محطةٍ أو وكالة تشغيلٍ أو في شتى الإدارات، وسائل للتفكير في رتل الانتظار وإدارته بأساليب علمية. وتمامًا مثل تنظيم خطّ سير الحافلات في المدن أو سلسلة تصنيع بالتسلسل، لـ«رتل الانتظار» نظريّته وتطبيقاته، أي أنّه كي يتمكّن الواقفون في الرتل من التحمّل، تنطبق عليه معادلة شابمان ـ كولموغوروف[624] (équation de Chapman-Kolmogorov) وعملية بواسون[625] الخاصّتان به. لقد طرح هؤلاء الباحثون على أنفسهم السؤال التالي: «كيف يمكن تحسين النظام لتنظيم الدخول والخروج وحلّ علاقات الترتيب التي

---

(624) معادلة شابمان ـ كولموغوروف: معادلة مساواةٍ تقيم علاقةً بين القوانين المجتمعة لمختلف نقاط مسار عمليةٍ عشوائية.

(625) عملية بواسون (processus de Poisson): عمليةٌ متّصلةٌ عشوائية تُستخدم لنمذجة أحداثٍ عشوائيةٍ تحدث في فترةٍ زمنيةٍ معينة، كبيرة إلى حدٍّ ما ومستقلّ بعضها عن بعض.

تتدخّل؟»، ولأنّ منظّري الظواهر العشوائية يعلمون أنّ وحداتٍ معينة يمكن أن تكون نافذة الصبر بطرقٍ شتّى، وأنّ حالات اختناق، بل إغلاق يمكن أن تظهر، فقد حاولوا معالجتها بأفضل وسيلةٍ ممكنة. لقد انكبّوا على البنى الفيزيائية المكوّنة لظواهر الانتظار، فتخيّلوا أنّنا «زبائن غير مشغولين» في مواجهة «مخدِّمين غير مرئيين»، نكون معهم على الدوام على حافّة النزاع. وقد اقترحوا «مَحْوَرة» الزبون أو الموضوع الذي يقف في الرتل على أساس احتمال انتظارٍ غير معدوم، بحيث يفرض فائض المستخدمين الذي يمكن أن تؤدّي إليه التقلّبات الإحصائية في بعض الفترات على بعضٍ منهم «انتظارًا على محطّات». من المفترض أن يتيح ذلك «إزاحة طور وحدةٍ عندما تكون الوحدات مصطفّةً بحسب ترتيب الوصول». وهذا معناه: انتهت فوضى الرتل الجميلة، وبات علينا من الآن فصاعدًا عندما ننتظر دورنا للوصول إلى الكوّة أن نتذكّر انتماءنا إلى «فائضٍ من المستخدِمين» وانتماءنا لوقتٍ معيّنٍ، إلى مجموعةٍ من الأعضاء أُزيل ارتباطها بوحدتها الظاهرية إزالةً منهجيةً بهدف أن ندرك أنّنا لسنا سوى الضحيّة المؤقّتة للغاية لاحتقانٍ متعمّدٍ منهجيًّا على وشك التلاشي. هكذا تحكمنا إجراءاتٌ لوغاريتميةٌ علمية تسعى لسدّ عدم كفاية الحس السليم، فلم نعد أولئك الشياطين المساكين الواقفين في الرتل بعضنا وراء بعض، بل أصبح كلٌّ منّا «مُتّجِهةَ حالةٍ في التاريخ ت، في اللحظة ل، معتمدًا على احتمالات حركةٍ معينةٍ للانتقال من النظام ت إلى النظام ن في متواليةٍ أساسيةٍ قصيرةٍ متساوية الاحتمال تعدّل مخطّطات الانتقالات والتحويلات». أحبّ هذه الفكرة، فكرة الانتقال من مرحلة إزاحة الطور التفريقية إلى مرحلة التفكّك إلى أطوارٍ أسّية، مع احترام الفواصل، على الرغم من أنّني ألامس الإشباع على مستوى منظِّم الوصول الذي أساهم فيه... في بعض الأحيان، يحدث أن أفكّر بالرتل على نحوٍ رومانسي. أتذكّر الكتاب الجميل الذي كتبه فلاديمير

سوروكين[626] (Vladimir Sorokine) بعنوان **الرتل** (*La Queue*)، وهو كتابٌ انتشر طويلًا بطريقةٍ سرّية في موسكو، فهو يحكي لنا عن تلك الرحلات الطويلة في المكان التي كان نظام تلك الحقبة قد عوّد الروس عليها. كان «الرتليون» يرتجلون في المكان مخيّماتٍ هشّة، ورحـلاتٍ مغذّية، أمّـا الأوفـر حظًّا، فقد كانوا يقيمون مغامراتٍ مع عامل أو عاملة كوّةٍ أُغلقت كوّته أو كوّتها. أتذكّر أيضًا أنّني رأيت بأمّ عيني وعرفت في بوغوتا[627] (Bogotá) أشخاصًا تُطلَق عليهم تسمية «كوليرو» (colero)، وهم متخصّصون بالوقوف في الرتل يأتون صوبك بأبهى حللهم ويقترحون عليك أن يحلّوا محلّك في صفّ الانتظار مقابل مكافأةٍ صغيرة، وكان ما يشبه رقمًا متحركًا يأتي ليصطحبك من المقهى عندما يصل دورك. هكذا تسير الكوّات التي أتسلّى أحيانًا بأن أتخيّل أمام قواصرها أنّنا ربّما نستطيع أن نحفر عليها بحروفٍ من العرق عبارة «السمّ في الذيل» (In cauda venenum).

أفسحوا الطريق للجمهورية

خارج النصوص التي تُملي القواعد، هل نستطيع أن نقيس المكان الذي يحتلّه كلّ شخصٍ في النظام الهرمي إن لم نقسه لحظة عبور بابٍ في يوم احتفالٍ لدخول مكانٍ عامّ؟ صحيحٌ أنّ بروتوكول الدولة، وهو تعبيرٌ محافظٌ عن مؤسّساتٍ تعتقد أنّها أبدية، لا يحبّ أن يتغيّر، مثلما أنّه يوجد تذوّقٌ شديد الوضوح في فرنسا الجمهورية، والتي لا تزال شكليةً بالمقدار عينه، للحلول النظرية «التي لا يقاوم فيها كمال الحلول القانونية عمومًا لوقتٍ طويلٍ أمام ثقل الوقائع السياسية»، كما يضيف برنار مورو (Bernard Moreau)، الاختصاصي في البروتوكول والطقوس البرلمانية.

---

(626) فلاديمير سوركين، روائيٌّ وكاتبٌ روسيٌّ معاصر، ولد في العام 1955.

(627) بوغوتا: عاصمة كولومبيا.

في الجمعية الوطنية على سبيل المثال، تعود أولويةٌ مطلقةٌ لجميع أعضاء مكتب الجمعية، وهو مكتبٌ يتمتّع في القانون الفرنسي بالسلطة العليا، كما أنّه تجسيدٌ للجمعية. فليكن، ولنتخيّل وجود باب، حينئذٍ يفرض ترتيبٌ نفسه بالضرورة. لم تعد المسألة هذه المرّة مسألة لباقة، بل مسألة هرمية. وفق المرتبة وبالترتيب التنازلي، يمرّ أوّلًا أعضاء المكتب، ثمّ رؤساء الجمهورية السابقون ورؤساء الحكومة السابقون الذين هم حاليًّا نوّاب. يأتي بعدهم رؤساء اللجان، والمقرّر العامّ للّجنة المالية، ورئيس وفد الجمعية الوطنية للاتّحاد الأوروبي، ثمّ رؤساء المجموعات السياسية، والنوّاب من الوزراء السابقين، وممثّلو الشعب وفق قِدم ولايتهم، وربّما عمرهم. صحيحٌ أنّه كانت هنالك محاولة للإصلاح في العام 1980، حيث اعتبر بعضهم أنفسَهم أهمّ من البعض الآخر. أجري تعديلٌ طفيف، حيث اعتُبر أنّ بعضهم مساوون للآخرين (الذين كانوا أدنى منهم في الوقائع!). لكن بما أنّ دخول الجميع معًا في فوضى أمرٌ صعب، فقد تمّت الموازنة بين نوّاب الرئيس وأمناء سر الجمعية، لأنّه يجب على الدوام تجنّب التشاجر علنًا تحت أنظار ماريان المساواة[628] (Marianne Égalité).

تتمتع بريطانيا العظمى، مثلها في ذلك مثل فرنسا، بتقليدٍ برلماني خاص، وهو تقليدٌ يزيد من قوّته أنّه يندرج في التاريخ الطويل وغير المنقطع من الملَكية، المصنوع من مزيجٍ من الريبة والثقة، يجعل الأمور غريبةً جدًّا بالنسبة إلينا وكذلك شديدة التعقيد في التعبير عنها. لا تزال العلاقات بين الملكة والمجلسين غنيةً بالرموز، ولاسيّما أثناء

(628) ماريان: شخصيةٌ مجازيةٌ للجمهورية الفرنسية. وهي تجسّد الجمهورية الفرنسية وقيمها المتمثّلة في «الحرية والمساواة والأخوّة»، وتحتل مكان الشرف في البلديات والمباني الرسمية الفرنسية، كما تَظهر بصورةٍ جانبيةٍ على الوثائق الحكومية الرسمية وعلى الطوابع والقطع النقدية الفرنسية.

الاحتفالات المهيبة الخاصّة بافتتاح البرلمان البريطاني. إنّها لحظةٌ شديدة الاستثنائية، تدخل فيها الملكة إلى مجلس اللوردات لتلقي خطابها. علاوةً على العاهلة، تُعرض في هذه المناسبة كلّ أُبّهة البلاط: التاج والعربات والحرس الخيّالة (horse guards) وأحصنةٌ أخرى وبزّات استعراض. بل نرى فيها أيضًا النبيل الذي يحرس باب الملكة ويحمل السيف، يسير متراجعًا أمام ملكته. أمّا اللوردات، فيرتدون أبهى حللهم، وأثوابهم وشعورهم المستعارة. بعد طقس المفاتيح في برج لندن الذي يعرفه السائحون جيدًا، يتمّ في مجلس اللوردات ما أرغب في أن أُطلق عليه تسمية مسرح الأبواب الكبير. يتمثّل طقس خطاب العرش في إعلان الملكة البرنامج السياسي الخاصّ بالحكومة للعام القادم. لكنّ التاريخ المنقضي يدفع إلى اتّخاذ احتياطاتٍ شعائرية نوعًا ما من كلّ الجوانب.

ينتظر النوّاب المجتمعون بتواضعٍ في مجلس العموم أن تتفضّل العاهلة باستدعائهم. ولأنّ البلاط يرتاب بأعضاء مجلس العموم، على الرغم من أنّهم يشتهرون بـ«ولائهم الكبير»، فسوف يضمن بدايةً أمن العاهلة عبر المطالبة برهينةٍ أثناء وجود الملكة بين جدران قصر ويستمينستر (Westminster). وبالفعل، يُقاد أحد النوّاب إلى قصر بكنغهام (Buckingham) في سيّارة رولز رويس ملَكية حيث يبقى بصفة رهينةٍ حتى عودة الملكة سالمةً.

يُفتتح حفل الخطاب في البرلمان في مناخٍ مماثلٍ من الريبة الرمزية: ينقل اللورد المستشار عبر ضابطٍ من المجلس هو النبيل المحضِر ذو العصا السوداء الذي يُطلَق عليه لقب «بلاك رود» (Black Rod)، الأمرَ إلى مجلس العموم بوجوب تقديم أنفسهم أمام الملكة. أمّا البرلمان، فسوف يَنتخب كلّ مرّةٍ للمناسبة متحدّثًا جديدًا باسمه. لكنّ المتحدّث سوف يغادر مقعده على سبيل الاحتياط ويجلس في مقعد الكاتب،

مُظهرًا بهذا الانزلاق الرمزي أنّه لا يمكن أن يجري شيءٌ في البرلمان. يرتبط هذا الأمر بحادثةٍ مؤسفةٍ تعود للعام 1642، عندما أتى الملك تشارلز الأول إلى صالة الجلسات واستولى على مقعد المتحدّث وفرض توقيف خمسةٍ من النوّاب. لم ينسَ النوّاب تلك الحادثة أبدًا ولم يتمكّن أي ملكٍ أو ملكةٍ منذ ذلك الحين من الدخول إلى مجلس العموم.

لم يسقط الارتياب تجاه النظام الملكي بعدُ، وهو يعبّر عن نفسه بوضوحٍ شديدٍ في شعيرة دخول رسول اللوردات، فعندما يكون حامل العصا السوداء في منتصف الطريق بين المجلسين، يغلق رئيس المحضرين في مجلس العموم صراحةً واحدًا من مصراعي باب الدخول إلى صالة الجلسات. يتقدّم بلاك رود. وعندما يقترب من الباب، يصْفِق رقيب السلاح علانيةً المصراع الثاني في وجهه ويغلقه من الداخل، وآنذاك فحسب يتخلّى المتحدّث عن مقعد الكاتب ويذهب إلى مقعده، حين تكون له السلطة كاملةً إن دعت الحاجة إلى الدفاع عن امتيازات المجلس. يطرق بلاك رود الباب ثانيةً بالعصا السوداء، ولا يحصل على أيّ رد. ويتكرّر الأمر مرّةً أخرى. وعند الضربة الثالثة، يتأكّد الرقيب عبر الشبك من هويّة زميله. وبعد أن يقدّمها هذا الأخير، يفتح الباب ويسمح له بالدخول. يسمح له بالتقدّم. بعد عددٍ من التحيات، يصل إلى الطاولة ويسلّم دعوته للعموم للمجيء والاستماع للملكة عند اللوردات. يقبل النوّاب من دون احتجاجٍ ويصطفّون في موكبٍ مضبوطٍ بعناية. بتواضعٍ كبير، يتّخذ المتحدّث، أوّل النواب، مكانه خلف حامل العصا الذي ليس سوى موظّفٍ في مجلس اللوردات. يفتح شرطيٌّ الدرب أمام المتحدّث الذي يكون قد اتّخذ مكانه على يسار ضابط اللوردات ويصيح قائلًا: «أفسحوا مكانًا لبلاك رود! أفسحوا مكانًا للمتحدّث!»، وعندما يصل النوّاب إلى مجلس اللوردات يبقون واقفين خلف «الحاجز» الذي يعيّن العتبة وكذلك الحدّ القانوني والفني لصالة الجلسات. وفي هذا الوضع

من الامّحاء، يستعدّون للاستماع إلى خطاب الملكة. لقد غادر صولجان العموم كتف رقيب السلاح ليصبح تحت مسؤولية محضِرٍ يجعله من دون ضجيجٍ يرتاح على الأرض في حين تحيط بالملكة نفسها صولجاناتٌ ترمز إلى جلالتها. سوف تُستخدَم الأبواب والعتبات التي يعرف الإنكليز قوّتها في شعائر أخرى كما أثناء التصويت في البرلمان، حيث يغادر النوّاب صالة الجلسات عبر أحد البابين وفق التصويت الذي يرغبون في إجرائه.

بالعودة إلى فولكلورنا البرلماني الفرنسي، ماذا نفعل عندما تلتقي أمام الباب قبيلة الأزليين (أو ما يقارب ذلك) والنواب الفرنسيين، أي مجلس النواب ومجلس الشيوخ، وقبيلة تلك الشخصيات الهشّة الزائلة، أعضاء الحكومة غير المنتخبين؟ حتى إصلاح العام 1989، لم يكن أحدٌ يعلم جيدًا بأي ترتيبٍ يمكن الدخول. وهكذا، كانت الجمعية الوطنية تشغل مجتمعةً المركز السادس في الدولة، مباشرةً بعد الحكومة. منذ ذلك الحين، تمّ التخلّي عن مفهوم «الهيئة» وأصبح النوّاب أفرادًا، وتراجع أعضاء الجمعية إلى المركز الحادي عشر. لنكن مطمئنين، فإنّ الأجيال وشرف الشيوخ تحرص على ألّا يتغيّر شيءٌ حتى إذا تغيّرت الأمور على الورق، ولا تزال العادة تتغلّب على القانون. وعلى الرغم من وجود بعض الفوارق الدقيقة التي لا يزال من الممكن كشفها اليوم في أماكن الحضور في المنصّات، فإنّ من غير الممكن إغفال مجريات الجلسات ودَور الأبواب، إذ خارج مواعيد «الدورات البرلمانية» التي تتضمّن احتفاليةً نوعية، لا يزال هنالك نوعٌ من المهابة في الأفعال وفي أساليب الفعل عندما يكون المرء في البرلمان. على سبيل المثال، وجود المحضرين باللباس الرسمي أساسيٌّ في فرنسا لقيام النوّاب بعملهم وحتى لمظهرهم. يبدو أنّ البوندشتاغ[629] (Bundestag) ومجلس اللوردات البريطاني أكثر مرونةً بهذا الشأن.

---

(629) البوندشتاغ: البرلمان (مجلس النواب الاتّحادي) الألماني.

إضافةً إلى المظهر المناسب المفروض على كلّ نائبٍ وزائر، هنالك أيضًا «مساراتٌ موصى بها»، وأخرى ممنوعة، من قبيل المرور بين الرئيس والمتحدّث، وهو أقلّ ضروب التهذيب كما قد يقال لي، أو المرور بمداخل مخصّصة لهيئاتٍ معينة وفي مناسباتٍ معينة. في فرنسا، لا يُستخدم الباب، أو بصورةٍ أدقّ لا يوصى باستخدامه في الجمعية إلّا إذا تعرّض أحد النوّاب لتوبيخٍ يترافق مع استبعادٍ مؤقت، وهذا أمرٌ شديد الندرة، وعندما يحدث ذلك «يرافقه رئيس المحضرين إلى باب القصر».

تفرض الحداثة تغيّر «الدخولات» مع تغيّر أنظمة النقل، إذ يصعب على سبيل المثال «تمرير» ضيفٍ مهمٍّ على باب بلده عندما يصل عبر الأجواء. يقضي التقليد بأن يهبط رؤساء الدول الأجانب في مطار أورلي يوم الإثنين في الساعة الرابعة بعد الظهر. يكون في استقبال الضيف وزيرٌ فرنسي على الأقل عند باب الطائرة، يصحبه وفدٌ يتضمّن سفيري البلدين المعنيين، وحاكم باريس العسكري، ورئيس البروتوكول، ورئيس بلدية فال دومارن[630] (Val-de-Marne). يصعد رئيس البروتوكول بصحبة السفير الأجنبي إلى الطائرة ويدعو الضيف إلى النزول في فرنسا، حيث يتلقى تشريفات فصيلٍ عسكري مختلط يعزف النشيدين الوطنيين أمام العلم. يحتلّ الضيف مكان الشرف في سيارةٍ يقودها سائق، وهو مكان في جهة اليمين بمؤخرة السيارة (يطرح هذا المكان مشكلةً أحيانًا عندما يكون الشارع المؤدّي إلى مكان الاستقبال في مدينةٍ ما وحيد الاتجاه، إذ يجب أن يكون باب السيارة وباب المبنى متواجهين. يجب على البروتوكول أن يفكّر في هذا الأمر ويحلّ المشكلة قبل أن تُطرح، وإلّا أدّى ذلك إلى حادثٍ جمهوري مؤسف).

---

(630) فال دومارن: مقاطعةٌ فرنسيةٌ تقع كامل أراضيها ضمن باريس الكبرى ويقع فيها مطار أورلي.

بالنسبة إلى من يذهب إلى قصر الإيليزيه[631] (Élysée)، يستقبله كولونيل الحرس الجمهوري والضابط الإداري الذي سيرافقه، بعد أن يقفا إلى الخلف قليلًا على يمين السيارة وعلى الخطّ عينه، في حين يأتي رئيس الحجّاب ليفتح الباب الخلفي.

اليوم، عندما يكون هنالك عشاءٌ كبيرٌ في قصر الإيليزيه، يشير البروتوكول إلى أنّ وصول الرئيس وضيوفه يجب أن يتمّ «في الساعة الثامنة حتمًا». سوف ينضمّون إلى أهمّ أربعين مدعوًّا اتخذوا أماكنهم في صالون مورا[632] (Murat)، حيث يتم تقديمهم بالتبادل إلى الرئيس وإلى ضيفه الرسمي. بالنسبة إلى المدعوّين الآخرين، يتمّ الاستقبال في صالون السفراء. ورئيس الحجّاب هو الذي يقود رئيس الدولة ويعلن عن حضوره. أثناء تقديم المقبّلات في الصالونات، يعزف الحرس الجمهوري أهازيج في باحة الإيليزيه، حتى اللحظة التي يُطلَب فيها من الضيوف أن ينتقلوا إلى المائدة. يبلغ عدد المدعوّين إلى عشاء الدولة هذا 216 مدعوًّا، وهو رقمٌ لا يدلّ سوى على قدرة استيعاب طاولة صالة الأعياد في الإيليزيه، علمًا بأنّه يبقى 22 صحنًا لا تقابلها مقاعد، يتّخذ المدعوّون أماكنهم وفق مخطّطٍ مدروسٍ بعنايةٍ شديدة. تقليديًّا، كانت الخطابات تُلقى بعد تناول الطعام، إلى أن باتت تُلقى قبله منذ تولّي فرانسوا ميتران[633] (François Mitterrand) الرئاسة. أمّا مجريات العشاء، فيجب ألّا تتجاوز الساعة الثانية إلا ربعًا ليلًا. نشير إلى أنّ

---

(631) الإيليزيه: القصر الرئاسي الفرنسي.

(632) جواكيم مورا، ماريشال فرنسا وأمير الإمبراطورية الفرنسية، عهد بترميم قصر الإيليزيه لمهندسَين معماريين أقاما رواقًا لعرض اللوحات استخُدم كصالة رقص، وهي الصالة التي تُطلق عليها اليوم تسمية صالون مورا.

(633) فرانسوا ميتران (1916 ـ 1996)، رجل سياسةٍ فرنسيٍ شغل منصب رئيس الجمهورية لفترتين رئاسيتين (1981 ـ 1995) كما كان أمينًا عامًّا للحزب الاشتراكي الفرنسي.

الطاولة الرسمية في فرنسا تبلغ 76 سنتيمترًا ارتفاعًا مقابل 72 سنتيمترًا في بريطانيا العظمى، لإتاحة رؤيةٍ أفضل لملابس الاحتفال التي يرتديها المدعوّون في هذه المناسبة. أمّا تقديم الطعام، فيقضي التهذيب بأن تتكوّن الصواني المقدّمة على الدوام من إحدى عشرة حصةً، على الرغم من أنّه لا تُقدَّم سوى ثماني حصص، إذ يجب ألّا تعود الصينية إلى المطبخ فارغةً أبدًا.

البروتوكول مضطرٌّ للتطوّر مع حراك الرئيس والتحوّلات في الشعائر الجمهورية بضغطٍ من رؤساء الدول الشباب والتغيير... لكنّ الجمهورية لا تزال تسير في مسارها كما هي الحال أثناء تنقّلات رئيسها في الأرياف، حيث لا تزال تُختَرَع أبوابٌ وتُميَّز: يستقبله المحافظ على حدود المحافظة، ويستقبله كلّ نائب محافظٍ على حدود الدائرة، ويستقبله كلّ رئيس بلديةٍ مع مستشاريه البلديين على حدود البلدية، وأحيانًا تدعو الجمهورية نفسَها على أبوابنا.

شيفرات وسرقات

تذكّروا الاستنكار الذي عارض لوقتٍ طويلٍ ترقيم الأبواب، حيث خشي كلّ شخصٍ من فقدان هويّته خلف الأرقام الشنيعة والعديمة الطعم، بل إنّ النبلاء المهووسين بأسمائهم وبـ«أحيائهم» الخاصّة، تحدّثوا عن نهاية الإنسانية لكنّهم اضطرّوا - مثل غيرهم - إلى إدراك أنّه في مواجهة التمدين المعقّد يجب عليهم قبول التقدّم والتماهي مع الحيّ رغمًا عنهم، وقبول هذا الشعور الغريب والممتع، شعور الانتماء القروي ضمن ريفٍ أصبح مدينة... ولكن، وبعد أن تمّ الترقيم والتحصّن بأكبر قدرٍ ممكنٍ من التمدّن، بات عددٌ متزايدٌ من الحاسدين والمحتالين يسعون لدفع الأبواب وزيارة البيوت ليأخذوا منها ما يستطيعون، وهكذا باتت المدينة التي من المفترض أنّنا تجمّعنا فيها ليكون خوفنا أقلّ

ولنحمي أنفسنا على نحوٍ أفضل، تُنذر بالخطر وانعدام الأمان، حتى عندما نكون في حماية أرقامنا المشفّرة وأبوابنا المصفّحة وتحت مراقبة الحرّاس والكلاب.

كيف نستطيع اليوم دراسة أبوابنا إحصائيًّا؟ وعلى سؤالٍ قديم يأتي ردّ قديم: الخوف من الآخر هو الذي يدفعنا إلى تعزيز أبوابنا وتحديثها! كم من التطوّر جرى منذ الباب الميسيني، حيث كانت الخشية تتأتّى بخاصةٍ من واقع أنّه يكفي السارق الذي يعزم على الدخول أن يكشط الجدران المصنوعة من الآجر ليدخل على هواه. والاعتقاد بأنّ بابًا يستطيع أن يمنع سارقًا محترفًا من الدخول إلى بيتنا هو اعتقادٌ واهٍ يشيعه بائعو الأبواب وصانعو الأقفال الماكرون، لكن لا صلة له بالواقع، إذ تطرح مسألة الباب في تعبيراتنا المعاصرة مسألة أمن الأُسر. أحدث مصدرٍ هو التحقيق المسمّى **إطار حياة الأسر وأمنها** (*cadre de vie et la sécurité des ménages*) الذي أجراه المعهد الوطني للإحصاء والدراسات الاقتصادية (INSEE) في العام 2007. فرض العنوان الفرعي لهذا التحقيق نفسه بوصفه بديهيةً: «حماية المسكن من السرقة ومن المخاوف» (Protéger son logement contre le vol et contre ses peurs). وقد تُرجم ذلك بطبيعة الحال من وجهة نظرٍ مادّية بتأمين المعابر: أبواب الدخول والأقفال والمرشّحات الإلكترونية، بالإضافة إلى بعض الكلاب الرادعة.

في فرنسا، عدا مستعمراتها، جهّز ثلثا الأسر مكان إقامتها الرئيسي بمنظومةٍ أمنيةٍ على شكل ترتيبٍ تقني، أو بوضع حراسةٍ أو حيوانٍ للحراسة. ولنكون أكثر دقّةً، جهّز اثنان وأربعون في المئة من السكّان سنة 2007 أماكنهم بأبوابٍ مصفّحةٍ، أو بأقفالٍ لها ثلاث نقاط تثبيتٍ، أو ـ بالنسبة إلى النوافذ ـ بألواحٍ زجاجيةٍ تؤخّر الخلع والكسر. لكنّ وضع بابٍ مصفّحٍ يترافق في أكثر من نصف الحالات مع منظومةٍ

تتضمّن شيفرةً رقمية، أو مع حارسٍ عند أولئك الذين يقطنون في وسط المدينة. نلاحظ أنّ الطلب على الأمن التقني لم يرتفع كثيرًا منذ العام 1999 على الرغم من أنّ السكّان يلتحقون على نحوٍ متزايدٍ بالمناطق الحضرية، وعلى الرغم من الرسائل السياسية التي تفيد بـ«انعدام الأمن». وبالفعل، يبدو أنّ نسبة المجهَّزين بإحدى المنظومات الثلاث (تتجاوز نصف الأسر، حيث تبلغ اثنين وستين في المئة) تتعارض مع الصخب الإعلامي الكبير الذي يُفترض به أن يثير «الخوف العظيم» ورفض الآخر.

عندما نتعامل مع الإحصاءات، مع تكديس التكرارات الضرورية، نكون مرغمين على أن نضع جانبًا المناطق المفرطة في حضريّتها، وبطبيعة الحال التجمّع الباريسي، ففي باريس 98.3 في المئة من المساكن مجهّزة بمنظومةٍ أمنيةٍ، وثمة 95.8 في المئة من الشيفرات الرقمية كثيرًا ما تستكمَل ببابٍ معزَّزٍ أو مصفّحٍ وبوجود حارس. وسنجد بنسبٍ أقلّ منها في العاصمة لكن بعددٍ كبيرٍ، أبوابًا مصفّحةً في المدن المركزية التي يزيد عدد سكّانها عن 100 ألف نسمة، 47 في المئة منها في الضواحي (56.5 في المئة منها في ضواحي باريس و43.2 في المئة في محيط المدن)، ويهبط وجودها إلى ما دون 31 في المئة في العالم الريفي، بما أنّ الريف المعزول لا يملك أبوابًا توصف بأنّها مصفّحة إلّا بنسبة 27.4 في المئة، فقد يكون هذا الأمر برهانًا على أنّ متانة أبواب المنازل القديمة ربّما تعادل إلى حدٍّ كبيرٍ التقنية المعاصرة ضد عمليات السطو. أمّا الشيفرات الرقمية، وإنْ تكن نسبة المساكن المجهّزة بها في فرنسا بأكملها 37 في المئة، فسوف نجد غالبيتها العظمى في العمارات (يستفيد 77 في المئة من شققها منها)، وهي غير موجودةٍ إلّا في 12 في المئة من البيوت المفردة. أمّا الكاميرات، الموضوعة بنسبةٍ تزيد على الثلثين كاستكمالٍ للشيفرة الرقمية، عدا الأملاك المعزولة، فهي لا توجد

إلّا في 3 في المئة من تجهيزات الأمن وتخصّ في معظم الأحيان شققًا في العمارات الفخمة. الإنذار نادرٌ نوعًا ما (لحسن الحظ) في الشقق، ونسبته في حدود 2.5 في المئة من الشقق في عمارةٍ كبيرة فيها عشرة مساكن فأكثر، وترتفع إلى 4.4 في المئة من أجل بيتٍ لا يتضمّن إلّا مسكنين. وفي المنازل المتلاصقة بأحد الجدران، نجد الإنذار بنسبة 8.2 في المئة، بوجود فكرةٍ بديهيةٍ تفيد بأنّ الجار المتنبّه يعادل اثنين. يبقى الإنذار وسيلةً أمنيةً تُستخدم بنسبة 13 في المئة في البيوت المستقلّة وبنسبة 10 في المئة تقريبًا في الضواحي وفي محيط المدن. في المراكز الريفية، تتجاوز نسبة وضع الإنذار 3 في المئة، وهو على نحوٍ منطقيٍ أكثر حضورًا في «المناطق الريفية المنعزلة»، حيث تبلغ نسبته 3.4 في المئة، وهي وسائل الإنذار المنزلية التي كثيرًا ما يُخلط بينها وبين تلك التي توضع على السيارات، والتي نعرف جميعًا رنينها الممتاز وغير المفيد الذي يظهر أثناء نومنا الخفيف أصلًا، إلى حدّ أنّنا لا نعود نريد سماعها على الإطلاق.

تُظهِر الإحصاءات وما تبقّى من إنسانيتنا، أنّ حماية المساكن بوسائل أمنيةٍ تمرّ أيضًا بالوسائل البشرية، وهكذا فإن 11 في المئة من المساكن في فرنسا تقع تحت مراقبة حارسٍ يقيم في عين المكان. ولئن كان 29 في المئة من الحرّاس يراقبون الشقق، فإنّ 39 في المئة منهم حرّاس عماراتٍ تتضمّن عشرة مساكن على الأقلّ. وتعدّ باريس، التي بنت جزءًا كبيرًا من سمعتها بمساعدة نواطيرها الذين لا يمكن تقليدهم، ممثّلًا متميزًا لهذا العالم في توفير الأمن. معظم عمارات العاصمة مجهّزةٌ بمساحة عزلٍ مزدوجةٍ للمدخل: شيفرةٌ رقميةٌ على الباب المؤدّي إلى الشارع وهاتفٌ داخليٌّ اسميٌّ للاتصال في المدخل المؤدّي إلى الدرج والمصعد. والمثير للاهتمام أنّ وجود حارسٍ أينما كان في فرنسا يأتي في كثيرٍ من الأحيان مكمِّلًا منظومةَ أمنٍ تقنية. يستدعي ذكرُ

الشيفرة الرقمية، وكذلك الأبواب المعزّزة، تلقائيًّا ذكرَ الحارس، نظرًا إلى أنّ 50 في المئة من المساكن موجودةٌ بحراستهم. تُظهِر التحقيقات أنّ مجرّد وجود حارسٍ يتماشى مع انخفاضٍ بنسبة الربع لاحتمال التعرّض للسرقة. ربّما يمكن تفسير ذلك بأنّ السارق المحترف يكون درس عمومًا النظم الموجودة ويحاول ألّا يفاجأ بحضورها، وهي نظمٌ يعرف وسائل تحييدها أو زمن ردّ فعلها بعد أن تنطلق، وهو في معظم الأحيان يقوم بفعلته بعد أن يدرج عدّة عوامل يمكن التحكّم بها في مجازفته، لا يستطيع استباق ردّ فعل حارسٍ ويخشى خشيةً كبيرةً مواجهةً معه.

يحدث أن يكون كلبٌ موجودًا بدل الحارس، أو معه. يفوق عدد الأسر التي تمتلك كلبًا الربع بقليل، ولا يكون الكلب في ثلاثة أرباع الحالات أكثر من حيوان مرافقة، لكن مجرّد وجوده خلف الباب عنصرٌ طبيعي لبثّ الأمن. لا يوجد إلّا 7 في المئة من الأسر التي تمتلك كلبًا لتشعر بأمانٍ أكثر، وفي 3 في المئة من الأسر لا يُستخدَم الكلب إلّا بوصفه كلب حراسة، سواءٌ أكان من نوع الراعي الألماني أم دوبرمان أم من أنواع روتوايلر (rottweiler) الأخرى. لكنّ الأسر التي لديها كلب وتعيش في شقّة هي بنسبة 1.9 في المئة فحسب، في حين تبلغ هذه النسبة 5.3 في المئة لدى الأسر التي تعيش في البيوت ذات المسكنين، و6.8 في المئة في البيوت المتلاصقة، ويساهم 11.7 في المئة من الكلاب في حراسة البيوت المحيطة بالمدن، والتي كثيرًا ما تُلحَق بها حدائق صغيرة محميةٌ حمايةً جيّدة، وهو أمرٌ يبدو أكثر بديهيةً بالنسبة إلى الكلب وأصحابه في آن. وبالنسبة إلى البيوت المعزولة في الريف، سُجّلت نسبة 12.2 في المئة من وجود الكلاب المخيفين إلى هذا الحدّ أو ذاك أمام الأبواب أو خلفها. في المقابل، نلاحظ وجود كلبٍ للأمان لدى الشباب، وتكون النسبة أعلى لدى

أولئك الذين لم ينالوا تعليمًا عاليًا. جديرٌ بالذكر أنّ نصف الأسر التي لديها كلبٌ لضمان أمنها ليس لديها أيّ ترتيبٍ تقني، وكذلك نادرًا ما تجتمع منظومة الإنذار والحارس، كما لو أنّ المراقبة التي يقوم بها البشر أو الكلاب، حيث تغلب الأولى في الشقق والثانية في المنازل، بدائل أحيانًا لمنظومة الإنذار التقنية (ويمكن التبديل بينهما بسهولة)، وأحيانًا أخرى مكمّلة للمنظومات الأخرى، كالتصفيح والشيفرة الرقمية. إحصائيًّا، لا يبدو أنّ وجود كلب حراسةٍ يسهل تحييده يقدّم كثيرًا من الأمن الإضافي، سواءٌ أكان ذلك ضدّ عمليات السطو أم ضدّ السرقات من دون اقتحام. بل نلاحظ أنّ الأسر لا تميل كثيرًا لاقتناء كلبٍ لضمان أمنها في المقاطعات الأكثر ريفيةً، حيث يندر حدوث عمليات السطو.

تبقى مسألة أن نعلم إحصائيًّا ما الذي يحثّ معاصرينا على التجهّز. هنالك بطبيعة الحال مستوى الجنوح الذي يشعر به الناس، أو واقع تعرّض المرء للسطو أو إلحاق الضرر، وهو أن يشعر المرء بانعدام الأمان في حيّه أو في بيته، أو أن يكون في منطقةٍ ينتشر فيها الجنوح، وكلها أمور تدفع معظم الناس إلى أن يحموا أنفسهم على سبيل الوقاية. نفهم مَيْل الأسر التي علمت بحدوث عمليات سطوٍ في أحيائها، وهو إدراكٌ تدعمه إحصاءات تقديم شكاوى إلى وزارة الداخلية، إلى تجهيز نفسها أكثر من غيرها بنسبة الضعفين. وكما هي الحال في المحافظات التي نجد فيها أعلى نسبةٍ من عمليات السطو، يتجّهز ثلث الأسر، مقابل خمسها في المحافظات التي تُعدّ أكثر هدوءًا. ولئن كانت منظومات الأمن الخاصّة لا تتجلّى بوصفها فعّالةً بالكامل، غير أنّنا نستطيع الاعتقاد بأنّ لها فائدةً نفسية: تطمئنّ الأسرة لاعتقادها أنّها محمية. ليس بوسعنا إلّا أن نلاحظ العلاقة المتبادلة القوية بين الشعور بانعدام الأمان وطلب الأمن الخاصّ. يشعر 12 في

المئة من النساء في معظم الأحيان بانعدام الأمان في المسكن مقابل 5 في المئة من الرجال. يحثّ الشعور بالخوف في المنزل كلا الجنسين على الاحتماء، إذا ما صدّقنا نسبة الأسر التي وضعت منظومةً أمنيةً والتي تبلغ 35 في المئة، مقابل نسبة 28 في المئة لا يعبّرون عن هذا الخوف. هنا أيضًا، يتواصل شعور 6 في المئة من الرجال و15 في المئة من النساء بأنّهم غير آمنين في مسكنهم، على الرغم من وضع منظومة حماية.

بطبيعة الحال، لا تكفي تجهيزات الأمن الخاصّ وخدماته في تجنّب حدوث أفعالٍ جرمية. ويبدو أنّ المنظومات التقنية للحماية، كالأبواب المصفّحة والشيفرات الرقمية وأجهزة الإنذار والكاميرات، لا تضمن ـ كما رأينا توًّا ـ حمايةً ذات دلالةٍ أكثر فاعلية تجاه عمليات السطو، بعد أن تؤخذ في الحسبان الخصائص الاجتماعية ـ السكّانية الخاصّة بالأسرة ومستوى حياتها ونمط المسكن ومحيطه الحضري ومستوى الجنوح المحلّي. يبدو أنّ الخوف أو الرغبة في الأمن تأتي مع التقدّم في العمر (وربّما مع الوسائل المرافقة له؟)، وأنّ وضع منظوماتٍ يبلغ ذروته وسط أشخاصٍ تتراوح أعمارهم بين خمسين عامًا وتسعةٍ وستين عامًا. يرتفع الأمن بوضوحٍ مع ارتفاع مستوى حياة الأسر، إذ إنّ عدد الأسر التي تتجهّز بمنظوماتٍ أمنيةٍ والتي تقع ضمن شريحة العشرة في المئة ذات مستوى الحياة الأعلى، تبلغ أربعة أضعاف مثيلتها ضمن شريحة العشرة في المئة الأكثر تواضعًا. كما أنّ المهنة تلعب دورًا هي أيضًا، إذ نلاحظ طلبًا قويًّا للأمن الخاصّ لدى الحرفيين والتجّار ورؤساء الشركات، في حين أنّ هذا الطلب ضعيفٌ لدى المزارعين والعمال. كذلك، يبدو أنّ مستوى الشهادة يلعب دورًا، بما أنّنا نلاحظ طلبًا أقلّ للأمن عند الأشخاص من ذوي الشهادات العليا وعند أولئك الذين لم يحصلوا على شهادات.

نظريًّا، تسمح الحماية بتجنّب مخاطر اقتحام المسكن أو الإضرار به أو السطو عليه، أو على الأقل بتقليل تلك المخاطر، كما تسمح أحيانًا بتجنّب بعض الاعتداءات. لكن إذا كان 19 في المئة من الضحايا في العامين المنصرمين قد وضعوا منظومة حماية، فإنّ نسبة من فعلوا ذلك بعد تعرّضهم للسرقة من دون اقتحامٍ لا تتجاوز 8 في المئة. ثمّ إنّ المرء يحسّن المنظومة الأمنية لديه بحسبِ ما إذا كان مالكًا أو مستأجرًا، إذ يتردّد المستأجرون بوضع أموالهم في أشغالٍ ربّما لا يعوَّضون عنها، إلّا في حال أرغمهم التأمين (على المسكن الذي يقطنونه ويشمل عدّة مخاطر) بوضع منظومةٍ أمنية، كتصفيح باب الدخول على الأقل، أو وضع كاشفٍ للحركات يوصَل بجهاز إنذارٍ أو بخطّ شركةِ حراسةٍ أو بجهازٍ صوري يوحي بوجود شخصٍ ما (ضوء أو صوت أو مذياع)، وهذا الكاشف هو اليوم أكثر فاعلية، لأنّه مضلِّل وصُنع من أجل ألّا يشعر مراقبِو الشارع بالطمأنينة.

نتابع مع الإحصاءات: من بين الأسر التي تعرّضت لعمليات السطو في العامين 2005 و2006، لم تكن لدى 23 في المئة منهم سنة 2007 تجهيزات أمنية في مسكنهم، وكان لدى 58.3 في المئة منهم تجهيزات قبل السطو و18.6 في المئة منهم فقط وضعوا مثل تلك التجهيزات بعده. تميل الأسر التي تحدث عمليات السطو في حيّها، إلى أن تتجهّز أكثر من غيرها: 43 في المئة منها فعل، أي ضعفا الآخرين. وبطبيعة الحال يلعب قِدَم الانتقال إلى المسكن أو بناؤه الحديث العهد دورًا في تشجيع وضع تجهيزاتٍ جديدة أو مضافة إلى التجهيزات الموجودة، مع إغفال العوامل الأخرى بطبيعة الحال. وكما سبق أن ذكرتُ آنفًا، يقوم السارق البارع بالتحضير الجيد لسرقته، بإجراء «قياسٍ للفوائد»، ويحاول بدايةً الحصول على مفاتيح مزوّرة، غير جاهلٍ في الوقت عينه بالمادة 398 التي تحمينا بالكلمات عبر حظر «كافّة أنواع فاتحات الأقفال، والمفاتيح

التي تفتح كلّ الأبواب، والمفاتيح الهيكلية، والمفاتيح المقلّدة والمزوّرة والمخرّبة، أو تلك التي لم يكرّسها المالك أو المستأجر أو صاحب النزل أو مؤجّر الغرف للإقفال أو الإغلاق، أو الأقفال الأخرى أيًا كان المذنب الذي استخدمها». أمّا صنع المفاتيح المزيّفة، فتعاقب المادة 399 وقانون 13 أيار/ مايو 1863 مَن قام به بالسجن لمدةٍ تتراوح بين ثلاثة أشهر وسنتين وبغرامة، مع تشديد الحكم إذا كانت مهنة المذنب صنع المفاتيح والأقفال وتصليحها. لكن ليس كلّ سارقٍ محظوظًا، ويحدث أن تدفعه الرغبة في الدخول إلى الانتقال لمرحلةٍ أعلى كثيرًا ما تترك ذكرياتٍ سيئة لدى «من قام بزيارتهم»، أي التسلّق أو السطو، وبصورةٍ أدقّ «السلب عن طريق الدخول بالاقتحام effraction». لئن كانت هذه الكلمة الموروثة من اللغة اللاتينية موجودةً في اللغة الفرنسية منذ العام 1559 للتعبير عن عنفٍ جليّ، فأنا أشير إلى أنّها تتعلّق بصورةٍ أساسيةٍ بالأبواب والأسوار، التي يسعى من يقوم بها إلى جعل مقاومتها تنهار بالقوّة. وهذا بالضبط ما تنصّ عليه المادّة 393 من قانون العام 1810: «يُعدّ اقتحامًا أيُّ اقتلاعٍ وكسرٍ وتدميرٍ ونزعِ جدرانٍ أو سقوفٍ أو أرضياتٍ أو أبوابٍ أو نوافذَ أو أقفالٍ أو أغلاقٍ أو غيرها من المعدّات أو الأدوات التي تستخدم في الإغلاق أو في منع المرور، وأيًّا كان من أنواع الأسيجة». كثيرًا ما تكون تقنية التهديم متشابهةً لدى من يمارسونها بصورةٍ غير قانونية: إذا كان المصراع والإطار مصنوعين من الخشب، لا يعاني السارق أي صعوبةٍ في مهاجمة الباب المصفّح (الجيل القديم) باستخدام عتلةٍ حديدية من جهة المفصلات، وكشفها بسهولةٍ أكبر لأنّها كانت قد عُزِزت! من بين التقنيات الأكثر استخدامًا اليوم، تقنية «فتحة الصيانة»: باستخدام مِهَدّةٍ أو منشارٍ في حال كان الباب مجرد بابٍ غير مُصْمَت وغير مصفّح، يسهل ثقب الباب والتسلل وفتحه من الداخل. أمّا الباب ذو الألواح غير المصفّح الذي نجده غالبًا

في العمارات الأوسمانية[634]، فإنّ ركلةً عنيفةً أو مهدّةً أو منشارًا أو دافعًا هيدروليكيًّا يجعل اللوح يخرج من مكانه. ولا يبقى سوى الدخول إلى المكان. بطبيعة الحال، تطوّرت تقنيات التصفيح وتطوّرت معها تقنيات الاقتحام. غير أنّ انتزاع القبضة وأسطوانة القفل البارزة باستخدام كمّاشةٍ مخلبيةٍ أمرٌ شائعٌ على ما يبدو. وبعد ذلك، لا يبقى إلّا تمرير كُلّابٍ وفتح القفل المتعدّد النقاط... يجب أن نعلم أنّ 80 في المئة من عمليات السطو تتمّ عبر باب الدخول أو عبر النافذة في المساكن الواقعة في الطابق الأرضي. كما أنّ 80 في المئة منها تحدث نهارًا، و55 في المئة منها بين الثانية والخامسة بعد الظهر، في حين تحدث الـ20 في المئة المتبقّية منها ليلًا. يقال إنّه حدثت في العام 2007 في فرنسا 370983 عملية سطو، ولكن بما أن 75 في المئة فقط من الضحايا يشتكون، يمكن أن يكون عدد تلك السرقات أكبر بقليل. ليس هنالك أبسط من اقتحام باب، لكن علينا ألّا ننسى أنّ الأبواب تتحدّث هي أيضًا، ولا أشكّ في أنّها تمارس علم النفس، تساعدها في ذلك العتبات، التي رأينا أنّ تنبّهها يتجاوز بكثيرٍ تنبّه حارسٍ شرس، ولو كان أفعى أصَلَة منزلية، رأيت كثيرًا منها في منطقة الأمازون.

نهاية المفصّلات

منذ النصف الثاني من القرن العشرين، «بات الباب على نحوٍ متناقصٍ مكوِّنًا في منظومةٍ دفاعيةٍ من النمط العسكري، وعلى نحوٍ متزايدٍ تجهيزًا تقنيًّا يساهم في الفتح المعمّم للحيّز»، هذا ما يلاحظه

---

(634) الأوسمانية: نسبةً إلى جورج أوجين أوسمان (1809 ـ 1891) الذي كان محافظ منطقة السين من 23 حزيران/ يونيو 1853 إلى 5 كانون الثاني/ يناير 1870، وأدار بهذه الصفة تحوّلات باريس في عهد الإمبراطورية الثانية عبر تعميق خطّة التجديد الواسعة التي وضعتها لجنة سيميون والهادفة إلى مواصلة الأشغال التي بدأها اثنان ممّن سبقوه في منصبه. كان هدفه جعل باريس أجمل وأكبر وأفضل للصحة.

جيرار مونييه[635] (Gérard Monnier) في أحد الكتب النادرة جدًّا عن «الباب» المنظور إليه بوصفه «أداةً ورمزًا». وهو يلاحظ بصوابٍ كبيرٍ أنّ «المصراع يتمتّع بقدرات فتحٍ متّسعة تسمح حتى في وضع الإغلاق بتغلغل الضوء والمشاهد أفضل من أيّ وقتٍ مضى: الأبواب الزجاجية، والنوافذ ذات المصاريع، والأبـواب المدمجة في جدرانٍ زجاجية تصبح هي نفسها مصاريع ذات أبعادٍ لم تكن معروفةً من قبل، أبوابًا قابلة للسحب». وبالفعل، منذ سبعينيات القرن العشرين، أصبح الزجاج مع التجهيز بمحرّكاتٍ وفتح الأبواب عن بعدٍ جزءًا من تطوّر الأتمتة لتسهيل أفعال الحياة اليومية، ويرتبط بتطوّرٍ تقني يبدو أنّه بلا حدود. ليس لديّ شكٌّ في أنّنا، مع وضع أبوابٍ شفّافة والصعود الذي لا يقاوَم للإنترنت، يجب أن نرى صعودًا واضحًا جدًّا ـ كما يفسّر ذلك المحللون النفسيون ـ لـ«شبق النظر»[636] (pulsion scopique)، حيث يتنافس حبّ الظهور تنافسًا غريبًا مع تحوّل العالم إلى البروتستانتية، وكأنّنا أصبحنا نريد أن نعلن أنّه لم يعد لدينا ما نخفيه، وفي هذه الشروط يصبح الداخل معادلًا للخارج، بحيث أصبحنا بالفعل نستطيع أن نرى ونرقب من الخارج تصوّر المسكن الداخلي، بعبارةٍ أخرى: الداخل، «مكان تسامي الدوافع، مكان إعاقة غاياتها، تخفيف التعبيرات المفرطة في اندفاعها وتلك التعديلات الضرورية للحياة الاجتماعية». هذا يعني أنّه في «الممارسات السكنية»، إذا ما استخدمنا كلمات الطبيب النفسي ألبرتو إيغيه[637] (Alberto Eiguer)، حيث يتلاشى كلٌّ من الفواصل

(635) جيرار مونييه (1935 ـ)، مؤرّخٌ فرنسيٌّ لعمارة القرن العشرين وأستاذٌ جامعي.

(636) شبق النظر: مصطلحٌ في التحليل النفسي يعني إشباع اللذة عن طريق النظر؛ وهو يشير من حيث السلوك الجنسي إلى المتعة الجنسية المتأتّية من النظر إلى الأشياء المثيرة.

(637) ألبرتو إيغيه، طبيبٌ نفسيٌّ ومحلّلٌ نفسيٌّ فرنسي، له أبحاثٌ في مجال علم النفس وتطوّر الشخصية.

المادية وتخصيص الحجرات، يبنى الحيّز عبر الفعل، وهذا الفعل ليس قليلًا، بل إنّه أشبه بكلمة السرّ في مجتمعٍ شبابي وديناميكي يُدرِج أفعاله كافّة ضمن الإلحاح والسرعة، لكنّه ينسى على ما يبدو الأمر الأساسي: أن تسكن مكانًا يعني أن تتوقّف فيه. وقبل أن نصل إلى خيال «الثقب الدودي»[638] (porte de ver)، أعود إلى أبواب الزجاج (verre) هذه. كتب أوليفييه مارك[639] (Olivier Marc) في سبعينيات القرن العشرين بصدد مطار أورلي: «كلّما وجب عليّ أن أنتقل من الرصيف لدخول بهو المطار، ينتابني سلفًا إحساسٌ مزعجٌ أشبه بالإحباط من فكرة أنّه لا يوجد ثمة ما أفعله بيديّ للدخول، وعلى الرغم من ذلك كنت كلّما وجدت نفسي على بعد مترٍ واحدٍ من هذا الباب الشفّاف أمدّ يدي لأدفعه، في حين أنّه يُفتح تلقائيًّا [...]. وعندما يصبح المرء في البهو، لا يشعر بأنّه في الداخل أو في الخارج باستثناء أنّ الجوّ فيه منعشٌ صيفًا ودافئٌ شتاءً». ها هو محلّلٌ نفسيٌّ يشعر بالاضطراب بسبب أن «الباب» ليس بابًا، والذي يعيد «مرّةً أخرى مجرى الزمن بحثًا عمّا كان يعنيه الباب في داخلي». يقدّم جيم موريسون[640] (Jim Morrison)، قائد فرقة **الأبواب** (*The Doors*) الذي لا يزال قبره يزار كثيرًا في مقبرة بير

(638) الثقب الدودي، ويدعى أيضًا جسر آينشتاين- روزين، ممرٌّ افتراضيٌّ للسفر عبر الزمن، حيث تتضمّن النظرية الفيزيائية ثقبين أبيض وأسود، وكونين أو زمنين يربط بينهما ثقبٌ دوديّ.

(639) أوليفييه مارك، مهندسٌ معماريٌّ أنجز عدّة مشاريع للسكن الشعبي في بلدانٍ مختلفة، كما أنّه محلّلٌ نفسي، من أهم كتبه: **التحليل النفسي للمنزل**.

(640) جيم موريسون (1943 ـ 1971)، مغنٍ وشاعرٌ أميركي شارك في تأسيس فرقة **ذي دورز** (الأبواب) الأميركية لموسيقى الروك، وكان مغنيًا ملتزمًا في حركة الأغنية الاحتجاجية، ولاسيما ضد حرب فيتنام.

لاشيز[641] (Père Lachaise)، ما يشبه الردّ على الطبيب النفسي، مبرّرًا على هذا النحو اسم مجموعته: «هنالك المعروف. هنالك المجهول. وبين الاثنين هنالك الباب، وهذا ما أريد أن أكون». مضى على هذه التأمّلات أكثر من أربعين عامًا، ويبدو لي أنّ الحنين إلى المفصّلات وإلى الباب المعتاد الذي يدور على محورٍ قد انقضى، فحتى كلبي بات يعرف مهلة الانتظار أمام بابٍ زجاجيٍّ آليٍّ، ولم يعد يبدو مستغرِبًا عندما «يختفي» بابٌ في جدارٍ بدلًا من أن يفتح، مع أنّ أمله يخيب بسبب إبقائه قائمته مرفوعةً في الفراغ! في المقابل، لا يؤمن أصدقائي الطيور بوجود زجاجٍ شبه شفّاف، مثلما لا يؤمن بوجوده بعض أصحاب الأنوف الهشّة الساهون وحسيرو البصر، فعلى الرغم من الرغبة المطلقة في الشفافية، لا بدّ من تأشير هذه الأبواب ووضع علاماتٍ عليها، فهي أبوابٌ خطرة، بل ربما مميتةٌ للطيور التي لا تزال تؤمن بسماءٍ مفتوحة.

ليست هذه المرة الأولى التي تحدث فيها ثورةٌ في «مداخلنا»، فقد عرفنا قبل ذلك صدمة الأبواب التي تدور، أو التي تدعى «الأبواب الدوّارة»، وهي -خلافًا لما يمكن أن يظنّه المرء- لا تُحدِث ضجيجًا، لكنّها تدور على نفسها لتجعل العبور أكثر سيولةً وسرعةً، وقد وعد مخترعها في مطلع القرن العشرين بأنّ هذا الباب يمكن «أن يعبره في عشر دقائق 1132 شخصًا». الباب الدوّار وريثٌ فاخرٌ للعارضة الدوّارة التي اختُرعت في أواخر القرن السادس عشر، لكنّه بلغ ذروة مجده الميكانيكي في العام 1900 أثناء المعرض العالمي، الذي فاق عدد زوّاره خمسين مليون شخص، لكنه لم يوجد هناك للمراقبة، بل لجعل عبور مرتادي الفنادق الكبيرة أكثر سيولةً. لا شكّ في أنّه ليس سريعًا

---

(641) مقبرة بير لاشيز، أكبر مقبرةٍ في باريس داخل الجدران، وإحدى أشهر المقابر في العالم، كما أنّها المقبرة التي تتلقّى العدد الأكبر من الزوار (أكثر من ثلاثة ملايين ونصف مليون زائر سنويًّا).

بالمقدار الذي يُقال عنه، أو أنّ هذا «الطبل»[642] الفخم، الذي يدور على محورٍ مركزيٍّ وفريد، على الرغم من منظّم الدوران الخاص به والمزوّد بمحرّك ربّما يتعطّل، إذا ما حكمنا على تأطيره منهجيًا بـ«أبوابٍ مصطفقة» يمكن بيسرٍ أن تفيد كمخرج نجدةٍ وتطَمْئن المصابين برهاب الدوار والذين يفوق خوفُهم من أن يكونوا ضمن مدارٍ خوفَهم من متعة أن يطوَّقوا بهدوءٍ ويقذَفوا من الداخل نحو الخارج والعكس بالعكس... لقد كان جيرار مونييه محقًّا عندما أكّد أنّ «تأثير هذا الترتيب كان معتبرًا في السوق وفي الفاعلين، إذ أزاح الباب الدوّار الطلبَ على الباب الفاخر في القصر وأماكن العبادة نحو مؤسّساتٍ ضروريةٍ للحياة الاجتماعية الخاصّة بالنخبة الحضرية الحديثة [...] وأزاح كذلك سوقَ الباب الفاخر الذي يتحكّم به إلى حدٍّ كبيرٍ منذ العصر الوسيط الحرفيون الحضريون نحو مصانع الشركات الرأسمالية العابرة للقومية، كما أزاح مهندسي التصميم، إذ حصر دورهم بوظيفة التوصية على نمطٍ وشركة يُختاران من دليل. [...] ليس بوسعي الامتناع عن الاعتقاد بأنّ إدخال الباب الدوّار يستبق على نحوٍ مبينٍ تأثير الفكر الصناعي في المصير الحالي للبناء والعمارة»... وفي مصير البشر، هذا ما أرغب في إضافته بوصفي أنثروبولوجيًا. وبالفعل، غادر تعبير «الأبواب الدوّارة» جزئيًّا واجهات الفنادق الكبيرة لينضمّ اليوم إلى ضفاف الطب النفسي، وهو نفسه ليس على ما يرام، وعلى الرغم من أنّ هذا المفهوم يعبّر بطبيعة الحال عن معاناةٍ كبيرة، فهو يستحقّ أن نتوقّف عنده قليلًا. ذُكر هذا التعبير لأوّل مرّةٍ في العام 1958 في إنكلترا ضمن كتابٍ عن مدمني الكحول الذين كثيرًا ما تتعامل الشرطة معهم أثناء سُكرهم، لكن يجب تمييز حالاتهم عن مسألة الطوارئ والأزمات في الطبّ النفسي. سوف

(642) تسمّى الأبواب الدوّارة بالفرنسية (porte à tambour)، أي حرفيًّا: الباب ذو الطبل.

نفهم أنّ هؤلاء الأشخاص يدخلون ويخرجون من مراكز الشرطة، ويتبع ذلك بالضرورة قبولُهم في مؤسّساتٍ نفسيةٍ وخروجهم منها مرّاتٍ عديدة، تتركّز ضمن مهلةٍ زمنيةٍ قصيرةٍ نسبيًّا، إلى درجة إطلاق تسمية «باب دوّار» على هذه الظاهرة. ثمّ استُخدم مفهوم «الباب الدوّار» في مجال الطبّ النفسي عند المسنين لوصف «النوبة الهذيانية الحلمية المتكرّرة عند المسنّين». يتعلّق الأمر بنوبةٍ سريعة التراجع تندلع جزئيًّا كقاعدةٍ عامّة، وفق ما يقوله الأطباء النفسيون، لدى العودة السريعة إلى المنزل والتي كثيرًا ما تتقرّر بذريعة جعل الشخص يستعيد بيئته المعتادة لتجنّب حدوث ردود أفعالٍ اكتئابية وظواهر تدهورٍ إدراكي، وهو قرارٌ يؤدّي هنا أيضًا إلى متواليةٍ متقاربةٍ من عبور الأبواب، من المنزل إلى المؤسسة الطبّية، ويعبَّر عنه عبر مجازٍ مرسلٍ هو: «الباب الدوّار». العبارة حرجةٌ، من حيث إنّها تعبّر عن تناذرٍ اجتماعي يشهد على مقاومة المرضى والأمراض للامتثال إلى سطوة الطوارئ النفسية المؤسساتية. «إنها الرسم الهزلي للإقامات الوجيزة ولتعدّد حالات الإدخال إلى مستشفيات الأمراض النفسية، وهي تدين بالكثير لسياسيي نزع المأسسة»، هذا ما يؤكّده عددٌ من الأطباء النفسيّين الذين فقدوا الأمل لدى إدراكهم الوضع الراهن لهذا القطاع الذي يكون فيه ضجيج الأبواب علامةً سيّئة.

إنّ جعل الأبواب تدور أمرٌ يتزايد صعوبةً، وذلك لأنّ تصميمها واستخدامها تعرّضا لتعديلاتٍ كبيرة. لشدّة حاجتنا إلى الصمت أصبحت أبوابنا «بُوَيْبات»، وذلك في معنى مزدوج: باتت مجدّدًا كما في القرن الثامن عشر غير مرئيةٍ وغير منفصلةٍ عن الجدار الذي يحملها أو يخفيها، على الرغم من أنّها أصبحت مجرّدةً من الأقمشة الثمينة التي كانت تكتم صوتها آنذاك، البَركالين والحرير والكريبين وغيرها من الشرائط، لكنّها مجهّزةٌ بشكلٍ كافٍ ومرتدية ملابسها ومتزيِّنة لتمنحنا

هذا الشعور بالسماكة والمتانة والكتامة، بهدف أن تكون امتدادًا لجدارٍ أو قاطعٍ أكثر ممّا تهدف إلى قطعه، وبالمقدار عينه لكسب مساحةٍ وحماية حميميتنا المقدّسة. أريد تكرار القول ذاته ولكن بكلمات القرن الحادي والعشرين: أصبح تعزيز العزل الصوتي يضمن أداءً عاليًا من الكتامة يجب أن يؤمّن لنا عزلًا ممتازًا، وذلك بفضل قضيبٍ بمقصلة 321 ورُقَيْقةٍ ثنائية المفعول 8144، وكلّ ذلك على عتبة من الألمنيوم الصلب 564 الذي يشكّل مَصدمًا. نحن على اطّلاعٍ نوعًا ما على أهمية الأبحاث التي أُجريت في علم الصوت من أجل تجهيز أبواب المكاتب وغرف الفنادق وأبواب السيارات، وكذلك الأمر بالنسبة إلى كلّ ما يمكن أن يفيد في الإغلاق: السدّادات والأغطية وغيرها من وسائل الإيصاد. الفكرة الأساسية هي العزل عن الضوضاء والهواء، والفكرة الثانية هي إخفاء شكل الشيء الذي يُغلِق ومنحه سماكةً وهميةً، عبر التصميم والصوت الذي يصدره في كلّ عملية إغلاق. لقد انتهى صوت الصفيح الحادّ الذي يصدره باب سيارة السيتروين ذات الحصانين، فقد نجحوا في جعلنا نعتقد مع كلّ صفقة بابٍ مكتومة ومغلّفةٍ في أصغر سيارةٍ، أنّنا نمتلك سيارةً تقترب من سيارة جاغوار، بل رولز رويس! بل أفضل من ذلك، لم نعد نصفق بابًا، إذ إنّ الباب أصبح ينزلق على سكّةٍ وينغلق بمفرده ومن دون عناء، محيلًا إلى الأعماق التاريخية تجلّي المزاج الذي كان الباب يشارك فيه إلى حدٍّ كبير!

هل ما زلنا نحتاج الأبواب أصلًا؟ إنّ «الحجرة الواحدة» (loft) تزداد انتشارًا، وثمة من يقترح من دون أيّ تردّدٍ «حيّزًا» للعيش يتكوّن من تجميع لزوايا يعيد من دون ضغطٍ إنتاج الفواصل الموجودة في مسكنٍ يتكوّن من عدة حجرات. فلنتذكّر فيلم (*Dogville*) للارس فون ترير[643] (Lars Von Trier) مع الأداء الرائع الذي قدّمته

(643) لارس فون ترير (1956 ـ)، مخرجٌ وكاتب سيناريو ومنتجٌ دانمركي.

نيكول كيدمان[644] (Nicole Kidman)، والذي دفع مفعول عدم وجود جدرانٍ وأبوابٍ وأثاثٍ إلى حدّه النهائي، ولا تزال فرائصي ترتعد لذكراه حتى الآن... لقد اجتازت «بوّابات» أخرى مساكننا واستقرّت في قلبها: البوّابات المعلوماتية التي نفتحها كلّ يوم (إذا كنّا قد أغلقناها)، والتي تسحبنا إلى علاقةٍ جديدةٍ مع العالم ومع الآخر لا أستطيع تجاهلها هنا. اليوم، تعادل الزيارات الإلكترونية وبروتوكولات الإعلان عنها ثِقل زيارات المجاملة في القرن التاسع عشر ونفاقها، مع فارقٍ (كبيرٍ) هو أنّ المرء يستطيع التخلّص منها بكبسة زر. لكن ما السبيل إلى مقاومة صوتٍ كهربائيٍّ لذيذٍ يدعوك لفتح الباب (الشاشة) نحو مدًى خاوٍ لم نعد بحاجةٍ إلى الجدران فيه، ولا حتى إلى المنزل، بل إلى أنفسنا فحسب، للدخول في حيّزٍ لم يعد لدوران الخارج والداخل فيه معنى؟ إنّ حسن الضيافة السبرانية[645] (Cybernétique) يجعلنا ننسى من دون عناءٍ جسمنا الكربوني المنحني على لوحة المفاتيح، ونخرج من أنفسنا ونحن في عين المكان لنستقلّ واقعًا افتراضيًّا يقتصد في شعائر العبور كافّة وكلّ ضرورةٍ للتهذيب، أي ما كان يثبّتنا على الأرض بكلّ ذلك الثقل، ساحبًا إيّانا ببطءٍ نحو ما يتجاوز البشري الذي تكون فيه الأبواب افتراضيةً فحسب. بعد المخارج السبرانية هذه، وإذا ما صدّقتُ انجذاب الشباب الهائل إلى السينما، وأكثر من ذلك إلى التلفزيون، يتمثّل الطموح في عبور «باب النجوم» ذات يوم، وهو بابٌ شديد التطور، فحتّى إنتاج فيلم سبيلبرغ[646] (Spielberg) المعنون **إنترستيلار**[647] (*Interstellar*)، بقي مسلسل

(644) نيكول كيدمان (1967 ـ)، ممثلةٌ ومنتجةٌ سينمائيةٌ أسترالية ـ أميركية شهيرة.

(645) السبرانية: علم التحكّم الآلي.

(646) ستيفن سبيلبرغ (1946 ـ)، مخرج وكاتب سيناريو ومنتج أميركي.

(647) إنترستيلار: بين النجوم.

ستارغيت[648] (*Stargate*) يضرب الأرقام القياسية كافّة في التلفزيون، ومعه «الثقب الدودي» الذي يدفعنا إلى الحلم بيومٍ قريبٍ نمرّ فيه من «باب الانطلاق» من أجل «تفكيك جزيئاتنا» ثم نعود عبر «باب الوصول» من أجل «إعادة جزيئاتنا» إلينا بعد رحلةٍ في الدوّامة، (wormhole) بالإنكليزية. بطبيعة الحال، تستند الفكرة إلى نظرية آينشتاين النسبية العامة التي يُفترض بعد التحكّم بها، أن تسمح لنا بالخروج من منظومتنا والسفر كما نشاء في عالمٍ بديل. بين الشفط والنفث، نلعب مع «الثقوب السوداء» و«الفوّارات البيضاء» التي هي بالمقدار عينه أبواب دخولٍ وخروج، ونختار لحظة خروجنا عبر «باب النجوم» لننتقل في المكان ـ الزمان، بل لنعود قبل أن نرحل أو بعد عدّة قرون، بعد أن ظهر خطأ نظرية الباب.

مع هذه النهاية المبرمجة للمفصّلات، يبقى لديّ تساؤلٌ على مستوًى أكثر واقعيةً وضمن المجال البنيوي الكبير، لكنّه يخصّنا نحن، رجال القرن الواحد والعشرين ونساءه، الذين أصبحنا حضريّين في معظمنا على نحوٍ أكثر عمقًا وحميميةً ممّا نعتقد: متى وكيف يدخل المرء مدينةً؟ وبصورةٍ أكثر دقّةً: ما الذي يعنيه اليوم دخول مدينة؟ أين ذهبت الأبواب التي كانت تسمح لنا بدخول مدينةٍ أو العودة إليها؟ كيف نستطيع معرفة متى ندخل في تجمّعٍ سكني أو بلدية؟ وما هي النواظم التي تتحكّم بالنفاذ إليهما؟ وهي جميعًا أسئلةٌ تُظهِر فقداننا نقاط العلام (repères). لا شكّ في أنّني مخطئ عندما أتحدّث عن مدينة، إذ يتعلّق الأمر الآن بـ«حيّزٍ حضري». لكن في هذا الحيّز، من الذي يتحكّم بالدخول؟ وما هي العوائق أو المحرّضات لدخول المدينة؟ وما هي الأماكن أو الإشارات التي تعيّن اليوم العتبات الحضرية؟ لديّ شعورٌ عندما أسافر داخل فرنسا أو في أماكن أخرى، أنّ المدينة تتغيّر، وأنّ

(648) ستارغيت: بوّابة النجوم.

أحدًا لم يعد يعرف بدقّةٍ أين تبدأ وأين تنتهي. تدفعني النزاهة إلى تبنّي وجهتَي نظرٍ على الأقل في محاولةٍ لتدبّر هذه المسألة الغريبة والحديثة: وجهة نظر الداخل ووجهة نظر الخارج. إذا كنت أعود، فلأنّني كنت «في الخارج»، لكن كيف كنت أعلم ذلك؟ وبالمثل في حال كنت «في الداخل»؟ إنّ حواشي الحيّز الحضري وشكلًا مستمرًّا أو متقطّعًا هي التي ستشير لي إلى ذلك وتساهم في أن تقول لي إن كنتُ على أرضٍ حضريةٍ تحديدًا أو على أرضٍ محيطةٍ بالمدينة أو أرضٍ ريفية. جميعنا يمارس بطريقته الجغرافيا النفسية التي تستند إلى حدسٍ بمقدار ما تستند إلى ذكرياتٍ عن المدن. تبقى المسألة هي معرفة ما هو المحفّز البدئي الذي سيحذّرني بأنّني أدخل المدينة. هل بقيت هنالك حدودٌ أصلًا؟ وهل ستعلن لي المدينة هويّتها؟ إلّا إذا كنت أبحث عن شيءٍ لم يعد له وجودٌ ولا معنى، وأشارت لي المدينة عبر التعبير في المشهد، إلى غيابٍ كاملٍ للهوية، وذلك على عكس اعتقاداتي القديمة. أنا أرى علاماتٍ وشاخصات، كلّها متماثلةٌ في ليون وتولوز وبوردو[649] (Bordeaux) وريـن[650] (Rennes) وأوكسير[651] (Auxerre)، يشير تركيزها إلى أنّ المدينة أصبحت قريبةً جدًّا، وكأنّ ذلك أمرٌ بديهي. لقد أصبح ما كان يميز المدينة ويمنحها الجاذبية اليومية، كمتاجرها وخدماتها في محيطها، وما كان يشير إلى حـوافّ المدينة، كالمقبرة والصناعات الصغيرة أو الكبيرة، بات إمّا ضمنها أو نُقل إلى الريف ولم يعد يتواءم مع المدينة. هذا لا يمنع أنّ عبارة «لقد وصلنا» تصبح أقلّ بديهيةً على نحوٍ متزايد، وأنّ يقين الدخول إلى المدينة لم يعد يتأكّد بأيّ لوحةٍ تعيّن حدّها من الخارج. صحيحٌ أنّ اللوحات لا تزال موجودةً مثل بقايا،

(649) بوردو: مدينة تقع جنوب غرب فرنسا.

(650) رين: مدينة تقع غرب فرنسا.

(651) أوكسير: مدينة تقع وسط فرنسا.

لكنّها لم تعد مثل ذلك الواقع المطمئِن الذي كان يقول: انتهى الريف، وداعًا للضاحية، لقد وصلت إلى عقر دار الحضريين. لا، نتابع، نتابع لوحة مرورٍ كُتب عليها «المركز» (أعيدت تسميته اليوم بعبارة «قلب المدينة») ولا نكون متأكّدين على الدوام عندما نذهب إليه من أنّه نواة المكان التاريخية، لكنّنا نتابع «علامة التغلغل» على مستوى التجمّع السكّاني، وأحيانًا على مستوى دماغ رئيس البلدية، الذي شرحوا لنا أنّه يستند إلى «إدارة التدفقات والتحكّم بها» وأنّه وُضع بهدف «تطوير مفعولٍ استقطابي». لقد أردت تكرار أنّ دخول المدينة، سواءٌ أكانت جذّابةً أم منفّرة، بات حيث نريد أن نضعه لأنفسنا، وأنّه إذا كنّا نبحث عن باب، فهنالك متاحف لذلك، بل هنالك دوّارات. وبالفعل، صدر في العام 1995 تشريعٌ يتعلّق بمداخل المدينة يفرض أن تتضمّن خطة تنظيمِ «مداخل»، لكنّها كثيرًا ما تحوّلت على مستوى المدن المتوسطة إلى اقتراحٍ ـ مثل «انعطف إلى اليسار» ـ وُضِعَ لتخفيف السرعة وتوزيع حركة السير. وكثيرًا ما يحمل هذا الدوّار أيضًا رمزًا يقوم مقام الباب، بل بوّابة تسلسل وضعت هنا مواربة، وتشبه باب **أي شخص**[652] (*Monsieur Tout le Monde*)، وتقول من علٍ مع صغر حجمها: هنا أنت تتجاوز حدود مدينتنا... ومثلما أشار مقرّرٌ قانونيٌّ في مجلس الشيوخ: «تاريخيًّا، كان 'دخول المدينة' جزءًا من مسارٍ يحمل الريف إلى قلب الحاضرة، وابتغى أن يكون تلقينيًّا وتمثيليًّا لـ'روائع' المدينة. وكانت هذه الأخيرة تبرز نفسها أثناء هذا المسار بأشدّ المظاهر وعدًا، وكذلك بإعلان القوانين العامة (لم تكن ساحة المشانق بريئةً)». اليوم، تقدّم مداخل المدينة أحد أكثر الأشكال تميزًا لقلّة الأهمية التي يثيرها

---

(652) **أيّ شخص** (*Monsieur tout le monde*): الترجمة الفرنسية لعنوان فيلمٍ أميركي ظهر في العام 1938 للمخرج الأميركي وليم سيتر بعنوان: **شكرًا لكلّ شيء**.

استعمار المدينة التدريجي للحيّز المحيط بها. ويضيف هذا النائب أنّنا «نرى «في فظاعة مداخل المدينة [...] الحدّ بين المدن والريف بأفضل وجهٍ ممكن». وهكذا، لا تبحثوا بعد الآن عن الأبـواب، فقد أكلت المدينة حدودها منذ وقتٍ طويل، تخلّت عن صيانتها، تخلّت عن كلّ فكرةٍ للقوام الجميل لتلتحق بعلم جمال البدانة السائد في كلّ ما هو قابلٌ للاستهلاك، في كلّ ما هو قابلٌ للتحويل. إنّ الموجودات العيانية، مثلها في ذلك مثل الحيّز، أجسادٌ رخوةٌ وقابلةٌ للتمدّد ومعقّدة، تبتلع كلّ ما يحيط بها. ثمة نظامٌ حضريٌّ جديدٌ ليس فيه مداخل ولا مخارج ولا عتباتٌ ولا حدود ولا مقدّس ولا شعائر، يفتح عالمًا لا يمكن الاستدلال عليه، نوعًا من شريطٍ حضري لم نعد نعرف تحته، وبالأحرى فوقه، إن كنّا ضيوفًا أم ضحايا لأولئك الوسطاء غير المرئيين للالتحام بالتجمّعات السكنية الكبيرة. إنّه في نهاية المطاف عالمٌ لم تعد فيه كياسة ولا حتى مدينة، عالمٌ ليست فيه مداخل ولا مخارج: عالمٌ مُهلِك. وأدرك أنّ المدينة هي التي أصبحت داخلنا جميعًا وأنّنا نجد أنفسنا على نحوٍ متزايدٍ وبطريقةٍ ما خارج ما كان يشكّل سببًا لوجودها. وهذه هي أيضًا نهاية المفصّلات، فقد أصبحنا ملوك العالم، لم نعد ندفع أو نجتاز بابًا، ولم تعد عمليات خروجنا تتمّ إلّا ونحن في عين المكان وبداخلنا، ونلغي بذلك كلّ تحضير، ولا نتخيّل ما بعد ذلك.

أبوابٌ أخرى

1

أبواب أفريقيا

«يتقدّمنا سيرًا على الأقدام شيوخ بني عبّاس الذين طالما دافعوا عن 'أبواب الحديد' ضدّ الأتراك، يرتدون برانس زرقاء وصفراء. تتّجه طليعةٌ تتكوّن من فرقٍ خفيفةٍ بسرعةٍ نحو 'أبواب الحديد' لتطوّق مرتفعاتها، تحسّبًا لضرورةٍ لاحقةٍ لمثل هذا الترتيب. بعد ساعتين من المسير، تقلّص الأفق حولنا، نتغلغل في وادٍ رطبٍ ونرى نوعًا من الأسوار الهائلة تنتصب أمامنا تتشكّل من جدرانٍ من الصخور الحمراء والمسنّنة، تطرّز ذراها السماء بطريقةٍ غريبة. نتسلّق على يسار السيل دربًا قاسيًا، يضطرّ عناصر الهندسة إلى إزالة الركام منه لفتح الطريق أمام بغالنا المحمّلة على الطريقة الفرنسية.

بعد تناوبٍ طويلٍ نسبيًّا من الصعود والهبوط المضنيين، نجد أنفسنا أخيرًا وسط هذه الصخور التي تطلّ عليها من الجوانب كافّة منحدراتٌ قاسية مفصول بعضها عن بعض بأسوارٍ طبيعية، تقسمها إلى بروزاتٍ لا يمكن تجاوزها. تحصِّن الطبقات المتوجّهة باتجاهين في هذا الجزء الأول من الممرّ الجبلي بعضها بعضًا على نحوٍ طبيعي، وشيئًا فشيئًا تجعل تطويق المرتفعات المنتظم شبه مستحيل. نهبط عبر دربٍ منحدرٍ عموديًّا ودائمًا على الطرف الأيسر من الجدول، ويصبح مظهر المكان أكثر قفرًا ورهبةً. بعد فترةٍ وجيزة، تتقارب الذرى وتزداد ارتفاعًا فوق رؤوسنا، تشقّ الحوافّ العارية والضارية السماء، وتضيف الأشجار التي اقتلعتها العاصفة وتراكمت أمام خطواتنا مزيدًا من المهابة الرهيبة إلى

هذه اللوحة. مع تقدّمنا، تبدو طبقات الصخور أكثر وضوحًا: إنّها أسوارٌ عموديةٌ حقيقية، يبعد بعضها عن بعض عشر أقدامٍ أحيانًا، وأربعين أحيانًا أخرى، ومئة في مكانٍ أبعد، ويتراوح ارتفاعها بين أربعين قدمًا وحتى ثمانمئة قدمٍ أو تسعمئة فوق قاع الوادي. في كثيرٍ من الأحيان، كان الزمن أو الأمطار قد جرفت التربة النباتية أو الأقسام الترابية الكلسية التي تفصل بينها، بحيث لم يبقَ إلّا أسوار متدرّج بعضها وراء بعض وتمتدّ جميعًا من الشرق بعشر درجاتٍ شمالًا إلى الغرب وبعشر درجاتٍ جنوبًا.

أخيرًا، وبعد أن سرنا لمدةٍ فاقت عشر دقائق في ما يشبه ممرًّا يتشكّل من صخورٍ هائلة الحجم يزداد ارتفاع ميلها باستمرار، وبعد أن انعطفنا إلى اليمين بزاويةٍ قائمة في سرير السيل، ها نحن ننزل إلى قاع مجرى ضيّق، متحكَّمٍ به من الجوانب كافّة، وبالتالي فإنّ أيّ مقاومةٍ ضد المدافعين عن الممرّ الجبلي ستكون مستحيلة، في حال وُجد بعضهم. هنا يوجد الباب الأول. إنّها فتحةٌ عرضها ثماني أقدام صُنعت شاقوليًّا بين طبقتين من تلك الطبقات الصخرية المتوازية، الحمراء في الأعلى وذات اللون الرمادي الحديدي في أسفلها.

بما أنّ التربة النباتية قد تراجعت في كلّ مكانٍ بتأثير المياه، تتوالى حاراتٌ جانبيةٌ حتى الباب الثاني الذي يسمح عرضه بالكاد بأن يجتازه بغلٌ محمّل. يقع الباب الثالث على بُعد خمس عشرة خطوةً من ذلك، بالانعطاف إلى اليمين، والرابع ـ وهو أعرض من الأبواب الأخرى ـ على بُعد خمسين خطوةً من الثالث. يُغرِق سرير وادي البيبان قاعدة هذه الصخور، والطريق الذي نتبعه ليس سوى السرير المعتاد للسيل كما سبق أن قلنا.

بعد هذا الباب الأخير، بدأ الممرّ الجبلي الذي يمتدّ ثلاثمئة خطوةٍ أخرى يتوسّع. ولئن كان المشهد المهيب الذي تقدّمه هذه التركيبة

الغريبة من الجبال والصخور والظواهر الجيولوجية صعب الوصف بمقدار ما هو صعبٌ على التخيّل، فتقديم فكرةٍ صحيحةٍ تمامًا عن الحماسة التي أثارتها في الطابور رؤية البيبان المجتازة ليس أكثر يسرًا، وكذلك التعبير عن الفرح الذي يثيره انتصارٌ على مثل هذا المقدار من العقبات. كانت الفرق الموسيقية الخاصّة بكلّ كتيبةٍ تعزف نشيدها الخاص طيلة الزمن الذي استغرقه المسير، ومرّ الجنود واحدًا واحدًا، مطلقين بصيحاتهم أصداء هذه الصخور الوحشية.

بين البابين الأول والثاني، أمر الأمير بأن ينقش عناصر الهندسة العبارة التالية:

«الجيش الفرنسي 1839»

الاستراحة الطويلة بعد الخروج من هذا الممرّ الجبلي المعتم هي واحدةٌ من أشدّ الاستراحات التي سيقوم بها جيش أفريقيا ابتهاجًا».

Charles Nodier[653], *Journal de l'expédition des Portes de Fer*, 1844

(653) شارل نوديه (1780 ـ 1844)، كاتبٌ وروائيٌّ وأكاديميٌّ فرنسي، يُنسب إليه دورٌ كبيرٌ في ولادة الحركة الرومانسية.

الجانّ على الباب

في شمال أفريقيا، العتبةُ مكانُ لقاءٍ واحتكاكٍ مرعبٌ ويخشاه الناس، يتحكّم بالفضاء المنزلي بلا هوادة. أمّا الباب، فهو محمّلٌ بالإيحاءات الأنثوية ذات المنحى النوعي، إذ إنّ دوره في المنزل يتمثّل بخاصةٍ في الإشارة إلى الوقائع التي لا يمكن انتهاكها: هنالك نساء. كثيرًا ما يُستخدَم المصطلح العربي «عتبة» كمعادلٍ للمنزل، إلى درجة أنّه يقال «امتلاك عتبات» أكثر ممّا يقال امتلاك بيوتٍ في المدينة أو في حيٍّ ما، تمامًا مثلما يقول المرء بيسرٍ عن بيته إنّ «عتبته جيدة». وكما في أماكن كثيرةٍ في العالم، يفسّر هذا الأمر بكون العتبة والباب محمّلين بقدراتٍ مفيدةٍ يُفترض فيها أن تحمي قاطني المنزل من الداخل بمقدار ما تحميهم من أي اقتحامٍ ضارّ. في المغرب، تزوَّد الزوجة الجديدة التي ستصبح سيّدة المكان بقدراتٍ بالغة القوّة، مثلها في ذلك مثل العتبة، مع وجوب عدم استخدامها ضد أولئك الذين يحرسون المدخل، ولذلك يتمّ تجنّب أن يكون اللقاء بين الجانبين فظًّا ومرتجلًا. عندما تصل سيّدة المنزل الجديدة لأوّل مرّة، وإذا لم يحملها صديقٌ للزوج مثلما درجت عليه العادة عمومًا، فعليها بالضرورة أن تقفز من فوق العتبة من دون أن تمسّها، وأن تلتحق بمركز سكن زوجها، الذي يستقبلها وهو يلامس ظهرها، كما لو أنّه يريد القبض بيده على البَركة التي دخلت إلى الأسرة معها. ضمن هذه الروح عينها، تُرمى أحيانًا مكنسةٌ من فوق الحائط إلى الباحة، كي لا تُكنس بركةُ العتبة ولا تدخل قذارة عبر الباب، حيث إنّ المكنسة غير طاهرةٍ بحكم وظيفتها. لحظة الدخول هذه مثارُ خشيةٍ بمقدار ما هي مهمّة، ومثلما يلاحظ محمد بوغالي[654]،

(654) محمد بوغالي، أكاديميٌّ وباحثٌ مغربي، تولّى منصب عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة مراكش (المغرب)، ضمّته الأكاديمية الفرنسية إليها لأعماله حول الأدب الفرنسي.

«لا تخرج نساء العائلات الصالحة إلّا مرتين: المرّة الأولى لدخول بيت الزوجية، والمرّة الثانية عند الوفاة». ومن أجل إدخال القاطنة الجديدة، اختُرعت ألف حيلةٍ فظّة، كما في فاس، عندما كانت بعض عائلات الشرفاء تقود في العام 1900 الخطيبة ليلة العرس على كرسيٍ محمول يجلبه ويحمله حانوتيون حتى بيت الزوج لخداع جانّ بيت الزوجية، ودفعهم للاعتقاد بأنّ الداخلة ميتةٌ ولا شأن لهم بها! بعد أن تصل العروس إلى البيت، تقاد إلى غرفة العرس وتعبر عتبتها وهي تنظر إلى نفسها في مرآةٍ تحملها باليد اليمنى. ومن المفترض في اعتقادهم، أن يشتّت انعكاس وجهها هنا أيضًا الجانّ عن العروس الحقيقية. في بعض الأحيان، كانت المرأة تدخل الغرفة وهي تحمل تحت ذراعها اليمنى مجموعةً من المفاتيح، حيث يتمتع الحديد بفاعلية وقائيةٍ وحمائيةٍ وبمفعولٍ طاردٍ لكلّ شيطانٍ جديرٍ بهذا الاسم. كما كان بوسعها أيضًا تجاوز الباب وهي تحمل قصعةً من الحليب في إحدى يديها وطبقًا من التمر في اليد الأخرى بهدف تملّق الأرواح وتدليلها، حيث يتمثّل الهدف الحقيقي في تحويل اهتمامها عن دم البكارة الذي ترغب فيه تلك الأرواح بشدّة! أخيرًا بعد انقضاء ليلة العرس، يجب على العروس أن تمكث في غرفة الزوجية بحماية بابها حتى «يوم الحزام»، الذي يعيّن نهاية الاعتكاف الزواجي. في هذا اليوم، تحزم المرأة خصرها بحزامٍ شعائري، وهذه ممارسةٌ تتجاوز المظهر المجازي لتدلّ على أنّ المرأة قد امتلكت بيتها فعليًّا مثلما امتلكت جسدها. وفي الصويرة وأسفي، صباح اليوم السابع، تُخرج النساءُ الزوجةَ من غرفة العرس، التي ينتظرها على عتبتها طبقٌ كبيرٌ من الطين المشوي يمتلئ بالماء ويحتوي سمكةً كبيرة. آنذاك، تقوم نساء البيت بنزع الحراشف عن السمكة على قدمي العروس العاريتين، إذ تنبئ الحراشف بمستقبلٍ مزدهرٍ ووفير. وبعد ذلك، يوضع طفلٌ على ظهرها وتقاد لتزور حجرات

المنزل حجرةً حجرة، وذلك على أمل أن تكون أمًّا صالحةً وسيّدةً مناسبةً للمكان.

في بعض أرياف جنوب المغرب وحتى ستينيات القرن العشرين، كان الإجهاض يُستتبع بممارساتٍ خاصة: يجب دفن الجنين المجهَض قبل أن يبلغ الشهور الخمسة تحت عتبة المنزل. ومن المفترض فيه أن يغلق الفضاء الأسري ويحميه ببركته. لكن كان يُنظر إليه أيضًا بوصفه طُعمًا للجانّ، إلى درجة تسميته بـ«الشقيق التوأم». وبما أنّ العتبة هي أوّل موضع تماسٍّ مع قوى الخارج المؤذية أو المشبوهة، فقد كانت المشيمة التوأم تحلّ محلّ الطفل وتحوّل نحوها أيّ هجومٍ مؤذٍ. في المقابل، كان يُحظر على المرأة أن تعطي جيرانها ملحًا أو نارًا أو خميرة في تلك الفترة. بل كان يُمنع أيّ دخولٍ وخروجٍ لأشياء وأشخاصٍ عبر الباب الرسمي للبيت. والشعائر المتعلّقة بالولادة غير قليلة. يذكر أرنولد فان غينيب شعيرة أبوابٍ تتمّ في اليوم السابع بعد ولادة طفل في بليدة بالجزائر، فبعد أن تغسل القابلة الرضيع تحمله بين ذراعيها، ثمّ توضع على صدر الطفل الملفوف مرآةٌ دائريةٌ تحمل المكّوك العائلي، وبكرة غزْلٍ تمتلئ بالنيل وقبضة ملحٍ وأشياء أخرى ذات استخدامٍ سحري. تقترب القابلة وهي تحمل الطفل من باب الغرفة حيث تؤرجحه سبع مرّات، وتكرّر الأمر أمام كلّ باب، وكذلك فوق المجيرية، أي أنبوب التصريف الموجود خلف المنزل، وعلى باب المراحيض التي توجد عادةً في الدهليز. المرحلة الأخيرة: باب الشارع، حيث تؤرجح الطفل داخل المنزل فحسب. تُطلق على هذا اليوم السابع تسمية «يوم خروج الطفل»، وهو طقسٌ يتوافق مع اللحظة التي سيغادر فيها الطفل غرفة الأم. المفعول الرئيس لهذا «الخروج» الأوّل هو تقديم الطفل لجانّ المنزل، ولاسيما أولئك الذين يسودون على المنافذ والمخارج. في المغرب، وفي الأطلس الأعلى، عندما تضطر امرأةٌ للابتعاد عن طفلها

لبضع لحظات، تحرص على أن تنثر حول مهد الرضيع وأمام بابه بضع قطراتٍ من حليبها لتحميه من الجانّ المولعين باللحم الطري. وضمن روح الحماية عينها، كان سكّان أقني أوفورو في الجزائر يحرصون على أن يرسموا حول بابهم في أوّل يومٍ من أيام الصيف الإسلامي مستطيلًا من القطران ومن روث البقر الطازج للوقاية من مخاطر التهاب الأمعاء عند الأطفال.

العتبة شديدة الأهمية أيضًا للاستقبال، كما هي الحال لدى العودة من الحجّ إلى مكّة. تقليديًا، كانت العائلات تذهب لاستقبال الحجّاج في مدخل المدينة وهي تحمل التمر والحليب، كما كان الأصدقاء يأتون هم أيضًا ليكونوا أوائل من «يشمّ رائحة النبي» التي لا تزال تفوح من الحجّاج. عندما يصل الحاجّ أمام منزله، يجب عليه هو أيضًا عدم ملامسة العتبة، بل يدخل محمولًا على ظهر قريبٍ أو صديقٍ يضعه في غرفته. في واقع الحال، يُنظر إليه وكأنّه مولودٌ جديد، بل عريسٌ جديد، إلى درجة أنّه ملزمٌ باعتكافٍ في غرفته لمدّة سبعة أيام، حيث لا يستطيع عبور أبوابها إلّا في اليوم السابع كي يذهب، كحاجٍّ حقيقي، لزيارة الأولياء الذين تتبع لهم المدينة.

يجب دائمًا في شمال أفريقيا أن نأخذ بالحسبان أنّ البيوت الإسلامية هي أكثر من أماكن مبنية، إذ إنّها أجسامٌ حيةٌ منطويةٌ على نفسها ولا تمتلك في معظم الأحيان إلّا فتحةً واحدةً على الشارع. بعد عبور الباب، كثيرًا ما تستقبلنا روائح الإفرازات، لأنّ المراحيض التي تشارك في منظومة الدفاع عن المكان توضع على الدوام قرب الباب والشارع كي يكون إخلاء الروائح السيئة أسرع. ثمة اعتقادٌ سائدٌ بأنّ بعض الجانّ يختارون سكنهم فيها لأنّهم يقطنون قرب المدخل. وهذا يقتضي بالنسبة إلى البشر الذين يدخلون إلى البيت أن يسمّوا بالله، وهي

صيغةٌ إلزاميّةٌ قبل البدء بتناول أيّ وجبةٍ والقيام بأيّ سفرٍ وتقديم أضحيةٍ واللقاء والدخول.

عندما يحيي الغناوة[655] أو العيساوة[656] ليلةً، وبعد سلسلةٍ من الأناشيد والشعائر التي تسبق مأدبةً، تقام «العادة» في الشارع، فيضرب الموسيقيون على طبلين كبيرين وتبارَك الآلات والحضور، ثمّ تدخل امرأتان القهقرى إلى البيت وهما تحملان البخور والتمر والحليب، وذلك للدلالة على نحوٍ مجسّدٍ على انقلاب نظام الأشياء: تدخلان في عالمٍ غير مرئي، ليس له وجه، لاحترامه على نحوٍ أفضل، وهما تدخلان بصورةٍ خاصّةٍ عالم الجانّ غير المرئي، هؤلاء الجانّ الذين نودوا من الخارج واجتُذبوا بالأطايب وطُلب منهم عبور الباب كي ينضمّوا إلى الاحتفال.

إيشو[657] يسهر

بفضل بيير فيرجيه[658] (Pierre Verger)، سنحت لي فرصة الاهتمام بالكاندومبليه[659] (candomblé) في البرازيل أثناء رحلةٍ إلى سلفادور

---

(655) الغناوة: ينحدرون في المغرب من سلالة العبيد الذين استُجلبوا في العصر الذهبي للإمبراطورية المغربية (أواخر القرن السادس عشر) من أفريقيا السوداء الغربية، وهي لفظةٌ تشير إلى أصلهم الغيني.

(656) العيساوة: أتباع الطريقة العيساوية، وهي فرقةٌ صوفيةٌ مغربية، تشتهر باستعمالها المدائح بصوتٍ مرتفعٍ واستخدام الموسيقى في مسارات العرفان.

(657) إيشو (Eshou): روح (أوريشا- الهامش رقم 663) من أصلٍ أفريقي نتجت عن التقاليد الدينية عند اليوروبا. وهي الأوريشا المركزية في الكاندومبليه البرازيلية (انظر الهامش رقم 659).

(658) بيير فيرجيه (1902 - 1996)، مصوّرٌ وعالم إثنولوجيا فرنسي. كرّس معظم عمله لأديان خليج غينيا (بصورةٍ خاصّة دیانتي فون ويوروبا) وللأديان الأفريقية- البرازيلية (ولاسيما الكاندومبليه- الهامش التالي).

(659) كاندومبليه: ديانةٌ برازيليةٌ ذات أصولٍ أفريقية تمارَس بشكلٍ رئيسي في البرازيل، ونشأت في منطقة باهيا. تعتمد على الروح في البيئة الطبيعية، وهي بالتالي نوعٌ من الإحيائية.

باهيا[660] (Salvador de Bahia). بطبيعة الحال، لن أهتمّ هنا إلّا بما يمسّ الأبواب والمداخل وعتبات التيريرو[661] (*terreiro*) وحرّاسها، ولن أفصّل غيرها. في الكاندومبليه، وهو دينٌ أفريقي- برازيلي متجذّرٌ ضمن تجمّع للآلهة غنيٍّ وخاصّ، يسهر على الدوام حرّاسٌ مزدوجون يجب الإنفاقُ عليهم، ومن المستحسن الحذر منهم. بدايةً، لا يبلغ المرء التيريرو بهذه البساطة، فالفضاء الذي يمارَس فيه الكاندومبليه مشيّدٌ في معظم الأحيان في مكانٍ جانبي، وسط مجتمعٍ أسود وبعيدٍ عن مركز المدينة، على الرغم من أنّ كثيرًا من أتباعه يسكنون في المحيط، وأنّ والد القدّيس أو والدته، مؤسِّسَي التيريرو وزعيميه الروحيَّين، يعيشان عمومًا في وسط المدينة، حيث لديهما انشغالاتهما، ولا يذهبان إلى الكاندومبليه إلّا بمناسبة الأعياد والاحتفالات.

قبل بيرجيه، لاحظ الباحث الأنثروبولوجي روجيه باستيد[662] (Roger Bastide) أنّه يسهل أن يصادف المرء في باهيا على طرقٍ جانبيةٍ أو على تقاطعات طرقٍ «دجاجاتٍ سوداء ميتة تحتوي في جوفها على حبّات الذرة أو قطع النقود الصغيرة أو علبة عيدان ثقاب أو قطعةٍ من لفافة تبغ». إنها «إيبو» (Ebo)، أي رقية سحرٍ أو أضاحٍ مقدّمةٌ إلى «إيشو» (Eshou) وموضوعةٌ في أماكن استراتيجية، إمّا على طريق العدّو أو ضدّ نادٍ خصمٍ لكرة القدم أو على نحوٍ أكثر عموميةً بسبب التنافس والغيرة بين التيريرو. يمكن أيضًا أن نجد ببساطةٍ هنا وهناك أعطياتٍ موضوعةً على الطرق الجانبية أو في أماكن تقاطع دروب التواصل،

(660) سلفادور باهيا: مدينةٌ في البرازيل وهي عاصمة ولاية باهيا، تقع على شبه جزيرة على المحيط الأطلسي شمال شرق البلاد.

(661) تيريرو: المكان الذي تُمارس فيه عبادة الكاندومبليه وتجمّعٌ اجتماعيٌّ تنتقل عبره التقاليد الأفريقية، ولاسيما في سلفادور باهيا.

(662) روجيه باستيد (1898 ـ 1974)، عالم اجتماعٍ وأنثروبولوجيٌّ فرنسي، تخصّص في علم الاجتماع وفي الأدب البرازيلي.

فأولئك الذين وضعوها مقتنعون بأنّ إيشو هي القوّة التي تتحكّم بالفتحات والطرق، وهي أيضًا رسول أوريشا[663] (*orisha*)، مجمع آلهة الكاندومبليه، كافّة. ولشدّة ما يجوب في العالم، سينتهي به المطاف إلى المرور، وأنّه على سبيل الشكر سيساعد الأتقياء المعنيين على إلغاء الباب الذي يفصل الطبيعة عن الأشياء الربّانية عبر الربط بينها وبين طبقتي العالم.

بطبيعة الحال، ثمة تنوّعاتٌ في بناء كلّ كاندومبليه ترتبط بالمكان الذي ينصَب فيه، لكنّ المنتمين لشعوب اليوروبا[664] (yorubas) ويقيمون شعيرة الناغو[665] (Nagô) ينظّمون التيرييرو بوصفه تمثيلًا لقريةٍ أفريقية. يتمتّع كاندومبليه شعيرة الناغو بخصائص مشتركةٍ أشار إليها باستيد وتثير اهتمامي بصورةٍ خاصّة: إنّه الحضور المبيّن لاثنين من الإيشو على الأقل. إيشو كيانٌ قويٌّ يحتلّ مكانةً شديدة الخصوصية بين الأوريشا، تلك القوى الوسيطة بين الإله الأعلى والفانين، ومقابله في بنين هو ليغبا (Legba)، الذي يسود هو أيضًا على الفتحات والطرق، وهو موجودٌ على الدوام في مدخل بيوت الفودون[666] (*vodoun*) على شكل تلٍّ ترابيٍ يذكّر شكله بالرجل المقرفص، ومزيّنٌ بقضيبٍ خشبيٍّ ضخم. يؤكّد بيير فيرجيه أنّ «ذلك لا يجعل منه إله الخصب ولا إله الجماع، إنّها مجرّد علامةٍ على مزاجه الفظّ والعنيف الخالي من الحشمة، وعلى رغبته في صدم قواعد حسن السلوك». يبقى أنّ

(663) الأوريشا: آلهةٌ أميركيةٌ ـ أفريقيةٌ من أصلٍ أفريقي، ترتبط بصورةٍ أخصّ بالتقاليد الدينية في دين اليوروبا Yoruba (انظر الهامش التالي).

(664) اليوروبا: مجموعةٌ إثنيةٌ أفريقيةٌ كبيرة، موجودةٌ بصورةٍ خاصّةٍ في نيجيريا، على الضفة اليمنى لنهر النيجر، وكذلك في مناطق أفريقية أخرى.

(665) الناغو: أحد أفراد اليوروبا، ولاسيما العبيد الذين أُحضروا إلى البرازيل.

(666) الفودون: عبادةٌ تنتشر بصورةٍ خاصّةٍ في بلدان البحر الكاريبي (ولاسيما في هاييتي).

تمثيلات إيشو هي في أغلب الأحيان قضيبيةٌ على نحوٍ شديد الوضوح. في البرازيل، ينتشر النمط القديم لإيشو انتشارًا واسعًا بين أولئك الذين لديهم طبعٌ ملتبسٌ ومثيرٌ للحيرة نوعًا ما. نلاحظ أنّ الملقَّنين الذين «ينقلون» إيشو (لا يقول المرء إنّ إيشو يمتلكه أو يمتطيه، بل ينقله مثل وزنٍ ثقيلٍ يجرجره بألم، كما يلاحظ باستيد) يتبنّون رمزًا لتبعيّتهم لهذه القوّة المزعزعة «أوغو»[667] (ogo) ذا شكلٍ قضيبي، وأنّ التماثيل الصغيرة المكرّسة له لا تتوانى أبدًا عن تأكيد القوّة الذكورية لهذا الأوريشا بوضوحٍ شديد.

في باهيا، وبعد عبور بوّابة التيريرو والاستدلال على المنزل الصغير الخاص بالـ«أوغان» (ogan)، وهو أشبه بخادمٍ للمعبد ومكلّفٌ بإصلاح الأماكن المقدّسة وصيانتها على مدى العام، يجب أن نميّز قرب باب دخول المعبد «كوخ» إيشو الذي هو البوّاب الحقيقي للمكان. إنّه في واقع الحال معبودٌ من العالم الآخر، عبارةٌ عمومًا عن تمثالٍ صغير يُرشّ بزيت اللوز، دُفن تحت عتبة البيت الرئيسي أو يقبع خلف باب الدخول، إلّا في حال رُمز لوجوده برمحٍ ثلاثيٍّ حديدي يُغرَس في هضبةٍ صغيرة. ومن هناك، يحرس الإيشو الكاندومبليه، فيفتح أو يغلق الأبواب رمزيًا لكلّ زائرٍ يدخل. وعلى أيّ حال، يجب على كلّ واصلٍ أن يقدّم له سيجارًا أو تبغًا أو بضع قطعٍ من النقود، أي باختصارٍ هديةً صغيرةً يؤكّد بها احترامه ويتجنّب غضبه. يتعلّق الأمر هنا بـ«الإيشو الطيب»، بكلب الحراسة المخلص واليقظ الذي يحمي البيت من الأعداء المحتملين. يُطلق على هذا الإيشو اللطيف لقب «العرّاب». بل إنّ باستيد يلاحظ أنّ هذا الإيشو يُماهى في ريسيفه[668] (Recife) بالقديس برثلماوس[669]

(667) الأوغو: عصا يمثّل رأسُها القضيب.

(668) ريسيفه: خامس أكبر مدينة في البرازيل.

(669) برثلماوس: أحد رسل المسيح الإثني عشر.

مكتبة
t.me/t_pdf

(Barthélemy) وحتى بالقديس جبريل، «الملاك الحارس» للبشر. وفي بورتو أليغريه[670] (Porto Alegre)، يُماهى بالقدّيس أنطوان بسبب الإغواءات التي يتعرّض لها باستمرار، بل أحيانًا بالقدّيس بطرس، بوّاب الجنة الذي يقف، مثلما يفعل إيشو في مدخل التيرييرو، على عتبة السماء ويفتح أو يغلق الأبواب للأرواح. يلاحظ بيير فيرجيه أنّ عدد الإيشو في باهيا لا يقلّ عن واحدٍ وعشرين! إنّه إله الفتحات، الفتحات كلّها، وهو يمسك بحنجرة الإنسان بالإضافة إلى البوّابة، ويستطيع أن يعاقبه بأن يجعله يصاب بأمراضٍ في المسالك الفموية.

بعد أن يعبر المرء البوّابة ويقدّم التحية إلى إيشو كما يجب، يكتشف وسط الأشجار أو الأحراش أو الأعشاب البرّية، إعادة تشكيل قريةٍ أفريقيةٍ صغيرةٍ حقيقية، تمتلئ بالناس في أيام الأعياد. ينقسم التيرييرو تقليديًّا إلى ثلاثة أقسام: دار العبادة والبهو، أو البيت الكبير الذي تُطلق عليه تسمية (ilè-orisha) حيث تتمّ الرقصات الدينية، وعددٌ من المصلَّيات المعزولة، ومنها ما يُدعى (ilé-saim)، ودار الموتى، وتحت باب هذه الأخيرة اختير مسكن الإيشو الثاني. يبلغ الخوف من أن يعود الموتى لمضايقة الأحياء أو لإزعاج الأوريشا المجاورين حدًّا يدفع إلى وضعهم تحت الحماية السامية لهذا الإيشو الغيور والشرّير. وهذا الإيشو مزعجٌ ومرهقٌ إلى درجة أنّ باب بيته يُقفل بغلَقٍ لمنعه من الخروج. قبل إجراء الطقس العام حيث ترقص الآلهة و«شيريه» (shiré) الـ«أوريكسا» (orixa)، يلاحظ فيرجيه أنّه «يقام في باهيا الـ«باديه» (padé)، وهي كلمةٌ تعني في اليوروبا اللقاء، الاجتماعُ الذي ينادى فيه إيشو وتوجَّه إليه التحية وتكال له المدائح ويرسل إلى بعيد. والهدف من هذا الأمر مزدوج: الذهاب لاستدعاء الآلهة الأخرى كي تأتي وتشارك في العيد، وكذلك إبعاده كي لا يأتي ويقوم بدعابةٍ مبتذلة أثناء الاحتفال الطقسي».

---

(670) بورتو أليغريه: عاصمة ولاية ريو غرانديه دو سول في البرازيل.

بصورةٍ عامّة، تتشابه بنية شتّى طقوس الشعيرة الأفريقية في كلّ مكانٍ إلى هذا الحدّ أو ذاك. وقد وصف روجيه باستيد تلك اللحظة التي يدخل فيها الموكب إلى الكوخ، «حيث يدخل إليه كلّ شخص، باستثناء الأوغان، وهو يسير القهقرى بعد أن يستدير، لتشكيل دائرةٍ بعد ذلك، تدور لحظةً حول العمود المركزي ثمّ تخرج مجدّدًا وهي تسير القهقرى أيضًا لتعبر الباب ثمّ تبتعد نحو بيت أوكسوماريه[671] (Oxumaré) التي لا يحقّ لها الدخول إليه وحيث ينتهي الطقس».

في الكاندومبليه، يكرّس يوم الإثنين، أوّل أيّام الأسبوع، للآلهة التي تفتح الزمن: إيشو وأومولو (Omolou). وهو أيضًا اليوم الذي تكون فيه الجهة الرئيسية في الشرق، حيث يقع مسكن إيشو. ونفهم أن يفتتح إيشو، إله «الفتحات»، الأسبوع ويحرس بوّابة الزمن، تمامًا مثلما يراقب باب التيريرو. في كونٍ صنعه خالقٌ واحدٌ لكنّه محتجزٌ في أربعة أقسامٍ تتوافق مع الجهات الأربع، يجب العثور على شخصٍ أو على وسيلةٍ كي ترتبط هذه الأقسام الأربعة المتمايزة بعضها ببعض. وإيشو هو المكلّف بهذه المهمّة. سوف يثقب فتحاتٍ بين المجالات الأربعة ويصل بينها. إيشو عنصرٌ جدليٌّ في الكون، وهو ينظّمه بمقدار ما يثير فيه الاضطراب، ولهذا السبب يُعترَف به أيضًا بوصفه إله النظام. إليه تعود مهمّة جعل مختلف الإوريشا تتواصل في ما بينها وفتح كلّ ما يمكن فتحه. إيشو كائنٌ متناقض، خبيث، بل شرير، ومتحرّكٌ على الدوام، وهو مهرّجٌ شعائري، مخادعٌ حقيقي، مستفزّ، يخترع النزاعات ويحلّها، يخلط كلّ شيء، حتى آثاره. يجب أن نفهم استفزازاته وأحابيله بوصفها تمثيلًا إراديًّا لانقلاب الاتّجاه الطبيعي. يتنزّه إيشو على الحدود بين الحياة والموت، بين عالم الأفراد وعالم «إيغون» (Egun)، الجانّ. لا يقتصر عمله على فتح أبواب الولادات أو الوفيات وإغلاقها، بحيث يبقي على

---

(671) أوكسوماريه: أوريشا يعني اسمها قوس قزح.

نظام الأشياء الصحيح، بل يراقب فضلًا عن ذلك دورة التقمّص من أجل ألّا يأتي شيءٌ يُخلّ بتنسيق المجتمع. وبما أنّه يفتح حقًّا باب الأحداث ويسرّع المصائر، فلا عجب أن يترأّس الكهانة بالأصداف وأن يملي الإجراءات، أي الأضاحي التي يجب تقديمها للتغلّب على العقبات. لكنّ الآلهة في الكاندومبليه ليست أبديةً، ويحدث أيضًا أن يتعب حكيمٌ (babalao) من وجود هذا المعبود الثقيل على أبواب التيرييرو الخاصّ به، فينزع عنه القدسية عبر نثر أطعمةٍ محظورةٍ على العتبة كي يمتنع إيشو عن الطعام فيفقد قواه كلّها ويفنى حرفيًّا. لكن آنذاك، تفتقر الأبواب إلى من يحرسها، ويتعرّض توازن القوى بين الداخل والخارج للخطر.

أبواب النسيان

مضيتُ إلى أفريقيا السوداء في العام 1997 إلى أويده[672] (Ouidah) في بنين، مقتفيًا أيضًا آثار بيير فيرجيه. كان ذلك لتصوير فيلم طقس «الدخول» للمصوّر والمتخصّص في الكاندومبليه بيير «فاتومبي» (Fatumbi) فيرجيه[673] في مجمع آلهة كبار أسلاف الفودون. علاوةً على طقس الفودون «على رأسه»، والذي أقيم ثانيةً في **النظر إلى الخلف**[674] (*Le Regard retourné*)، أدهشني بخاصّةٍ نصبٌ شُيّد قبل ذلك بوقتٍ قصيرٍ على الشاطئ الذي كان العبيد يُنقلون منه بالبواخر: باب اللاعودة. إنّه أشبه بـ«قوس العار»، بُني لتخليد ذكرى

(672) أويده: مدينة في بنين كانت في القرن الثامن عشر أحد المراكز الرئيسة لبيع العبيد إلى الغرب وإرسالهم بحرًا.

(673) فاتومبي: اسم آخر لبيير فيرجيه.

(674) **النظر إلى الخلف**: فيلمٌ وثائقيٌّ للمخرج بيير غيشينين مع الباحث الإثنولوجي باسكال ديبي، يتحدّث عن طقوس الفودون ومكرّسٌ للباحث الإثنولوجي والمصوّر بيير فيرجيه.

ترحيل جماعاتٍ وفّرتها الغزوات الرهيبة التي لا تعدّ ولا تُحصى والتي قامت بها مملكة أبوميه[675] (Abomey)، حيث كان ملوكها يأتون حتّى الساحل لبيع الأسرى للقوى الأجنبية التي كانت هي نفسها تتاجر مع «العالم الجديد». كان السجناء يحضَرون من الشمال ويُجمعون في إحدى ساحات أويده ليباعوا فيها كعبيدٍ ثمّ يكبّلون بالأغلال. يذرعون بعد ذلك تحت سياط حرّاسهم الكيلومترات القليلة التي تفصلهم عن الشاطئ حيث تنتظرهم سفن تجارة العبيد الراسية في عرض البحر. يُدفَعون على جسرٍ عائمٍ ويوضعون في زوارق مترنّحةٍ ثمّ يُصعَد بهم إلى مراكب العبيد التي كانت تذهب إلى أميركا لتنقل حصّتها من العبيد الأفارقة.

لباب اللاعودة في أويـده شقيقان: واحـدٌ في أكرا عاصمة غانا، والآخر في غوريه[676] (Gorée) بالسنغال، وهما شقيقان ينتصبان في مواجهة خواء البحر أيضًا كي لا ينسى أحدٌ أبدًا أحد عشر مليونًا من الأفارقة الذين رحّلتهم تجارة البشر الغربية. لكنّهما نُصبا هما أيضًا ليظهِرا لأسلاف العبيد اليوم، أنّ «العودة» ممكنةٌ في نهاية المطاف، طالما يوجد «بـاب». يجب عليّ الاعتراف بأنّ «الباب» ليس هو ما أدهشني من حيث العبور، حتّى إن كان ينبغي الاعتراف له بنفع، عبر التعبير عن الكرامة العظيمة التي تنبثق منه، بمقدار ما أدهشني أن أكتشف «شجرة النسيان» في مكانٍ يبعد قليلًا عن الطريق المؤدّية إلى شاطئ الترحيل. وهي بقايا شجرةٍ قيل لي إنّه كان على كلّ عبدٍ أن يدور حولها قبل عبوره باب أفريقيا المتخيَّل ليخرج من جسده، لينسى

(675) أبوميه: مدينةٌ جنوب بنين كانت عاصمة مملكة أبوميه التي تأسّست قرابة العام 1625.

(676) غوريه: جزيرةٌ في المحيط الأطلسي تقع في خليج داكار (السنغال)، شكّلت مركزًا تجاريًّا رئيسيًّا لتجارة العبيد في الساحل الأفريقي.

نفسه حتى يفقد ذاكرة أصوله كي يتجنّب أن تسكنه الذكريات لاحقًا إلى حدّ ألّا تغادره روحه وتعود إلى أفريقيا من دونه. ويقال إنّ النساء كنّ يدرن سبع مرّاتٍ حول بقايا الشجرة والرجال عشر مرّاتٍ من أجل «النسيان»، وهي حركاتٌ ترتبط بمنطقٍ أقصى للسرّ النَّسَبي الذي يقال إنّه في الوقت عينه يربط ويُثقل على شرط المنحدرين من العبيد القدامى الذين يُشرح تاريخهم في أويده بوصفه انمحاءً مطلوبًا أو تشتّتًا عُضالًا وإراديًّا لـ«الأصول». على بعد بضع خطواتٍ من هناك، نجد شجرةً، تميمةً أخرى: «شجرة العودة» التي كان على العبيد الدوران حولها ثلاث مرّاتٍ فحسب، وذلك لاستثارة النقيض التامّ للاقتراح السابق: عبور الأطلسي من جديدٍ في الاتّجاه الآخر والسماح بذلك، لأرواحهم على الأقلّ، بالعودة إلى أفريقيا. وهي شعيرةٌ يقال إنّها شكّلت بالأحرى تحدّيًا تجاه الباعة الذين باعوهم أكثر من كونها تضمن عودتهم، لكن ثمة من أكّد لي أنّ القيام بها كان يهدف بخاصةٍ إلى بثّ قدرٍ من الأمل في مستقبلٍ لن يستمرّ أبدًا... وإذا ما كنت أضع كلّ ما سبق ضمن إطار الاحتمالات، فلأنّه ليس لدينا ما يؤكّد أنّ هاتين «الشجرتين» وُجدتا في زمن تجارة العبيد. يجب أن ننظر إلى شعائر «الرحيل» و«العودة» هذه، وهي شعائر وُضعت منذ زمنٍ غير بعيد، بوصفها سعيًا إلى إعادة تأسيسٍ معنويةٍ لمذكّرات العبودية في بنين. أستعير هنا كلمات الباحث الأنثروبولوجي غايتانو سيارسيا[677] (Gaetano Ciarcia) لأقول: «إنّ السياسة الراهنة التي تقضي بالتوعية بصدد المعاناة التي فُرضت في الماضي على الأسرى [...]، وذاكرة الشعائر، بفضل الكونية التي نقلها للفودون تاريخ تجارة العبيد المأسوي، تزوّد الفاعلين المعاصرين

(677) غايتانو سيارسيا، باحثٌ إثنولوجيٌّ وأستاذٌ في جامعة بول فاليري مونبلييه الثالثة. تتناول أبحاثه بصورةٍ خاصّةٍ إنشاء مذكّرات جماعية «موضوعة ضمن سياقٍ ثقافي» في فضاءاتٍ عامّةٍ ومعنوية.

برأسمالٍ ثقافي ينتج عن الحفاظ على ماضٍ مؤلم». ولقد أقيم برعاية اليونسكو منذ مهرجان أويده 92 مسارٌ يسمّى «درب العبد»، وهو مسارٌ رمزيٌّ ومجازي يزيد طوله على ثلاثة كيلومتراتٍ بقليل يصل بين وسط أويده والشاطئ، وذرعتُه بإرشاد أصدقائي من الفودون، وهو يتضمّن ستّ مراحل قبل أن يبلغ باب «اللاعودة». في البداية ساحة شاشا (Chacha) التي سُميت تيمّنًا بلقب تاجر العبيد فيليكس فرانشيسكو دي سوزا (Félix Francisco de Souza)، وشجرة «النسيان»، وخُصٌّ [كوخٌ من الشجر أو القصب] زوماي (Zomaï)، والنصب التذكاري في قرية زونغبودجي (Zoungbodji)، وشجرة «العودة»، وأخيرًا على الشاطئ، باب «اللاعودة». يربط واحدٌ وعشرون تمثالًا مجمل هذه العناصر، ويفترض فيها أن تذكّر في آنٍ بمعاناة الأسرى وبالبُعد المقدّس لعبادات الفودون، وبتمثيل الحياة اليومية في الماضي وقوّة مملكة داهومي القديمة.

تكمن الفكرة اليوم في السماح مجدّدًا بعبورٍ معاكسٍ للأبواب وبزيارة تاريخ العبودية أسطوريًّا عبر رحلة حجٍّ سياحية يجريها المرء بمفرده أو بصحبة أحفاد العبيد الأفارقة ـ الأميركيين ممّن يتمتّعون بما يكفي من الحظ لعبور الأطلسي بالاتجاه المعاكس والذهاب مجدّدًا إلى أميركا، ويقدّم لهم علاوةً على ذلك أحد طقوس الفودون. تندرج عمليات الحجّ هذه وهذا المسار ضمن منطقٍ دلاليٍّ يرتبط بالدخول في التراث العالمي الإنساني لمناطق الخسارات هذه. إنّ أحد «أبواب اللاعودة»، وقد دُعي الرئيس الأميركي باراك أوباما وزوجته المتحدّرة من عبيد وابنتاهما لعبوره على شاطئ العبيد في غينيا في تموز/ يوليو 2009، يُظهر الأهمّية الحالية لهذه الطقوس الجماعاتية، ويأتي ليؤكّد صعود الحساسية التي تسترجع حقبة الاستعباد. يجب أن نقرأ عمليات العبور المعاكس للأبواب والتي

تتطوّر ببطءٍ بوصفها مرشحاتٍ تذكاريةً شبه مقدّسة تسمح بجعل هذه الملايين من «الخروجات» القسرية راهنةً بصورةٍ إيجابية وبالبدء في التفكير بـ«عوداتٍ» ممكنة نحو أصولٍ مُحيت بكلّ ذلك المقدار من العنف والتعمّد.

الإنسان في القفل

يحتلّ القفل في مالي، في منطقة الدوغون، مكانةً معتبرةً في الثقافة المادّية، إلى درجة أنّنا لا نزال نرى حتى اليوم نسخًا مزيفةً من الأقفال الحقيقية الجديدة التي يحملها السيّاح معهم من رحلتهم إلى مالي. لكن نستطيع أيضًا أن نتأمّل، في الغالبية العظمى من متاحف العالم، مجموعاتٍ هائلةً لما يمكن أن تكون عليه أقفالٌ «حقيقية» استُخدمت قبل أن تستعاد أو تشترى أو حتى تُسرق. وقد أجرت جنيفييف كالام غريول[678] (Geneviève Calame-Griaule)، ابنة الباحث الأنثروبولوجي العظيم مارسيل غريول[679] (Marcel Griaule)، ودونيز بولم[680] (Denise Paulme) وبعض الأنثروبولوجيين الآخرين، مثل فرانسين ندياية[681] (Francine Ndiaye) وآني دوبوي[682] (Annie Dupuis)، وهم

(678) جنيفييف كالام غريول (1924 ـ 2013)، باحثةٌ إثنولوجيةٌ فرنسية، اشتُهرت بأعمالها عن الدوغون.

(679) مارسيل غريول (1898 ـ 1956)، باحثٌ إثنولوجيٌّ فرنسي، اشتُهر بأعماله عن الدوغون.

(680) دونيز بولم (1909 ـ 1998)، باحثةٌ إثنولوجيةٌ وأنثروبولوجيةٌ فرنسية، تخصّصت بأفريقيا.

(681) فرانسين ندياية (1928 ـ 2011)، مؤرّخةٌ للفنّ وإثنولوجيةٌ وأستاذةٌ جامعيةٌ فرنسية.

(682) آني دوبوي، باحثةٌ إثنولوجيةٌ فرنسية، عضوٌ في المركز الوطني للأبحاث العلمية.

بعضٌ ممّن عرفتهم في متحف الإنسان ولا أزال أعرفهم، دراساتٍ بالغة الجدّية حول رمزية الباب والقفل عند الدوغون. بدايةً، سأستعير بصورةٍ خاصّةٍ من كالام غريول جزءًا من معرفتها بأقفال الدوغون في دراستها الرائعة عن **رمزية الباب والقفل** (*symbolisme de la porte et de la serrure*)، فهي تُظهر كيف أنّ مفهومَي «فتح» و«أغلق» عند الدوغون استُخدما بالنسبة إلى الباب بمعنى «إغلاق فتحة»، في حين أنّ القفل كان يفيد أساسًا في «فتح فضاءٍ مغلق». انطلاقًا ممّا يمكن أن يبدو تحصيل حاصلٍ أوّليًا، نجحت كالام غريول في إظهار كيف يعيّن مفهوما «فتح» و«أغلق» حركاتٍ قابلةً للعكس. يجب أن يُنظَر إلى الباب بوصفه مغلاقًا يمكن «فتحه بالمفتاح»، «داغالا» (dagala)، في حين يتمثّل دور القفل في «الإغلاق بالمفتاح»، «داغا» (daga). تشرح الباحثة الأنثروبولوجية المتخصّصة بالدوغون أنّ «الأمر يتعلّق إذًا بالمفهوم الأساسي عينه، حيث ينبع من اتّجاه الحركة فحسب فارقٌ [...] يقلب اتجاه الفعل». هكذا، يعبَّر عن الفتحة بنفي الإغلاق بما أنّ «فتح» مشتقٌّ من «أغلق»، بما أنّ «مفهوم الإغلاق يسبق مفهوم الفتح، ولا نستطيع في منطق الدوغون فتح بابٍ إلّا عندما يكون هذا الباب قد أُغلق مسبقًا». علينا ألّا ننسى في ما يخصّ الغرب، ولاسيّما في اللغة الفرنسية، أنّ الناس تحدّثوا في البداية عن مفهوم «فتح» (ouvrir) (1080) قبل أن يضيفوا إليه بعد قرنٍ من ذلك مفهوم «أغلق» (fermer) (1190)، لحماية هذا «المفتوح» الكبير والمفعم بالمخاطر... وهي تضيف أنّ الأقفال تقدّم بالتأكيد في منطقة الدوغون، كما في غيرها، منفعةً عمليةً تتمثّل في الاحتماء من اللصوص، لكنّ الأمر يتعلّق بتضمينٍ ثانوي. وعندما كانت تسأل الدوغون إن كانوا يفضّلون الفتح أو الإغلاق، كانوا يجيبونها: «الفتح أفضل من الإغلاق، لأنّ الفتح يعني إخراج الثروات». يجب أن نضيف إلى ذلك أنّ الموتى وحدهم محتبسون في الثقافة الأفريقية،

لأنّ «الأرض ابتلعتهم» ولأنّ «الباب» لن يُفتح أبدًا لهم. يتأكّد هذا الجمع بين الإغلاق والموت بطريقةٍ ما في حظر قطع أقفالٍ من خشب شجرة «سا سيلو» (sa selu)، وهي شجرةٌ لحاؤها أبيض وتُقرَن رمزيًا بالنساء اللواتي توفّين وهنّ حوامل أو أثناء الوضع، نساءٍ على صورة مخزن غلالٍ ضاع مفتاحه ولم نعد نستطيع استخراج محتواه. يبدو أنّ هذا هو السبب في أنّ الدوغون يطلقون على أولئك النساء التعيسات تسمية «النساء البيضاوات»، بيضاوات كالخشب الذي يُحظر أن يُقتطع منه قفلٌ تحت طائلة إضاعة المفتاح المؤكّدة. يمثّل مخزن غلالٍ مليءٌ وامرأةٌ حامل في عقلية الدوغون «صورة منتهى الكمال»، لكن على كلٍّ منهما أن يفتح في لحظةٍ ما ليمنح الحياة: الغذاء أو الطفل. لكن الفتحة تتعلّق بخلق العالم، بتفريخ «بيضة أمّا»[683] (œuf d'Amma). هذا يعني أنّه يجب تجاوز الفتحة من الداخل نحو الخارج: يولد الفرخ والطفل والغذاء للخروج من حيّزٍ مغلق. أمّا الأمر المعاكس، أي الدخول، «الدخول إلى البيت أو إدخال الحبوب إلى مخزن الغلال، فيعادل فعل تصميم». هكذا تستنتج الباحثة الإثنولوجية أنّ «تصميم الباب، المصراع الذي يغلق فتحةً، وكذلك تصميم المفتاح الذي يفيد في إخضاعه، ينحدران بصورةٍ طبيعيةٍ من هذه التصاميم العامة».

إذا ما وضعنا جانبًا هذا التعارض بين فكرة الفَتح وفكرة الإغلاق، فإنّ الباب بوصفه معبرًا واجتيازًا للعتبة هو في نظر الدوغون مثل عضوٍ تناسليٍّ مؤنّث (نشير إلى أنّ كون كلمة «باب» في اللغة الفرنسية مؤنّثةً ليس أيضًا بريئًا). يقال إنّ هذا الباب لبيت الدوغون والذي يفتح دائمًا إلى الداخل ومن اليسار إلى اليمين، حيث يوضع الجزء الثابت إلى

---

(683) بيضة أمّا: تذكر الأسطورة عند الدوغون أنّ أمّا السامي خلق بيضةً بداخلها إلهٌ على شكل سمكة سلّور، «نومّو» (Nommo)، وهي حيوانٌ يماثل الجنين البشري. تتكاثر هذه السمكة الإلهة بعد ذلك إلى أربعة أزواجٍ من الآلهة والإلهات.

اليمين، جانب الرجال، هو في واقع الأمر تعبيرٌ عن الجنسين في صنعه: استخدام لوحين مرتبطين واحدهما بالآخر ومتراكبين مثل رجلٍ وامرأة، وكذلك عبر المحورين، أحدهما مطمورٌ في الهيكل ـوهو الذكرـ لأنّه قريبٌ من «الخارج»، والآخر في الطرف «الداخلي»، وهو الأنثى. يقال إنّ ذلك بالنسبة إلى الدوغون يندرج ضمن منطقٍ مطلق، حيث يتبع الجزء المذكّر الأنثى مثلما «يتبع الرجل المرأة»، علمًا بأنّ «الرجل لا يستطيع أن يبقى من دون امرأة». تتعقّد الأمور قليلًا ويتأرجح قليلًا تعميم تفسيرٍ بنيويٍّ بالمعنى الحرفي، مثلما سار الأمر على نحوٍ جيّدٍ حتى الآن، عندما يقال لي إنّ «أبواب مخازن الغلال تفتح، خلافًا لذلك، نحو الخارج»، الأرجح أنّه يجب عليّ لتفسير ذلك العودة إلى الفكرة الأولى المرتبطة بالمفتوح والمغلق والمعبّر عنها أعلاه. وسوف أعود إليها، لكن بانتظار ذلك، أودّ أن أواصل هذه الزيارة للأقفال التي تحملها الأبواب، الحقل الدلالي الأعلى لجنسانيتنا جميعًا!

عندما ندخل من الشارع إلى بيت الدوغون، نجتاز الدهليز الذي تؤكّد كالام غريول أنّه لا يتضمّن قفلًا، بل نوعًا من الغلَق الذي يُدعى «لوري» (lori)، أي «مولِج». سوف نفهم التلميح الرجولي بامتياز، ونلاحظ الدلالة الشديدة الوضوح على العضو الجنسي المذكّر. ربّما يفسّر ذلك أنّه يجب ألّا يُغلق باب الدهليز أبدًا إغلاقًا نهائيًّا، إذ يجب التمكّن من التعامل مع اللوري من الخارج لأنّه «يمثّل بصورةٍ أكثر نوعيةً العضو الجنسي الخاصّ بربّ الأسرة»، يمكن تفسير إغلاقه بوصفه تعبيرًا عن عجز هذا الأخير... أمّا بالنسبة إلى النساء، فيتمّ الحديث بخاصةٍ عن البيوت أو الغرف التي تطلّ على الباحة الداخلية، والتي يصل المرء إليها بعد تجاوز بابٍ أوّل غالبًا ما يكون مقفلًا بقضيبٍ معكوف «لوري»، يمرّر في ثقبٍ في الحائط ويُدفع لإغلاق الباب. يتمثّل الهدف الرئيس لإغلاق هذا الباب في منع الحيوانات من الدخول، لكنّه كثيرًا ما يثبّت في وضعٍ شديد الانخفاض للسماح في

المقابل للأطفال الصغار بالتعامل معه بمفردهم. وبالعودة إلى النساء، تُغلَق أبواب غرفهنّ وبيوتهنّ بأقفالٍ غير مزخرفة، مصهورةٍ في الباب وغير مرئية تحمل اسم «دورو كونو» (duro kunu)، أي «رمي ووضع». أمّا القفل، وهو «بطن الغرفة» الذي لا يكاد يُرى، فربّما يذكّر بالطابع السرّي للعلاقات الليلية بين الرجل والمرأة، أو بالأحرى بتحفّظ تلك العلاقات.

ليس بوسعنا التحدّث عن العبور من دون التحدّث عن العتبة، وهي عند الدوغون تحظى بأهميةٍ خاصّةٍ على ما يبدو، فهم يقولون إنّ «كلّ ما يدخل إلى البيت، الخير كما الشر، يمرّ بها». العتبة متلصِّصٌ لا يمكن تجنّبه، ولا يندم، وهي في لغة الدوغون تعبيرٌ عن الصبر، وتقع عليها مهمّة التقاط الشر وتحمّله وطرده من البيت، كما أنّها ـكما في كلّ الأماكنـ حليف الأبواب الأزلي في الدفاع عن الأشياء، وإن كانت تبدو هنا سلبية أكثر ممّا هي في ثقافاتٍ أخرى، لكنّها هي التي تلتقط ما يمرّ، سواء أكان طيّبًا أم شريرًا. في بناء العتبة والأبواب، تتدخّل نوعية جوهر الأخشاب المستخدمة تدخلًا مباشرًا: يُصنع باب الدخول من خشب اليولو (yulo)، باركيا بيغلوبوزا (parkia biglobosa)، وهو خشبٌ نفيسٌ يلعب دورًا في الطقوس المقامة على شرف الأسلاف، في حين تُصنع الأبواب الداخلية من خشب الشيا. كذلك، ولئن كان أيّ نوعٍ من الخشب القاسي يفي بالغرض في تشييد العتبة الرئيسية الخاصّة بالبيت، فإنه يلزم لصنع عتبة المزار خشب «فيكوس كابنسيس» (ficus capensis)، «غا غويو» (ga guyo)، «شجر التوائم»، لأنّه يمتاز بتقديم ثمارٍ عبر الجذع والأغصان، ويمنحه مبدأ التوأمة طابعًا مفيدًا يجعله حارسًا على نحوٍ مزدوج. أمّا استخدام العتبة وطرق الدخول، فهي مثيرةٌ للاهتمام: ينزع من يمرّ أمام مزار «البينو»[684] (binu) ما

(684) البينو: هيكلٌ ديني لدى الدوغون يُعدّ موضع طاقةٍ روحيةٍ عظيمةٍ، لأنّ أرواح الأسلاف تسكن فيه.

يعتمره على رأسه ويلامس العتبة، وهو يتلو ابتهال تحيةٍ للسلف، واضعًا بذلك نفسه تحت حماية عائلته. وعندما يدخل المرء الباحة، يخلع على العتبة حذاءه الأيسر بهدف طرد الشرّ الذي يمكن أن يلحق به، فيموّه الآثار بطريقةٍ ما، ثمّ يخلع ما يعتمره ويقوم بالحركة عينها عندما يدخل بيتًا لكن باختلافٍ بسيط، إذ طالما أنّ الأمر يتعلّق ببيت العائلة، فهو يذكر لدى دخوله وبدافع الاحترام شعار الأسلاف المؤسّسين لـ«البيت الكبير».

وبالعودة إلى الأقفال المصنوعة أساسًا لفتح الأشياء المغلقة، أي لفكّها نوعًا ما، علينا ألّا ننسى أنّ كلًّا من هذه القطع يمثّل عضوًا، وأنّ المجمل يصنع الجسم: رأس وعنق وبطن وقدمان وسواها، وذلك بطبيعة الحال قبل أن يهتمّ بها المحلّلون النفسيون. وقد سبق أن أشرتُ إلى أنّ الدوغون يقولون إنّ جسم القفل أنثى، فهو أجوف ولذلك يسمّى «البطن»، أمّا لسان القفل فهو ذكرٌ، ويقلّد الفعل الجنسي بولوجه في «البطن». وإذا أخذنا هذا الأمر بالحسبان، فمن الطبيعي أن يمثّل قفلٌ مغلقٌ امرأةً حبلى، وأن يكون فتحه معادلًا لولادةٍ، وأن تعني «تا إي» (ta i)، أي المفتاح بلغة الدوغون، «طفل الباب». علاوةً على المحلّلين النفسيين، تُسعِد الأقفال الباحثين الأنثروبولوجيين البنيويين[685] (anthropologues structuralistes)، من حيث إنّ تصميم هذه الأشياء الشديدة الخصوصية ضمن الحدود التي أوردتها توًّا، لا يخصّ الدوغون فحسب، وبفعل ذلك يمتاز القفل المُجَنْسَن بقوّةٍ والمليء بالمعاني المزدوجة بالتعقيد. وصف الباحث الإثنولوجي زاهان[686] (Zahan) في

(685) الأنثروبولوجيون البنيويون: نسبةً إلى الأنثروبولوجيا البنيوية (anthropologie structurale)، وهي مدرسةٌ في الأنثربولوجيا تقوم على فكرة كلود ليفي شتراوس القائلة بأنّ جميع الثقافات تحتوي على بنًى عميقة غير متغيّرة.

(686) دومينيك زاهان (1915 ـ 1991)، إثنولوجيٌّ فرنسيٌّ متخصّصٌ بأفريقيا.

عملٍ إثنوغرافي أجري في خمسينيات القرن العشرين وسط الموسي[687] (Mossis)، أقفالَهم بعباراتٍ ليس فيها أي التباس: «يشير كلّ قفل بابٍ على الصعيد المنزلي إلى الاتّحاد الجنسي بين الرجل والمرأة، إذ عندما يكون الباب مغلقًا، وبما أنّ لسان القفل («كولو۔ ميوريه» koulou-myoré، ويعني حرفيًّا «قضيب القفل») محتجزٌ في ثلم علبة القفل («كولوكينديه» kouloukindé، أي «مهبل القفل»)، فالأمر مشابهٌ للذكر الذي يلج المرأة. الرؤوس المدبّبة الصغيرة المتدلّية في فجوات لسان القفل هي مثل أعصاب الخصيتين في حال الارتخاء المميّز للجماع، الفجوات هي الأكياس، والرؤوس المدببة هي أعصاب الغدد. هذا الاتّحاد حَبَلٌ تتشكّل ثمرته من عمليات ذهابٍ وإيابٍ عبر فتحة علبة القفل. يتمتّع المفتاح ضمن هذه الرمزية بموقعٍ شديد الخصوصية، فهو يُدعى ابن الباب، «كولونبيلو» (kolounbilo). وبما أنّ وظيفته تتمثّل في السماح بدخول المسكن والخروج منه، فهو في الوقت عينه ثمرة اتّحاد الذكر والأنثى، والعنصر الذي يستثير الفصل بين الجنسين».

لإنجاز جميع هذه الشخوص الصغيرة المنحوتة نحتًا رائعًا، توجد أماكن إنتاج، ورشاتٌ يبدع فيها فنّانون نحّاتون وحدّادون ينفّذون حسب الطلب، ويرتبط هذا الإنجاز بطبيعة الشخص وموقعه في المجتمع، كما هي الحال دائمًا مع هذا الإبداع المتميز في إعادة النسخ، وهو إبداعٌ منمنمٌ ودقيقٌ دقّةً لا تُصدّق. ليس هنالك أدنى شكٍّ في أنّ الأشكال لا تنفّذ أبدًا كيفما اتفق، وأنّ لها دلالةً حتى في أصغر تفاصيلها. كما أنّ ثمة إجماعًا عامًّا على أنّ القفل عند الدوغون ينفَّذ بحسب الشخص الذي

(687) الموسي: شعبٌ يعيش في غرب أفريقيا، ولاسيّما في بوركينا فاسو، وفي بعض المناطق المحاذية من البلدان المجاورة (ولاسيّما غانا). لغتهم هي الموريه (moré) ويمارسون عددًا من التقاليد العائلية والجماعاتية، وتستند صلات القرابة بينهم إلى منظومةٍ معقّدةٍ من التحالفات الزواجية.

طلبه، إذ نجد سمات هذا الأخير في القفل عينه الذي سيزيّن ويفتح كلّ بابٍ في بيته. يُظهِر التحقيق المورفولوجيّ أهمّية الحكم الجمالي عند الدوغون، لكن مثلما اقترح المتخصّص في أفريقيا جاك ماكيه[688] (Jacques Maquet) في ندوةٍ عُقدت في متحف الإنسان ركّزت على الأقفال الأفريقية، «يجب الخروج من التحديدات الرمزية المفرطة قليلًا في كمالها والتي أعلنها جيلٌ من الإثنولوجيين، ويجب التخلّص من التحليل المنهجي للأشكال بهدفٍ وحيدٍ هو محاولة صنع طبقاتٍ من الأشياء والأشكال لا تقلّ صرامةً عن لغة، وليس لرغبتنا الشمولية في التصنيفات أهمية إلّا بالنسبة إلينا». الهدف من ذلك هو شرح عدم قدرتنا على إخفاء عمليات التصنيع والخلق والابتكار التي يقوم بها الفنّانون ـ الحرَفيون المعاصرون في مالي أو غيرها.

يبدو أنّه من بين أكثر الأعمال انتشارًا بين الدوغون، لا يدين شكل التوائم الذي سبق لي ذكره بشيءٍ لأحد، إذ إنّ تواتر هذا الشكل في الأقفال المعدّة لمخازن الغلال والتي يضمن محتواها بقاء الجماعة، يذكّر بالزمن الأسطوري الذي كانت فيه جميع الكائنات تأتي اثنين اثنين، ذلك الزمن الذي كان الإنسان فيه يمتلك أرواحًا توائم متغايرة الجنس، وحيث كانت التوأمة تبسط على الجميع مفعول توازنٍ مفيد. يذكر متخصّصون بأنّ بعض الأشكال يحكي جزءًا من أسطورة الخلق عند الدوغون، الولادة الفريدة لابن إله السماء والأرض، وهو كائنٌ من الفوضى والهباء، وتبعَ ذلك ولادة زوجٍ أدخل النظام وتصرّف كمثالٍ على تنظيم العالم والمجتمع. تتربّع شخصياتٌ تمثّل المبدأين الموجودين معًا داخل كلّ كائنٍ بشريٍّ بوضعية الوقوف أعلى القفل، وتبرز على الصندوق، وهو صندوقٌ مزيّنٌ بأشكالٍ رُسمت بخطوطٍ

(688) جاك ماكيه (1919 ـ 2013)، إثنولوجيٌّ وأنثروبولوجيٌّ بلجيكي متخصّصٌ بأفريقيا.

أفقيةٍ على الروافد وتلمّح إلى مبدأ الإخصاب، أي الماء، وكذلك إلى النَّسْج وإلى مسار الكلام. وعلى أساسه، يستدعي ثَقب مربّعٍ ذكر الفضاء، كما يقال إنّه تجب قراءة السطور المحفورة بوصفها تمثيلاتٍ للجهات الأربع، إلّا إذا كانت تعبيرًا عن تقاطعات الطرق التي يذهب التوائم لاغتراف الماء منها. لست أدري لماذا مسّ شعوري بصورةٍ خاصةٍ هذا القفل الغريب الذي يعلوه شخصٌ معزول، ولو كان لديّ محلّلٌ نفسيٌّ لشرح لي ذلك الأمر بثلاث كلمات! يبقى أنّ هذا القفل الذي صنعته «دارٌ كبيرة» يعلوه الإله «أمّا سيرو» (Amma Sérou) بِكر الأسلاف، ويعني ـ وفق ملاحظة كالام غريول ـ «طفلًا وُلد من دون أن ترى أمّه طمثًا بعد ولادةٍ سابقة. يعدّ مثل هذا الطفل توأمًا لمن وُلد قبله مباشرةً، وتكاد ولادته تكون مصدرًا للمنافع بمقدار ما هي ولادة التوائم». إذا ما وضعنا جانبًا الـ«كونيو» (kunyo) (بكر الأسلاف) بوصفه شخصيةً مفردةً، فإننا نعرف أيضًا اليبان (yeban) الذين تشير إلينا الباحثة الإثنولوجية في ملاحظةٍ أخرى بأنّهم «أصحاب الأرض القدماء، ويسكنون تحت الأشجار ذات الأغصان الطويلة والأجمات والكهوف، ويجلبون الخير عادةً». في معرض الدوغون الأخير الذي أقيم في العام 2011 في متحف رصيف برانلي (Branly)، شاهدنا عددًا من التماثيل الصغيرة التي ترفع ذراعيها نحو السماء، وهي حركاتٌ وشخصياتٌ كثيرًا ما تمثَّل على أقفال مخازن الغلال أيضًا، مثل ذلك الشيخ الملتحي الجليل الذي يطلب بحركته التوسّلية من «أمّا سيرو» أن يرسل إليه مطرًا. يتأكّد هذا الطلب للمعروف بتمثيل تمساحين على صندوق القفل يحيط بهما شكل «الخطوط ذات التقاطعات المتناوبة» الذي يُقال إنّه يستذكر المطر، وكذلك على لسان القفل، حيث توجد علاوةً على ذلك أشكالٌ على شكل حرف (V) تمثّل ترقوتي «أمّا». بطبيعة الحال، كتاب الحيوانات ممتلئ، مثلما يشهد على ذلك وجود

الحصان والظبي والحصان ـ الظبي والغزال والطيور الخوّاضة[689] أو الدواجن، وهي مجرّد حرّاسٍ لمخازن الغلال تُربط بالميثولوجيا وقادرةٌ على إغواء أولئك الراغبين في أن يأخذوا خلسةً بعضًا من ثمار المحاصيل وخداعهم وإخافتهم، لكنّها أيضًا فاعلةٌ في الخلق وبطلاتٌ في المسخ. لقد احتفظتُ للنهاية بـ«القفل السلحفاة»، ليس لأنّ إغلاقه أبطأ، بل لأنّني تلقّيت نسخةً منه هديةً، وبالتالي استدعيتُ التسميات الواسعة التي وضعها زملائي لمعرفة أيّ ضروبٍ من الحماية يضمنها لي قفل«ي». عندما ينظر المرء إلى شكله، يرى أنّه ليس تمامًا سلحفاةً أرضية (àgunguru)، ولا تمامًا سلحفاةً مائية (kiru). أيًا كان الأمر، إنّه تقليدٌ منسجمٌ وجيّد الصنع يبدو أنّه لم يفتح مخزن غلالٍ واحدًا في حياته، لكنني مقتنعٌ بأنّه على الرغم من ذلك يحرس أهل البيت إذا عُلّق على جدار الصالون. وإذا ما أمعنّا النظر في سلحفاتي، سنرى أنّ رأسها مثلثٌ تمامًا، في حين يميل جسمها للاستدارة ودرعها مثلّمٌ على صورة الحقول المحروثة، بينما يحمل اللسان حقًّا تلك الحزوز على شكل حرف (V) والتي تمثّل ترقوتَي الإله «أمّا». ليس لديّ سببٌ لعدم الاقتناع بأنّ سلحفاتي صُنعت على سبيل الشاهد انطلاقًا من بقايا مشيمة الأرنب، وأنّها «حارسة العالم»، ولا بأنّ لها علاقةً ما بطول العمر والشمس، وأنّها تستطيع أن تحرس صحّة الشيخ الملتحي الجليل الذي يروق لها لتجنيبه التسمّم، ويستطيع المرء أن ينزّهها أو يجرّها بعد ربطها بخيطٍ حول الحقول (وقد رأيت ذلك بنفسي)، لكنّي كنت أجهل أنّ الأمر ينتهي بالسلحفاة ـ القفل المسكينة إلى أن يتمّ التخلّي عنها في حال انتُهك المحظور، مربوطةً بشجرةٍ «كي يرى الإله أمّا» أنّ الشعيرة قد نُفّذت.

---

(689) الطائر الخوّاض أو المخوّض: طائرٌ لاحم، يخوض الماء من أجل الغذاء.

هكذا، وعلى الرغم من أنّ أدوات «الفتح المغلِقة» و«الإغلاق الذي يفتح» عند الدوغون قد تعرّضت للنهب على يد المستكشفين، وللبيع على أيدي القرويين أنفسهم، فهي سوف تبقى تعبيراتٍ قويةً عن ثقافة الدوغون أو الموسي طالما واصل منتجوها الاستلهام من ميثولوجيا هذه المجتمعات ولو كانت الأغلاق في الواقع اليومي قد أطاحت بها عن عرشها على أبواب مخازن الغلال.

2

أبواب آسيا

«كثيرًا ما يحدث أن أتوقّف أمام شوجي[690] (shôji) لأتأمّل مساحة الورق المنارة دونما إبهار، في صالات الأديرة الهائلة على سبيل المثال، تَخفت الإنارة بسبب المسافة التي تفصلها عن الحديقة، إلى درجة أنّ عتمتها الشاحبة تتشابه على نحوٍ محسوسٍ صيفًا شتاءً، وعندما يكون الجوّ جميلًا أو غائمًا، صباحًا أو ظهرًا أو مساءً. أمّا الزوايا المظلّلة التي تتشكّل في كلّ مقصورةٍ في إطار الشوجي ذي الهيكل المتراصّ، فتبدو أشبه بآثارٍ مغبرّة، وتدفعنا للاعتقاد بأنّنا أمام تشرّبٍ للورق لم يتحرّك منذ الأزل. في هذه الأوقات، يحدث أن أشكّ في واقع ضوء الحلم هذا، وترفّ عيناي. فهو أشبه بضبابٍ خفيفٍ يوهن قدراتي البصرية.

وكما لو أنّ انعكاسات الورق المائلة إلى البياض عاجزةٌ عن تخفيف الظلمات الدامسة في التوكونوما[691] (toko no ma)، فهي ترتدّ بطريقةٍ ما على هذه الظلمات فتكشف عالمًا ملتبسًا يختلط فيه الظلّ والضوء. هل اختبرتَ يومًا، أنت يا من يقرؤني، لحظة دخول إحدى تلك الصالات الإحساسَ بأنّ النور الذي يطوف وينتشر في الحجرة

---

(690) شوجي: في العمارة اليابانية التقليدية، حاجزٌ أو بابٌ مصنوعٌ من ورق الأرز (يدعى باليابانية واشي، أي «الورق الياباني» شبه الشفّاف)، وهو مركّبٌ على مجرًى خشبي.

(691) توكونوما: مرتفعٌ صغيرٌ في أرضيةٍ تُعرض فيها أعمالٌ فنّيةٌ أو نباتات.

ليس نورًا عاديًّا، وبأنّه يمتلك صفةً نادرة، ثقلًا خاصًّا؟ هل جرّبت يومًا هذا النوع من التوجّس الذي يشعر به المرء في مواجهة الأزل، كما لو أنّ الإقامة في هذا الحيّز تجعل المرء ينسى مفهوم الزمن، كما لو أنّ السنوات تمضي من دون أن يتنبه المرء، إلى درجة الإحساس بأنّه لحظة مغادرته سيصبح فجأةً شيخًا أشيب؟

الآن، اذهب إلى الحجرة الأبعد، في قاع واحدٍ من تلك المباني الواسعة، تلتقط القواطع المتحرّكة والسواتر المذهّبة الموضوعة ضمن عتمةٍ لا يخترقها أبدًا أيّ نورٍ خارجيٍّ، الذروةَ القصوى لضوء الحديقة البعيدة التي لا أعرف كم من الصالات يفصلها: هل لمحت يومًا انعكاساتها غير الواقعية كحلم؟ تنشر هذه الانعكاسات الشبيهة بخطّ الأفق لحظة الغسق في العتمة المحيطة، نورًا شاحبًا مذهّبًا، وأشكّ في أنّ الذهب يستطيع في أيّ مكانٍ آخر أن يحظى بجمالٍ جارحٍ أكثر من هذا».

Tanizaki Junichiro[692], *Éloge de l'ombre*, 1933

(692) جونيشيرو تانيزاكي (1886 ـ 1965)، روائيٌّ يابانيٌّ بارز.

أبوابٌ شديدة التوجيه

يقول مثلٌ صيني: «الباب الأفضل إغلاقًا هو ذاك الذي يمكن تركه مفتوحًا». وبالفعل، يبلغ من تعقيد فكرة الباب في الصين أنّنا كثيرًا ما نتساءل إن كان ثمة معنًى لتزويده بقفل. يذكّر مارسيل غرانيه[693] (Marcel Granet) في كتابه **الفكر الصيني** (*La Pensée chinoise*)، بالأهمّية التي يحوزها في نصوص الكهانة موضوع «الذهاب والإياب» المرتبط بفكرتي «الدخول» و«الخروج». ويضيف: «لا نزال نعلم أنّ شعار الاعتكاف والحياة الكامنة هو الـ«ين»[694] (Yin)، في حين أنّ الـ«يانغ» (Yang) يرمز إلى التجلّيات الفعّالة كافّة». ها نحن أمام بابٍ، أو بالأحرى أمام ما يصنع بابًا، من حيث إنّ الباب لا يمكن أن يوجد من دون توازن مبدأي الدخول والخروج حيث تتجمّع الأشياء جميعًا. في واقع الأمر، الباب هو الشعار الأول للين واليانغ، حيث يذكّر الين بالشتاء والإغلاق وكذلك بالمبدأ الأنثوي، ويرتبط اليانغ بصورة بابٍ يُفتح ويستدعي فكرة التوليد والإنتاج والقوّة. كان يُرمز لليانغ بفتح أبواب الأكواخ في الربيع للسماح للفلاحين بالذهاب لقضاء الصيف وهم يعملون في الحقول، في حين أنّه كان على النساء من العنصر ين، الهروب من الشمس وعدم العمل إلّا في الداخل، في الأماكن المظلمة والمستترة. يذكّر غرانيه بأنّ تعارض الجنسين كان القاعدة الأساسية في التنظيم الصيني، ويشدّد على أنّ «الجنسين كانا يخضعان لانضباطٍ متعاكس، وكان مجالاهما هما الداخل 'ني' (nei) والخارج 'واي' (wai)،

---

(693) مارسيل غرانيه (1884 ـ 1941)، إثنولوجيٌّ وعالم اجتماعٍ فرنسي اعتمد المناهج السوسيولوجية في دراسة الصين.

(694) الين واليانغ: علامةٌ تشير إلى كيفية عمل الأشياء في الفلسفة الصينية القديمة، وهي عبارةٌ عن دائرةٍ تمثّل «كلّ شيء» بينما يمثّل الشكلان الأبيض والأسود ضمن الدائرة التداخل بين طاقتين تؤدّيان إلى حدوث كلّ شيءٍ في الحياة، طاقة الين «الأسود» وطاقة اليانغ «الأبيض».

وهما أيضًا مجالا الين واليانغ، الظلّ والنور. هكذا تجلّى التعارض بين الجنسين أسطوريًا في التعارض بين الين واليانغ اللذين يدينان بأهميّتهما الرمزية لواقع أنّهما يعرّفان قبل كلّ شيء مقولة الجنس». إذًا، يجب فهم الباب بوصفه شعارًا للصلات الجنسية مثلما يعرّفه مقطعٌ من **يي كينغ**[695] (*Yi-king*) يتعلّق بزواج البشر، قدّم الصيغة التالية التي أصبحت قولًا مأثورًا صينيًّا شهيرًا: «يخلط الذكر والأنثى جوهريهما (**تينغ** *ting* = السوائل الجنسية) وتنتج الكائنات العشرة آلاف». يشير روبرت فان غوليك[696] (Robert Van Gulik) في كتابه **الحياة الجنسية في الصين القديمة** (*La Vie sexuelle dans la Chine ancienne*) إلى أنّ التاويين[697] (Taoistes) «يمارسون بشبقٍ القواعد الفاحشة الواردة في **الكتاب الأصفر** (*huang shu*) (*Livre jaune*)» الذي يتضمّن «فتح باب الحياة»... حيث يلتقي 'بيك' (Pic) و'فالون' (Vallon) في 'باب اليشب' الثمين من دون أن ينسى القول إنّه يجب عدم الإفراط فيه، وإنّ الباب الذي منحك الحياة يمكن أن يكون أيضًا الباب الذي يؤدّي إلى موتك»، أي بعبارةٍ أخرى: «الساق المتناسقة والمشدودة وبوصات قدم لوتوس الذهب[698] (Lotus d'Or) الثلاث هي المعزقة والمعول اللذان يصنعان للرجل رابيةً مأتمية». باختصار، في هذا المجال، «لا تدوم الثروة والقوّة أكثر ممّا تدوم فقاعاتٌ على الماء»، واحترام توازن الين واليانغ أمرٌ حسنٌ في كلّ مناسبة.

---

(695) يي كينغ أو إي شينغ: كتاب التغيّرات، وهو أحد أبرز وأهم الكتب في التراث الفلسفي الصيني.

(696) روبيرت فان غوليك (1910 ـ 1967)، مستشرقٌ ودبلوماسيٌّ وكاتبٌ هولندي.

(697) التاويون: نسبةً إلى التاوية، وهي مجموعة مبادئ مشتقة من المعتقدات الصينية القديمة تنقسم إلى قسمين: فلسفي وديني، وتعدّ الثانية بعد الكونفوشيوسية من حيث الانتشار في المجتمع الصيني.

(698) اللوتس الذهبي: شجرة موزٍ قزمة، لها زهرةٌ ذهبية اللون.

الآن، يدلّ وضع بابٍ بسيطٍ على أنّ لدينا بيتًا، ويقتضي بناء بيتٍ في الصين حساباتٍ واحتياطاتٍ ليس بوسع الغربيين الذين يستندون إلى الملاحظة المباشرة والحدس التقليدي للمكان تكوين فكرةٍ عنها، ففضلًا عن الأرقام التي يتعامل معها الصينيون كالشعارات، ما يسمح لهم بتبرير المعرفة وبربط أفعالهم بمعرفةٍ إجمالية، يخضع تأسيس بيتٍ صيني إلى القواعد المعقّدة الخاصّة بما يسمى الـ«فينغ شوي»[699] (*feng shui*)، أي «الريح والماء»، لكنّها تترجم خطأً، على مثال تقنيات الكهانة العربية، بعبارة «الكهانة بالاقتراع»[700]. تعرّف **الموسوعة الصينية**[701] (*Encyclopaedia Sinica*) الـ«فينغ شوي» بأنّه «فنّ جعل أماكن إقامة الأحياء والأمـوات متكيّفةً، بحيث تتعاون وتتناغم مع التيارات المحلّية للنفَس الكوني» الناتج عن التعارض بين الين واليانغ، ويستفيد مصممو الديكور اليوم من هذا التعريف. يجب أن يربَط الفينغ بصورة وردة الرياح، أي بالجهات الأربع. وتحكي قصةٌ كيف كان يجب على الزعماء عندما يؤسّسون عاصمةً أن يبدؤوا بتحديد تقاطع الطرق التي ستأتي منها القبائل من الجهات الشرقية الأربـع. كان عليهم أن يراقبوا تناوب الظلال والأضواء (الين واليانغ) ويضعوا مزولةً شمسية، إذ ينبغي بناء عاصمةٍ لعاهلٍ عظيمٍ في المكان الذي لا يكون فيه للمزولة أي ظلٍّ في منتصف الصيف. ويمثّل هذا المكان في الصوفية السياسية الصينية مركز الكون، «هناك حيث ترتفع شجرةٌ رائعةٌ تجمع 'الينابيع التاسعة' مع 'السماوات التاسعة'، 'قاع' العالم مع 'ذروتـه'. آنذاك،

---

(699) الفينغ شوي: فلسفةٌ صينيةٌ نشأت منذ حوالى 4000 عام، وهي فنّ التناغم مع الفضاء المحيط وتدفّقات الطاقة من خلال البيئة والتصالح مع النفس.

(700) الكهانة بالاقتراع: عِرافةٌ باستخدام التراب والغبار والحجارة أو نقاطٍ توضع كيفما اتفق وتُجمع لتشكيل صور.

(701) الموسوعة الصينية: موسوعةٌ عن الصين والمواضيع المتعلّقة بالصين أصدرها في العام 1917 المبشّر الإنكليزي صموئيل كولينغ.

وآنـذاك فحسب، تمتصّ 'الوحدة' المركزية التناقضات والتناوبات كافّة، الصفات والعلامات كافّة». وهذا يفسّر وجوب أن يرتفع كلّ بيتٍ حول محورٍ صارمٍ ووجوب أن تُقام في مركز أكثر البيوت تواضعًا بئر تصريفٍ تُوضع بكلّ دقةٍ تحت فتحةٍ في ذروة السقف. عبر هذه البئر، تدخل المياه في الأرض حيث يوجد عالم الموتى، وعبر ثقب السقف، يصعد دخان الموقد وتستطيع الأرواح الالتحاق بالغيوم الحاملة للنار في السماء. في العالم الأسطوري الصيني، استُكشفت السماء بكثرةٍ وأُسكنت. ويحكى أنّه «فوق الهوّة الفاغرة، تتدرّج أبواب السماوات التسعة وتحميها ذئابٌ وكائنٌ له تسعة رؤوس، قادرٌ على انتزاع الأشجار عبر تسعة أميال. يمسَك بأولئك الذين يريدون عبور هذه الأبـواب ويعلّقون ورؤوسهم إلى الأسفل، ويرمى بهم في الهاوية. قلائل هم الأبطال الذين يستطيعون فرض أنفسهم على بوّاب السيّد السماوي»... يبقى أنّه يجب ألّا يخلّ بناء أيّ بيتٍ في الحيّز بنظام الكون، وأنّه يجب دائمًا تجميع الطاقات التي تكشفها الأرض في مركز. ثمة علاقةٌ واعتمادٌ بين الإنسان، ازدهـاره وصحّته وثروته ومصيره، وبين الموقع الذي يسكنه فردٌ ما، «كلّ علاقةٍ يتوسّط فيها الأموات الذين كانوا يُدفنون في الماضي تحت المنزل والذين تشكّل عظامهم بؤرة الطاقة التي ينقلونها إلى ذرّيتهم». وهذا يفسّر أنّ كلّ صينيٍّ يولي أهميةً معتبرةً لمكان سكنه تفوق الأهمية التي يوليها لموقع قبر أسلافه، إلى درجة أنّ المتخصّصين بكلّ ما يتعلّق بالصين يتساءلون حول ما إذا كان الفينغ شوي يرتبط أساسًا بسكن الأموات أكثر من ارتباطه بسكن الأحياء الذي لا يمكن العيش فيه إلّا بوصفه معبدًا للأسلاف.

تقليديًا، يسعى الصينيون إلى توجيه المنزل صوب الجنوب وإسناده إلى مرتفعٍ من الأرض. غالبًا ما تؤوّل المرتفعات بوصفها تنّيناتٍ تنقل أوردتها تدفقات الطاقة التي ينبغي التقاطها بوصفها نبضاتٍ وتشهد

على حضور أنفاس التنّين. سوف يسعى كاهنٌ بالاقتراع باستخدام بوصلته للعثور على الاتجاه الصحيح المعيّن لجسم التنّين كي يجد موضع البيت الذي سيُبنى على «حلقة التنّينات الاثنين والسبعين». ستوجّه البوّابة نحو عنصرٍ يجب ألّا يعرّض البيت لمخاطر الأضرار. سوف يختار على سبيل المثال توجيه البيت إلى جبلٍ لن يضرّ عنصره بموقع «التراب». وفي هذه الحالة، سوف يجعل الباب يُفتح نحو الجبل «الماء»، متجنّبًا بعنايةٍ أن ينظر إلى الجبل «الخشب» الذي يتضمّن، وفق قاعدة التدمير، خطرًا معترفًا به، وهو أنّ «الخشب يدمّر التراب». سوف يحرص أيضًا على أن ينفّذ «مخرج الماء» عبر ثقبٍ في الزاوية الشرقية للباحة وأن تُنجز بِركةٌ بوصفها «قصرًا مضيئًا» (ming tang)، مكلّفًا بالتقاط الطاقات المفيدة وتكثيفها. وبما أنّ الماء يُربَط بالمال، فيجب احتجازه، وكما يقول الباحثان الأنثروبولوجيان صوفي وبيير كليمان[702] (Sophie et Pierre Clément) في دراسةٍ أجرياها عن تشييد بيتٍ في تايوان جنوب تايبيه[703] (Taipei)، «من الجيّد أن يتغلغل الماء إلى الموقع عبر دربٍ متعرّجٍ، 'بابٍ' تمكن رؤيته، وفي المقابل يجب إخفاء المكان الذي يخرج منه الماء، 'مخرج المياه'، عن نظر من يقف في مركز الموقع. [...] يكون الموقع صالحًا عندما تكون خلفه سلسلةٌ من الجبال، مثل 'سلالةٍ من الأسلاف': الأب والجد ووالد الجد...». تتمثّل الفكرة المركزية في أنّ على الكاهن بالاقتراع تشييد مبناه في المشهد مثلما يغرز واخزٌ بالإبر إبرته في نقطةٍ تتركّز فيها الطاقة. وفي حال لوحظ

---

(702) صوفي كليمان شاربنتييه، مهندسةٌ معماريةٌ فرنسيةٌ حائزةٌ على شهادة الدكتوراه في الإثنولوجيا، متخصّصةٌ في العمارة في جنوب شرق آسيا.

بيير كليمان (1941 ـ)، مهندس معماري فرنسي وباحث إثنولوجي، كما أنّه باحثٌ في معهد البيئة ومن ثمّ في مركز الدراسات والأبحاث المعمارية، وهو يمضي أغلب وقته في آسيا.

(703) تايبيه: عاصمة تايوان السياسية والثقافية والاقتصادية.

وجود طاقةٍ ضارّة، ينفّذ مدخلٌ ملحقٌ أو يقام أمام الباب الموجود دربٌ متعرّج، على طرفيه نباتاتٌ كثيفةٌ تبطّئ تدفّق الطاقة. وبالفعل، يعتقد الصينيون أنّ الـ«كي»[704] (Chi) هو الذي يمرّ أوّلًا بالباب، وأنّه كلّما دخل أحدٌ إلى بيتٍ أو خرج منه، يجب عليه أن يتيح للـ«كي» أن يمرّ من دون أن يمسّ بأذى. وعندما توجد عدّة مداخل، فإنّ مختلف الكيات في الجهات الرئيسية تختلط. كما تتمتّع المواد المستخدمة لصنع الباب بأهميةٍ كبيرة، حيث يشيع الخشب والمعدن أكثر من غيرهما، لكنّ الصُّفر[705] المصقول واللامع يمكن أن يمتاز بأنّه يعكس الطاقات على نحوٍ أفضل ويمرّرها. أمّا توجّه الباب، فمن المفضّل أن يفتح باتجاه الشرق أو الجنوب الشرقي أو الجنوب إن كان مصنوعًا من الخشب، وباتجاه الغرب عندما يكون مصنوعًا من المعدن. الشمال هو الاتجاه الأقلّ مناسبةً لمرور الـ«كي»، على الرغم من أنّه يمكن تدارك هذا الأمر عبر دهان الباب بلونٍ أحمر كثيف. الشرق ملائمٌ لمن هم أصغر سنًّا، أو لأولئك الذين يبدأون حياتهم المهنية أو يقلبون صفحةً من حياتهم. لا ضرر في أن يكون الباب أخضر اللون أو بلونٍ أبيض حليبي. والاتجاه المثالي لباب الدخول هو الجنوبي الشرقي، بحيث يُعزَّز بدهانٍ أخضر غامق أو أزرق، فهنا تكون التبادلات الاجتماعية أفضل ما يكون. بالنسبة إلى الأشخاص النشطين جدًّا والمتحمّسين أو للأشخاص الهادئين بإفراط، يكون الجنوب مع بابٍ أسود مناسبًا. أمّا توجّه بابٍ رماديٍّ أو أحمر باتجاه الجنوب الغربي، فيسهّل التناغم العائلي وشعور الأمومة والصداقة. وتتوافق فتحةٌ باتجاه الغرب مع عائلاتٍ يكون الوالدان فيها

---

(704) الـ«كي»: مبدأ فعّال يشكّل جزءًا من أيّ شيءٍ حيّ. وترجمته الحرفية: «النفَس» أو «الهواء» أو «الغاز»، أو «الطاقة المادّية» أو «قوّة الحياة» أو «تدفّق الطاقة»، وهو المبدأ الأساسي في الطب الصيني التقليدي وفنون القتال.

(705) الصُّفر: النحاس الأصفر، وهو خليطٌ من النحاس والزنك ويمكن أن يتضمّن معادن أخرى.

متقدّمين في السنّ ومرتبطين ببيتهما، ولهما أبناءٌ لن يتأخّروا في الرحيل. أخيرًا، يتضمّن بابٌ في الشمال الغربي الصرامة والسلطة والرغبة في التحكّم بالنسبة إلى قاطني هذا المسكن. ويكون بابٌ أسود أو أحمر أو رماديٌ مناسبًا تمامًا لهذه الاستعدادات المسبقة.

حتى الآن، تعلّق الأمر بمدخل الـ«كي»، لكنّ هذه الطاقة تحتاج أيضًا إلى التمكّن من مغادرة المكان، وبالتالي تحتاج إلى مخرج، أي بتعبيرٍ آخر إلى بابٍ خلفي. في حال لم يُلحَظ ذلك أو لم يكن ممكنًا، وبما أنّ مسألة الطاقة هذه رمزية، فيكفي مجرد تصوير بابٍ خلفي عبر رسمه بالطباشير أو بإلصاق شريطٍ لاصقٍ على بابٍ خارجي. من الشائع جدًّا في الصين اليوم أن يوضع على الجدار ملصقٌ بالحجم الطبيعي يمثّل بابًا، لكن مع الانتباه إلى أنّه يجب ألّا يكون التصوير أكبر من الباب الحقيقي، «لتجنّب ألّا يكون الـ'كي' الخارج أكثر من الداخل»، وألّا تكون الصورة على امتداد باب الدخول. يبدأ آنذاك تأمّلٌ حقيقي لوضع الأبواب الداخلية بطريقةٍ صائبة. يتمثّل الهدف في توزيع الطاقة المتجوّلة بأكبر قدرٍ ممكنٍ من المساواة، بحيث يتمكّن جميع القاطنين من الاستفادة منها أينما كانوا في المنزل. بدايةً، يجب أن يُفتح الباب نحو الداخل واليمين بحيث يوجّه تدفق الطاقة إلى القسم الأيسر من الحجرة. ويجب تجنّب أن يكون باب المرحاض مقابل باب الدخول. وفي هذه الحالة، يجب تعليق مرآةٍ على الباب لمنع طرّادة الماء من امتصاص الـ«كي»! أمّا باب الدخول، فإذا كان يفضي إلى دهليزٍ تفتح عليه عدّة حجرات، فيُعلّق عليه جرسٌ معدني أو خشبي لتجنّب أن تمتصّ الحجرة الموجودة مقابل المدخل أكبر جزءٍ من الـ«كي»، وذلك لتوزيع الطاقة على نحوٍ أفضل، وإذا كنّا نبحث عن الفاعلية، فيُعلّق فوق الباب نايان على شكل حرف (V)، بحيث يكون الفم إلى الأعلى. كذلك، يجب الحرص على ألّا تقع نافذةٌ في مواجهة الباب، وإلّا يعلّق

ساترٌ أو بلّورةٌ صخريةٌ في السقف للسماح بفصل المساحات وتوزيع الطاقة على نحوٍ أفضل. وفي الدهليز، «مكان الاختلاط الذي يسمح للطاقات الناتجة عن ذهاب الأشخاص ومجيئهم»، بالإضافة إلى طاقة من يبقون على الباب كعمّال البريد وممثّلي التجارة والجيران وغيرهم، يجب الحرص على أن يكون الضوء، الين، ضعيفًا ولطيفًا، فيكبح بذلك الـ«كي» الفائض. إذا وُضعت مرآةٌ محدّبةٌ يزيح انعكاسها موقع الباب قليلًا، حتى إذا عُلقت في مواجهته، فهي لن تصدّ الـ«كي» نحو الداخل، بل ستسمح بتدمير الـ«كا»[706] (*Sha*) السيئ. أخيرًا، من المفضّل عدم التحرّك على امتداد الباب أو بإدارة الظهر له، وذلك في الحجرات كلّها. سيكون لمثل هذا السلوك في المطبخ عواقب سلبية على نوعية الأغذية المحضّرة، وفي الحمّام، حيث فرص حدوث هذا الأمر هي الأكثر، يُنصح بتعليق مرآةٍ على الجانب الخارجي للباب بهدف التحكّم بتدفّقات الطاقة وبقوّة الماء. أمّا في الحجرة التي يعمل المرء فيها، فمن المفضّل وضع المكتب في أبعد موقعٍ ممكنٍ عن الباب الذي تتركّز فيه الطاقة واختيار حيّزٍ يتوجّه إلى الشرق. لا يمكن أن يكون حذر المرء من «هجمات السهام السرّية» التي توجَّه إلى باب المدخل مبالغًا فيه. هكذا يصف معتنقو الفنغ شوي، على سبيل المثال، جبهة جملون المنزل المقابل الموجّهة نحو المدخل والتي ترسل الـ«كي» السيئة. ستحوّل مرآةٌ دائريةٌ ومقعّرة أو تمثالٌ صغيرٌ لحيوانٍ ما الموجات السيئة إذا ما وُجّها كما ينبغي نحو هذا الترس المهدِّد. حذارِ أيضًا من العوارض التي يمكن أن ترسل سهامًا سرّيةً على قاطني المكان: يُنصح على الدوام بأن تكون الأسرّة والمكاتب موازيةً لعوارض السقف، إذ إنّ «احتقان» الـ«كي» لا يكون جيدًا لأحدٍ أبدًا.

---

(706) الكا: الجانب السلبي من طاقة الكي.

هكذا، يطبَّق التفكير، العلمي منه أو العاميّ، في الصين يوميًّا على هذين الكيانين المستقلّين في التمثيل وفي طريقة العيش، أي الحيّز والزمان، عبر أفعالٍ مجسّدةٍ بمقدار ما هي خيالية، لكنّها ترتبط بالضرورة بهذا البحث الدائم عن التناغم الذي يمكن الحصول عليه عبر احترام التوازن بين الين واليانغ.

أبواب السماء

لقد كانت «الحاضرة الأرجوانية المحرّمة» التي بُنيت بين العامين 1406 و1420 في بكّين الحاضرة الأكثر إغلاقًا في العالم بالتأكيد، ويقال إنّ ذلك بلغ درجة تحريم أن يدير عابرٌ يمرّ إزاء جدرانها رأسه باتجاهها. داخل «جحر التنين»، كان كلّ شيءٍ بالنسبة إلى القادرين على دخوله متاهةً وقواعد ومحرّمات، بل كانت بعض الأماكن وبعض الممارسات أشدَّ تحريمًا من غيرها في أوقاتٍ معيّنة وبالنسبة إلى أشخاصٍ معيّنين. كانت بكّين مليئةً بالأبواب، وعندما يدخل المرء إليها من الجنوب كان يجب عليه بدايةً المرور بباب يونغ دين مين (Yong Din Men) (باب السكينة الأزلية)، ثم المتابعة باتجاه الشمال، والدخول في المدينة التترية عبر الباب المزدوج كيان مين (Qian Men) وزهاو يانغ مين (Zhao Yang Men) (باب شمس الذهب). وبعد ذلك ينتصب باب تيان آن مين (Tian An Men) (باب السلام السماوي) وخلفه باب دوان مين (Duan Men) (باب الاستقامة) الذي يمكن أن تُلمح منه أخيرًا الأسقف الصفراء الخاصّة بالحاضرة. يظهر آنذاك بابٌ حصينٌ هو باب وو مين (Wu Men)، أي المركز، المدخل الرئيسي للحاضرة المحرّمة.

صُمّم هذا الباب الذي وُضع كحدٍّ بين عالمين، لغايتين معًا: إخضاع الزائر وإثارة خشيةٍ مبنيةٍ على الاحترام في سريرته. كان على أولئك المدعوّين للدخول، حتّى أعظمهم شأنًا، أن ينزلوا عن صهوة الحصان

أو عن المحمل من أوّل رشقٍ للطبل وأن يتّخذوا أماكنهم، وفق منزلتهم، أمام الباب. وفي الرشق الثاني يفتح موظّفو وزارة الشعائر الأبواب الجانبية، وفي الثالث يدخل المدعوّون إلى داخل السور المقدّس. يقدّم باب المركز بتحفّظٍ من الخارج فتحاته الثلاث المكلّلة بسواكف مستقيمة وأفقية. أمّا من الداخل، فالأبواب التي تفضي إلى الحاضرة ليست ثلاثةً، بل خمسة، وهي هذه المرّة أبوابٌ جميلةٌ مرحّبة، لها قببٌ دائريةٌ وليست مستقيمةً كما من الخارج. ليست لهذه العمارة فانتازيا تزيينية حقيقية، بل نُصبت بوصفها تأكيدًا رمزيًا: من جانب نغادر مجال الأرض ذات الملمح المربع، ومن الجانب الآخر ندخل في استدارة السماء، وهذا يفسّر أنّ كلّ شخصٍ يجتاز هذا الباب ينتقل بالضرورة من مستوى الأرض حيث يعيش الفانون إلى مستوى السماء. ألا يعيش ابنها الإمبراطور هنا؟

داخل السرادق الكبير الذي يسيطر على جسم الباب المركزي، كان الإمبراطور يتّخذ مكانه أحيانًا أثناء استعراضات الذهاب إلى الحملات العسكرية والعودة منها، ومن هذا المكان كان يخوّل سلطته بأن يهب ختمه للجنرال أو باستقباله لدى عودته من إحدى الحملات. هنا أيضًا كان يسلّم المراسيم الإمبراطورية وتقويم السنة التالية، أو يحضر ببساطةٍ مساجلاتٍ شعرية. كان هذا المدخل «الفم» الحقيقي، يقوم مقام منطقةٍ عازلة. وكان يعمل بالاتجاهين، ممثّلًا الفوهة المقدّسة التي يعبّر الإمبراطور عن نفسه من خلالها ويحمي المكان الذي يجتذب فيه «ابن السماء» محاسنَ اليانغ بعد أن يتلقّى تفويض الحفاظ على التناغم بين العالمين الطبيعي والبشري. وبحمايته أيضًا، كان يتجنّب تأثيرات الين الضارة. وعلى باب المركز أيضًا، عندما تحين الساعة المزدوجة، «وو» (wu)، بين الحادية عشرة والثالثة عشرة، لحظة تمرّ الشمس في الزوال ولا يعود هنالك أيّ ظل، يقوم مركز الكون الذي يأتي ليؤكّد وجود

إمبراطورية الوسط. بالنسبة إلى الصينيين، الأرقام شديدة الأهمية مثلما رأينا بصدد تشييد مجرّد بيت. وفي كثيرٍ من الأحيان، سوف نعثر في مجمل الحاضرة المحرّمة على الرقم الرمزي 5، حيث يتوافق الرقم 5 مع الخط الخامس في الشكل السداسي(707) الأول، الوحيد الذي تشغل مستوياته كافّة خطوطَ يانغ فحسب، وهو لذلك السبب بالنسبة إلى هذا المنزل شعارٌ غير ملموسٍ لـ«الوثبة الخلّاقة لليانغ الكبير وللسماء عينها»، ولو أنّ الرقم 9 («9 في 5»، كما يقول الصينيون بيسر) هو الأكثر انتشارًا، من حيث إنّه يحيل إلى ذروةٍ لليانغ، ويعني «التنّين الطائر في السماء». يبقى أنّ تركيبة الرقمين 9 و5 سوف تستخدم في العمارة على نطاقٍ واسع، ولاسيّما في نسبة المباني التي سنجد فيها على سبيل المثال وفي كثيرٍ من الأحيان الرقم 9 في الفرجات بين أعمدة الواجهة والرقم 5 في أعمدة الجانب.

في الحاضرة المحرّمة، يجب أيضًا أن نأخذ بالحسبان باب 'التناغم المبيّن' الذي نُصب في قاع باحةٍ فارغةٍ على نحوٍ شاسع. إنّه أكثر من باب، فهو أيضًا سرادقٌ يمكن الوصول إليه بعد المرور بقناةٍ متعرّجةٍ داخليةٍ تدعى «نهر المياه الذهبية». تعلو هذا الماء الذي يتلوّى في الباحة خمسة جسورٍ من المرمر الأبيض يقال إنّها تمثّل الفضائل الكونفوشيوسية(708) الخمس: سلامة الطوية، والاستقامة، والتمسّك بالشعائر، والحكمة، والعدل. وكما هي الحال بالنسبة إلى كلّ معبرٍ في الحاضرة، سوف تُستخدم الجسور بموجب هرمية الشخصيات

---

(707) الشكل السداسي: إحدى المجموعات الـ64 للخطوط المستمرّة (تمثّل اليانغ) أو المتقطّعة (تمثّل الين) المستخدمة في الكهانة في كتاب التغيّرات.

(708) الكونفوشيوسية: نسبةً إلى تعاليم كونفوشيوس (551 ـ 479 ق.م.)، وهو أوّل فيلسوفٍ صيني يفلح في إقامة مذهبٍ يتضمّن كلّ التقاليد الصينية عن السلوك الاجتماعي والأخلاقي. انتشرت هذه المدرسة من الصين إلى كوريا ثمّ إلى اليابان وفيتنام وأصبحت ركيزةً ثابتةً لدى شعوب شرق آسيا.

التي يحقّ لها أن تسلكها. يدافع أسدان هائلان من البرونز عن باب 'التناغم المبيّن'. تبدو هذه «الكلاب ـ الأسود» أشبه بالتنّينات، ونجدها في أحيانٍ كثيرةٍ اليوم تحرس أبواب المنازل الصينية. يعلم الجميع أنّ دورها الحقيقي يرتبط بقواعد «الكهانة بالاقتراع» أكثر من كونها محض رادعةٍ أو تزيينية. على هذا الباب، يمثّل أسد الغرب قوّة الين، ويرتاح تحت قائمته اليسرى قطٌّ صغير، في حين ترتبط قوّة اليانغ بأسد الشرق، الذي تستند قائمته اليمنى إلى كرة. لكن بما أنّني أهتمّ أساسًا بالأبواب، فلن أواصل زيارة القصور المتعدّدة ولا صالة العرش وصالة المآدب السماوية أو الأرضية في الحاضرة المحرّمة، ولن أتوقّف إلّا عند الوظيفة المعمارية الوحيدة للرواق الذي يغطّي هذا 'الباب' بأبوابه الثلاثة المنصوبة شمال الحاضرة. وبالفعل، نجد هنا ثلاثة أبوابٍ خشبيةٍ جميلةٍ مدهونةٍ باللون الأحمر ومعزّزةٍ بمسامير ضخمةٍ معدنيةٍ مذهّبة. وبما أنّ المرء لا يستطيع الإفلات من رمزيّة الأرقام في الصين، فإنّ العدد الكلّي للمسامير يبلغ 81 مسمارًا، موزّعة في تسعة صفوفٍ يحتوي كلٌّ منها على تسعة مسامير... يستطيع المرء أن يعدّد إلى ما لا نهاية المسامير والألوان والفتحات والتزيينات التي تخدم السماء بمقدار ما تخدم السلطة الإمبراطورية، لكنني لن أتوقّف إلّا عند واقع أنّ ذلك كلّه يندرج ضمن إجراءٍ فلسفي لا يمكن فيه الفصل بين الجزء والكلّ، وحيث يتعانق الهائل الحجم مع الصغير للغاية، ويشدّ كلٌّ منهما على الآخر ويكون صدًى له، بحيث يصبحان واحدًا.

عدا موضوع الحاضرة، أودّ العودة إلى الاستخدام الأكثر ألفةً وسوقيةً للأبواب، إلى شعائر العبور الغالية جدًّا على الأنثروبولوجيين. يذكر الباحث الفولكلوري أرنولد فان غينيب طقوس الطفولة في الصين. وهو يشير إلى أنّه يعلّق في فو تشيو[709] (Fou-Tchéou) على

(709) فو تشيو أو فو زهو: عاصمة مقاطعة فوجيان الصينية وأكبر مدنها.

باب غرفة الطفل من اليوم الثالث بعد ولادته إلى اليوم الرابع عشر، كيسٌ صغيرٌ يمنع الدخول ويتمثّل بلفافةٍ تحتوي على شعر كلبٍ وقطة، ويقول إنّ الهدف منه هو منع كلاب الجوار وقططه من إخافة الطفل. كما يوضع في الكيس فحمٌ لجعل الطفل روحانيًا وذكيًا، وكذلك نسغ نبتةٍ معينة لضمان سعادته وثرائه. ربّما لا تكون الاحتياطات كافيةً أبدًا، فيثبَّت أيضًا على سرير الطفل «شيءٌ مستمَدّ»، سروالٌ للأب مزوّدٌ بورقةٍ عليها حروفٌ تأمر «كلّ التأثيرات السلبية بالدخول في السروال بدلًا من الطفل». يلي ذلك عددٌ من الشعائر التي تُقام أمام «الأمّ» أو أمام ألواحٍ بالغة القِدم ستبقى في مكانها حتى طقس «الخروج من الطفولة». يُقام هذا الطقس في الصين تقليديًّا عندما يبلغ الصبي أو البنت ستة عشر عامًا. ولا يندر أن تنفّذ العائلة قبل ذلك عدّة عمليات «مرورٍ عبر الباب» لإزاحة الأمراض أو لشفاء طفل.

يتمثّل «عبور بابٍ» في طقسٍ احتفالي يدوم من الفجر حتّى الليل: يُستدعى إلى المنزل منذ الصباح عدّة كهنة تاويين. وبعد أن يزيحوا الأثاث في غرفة الطفل للتمكّن من التجوّل بحرّيةٍ أكبر، يبنون مذبحًا ويزيّنونه ويدعون الآلهة الحامية للأطفال إلى المجيء وتناول القرابين. كذلك، يُصنع لهذا الطقس تمثالٌ خشبيٌ صغيرٌ يمثّل الطفل الذي يُقام الطقس من أجله. سيُحفَظ التمثال في غرفة النوم إلى جانب إلهة «الأم» حتى يبلغ الطفل السادسة عشرة من العمر. وإذا كان الطفل مريضًا جدًّا، فهذا التمثال هو الذي سيمثّل الطفل أثناء طقس الباب، وفي حال توفّي قبل أن يبلغ السادسة عشرة من العمر، فسوف يُدفن معه. في الجزء الأمامي من الغرفة والذي تُطلَق عليه تسمية «أمام السماوات»، يبنون وسط الغرفة قرابة هبوط الليل بابًا من الخيزران يغطّيه ورقٌ أحمر وأبيض، «يبلغ ارتفاعه سبع أقدام وعرضه قدمين ونصف القدم إلى ثلاث أقدام». يُجمع مجمل أطفال الأسرة ويمسكون بسراجٍ مضاء، في

حين يحمل ربّ الأسرة بين ذراعيه الطفل المريض أو الرضيع الذي لا يمشي بعد. يتناول أحد الكهنة بإحدى يديه جرسًا صغيرًا أو سيفًا مزيّنًا بالأجراس الصغيرة ويحمل باليد الأخرى قرنًا، ويرتّل رُقًى. إنّه يشخصن «الأم» التي تُبعد الأطفال عن التأثيرات المؤذية. تبدأ الشعيرة: يمرّ الكاهن ببطءٍ تحت الباب المنصوب وهو ينفخ في القرن، يتبعه ربّ الأسرة والأطفال، في حين يضرب الكهنة الآخرون على الطبل المقدّس. يستلّ قائد الموكب سيفه أو سوطًا ويتظاهر بأنّه يضرب شيئًا غير مرئي. ثمّ يحمل الباب على التوالي إلى زوايا الغرفة الأربع، يتبعه الموكب بالطريقة عينها، ثمّ إلى المركز ثانيةً. في نهاية المطاف، يُهدَم الباب وتُحرَق قطعه في باحة المنزل أو في الشارع. يحكي فان غينيب بعد ذلك عن طقس «الخروج من الطفولة»، وشعيرته الأساسية هي أيضًا المرور تحت بابٍ اصطناعي على الرغم «من أنّ الباب أكبر وأكثر مسرحيةً». سوف يُهدَم هذا الباب هو أيضًا بعد استخدامه. تسمح هذه الشعيرة بإجراء «خروجٍ من الطفولة» للدخول ضمن فئةٍ عمريةٍ أخرى وزمنٍ اجتماعيٍ آخر.

ليست الشعائرُ كافّة شعائرَ ابتعادٍ أو قطيعةٍ أو انفصال، بل توجد أيضًا شعائر عديدةٌ للانضمام، تلعب فيها الأبواب دورًا كبيرًا. على سبيل المثال، يشير فان غينيب إلى شعيرةٍ من مقاطعة يونّان[710] (Yunnan) الجنوبية تظهِر سلسلةً من عمليات العبور والأبواب ليس بالإمكان استبعادها. وهو يستعير سرده من شخصٍ يدعى السيّد شافان (Chavannes) يحكي كيف أنّه عندما يذهب صهر المستقبل ليأخذ زوجته من بيت حميه، فإنّ «هذا الأخير يقوده ويجعله يعبر بالصالتين الثانية والثالثة ويعبر جناح الكتب ليدخله إلى جناح

(710) يونّان: مقاطعةٌ في جمهورية الصين الشعبية، تقع في أقصى جنوب غرب البلاد.

المرحاض. وأمام كلّ باب، يعلن مساعدٌ بصوتٍ مرتفعٍ الشعيرةَ التي يجب القيام بها، ويقوم الصهر بسجدتين. هذا هو ما تطلَق عليه تسمية 'السجود أمام الأبواب' (pai men). يولي والد العروس أهميةً للأبواب ويثير مصاعب للصهر لأنّه سيسمح له برؤية ابنته».

في ثقافةٍ أخرى ترتبط فيها رمزية العبور بتنظيم المجتمع، يسهل علينا أن نفهم أهمّية الأبواب وأهمية عبورها لأنّ حياة كلّ فردٍ مسجّلةٌ في هذا «الكلّ العظيم» حيث تسمح الصدفة المتحكّم بها بهذا الذهاب والإياب المتكرّرين والخطرين والمعقّدين بين السماء والأرض.

على باب اليورت[711]

عند المغول، وهم مجتمعٌ من الرحّل بامتياز، يسجَّل كلّ شيءٍ في المركز، أي مركز اليورت، وهي خيمةٌ أسطوانيةٌ كبيرة من اللبّاد ينقلونها ويركّبونها في كلّ مخيّمٍ جديد. إنّه عالمٌ مصغّرٌ منظّمٌ وفق التقابلات عينها التي تنظّم الكون، ومن مركز هذه الجوّانية الأصلية، بين «الخارج» و«الداخل» بمقدار ما هي بين الرجال والنساء، يتطوّر التنظيم المغولي للحيّز ويحلّ العالم في مكانه. يبدأ كلّ شيءٍ على عتبة اليورت، التي «ترمز إلى أوّل حدودٍ بين داخلٍ مصمَّمٍ بوصفه الحيّز الأكثر إنسانيةً والأكثر تطبيعًا من الناحية الاجتماعية، وخارجٍ سوف يمتدّ شيئًا فشيئًا عبر دوائر متّحدة المركز نحو الأكثر وحشيةً»، هذا ما تلاحظه الباحثة الأنثروبولوجية إيزابيل بيانكيس[712] (Isabelle Bianquis). حول مسألة أبواب اليورت هذه، من حسن حظّي أنّ لديّ صديقة كثيرة السفر قابلت

(711) اليورت (yourte): هو المسكن التقليدي لكثيرٍ من القوم الرُّحّل الذين يعيشون في آسيا الوسطى، ولاسيما المغول والتركمان. وهو يتكوّن من خيمةٍ لها هيكلٌ قابلٌ للتفكيك مصنوعٌ من الخشب المغلّف باللباد.

(712) إيزابيل بيانكيس، أستاذةٌ جامعيةٌ وباحثةٌ أنثروبولوجيةٌ وإثنولوجيةٌ فرنسية.

في الألتاي العليا[713] (Haut-Altaï) مؤلِّف كتاب **السماء الزرقاء** (*Ciel bleu*) غالسان تشيناغ[714] (Galsan Tschinag) وقدّمت له استبياني المتعلّق باستخدام الأبواب. سأضيف إلى إجابات هذا التوفاني[715] (Touva)، الكاتب وسليل عائلةٍ من الشامان[716]، شيئًا من معرفة الأنثروبولوجيين المتخصّصين بمنغوليا، في محاولةٍ لتقديم فهمٍ أفضل لرهان عبور العتبة والدور الأساسي لتوجّه اليورت وبابه. بدايةً، لاحظ غالسان تشيناغ ببساطةٍ شديدةٍ ما يلي: «لكلّ يورت كلبٌ ينبح عندما يأتي أحدٌ ما. وهذه إشارةٌ إلى الشخص الموجود في اليورت. عندما يصبح الزائر أمام الباب، يقول فضلًا عن ذلك 'انتبه لكلبك!'، لكن إذا لم يخرج الشخص من اليورت على الرغم من ذلك، فإنّ المرء يتنحنح قبل أن يفتح باب الدخول». يمكن أن أضيف أنّ المغوليين لا يكثرون من الكلام ولا من الحركات. غير أنّ هذا السلوك المتحفّظ لا يمنع وجود عدّة أشكالٍ من التحيّة. ولئن كان الأشخاص الأصغر سنًّا، ولاسيّما النساء منهم، لا يحيّون من حيث المبدأ الذكور الأكبر منهم سنًّا، فثمة تحياتٌ ذات طابعٍ أكثر مهابةً تقضي بأن يبقى الزائر واقفًا خارج اليورت. لا يتعلّق الأمر آنذاك بالمصافحة، بل بالضغط الخفيف باليد اليمنى على ساعد الشريك الأيمن مع تمديد المرء ساعده الأيمن المسنود باليد اليسرى بين القبضة والمرفق. نظرًا إلى التفوق المطلق لليد اليمنى على اليسرى،

---

(713) جبال الألتاي: مجموعةٌ من السلاسل الجبلية في آسيا الوسطى.

(714) غالسان تشيناغ (1944 ـ)، روائيٌّ وشاعرٌ وكاتبٌ مغولي يكتب بالألمانية.

(715) توفا: جمهوريةٌ روسيةٌ بعيدةٌ تقع جنوب سيبيريا، تقطنها قبائل رحّلٌ تقليدية.

(716) الشامان: إنسانٌ يقدّم نفسه بوصفه وسيطًا بين البشرية وأرواح الطبيعة. لديه تصوّرٌ للعالم يوصَف بأنّه كلّانيٌّ أو إحيائي. والشامان هو في الآن عينه «حكيمٌ ومداوٍ وناصحٌ وشافٍ ومتبصّر». كما أنّه العارف أو مستودع الثقافة والمعتقدات والممارسات الخاصة بالشامانية، ونجده بصورةٍ أساسيةٍ في المجتمعات التقليدية القديمة، حيث يرتدي تزييناتٍ خاصّة ويحيط نفسه بالسرّية في ممارسته عمله.

يجب تفسير واقع أنّ اليد اليسرى تكون على الدوام متراجعةً بالنسبة إلى اليمنى بوصفه علامةً على الاحترام. يشدّد غالسان تشيناغ على أنّه «ليس من حقّ المرء أن يلمس بقدمه عتبة الأبواب. وإذا ما حصل ذلك، فيكون قلّة أدب. عند جنكيز خان، كان مثل هذا التصرّف المُدان يستدعي قطع رأس من يرتكبه. أمّا اليوم، فهو تصرفٌ مربِكٌ فحسب. كما لا يتحدّث المرء أثناء مروره بالعتبة، وعلى أيّ حال، لا يتحدّث أبدًا إلى شخصٍ وراءه». وكان فوروتيير قد عبّر في قاموسه عن صدمته تجاه هذه العادة، ففي فقرة «باب»، يذكر شهادة الرحّالة: «في رحلة روبروكيس[717] Rubruquis (روبروك Rubrouck) إلى بلاد التتار، يكتب أنّ مشي المرء على عتبة الباب عندما يدخل مكانًا ما جريمةٌ عظمى ولا يمكن التراجع عنها. ويقول تافيرنييه أيضًا إنّ أولئك الذين يمشون على عتبة المسجد أو قصور الملك في فارس يتعرّضون لعقابٍ شديد».

ثمّ يدخل غالسان تشيناغ في تفاصيل الدخول إلى اليورت، فيلاحظ أنّه «لدى الترجّل عن الحصان، يُنزل الرجال والنساء أكمامهم ويتركون الذراعين مسبلتين. وهم يتركون سكاكينهم محكمة التعليق في أحزمتهم. تبقى الأسلحة في الخارج لأسبابٍ تتعلق بالاحترام والأمن، وكذلك السياط أو الكرابيج التي تبقى معلّقةً بالحصان. وهذا ليس علامةً على الاحترام بمقدار ما هو فعل سلام. يجب أن يكون المرء في حالة سلامٍ وغير عدواني وهو يدخل اليورت، كي لا يحطّم الانسجام الذي يسود فيه. يجب ألّا يصدم أحدٌ العتبة كي لا يحدث 'فقدانٌ' للانسجام. أمّا

---

(717) غييوم دو روبروك، الملقّب «روبروكيس» (1215 ـ 1295)، ولد في روبروك (مملكة فرنسا)، وهو راهبٌ فرنسيسكاني من رعايا القديس لويس وكانت علاقته به حميمة. ذهب إلى منغوليا في العام 1253 ـ 1254، سابقًا بذلك ماركو بولو، وزار كاراكورون، عاصمة الإمبراطورية، ووصفها بعد ذلك. كتب رسالةً طويلةً للملك تحدّث فيها عن رحلته إلى الإمبراطورية المغولية، وهذه الرسالة مصدرٌ أساسي وعملٌ أدبيٌّ عظيم، لكنّه لم يعرف شعبية كتاب ماركو بولو.

في الطبيعة الخارجية نحو اليورت، أو في طبيعة اليورت نحو الخارج. فيجب دخول اليورت القهقرى عندما نضرب العتبة لعبورها مجدّدًا بسلام». من جانبٍ آخر، بلغني أنّه يجب على الدوام الانحناء لدخول يورت أو الخروج منه، وأنّه يجب دائمًا الدخول والذراعان مسبلتان، إذ ربّما يؤدّي مدّ المرء إحدى يديه أمامه إلى إدخال أرواحٍ غير مسيطرٍ عليها. كما قيل لي إنّ المرء عندما يصبح داخل اليورت يتنقّل وهو يدور في اتجاه عقارب الساعة حول الموقد المركزي، وهي طريقةٌ لاحترام أرواح الأطفال الذين سيأتون.

الفئات العمرية في منظومة التوزيع والموقع داخل اليورت عينه شديدة الأهمية عند المغول. «كقاعدةٍ عامّة، يمنح التقدّم في العمر الأولوية على الدوام. وبين المتماثلين في العمر تكون الأولوية للرجل. أبقِ ذراعيك قرب جسدك على الدوام، انتبه وأنت تشير بيديك. كذلك لا تُشِر إلى شيءٍ ما بالسبابة. أشر إلى كلّ شيءٍ باليد كلّها، بحيث تكون راحتها مقلوبةً إلى أعلى، ويفضّل أن يتمّ ذلك بحركة دائرية. كذلك، لا تتخطَّ الأغراض المنزلية ولا تسكب الماء على العتبة كي لا يضطرب توازن قوى اليورت. عندما تفتح باب اليورت، مدخله الوحيد، لا تتردّد في الدخول أبدًا، إذ يمكن أن يُفهم التردّد بوصفه علامةً على التحدّي أو الازدراء، كما لو أنّ اليورت ليس صالحًا بما يكفي بالنسبة إلى المتردّد، وبالتالي فإن مثل هذا السلوك غير مهذّبٍ وعدوانيٌّ في آنٍ. لا تبقَ واقفًا أمام اليورت، ولا تتكلّم إلّا بعد أن تجلس. وحده الشامان ينهض لتقديم التبريكات. عليك الاحتفاظ بقبّعتك، لأنّ نزعها عن رأسك يعني أنّك تريد قضاء الليلة في اليورت. لا تغادر اليورت قبل أن تأكل أو تشرب فيه، لأنّ نواياك ستكون سيّئةً إن لم تفعل. يكون تبادل التحيات أثناء الدخول، والأصغر سنًا هو الذي يبادر بها أوّلًا. يدور الحديث عن شؤونٍ تخصّ صحّة البشر وتطوّر القطعان».

يلاحظ غالسان تشيناغ أنّنا بعد الدخول من الباب، نجد في الداخل جدرانًا دائريةً من اللبّاد الأبيض، «في الماضي، كانت هنالك قطعةٌ من اللبّاد تقوم مقام المصراع، تركت مكانها في خمسينيات القرن العشرين للحضارة التي تأتي إلينا راكضةً: إطار خشبي رباعي الزوايا، على مثال البيوت الصلبة ولأنّه عمليٌّ أكثر، إذ إنّ اللبّاد ثقيلٌ جدًّا عندما نرفعه». يبلغ ارتفاع الجدار مترًا ونصف المتر وتحمله تعريشةٌ من خشب الصفصاف تتّخذ مكانها تحت القصبات الواحدة والعشرين المصنوعة من خشب الأرز والتي تؤمّن بنية سقفٍ مخروطي. السقف مثقوبٌ في مركزه تمامًا بالـ«تونو» (toono)، وهو أشبه بتاجٍ خشبي يشير إليه الصينيون بوصفه «نافذة السماء»، ويفيد كمدخنةٍ بمقدار ما يفيد كمزولةٍ شمسية، ما يسمح بقراءة الساعة على جدران المسكن في لحظات النهار كلّها، لكنّ الأتراك يطلقون عليه تسمية «تونغلوك» (tünglük)، أي «ثقب السقف»، وبعبارةٍ أخرى «نار الموقد» (foyer) بالمعنى الواسع، أي الوحدة الأسرية. والمصطلح المغولي المناسب الذي يشير إلى هذا المسكن المصنوع من اللبّاد هو «جير» (ger). يذكّر غالسان تشيناغ بأنّ تعبير (Üne geer galbagasch) لغزٌ يرتبط بالباب. والمعنى التقريبي لهذا التعبير هو «ما يتطاير نحو الداخل ونحو الخارج». يشير اللسانيون إلى أنّ مصطلح «جير» يشير إلى التبعية الوثيقة بين البيت والمرأة والأسرة، ومن هذا المصطلح يشتق مصطلح «جيرجي» (gergii) (زوجة، امرأة) و«جير بيل» (ger byl) (أسرة) و«جير باريكو» (ger bariqu) (نصب يورت، الزواج، تزوّج). كلّ هذا للتشديد على واقع أنّ تأسيس أسرةٍ جديدةٍ وفعل الزواج يعادل نصب «جير» جديد. في مركز السقف المصمّم بوصفه على صورة السماء، الـ«تونو» هو بابٌ على طريقته، لكنّه بابٌ وسيطٌ وشاقولي يبقي على المحور بين عالم البشر والعالم الأعلى: معبرٌ مخصصٌ للأرواح. أوّل ما يوضع على الأرض

مباشرةً عندما يشيّد هيكل اليورت: المدفأة، أي الموقد، الموضوعة في المركز. وتؤطّر تأطيرًا منهجيًّا بوتدين من خشب البتولا، «باغانا» (bagana)، موزّعين على جانبي الموقد، الوتد متشعّبٌ يذكّر بأغصان الأزمنة القديمة التي كانت تُستخدم لنصب البيت الدائري وتُستخدم اليوم بوصفها «شجرةً شامانية»[718]. تقضي العادة بأن يُمدَّ بين تشعّب الـ«باغانا» والـ«تونو» وشاحٌ حريري أو خيطٌ مضفورٌ على شكل شعر الحصان، حيث يضمن هذا الرابط خصوبة الأسرة وازدهارها.

للبقاء في شعائر الاستقبال، يلاحظ غالسان تشيناغ أنّه لحظة الزواج، «لا يزال الباب يتمتّع بأهميّةٍ عظمى حتى اليوم. في البيوت أو في العمارات، لا تزال العروس تحترم تقليد الانحناء بدايةً أمام الباب، ثمّ أمام الأفران، ويُترك بابٌ داخل الشقّة مفتوحًا باتجاه جنوب المدينة». في التقاليد، يقدّم زواج أحد الأبناء فرصةً لبناء يورتٍ جديد، مسكنٍ جديد يقع شرق مسكن الأبوين بالنسبة إلى الابن البكر، وغربه بالنسبة إلى الثاني. يدشَّن اليورت يوم العرس بإشراف والدة الشاب. تجلب الكنّة معها إلى المنزل الأثاث وأواني المطبخ والسجّاد وأغراضًا أخرى ترتبط بالطبخ والمأكولات. بعد أن تستقبل الحماة كنّتها في يورتها الجديد وهي تقبّلها مرّةً على الخد الأيسر، وتقدّم للعروسين قصعةً من حليب البقر المغلي، وهو حليبٌ تكون نثرته قبل ذلك على المسكن الجديد لحمايته، توضع سجّادةٌ من اللباد الأبيض أمام باب البيت الجديد. يدخل العريس أوّلًا وتلحق به زوجته، مظهِرًا بذلك أنّ الرجل هو الذي يصطحب امرأته إلى بيته. يتوجّه العريس وهو يدخل

---

(718) الشامانية: ممارسةٌ تتمحور حول التوسّط بين الكائنات البشرية وأرواح الطبيعة أو نفوس الطرائد والموتى في القبيلة وأرواح الأطفال الذين سيولدون وأرواح المرضى الذين تجب إعادتهم إلى الحياة وما إلى ذلك، ويجسّدها الشامان (انظر الهامش رقم 716).

اليورت من دون تردّدٍ إلى الشمال ليقدّم أعطيةً للبوذا، في حين توجّه زوجته صلاةً لإله الموقد. وهي التي سترفع أيضًا قطعة القماش التي تسدّ الـ«تونو» في قمّة الخيمة للسماح للضوء بالدخول، ثمّ تجلس أمام الموقد، في حين يكون العريس قد اتّخذ مكانه في الشمال الشرقي. يطلب نارًا من أبيه، وبعد أن يرفعها إلى جبهته، يمرّرها إلى زوجته التي تشعل الموقد. ثمّ تحضّر الشاي الأوّل الذي ستقدّم أولى قصعاته إلى الموقد، وهي حركةٌ ستتكرّر بعد ذلك كلّ صباحٍ عندما يستيقظ أهل الدار. يذكّر غالسان تشيناغ بالمثَل المغولي التالي: (Ultra aun nesse)، والذي يعني: «عندما نرى الباب نرى الأسرة التي تسكن خلف هذا الباب. الباب هو مرآة صفات الأسرة». يدعى الباب «كسالغا» (xaalga)، فتحة إغلاق، وهو اليوم موجّهٌ نحو الجنوب. لكن يبدو أنّه كان في الأصل يفتح باتجاه الشرق، وكانت تطلَق عليه تسمية «المقدِّمة» احترامًا للمكان الذي تشرق منه الشمس. لكن في حدود القرن العاشر، أيّام الجنكيزخانيين، بات الباب يُنصَب باتجاه الجنوب، بحيث يكون اليورت محميًّا على نحوٍ أفضل من رياح الشمال الباردة، من دون أن يؤثّر ذلك في عبادة الشمس، إذ كان الاحترام ينصبّ آنذاك على الزوال، حيث تكون الشمس في أعلى سمتٍ لها في السماء. يقول غالسان تشيناغ إنّ «الباب لا يتوجّه نحو الجنوب في كلّ مكان. إنّه كذلك عند المغول، لكنّ الباب عند التوفان[719] (Touvas) يتّجه نحو الشرق لأنّ الرياح في الألتاي شمالية / شمالية غربية في الغالب الأعمّ. يحدَّد توجّه الباب لتجنّب التعرّض لتيارات الهواء أكثر ممّا يحدَّد بدافعٍ رمزي. المهم هو التمكّن من معرفة الأوقات عبر النور الذي يسقط من مركز سقف اليورت وينقسم إلى شعاعاتٍ على التعريشة الداخلية». ويضيف بأنّ «الباب محايدٌ لأنّه لا وجود للمذكّر والمؤنّث في اللغة المغولية.

(719) التوفان: شعبٌ تركيٌّ في سيبيريا يستقرّ بصورةٍ أساسيةٍ في جمهورية توفا.

تزيّن الأبواب بأشكالٍ هندسيةٍ تعبّر عن السعادة والأمل. لم تعد هنالك رموزٌ شديدة التنوّع ولا شديدة النوعية، بات الأمر تزيينيًّا أكثر فأكثر». وبالفعل، يتّفق الأنثروبولوجيون على ملاحظة أنّ الجزء الأساسي من التزيينات يوجد في الداخل، على الـ«تونو» والـ«باغانا»، وبصورةٍ خاصّةٍ على أغطية الوسائد المكوّمة على الأسرّة، على الرغم من أنّ الباب الخارجي لا يزال يحمل أشكالًا من اللبّاد مقصوصة ومصبوغة. أضيف أنّه لا تزال تمكن رؤية محورين يهيكلان ترتيب اليورت: يحدّد الأول بتوجهٍ شرق ـ غرب، يعرّف من الداخل عبر النظر إلى الجنوب. في الشرق، مجال النساء والحياة المنزلية، وفي الغرب مجال الرجال والحياة الاجتماعية. أمّا المحور الثاني، فيقسم اليورت إلى ثلاثة أجزاء: الشمال والوسط والجنوب. في الغالب الأعم، يقع الباب في الجنوب، وهو مكان الأطفال لكنّه أيضًا الزاوية المخصّصة للنظافة الشخصية، السطل والمغسلة والجزمات وصندوق المحروقات والملح. وفي الجنوب الشرقي، على يسار اليورت إن نظرنا إلى الباب من الداخل (إلى اليمين أثناء الدخول)، توجد النساء والمؤن والمنتجات الخاصّة بالطبخ ومنتجات الحليب. في الجنوب الغربي، إلى اليمين من الداخل (إلى اليسار أثناء الدخول)، مكان الرجال والسروج وعدّة الخيول، وبصورةٍ خاصّة قربة الـ«أيراغ» (aïrag)، حليب الفرس. يحكي غييوم دوروبروك، رسول القدّيس لويس إلى الخان الأعظم، في سرده الذي كتبه بعنوان **رحلة إلى الإمبراطورية المغولية** (*Voyage dans l'Empire mongol*)، تلك الرحلة التي قام بها بين العامين 1253 و1254، كيف أنّه قرب مدخل اليورت، «من طرف النساء يوجد تمثالٌ صغيرٌ مع ضرع بقرة، موجهٌ للنساء اللواتي يحلبن البقرات. ومن الطرف الآخر من المدخل، طرف الرجال، يوجد تمثالٌ مع ضرع فرس، فهم الذين يحلبون الفرس». في الوسط لكن باتجاه الشرق، توقد مدفأةٌ معدنية. وفي القاع،

مواجه الباب، يوجد سرير الزوجية الذي يكون في المركز ورأسه إلى الشمال، وهو مكرّسٌ في النهار للضيفات. تقبع النساء دائمًا في الطرف الشرقي، أي إلى يسار ربّ البيت عندما يكون جالسًا على سريره ورأسه ملتفتٌ إلى الجنوب. إذًا، يجلس ربّ البيت، الرابط مع عالم الخارج، في مؤخرة اليورت مواجهًا الخارج ومتفحّصًا له عندما يكون الباب مفتوحًا. أمّا المرأة، فهي داخل اليورت في بيتها حقًّا، وتكون باستمرارٍ مواجهة مركز اليورت. وهي تتناول طعامها في الجزء الجنوبي الشرقي مقابل الموقد. تلاحظ الباحثة الأنثروبولوجية إيزابيل بيانكيس وجود محورٍ جيليٍّ في طريقة إشغال الحيّز، يمضي من الباب إلى قاع اليورت، علمًا، مثلما يقول المغول غالبًا، بأنّ «كلّ شخصٍ يبدأ فتيًّا وينتهي مسنًّا». يتمّ احترام الهرمية على النحو التالي: «يرتقي الرجل مع تقدّمه في العمر والموقع الاجتماعي من الغرب الجنوبي إلى الشمال، وتجلس النساء المسنّات في الشرق، ويأكل الأصغر سنًّا فيما بعد». أمّا المتخصصة في الشؤون المغولية الباحثة العظيمة روبيرت هامايون[720] (Roberte Hamayon)، فقد برهنت على نقل موضع التنظيم السماوي إلى عالم البشر، وهو أمرٌ تمكن رؤيته بوضوحٍ بصورةٍ خاصّةٍ في توزيع أعضاء الأسرة داخل اليورت، وهو توزيعٌ يريد أن يخصّص الشمال للأكبر سنًّا (الأب) والجنوب الشرقي للأصغر سنًّا (الابن). يحكي غالسان تشيناغ أنّه في اليورت، «الشعور المهيمن هو الاحترام». وهو يثور على قراءة الأنثروبولوجيين المفرطة في بنيويتها، ويذكّر بأنّ «المرأة ليست باتجاه الموقد، والرجل في المؤخرة: الأمر أكثر بساطةً وأكثر تعقيدًا»، على الرغم من أنّ المخطّط الذي رسمه لي ونقلته لي صديقتي ماري يظهر جيدًا دائرية اليورت وانقسامه إلى أربعة أرباعٍ، إذا ما نظرنا إليه من قاعه. هذا ما ترغمنا عليه الرؤية المغولية: إلى يمين الباب قِرَب حليب

(720) روبيرت هامايون (1939 ـ)، أنثروبولوجيةٌ فرنسية.

الفرس المصفوفة على طول الجدار، مكان «الرجال والأطفال» في القاع، ويظهر قرب السرير وإلى يمين «المذبح» أيضًا «الزائر والمضيف الرجل». في القسم الأيسر، يرسم قرب المدخل «المطبخ» ويكتب «النساء والأطفال»، في القاع وإلى يسار «المذبح»، يكتب: «الزائرة والمضيفة المرأة» أمام سريرٍ آخر. ويكتب على مركز اليورت «الموقد» ويؤطّر الباب بصورةٍ جيّدة ضمن مستطيل، من دون توجّهٍ خاصّ.

إنّنا بين الرُّحّل، والتنقّلُ سمةٌ تميّزهم، كما أنّ متابعة انتقال الأسرة والبيت طريقةٌ جيدة لنرى كيف يتمّ تنظيم «تفكيك ـ إعادة تركيب» يورت وبابه... يوم الرحيل المختار مسبقًا في التقويم والذي يجب أن يكون «يومًا حسنًا» وفي «ساعةٍ حسنة»، يبدأ تفكيك اليورت بموجب ممارسةٍ شديدة التنظيم. يبدأ الرجال بتفكيك القسم العلوي المدوّر، الـ«تونو»، ثمّ مشمّع الحماية، واللبّاد، والعصي الواحدة والثمانين التي تُربط مع تعريشة الجدران والجزء الأعلى من الهيكل. يوضع ذلك كلّه في اتجاه المخيّم القادم. آنذاك، تحمّل العربات بطريقةٍ منهجيةٍ دقيقة، حيث يكون لكلٍّ منها حملٌ خاص. تتلقّى العربة المخصّصة لنقل البيت على يسارها السجّاد واللبّاد والعصي، في حين يحمَّل على الجانب الأيمن الباب والـ«تونون» (tonoon)، أنبوب المدفأة والمدفأة. في الماضي واحترامًا لتعبير التمثيل الرمزي لـ«الجير» الذي كان يقوم به الموقد، كانت المدفأة توضَع على قمّة التركيبة. تتلقّى العربات الأخرى بقية الأشياء والسكّان. فور ظهور أشعة الشمس يبدأ الرحيل، بحيث يكون الوصول إلى المكان الجديد في أبكر وقتٍ ممكن. بعد أن يذهب ربّ الأسرة إلى المكان المختار، يستعرض القافلة التي كانت حتى ذلك الحين بقيادة زوجته، ويرفع سرج حصانه ويضعه في الطرف الشرقي، حيث يفكّر في الاستقرار. يتدخّل الأشخاص الأكبر سنًّا ويحدّدون بحكم تجربتهم المكان الذي يجب أن يُنصَب فيه «الجير»، حريصين على الدوام على

عدم وضعه في موقعٍ قديم. تبدأ آنذاك إعادة تركيب اليورت: يوضع الـ«تونون»، حلقة الضغط العليا، في وسط الموقع المختار، وتوضع إلى جانبه الأعمدة من دون تركيبها. يكون الباب الموجّه نحو الجنوب أوّل ما يوضع، ثمّ تُنصَب عريشة الجدران. بعد ذلك، يركَّب المركز على الأعمدة، وتمرّر أربع عصيٍّ في الاتجاهات الأربعة بين الجزء العلوي والعريشة، وتربَط. يبدأ تركيب العصيّ الأخرى في كلٍّ من جانبي الباب، ثمّ يوضع اللبّاد المبطّن بمشمّعٍ كتيم، ويُفرد السجّاد على الأرض وتُركّب المدفأة. بعد ذلك، توضع الأشياء بموجب التقسيم الجنسي للحيّز: الربع المذكّر إلى اليمين (منظورًا إليه من الداخل لدى النظر إلى الباب!ـ الغرب)، والربع المؤنّث إلى يسار الباب الوحيد، والموقد المفتوح نحو الشرق. تبدأ آنذاك شعائر التطهير: يدور ربّ البيت حول المكان ثلاث مرّاتٍ وهو يتلو صلواتٍ ضدّ أرواح البوادي القوية. بعد أن أصبح اليورت محميًّا، يُفتح على العالم وعلى عالمه. ويستطيع غالسان تشيناغ تقديم الخلاصة التالية: «أرني بابك وسأقول لك من أنت!».

لقد بات استخدام اليورت يتراجع اليوم بفعل التمدّن، ولم يعد بناء البيوت الخشبية والحياة في الشقق يحترمان بالضرورة التوجّه التقليدي. لكن لئن كان التوجّه قد تعدّل وأصبح توزيع المساحات بين الرجال والنساء، واليافعين والأكبر سنًّا، يبدو غائمًا أكثر ممّا قبل، فإنّ الموقد والقربة والـ«أيراغ» والمذبح في المنزل تبقى حاضرةً وتوزّع وفق العادة إلى يمين باب الدخول وإلى يساره، ولا تزال أماكن الشرف موجودةً في قاع الحجرة، سواءٌ أكانت في الشمال أم لا، ولا يزال ربّ البيت يجلس مقابل الباب والمرأة وآلة الخياطة الخاصة بها إلى اليسار. وحتى إذا كان الانتقال وإشغال الحيّز بموجب الأجيال يضعفان، وإذا كان الفصل بين المساحات والأدوار قد أصبح يتمّ بطريقةٍ أقلّ رسميةً بكثير، فإنّ طريقة السكن تُواصِل في منغوليا تعريف ذاتها بموجب الباب، أيًا كان اتجاهه، لكن إلى متى؟

أبوابٌ من ورق

البيت التقليدي الياباني المبني من الخشب والورق ليكون جميلًا ويجب أن يكون معتدلًا هو السليل المباشر لـ«سرادق الشاي» الذي امتدّ طرازه وانحدر. لطالما رمز هذا البيت إلى الطابع الانتقالي للأشياء في عالمنا الدنيوي وإلى قِصَر الحياة، مثلما يشهد على ذلك الرحّالة الغربيون الذين أبهرتهم قلّة اهتمام اليابانيين بالديمومة المادّية للأشكال، والسهولة التي ينتقلون بها من بيوتهم. وأحد هؤلاء «الشهود الكبار» هو فيليب بونان (Philippe Bonnin)، وهو باحثٌ أنثروبولوجيٌّ في المركز الوطني للأبحاث العلمية (CNRS) قام بـ«انعطافةٍ يابانية» بعيدة المدى وعميقة. بالنسبة إليّ أنا الذي لم أضع يومًا قدميّ في آسيا، سوف يفيدني هنا كدليلٍ بدراسته الرائعة والمتماسكة أشدّ التماسك عن «الترتيبات والشعائر الخاصة بالعتبة اليابانية». لم يكن بوسعي أن أفلت من الجملة التالية: «المسكن يَمثُل أمامنا ببابه». هنا، يكون الباب أحيانًا من الورق، وهو يلاحظ قائلًا: «عندما لا يكون فاصلٌ ما مصنوعًا إلّا من قطعةٍ رقيقةٍ من الورق أو من القماش، تقفز مسألة مادّية الحدود إلى العيون الغربية». ويضيف، لشدّ وتحفيز كلّ انتباهنا، المتحفّز أصلًا بسبب التعقيد الصيني، لكن القليل التمرّس على كشف «الهشاشة المقصودة» للمسكن الياباني وفهمها: «مهما كان واهيًا، فإنّ المادّية قد استدعيت فيه لدعم مجموعةٍ مزدهرةٍ من الرموز والشعائر المصنوعة من الكلمات والحركات». ويلاحظ: «جليٌّ للعيان أنّ التنظيم المكاني يستند هنا على نحوٍ أكبر إلى النقل والصيانة وإعادة التفعيل الدائمة لبناءٍ ثقافيٍّ للحيّز»، هذا ما يضيفه وهو مطمئنٌ إلى أنّه يجب أيضًا أن يؤخذ بالحسبان «التشرّب الطوبولوجي[721] (topologique) العميق للفكر والذي

(721) الطوبولوجي: نسبة إلى الطوبولوجيا (topologie)، وهي علم الفراغ أو علم المكان، فرعٌ من الرياضيات يعدّ امتدادًا للهندسة يأخذ بالحسبان طبيعة الفراغ ويبحث في بنيته الدقيقة والشاملة.

يتجلّى على الطريقة اليابانية بتعيين الأشخاص المرتبط بالحيّز». إنّ اليابان التي كان معلّمي أودريكور يقول عنها إنّها «عالمٌ بالمقلوب»، هي بلدٌ يبدو فيه، ولاسيما في الصيف، أنّ التفاعلات بين المنزل والشارع والجيران والعابرين معقّدةٌ إلى حدٍّ ما: يجد المرء نفسه قريبًا جدًّا من حيّز الشارع، في حماية العتبات التدريجية، المشتركة والخاصّة في آنٍ، إلى درجة أنّ ضروب الحماية الحقيقية تبدو غير ذات نفع. وعلى الرغم من أنّ السور الخارجي يكون مرتفعًا إلى حدٍّ ما، فإنه كثيرًا ما يكون مخرّمًا ويمكن بسهولةٍ تخمين موقع الباب. في العمل الذي قام به جاك بوزو ماسابوو[722] (Jacques Pezeu-Massabuau) عن المنزل بوصفه حيّزًا اجتماعيًّا، لاحظ أنّ «المنزل الياباني التقليدي يرتبط بجوّه البيئي، فهو خفيفٌ، ويرتفع في جزءٍ منه على أوتادٍ قصيرة، جدرانه مصنوعةٌ من الآجُرّ في الطرف الشمالي ومن هياكل ورقيةٍ ممدودةٍ بسيطة. تنزلق هذه الهياكل ويسمح عالم الإغلاق هذا للهواء بالتسرّب دائمًا من الخارج، وتكون برودته قارصةً شتاءً». وهذا يفسّر أنّ المتنزّه الليلي يستطيع صيفًا عندما يكون الجوّ شديد الحرارة أن يرى ظلال الوجبة العائلية تتحرّك عندما يكون الضوء في وجهه، وهذا علاوةً على الباب الذي غالبًا ما يكون مفتوحًا. من بين هؤلاء العابرين، لاحظ رولان بارت[723] (Roland Barthes)، وهو سيميائيٌّ[724] (sémiologue)

(722) جاك بوزو ماسابوو (1930 ـ)، جغرافيٌّ فرنسيٌّ متخصصٌ باليابان وبالمنزل الياباني، يعيش في اليابان.

(723) رولان بارت (1915 ـ 1980)، ناقدٌ أدبيٌّ وسيميائيٌّ فرنسي، وأحد أبرز البنيويين في فرنسا. كان لمقالته المعنونة **موت المؤلّف** مفعولٌ هائلٌ بعد صدورها، وعُدّت من ركائز مابعد البنيوية، مع مقالة ميشيل فوكو المعنونة **ما هو المؤلّف؟**، إذ يؤكّد بارت في مقالته أنّ «موت المؤلّف يجب أن يكون ثمنًا لولادة القارئ»، حيث يعيد القارئ كتابة النصّ لنفسه.

(724) سيميائي: منسوب إلى السيمياء أو السيميولوجيا (sémiologie)، وهي علم العلامات أو الإشارات أو الدوال اللغوية أو الرمزية في الحياة الاجتماعية.

مطّلع، أنّ «ما يعرّف الحيّز لم يعد الجدار الكبير المستمرّ، بل تجريد قطع الرؤية (الرؤى) التي تحيط بي. التدوين يهدم الجدار، الحديقة سجّادةٌ معدنيةٌ مصنوعةٌ من أحجامٍ ضئيلة (حجر، آثار مشط تسوية التربة على الرمل)، والمكان العامّ هو سلسلةٌ من الأحداث اللحظية التي تنفذ إلى ما هو جديرٌ بالملاحظة في سطوعٍ قويٍّ وواهٍ إلى درجة أنّ الدلالة تتلاشى قبل أن يتسنّى لأيّ مدلولٍ أن 'يترسّخ'». وبالفعل، البيت الياباني مصمّمٌ مثل «شفافيةٍ موجّهةٍ ومتبدّلة وفق الوقت والمكان»، في استعادةٍ لما كتبه فيليب بونان. بدءًا من الآن، سوف أستعير منه من دون تحفّظٍ بصدد بيتٍ عائلي في كاميجيو- كو[725] (Kamigyo-ku) وصف مدخله وصفًا دقيقًا، وأعتقد أنّه مفيدٌ جدًّا في عرض أقوالي. بدايةً: عليك ألّا تزور أصدقاء يابانيين قبل أن تتّصل بهم هاتفيًّا وتحدّد موعدًا بحيث يكون «اجتياز الباب» مقبولًا ومسموحًا به بعد تبادلٍ لفظيٍّ واتفاقٍ مبدئي بحسب الأصول. بعد تحديد الموعد، تذهب إلى الحيّ، وهناك يجب العثور على المكان. غير أنّه لا يوجد عنوانٌ دقيق، لكنّك ستنجح بمساعدة مخطّطٍ نسبي وتوصيفات جيرانٍ بعيدين ثمّ قريبين. هنا، بعيدًا قليلًا عن امتداد الرصيف، تجد بوّابة يعلوها سقفٌ صغيرٌ ذو منحدرين مغطّيين بالقرميد الرمادي ذي الهيئة التقليدية، تفصل الحديقة عن الشارع. على القائم الخشبي الأيمن، تُثبّت الـ«هيوساتسو» (hyosatsu)، «إيداع الذات»، القادر بوجوده على الحلول تمامًا محلّ الشخص -الذي يسكن المنزل- في شتّى التفاعلات التي ستتمّ على العتبة (من الزائر إلى موظّف شركة الغاز) في غياب الساكن. على البوّابة أيضًا، لكن إلى اليسار وأخفض قليلًا، تظهر الفتحة الأفقية لعلبة بريد. وإلى الأعلى، على ساكف البوّابة، تُثبت أيضًا إلى جانب لوحات الأمنيات حوالى عشر بطاقات، لوحاتٌ معدنيةٌ ملوّنةٌ صغيرة، مطليةٌ بالمينا أو مبرنقة مع اختصاراتٍ وأرقامٍ لا نهاية لها، يكون عددها أحيانًا مضاعفًا

(725) كاميجيو- كو: إحدى دوائر مدينة كيوتو اليابانية.

إلى الحدّ الأقصى، وهي تخصّ فحسب شركات المياه والكهرباء والغاز والتفتيش وتحذّر من وجود كلبٍ شراسته مؤكّدة أو غير مؤكّدة. ونستطيع أن نرى عليها أيضًا أحيانًا سهمًا معلّقًا أفقيًّا هو عبارةٌ عن إيداعٍ رمزيٍّ جُلب من معبدٍ أو غصنًا متكلّسًا جُلب من عيد الموتى ويُفترَض فيه أن يحمي البيت من الحريق. أحيانًا، يمكن أن نجد فيه نبات البهشية المزيّن بهيكلٍ عظمي لسمكة سردين، كما في روما القديمة، لطرد الشياطين. وإذا مررت يوم 2 أو 3 شباط/ فبراير، قبيل نهاية العام بموجب التقويم القديم، سترى فول الصويا منثورًا على أرض المنزل، باتجاه الخارج، لتطهيره، بل قد ترى الحركة المترافقة بالنشيد الذي يقول: «الشياطين إلى الخارج، السعادة إلى الداخل».

نادرًا ما يكون باب السياج الخشبي مغلقًا بالمفتاح، وفي الماضي، كان المرء ينادي بصوتٍ مرتفعٍ أو يصفّق بيديه ليسمعه مَنْ في المنزل، من دون تجاوز الباب أبدًا. لكنّ اليوم، يحلّ جرسٌ محلّ النداء الصوتي. يجب فهم دخول منزلٍ ياباني بوصفه «صعودًا»، إذ إنّ استخدامًا، مهما كان ضئيلًا، للبعد الثالث للحيّز يسمح بمفاقمة تراتبية الحميمي: يمضي المرء على الدوام نحو الأعمق، «الأعلى». تسمح هذه الفكرة بتدريج الخارجية أو الحميمية في العلاقة مع السكان ومع المنزل بالمقدار عينه، إذ إنّ المنزل هو أيضًا عضويةٌ حيّةٌ بالكامل. وهذا يفسّر أيضًا أن يتشكّل المدخل من عدّة مستويات من العتبات المتوالية: بعد عبور البوّابة، يبقى أيضًا المرور بالحديقة، ثمّ بباب البيت، والدرجة الموجودة في المدخل الأول، «جنكان» (genkan)، والـ«نورن» (noren) الداخلي. يستأنف فيليب بونان: «يسبق مدخلَ المنزل بمعنى الكلمة إفريزٌ صغيرٌ يستند يسارًا إلى وتدٍ رقيقٍ من خشب الأرز، «هينوكي» (hinoki)، وتستند قاعدته إلى صخرةٍ كبيرةٍ مسطّحة، تعلّق عليه باقةٌ تجلب الحظّ، «شيماكي» (chimaki). على الأرض، توضع ثلاث أكراتٍ سوداء

مغروسةٌ في الأسمنت مرتّبةً على شكل بتلات زهرة، على طريقنا تمامًا: إنّها تذكّر بالبلاطات، «تاداكي» (tadaki)، المصنوعة من الأكرات السوداء عينها، «كورواشي» (kuroishi)، التي توضع على المداخل وتُرشّ بالماء قبل مجيء الضيوف علامةً على استقبالٍ لطيف نجده بصورةٍ خاصةٍ أمام النزُل والمطاعم الجيدة، وفي المساكن الجميلة. في الأعلى وإلى يمين الباب، المصنوع هذه المرّة من قضبانٍ خشبيةٍ ونوافذ زجاجية، نجد كتلةً جديدةً من الخشب حُفر عليها اسم العائلة. المدخل الأول (جنكان) مبلّطٌ ببلاطٍ من الحجر الرمليّ البنيّ. هنا، يستقبلنا ابن المنزل ويدعونا إلى «الصعود» للمنزل: كما نعلم، يجب خلع الحذاء وصعود درجةٍ للوصول إلى الأرضية الخشبية، «إيتانوما» (itanoma) [...]. على قطعة الأثاث المخصّصة لترتيب الأحذية، «جيتاباكو» (getabako)، قرب سلّة المظلّات، وُضعت عدّة أغراضٍ وتماثيل صغيرة. [...] في هذه اللحظة، نحن الآن في الداخل، وتمتدّ أرضية الممرّ ـ الدهليز أمامنا حتى الستارة، «نوين» (noen)، التي تفصله عن صالة المعيشة، ويجب عبوره للوصول حقًّا إلى مركز الحميمية الأسرية. في الماضي، كان ساترٌ ذو مصراعٍ واحدٍ مثبّتٍ على حامل، «تسويتات» (tsuitate)، يوضع على الأرضية خلف الجنكان لإخفاء الداخل عن الأنظار والأرواح الشريرة (لا تتجوّل هذه الأخيرة إلّا في خطٍّ مستقيم، مثلها في ذلك مثل النظرات المتلصّصة).

حول العتبة، نكتشف عددًا مذهلًا من الأغراض التي يجب النظر إليها بوصفها ترتيبًا رمزيًّا للاستقبال بمقدار ما هي زينة، ولاسيما الضفادع. الضفدع، الذي تتضمّن تسميته باللغة اليابانية تلاعبًا بالألفاظ وتعبيرًا عن الترحيب، «كايرو» (kaeru)، الكلمة المرادفةٌ لـ«عودوا»، موجودٌ هنا مع قطّةٍ وغُريرٍ بدين، ويُعتبر الأخير حيوانًا تميمةً تشهد على ازدهار التجارة. كما نجد أيضًا حجارةً سوداء وأكوابًا صغيرةً تحتوي

كوماتٍ صغيرةً من الملح، رمزًا للطهارة، وهو ملحٌ يحدث أن يُنثر في البيت بعد رحيل شخصٍ مكروه.

سبقت لي الإشارة إلى أنّ البيت الياباني، وبسبب الحرص قبل كلّ شيءٍ على التكيّف مع مناخٍ حارٍّ ورطب، كان يُبنى على أوتادٍ صغيرة وتزيّنه حواجز منزلقة يفترض فيها أن تسمح بتهويةٍ جيدة. وقد ظهر هذا البناء بمنظومته في التقسيم والشوجي المنزلق، بعرض بابٍ ذي مفصّلات، في حقبة الكاماكورا[726] (Kamakura) (1192 ـ 1333) ولم يشهد أيّ تغيّرٍ حتّى منتصف القرن العشرين. يركّب الشوجي المكوّن من ورق «الووشي» (wochi) شبه الشفاف على سكّةٍ خشبيةٍ ويوضع على «الشيكي» (shikii) (حرفيًا قطعة الخشب التي تغلِق في القسم الأدنى تأطير بابٍ أو قاطعٍ تنزلق فيه الجدران)، واكتسب في حينه قيمةً مجازيةً تعادل عتبتنا. في غالب الأحيان، يُصنع الشوجي من خشب السرو الذي يرغب فيه اليابانيون بسبب دقّة أوعيته. يجب عدم طلاء الخشب بالبرنيق وأن يكون طبيعيًا وحيًا، حيث يلعب مظهر شبه الشفافية دورًا كبيرًا في توزّع الضوء. أمّا رسوم الشوجي، فهي تُصنع وتُحدّد عن طريق وصلاتٍ خشبية تُستخدم مثلما يَستخدم الأوروبيون العوارض المتقاطعة في نوافذهم بحيث يتمتع اللوح بأكبر قدرٍ ممكنٍ من الانسجام.

فنّ الورق في اليابان جزءٌ من الفنون التقليدية، ويُستخدم «الواشي» (washi) لتصميم كثيرٍ من أشياء الحياة اليومية. يقول الكاتب جونيشيرو تانيزاكي (Junichiro Tanizaki) في كتابه الرائع **مديح الظل** (*Éloge de l'ombre*) إنّه «يكفينا أن نرى قوام ورقٍ من الصين أو اليابان لنشعر بنوعٍ من الفتور يضعنا في قلب آسيا [...]. تبدو أشعة الضوء وكأنّها تتقافز على

---

(726) حقبة الكاماكورا: حقبةٌ في تاريخ اليابان اتّسمت بنظام حكمٍ جديد أصبح فيه الشوغون (الحاكم العسكري) الحاكم الأول في البلاد في حين انحسر دور الإمبراطور.

سطح ورق الغرب في حين أنّ أشعة الضوء على الـ«هوشو» (hôsho) أو على ورق الصين تمتصّها بليونة، مثلما يحدث على السطح الزغب لأوّل تساقطٍ للثلج. فضلًا عن ذلك، فإنّ ورقنا مريحٌ في اللمس، وهو ينطوي ويتجعّد من دون صوت، التماسّ معه عذبٌ ورطبٌ قليلًا، كورقة شجر». وبالفعل، يُصنع «الواشي» من نباتاتٍ شتّى، وأهـمّ ثلاثةٍ منها: شجرة التوت و«الميليكوب ميتسوماتا» (melicope mitsumata) و«الغامبي» (gampi). الورق الأكثر انتشارًا هو «الكوزوغامي» (kozogami)، لأنّ أليافه المستخرجة من شجرة التوت أكثر كثافةً ومقاومةً لكنّها أقلّ نعومةً من ألياف الغامبي أو الميتسوماتا. في الماضي، كان الورق يحضّر ويقصّ بحسب حجم الإطار، لكنّ أبعاد أوراق «الواشي» أصبحت اليوم معياريةً والإطار هو الذي يكيَّف مع الورق لا العكس. يغطّى «الشوجي» بأربع ورقاتٍ بقياس 51×56 سنتيمترًا. يجب أن نعلم أنّه عندما يحدث تمزّقٌ ما، فالورقة بأكملها تُستبدل، إذ لا يمكن التفكير في الترقيع في هذه المقاربة الجمالية التي يحتلّ فيها المظهر الموحّد لهذا «الجلد» الحقيقي مركزًا أساسيًّا في الصلة بالعالم الخالية من التعلّق. لا يحبّ اليابانيون، ويا للغرابة، مفعول الجديد، مثلما يذكر تانيزاكي: «نحن ننفر من كلّ ما يتوهّج [...] ونبتهج عندما نرى سطحه يكمد [...]، ولطالما فضّلنا الانعكاسات العميقة، الغائمة قليلًا [...] التي تذكّر حتمًا بمفاعيل الزمن».

داخل المنزل، نجد ساترًا يدعى «فوزوما» (fusuma) عندما يتعلّق الأمر بسطحٍ بسيط، أو أكثر من ساترٍ تُطلَق عليه تسمية «بيوبو» (byobu) من أجل تجميعٍ مطويٍّ موروثٍ من الحضارة الصينية، ويكون ذلك أحيانًا بهدف منع الأنظار من أن تدخل إليه، لكنّ الهدف الأغلب هو التلاعب بالنور واللعب به. تُستخدم هذه السواتر لخلق أجواءٍ وللتزيينات الداخلية على حدٍّ سواء. توزُّع الظلّ والنور فنٌّ دقيقٌ في اليابان بحيث ينبغي ألّا يُترك شيءٌ للصدفة. يوضح تانيزاكي: «داخل الحجرة أخيرًا،

لا يترك ’الشوجي‘ مجالًا لدخول أكثر من انعكاسٍ مرشّحٍ للنور الذي ترسله الحديقة. وعلى كل حال، فإنّ هذا النور غير المباشر والمنتشر هو العنصر الأساسي في جمال مساكننا». بالنسبة إليه، «تتشرّب جدران الحجرة بعمقٍ بهذا النور الكليل والواهن والعابر، تلك الجدران الرملية اللون التي ندهنها بألوان رسمٍ حيادية». ويضيف: «بالنسبة إلينا، هذا الضوء على جدار، أو بالأحرى هذه العتمة، تعادل كلّ تزيينات العالم ونحن لا نملّ أبدًا من رؤيتها»، ويخلص إلى القول في ما يتعلّق بالضوء القادم من الباب ـ القاطع: «إذا قمنا بمقارنة حجرة سكنٍ يابانية برسمٍ بالحبر الصيني، فسيقابل ’الشوجي‘ الجزءَ الذي يكون فيه الحبر أكثر تمديدًا، و’التوكونوما‘ المكان الذي يكون فيه أشدّ كثافةً». اليوم، وبسبب الحداثة والمواد الموجودة، يوجد أكثر من ثلاثة أنواعٍ من الـ«شوجي»: بالـ«واشي» (wachi)، وبالورق الياباني المضاف إليه البلاستيك، وعلى شكل صفيحةٍ شبه شفّافةٍ وغير قابلةٍ للكسر، أو ـ وهو أمرٌ جديدٌ يمكن العثور عليه على الشبكة العنكبوتية ـ: «’شوجي‘ مغطّى بالبوليستر» أو «أبوابٌ منزلقةٌ مع ورق الأرز ملوّنةٌ من أحد الطرفين وبيضاء من الطرف الآخر، مع زجاج أمانٍ للتقوية، يسمح بفصل الحجرات».

كان المنزل الياباني التقليدي مفتوحًا على نفسه، ولا تنعزل الحجرات بعضها عن بعضٍ إلّا بألواحٍ من الورق المقوّى (يبقى جزؤها العلوي مفتوحًا لتحسين التهوية في الصيف)، وكان ذلك يرغم كلّ شخصٍ على احترام «مسافةٍ» رمزية، أي على عدم التنصّت من أجل عدم سماع الأصوات، كلّ الأصوات، حتى تلك القادمة من الشارع. يلاحظ بوزو ماسابوو أنّ «واقع نوم عدّة أشخاصٍ في حجرةٍ واحدة يعبّر جيدًا عن رضا المرء بحاجةٍ واقعية: الحاجة إلى الشعور بالحميمية من حوله، بحرارة المجموعة الأسرية». وهو يعتقد أنّه لا بدّ ليكون ذلك ممكنًا من أن «تكون ’ذات‘ كلّ فردٍ محترمةً تمامًا، وكذلك صمته». كما

أنّه يشدّد على أنّ الابتعاد يُقابَل بقواعد صارمة في اللباس والملابس المعيقة: «هكذا يقترن كلّ منزلٍ بإيمائيةٍ معدّةٍ مسبقًا. تشكّل مفاهيم الخفر والعري وأساليب الجلوس والنوم والتصرّف كلًّا متداخلًا مع عمارة المنزل لا يمكن فصمه. [...] التربية الاجتماعية هي التي 'تعزل' الياباني في حجرةٍ صوتية حيث لا يكون بمفرده، بل يحميه الـ'ما' (ma)، هذا الفاصل الذاتي والقابل للتعديل الذي يميّز الكائنات عن الأشياء ويربط بينها». يذكّر فيليب بونان بأنّه حتى وقتٍ قريب، كانت لا تزال توجد كتيّباتٌ تربويةٌ للفتيات، تفصّل طريقة القرفصة لفتح فاصلٍ منزلقٍ («فوزوما» أو «شوجي») مثلما ينبغي، والتعابير المهذّبة التي يجب التفوّه بها لدى وصول ضيفٍ ومغادرته. «كلّما 'عُيّن' الحيّز بهذه الصلة أو تلك، نتذكّر ونتأكّد من هذه الحجرة أو الصالون أو صالة الطعام أو تلك. وفي كلّ مرّةٍ نتجاوز فيها حدودًا بين حيّزين، مهما بدت لامادية، تُبنى من جديدٍ ذهنيًّا الصفة الخاصّة بكلّ حيّز، العتبات المتعدّدة داخل المنزل: إنّها تأتي لتقيم قطيعةً، تمييزًا داخل كتلةٍ أحادية التكوين ترتبط بالحالة الداخلية. تمتلك الغرف، على مثال خلايا العضوية، غلافها الخاص، جلدها الخاص، فمها الخاص».

هكذا، وعلى الرغم من أبواب البيت الياباني وحواجزه المنزلقة الورقية أو بسببها، يفرض هذا المنزل على الإنسان قواعد حياةٍ جماعية تدخله بعمقٍ في الجماعة الأسرية والحضرية والوطنية التي ينتمي إليها ماديًّا، وذلك بسبب كونه بطريقةٍ ما في الداخل والخارج. إلى درجة أنّه أينما وجد وأينما ذهب في اليابان، يعود للغوص في حيّزٍ مماثل. وقد كتب جاك بوزو ماسابوو الملاحظة التالية: «عندما يجتاز يابانيٌّ من هوكايدو ثلاثة آلاف كيلومتر، فإنّه يجد في أوكيناوا المدخل المصنوع من الصلصال الذي يخلع عنده حذاءه، و'التاتامي' الذي يجلس عليه، و'التوكونوما'...». الفكرة الأولى هي العثور على نوعٍ من الملاذ الهشّ

والمؤقّت، مفتوحٍ على الطبيعة برحابة، يسمح لقاطنه بالعيش ضمن حميمية هذه الطبيعة وبأن يشعر عبرها بعدم دوام أيّ شيء. وكان رولان بارت قد شعر بذلك جيدًا في كتابه **إمبراطورية العلامات** (*L'Empire des signes*): «من انحدار الجبال في زاوية الحيّ، كلّ شيءٍ هنا مسكن، وأنا دائمًا في الحجرة الأفخم في هذا المسكن: هذه الفخامة [...] تأتي من أنّه ليس للمكان أيّ حدٍّ سوى سجّادته المصنوعة من الإحساسات الحيّة، من الدلالات الساطعة (أزهار، نوافذ، أوراق شجر، لوحات، كتب). [...] كما لو أنّ تقنيةً قديمة العهد تسمح للمنظر الطبيعي أو للمشهد بأن يحدث ضمن دلالةٍ نقية، وعرة، فارغة، أشبه بموضع كسر. إمبراطورية العلامات؟ نعم، إذا ما عنينا أنّ هذه العلامات فارغة وأنّ الشعيرة لا إله لها. [...] عندنا، لقطعة الأثاث توظيفٌ عقاري، في حين أنّ المنزل في اليابان كثيرًا ما يُهدم، وهو بالكاد أكثر من قطعة أثاث، وكما في المنزل الياباني المثالي، في الممرّ المجرّد من الأثاث (أو ذي الأثاث النادر)، ليس هنالك مكانٌ يشير إلى أيّ ملكيةٍ مهما صغرت: لا مقعد ولا سرير ولا طاولة يمكن أن يتشكّل فيها الجسد كذاتٍ (أو سيّد) لفضاء: المركز مرفوض [...]. ومثلما أنّ الفضاء لا مركز له، فهو قابلٌ للقلب أيضًا: تستطيع أن تقلب ممرّ شيكيداي (Shikidai) ولن يجري شيء، باستثناء قلبٍ لا عاقبة له للأعلى والأسفل، لليمين ولليسار: المحتوى مبعدٌ من دون عودة: أن يمرّ المرء أو يعبر أو يجلس على الأرضية (أو السقف، إذا ما قلبت الصورة)، ليس هنالك ما يمكن الإمساك به». سوف أستبقي من هذا العالم المجرّد من كلّ شيءٍ، والذي لا يمكن الإمساك به أو تكديره، والذي لا أعلم إن كان غير قابلٍ للتغيير، هذا المثَل الياباني الذي يعبّر أيضًا عن خفّةٍ لا تقارَن بغيرها ويمكن أن ينطبق على الأبواب الورقية بمقدار ما ينطبق على الأبواب الصلبة: «تصل السعادة أمام بابٍ يضحك».

3

أبواب أوقيانوسيا

«كان هيكل الخُصّ يتكوّن من أعواد خيزرانٍ ثخينةٍ مغروسةٍ شاقوليًّا وتربط بعضَها ببعضٍ برخاوةٍ ألـواحٌ أفقيةٌ من خشب الخطمي، وهي مثبّتةٌ بسيورٍ من اللحاء. كانت خلفية المبنى، المشيّد على شكل صفوفٍ متراصفةٍ من أغصان شجرة جوز الهند المربوط بعضها فوق بعض والتي كانت وريقاتها تتعانق بأسلوبٍ فنّي، منحرفةً قليلًا عن العمودية وترتفع في طرفها الأقصى عن البايبا[727] (paepae) إلى حدود عشرين قدمًا من سطحها: من هنا كان السقف المائل المغطّى بأوراقٍ طويلةٍ نحيلة من النخيل الزيتي ينحدر نحو التربة بزاويةٍ حادّةٍ حتى خمس أقدام، حيث تهبط عن حوافّه زوائد على شكل ثمار البلوط على واجهة المسكن. وكان هذا المسكن يتكوّن من عصيٍّ نحيلة، تشكّل ما يشبه سلّةً مثقّبة، تزيّنها بذوقٍ رفيعٍ أربطةٌ من النباتات المتسلّقة المتعدّدة الألوان التي تفيد في الإمساك بعناصره المكوِّنة. كانت جوانب الخصّ مبنيةً بالطريقة عينها، فيقدّم بذلك ثلاثًا من واجهاته لدوران الهواء وكان بمجمله كتيمًا للمطر.

[...]

ينحني المرء قليلًا فيجتاز فتحةً ضيّقةً في الواجهة الأمامية، ويرى أمامه وهو داخلٌ جذعي نخيلٍ مستقيمَي الأضلاع تمامًا ومصقولين، يمتدّان على طول المبنى كلّه.

---

(727) البايبا: بلاطاتٌ حجريةٌ كبيرة (من البازلت مثلًا) كانت تُستخدم كأساسٍ للمباني والبيوت الخشبية البولينيزية.

[...]

خارج المسكن، في المنطقة الأمامية، يرتفع سقفٌ منحدرٌ يفيد كملحقٍ بالمطبخ أو مكانٍ لحفظ الطعام وتوجد فيه صفوفٌ من موادّ شتّى للاستخدام المنزلي. على بعد بضع ياردات من البايبا، يوجد عنبرٌ واسعٌ مصنوعٌ من أغصان شجرة جوز الهند ويُصنع فيه البوبوي[728] (popoi) بالإضافة إلى الأعمال كافّة المرتبطة بالطبخ.

هذا عن الخصّ وملحقاته، ولن نَغفل عن الاعتراف بأنّه لم يكن بالإمكان أن يكون متأقلمًا على نحوٍ أفضل مع هذا المناخ وهذا الشعب. لقد كان منعشًا وحسن التهوية، كما كان نظيفًا نظافةً فائقةً ومرتفعًا فوق الرطوبة وأوساخ التربة».

Herman Melville[729], *Taïpi*, 1846

---

(728) البوبوي: نوعٌ من العجينة المخمّرة تصنع من الأورو (*uru*)، ثمرة شجرة الخبز.

(729) هيرمان ملفيل (1819 ـ 1891)، روائيٌّ وباحثٌ وشاعرٌ أميركي، من أشهر رواياته **موبي ديك** (*Moby Dick*).

على كلٍّ من ذرى كاليدونيا الجديدة[730]، هذا البلد ذو التلال التي لا تُعدّ ولا تُحصى، كانت تنتصب في الماضي في الأعالي مزارع القلقاس المتموضعة على مدرّجاتٍ ضيّقة، حيث يشير رأس سهم القمّة من بعيدٍ إلى وجود خصٍّ فيه موقد. كان الكاناك[731] يحبّون أن يكونوا في الأعالي ليكون لديهم مدًى للنظر وهواءٌ وبرودة، لكن كان لديهم، ولا يزال، حسٌّ للتنظيم والبناء شديدُ الخصوصية. يصف موريس لينهارت[732] (Maurice Leenhardt) في كتابه **ملاحظات إثنولوجية عن كاليدونيا الجديدة** (*Notes d'ethnologie néo-calédoniennes*) كيف أنّه في وادي هوايلو (Houaïlou)، «على منحدرٍ ضئيل، والأفضل على ذروة القمم، سوّى الكاناكيّ التربة وحرق جذوع الأشجار وكشَف جذورها [...]. لقد رفع السطح المنظّف ليصبح طريقًا معبّدًا يبلغ ارتفاعه خمسين سنتيمترًا، محدّبًا قليلًا، ويتراوح طوله بين عشرة أمتار وستين مترًا، وعرضه بين خمسة أمتارٍ واثني عشر مترًا وضعت على جانبيه وبمسافاتٍ منتظمة أشجار الصنوبر الرمزية أو أشجار جوز الهند المزروعة بحيث يزيد تقوّس منحناه من رحابة المشهد. يشكّل هذا كلّه جادّةً جميلةً ينتصب في آخرها، كما في قاع لوحة، الخصّ الكبير الذي يعتليه سهمٌ من الأصداف البيضاء». تُطلَق على هذا المسار تسمية «بوويويه» (boeweye) التي تعني السطح الذي نمشي عليه أو مسار

---

(730) كاليدونيا الجديدة: إقليم تابع لفرنسا يقع في أوقيانوسيا، كانت مستعمرةً فرنسيةً في القرن التاسع عشر وعاصمتها نوميا.

(731) الكاناك (Canaques): سكان كاليدونيا الجديدة الأصليّون.

(732) موريس لينهارت (1878 ـ 1954)، كان قسًّا بروتستانتيًّا فرنسيًّا ثمّ كرّس نفسه للإثنولوجيا. عاش حوالى ربع قرنٍ في كاليدونيا الجديدة ثم انتقل إلى أفريقيا الجنوبية وعاد بعدها إلى فرنسا حيث درّس في جامعاتها.

القوت، الذي يجب فهمه بوصفه «خارج» الخصّ، ومن جانبٍ آخر يبطّنه، أو بالأحرى يقع أسفله، دربٌ مرسومٌ في مستوًى أدنى تُطلق عليه تسمية «سير» (sère)، ويؤكّد الباحث الأنثروبولوجي أنّ «هذين النمطين من الدروب دائمان وأساسيان». بطبيعة الحال، سوف يتنوّع وجود دربٍ وتصميمه بحسب تشييد الخصّ والكوخ ووظيفتهما ووفق ما إذا كان الأمر يتعلّق بمسكنٍ رئيسيٍّ أو بمسكنٍ موسميٍّ أو بقرية ـ ملاذ.

يحكم الخصَّ في أوقيانوسيا عددٌ كبيرٌ من القواعد التي يُستحسن عدم انتهاكها، والتي تبرز ترتيب الأماكن بمقدار ما تُبرِز الهرمية الاجتماعية. هنا، يكون خصّ «سيّد الدرب» أو منزل البكر الذي هو قائد المجموعة المحلّية، مستندًا عمومًا إلى الغابة المقدّسة. تُزرع هذه الغابة بأشجار الصنوبر العمودية والأثأب وسط الأجمات، وهي محرّمة. إنّها أجمةٌ حقيقيةٌ مقدّسة وفيها يمكن إيداع جماجم الأسلاف وممارسة السحر أو الكهانة على قِدْر التضحية التي تسمح بذكر أسلاف عائلات المكان. في مكانٍ أقرب إلى الخصّ، يوجد «مذبح بواكير البطاطا الحلوة» الذي تشير إليه قصباتٌ تحمل عُقَدًا من القش تشير هنا أيضًا إلى تحريمٍ مُطلَق. يجب أن يبقى في أذهاننا أنّ الوصول إلى الروابي القديمة وإلى الفضاء المحيط بالخصّ الكبير محكومٌ بقواعد شديدة الصرامة لا تزال مطبّقةً يوميًّا حتى الآن: لا يستطيع أحدٌ الدخول إليها إلّا بصحبة «ذلك الذي يفتح المسار» وبعد أن يقوم بالحركات اليومية: عطايا وكلمات لتهدئة أرواح الموتى. في هذه الأماكن عينها، يتخلّى المرء عن الأشياء والبقايا التي تعدّ مثقلةً بالقوّة والتي يجب بالضرورة إبعادها عن الأحياء. آنذاك، تصبح هذه الأشياء محظورةً بصرامة، محرّمات، ولهذا السبب لا يمكن الوصول إليها ماديًّا. ليس هنالك بالتالي ما يثير الاستغراب في أن يسوّر هذا المكان المقدّس لتعيين حدوده، ويكون ذلك في كثيرٍ من الأحيان عبر نصب سياجٍ مصنوعٍ

من المواد الخفيفة، كأوراق شجر جوز الهند المضفورة أو الأوتاد أو الأغصان أو غيرها.

في كاليدونيا الجديدة، وعلى نحوٍ أوسع في ميلانيزيا، يتمتّع الحاجز، أكثر من الباب، برمزيةٍ بالغة القوّة في المخيّلة. بالنسبة إلى الكاناك، تعيّن الحواجز الحدودَ التي يجب عدم تجاوزها بمقدار ما تعيّن «المسار» الذي يجب سلوكه واحترامه. هكذا، تبني كلّ أسرةٍ أو مجموعة أسرٍ باحاتٍ وصفها لينهارت وصفًا ممتازًا: «الباحة [...] مغلقةٌ بحاجزٍ منزليّ خفيفٍ مصنوعٍ من أوراق شجرة جوز الهند والخشب التي تستند إلى درابزين مرتفع. وهكذا، فهي تشمل الخصوص الدائرية والـ«مواكو» (moako) (الخصوص المستطيلة)، ونادرًا ما تشمل خصوصًا متطاولة. تتكوّن المساكن المهمّة من عددٍ متوالٍ وغير منتظمٍ من الباحات التي توحي للغريب بأنّها متاهة». يجب أن نضيف أنّه من أجل الذهاب من خصٍّ إلى آخر، تبلغ الدروب حدًّا من الضيق يمنع شخصين من أن يمشيا متجاورين، ما يضفي مزيدًا من الصعوبة على التنقّلات. أمّا الحيّز اليومي، فهو مهمٌّ من حيث إنّه المكان الذي تقال فيه الكلمة. وفي ما يخصّ الباب والحواجز، فهي تدعو إلى تجاوز ممرٍّ بين المجالات الدنيوية والمقدّسة، أكثر ممّا تدعو إلى الدخول. إذا ما نظرنا إلى الحاجز من الخارج، فهو يعبّر عن المحرّم، لكن إذا نظرنا إليه من الداخل، فهو يحمي مثلما يحمي بابٌ حقيقي. يذكر الباحث الإثنولوجي ألبان بنسا[733] (Alban Bensa) في كتابه **مسارات التحالف** (*Les Chemins de l'Alliance*)، أنّ «مصادره الحالية تركّز على الوظائف الاجتماعية لهذه الحواجز التي لم نعد نجد لها أثرًا اليوم: كان بعضها مفتوحًا في الأعالي، معيّنةً بذلك إمكان الوصول إلى الخصّ الموجود

(733) ألبان بنسا (1948 ـ)، باحثٌ أنثروبولوجيٌّ فرنسي، متخصّص في كاليدونيا الجديدة وثقافة شعب الكاناك.

أعلى الدرب لابن سيّد الـ«بوموو» (pomwo) (الدرب) البكر المتزوّج على سبيل المثال، وبعضها الآخر مغلقٌ في الأعلى، لكنّها مفتوحةٌ فقط نحو أسفل الدرب (للأبناء الأصغر سنًّا والرعايا). إذًا، كان توجّه الحاجز وترتيب فتحاته، وكذلك على الأرجح توجّه فتحات الخصوص الدائرية، علاماتٍ على المنزلة الاجتماعية والوظيفة الاجتماعية التي تحوزها كلّ مجموعةٍ عائليةٍ في البوموو تجاه سيّد الدرب». لئن كان يمكن أن نرى في السابق في معظم الأماكن حواجز غريبةً مائلة، كما في جزر لوايوتيه[734] (Loyauté)، تعيّن الحدّ العقاري، فإنّ الحاجز النباتي ـ مثل الحور الكاناكي ـ الذي يرمز إلى الحدود العقارية لا يزال حتى الآن يلعب دور التحريم، الذي يجب أن يضاف إليه أنّه كلّما كانت الحواجز مرتفعة، كانت علامةً على الاحترام. يجب أيضًا أن نأخذ بالحسبان أنّ نباتات المسار تحيل إلى الزمن الأسطوري حيث كانت الكلمة تجول على شكل ريحٍ من سهم القمّة في «الخصّ الكبير» إلى خصّ «الابن الثاني» وتبثّ حيويّتها في الأماكن والناس.

يقتضي وجودُ حواجز استحداثَ ممرّاتٍ فيها. الممرّات المتعرّجة معروفةٌ جيدًا في كاليدونيا الجديدة. وكان هذا النمط من الممرّات المحميّة موجودًا خلف الخصّ الكبير لدى أهل الجنوب، ويسلكه، تقريبًا مثل ممرٍّ سرّي، أولئك الذين يقيمون علاقاتٍ متميّزةً مع الزعامة الكبرى. كما كان هذا الباب الثاني، مثله مثل الفتحة في قاع الخصّ الكبير، يُستخدم للهرب من مهاجمين محتملين.

عندما نغادر «أعلى الدرب»، نجد في الأسفل مباشرةً حيّزًا من العشب توضع فيه الهبات. على كلٍّ من جانبي الخصّ الكبير، ثمة بيتٌ دائريٌّ يؤوي «السحرة والحرّاس» الخاصّين بالزعامة. ثمّ نجد

(734) مقاطعة جزر لوايوتيه هي إحدى المقاطعات الثلاث التي تشكّل كاليدونيا الجديدة.

الخصوص التي تُطلق عليها تسمية خصوص «المديرينَ والنديمَيْن والمستشارينَ» ثمّ خصوص أبناء الزعيم. ثمّ نجد ونحن نهبط الدرب خصوصًا دائريةً تُطلق عليها تسمية «خصوص الرجال» وخلفها الخصوص المخصّصة للنساء والأطفال غير الملقّنين. يمتدّ درب الزعامة بين الخصّ الكبير والباب الكبير ويشكّل محور تبادلٍ لا تستطيع دينامية المجتمع الاستغناء عنه، فهنا، في هذا الدرب العشبي المركزي، تحدث الأحداث كافّة المرتبطة بالجماعة، والتبادلات بين العشائر، وأعراف الولادة والزواج والحداد وما إلى ذلك. وإذا ما نزلنا بمقدار 65 إلى 90 مترًا، وبعد اجتياز الحجارة التي تعيّن منتصف طريق التبادلات، نصل إلى أسفل الدرب. إنّه حيّزٌ مفتوحٌ للجميع تُطلق عليه تسمية «باب أسفل الدرب»، حيث تجري الرقصات وتُعقَد اللقاءات. المجمل مغلقٌ بخصٍّ صغيرٍ دائري، خصّ الابن الأصغر وخصّ الضيوف إن وجدوا، مقابل خصّ البكر. عبر «باب أسفل الدرب» هذا كانت تصل تقليديًّا العشائر القريبة عن طريق الأم، أي بعبارةٍ أخرى الأقارب المسجّلون في سلالة نسب السلَف وكلّ مسافرٍ يطلب الوصول إلى مقرّ الزعامة.

بابٌ صغيرٌ وعادةٌ كبيرة

في سرديات جيمس كوك[735] (James Cook) الذي زار خصًّا كبيرًا، يقول إنّ «المرء يدخل إليه عبر بابٍ صغيرٍ هو ثقبٌ على شكل مربّعٍ متطاول، بالكاد يسمح ارتفاعه بمرور رجلٍ يحني ظهره إلى أقصاه». في مطلع القرن التاسع عشر، ذكر لابيّارديير[736] (La Billardière)

---

(735) جيمس كوك (1728 ـ 1779)، بحّارٌ وواضع خرائط ومستكشفٌ بريطاني، كان أوّل أوروبي يطأ ساحل أستراليا الشرقي وكاليدونيا الجديدة وجزر ساندويتش الجنوبية وهاواي.

(736) جاك ـ جوليان أوتو لابيّارديير (1755 ـ 1834)، عالم نباتٍ فرنسي، جاب مناطق عديدةً في العالم.

في أطلسه **علاقة السفر بحثًا عن بيروز** (*Relation du voyage à la recherche de la Pérouse*) أنّ «الباب الذي يبلغ ارتفاعه مترًا وعرضه نصف مترٍ كان يغلَق أحيانًا بورقةٍ من شجرة جوز هند وريقاتها مضفورة. كان لعددٍ من هذه الأبواب مصراعان مصنوعان من ألواحٍ نُحت على طرفها العلوي رأس رجلٍ بطريقةٍ فجّةٍ إلى حدٍّ ما». أمّا الأب لامبير[737] (Père Lambert) الذي لم يؤلّف كتابه **عادات وتطيّرات الكاليدونيين الجدد** (*Mœurs et superstitions des Néo-Calédoniens*) في العام 1900 عبثًا، فهو يطمئن قرّاءه حول «توحّش» هؤلاء الآخرين، الآخرين إلى درجة أنّه كتب: »... بالكاد يسمح عرضه بمرور رجل. بل في بعض الأحيان، يكون منخفضًا وضيّقًا إلى درجة أنّ المرء لا يستطيع الدخول منه إلّا زحفًا». في مطلع القرن العشرين، ذكر الأنثروبولوجي موريس لينهارت في كتابه **أهل الأرض الكبيرة** (*Gens de la Grande Terre*)، أنّ «الفتحة الوحيدة في الخصّ هي الباب، المفرط في ضيقه وذو السواكف المنحوتة. وهو يغلَق بستارةٍ من القش عكس اتجاه الريح التي يمكن أن تدخل، أو لتعيين إغلاق الخصّ في غياب السيّد». وهو يوضح بصدد زعيم قرية فوه (Voh)، وكان يشكّ بآخرين غيره، بأنّه «كان لديه لإبقاء هذه الستارة غير قابلة للانتهاك قفلٌ قيّم. في مكانٍ منكفئ، عشّ دبابير!». بصورةٍ عامة، «الباب منخفضٌ إلى حدٍّ ما وكان يجب الانحناء للدخول إلى خصّ»، هذا ما لاحظه ماري جوزيف دوبوا[738] (Marie-Joseph Dubois) في ثلاثينيات القرن العشرين بصدد «أهل ماريه» (Gens de Maré)

---

(737) الأب لامبير (1822 ـ 1903)، مبشّرٌ عمل في كاليدونيا الجديدة من العام 1855 إلى عام وفاته.

(738) ماري جوزيف دوبوا (1913 ـ 1998)، مبشّرٌ وعالم لغاتٍ وإثنولوجي. درس الفلسفة والعلوم الدينية وذهب كمبشرٍ إلى نوميا (كاليدونيا الجديدة) ودرس لغة السكان الأصليّين وأجرى اكتشافاتٍ أنثروبولوجية.

في جزر لوايوتيه. وهو يوضح، مثله مثل الشهود الآخرين: «مثلما أنّه (الباب) في معظم الأحيان بارتفاعٍ أدنى من قامة رجل، فكثيرًا ما يصطدم به شارد الذهن». بالنسبة إلى الخصّ الأكثر انتشارًا في شرق ماريه، الـ«بيدو» (bedo)، وهو خصٌّ سقفه ذو منحدرَيْن أطرافه مستديرةٌ تجتمع فيه مجموعةٌ أسرية، الباب موجودٌ على إحدى الواجهات المسطحة في المبنى. وعلى مثال الـ«ميكو» (meico)، وهو خصٌّ كبيرٌ دائريٌّ للمحاربين، والـ«مي إينينا» (me inina)، وهو كوخٌ صغير، يشار إلى باب الـ«بيدو» بكلمة «باما» (pa'ma)، ثقب الباب، ويشار إلى القطع الثلاث التي تشكّل مصاريع الباب بكلمة «وازانا» (wazana). في هذه المباني كافّة ذات الباب الواحد، وعلى الرغم من وجود بابٍ ثانٍ في بعض الأحيان، تطلَق على جدار القاع المقابل للباب تسمية «ثابا» (thaba). يوضح دوبوا: «أمّا خشب العتبة، فتطلَق عليه عادةً تسمية 'غور باما' (gore-pa'ma)، حارس ثقب الباب [...]. كانت خصوص المحاربين، الـ'تاكايريه' (tacaere)، والتي يظهِر اتّساعُها قوّةَ المجموعة، إمّا دائرية، 'ميكو' (meico)، أو مستطيلة. ويمكن أن يكون لها بابٌ له أطرٌ منحوتة، 'وانغوم' (wa-ngom)، أي «الرجل الصغير». ويشير مكانٌ استدلالي قرب بوهان ويدعى 'ميه وانغوم' (Me-wangom)، أي 'بيت المصاريع'، إلى وجودها بصورةٍ مباشرة». كان الـ«تاكايريه» الهدفَ الرئيسي للعدوّ الذي يهاجم قريةً ما، إذ كان العدوّ يسعى دائمًا إلى إحراقه وكسر المصاريع إلى درجة أنّ «ذلك أحبط عزيمة من أرادوا إعادة صنع مصاريع جديدة باستمرار»، هذا ما قيل لدوبوا. كما كانت توجد ضروب حمايةٍ أخرى أقوى سحرًا على أبواب المنازل الإفرادية، لكن «بصورةٍ خاصّةٍ منازل الزعماء والـ'تاكايريه' (التي) كانت مؤطّرةً بما يدعى 'دوريهمو' (du-re-hmu): 'عظم شجرة الأكاسيا'، وهو خشبٌ جافٌّ مع

أغصانه. كان يمكن أن تعلّق عليه تزيينات، لكن كذلك جماجم الأعداء المهزومين والمأكولين، وبخاصةٍ بعد حربٍ ما. كانت عظام الأعداء ترمى على سطح الخصّ». ينقل دوبوا كذلك أسطورة «صبي ثي (Thi) الصغير»، التي تقول: «وتحت الحجر (في باب إغلاق السياج) دُفنت أشياء (مقدّسة) للشيوخ. وقُدّم لهم الطعام. هذه الأشياء تنذِر، فحين سيأتي العدوّ، سيصرخ الحجر: 'هيه! ها هو العدو!'». وكان خصّ الزعيم والـ«تاكايريه» بالفعل محوطَيْن بأسيجةٍ مادّيةٍ وسحرية: «كانت تُدفن أشياء سحرية، 'كاز' (kaze)، أسفل أوتاد السياج المصنوعة من خشب الجياك، وكذلك أسفل الجدران المصنوعة من الحجر لضرب من يهدمونها. كان سيّد المكان يقدّم عطايا من الطعام لهذه الأشياء السحرية. وفي حال حدث نقصٌ في الطعام، يكون لمعدة المالك أولوية على معدة الروح. كانت الكاز تأتي لتستجدي جرايتها وتبدي انزعاجها عن طريق الظهور ليلًا على شكل لهب، شعلاتٍ ملتهبة تتنقّل وتختفي عندما يقترب منها المرء أكثر ممّا يجب». هكذا تكون المنازل محميّةً جيّدًا.

لكن من الناحية الدفاعية، أو بدقةٍ أكثر من حيث «الإغلاق» المادّي مثلما نفهمه في الغرب، الأشياء ـ أو بالأحرى الأبواب ـ غير موجودةٍ على الإطلاق في ميلانيزيا. يذكر لينهارت بصدد كاليدونيا الجديدة: «غير أنّه يوجد نوعٌ من الإغلاق: لوحٌ مسطّحٌ على الجانب الذي شُقّ فيه، محنيٌّ قليلًا على الجانب الذي حاول فيه صانعه تربيعه. إنّه اللوح الوحيد في المنزل، وله اسمٌ خاصّ. وعلى الرغم من أنّه صُنع لسدّ الفتحة، فهو يبدي سطحًا منبسطًا مفيدًا إلى درجة اللجوء إليه في كثيرٍ من الظروف. وهو يستخدم اليوم للعب الورق، لكنّ له وظيفة أكثر نبلًا: تحكي الأسطورة أنّهم يضعون الباب على الأرض ويفردون عليه صفوف لآلئ النقود. واللوح أقصر من أن يحتويها، حيث تغطّي الصفوف ثلاثة أطوال. يقولون إنّ هذه النقود ستكون المرأة التي نطلبها...

هكذا كان باب الكاناك قطعة أثاث، الطاولة الجليلة لعقود الزواج». يشير روجيه بـولاي[739] (Roger Boulay) في كتابه الجميل **بيت الكاناك** (*La maison kanak*)، إلى أنّ القطع المنحوتة التي تشكّل الباب توضع بعد بناء الهيكل ووضع الغطاء، وهذا أمرٌ مهمٌ من حيث الرمزية النسبية للباب في ميلانيزيا. «تُغرَس في البداية قصبتان (upwârâ au pwijuru)، توضعان على جانبي المدخل وتحملان عارضةً يستند إليها المرء للدخول بسهولةٍ أكبر إلى الخصّ. ثمّ يخفي المرء تحت حجرٍ مسطّح (atü tööwe)، يوضع بين العارضتين اللتين تؤطّران الباب، وهذا مِن التحضيرات السرّية التي تحمي المنزل. يجب عدم وضع القدم اليمنى عليها وأن يُذكر بصددها دور العشائر «الحارسة» التي تكون الصيغة المكرَّسة لها، «هذه حصى المدخل والأخشاب التي تستند إليها لتعبر عتبة الخصّ». يؤكّد بولاي أنّ الأبواب كانت بالفعل واطئة، واطئةً بمقدار جدار أسفل الخصّ، أي بين مترٍ وعشرين سنتيمترًا ومترٍ وخمسين سنتيمترًا، ثمّ يضيف وهو يتّهم النظام الاستعماري والتطهير العرقي الحتمي الذي نتج عنه: «يبدو أنّها لم تتبدّل إلّا بالصلة مع نصائح أطباء الصحة العامّة بدءًا من العقد الثاني من القرن العشرين». وبالعودة إلى تقنية البناء المحضة، إطار الباب الزائف الذي يشكّل الباب هو عنصرٌ حاملٌ من أهمّ أوتاد محيط الخصّ. وما يلفت انتباهنا في الباب هو الأطر الزائفة المنحوتة والموضوعة خارج الخصّ، وهي كبيرةٌ جدًّا. تثبّت هذه الأطر في الدعامة الأفقية وفي الأعمدة المجاورة، وتغرَس «القدم» في التربة أو بالأحرى تُحتَجز بحجارةٍ مجلوبةٍ تفيد في بناء رابية الخصّ، و«هي» الأسلاف في المسكن. يحمل أعلى النحت على الدوام تمثيلًا للوجه البشري، على جبهته نوعٌ من التاج من نسيجٍ متصلّبٍ يُعتقد أنّه تصويرٌ لحبل الصاعقة. أمّا الوجه، فنجد فيه، في كثيرٍ من الأحيان، أنفًا ضخمًا، وفي

---

(739) روجيه بولاي (1943 ـ)، إثنولوجيٌّ فرنسيٌّ متخصّصٌ بفنون أوقيانوسيا.

بعض الأحيان، لسانًا ممدودًا جدًّا. بطبيعة الحال، هذا الزوج المنصوب على نحوٍ متناظرٍ أمام باب «الخصّ الكبير» مجنسن. كثيرًا ما يكون وضع الحلية الوحيدة الموجودة، وهي مشط، هو وحده ما يشير إلى ذكورة الوجه أو أنوثته. تغطّي أسفلَ إطار الباب الذي يمثّل ثلاثة أرباع المنحوتة أشكالٌ هندسيةٌ متنوّعة: منخران، عينان، خدّان، وهي تقدّم معلوماتٍ حول أصل المنحوتة الإقليمي. من جانبٍ آخر، يمكن أن يتكوّن المصراعان من قطعٍ غير متجانسة إلى حدٍّ ما من حيث طرازها، كما يمكن في بعض الأحيان ألّا يوجد مصراعان، بل عدّة مصاريع ملصوق بعضها ببعض.

يسمح لنا القسّ لينهارت (1878 ـ 1954) الذي كرّس نفسه لعالم الكاناك فعليًّا وكان أحد أكبر العارفين به، بمغادرة قوانين الفنّ الجمالية الخاصة بنا، بإدخالنا في رؤية العالم الميلانيزي. هكذا سمح لنا بفهمٍ أفضل لما تعبّر عنه هذه المجتمعات التي طالما عُدّت «متوحّشةً إلى الحدّ الأقصى» عبر فنّها. وهو يقول ـ بصوابٍ كبيرٍ ـ إنّ الفنان، أيًّا كانت الثقافة التي ينتمي إليها، يترجم ما يراه، «وما يراه ليس الواقع المجسّد على الإطلاق ومستويات الكائن المادي البشري، بل هي كتلٌ وحوافّ، خطوطٌ تميّز الشخصية الموجودة تحت أنظاره أو في فكره وتستثير شتّى الانطباعات لديه». في كاليدونيا الجديدة سوف تلفت انتباهه لدى شخصٍ تفاصيل، مثل قلنسوته أو أنفه أو لسانه. انطلاقًا من هذا الإحساس، «سيحاول الكاناكي أن يحفر مواضيعه ويقولبها. إنّه يدوّر الوجوه بوجنتين ممتلئتين بارزتين، ويصنع أقواس الحواجب، ويعثر بخاصةٍ على مرونة هذا الأنف الميلانيزي الذي يجده لطيفًا. هو يعلم أنّ جانبي الأنف الكبيرين علامةٌ على الجمال. وهو يبرز سماكتهما، ويصل إلى هذه الأنوف المصنوعة من ثلاثة مثلثاتٍ متداخلة، ذات القيمة التزيينية الرفيعة. يمنح الأنفَ قيمته الكاملة، ويجعل منه العنصر المميّز لجمالية السحنة. مع هذا الحسّ المرتبط بالخطّ والنتوء والكتلة والعمق، المترافق

مع كلّ ضروب رهافة الرؤية الذهنية التي تدوم في التفاصيل كاللسان». ما يدهشنا أكثر هو هذا اللسان الطويل الذي يخرج من فم هذه الشخصيات التي تحمي مدخل البيوت. في ثقافتنا الغربية، يُعدّ «مدّ اللسان» لنا على عتبة الباب من أيّ شخصٍ كان، أمرًا غير مألوفٍ، وربّما نتلقّاه بوصفه علامةً شديدة السوء، بل إهانة، غير أنّ دلالة هذا الأمر هنا، على الطرف النقيض حرفيًّا لثقافتنا، مغايرةٌ تمامًا. يتعلّق الأمر بالتعبير اللفظي المعلّق للسانٍ يبلغ من قيمته وقوّته و«أوّليّته»، كي لا نقول نجاعته، أنّ سقوطه حتى أسفل اللحية دليلٌ قاطعٌ على الامتنان، سواءٌ لمن كان نموذجًا لإطار الباب هذا أم بالنسبة إلى من يراه. وإذا أردنا أن نفهم نمط العلاقة بالعالم التي يقيمها الكاناك حتى اليوم، فإنّ حكاية «اللسان» هذه مثالية. في كتاب موريس لينهارت المعنون دو كامو (*Do Kamo*)، وضع المؤلّف فصلًا كاملًا بعنوان «تصوّر الكلام في علم الجمال» يبدو لي أنّه من بين أجمل المقدّمات للثقافة ووسيلةٌ مجازيةٌ لفهم «عادة» الكاناك والتي لا يمكن من دون إدراكها الوصول إلى عالمهم. يؤكّد لينهارت بخصوص هذه المنحوتات، أنّه يجب ألّا نرى «أي بذاءةٍ عند النحّات، بل تفكيرًا ورعًا مدرجًا في هذا الشأن. أليست عضلة اللسان هذه هي التي تحمل فضائل التقليد والقرارات الذكورية وكلّ تجلٍّ للحياة تحمله الكلمة في ذاتها؟ اللسان هو داعم القوّة. وهكذا، عندما يريد النحّات أن يشرّف السلف الذي يرسم ملامحه، فهو يمدّ اللسان، طويلًا وعريضًا، ويرسمه، وهو بالنسبة إليه تجسيدٌ لقوّة السلف وحكمته عندما كان هذا السلف يفكّر ويتحدّث ويتصرّف. اللسان هو رمز تلك الأفعال الثلاثة التي يتضمّنها مصطلح كلام [...]. بعيدًا عن تحليل القسمات غير الجمالية في اللسان وعن التفكير بأنّه من الأفضل تركه بوصفه قَسمةً مدوّرةً خلف الأسنان، بعيدًا عن تأمّله بريبة، على طريقة إيسوب[740] (Ésope) [...] فقد أخذوه

(740) إيسوب (620 ـ 564 ق. م.)، كاتبٌ يونانيٌّ اشتُهر بكتابه خرافات إيسوب.

بأكمله، مثلما تقدّمه الطبيعة، وفكّروا فيه مثلما يُفصح عنه الفعل، متحرّكًا وفعّالًا. وبما أنّ لسان الإنسان محمّلٌ بحكمته، بكلامه، ويعكس إلى الخارج معطيات حياة الأجيال، فقد سحبوه بدوره إلى الخارج، جعلوه خارجيًّا، وبسطوه على الذقن بوصفه رمز فكرةٍ يؤكّد الكلام [...]. في علم الجمال، اللسان هو الكلام في اللغة». هذا هو المعنى الذي تجب ضمنه قراءة هذه الألواح المنحوتة التي تسهر على جانب الباب وفهمها، فهي التي تقترح الفكر والخطاب والفعل، أي العناصر التي تكوّن حياة العالم الكاليدوني وفلسفته عينها.

نتذكّر تلك الحقبة التي كانت فيها كاليدونيا الجديدة تحتلّ المكان الرئيسي في الأخبار واتفاقيات ماتينيون[741] (Matignon) التي تلت ذلك، حيث اضطرّ موظّفو البلد الأمّ[742] إلى «ممارسة التقليد». وبالفعل، طووا أنفسهم لدخول «خصٍّ كبير». وقد حدث لي ذلك أنا أيضًا أثناء إقامةٍ في العام 2001 في كاليدونيا الجديدة. كنت هناك، جالسًا على الأرض بساقين ممدودتين وبقيت في «صمتٍ طويلٍ وصائب» مع مضيفيّ الكاناك. ثمّ خرجت وأنا لا أعلم تمامًا ما حدث لي سوى أنّ الجميع كانوا مسرورين من هذا الوقت الجميل الذي

(741) اتفاقيات ماتينيون (1988): هي اتفاقياتٌ عقدها في فندق ماتينيون (مقر رئاسة الوزراء الفرنسية) وفدان من كاليدونيا الجديدة، أحدهما مناصرٌ للاستقلال والثاني مناهضٌ له، برعاية الحكومة الفرنسية على أثر نزاعٍ بين المناصرين لبقاء كاليدونيا الجديدة ضمن الجمهورية الفرنسية والاستقلاليين. نصّت الاتفاقيات على فترة عشر سنوات من التنمية، مع ضماناتٍ اقتصاديةٍ ودستوريةٍ لجماعة الكاناك يليها استفتاءٌ على استقلالهم. وقد سمحت هذه الاتفاقيات بإعادة السلم الأهلي وحدّدت إطار الوضع الانتقالي في كاليدونيا الجديدة حتى العام 1998. وافق الفرنسيون على هذه الاتفاقيات باستفتاءٍ أجري بتاريخ 6 تشرين الثاني/ نوفمبر 1988.

(742) المقصود هنا فرنسا، إذ إنّ كاليدونيا الجديدة مستعمرةٌ فرنسية ومن المتوقع أن يُحسَم أمر استقلالها ببلوغ العام 2018، وذلك بموجب اتفاقيات ماتينيون (انظر الهامش السابق).

أمضيناه معًا... يكتب لينهارت: «كيف نستطيع فهم أن تنتج الكلمة من أحشاء، وأن تطلَق على القلب تسمية ʻسلّة الكلماتʼ؟ وكيف يمكن الدخول في الفوارق الدقيقة التي تفصل عند الميلانيزيين الكلام والفعل والشيء، الفكرة الدقيقة بأنّ الفكر يولد من حركات الأحشاء الرجّاجة، وأنّه المحرّض المنبثق تحت صدمة الانفعال، وأنّه يحفّز على التصرف؟ [...]. لكنّه يبقى عابرًا مثل حركة. ليس له قوامٌ ما دام لم يمسَك به ويثبّت ويُصَغ ويُحَط به ويُلتقَط على الشكل الذي يشير إليه الكاناكي بكلمة ʻنوʼ (no) (فعل كاشف). يبدو الكلام هنا بوصفه لسان حالٍ ضروريًّا كي يصل الفكر الانفعالي إلى بداية التشييء. يصعد الفكر الحيّ الماضي من الأحشاء مثل تدفّق، وتصبح الفكرة أكثر دقّةً: الفكرة هي الحماية من واقعٍ على خلفيةٍ، كالتمثيل، أو الصورة، أو بدء وعي يمتدّ عبر الأجيال. وهذا هو السبب في أنّ الكاناكي هو كلام»، كما يقول ذلك مجدّدًا اللسان الجميل الذي كان يستقبلنا بموجب التقاليد على الباب.

محظوراتٌ على الأبواب كافّة

يحكي الأميرال دوبوتي توار[743] (Dupetit-Thouars) الذي أقام في تاهيتي في العام 1838، كيف أنّه حضر ذات يومٍ نقلًا غير مألوف: «بينما كنّا نتحدّث مع الملكة، شدّ انتباهي منزلٌ كنت أراه عبر الأشجار، بدا لي أنّه يقترب منّا. بعد أن عركتُ عينيّ جيدًا، تيقّنت تمامًا أنّه بالفعل يتقدّم باتجاهنا. كان بيتًا ينتقل، أو بالأحرى يغيِّر موقعه، كان الهنود يمسكون بعددٍ كبيرٍ من الأعمدة التي تحمل السقف، وبجهدٍ متزامن انتزعوا ذلك المنزل من المكان الذي كان يحتلّه وجلبوه لوضعه قرب مسكن الملكة الجديد. وُضع المنزل على الفور في

(743) أبيل أوبير دوبوتي توار (1793 ـ 1864)، بحارٌ ومستكشفٌ وضابط بحريةٍ فرنسي.

المكان المجهّز لاستقباله، ودُفن كلّ عمودٍ بمقدار قدمين، وهكذا انتهى النقل». يقول الأميرال إنّ هذا الخصّ الذي رفعه وحمله عشرات التاهيتيين بأيديهم كان مكرّسًا لحرّاس الملكة بوماريه (Pomaré) وكبار ضبّاط تاجها.

لئن كان شكل الـ«فاريه» (fare) التاهيتية معياريًّا إلى حدٍّ ما، فقد كانت في المقابل متنوّعةً أشدّ التنوع في وظائفها. لكن علينا أن نلتفت بصورةٍ خاصّةٍ إلى التعقيد الرمزي الذي لا يصدّق، والذي يسبق تصنيع هذه العنابر المصنوعة من الخشب وأوراق الشجر، وهي في نهاية المطاف بسيطة التصميم إلى حدٍّ ما. وكما في كلّ مكانٍ آخر في أوقيانوسيا، ليس الشيء هو ما يهمّ، بل قوّته، طريقة «شحنه». فالبيت، أيّا كان، هو نتيجة سعيٍ وعملٍ جماعيَّين يخضعان لإشرافٍ سامٍ. يبدأ البناء بتحديد الخشب والأشجار التي ستُستخدم، ووضع تنظيمٍ جديدٍ بمعركة. قبل أن كان «البنّاؤون» و«الخبراء» في تاهيتي يذهبون للبحث عن خشب البناء، كان يسبقهم «بضعة رجالٍ يمضون بحثًا عن المؤن، في حين يبني آخرون أكواخًا من القصب مغطاةً بأوراق الشجر ويجمعون حطبًا للنار» لاستقبالهم. كان مختلف «الخبراء» يختارون الأشجار ويضعون علاماتٍ عليها، بما أنّ لكلّ شجرةٍ صاحبًا، فقد كان عليهم أن يطلبوا منه الإذن ويحصلوا عليه قبل القطع. يلاحظ جيمس كوك أنّ أحدًا لم يكن في العام 1780 يقطع شجرةً إلّا بعد إخطار الآلهة بذلك «لأنّ الآلهة [...] وحتى الحجارة فيها أرواحٌ تصعد لحظة الموت أو التحلّل إلى الآلهة التي تشارك هذه المواد فيها بدايةً لتنتقل بعد ذلك إلى المسكن المحدّد المخصّص لها». في العام 1873، أكّد مورنهو[744]

(744) جاك أنطوان مورنهو (1786 ـ 1879)، تاجرٌ ومستكشفٌ وإثنولوجيٌّ ودبلوماسيٌّ فرنسي- بلجيكي. لعب دورًا حاسمًا في بسط السيادة الفرنسية على أراضي بولينيزيا في العام 1842.

(Moerenhout) بدوره، أنّ التاهيتيين لا «يقطعون شجرةً [...] قبل أن يذهبوا وبيدهم قَدّومٌ إلى الـ'مارايه' (marae) لإخطار الآلهة، ومن دون أن يحضروا إليها أوّل قطعةٍ مقتطعةٍ من الشجرة قبل قطعها بالكامل». بعد أن تصبح الشجرة ممدّدةً على الأرض، يراقب الحرفيون ما يمكن أن تقوله لهم، فإذا لاحظوا كميةً كبيرةً من النسغ الرغوي، «فهذا يعني أنّ الشجرة والجذور يبكي بعضها على بعض، وأنّ الشجرة قد هُجرت». تُنزَع أغصان الأشجار التي «وافقت» على أن تخدم الإنسان وتُسحب «بمساعدة حبالٍ وروافع وبكرات» خارج الغابة ثمّ حتى الشاطئ، وبعد أن يصل الخشب إليه يُقطع بالأبعاد المطلوبة ويُفرض ويُصقل ويُشغل بمساعدة أدواتٍ مناسبة وتحظى القطع هي أيضًا بكلّ الاحترام.

تلاحظ كاترين أورلياك[745] (Catherine Orliac) المتخصّصة بالسكن في تاهيتي، أنّ توزيع المهام أثناء بناء المنازل الكبيرة غير معروفٍ جيّدًا. ونحن نعلم من ويليام إيليس[746] (William Ellis) أنّه من أجل إنجاز مبنًى عامّ، يوزّع العمل بين مختلف الزعماء وأنّ «كلّ مجموعةٍ» تلقّت عملًا مميّزًا، الجدران أو السقف أو الأرضية، يجب عليها إجراؤه ضمن مهلةٍ محددة. بعد إنجاز وتجميع كلّ مواد البناء، كالأوتاد وعناصر الهيكل والآجُرّ النباتي، في موقع المنزل الذي سيُبنى وبعد أن يكون الموقع قد «نظّفه الكهنة بعنايةٍ بماء البحر لجعله مقدّسًا»، يمكن الشروع في البناء. لكن من أجل بناء بعض المباني، كان على «الاختصاصيين» أن يكونوا فضلًا عن ذلك قد تطهّروا باستحمامهم في المحيط. أخيرًا، وبعد جلب طعامٍ للعمال والاحتفال على شرف

(745) كاترين أورلياك (1950 ـ)، عالمة آثارٍ فرنسية.

(746) ويليام إيليس (1751 ـ 1785)، طبيبٌ ورسّامٌ ومستكشفٌ بريطاني. ساهم مع جون ويبر (John Webber) في رسم رحلة كوك الثالثة (1776 ـ 1780) في أول دراسةٍ إثنوغرافية للمحيط الهادي عبر نقلهما بالرسم لكلّ ما شاهداه.

الآلهة، كان بالإمكان البدء بالتشييد. تُحاط الورشة بسياجٍ يُحظر ما في داخله، «تابو» (tapu)، يكون فيه لأولئك المسموح لهم بالعمل فيه صلة سحرية مع القوى العليا حتّى يخلّصهم منها استحمامٌ شعائري أو إنشاد أناشيد مقدّسة لتكريس المنزل.

تتوالى الاحتفالات والعطايا طيلة فترة التحضيرات وأشغال البناء. وتحاط كلّ مرحلةٍ بالشعائر: غرس الأوتاد، ضفر الروابط وسعف التغطية وتركيب السقف: كلّها مراحل مصحوبةٌ بالمقدار عينه من الاحتياطات. يلاحظ إيليس أنّ العمّال المتنبّهين إلى أقصى الحدود «كانوا يراقبون بعنايةٍ كلّ ما يمكن تأويله بوصفه طوالع». ويضيف مورنهو إلى ذلك: «كانت ضربةٌ خرقاء [...] أو استخدام الأدوات من الجانب غير الصحيح، أو ثقبٌ في الاتجاه المعاكس تكفي للتخلّي عن بناء منزل [...]، حتى لو لم يحدث ذلك إلّا قبيل إنهاء العمل». ويزيد هنري على ذلك بالقول: «إذا جُرح الحرَفي [...] فهذا يعني أنّ الحرب ستنشب وأنّ الأشخاص الذين كُرّس العمل لهم سيموتون قبل أن ينتهي، وفي حال كسر الحرَفي ذراع قدّومه، كان يوقف عمله قائلًا إنّ الحرب ستمنعه من إنهائه. أمّا إذا كُسر زوجٌ واحدٌ فقط من أدواته، فهذا يعني أنّ المرض سيصيبه أو يصيب أحد أفراد أسرته أو منزله». وسنفهم أنّ الدخول إلى «فاريه» في بولينيزيا، حتى لو كان من دون باب، يقتضي قواعد يجب عدم انتهاكها.

كانت «المداخل» تخضع للمراقبة في «فاريه بوتييه» (fare pote'e) الذي يوصف بأنّه «بيتٌ ليس له جدار»، وهو مبنى كبير الحجم يتراوح طوله بين عشرة أمتار وخمسة عشر مترًا ويبلغ عرضه خمسة أمتار، يتشكّل من سقفٍ من أوراق الكاذي (البندانوس) تسندها أوتاد، وأكثر من ذلك في «فاريه تاوتو» (fare ta'oto)، «المنزل الذي ينام فيه المرء»، وهو أيضًا «غير مغلقٍ بتاتًا» (إلّا إذا دعت الضرورة، في حال هطول المطر أو هبوب الريح). وحتى من دون باب، فإنّ المثل التاهيتي

الذي يقول «انتبه إلى باب مقدّمة منزلي، منزلي هو الـ'مارايه' الخاص بي، وباب مقدمة منزلي هو أشبه بالـ'أهو' (ahu) (الجزء المقدّس) في المارايه الخاص بي»، يبقى صالحًا كلّ الصلاحية ويُفهم بوصفه تحذيرًا مهمًّا يجب احترامه بالمطلق. وبالفعل، يجد هذا التحذير صداه في الحياة اليومية، حيث يجب ألّا يدخل غذاء الأطفال، الذي يعدّ عنصرًا يحظى بقدسيةٍ في الـ«فاريه» خصوصًا، عبر «الباب» عينه، أي عبر المدخل عينه الذي يمرّ به غذاء الأم.

الأطفال خطِرون بطريقةٍ ما، فهم بالغو الطهر وبالغو القدسية، وقد كُلّلوا بهذا الجزء من المقدّس القادم من الـ«بو» (po) (عالم الآلهة) لدى ولادتهم. حتى الثانية عشرة من العمر بالنسبة إلى الصبي وحتى السادسة عشرة من العمر بالنسبة إلى البنت، كان كلّ ما يمسّه الطفل «يمسي مقدّسًا بهذا التماس، ويصبح بفعل ذلك غير قابلٍ لأن يستخدمه أي شخصٍ آخر». وهذا يفسّر أنّ كلّ ما لامسه الطفل بالصدفة يكون مشحونًا بالـ«مانا»[747] (mana) ويجب تدميره أو حرقه أو رميه ضمن مكانٍ مسيّجٍ مقدّسٍ خلف المنزل يدعى «توروما» (turuma). كان انتهاء هذه المرحلة من المحرّمات بوضع وشمٍ أعلى المرفق يشير إلى أنّهم باتوا يستطيعون تناول الطعام مع آبائهم ومثلهم من دون الخشية من العدوى. باستثناء ساموا[748] (Samoa)، كان الرجال والنساء في بولينيزيا يتناولون طعامهم على نحوٍ منفصلٍ في أكواخٍ صغيرةٍ معدّةٍ لهذا الغرض. وكان المبنى الذي يأكل فيه الرجال «تابو» إلى درجة أنّ النساء لم يكنّ قادراتٍ على الدخول إلى المكان الذي يأكلون فيه

(747) يشير مصطلح المانا إلى مفهومٍ بولينيزي نجده بتسمياتٍ مختلفة لدى شعوبٍ أخرى. وهو أساس السحر والدين وينبثق عن القوة الروحية للمجموعة ويساهم في تجميعها. وبحسب موس، المانا هو ما يخلق الرابط الاجتماعي.

(748) ساموا: مجموعة جزرٍ في بولينيزيا.

تحت طائلة الموت! وإذا كان رجلٌ يأكل في منزل امرأة، لا يعود بإمكان أيّ امـرأةٍ الدخول إليه أو حتى استخدام النار التي ربّما يكون رجلٌ قد استخدمها.

تلاحظ كاترين أورلياك أنّه إن كان واردًا أنّه كان للـ«فاريه» عدّة «أبـوابٍ» أو «مداخل» بسبب أصناف التابو التي تمسّ الأطفال، فإنّه يصعب تحديد عددها وموضعها. أمّـا المنازل المغلقة المصنوعة مـن الـقـصـب، فـكـان لها عـادةً «ثـقـبٌ لـلـدخـول»، وهـذا مـا يشير إليه كـوك، الـذي يضيف: «كـان هـذا الثقب مغلقًا بلوح»، ذلـك أنّ بعض الرسوم المائية القديمة، وبوغانفيل[749] (Bougainville) نفسه يـصـوّر فـي دفـاتـره: بـابًـا غير مـسـدود يُفتح على طـول جـدار الـ«فاريه بوتييه» وعلى جدار جبهة الجملون في الـ«فاريه هاو بابيه» (fare hau pape).

لكن سمحت تنقيباتٌ أركيولوجية أُجريت في موريا (Mo’orea) باكتشاف عتبات أبوابٍ صُنعت باستخدام تبليطٍ محدودٍ في منطقةٍ رطبة أو قطعٍ من الأخشاب الجامعة في المنشآت المبنية على الرمل على حافة البحيرات المالحة، وهذه القطع يمكن أن تشير إلى أنّ الباب، عندما يكون موجودًا، أكثر احترامًا ممّا يعتقد المرء. علينا ألّا ننسى أنّ القساوسة هاجموا فور وصولهم الـ«فاريه»، لأنّهم نظروا إليها بوصفها «أكواخًا مؤقّتة» ولم يتحمّلوا بصورةٍ خاصةٍ تلك الفكرة من حيث اللياقة المسيحية. كان القساوسة يأملون أن تبدأ عبر هذه المباني التي شُيدت بناءً على نصائحهم، «مرحلةٌ في الانتقال من مرحلة انحطاطٍ بدائي إلى حالة فرح». تمثّلت الفكرة بخاصّةٍ في أن تحتوي «هذه المنازل في الطابق الأرضي» على أسيجةٍ لتجنّب أن ينام فيها قاطنوها كيفما

(749) لـويـس أنطوان بوغانفيل (1729 ـ 1811)، ضابط بحريّةٍ وبحّارٌ ومستكشفٌ فرنسي.

اتفق. بالتالي، اضطرّ المعتنقون الجدد إلى بناء منازل من الآجُرّ مغلقةٍ بالكامل، مثقوبة بنوافذ وأبـوابٍ تُنجز «عبر ربط ثلاثة ألواحٍ شاقوليةٍ معًا، يبلغ طولها ست أقدام (1.80 م) تقريبًا، عبر ثلاث قطعٍ صغيرةٍ أفقيةٍ عرضانيًّا، واحدة في كلّ طرف، والثالثة في الوسط». بالنسبة إلى بعض الزعماء المحظيين، كانت الأبواب تدور على مفصّلاتٍ حديدية، وبالنسبة إلى الآخرين، كان من المفترض أن تكفي مفصّلاتٌ خشبية، غير أنّ بعضهم وضعوا مكانها حلقاتٍ مصنوعةً من «قطعٍ صلبةٍ من جلد السمك أو من جلود حيواناتٍ أخرى أو من الجلد الواصل على متن البواخر». قامت «الحضارة» بعملها السخيف فحوّلت عالم السكن والاعتقادات في تاهيتي والجزر المجاورة تحويلًا عبثيًّا. لم يكن فرض أبـوابٍ على مجتمعٍ لا أبواب فيه أكثر من تدميرٍ للعلاقة الرائعة بالعالم التي كانت هذه المجتمعات الأوقيانوسية قد اخترعته واشتغلت عليه بدقّةٍ على مدى آلاف السنين، وجزءٍ من الإبادة العرقية النهائية التي فرضها الغرب، في براءةٍ كاذبة، في كلّ مكانٍ وضع عليه نظره وقدميه.

مكتبة
t.me/t_pdf

4

أبواب أميركا

«بسلوك طرقٍ ملتوية، وصل إلى منزل خالته من الجانب المواجه للشارع، تجاوز السياج وتفحّص النافذة المضاءة في الطابق الأرضي. في الحجرة الكبيرة، كانت الخالة بولي وسيد وماري ووالدة جو هاربر مجتمعين قرب السرير وهم يتحدّثون. كان السرير يفصلهم عن الباب. اقترب توم من الباب، وبحذرٍ رفع المزلاج ودفع قليلًا، صرّ الباب، واصل الدفع بحذرٍ وهو يرتجف قلقًا كلّما تكرر صرير الباب، حتى أمكنه أن يدخل راكعًا، ثمّ مرّر رأسه وانتهى به الأمر إلى دخول الحجرة من دون أن يراه أحد.

ـ ما الذي يجعل لهب الشمعة يتأرجح هكذا؟ سألت الخالة بولي.

سرّع توم الحركة.

ـ كأنّ الباب غير مغلق. بل إنّه مفتوح! تجري هنا أشياء غريبة. اذهب لإغلاق الباب يا صغيري سيد.

بالكاد تسنّى لتوم الوقت للاختفاء تحت السرير. استردّ أنفاسه وزحف حتّى لامس قدمي خالته».

Mark Twain[750], *Les Aventures de Tom Sawyer*, 1876

---

(750) مارك توين (1835 ـ 1910)، اسمه الأصلي صموئيل لانغهورن كليمنز (Samuel Langhorne Clemens)، باحثٌ وكاتبٌ أميركي ساخر. اشتُهر بروايته **توم سوير**.

زياراتٌ أمازونية

أثناء إقامتي بين الهنود اليوكونا[751] (Yukuna) في ثمانينيات القرن العشرين على ضفاف نهر ميريتي بارانا (Miriti Paraná)، أحد روافد نهر كاكويتا (Caquetá) على الجانب الكولومبي، استُقبلتُ بطبيعة الحال واستُضفت كما هي الأصول في «المالوكا» (malocas)، المنازل الجماعية الكبيرة عند الهنود الحمر. كنت قد قمت بدخولي الأول إن صحّ لي القول وأنا مسجّلٌ ضمن مجموعةٍ من الزائرين المعتادين على هذا المجتمع وواجهتني بالتالي حركات رفاقي وسلوكهم. بعد أن استقبلنا اليوكونا بودٍّ في «الميناء» لدى نزولنا من جِذعيتنا[752]، صعدنا نحو المالوكا حيث دخلنا من دون أن نطلب شيئًا من أحد. كانت تلك المرّةَ الأولى التي أدخل فيها إلى واحدٍ من تلك المنازل الكبيرة، واستولت عليّ على الفور تلك البرودة المريحة والعتمة المطمئِنة في هذا الفضاء الدائري الكبير الذي شعرت بأنّه مفتوحٌ جدًّا. وضعنا أغراضنا على الفور إلى يمين الباب، بملاصقة السياج الصغير المثقّب على نحوٍ قليلٍ جدًّا والذي يحيط بالمالوكا كلّها. ثمّ تقدّمنا قليلًا نحو «المربّع السحري»، وهو عبارةٌ عن أربعة أوتادٍ ثانوية في مركز المالوكا حيث كان ينتظرنا «سيّد المالوكا» جالسًا. استقبلنا ـوفق العادةـ متمنّيًا لنا ما أتخيّل أنّه حسن الإقامة، بخطبةٍ طويلة. وعلمتُ لاحقًا أنّ الأمر يتعلّق بخاصّةٍ بكلامٍ مفخّمٍ وقائي، حيث كان يتمنّى على سبيل الترحيب ألّا نكون قد أحضرنا معناً مرضًا أو متاعب أو فوضى. في هذه الأثناء، كانت عيناي قد اعتادتا العتمة ولمحت نساءً وأطفالًا متجمّعين في مساحاتٍ مختلفة. سرعان ما اكتشفت أنّ الحيّز محدّدٌ ومرتّبٌ لكلّ أسرةٍ تأكل فيه وترتاح حول النار عينها. بعد انتهاء التحيّات، قادونا إلى

(751) اليونوكا: أحد الشعوب الأصلية في أميركا اللاتينية (كولومبيا).

(752) الجذعية: زورقٌ يُصنع من جذوع الأشجار.

مقعدٍ ونصبوا لنا مائدةً مخصّصةً للزائرين الأجانب فحسب، ستكون أوّل وآخر مرّةٍ في تلك الإقامة أتناول فيها الطعام وأنا أجلس إلى مائدة، وفي الوقت الذي كان صحبي يثرثرون ويتمازحون مع أصدقائهم من الهنود الحمر، قُدّم لنا المنيهوت والسمك. كان رجالٌ يدخلون ويجلسون في أسرّتهم الشبكية المعلّقة وأنظارهم موجّهةٌ نحو مركز المالوكا، مشيرين بذلك إلى أنّهم منفتحون على الحوار. ومع الاعتياد، فهمتُ أنّهم عندما يديرون أنظارهم باتجاه النار، فهذا يعني أنّهم «منغلقون» على الجماعة ومنشغلون بأفكارهم أو بأُسرهم. توالت الأيام، وشيئًا فشيئًا بدأت أفهم كيف تنتظم المالوكا: الرجال العازبون إلى يمين الباب، النساء إلى يساره، العائلات جنبًا إلى جنبٍ بترتيبٍ مطلق. أمّا الأزواج أو الأُسر العابرة ذات الأطفال، فكانوا يستقرّون إلى الجنوب الشرقي من منطقة الخدمات من دون الحاجة إلى أن يشير أحدٌ إليهم بذلك. وهناك، كانوا يعلّقون أراجيحهم، وتوقد المرأة نارها وتحضّر الطعام. إذا أتى رجلٌ وحيدٌ مثلي، يوضع إلى الشمال الشرقي ويتلقّى طعامه ـ بتقدمةٍ من السيّد على ما يبدو ـ في مركز المالوكا. وفي المساء، كنّا نجلس على مقعدٍ صغيرٍ وُضع تحت تصرّفنا أمام أسرّتنا المعلّقة لنثرثر ونمزح. لم يدخل أحدٌ أبدًا إلى حيّزي الشخصي، تمامًا مثلما لم أسمح لنفسي أبدًا بأن أتنزّه في المالوكا من دون أن يدعوني أحدٌ إلى ذلك. أكثر ما أتذكّره «نزهات» نهاية الأسبوع، كنت أعشق نهايات الأسابيع عند الهنود اليوكونا، وكان واضحًا جدًّا أنّها «اختُرعت» وفُرضت على يد المبشّرين الذين أرغموا على ما يبدو طيلة عقودِ الهنود الحمر على الذهاب لحضور قدّاس الأحد في مكانٍ ما. لكنّ الهنود حوّلوا هذا العرف، محتفظين بعادة الذهاب يوم السبت ـ الأحد. كانت المغامرة سريالية: فجر السبت، يستقلّ كلّ مَن في المالوكا جذعياتٍ على طول النهر ويمضون ومعهم الطعام والأطفال والقرود والطيور. يصادفون آنذاك

كثيرًا من الجذعيات الأخرى التي تفعل الأمر عينه في الاتجاه المعاكس، لربّما كانت ذاهبة إلينا أثناء غيابنا؟ بعد بضع ساعات، كنّا نحتلّ مالوكا فارغة أو شبه فارغة بالطريقة عينها التي ذكرتُها أعلاه: الصبيان إلى يمين المدخل والبنات إلى يساره، فنأكل ونشرب الـ«شيشا» (chicha) ونتسلّى، كنّا في مكانٍ آخر... ثم ننطلق مجدّدًا في اليوم التالي. وعندما نصادف غيرنا مجدّدًا على النهر، ينادي بعضنا بعضًا ونتمازح حول أنّنا لم نلتقِ، وتعود كلّ مجموعةٍ إلى المالوكا الخاصّة بها لبقية الأسبوع.

بالنسبة إليّ شخصيًّا، لم أخرج وأعُدْ إطلاقًا إلّا من بابٍ واحد، لكنّي لاحظتُ في نهاية المطاف في قاع المالوكا بابًا صغيرًا ترمي منه النساء الفضلات والبقايا للدجاج والخنازير، وهي حيواناتٌ منزليةٌ تقتات من البقايا وتأتي لتأكلها على الفور. كما فهمتُ في نهاية المطاف أنّ هذا الباب كان يفيد أولئك الذين لديهم حاجاتٌ ملحّةٌ ولا يريدون، أو لا يستطيعون أن يعبروا المالوكا كلّها. كان لهذا الباب الصغير الواقع في الشرق اسمٌ خاص: «شرج المنزل». أمّا الباب الرئيسي الذي يكنَس باستمرار والموجّه نحو الجنوب الغربي، فكان يؤدّي إلى ضفّة النهر ويبقى مفتوحًا معظم الأحيان، وقد قيل لي إنّه مرتبطٌ في الخارج بـ«فم الـ'يوروراري'» (yuruoari)، أي العضو الجنسي الأنثوي. يصعب كشف الباب الخلفي من النظرة الأولى، إذ إنّ محيطه أكثر فوضويةً بكثير، وهو يؤدّي مباشرةً إلى الغابة، ويسمح كذلك بالهرب سرًّا لإقامة العلاقات الجنسية. لم يعانِ الشامان من أي صعوبةٍ في إفهامي أنّ المالوكا رحمٌ يلتجئ إليه الرجل.

حُكي لي أنّه في مجموعةٍ من الهنود الحمر لا يوجد لديها «منزلٌ كبير»، بل عدّة مالوكات مرتبطة بأسر، كان الأطفال الصغار يُبعَثون رُسُلًا. لكن بما أنّه من غير اللائق الدخول عند الآخرين مباشرةً ومن دون مناداة، كان الأهل يضعون في يد الطفل، كي يتذكّر ذلك الأمر، يرقة

فراشة ليلٍ تتكوّر لدى أدنى حركة لتذكّرهم: «في حال خطرت في بالك فكرة دخول بيتٍ آخر، تكوّر مثل هذه اليرقة!». وقد حكى لي صديقي جاك مونييه على أثر عودته من عند الـ«تاراهامورا»[753] (Tarahumara) في المكسيك، كيف يتظاهر الهنود الحمر عندما يصادف بعضهم بعضًا في الجبل بأنّهم لم يروا بعضهم، وفي حال كانوا بالصدفة يعرف بعضهم بعضًا، فهم بالكاد يتماسّون بأطراف الأصابع. وهذا يؤدي إلى أنّك عندما تصل إلى مكانٍ ترى منه رانشو[754] (rancho)، فلا أحد يأتي لملاقاتك. من المناسب بالتالي أن تتوقّف، والأفضل أن تجلس على هضبةٍ صغيرة وتتجنّب النظر باتجاه المنزل وتنتظر. أحيانًا، تمرّ ساعةٌ حتّى يخرج سيّد المكان أمامك لتفقّد قطعة أرضه المزروعة بالذرة فيشير إليك بالدخول. يتعلّق الأمر بتثبيط عزيمة الأرواح التي لحقت بك أثناء الرحلة فتتخلّى عنك قبل أن تدخل المجال الأسري.

يحكي الباحث الأنثروبولوجي الكولومبي رايشل دولماتوف[755] (Reichel-Dolmatoff) عن الاستقبال الذي يقيمه الديسانا[756] (Desana) للجيران أثناء التجمّعات الكبيرة التي تنظّم دوريًّا. «مع تتابع وصول جذعيات الزائرين، يذهب الرجال متبوعين بالنساء إلى المالوكا، حيث تقام الحفلة، وعندما يصلون إلى الباب يصفّقون بقوّةٍ، إعلانًا عن حضورهم، ثمّ يدخلون على الفور ويتوجّهون بسرعةٍ نحو مركز المسكن وهم يهتفون: 'سو- و، سو- و، سو- و'. ثمّ يستديرون

---

(753) التاراهامورا أو الباراموري: مجموعةٌ من السكان الأصليّين تعيش في المكسيك.

(754) رانشو: مزرعة بالإسبانية.

(755) جيراردو رايشل دولماتوف (1912 ـ 1994)، باحثٌ أنثروبولوجيٌّ وإثنوغرافيٌّ كولومبي نمساوي الأصل.

(756) الديسانا: مجموعةٌ من السكان الأصليّين في أميركا الجنوبية.

ويبقون واقفين في القطاع الموجود إلى يمين الباب، في حين يتوجّه أكبر أفراد أوّل عشيرةٍ واصلةٍ مجدّدًا نحو مركز المالوكا ليتكلّم ويسرد حكاية أصل عشيرته. عندما يتّخذ الرجال أماكنهم قرب الباب الرئيسي، يلتزمون دائمًا بالترتيب التالي: يجلس إلى يمين كلّ فردٍ من الفخذ الزائر رجلٌ من الفخذ المستقبِل، ويلتَزم بالترتيب عينه عند النساء واليافعين». في الغالبية العظمى من الاجتماعات والرقصات، يسرد رجلٌ أسطورة الخلق. ويكون عمومًا رجلًا مسنًّا يتحدّث بصوتٍ مرتفعٍ في حين يستمع إليه الآخرون بصمت. يحرص الجميع على أن يشيع جوٌّ نفسيٌّ ملائمٌ لحسن سير الاحتفال. يقول مصدر رايشل دولماتوف له إنّ ذلك «يهدف إلى أن يحسّ (الزائرون) بالارتياح وكأنّهم أبناء أبٍ واحد، الشمس، ويشعروا بالثقة وبالطمأنينة. آنذاك، يمكنهم أن يشربوا ويرقصوا». يمنح الديسانا، مثلهم مثل كثيرٍ من المجموعات الأخرى في الأمازون، قيمةً رمزيةً للأماكن في حيّز المالوكا وللحركات التي تتمّ فيه. لم يكن يمكن أن يغيب عن بال الأنثروبولوجي البنيوي أنّ لليمين دلالةً مفيدة، على العكس من اليسار. «يدلّ الجانب الأيمن واليد اليمنى على الحظّ والحماية، وعلى كلّ ما هو مذكّر، وكذلك على البرْد. تستقرّ قدرة الحماية في اليد اليمنى. أمّا الجانب الأيسر، فيقال إنّه يعني البؤس والضيق والخضوع والأنوثة والحرارة. تستقرّ القوى المدمّرة والسلبية في اليد اليسرى»، هذا ما يؤكّده رايشل دولماتوف. ربّما يفسّر ذلك جلوسَ الشخصيات المهمّة إلى اليمين. أثناء هذه التجمّعات الكبيرة، تحضّر النساء كميّةً كبيرةً من الشيشا في حين يصنع الرجال زينات الرقص التي سيضعونها أثناء الاحتفال. ينتظر الشبّان وصول الشابّات من المجموعات الأخرى. يُحضِر المدعوون هدايا من الغذاء بالإضافة إلى زيناتهم. أمّا المضيفون، فيحضّرون إطار الحفلة: ينظّفون المالوكا والحيّز المحيط بها ويمهّدون الطريق المؤدّي إلى «الميناء». يتمتّع

التوزيع الشعائري لحيّز المالوكا بأهميةٍ كبيرةٍ في كلّ مكان. بالنسبة إلى الديسانا، يمثّل الـ«يغور» (jaguar) الثاني بزوج الأوتاد وبالعارضة، وهي تحدّد وسط المالوكا وتقسم المنزل إلى قطاعٍ أمامي يجتمع فيه الرجال وقطاعٍ خلفي تحتلّه النساء. «يبقى الرجال في الظلمة 'تحت الانعكاس الأحمر للنساء'، لكنّ انعكاسهم الشمسي والخصب سرعان ما ينتقلان إلى قطاع النساء». يدوم الاحتفال في الداخل عدّة أيام، ما دام الضيوف يستمتعون بالغذاء والشيشا.

لقد وصف صديقاي روبير جولان (Robert Jaulin) وسولانج بنتون (Solange Pinton) اللذان أقاما هما أيضًا في منطقة الأمازون عند هنود الباري[757] (Baris)، بعض حفلات الاستقبال بأنّها كانت أقلّ حرارةً، فقد ذكرا في كتابهما **أناس الذات، أناس الآخر** (*Gens du soi, gens de l'autre*) تلك الشكلية الشديدة الخصوصية عند هنود الباري باستقبال الزائرين على الباب من دون توجيه الكلام إليهم، هكذا رأيا رجلًا بقي في الخارج حتى هبوط الليل، ولم يعلما أبدًا إن كان أحدٌ ما قد أطعمه واستضافه ليلًا، لكنّه في ساعةٍ مبكّرةٍ من الصباح التالي كان مجدّدًا في الخارج، كما لو أنّ التعامل معه لم يتمّ إلّا خلسةً، من دون السعي إلى منحه طابعًا رسميًا.

في مناسبةٍ أخرى، وعن مجرّد زيارةٍ بين الجيران، يحكيان كيف استُقبل الزائرون عند حافّة الغابة. «أتى أهل المنزل جميعًا ليقفوا في مواجهتهم، وتفرّس كلُّ طرفٍ بالآخر مدّةً طويلة قبل تبادل كلمةٍ واحدة». من غير المناسب إجراء تواصلٍ مفاجئ وسريع: «إمّا يجتنب بعضهم بعضًا، أو يقوم التواصل عبر انتظارٍ طويلٍ يبقى أثناءه الجانبان صامتين وساكنين أحدهما في مواجهة الآخر». لكنّ الاستقبال الأكثر

(757) الباري: مجموعةٌ إثنيةٌ من السكان الأصليين تتجمّع في شمال شرق كولومبيا.

صدمًا من بين الاستقبالات التي شهداها (وربّما كان تحديًا) تمّ على النحو التالي: في حين كانا وحيدين في المالوكا مع النساء والأطفال ورجلٍ واحد، انتشرت فجأةً شائعةٌ في المنزل، أن «أناسًا من الباري يصِلون». لم يكن أحدٌ قد رآهم بعدُ على الطريق، لكنّ الطيور المُعلنة كانت قد أخطرت السكان بوصول الزائرين الوشيك. استولى انفعالٌ كبيرٌ على جميع الأفراد الموجودين في المنزل. «تجمّع الجميع عند الباب الغربي الذي يصل منه الزائرون، بحيث يشكّلون نوعًا من سياجٍ تشريفي. دخل الزائرون الأربعة عشر واحـدًا واحـدًا، بخطًى سريعةٍ ورؤوسٍ مطأطئة، أتى الرجال بدايةً، ثمّ النساء، ثمّ المراهقون. بقيت المجموعتان هكذا وجهًا لوجه ما يقارب ربع ساعة، من دون القيام بأيّ حركة أو التفوّه بأيّ كلمة، كان الزائرون متجمّعين قرب الباب ورؤوسهم لا تزال مطأطئةً ومن دون أن يلقوا نظرةً على المحيط، وقد جلبوا هدايا من القرود يحملها الرجال معلّقةً بشريطٍ من اللحاء 'باكورا ' (bakura) يحيط بجباهها. كان المضيفون ينظرون إليهم خلسةً ويتهامسون. ساد انطباعٌ بأنّ انفعالًا استثنائيًّا يسيطر على الجميع. أخيرًا، قدَّمَنا الراشد الوحيد الموجود في تلك اللحظة في المنزل لـ'أقاربه' القادمين من مكانٍ بعيدٍ جدًّا والذين وجدوا أنفسهم لأوّل مرّةٍ بكلّ تأكيد في حالة تواصلٍ سلميٍّ مع البيض، لأنّه كرّر على مسامعهم عدّة مرّاتٍ أنّنا لطيفان، (sabaïni)، ثم طلب منّا أن نعطيهم بعض اللآلئ لتجسيد لطفنا. أثناء التعارف، كان يمسك بذراعينا، وشعَرنا بيده ترتجف بعنف. بنبرةٍ شديدة العذوبة، لكنّها مسبوغةٌ باقتناعٍ حازم، كرّر عدّة مرّاتٍ أنّنا أصدقاء، لكن لم يتلفّظ أحدٌ بأيّ كلمة ترحيبٍ أخرى.

بعد هذا التواصل الصامت الأول، توزّع سكّان المنزل. بقي القادمون الجدد واقفين في المكان عينه، ورؤوسهم لا تزال مطأطئةً ومرّت ساعةٌ كاملةٌ كي يبادروا إلى الجلوس حيث كانوا، ناظرين بثباتٍ أمامهم، ومن

دون أن ينبسوا بكلمة. كانت الحياة قد استؤنفت، وبدا أنّ أحدًا لم يعد يلتفت إليهم، لكنْ لحظةَ اقتربنا منهم ارتفعت بين أهل المنزل همهمة استياء». مرّ النهار وكلٌّ منصرفٌ إلى انشغالاته المعتادة «من دون إبداء أي انشغالٍ بالزائرين [...]. أخيرًا ومع هبوط الليل، توزّع الزائرون بين مختلف الأسر وأمكنهم أن يرتاحوا في الأسرّة المعلّقة في حين جلست المرأتان الموجودتان ضمن مجموعتهم على حصُرٍ قرب المنور. كان الطعام جاهزًا قبل الوقت المعتاد وقُدّم بكثيرٍ من الانتباه: قُدِّم للضيوف ملحٌ في الوقت عينه مع المنيهوت، ولإنارة وجبتهم، اختُلست منّا الشموع المتبقّية لدينا. كان كلّ شخصٍ يأتي سرًّا ليراهم يأكلون [...].

في الأيّام الأولى، لم يتحرّك أيٌّ من الأجانب ـ إن جاز القول ـ من سريره المعلّق، وقُدم لهم الطعام بالطقوس عينها: كانوا يحصلون بصمتٍ على الطعام قبل الآخرين. ثمّ بدأت المحادثات شيئًا فشيئًا، وتزايدت حرّية فعل القادمين الجدد تدريجيًّا: بدأوا يخرجون من المنزل أكثر فأكثر، ثمّ انتهى الأمر بأن اصطُحبوا إلى الصيد، لكنّ مكانهم كان مكان الضيوف الذين يُقدَّم إليهم شيءٌ من السرور، وليس مكان رجالٍ يعملون ليحصلوا على الطعام. وفي الداخل، اعتادوا أن يجلسوا صباحًا حول نارٍ مع رجالٍ آخرين من المنزل».

كما تُظهِر الزيارة التي قام بها فيليب ديسكولا[758] (Philippe Descola) وآن كريستين تايلور[759] (Anne Christine Taylor) إلى الجيفارو[760] (Jivaros) بموجب تكليفٍ، توتّرًا مؤكّدًا أثناء وصولهم

---

(758) فيليب ديسكولا (1949 ـ)، أنثروبولوجيٌّ فرنسيٌّ اشتُهر بدراساته عن السكان الأصليين في مناطق الأمازون.

(759) آن كريستين تايلور، إثنولوجيةٌ فرنسية.

(760) الجيفارو أو الجيفارون: مجموعةٌ من السكّان الأصليين تعيش شمال بيرو وشرق الإكوادور.

إلى مجموعةٍ مجاورة، لا يتعارض مع السرديات السابقة عن «الزيارات الأمازونية». يصف ديسكولا بدايةً كيف أنّ «تحصينًا مرتفعًا من جذوع شجر النخيل يحمي المنزل، غير أنّ الباب المفتوح المنحوت في قطعةٍ واحدةٍ من الخشب يدعو إلى الدخول. المنطقة المسيّجة الصغيرة فارغة، بلّلها المطر وتبعثر فيها الحطام المنزلي [...]. المسكن مسيّجٌ هو أيضًا بجدارٍ من ألواح شجر النخيل، يقطعه من طرف الـ'تانكاماش' (tankamash) بابٌ منخفض، أصبح أضيق بفعل الألواح المتحرّكة المتباعدة بالكاد والتي تتحكّم به عادةً». سبقه ثلاثةٌ من صحبه «في هذا الثقب المظلم. [...] وسط النباح الغاضب للكلاب المربوطة بالحبال ولعنات النساء اللواتي يقُمن بتأديبها، نأخذ مكانًا على 'كوتانك' (kutank) الزائرين. أثناء العودة، تلفّظ كلٌّ منّا بالصيغة المعتادة: 'ويناجاي' (Winiajai)!، 'أنا آتٍ'. وفي كلّ مرّة ردّ علينا كاوارونش (kawarunch) قائلًا: 'وينيتيا' (Winitia)! 'تعال'».

في ارتباكٍ معتادٍ خاصٍّ بهنود الأمازون، تبدأ آنذاك «تلك المعزوفة من البسالة في الخطاب»، الـ«أوجماتين» (aujmatin) التي تعني في لغة الـ«أشوار»[761] (Achuar) «محادثة»، وهي في الواقع «حوار زيارةٍ طويل» نجده في الأماكن كافّة تقريبًا وتسنّى للغالبية العظمى من الإثنولوجيين أن يشهدوه لكنّ سرده في **حراب الغسق** (*Les Lances du crépuscule*) رائعٌ ومركّزٌ إلى درجة أنّني لا أستطيع الامتناع عن الاستشهاد به هنا:

ـ هل أتيت يا صهري؟

ـ أيه!

ـ ها!

(761) الأشوار: جماعةٌ أمازونيةٌ تعيش على طرفي الحدود الفاصلة بين بيرو والإكوادور، وهي واحدةٌ من جماعات الجيفارو البدائية.

ـ أيه! يا صهر لقد أتيت!

ـ أيه!

ـ ها!

في خلطٍ يزيد من صعوبة فكّه أنّ كلّ شخصٍ يعبّر بصوت جهير، يبدأ الرجلان آنذاك في التلفّظ بصيغٍ تكاد تكون متطابقة، مع تأخرٍ بسيطٍ لتسوكانكا عن كاوارونش، كما في نشيدٍ كنسي.

ـ أيه! أيه! يا صهر! نحن الأشـوار، وبوصفنا هنا، نحن الأشوار الحقيقيين، ألسنا حاضرين؟ وهكذا سنبقى. ماه! هكذا أيضًا، بما أنّني جالس، ألا تأتي إليّ، أليس هكذا نفعل؟ باقون هكذا في دارنا لانتظار من يأتي، مثلما فعل أسلافنا، نفعل هكذا، أليس هكذا علينا أن نفعل؟ أيه!

على أثر هذا الخلط التقديمي، يبدأ الحوار الفعلي، يتّخذ شكل ترتيل مزمور بإيقاعٍ سريعٍ جدًّا، حيث تتطوّر كلّ جملةٍ قصيرةٍ ضمن تصاعدٍ مستمر، ثمّ تهبط فجأةً، وبنبرةٍ قوية، نحو طبقةٍ صوتيةٍ أدنى من طبقة البداية...

وبالفعل، فإنّ «أقوال الترحيب» هذه التي أمكنني حضورها هي مبارزاتٌ شفهيةٌ حقيقية يصعد فيها كلٌّ من الخطيبين على الآخر حرفيًّا بالكلام حتى خلقِ طباقاتٍ وإنتاج أصواتٍ وأفكارٍ تستحوذ على كلام الآخر بصورةٍ متزامنةٍ، بحيث لا تعود إلّا كلامًا واحدًا. فكلٌّ منهما يستأنف كلام الآخر ويلتقيان ويعيدان صنع تاريخ المجموعة ويعيدان زيارة الأساطير القديمة ويسكنانها حرفيًّا إلى أن ينتجا أسطورتهما الخاصة التي نعلم، باستعادةٍ لبيير كلاستر[762] (Pierre Clastres)، أنّها لا تكون أبدًا إلّا تعبيرًا عن حاضر الماضي الذي هو مستقبلٌ في وثبته،

(762) بيير كلاستر (1934 ـ 1977)، أنثروبولوجيٌّ وإثنولوجيٌّ فرنسي، اشتُهر بمساهماته في الأنثروبولوجيا السياسية وعمله الميداني في باراغواي.

مثلها في ذلك مثل الأساطير كافّةً... لم يكن تلقّي زيارةٍ في الأمازون ولم يعد مجرّد تجاوز باب، بل هو قبول المخاطرة بالدخول في كونٍ لكلّ رجلٍ فيه معادله طالما أنّه ليس وحيدًا.

من كوخ التعرّق إلى كوخ الأسكيمو[763]

في العام 1761، نقل نيكولا بيرّو[764] (Nicolas Perrot) بصدد «المتوحّشين في أميركا الشمالية» أنّ «الضيافة التي يقومون بها تتجاوز كلّ المألوف لدى الأوروبيين. وعندما يطلبها أجنبيٌّ منهم، فهو يستقبَل أحسن استقبالٍ على الرغم من كونه مجهولًا. وهو من طرفهم استقبالٌ مفرطٌ في ودّيته، بل إنّهم يمضون إلى حدّ استنزاف أنفسهم لتقديم الأطايب لمن يستقبلونه، فما إن يصل أجنبيّ حتى يُطلَب منه الجلوس على بساطٍ شديد النظافة ليستريح، يُنزَع عنه حذاؤه وجواربه، وتُدهن قدماه وساقاه، توضع الصخور بدايةً في النار ويجهّزون كلّ شيءٍ على عجلٍ لجعله يتعرّق». كنت ذهبت في إحدى السنوات إلى جامعة (DQ)، وهي جامعةٌ هنديةٌ أسّستها الحركة الهندية الأميركية[765] AIM في كاليفورنيا حيث كان من المفترض أن تحاكِم «محكمةٌ هندية» سياسة الرئيس ريغان[766] (Reagan) تجاههم، وقد دعاني الهنود عدّة

(763) كوخ الأسكيمو (igloo): خيمة الأسكيمو المعروفة بين شعب الإنويت والسكّان الأصليّين في أقصى شمال كندا.

(764) نيكولا بيرّو (1644 ـ 1717)، مستكشفٌ ودبلوماسيٌّ وتاجر فراءٍ ولسانيٌّ ومترجمٌ فرنسي، من بين أوائل الأوروبيين الذين ذهبوا إلى أعالي وادي الميسيسيبي.

(765) الحركة الهندية الأميركية: مجموعةٌ للدفاع عن الهنود الأميركيين تأسّست في الولايات المتحدة في العام 1968.

(766) رونالد ويلسون ريغان (1911 ـ 2004)، ممثّلٌ ورجل دولةٍ أميركي، الرئيس الأربعون للولايات المتحدة (1981 ـ 1989).

مرّاتٍ للمشاركة في مقصورة تعرّقٍ مقامةٍ في الحرم الجامعي. وعلى الدوام، يتمّ الاحتفال في الكوخ الدائري المعزول حراريًا عن الخارج في أربع «جولات»، موقوتةٍ بفتح الباب وإغلاقه. بعد تطهيرٍ بالدخان المقدّس الناتج عن المريمية البرّية المجلوبة من بلاك هيلز[767] (Black Hills) والذي ينفخه مقيم الشعيرة على أعلى أجسادنا، كنّا ندخل ونحن شبه عراةٍ إلى «مقصورة التعرّق» التي ترمز إلى مركز الكون حيث تقيم «الروح العظيمة» و«قدرتها»، النار. يكون باب مقصورة التعرّق موجّهًا على الدوام نحو الشرق، «لأنّ نور الحكمة يأتي من هناك». على بعد حوالى عشر خطواتٍ من المقصورة، ودائمًا إلى الشرق، يسخِّن موقدٌ يُدعى «النار التي لا نهاية لها» في الليلة السابقة الحجارةَ الخاصّة التي ستُستخدم في تطهيرنا. يدخل أوّلًا مقيم القدّاس الذي سيوجّه عرقنا إلى المقصورة، وفي يمناه الغليون المقدّس الذي يكون قد أشعله بطريقةٍ طقسيةٍ باستخدام شعلةٍ قادمة من النار التي لا نهاية لها. بعد أن يصبح في المقصورة، يذكر واكان ـ تانكا[768] (Wakan-Tanka) ويوجّه الغليون في الاتجاهات الأربعة: نحو الشمال الذي تأتي منه الرياح المطهّرة، والشرق الذي تصعد فيه الشمس والذي تأتي منه الحكمة، والجنوب الذي هو منبع ومآل كلّ حياة، السماء، وأخيرًا باتجاه «الأرض الأم» التي سنعهد بأجسادنا إليها. بفضل قدرة الدخان المواتية، سيطرد أيّ تأثيرٍ غير طاهرٍ من روحنا وستأتي «الروح» لترافقنا في الشعيرة. للدخول إلى الكوخ الصغير نصف المدفون والذي يبلغ قطره حوالى ثلاثة أمتار وكان في الماضي يُغطّى بجلود البيسون وهو

---

(767) بلاك هيلز: سلسلة جبالٍ تقع في الجزء الغربي من ولاية داكوتا الجنوبية في الولايات المتحدة الأميركية.

(768) واكان تانكا: إلهٌ هنديٌّ أميركي تنبّأ لشعبه بقتل الهنود في أميركا. كان يقول إنّ الهنود سيعيشون في بيوتٍ مربّعةٍ وبأنّ حيوان البيسون سيختفي وسيأخذ الرجل الأبيض أراضيهم.

اليوم يغطّى بقطعٍ سميكةٍ من الموكيت ومن بقايا الأغطية العسكرية، علينا أن ننخفض ونمرّ عبر بابٍ شديد الصغر. يتلفّظ الهنود بصلاةٍ نصّها شبه الحرفي هو التالي: «... فلتأتنا النعم! بانخفاضي لدخول هذا الكوخ أتذكّر أنني لا شيء أمامك يا واكان تانكا، وأنت كلّ شيء [...]. ساعِدني على أن أصبح نقيًّا هنا، ساعدنا في كلّ ما سنفعله!». إذًا، يدخل مقيم القدّاس ضمن رتلٍ ويدور حول الكوخ «باتجاه سير الشمس»، يتّخذ مكانه في الشرق، بجوار الباب تمامًا، ونجلس على الأرض الرطبة ويوازن بعضنا بعضًا بأفضل طريقةٍ ممكنة. آنذاك، يمدّ المساعد الذي بقي في الخارج نحو الداخل، وعلى مذراةٍ، حجرًا حارقًا مكرّسًا لـ«الروح العظيمة»، فيضعه الرجل الموجود في الغرب وسط المذبح. يدخل حجرٌ آخر بدوره، يوضع في الشرق، والتالي في الشمال والأخير في الجنوب، إضافةً إلى حجرٍ للأم الأرض وبعض الحجارة الأخرى التي تمثّل «كلّ ما هو موجودٌ في العالم»، وتأتي بخاصّةٍ لتملأ الفراغ في الموقد. يغلق المساعد آنذاك بحذرٍ فتحة «التعرق»، فيُغرقنا في ظلامٍ دامس. كنت أعلم أنّ الباب سيُفتح أربع مرّاتٍ لاستكمال شعيرة التطهير، وذلك للتذكير بالعصور الأربعة التي عاشها شعب أوغلالا[769] (Oglala). في الظلمة الدامسة ومع توهّج الحجارة، أميّز الوجوه المركّزة. يرشّ مقيم القدّاس الحجارة أوّل مرّةٍ بمغرفةٍ خشبية. يصعد بخارٌ ملهِبٌ على الفور ويأتي ليحرق وجوهنا القريبة جدًّا من الموقد. يعاود الكرّة مرّةً ثانيةً، وثالثة، تكاد الحرارة تكون غير محتملة، ثم رابعة... نبعد وجوهنا بمقدار ما نستطيع عن الموقد مختبئين خلف ظهر الجار ونسعى للعثور على شيءٍ من البرودة من خلال التنفس عبر الأرض وبخاصةٍ عبر الأمل بأنّ الباب سيُفتح بعد قليل... عندما تكون الحرارة قد أحرقتنا حقًّا وشعرنا بالخصائص المطهّرة التي تتمتّع بها النار

(769) شعب أوغلالا: إحدى القبائل الفرعية السبع من أمّة اللوكاتا الهندية.

والهواء والماء «ككائنٍ واحدٍ وشعبٍ واحد» وذكرنا واكان تانكا، يُفتح الباب أخيرًا. يُفتح تذكّرًا للعصر الأول «عندما كان للبيسون كافّة قوائمه وكلّ شعره»، كما تقول الأسطورة الحديثة، ذلك العصر الذي تلقى فيه الهنود نور «الروح العظيمة» كما يقول القدماء. يُجلب الماء الذي يدور على الحاضرين ويشرب كلّ شخصٍ جرعةً ويرطّب وجهه ببعض القطرات المسروقة.

يُغلَق الباب للمرّة الثانية. في هذه الجولة الثانية، تُذكر الصحّة للجميع رجالًا ونساءً، وفي البخار الحارق يُدندَن نشيدٌ يمنحنا شجاعةً لمقاومة ما بدأ يشبه الحروق الحقيقية كلّما كان أكثر قوّةً. للمرّة الثانية، يُفتح باب الخيمة، يسود الارتياح عينه لرؤية النهار. «لقد فقد البيسون أحد قوائمه وبدأ شعره يتساقط»، تقول الأسطورة الحديثة، إنّه العصر الذي طرد فيه النور الظلمات مثلما تبدّد الحكمة الجهل، كما يقول القدماء. ندخّن الغليون الذي يوجّهه مقيم القدّاس في آخر الأنبوب نحو الشرق «لأنّنا سنذكر الآن 'قدرة' هذا الاتجاه». توضع حجارةٌ جديدةٌ ساخنةٌ في النار ويُغلق الباب للمرّة الثالثة. على الفور، يغطّينا بخارٌ حارقٌ ويدخل حتى أعماق رئاتنا. يلتهب وجهي، فأحميه بظهر الجار. نستدعي المعرفة وأنوار علم المقدّس. كلّما اشتدّت الحرارة ارتفع صوت غنائنا. وعندما تكون الحرارة قد تغلغلت فينا جيّدًا، يُفتح الباب للمرّة الثالثة. تقول الأسطورة الحديثة: «لقد فقد البيسون قائمةً أخرى وتساقط شعره كلّه تقريبًا»، ويقول القدماء إنّه العصر الذي يغمرنا فيه النور. يدور الماء علينا مرّةً أخرى. تُغيَّر الحجارة الحارّة ويُغلق الباب للمرة الثالثة[770]. يُسكب كلّ الماء المتبقّي على الحجارة. ينتج حمّام بخارٍ يحرق أجسادنا كلّها تقريبًا لكنّنا اعتدنا. يُلقي مقيم القدّاس خطاب شكر، ويقول إنّه «تعرّقٌ جيد» وإنّ المساعد سيفتح الباب بعد بضع ثوانٍ

(770) الصواب: للمرّة الرابعة.

لآخر مرّة. ويضيف: «عندما سيُفتح الباب، سنرى النور. أمنية 'الروح العظيمة' هي أن يدخل النور في الظلمات كي نتمكّن من الرؤية ليس بأعيننا فحسب، بل بخاصةٍ بالعين الوحيدة الموجودة في القلب والتي نرى بها ونعلم كلّ ما هو حقيقيٌ وحسن. فلتبارك أجيالكم! هذا جيد! انتهينا!». يُفتح باب الخيمة ونُطلِق جميعًا من دون أي تحفّظٍ صيحات الفرح ونحن خارجون على أيدينا وأرجلنا من دون أن يرجو منّا أحدٌ ذلك، سعداء لكن مترنّحين بعض الشيء، مثلما سنُدرك ذلك عندما نقف. في الخارج، وضع المساعد فحمةً متأجّجةً على عتبة الخيمة حيث تحترق مريميةٌ عطرية. يتلفّظ بالكلمات التالية: «هذه هي رائحة 'الروح العظيمة'، وعن طريقها ستكون ثنائيات الأقدام ورباعيات الأقدام والكائنات المجنّحة وشعوب الكون كافّة سعيدةً وستفرح». المساعد لا يقلّ سعادةً عنّا. يقول لنا: «بفضلكم، يبدأ شعر البيسون في النموّ ثانيةً وسيستعيد قريبًا قوائمه كلّها!»، ولو أنّ قدماء هم من تحدّثوا إلينا لقالوا لنا: «إذا لم تستخدم الأجيال القادمة هذه النار كما يجب، فستتمتّع بالقدرة على إصابتها بضررٍ كبير». لكنّ الجدد والقدماء متّفقون على شكر واكان تانكا الذي كان طيّبًا تجاهنا اليوم!

في كلّ مرّةٍ أقمت عند هنود أميركا الشمالية، كانت الإقامة مرتبطةً بالتزامي وصداقتي مع زعماء الحركة الهندية الأميركية الذين أتوا إلى فرنسا للحديث عن ظروف الهنود الأميركيين، ولاسيّما في جامعة باريس السابعة في قسم الإثنولوجيا. هكذا وجدت نفسي وسط بلاك هيلز، وهو جبلٌ مقدّسٌ عند الهنود، وذلك لمساعدتهم في الدفاع عن مخيّم يلّو ثندر[771] (Yellow Thunder Camp) ضد

(771) مخيم يلّو ثندر: مخيّم اعتصام أقامه السكّان الأصليون في العام 1981 ودام ستّ سنوات، احتجاجًا على عودة حكّومة ولاية داكوتا إلى أراضيهم المصادرة في بلاك هيلز.

عناصر حكومة ريغان الذين كانوا يريدون طردهم منه لاستثمار باطن الأرض الغني في ذلك المكان البرّي... وهكذا، وجدتُ نفسي في خيمة تيبي[772] (tipi) بصحبة ريغوبيرتا منشو[773] (Rigoberta Menchu) (التي لم تكن قد حصلت بعدُ على جائزة نوبل لكنّها كانت منذ ذلك الحين مناضلةً باسلة) وبعض الهنود الآخرين. ليس هنالك شيءٌ خارقٌ في أن يسكن المرء في تيبي، سوى أنّ أبوابها وجدرانها غير مصنوعةٍ من مواد صلبة وأنّ الليالي فيها باردةٌ في الجبل من دون تدفئة. صحيحٌ أنّ مساعداتٍ إنسانيةً أُرسلت، لكنّها كانت عبارةً عن مخزون «خردل قوي من ديجون (Dijon)». كانت هنالك كميةٌ منه، لم أعلم أبدًا لماذا أو كيف، وكنت الهاوي الوحيد لأكله مع الخبز المحمّص. اقترحتُ استخدامه على شكل لبخة، إذ كان كفيلًا بتدفئتنا ليلًا، لكنّ ريغوبيرتا كانت تفضّل أن تأكل اليرقات التي تعيش على الأشجار من دون خردل. أمضينا أيام «المناوبات» مع وعند جيراننا الهنود الذين كانت التيبي الخاصة بهم مجهّزةً بمدفأة. هكذا، عبر العيش في تيبي وسماع حكاياتها، تعلّمت شيئًا فشيئًا كم مدخل ومخرج وعتبة ومُكوث في هذه الخيم المخروطية الكبيرة كان مرمّزًا.

يقال إنّ التيبي كانت في الماضي أقرب إلى معبدٍ منها إلى بيت، إذ تمثّل أرض التيبي «الأرضَ الأم»، وجدرانُها السماءَ، وقصباتُها الطريق بين الأرض وبلاد الأرواح، أي الدرب بين الإنسان وواكان تانكا. وكما في كلّ منزل، إذا كان الباب مفتوحًا، يستطيع الأصدقاء الحقيقيون دخول التيبي من دون تكلّف ومن دون إلقاء التحية إلّا بعد أن يصبحوا

(772) تيبي (بالإنكليزية teepee): خيمةٌ مخروطيةٌ عند هنود أميركا الشمالية.

(773) ريغوبيرتا منشو (1959 ـ)، مواطنةٌ غواتيماليةٌ نالت جائزة نوبل للسلام في العام 1992 «بفضل عملها من أجل العدالة الاجتماعية والمصالحة الإثنية ـ الثقافية استنادًا إلى احترام حقوق الشعوب الأصلية».

في الداخل، على الرغم من أنّه من المفضّل دائمًا أن يصدر المرء نحنحةً كي لا يفاجأ أحدٌ به، ولاسيّما إن كان صاحب الدار رجلًا مسنًّا استغرقته المهامّ المنزلية غير اللائقة بمنزلته! أمّا عندما لا يكون المرء ممّن يقيمون صلةً حميمةً مع أهل البيت، فينادي أو يهزّ حوافّ الفتحة: يُصدِر الأشخاص الأكثر خجلًا سعالًا خفيفًا. لكنّ الطرْق على مادّةٍ رخوةٍ أمرٌ صعب، ولا بدّ بالتالي من وسيلةٍ للإعلام بالمجيء. وبالفعل، كانت هنالك أجراسٌ معلّقةٌ في مداخل بعض التيبي، يغلب طابع الزينة فيها على الصوت الذي تصدره، لكنها تمتاز بأنّها وُجدت. لقد سنحت لي الفرصة لأرى «طارق باب تيبي» في نيويورك، في متحف الهنود الأميركيين. تتكوّن «مطرقة الباب» هذه من قائمتي ثور مفرّغتين، وأتخيّل أنّ الظلفين كانا يُحرَّكان، وهو أمرٌ كان يؤدّي بحسب اعتقادي إلى ما يشبه ضجيجًا مخنوقًا لصنجين لا يمكن التعامل معهما لكن لا بدّ أنّه كان يساوي في هذه البيئة المصنوعة من اللبّاد قيمة جرسٍ كهربائي. على أيّ حال، كانت تلك طريقةً حضاريةً جدًّا في التمكّن من الإعلان عن النفس عند مدخل تيبي قبل أن يدعى المرء للدخول إليها. في غالب الأحيان، كان الهنود يرتابون بمن يعلن عن نفسه. وتحكي طُرفةٌ انتشرت في «تيبي المناضلين» التي كنت فيها، أنّ زعيمًا عجوزًا كان يكره (بحكم التجربة) أن يدخل أحدٌ إلى بيته بعد أن يطلب منه الإذن بذلك، ففي تلك الحالة يطرح عدّة مرّاتٍ على الزائر السؤال التالي: «هل أنت موظّفٌ في الحكومة؟»، وإذا بقي الجواب سلبيًّا بعد ثلاث مرّات، كان يقول له: «حسنًا، ادخل وتعال لتأكل».

عندما يدخل الرجل إلى تيبي، فهو يمضي دائمًا نحو اليمين ويجلس في الطرف الشمالي، حيث يُحدَّد مكانه. تذهب المرأة نحو اليسار ويجب أن تبقى في الطرف الجنوبي. يجب على الدوام تجنّب المرور بين شخصٍ جالسٍ والموقد المركزي، وإذا حدث ذلك فعليه أن

يعتذر علنًا متوجهًا إلى «الجد»، «الأخ»، «الأخت»، «ابن العم»، وهي طريقةٌ في تقدير الآخر باحترام وإعادة خلق الانسجام العائلي في الحلقة. ومن الأهمية بمكانٍ أن يعرف المرء كيف يجلس في التيبي. على سبيل المثال، على المرأة ألّا تتربّع أبدًا كالرجال، بل أن تطوي ساقيها إلى الجانب. كذلك، تقضي العادة بتقديم الطعام لكلّ زائر، وبخاصةٍ بتقديم هديةٍ له لحظة رحيله، إلّا... إلّا إن كان شخصًا غير مرغوبٍ فيه. في هذه الحالة، ينظّف المضيف غليونه، وهي إشارة إلى أنّ أوان الرحيل قد أزف. إذا أفرغ جرن غليونه بكلّ حرصٍ في شبكةٍ صغيرةٍ معدّةٍ لهذا الغرض، فكلّ شيءٍ على ما يرام، لكن إذا نثر الرماد على الأرض، فمن المفضّل تجنّب المرور ثانيةً بهذه التيبي. ضمن جوّ العراك الذي كان يسود في مخيم يلّو ثندر، سمعت بهذا الصدد حكاية [الجنرال] كاستر (Custer) في كنساس (Kansas)، عند الشايان[774]، فبعد أن تفاوض مع زعيمٍ ودخّن الغليون، وبينما كان يحضّر نفسه للذهاب، نثر الزعيم رماد الغلَيون على طرف جزمته. لم يفهم كاستر، غير أنّ جميع الهنود فهموا أنّ تلك كانت حركةً ورجاءً كي لا يعود أبدًا إليهم وطريقةً جليّةً لتمنّي كلّ شرور العالم له. وبما أنّني في مجال المعوّقات، وقد رأيت ذلك، أعلم أنه يُمنع الدخول إلى تيبي إن كان هنالك زوجٌ من العصيّ المتصالبة أمام الباب، إذ إنّها إشارةٌ إمّا إلى طلب عدم الإزعاج، أو إلى غياب صاحب التيبي. وإذا كان الغياب طويلًا، فلا يُكتفى بزوج العصي المتصالبة، بل تُدفَع القصبة التي تحتلّ زاوية دعامة سقف التيبي إلى ثقب الدخان ويُربط الباب بعنايةٍ شديدةٍ فيصبح التيبي مغلقًا حقًّا.

يبقى لي من هذه الإقامة في الجبال المقدّسة، عندما تداعبك الشمس، أنّه ليس هنالك أفضل من الاستقرار برخاوةٍ على حافّة التيبي.

(774) الشايان: أمّةٌ هنديةٌ أميركية تعيش في السهول الكبرى، وهي إحدى أشهر قبائل السهول وأهمّها.

في حال وجود مجموعةٍ كاملة، هنالك على الدوام شخصٌ ما لوضع نوعٍ من المشجب كي يمكن الاستناد إلى الخيمة من دون تمزيقها. وها نحن هانئون، مثل سيتّينغ بول[775] (Sitting Bull) وعائلته أثناء انتظارهم أن يأتي كورتيس[776] (Curtis) لالتقاط الصورة. عتبة التيبي هي على الدوام مكانٌ عذبٌ عذوبةً خاصة، يطيب للسعادة أن تأتي إليه. وعلى ما يبدو، كان مألوفًا أن تستقبل شابّةٌ المعجبين بها على باب تيبي والدتها. كانت تقف في فرجة الباب وقدماها في الداخل، لكنّ ركبتيها كانتا في الخارج، أي أنّها كانت «في الخارج» لكن عند أمّها بقدميها، وبطبيعة الحال فإنّ الشرف محفوظٌ ما دام الخُفّان موجودين. أحيانًا، كان العاشق يُقبل في التيبي، شرط أن يبقى على المدخل وتحت أنظار امرأةٍ مسنّةٍ تجلس في الداخل. لكن كان من حقّ الفتاة، على الرغم من مصاحِبتها، أن تغمر نفسها معه بغطائها، وكان بوسع العاشقين أن يتحدّثا حديثًا خاصًّا عمّا يريدان التحدّث عنه من دون أن يراهما من هو خارج هذه التيبي الخاصة.

قادتني أوّل إقامةٍ لي في الولايات المتحدة أواخر سبعينيات القرن العشرين إلى أريزونا مباشرةً، إلى هنود الهوبي[777] (Hopis)، حيث كنت أفكر بإنجاز بحثٍ إثنولوجيٍّ ميداني. وسرعان ما أُثنيت عن ذلك،

(775) سيتّينغ بول (حوالى 1831 ـ 1890)، زعيم قبيلةٍ وطبيب هانكبابا لاكوتا (من قبائل السو) وأحد الهنود الأميركيين الرئيسيين الذين قاوموا الجيش الأميركي، تميّز بدوره في الحروب الهندية، ولاسيما في معركة ليتل بيغ هورن (1876) حيث واجه جورج أرمسترونغ كاستر.

(776) إدوارد شريف كورتيس (1868 ـ 1952)، مصوّرٌ وباحثٌ إثنولوجيٌّ أميركي. كان أحد أهم الأنثروبولوجيين الاجتماعيين ممّن درسوا الهنود الأميركيين في أميركا الشمالية والغرب الأميركي، وترك كتاباتٍ وتسجيلاتٍ صوتية للأناشيد الهندية وكثيرًا من الصور على الزجاج.

(777) هنود الهوبي: قبيلةٌ من الهنود الأميركيين تعيش شمال شرق أريزونا.

لكن بقيت في ذاكرتي الـ«كيفا» (kiva)، تلك المنازل، أو بالأحرى تلك الحجرات التي لا باب لها والتي لا تفتح إلّا من السقف عند الهوبي وكذلك عند مجمل هنود البويبلو(778) (Pueblos)، ويجب للولوج إليها الصعود ثم الهبوط. سأشرح: ثمة سلّمان، واحدٌ للصعود إلى سقف هذا المبنى الخالي من النوافذ، وآخر للهبوط إلى تلك الحجرة المنعزلة والمقدّسة. في كتابي **القرية المعثور عليها مجدّدًا** (*Le Village retrouvé*)، تحدثتُ عن نومي على سقف منزل داناكيومبتيوا(779) (Danaqyumptewa) في هوتافيلا(780) (Hotavila) في ملاذٍ صغيرٍ على جلد خروفٍ وسط الذرة، حيث كان السلّم بابي، وكنت لا أسحبه أبدًا، أي أنّني كنت أتركه مفتوحًا، لكن أثناء وجودي هناك لم يصعد أحد، على الرغم من أنّ السطوح مكانٌ مفضّلٌ بين البويبلو للتأمّل ولمراقبة الأفق. لم أرَ كيفا أصيلة، إن كان لهذا التعبير معنى، إلّا في سبروس تري هاوس (Spruce Tree House)، في حديقة ميسا فيرديه (Mesa Verde) الوطنية في نيو مكسيكو. لكنّني سمعت عنها بين الهوبي بصدد مراسم واكيول (Oàquöl). في هذه الحجرة الواطئة، كان جدّ تالاييسفا(781)

(778) هنود البويبلو: جماعاتٌ قديمةٌ وحديثةٌ من السكّان الأميركيين الأصليين تعيش في جنوب غرب الولايات المتحدة.

(779) جيمس داناكيومبتيوا (1916 ـ 1996)، هنديٌّ أميركيٌّ من الهوبي، شارك فنانةً سويسريةً ألمانية في صنع فيلم بعنوان **تيشكا إيكاشي** (*Techqua Ikachi*) عن تاريخ الهوبي وفق رؤاهم وأفكارهم، يشهدون فيه على مقاومتهم السلمية للمصادرة والقمع اللذين تمارسهما الحكومة الأميركية.

(780) هوتافيلا: قريةٌ في أريزونا (الولايات المتحدة) صُوّر فيها الفيلم الذي شارك في إخراجه جيمس داناكيومبتيوا (انظر الهامش السابق).

(781) دون تالاييسفا (1890 ـ 1976)، هنديٌّ من الهوبي، كتب سيرة حياته بطلبٍ من عالم الاجتماع الأميركي ليو سيمونز، ونُشر الكتاب في العام 1959 بترجمته الفرنسية بعنوان **شمس الهوبي**.

(Talayesva)، مؤلّف كتاب **شمس الهوبي** (*Soleil Hopi*)، يشارك في الجمعية السرّية للنساء اللواتي كنّ يقمن فيها مراسم «من أجل مجيء حدثٍ سعيد». بعد ثمانية أيامٍ كاملة من الانعزال المؤقّت بالأناشيد والصلوات والتبخير، كنّ يخرجن من هذا الكهف وينطلقن في مسيرةٍ شعائريةٍ يرمين أثناءها هدايا على الرجال، قبل أن يذهبن إلى الرقص في ساحة القرية. ومن الكيفا أيضًا كان يخرج تالايسفا ومساعدوه المتنكّرون بزيّ كاتشينا[782] (Katchina). كان هؤلاء المهرّجون الشعائريون الرهيبون المتقنّعون، والذين دهنوا أنفسهم بألوانٍ صارخة متنافرة يخيفون الأطفال ويهدّدون بأكلهم، ويلاحقون «عذراء الذُّرَة» التي كان عليهم إخصابها، وهي في المقابل تأتي بالمطر إلى البلاد، ثمّ ينسحبون ويهربون عبر السطوح ويختفون في قاع الكيفا... أمّا أنا، فقد عُدتُ إلى بورغونيا، التي ينتشر فيها كلّ أشكال الكيفا، غير أنّ أبواب هذه الأخيرة تحاذي الأرض، بل مغروسةٌ في التراب، حتى إذا كانت المفاعيل التي يمكن الحصول عليها منها ترتبط ارتباطًا وثيقًا بإشعاع الشمس. هنا، في قاع أحد تلك الكهوف حيث التقيت منذ وقتٍ غير بعيدٍ بأحد الإينويت[783] (Inuit) الكنديين على ضفاف بحيرة بير[784] (Bear)، قايض أحد جيراني، وهو صيّادٌ لسمك السلمون، شعر دبٍّ أبيض بنبيذٍ أبيض (كذا). بطبيعة الحال، انطلقت المحادثة حول أكواخ الأسكيمو والأكواخ الأخرى وحصلنا على تصحيحاتٍ تتعلّق بقلّة معرفتنا المغفور لها بخصوص سكن الإينويت. إذا اعتقدنا أنّ كوخ

---

(782) الكاتشينا: الأرواح في ميثولوجيا هنود الهوبي والزوني في نيو مكسيكو وأريزونا، جنوب غرب الولايات المتحدة.

(783) الإينويت: مجموعةٌ من الشعوب الأصلية التي لديها تشابهاتٌ ثقافيةٌ وأصلٌ إثنيٌّ مشترك، تعيش في المناطق القطبية في أميركا الشمالية.

(784) بحيرة بير (بحيرة الدب): تقع في شبه جزيرة كيناي في ألاسكا، الولايات المتحدة.

الأسكيمو (iglou) أو (igloo) هو مسكنٌ من الثلج مثلما أمكننا أن نراه في البناء المبتكر في فيلم فلاهرتي[785] (Flaherty) الرائع، **الأسكيمو نانوك**[786] (*Nanouk l'Esquimau*)، فنحن مخطئون! في واقع الأمر، تشير كلمة إيغلو (كوخ الأسكيمو) إلى المنزل التقليدي المصنوع من الحجر والخثّ، أو الكوخ المسيّج بالخثّ ويغطيه بطبيعة الحال الثلج والجليد طيلة الليل القطبي الطويل. أمّا عن منزل الأسكيمو الأسطوري الثلجي، والذي أفضى بعد النجاح العالمي لفيلم **نانوك** إلى بناء كوّاتٍ لبيع التذاكر على شكل إيغلو (واقتُرح فيها «أسكيمو» في الاستراحة!)، فيطلق عليه الأسكيمو تسمية «إيلولياك» (illuliaq). وقد أكّد لي صديقي الإينويت الجديد، والذي ستتبنّاه بورغونيا قريبًا، بأنّ الإيغلو لا يبنى إلّا استثنائيًّا، أثناء السفر أو حملات الصيد، عندما يكون بناؤه ضروريًّا حقًّا. في كتاب جان مالوري[787] (Jean Malaurie) المعنون: **آخر ملوك توليه** (*Les Derniers Rois de Thulé*)، يحكي المؤلّف أنّه كان مدعوًّا في خمسينيات القرن العشرين لزيارة أحد الإنويت، فدخل في «إيغلو بين إيغلواتٍ أخرى، وهو عبارةٌ عن تلٍّ من الخثّ والحجر على شكل سلحفاةٍ يمتدّ رأسها نحو الضفة. يسعل ساكايونغواك (Sakaeunnguaq) إعلانًا عن حضوري... يرفع لوحًا. طوينا جسدينا إلى نصفين وانزلقنا عبر أخدودٍ من الخثّ يبلغ طوله ثلاثة أمتار. دفعت بابًا آخر يصل طوله إلى البطن. وصلنا. نرفع نفسينا ونحن نستند إلى اليدين. حجرةٌ صغيرةٌ واطئةٌ إجّاصية الشكل، ينيرها

---

(785) روبرت فلاهرتي (1884 ـ 1951)، مخرجٌ أميركيٌّ يُعدّ من آباء السينما الوثائقية الأميركية.

(786) الأسكيمو نانوك (1922): فيلم من إخراج روبرت فلاهرتي وهو أحد أوائل الأفلام الوثائقية الطويلة.

(787) جان مالوري (1922 ـ)، عالم إثنولوجيا ومؤرّخٌ وجغرافيٌّ وفيزيائيٌّ وكاتبٌ فرنسي، تُرجم كتابه آخر ملوك توليه إلى 23 لغة.

مصباحٌ من الحجر الأسود معبّأٌ بزيتٍ يعطي نورًا أصفر متردّدًا...»، كما يحكي كيف تجاوز ذات مرّةٍ في وسط المنطقة القطبية الشمالية الكندية في «الممرّ المعتم المؤدّي إلى الإيغلو» جسمَ يتيمٍ بائسٍ منطوٍ على نفسه يرتجف بردًا، «كان يأكل بعد الآخرين البقايا التي يتفضّلون بها عليه ولم يكن له حتى الحقّ في حرارة حياة العائلة التي كانت على بعد مترين من فراشه، في الإيغلو نفسه». ويوضح أنّه إذا كان هذا الصبي المسكين مضطرًّا للعيش في مدخل الإيغلو، فلأنّه كان يتيمًا. غير أنّ «كون المرء يتيمًا عند الإينويت يعني أن يُحكَم عليه بالإبعاد إلى أدنى مرتبةٍ في المجتمع، إلّا في حال وجود جهودٍ خارقة. [...] في الماضي، لم يكن يُسمح له بالنوم، على الأقلّ في المنطقة القطبية الشمالية الكندية، إلّا في الممرّ المؤدي إلى الإيغلو (في الـ«كاتاك» katak) حتّى يصبح أكبر سنًّا وأكثر قوّةً، فيُقبَل في قلب الإيغلو والعائلة». بل إنّ أحد طلّابي في الدكتوراه، وهو جان ميشيل أوكتان (Jean Michel Huctin)، وهو يبحث في سوء معاملة الأطفال في غرينلاند، يصف اليوم وضع هؤلاء الأطفال الذين تضعهم «الحضارة» على هامش مجتمعٍ هو أصلًا محطّمٌ جدًّا. وقد تلطّف هذا الطالب، مثله مثل بعض الزملاء، بالردّ على «استجوابي حول الأبواب» وحكى لي كيف أصبح المرء «يدخل» إلى ما كانت تُطلَق عليه في الماضي تسمية إيغلو. كتب لي من أوماناك (Umanac) حيث يمضي جزءًا كبيرًا من السنة: «في القرى الصغيرة شمال غرينلاند حيث المنازل الخشبية الملوّنة، يرغم البرد الشديد على إبقاء الأبواب مغلقةً بطبيعة الحال. والأرجح أنّ هذا هو السبب في أنّ الإينويت لا ينتظرون عندما يزورون آخرين، وإن كانوا مجهولين، أن يُطلَب منهم الدخول. فهم يفتحون الباب الذي نادرًا ما يكون مقفلًا بالمفتاح من دون أن يتوقّفوا ويطرقون جزماتهم بشدةٍ على الحرف لإزالة الثلج العالق فيها، وهذا يعلن أيضًا عن حضورهم،

ويدخلون بسرعةٍ كبيرةٍ إلى المنطقة العازلة في المدخل، ثمّ يفتحون بابًا ثانيًا يفصل المنطقة العازلة عن بقية المنزل ويحيّون سكّان المكان قبل أن يخلعوا جزماتهم ومعاطفهم وكنزاتهم وغيرها من السترات القطبية. الجوّ شديد الحرارة في هذا الفضاء الداخلي الذي ليس فيه أبوابٌ سوى باب المرحاض وأبـواب الغرف. يعيش الإينويت طيلة السنة بالقميص أو البلوزات. في بعض المنازل، أصغرها حجمًا وأقدمها، لا يوجد أيّ باب، حتّى في الطابق الثاني الذي يكون أحيانًا غرفةً كبيرةً تحتوي على أسرّةٍ متباعد بعضها عن بعض. الأرجح أنّ ذلك بعضٌ من ذكريات العصر غير البعيد عندما كانت الأسْرَة بأكملها تتمدّد وتنام معًا على لوح النوم في الحجرة الوحيدة داخل المنزل التقليدي المصنوع من الخُثّ [أخشاب وعيدان]. وعندما توجد أبـوابٌ داخلية، كثيرًا ما ينسون إغلاقها...».

لست متأكّدًا من أنّ الأبواب كانت شاغلًا رئيسيًا لهذه المجتمعات الرحّل، حيث لم تكن المجالات التي كانت تتنقّل فيها تجذبها نحو خارجٍ مفتوحٍ على الدوام، وكانت فكرة الإغلاق نفسها تبدو لهم على الأرجح غير مقبولة. لكن نظرًا إلى الأوضاع القصوى التي كانت تعيش فيها، الاحتماء من البرد والرياح، فقد اخترعت وسائل مبتكرةً إلى درجة أنّ المعماريين استلهموا منها فيما بعد.

ممثّلاتٌ رائعاتٌ جدًّا

يقولون في الولايات المتحدة إنّ باب الغرب الأميركي هو قوس جيفرسون ناشيونال ميموريال الهائل في سانت لويس، (Gateway Arch). يجب توجيه التحية للإنجاز التقني، لكنني أخشى ألّا يمثّل هذا «الباب»، مهما كان كبيرًا، الفكرة التي يمكن تشكيلها عن باب «الغرب الأقصى» رمزيًّا. قبل اكتشاف هذا «القوس» الهائل الذي يسيطر على

الميسيسبي، كنت أعتقد أنّ الأميركيين نجحوا في إنجاز بناء «بابٍ غربيٍّ» عملاقٍ بمقدار ما عوّدنا عليه الغرب، أو بالأحرى مدنه وحاناته، وبخاصةٍ أفلامه الويسترن. كان بوسع ما تُطلَق عليه تسمية (batwing-door) «بابٌ بجناحي خفّاش» حرفيًّا، أن يقوّي اعتقاداتي الساذجة عن أميركا التأرجح (swing)، وهو اسمٌ آخر لهذا الباب الصغير ذي المصراعين (swinging door). يمتاز هذا الباب الصغير الذي يدور حول نفسه بأنّه يوجد دائمًا بالاتجاه الصحيح بالنسبة إلى من يجتازه. إنّه مجرّد «باب مقهى»، هذا ما ردّ عليّ به بشيءٍ من السخرية أصدقاء أميركيون سألتهم عن المسألة. وقال لي عارفون باريسيون معتادون أبوابَ مطابخ مطعم لاكوبول (La Coupole) في مونبارناس[788] (Montparnasse) الذي تستحقّ حركة نادليه السريعة والمتوازنة أن يتفرّج المرء عليها: أنت تقصد «باب مطعمٍ ذي مفصّلاتٍ مزدوجة»... لقد انكبّ شارحون على هذا الباب الذي ترفع لقطةٌ قريبةٌ له في أفلام الويسترن الأدرينالينَ دائمًا، وتوافقوا على أنّه حقًّا وفعلًا باب مقهى. والدليل على ذلك أنّه كان يثبّت في مداخل المشارب، ما يعني مناسيب مرتجلةً من المشروب، تنصبّ على عجلٍ في تلك الصحاري التي تعبرها الجموع المتدفّقة نحو «الغرب» وتمتلئ بسرعةٍ كبيرةٍ بالرجال والدخان، إذا ما صدّقنا الأفلام. يمتاز هذا الباب المثقّب الذي لا يخفي الجسم إلّا من الصدر وحتى الركبتين بأنّه يمرّر الهواء ويمكّن من مراقبة ما يجري على الجانبين، والأهمّ أنّه يمكن دفعه، بل «إزاحته» بسهولةٍ بركلة قدمٍ والمسدسات في القبضات.

إنّـه على حدّ علمي الباب الوحيد غير الكهربائي والخالي من القبضات الذي يوفّر في عمليات إعادة تشكيل «غرب» البارحة دقائق ثمينةً على المخرجين ويمنح رعاة البقر المستعجلين دائمًا على باب

---

(788) مونبارناس: أحد الأحياء الشهيرة في باريس.

المشرب كلّ تلك الثقة الذكورية. إنّه بابٌ مضادٌّ بامتياز، فهو لا يحترم أيّ اتّجاهٍ في الفتح وبالتالي يمنع أيّ نوعٍ من التهذيب. وهذا الباب ذو النابض الذي لا يمكن ترويضه، يستسلم بسهولةٍ للاقتحام، تحت خطر تلقّي ضربةٍ غير متوقّعة من المصراع في حركته الراجعة، بل تحت خطر إمطاره بالرصاص من دون أن يبدو عليه التأثّر. لكنّ اصطفاق مصراعيه البطيء في الهواء هو أكثر إقلاقًا عندما يكون الباب وحده في العالم في مدينةٍ هجرها أهلها... ثمة مأساةٌ قادمة.

منظومة الباب المصطفق، مثلها مثل الأبواب الكلاسيكية، جزءٌ من ثقافة الحركة التي سوف تستولي عليها السينما الأميركية. في الواقع، الباب ممثّلةٌ لا تفوّت مشهدها أبدًا. يجب القول إنّ الباب في الديكور ممثّلةٌ رخيصةٌ لا يمكن تعويضها لتقديم مشهديةٍ وإغلاقها وفتحها. ومثلما أُحِبّ أفلام الويسترن وأبوابها المعلِنة، أُحِبّ تلك المسلسلات التلفزيونية البالغة الطول والتي تَفْصِل فيها منذ عقودٍ أبوابٌ بيضاء هشّةٌ القاتلين عن ضحاياهم وتلعب دور العقبة النهائية أمام الدوافع المتوحشة لدى أولئك الذين يكسرونها أحيانًا، وغالبًا ما يكون ذلك بعد النداء أو الطرق عليها. كذلك، كثيرًا ما تصاحب تلك الأبوابَ عندما يجري المشهد في «الجنوب» ناموسيةٌ هشة، تجويفٌ حقيقي يفصل الداخل عن الخارج وعن البعوض، تلعب في خشخشةٍ ضعيفةٍ وواهية دور التوأم الحامي لباب«ها» قبل أن تتحطّم بتأثير ضربات «شرّيرٍ حقيقي» أو «شرطيّ صالح» منخرطيْن في ملاحقةٍ تُعرَض بوصفها خاليةً من العيوب. تؤدي الأبواب البيضاء، أبواب المنازل الأميركية، دور البريئة باستمرار، فهي لا تحبّ أن يقتحمها أحدٌ وهي في المجمل محترمةٌ إلى حدٍّ كبير. إذ إنّ للباب قوّته في رمزيته عينها وهو يفرض بالقوّة رموزه الثقافية إلى درجة أنّ قليلًا منها يخالف هذا الأمر. فعلى الباب بدايةً يتم التعبير عن البديهيات غير المرئية التي تجبل ثقافةً ما، وهذا هو السبب

الرئيسي في أنّ كلّ بابٍ يسحرني. وعندما تكون هنالك صدمةٌ أو تدخّل، نعي الطابع النسبي لحقائقنا، وعلى كلٍّ من هذه الأبواب الممثّلة في تلك الأفلام والمسلسلات الأميركية، نرغم أنفسنا على الدخول ضمن منطق الآخر بجهدٍ أكثر تساوقًا بكثيرٍ ممّا تعتقد مخيّلتنا.

ثمة أمورٌ غريبةٌ بالنسبة إلى فرنسيٍّ لا يعيش في سياق الولايات المتحدة، مثل واقع أنّ الباب غير مصنوعٍ في الأصل ليحتجز بل ليفتح، وأن يصل نظر المرء مساءً عبر زجاج الأبواب والنوافذ الخالية من الستائر إلى سكّان البيوت وهم يعيشون حتى في قاعها، وأن تكون العتبة، أي القسم الأمامي في منزلٍ أميركي، مرجًا مفتوحًا يصل حتى الشارع من دون حاجز، مستغنيًا في بعض المناطق عن الرصيف. في هذا البلد الجديد والمتّسع، حلّ الحيّز محلّ الجدران والحواجز، وبطبيعة الحال، ليست هنالك علاقةٌ بين الحاجة إلى ترك كلّ شيءٍ مفتوحًا وتولّي المرء خصوصيته بالكامل في آنٍ مع خصوصيتنا نحن وبين شعورنا بالملكية الذي تؤكّده ضروب الإغلاق الدفاعي لعبارة «هذا يكفيني» الخاصّة بنا.

عليّ أن أعترف بوجود ضعفٍ لديّ تجاه مسلسلٍ أميركي لا يوجد فيه هذه المرة رعاة بقر عطاشٌ وميّالون للمشاجرة، ولا رجال شرطةٍ، ولا قتلةٌ علنيون يركلون الأبواب، بل حيث توجد النساء بشكل أساسي... إنّه المسلسل المضحك والمؤثّر **ربّات منازل يائسات** (*Desperate Housewives*). يبدو لي هذا المسلسل بكلّ «مواسمه» (إلى حدٍّ ما) مثالًا للاستخدام السلمي و«المتحضّر» للأبواب الأميركية، إذ نجد فيه جميع الأوضاع «البابية» الأميركية التي يمكن تخيّلها، فنرى فيه على سبيل المثال جارًا انتقل لتوّه إلى الحي (وهو هنا دائمًا رجلٌ وسيم، وعلاوةً على ذلك أعزب!)، يستقبل زيارة جاراته (الفضوليات جدًّا) الأميركيات اللواتي أتين للترحيب به وقد أحضرن القهوة الساخنة وقطعًا صغيرةً من الحلوى. وعلى العكس من ذلك، أستغرب كلّ مرةٍ عندما

أرى البساطة التي يدفع بها جارٌ أو زائرٌ باب جاره من دون أن يعلن عن وجوده ويتنقّل بكلّ ذلك اليسر في المنزل من دون أن يراوح أمام الباب ساعةً كاملة. إذا كانت حماية الباب ضعيفةً إلى هذا الحدّ ويمكن فتحه بهذه السهولة في أميركا، فلأنّ الأهمّ هو حسن الضيافة الكامن تحت هذه الفكرة الكريمة والدينية، بأنّ «الأقرب إلينا» يجب دائمًا أن يشعر «في بيتي كأنّه في بيته». نظريًّا، ليس لدى بروتستانتيٍّ ما يخفيه، إنْ في طريقة حياته أو في الحيّز الذي يعيش فيه، ويستطيع جميع الناس أن يروه وهو يعيش. كثيرًا ما التقيت في الولايات المتحدة بأناسٍ دعوني بكلّ لطفٍ إلى المرور بمنزلهم، وللغرابة ـ وكنت بالكاد أعرفهم ـ كانوا يدعونني إلى «جولة في أرجاء المنزل» بحماسةٍ مطلقة العنان، من القبو حتى السقيفة. سوف نلاحظ أنّ الأبواب الداخلية كافّة في «شقق السينما» مفتوحةٌ في معظم الأحيان، وهي وإن كانت طريقةٌ حسنةٌ لتجنّب اقتحامها بالتأكيد، لكنّها إخراجٌ يوحي أيضًا بأنّه ليس هنالك في أميركا ما لا يمكن اجتيازه، وبأنّ كلّ الممكنات هي دائمًا مفتوحة. كان شائعًا أن نرى في الأفلام (قبل قوانين مناهضة الكحول) شخصًا يدخل منزلًا مطلِقًا عبارة «مرحبًا يا صاح» (hello man) غير الموجَّهة إلى شخصٍ محدّد، ويسكب بنفسه ولنفسه كأسًا في بار المنزل، بل يبحث أحيانًا عن قطع ثلجٍ ليشعر بأنّه في بيته تمامًا. أمّا السهرة الناجحة، فهي ليست في أفلام وودي آلان[789] (Woody Allen) فحسب، بل تفيض في الغالبية العظمى من الأحيان من الصالون نحو المطبخ، حيث يستفيد من ذلك بعضهم للاختفاء خلسةً، إذ إنّ لكلّ مطبخٍ في أصغر بيتٍ أميركي بابًا ثانويًّا يفضي إلى الجانب الخلفي، إلى شارعٍ صغيرٍ أو إلى الحديقة الداخلية. إلى هذه البيوت السيئة الإغلاق إلى هذا الحدّ، يتسلّل عادةً الأشخاص «غير المصرّح لهم» بتجاوز الباب الأمامي. في فئة

---

(789) وودي آلان (1935 ـ)، مخرجٌ وكاتب سيناريو وممثّلٌ فكاهيٌّ أميركيٌّ شهير.

«الممثلون ـ الأثاث»، الباب الخلفي بعيدٌ عن أن يكون دورًا ثانويًا، على الرغم من أنّه يُربَط في أغلب الأحيان في الأفلام البوليسية بـ«الثاني»، الذي تلقّى الأمر من زعيمه بالذهاب لمرافقة «الحثالة» الذي لا يمكن أن ينسلّ إلّا من الخلف! وهكذا، فإنّ ما ندعوه في اللغة الفرنسية «باب الخدمة» (وهو مصطلحٌ يُدخلنا على الفور في تاريخٍ اجتماعي يتعارض فيه المسيطَر عليهم والمسيطِرون)، يلعب بالكامل دوره في تاريخٍ غير تراتبي. سوف ترتفع مرتبة الباب الخلفي بسرعةٍ كبيرةٍ لتصبح في مستوى باب الدخول، الذي لا يمكن أن يوجد بالكامل من دون الكشف عن بديله الخلفي.

سوف أترك للمحلّلين النفسيين والمتخصّصين في السينما الأميركية عناء فكّ رموز التتمّة، لكنّني أرغب في ملاحظة أنّ حداثتنا والتحوّل المتسارع لحياتنا كأوروبيين منسوخان أكثر فأكثر عن النموذج الأميركي، وأنّ إخراج هذا النموذج الواجب تقليده هو أيضًا مروَّجٌ بتلك الممثلات الجميلات والطيبات، أي أبواب مسلسلاتنا المفضّلة.

معركة الأبواب

«... هذا الباب الصغير في سماكة الجدار في قاع رواق الدير... المصنوع من الخشب القاتم، من البلّوط المصمت المستدير على نحوٍ لذيذ، والذي صقله الزمن... هذه الاستدارة بخاصّةٍ هي التي سحرَتْه، كانت حميمةً، غامضة... كان بودّها لو تأخذ ذلك الباب، لو تحمله، لو يكون في بيتها... لكن أيـن؟... [...] المكان مناسبٌ تمامًا ولا يبقى إلّا تغيير باب صالة الطعام الذي يؤدّي إلى ملحق المطبخ وثَقبُ فتحةٍ بيضويةٍ والتوصية على بابٍ كهذا، من البلّوط المصمت الجميل، بدرجة لونٍ أفتح قليلًا، بلونٍ جميلٍ حار... كان قد رأى كلّ شيءٍ دفعةً واحـدة، الكلّ معًا: الستارة الخضراء التي تُفتح وتُغلق على الفتحة الكبيرة المربعة التي تؤدّي إلى الدهليز، مكان الباب المزدوج المزجّج المغطّى بستائر بشعة صغيرة متغضّنة (مريعٌ حقًّا ما فعله الناس أحيانًا في الماضي، والأدهى أنّ المرء يعتاد عليه، لا يعود يلاحظه، لكن يكفي أن ينظر إليه)، الجدران المعاد طلاؤها باللون البيج المذهّب وعلى الطرف الآخر من الحجرة، هذا الباب، الباب عينه تمامًا، مع رصائع، بخشب البلّوط المصمت الجميل... [...] سيكون المجمل ساحرًا وسيكون الباب أفضل من كلّ ما تبقّى... نفاد الصبر قبل قليل، الإثارة عندما أحضروه، عندما كانوا ينزعون بحرصٍ الغطاء الذي يغلّفه... حركاتهم الرهيفة والدقيقة والهادئة... عمالٌ ممتازون يعرفون مهنتهم تمامًا ويحبّونها، على المرء أن يتوجّه دائمًا إلى الشركات الجيدة... لقد

أظهروه بلطفٍ وبدا أجمل ممّا كانت تتخيله، خاليًا من أيّ عيب، جديدًا تمامًا، سليمًا... الرصائع المقبّبة ذات الاستدارة الكاملة، المقطوعة في سماكة الخشب، كانت تبرز تموّجاتها الدقيقة... كأنّه تموّجٌ لشدّة ما كان حريريًّا، لامعًا... كان كلّ ذلك الخوف سخفًا، وكلّ ما في ذلك الباب مغايرٌ لسواه...»

Nathalie Sarraute[790], *Le Planétarium*, 1959

(790) ناتالي ساروت (1900 ـ 1999) كاتبةٌ فرنسيةٌ من أصلٍ روسي.

ليس هنالك رجلٌ في العالم أكثر تحمّسًا للأبواب من أنطونان أرتو. ليس هنالك شخصٌ اضطرّ لمخاطبة الأبواب بصيغة المفرد وأجهد الأقفال وأضاع المفاتيح وعرف كيف يفعل ذلك أفضل منه. في كتابه **الأمهات في الإسطبل** (*Les Mères à l'étable*) يتساءل: «الأبواب، الزنازين، مخزن الغلال، الوجبات، الغرفة التي كان عليّ اختيارها... هل كانت مخزن غلالٍ أم إسطبلًا أم ملاذًا أم سجنًا؟ هل كنت إنسانًا أم حيوانًا؟». أريد إغلاق هذا الكتاب الذي واجهني كثيرًا بالفراغ الفلكي للخارج الذي لا يأبه أبدًا بعتباتنا الوهمية وبحكاياتي عن الأبواب والمعابر، بأن أحكي لكم قليلًا عن معركتي الخاصّة بالأبواب. لقد جعلني أرتو الذي نبشتُه بالصدفة، أدرك على نحوٍ أفضل بحثي شبه المستحيل، حيث كان الجهل يتراكم، ولم تكن الآثار تفضي إلى شيء، ولا كانت المفصّلات تستسلم ولا الأقفال تفتح. لقد كان موقعه في مواجهة «عالمٍ لا ينضب من الأفكار»، وكان مقتنعًا بأنّ لديه المفتاح «لكنّ (الأمّهات) لم يكنّ يوافقن أبدًا على إعطائي إيّاه، لأنّ أيًا من تلك الأفكار لم تكن أنا، على الرغم من أنّها كانت كلّ ما كنت أفكّر فيه «في واقع الأمر». غير أنّ أبواب الغرف والزنازين التي كنت أمامها والتي كانت ترتجف غضبًا في قلبي بأقفالها ومفاتيحها، كانت في العالم الواقعي متجمّدةً صمتًا وذات سمةٍ حيوانية منافقة».

أمضيت وقتًا قبل أن أفهم أنّ مادّية الموضوع ليست هي التي تصنعه، وأنّ الذات لا معنى لها إن لم تتجسّد، إن لم تحيَ بالكامل وتتحرّك إلى حدّ الكلام بعد فتح قفلها وتقلْ لنا تقريبًا: «سأفتح نفسي عندما تصبح مثلي، هذا ما كان يبدو أنّ كلّ قفلٍ يقفز من قلبي يقوله لي». في مواجهة ندرة المكتوب والمحكي حول الباب، كنت أشبّه باختصاصيٍّ في الانهيار، ضائعٍ أسفل جبلٍ صُنع من تراكم النقص الذي لا يمكن

تصديقه في المحكيّ، ذلك أنّ للباب هـذره، وأنّـه يعرف قوّة عيوبه وواجباته تجاهنا، نحن البشر القادرين على الإطناب بصدد كلّ شيء. لكن أرتو الذي يلامس باستمرارٍ ما هو غير مقبولٍ في الفتحة، حبيس «نزوات معرفته بكينونته»، القلق المبرشم في سريرته، يحرّك الترباس بطريقته القوّية في الانتهاك ليصحّح الصمت الذي لا يُسبَر والمقيم على أبوابنا التي تصوغ حيواتنا وتفكّكها منذ كلّ ذلك الوقت: «كنت إنسانًا، لكنّ الأبواب بأقفالها المصنوعة من الغضب كانت تريد أن تراني أفكّر في نفسي بنفسي، كحيوان، أن أقرّ أخيرًا بحيوانيتي، / وذلك ما لم أكن أستطيع القبول به / . كنت أرتاب بكلّ بابٍ عليّ المرور به ولم يكن أيٌّ منها يبدو لي آمنًا، ولم أكن أعلم إن كانت تلك أبوابًا تفضي إلى سجون العالم أم إلى حيّز الأبديّات».

لا يتنصّت أرتو أبدًا عبر الأبواب، بل يستمع إلى الأبواب نفسها: «كانت الأبواب تخور باستمرارٍ بأقفالها ومفاتيحها قائلةً: لماذا نحن حبيساتٌ إلى هذا الحدّ في حين أنّنا كلُّ ما أراد حبسَك؟ لكنّنا منهكاتٌ في نهاية المطاف من ثباتنا، وارتباطنا بالجميع ليس إلّا الكراهية التي نضمرها لكرامتك». إنّه هنا، غير قادرٍ على الاستسلام لمادّية الشيء، يتساءل: «لكن ما حاجتي لكلّ هذه الأبواب، للكينونة، ولهذه الرموز للشخصية التي يجب الدخول إليها؟ هل أنا السماء أو البحر أو أمواج المدى الشاسع التي أسمعها تخور في قلبي مثل أبقارٍ في حظيرةٍ مع هيكلي العظمي في اللحم الذي لن أنهي حتى ساعتي الأخيرة الخوض فيه مرارًا وتكرارًا؟ أيّتها الأبواب، لن يكون لي اعتدادك بنفسك، أفضّل صوت خطوتي على الأرض على انتهاك الأبديات». بعد أن جعلني أرتو مُتنوّرًا ومحمولًا وملوّثًا «بكلّ تلك الأبواب ـ النساء، بتلك الأقفال ذات المفاتيح العديدة التي كانت تطير نحوي بنهمٍ من شرق الأشياء المنوِّم، تنقلني إلى قلبٍ لا أدري ما هو، إلى حيث تراوغني كينونة

الكينونة»، دفعني إلى إدراك أنه نعم، «المؤنّث يصعد إلى المفصّلات». ومنذ أن صرتُ أعبر عتبات، علمتُ أنّ الأبواب «هي الأمهات اللواتي يركلن الأنا لدى كلّ رجلٍ بأجنحتهنّ المصنوعة من رماحٍ نحيلة»، لكنّني لم أكن أعلم كيف أقولها. مفعمًا بهذا الاستبصار المطلق للثقل الأصلي، يساعد أرتو الأبواب على تذكّر أنّه «من أجل معرفة سعادة الوجود، توقّفتَ عن أن تقف مثل نصب، النصب ذي الأذرع الأربع المبسوطة ضدّ كلّ ما أراد أن يتدفّق. لن تعود الأشياء مثلما أردت أن تعتقدها، بل مثلما أحبّت نفسها ضدّ فكر الاحتواء (كذا) الأخرق لديك. لا يمكن العيش من دون حيوانية». يعود بغريزيته المطلقة إلى التفاصيل، وينصب نفسه ضمن جمود المعلوم ويؤكّد، كما نستطيع جميعًا فعله إذا اعترفنا بأنّ الأسطورة ليست سوى التعبير في الحاضر عن ماضٍ هو في وثبته مستقبل، «أنا أعرف قبل ثور الحظيرة وقفل الإسطبل المعركة التي تعود في كلّ حلمٍ بين 'المتجلّي' و'أمّهاته'، وبين 'اللامتجلّي' في البقاء. / ليس لسيزيف الذي يعيد حمل صخرته إلى الأعلى واقعيةٌ في الأحلام أكثر من واقعية صرخة العبارة الرهيبة 'هنا يرقد'».

الباب مخيف، فهو يستطيع أن يقول، وأن يقول لنفسه ما لا تمكن تسميته، بحسب تعبير بيكيت[791] (Beckett) في تأمّله الليلي: «... ربّما كان ما أشعر به هو ذاك، أنّه يوجد خارجٌ وداخلٌ وأنا في الوسط، ربّما كان هذا ما أنا عليه، الشيء الذي يقسم العالم إلى اثنين، الخارج من جانب، وفي الجانب الآخر الداخل، ربّما يكون هذا نحيلًا كشفرة، وأنا لست في هذا الجانب أو في ذاك، أنا في الوسط، أنا القاطع، لي وجهان

(791) صموئيل بيكيت (1906 ـ 1989)، كاتبٌ وشاعرٌ ومسرحيٌّ أيرلندي من أصولٍ فرنسية، كتب بالإنكليزية والفرنسية وحاز على جائزة نوبل للآداب في العام 1969. له مؤلفاتٌ عديدةٌ ترجم معظمها بنفسه.

وليس لي سماكة، ربّما كان هذا ما أشعر به، أشعر بأنني أرتجّ، أنا غشاء الطبل، الجمجمة من جانب، والعالم من الجانب الآخر، وأنا لست من هذا ولا من ذاك».

الباب الذي لا يشبع والذي يطالب من دون توقّف، الذي يجد أنّ الناس لا يتكلّمون عنه أبدًا بما يكفي لأنّه هو نفسه لا يتكلّم ولا يطالب ولا يشتكي. الباب رزينٌ مثل صورة، وهو يقوم بمهمّته بصمت، حاجزًا الرياح، محتجزًا مياه الخارج الثقيلة، حافظًا الدفء الشديد في الداخل، لكنّي لا أعرف بابًا لا يعلم كيف يصيح. إنّه موجودٌ هنا دائمًا، مفعمٌ بالروح، وسواءٌ أكان يانوس يعيق أم يمرّر، فالباب يقدّم نفسه دائمًا للدفاع بمقدار ما يقدّم نفسه مخرجًا للانفلات، وبوصفه في الوقت عينه إطارًا ونصبًا، فهو يسجّل السرّ القويّ للتاريخ في صمت عُقده التي يديرها بجلالٍ على الزمن فيبقي ذكراه في كلّ حركة. صيغة الجمع إلزاميةٌ بالنسبة إلى ضمائرنا البشرية، وهي صيغةٌ نقيةٌ للأزمنة الغابرة والقادمة التي تؤطّر اعتقاداتنا. الباب انبثاقٌ ضروريٌ لحدودنا الحميمة، وهو يتلاعب بسرائرنا، محدّدًا مربّعات شطرنج الحياة اليومية، حيث يحلّ الفيل محلّ الوزير في الجولة الثانية، حيث تحتمي القلعة من الملك في نقطة اتّصال بقايا الحيوانية لدينا. الباب حاجزٌ ماديٌّ لما في الداخل، وهو يرسم الأجزاء ويفصلها بمقدار ما يجمع بينها، جاعلًا من نفسه خريطةً بحريةً لا يمكن تعويضها لتوَهاننا ونحن في مكاننا.

يكتب جورج بيريك[792] (Georges Perec) في مقالة «الأبواب» التي نشرها في كتابه **أنواع من الحيّزات** (*Espèces d'espaces*): «الباب يكسر الحيّز، يشطره، يمنع التأثير المتبادل ويفرض الفصل:

---

(792) جورج بيريك (1936 ـ 1982)، كاتبٌ فرنسيٌّ من أصلٍ بولوني.

فمن جانب هنالك أنا وعندي الخاص، المنزلي (الحيّز المحمّل بممتلكاتي بإفراط [...])، ومن الجانب الآخر هنالك الآخرون، العالم، الجمهور، السياسي. لا نستطيع المضيّ من جانبٍ إلى الآخر بانزلاقنا، لا ننتقل من جانبٍ إلى آخر في اتجاهٍ ولا في اتجاهٍ آخر: لا بدّ من كلمة سرّ، لا بدّ من عبور العتبة، لا بدّ من التعريف بأنفسنا، لا بدّ من التواصل، مثلما يتواصل السجين مع الخارج». الباب ليس حائطًا أبكم مثلما يلاحظ جورج زيمّل[793] (Georg Simmel): «وبما أنّه يمكن أن يُفتح أيضًا، فإنّ إغلاقه يمنح شعورًا بانغلاقٍ أقوى بكثيرٍ في مواجهة ذلك الحيّز الموجود في الخارج ممّا يستطيعه الحائط الثابت البسيط، فهذا الأخير أبكم في حين أنّ الباب يتكلّم [...]. يصبح الباب بالتالي صورة نقطة الحدود التي يقف فيها الإنسان أو يستطيع أن يقف فيها على الدوام [...]. إنّه الحدّ القريب من اللامحدود، ليس عبر الهندسة الساكنة لفاصلٍ يعزل بصرامة، بل عبر الإمكانية المقدّمة لتبادلٍ مستدام. لقد صُنع الباب بحيث تنتشر الحياة عبره خارج حدود الكائن المعزول لذاته، حتّى لامحدودية التوجّهات جميعًا».

تتمسّك الغيرية بالباب بمقدار ما يتمسّك به المقدّس، إذ يكون الباب تواصلًا ويفتح على الخارج، ومثلما يلاحظ زيمّل: «لأنّ الإنسان هو كائن الصلة الذي يجب أن يفصل على الدوام والذي لا يمكنه أن يربط من دون أن يفصل أوّلًا، وعلينا بدايةً أن نتصوّر في ذهننا الوجود غير المتمايز لضفّتين بوصفه فصلًا، والتمكّن من الربط بينهما بجسر. والإنسان هو بالمقدار عينه الكائن الحدّ الذي ليس له حدّ [...]. لكن مثلما يتّخذ التحديد العديم الشكل شكلًا، تجد حالتنا المحدودة معنًى وكرامةً مع ما تجسّده حركية الباب: أي مع إمكانية تحطيم هذا التحديد

(793) جورج زيمّل (1858 ـ 1918)، فيلسوفٌ وعالم اجتماعٍ ألماني.

في كلّ لحظةٍ للحصول على الحرّية». ويسمع أرتو الباب يقول له مرّةً أخرى: «عليك أن تنقاد في نهاية المطاف، عليك أن تنقاد، نحن جميعًا جديرون، لأنّك جدير...».

يتمفصل الباب على الحلقة المغلقة للعالم المحيط، وعلى القطيعة المؤلمة التي يفرضها الخطر الحاضر دائمًا، خطر ظهور «الآخر» في السياج الكتيم تمامًا لكلٍّ من أكواننا، وهو يمسك بنا ضمن الحظيرة. يؤكّد زيمّل: «إنّ الباب إذ يخلق -إذا شئنا- ربطًا بين الفضاء والإنسان وبين كلّ ما هو خارجه، يلغي الفصل بين الداخل والخارج»، «الباب هو كونٌ كاملٌ 'للموارب'»، بجوهره عينه، هذا ما لاحظه باشلار[794] (Bachelard) في كتابه **شاعرية المكان** (*Poétique de l'espace*)، مذكّرًا بأنّ «الخارج والداخل يشكّلان جدليةً من تقطيع الأوصال [...]. يكرّر هنا وهناك بلا ضجيجٍ جدلية الداخل والخارج: كلّ شيءٍ يرتسم، حتى اللانهائي». وللمتابعة مع الفيلسوف، يذكّرنا الباب على الدوام بأنّ «كينونة الإنسان هي كينونةٌ غير راسخة». لكنّ الباب هو هذا الحدّ المتحرّك الذي يقدّم ذاته في الوقت المناسب، ويدعو بجلاله إلى عبورٍ حرٍّ نحو المجهول. وهو الذي يقول لنا: «لماذا لا نشعر بأنّه يتجسّد في الباب إله عتبةٍ صغير [...]؟ لماذا لا نردّد صدى هذا التقديس؟». يتكلّم الباب من تلقاء ذاته عندما يدعونا إلى الخروج: «اخرج» (exit)!، تحدَّ «الداخل» (dedens) منطلقًا إلى «الخارج» (defors)، «اخرج» (sortiri)! إنّه يشير إلى الأماكن الأخرى، ويسحبنا نحو القدر.

إنّه هو الذي يزيل رسوخنا، يحرّرنا من خلف ظهر العالم كي نعبرَ عتبته، كي نطأ جذر أساسنا. وهو أيضًا من يسربلنا بحمايته السامية

(794) غاستون باشلار (1884 ـ 1962)، أحد أهم فلاسفة فرنسا، كرّس حياته لفلسفة العلوم والإبستيمولوجيا، ابتكر مفهوم العقبة المعرفية، كما ابتكر ما أطلقت عليه تسمية «التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية» انطلاقًا من أعمال يونغ.

ويغسل عنّا نوايانا السيئة عندما نعود إلى النقطة النهائية. يذكّرنا رينيه شار[795] (René Char) بأنّه «كان في ألمانيا طفلان توأمان، أحدهما يفتح الأبواب بلمسها بذراعه اليمنى، والآخر يغلقها بلمسها بذراعه اليسرى»، أي بعبارةٍ أخرى «يوجد 'كائنان' في الباب، وهو يوقظ فينا اتجاهين للحلم، كما أنّه رمزيٌّ مرّتين»، كما يترجم باشلار.

الباب موضوعٌ بعناية، دقيقٌ مثل ساعة، محدّدٌ مثل شَعيرة، وعندما يُدفع، تكون استجابته ثابتةً لا تتغيّر لعمليةٍ سحرية. وثباته في التكرار وكذلك الكلمات التي ترافقه، هما الضمانة المطلقة لفاعلية الشعيرة. عندما زار والتر بنيامين[796] (Walter Benjamin) باريس، أدرك مجدّدًا أنّ «الباب يرتبط بـ'شعائر العبور'». بل استشهد في هذا الصدد بفرديناند نواك[797] (Ferdinand Noack) الذي يلاحظ أنّ «الأمر يتعلّق دائمًا بإخراج النفس من عنصرٍ معادٍ، بفك الارتباط بأيّ تلويث، بالاحتماء من بعض الأمراض أو من أرواح الموتى التي لا تستطيع أن تتابع على هذا الطريق الضيق».

يلاحظ بنيامين بعد ذلك: «من ينخرط في المعبر يسير بالاتّجاه المعاكس في الدرب الذي يعيّنه الباب الكبير (بعباراتٍ أخرى، هو يدخل في العالم الموجود داخل الرحم)». ها هنّ أمهات أرتو اللواتي لا يمكن غمرهنّ يظهرن من جديد، «يتدفّقن عليّ بالتناوب في كلّ نقاط رغباتهن الداعرة، حتى اليوم الذي سيدخلن فيه في العوز، العوز 'المتجلّي' في الحياة».

---

(795) رينيه شار (1907 ـ 1988)، شاعرٌ فرنسيٌّ انضمّ إلى مقاومة الاحتلال الألماني.

(796) والتر بنيامين (1892 ـ 1940)، فيلسوفٌ ألمانيٌّ ومؤرّخٌ للفن وناقدٌ أدبي وفنيٌّ ومترجم (ولاسيما لبالزاك وبودلير وبروست) ارتبط بمدرسة فرانكفورت.

(797) فرديناند نواك (1865 ـ 1931)، عالم آثارٍ ألماني كتب بدايةً عن العمارة والفنون التزيينية؛ تخصّص بتاريخ الفن.

وحتى إذا «كنّا قد أصبحنا فقيرين جدًّا بتجارب العتبة»، فالأبواب لا تزال تُقدَّس بسرّيةٍ كبيرة و«سحر العتبات» يبقى حيًّا فعلًا. لقد نظر والتر بنيامين بانتباهٍ شديدٍ إلى أبوابنا الباريسية، ورأى «أمام مدخل حلبة التزلج والمشرب وملعب التنس وأماكن التنزّه: آلهةً منزلية. حرّاس العتبة هم الدجاجة التي تبيض بيضًا من ذهب على شكل ملبّس بالسكّر، الجهاز الآلي الذي يختم أسماءنا، آلات قِطع النقود، الآلات التي تتنبّأ بالمستقبل، وبخاصةٍ أجهزة وزن الأشخاص الآلية، التنبّؤ الدِّلفيّ[798] الحالي. [...] يسود السحر عينه أيضًا، وإن كان بسرّيةٍ أكبر، داخل الشقّة البورجوازية. الكراسيّ الموضوعة قرب العتبة، الصور التي تحيط بهيكل الباب هي اللارات المخلوعة، والعنف الذي يجب أن تهدّئه تلك الآلهة لا يزال يمسّنا في صميم قلبنا مع الأجراس. وبالفعل، فلنحاول أن نقاومها، ألّا نمتثل لجرسٍ ملحٍّ عندما نكون بمفردنا في شقّة. سنرى أنّ ذلك الأمر لا يقلّ صعوبةً عن طرد الأرواح». عذرًا من ذاك الذي يقف على الباب مُفعمًا بالقلق ويجعل إطار الباب يطنطن. يقول فانسان دولوكروا[799] (Vincent Delecroix): «الويل لمن يجد نفسه بنفسه على باب حجرته، فلن يعود لديه بيت ولا قانون كما يكتب أرسطو، وسيكون أشبه بدابّةٍ بريّة، أقلّ من رجلٍ معزولٍ وسط كلّ تلك الدوابّ المدجّنة التي هي نفسها أقلّ من البشر والتي تدور حول نفسها، حبيسة معتزلها الصغير المزيّن بالتلفزيون والمشاجب. الويل لمن يأتي ليطلب المساعدة أو ليتكلّم إلى تلك الدوابّ فحسب». إنّها معركة المفتوح

(798) دِلفيّ: نسبةً إلى مدينة دِلف اليونانية القديمة. والتنبّؤات الدِّلفية في الميثولوجيا الإغريقية هي تنبّؤات معبد أبولون، كان الإغريق يختارون لها فتاةً عذراء ويفضّل أن تكون بسيطة المحتد، تكرّس نفسها لنقل ما تسمعه من الإله، ويُطلق عليها اسم بيثيا.

(799) فانسان دولوكروا (1969 ـ)، فيلسوفٌ وكاتبٌ روائيٌّ فرنسي، يدرّس فلسفة الدين.

والمغلق، صراع الداخل الهوميروسي[800] مع الخارج، حيث نضع في طرف الباب اللاواقعي والذاتي ونتخيّل في الطرف الثاني وجود الواقعي. يجب أن نقول مثل أراغون[801] (Aragon) وهو يذرع العاصمة كفلّاحٍ[802]، إنّ «الإنسان يسعد جدًّا وهو يقف أمام أبواب المخيلة فيها». صحيحٌ أنّ لدى جميع الناس سردياتٌ رومانسية يقدّمونها بالصلة مع بابٍ تجاوزوه بالمصادفة وكان لعبوره عواقب حاسمة ولا يمكن التراجع عنها إلى درجة قلب مصيرهم. وكلّنا يعلم أنّه يجب دائمًا أن ننظر مرّتين قبل أن نتجاوز بابًا، لكثرة ما توجد أبوابٌ تفلت من التحكّم ويجب الارتياب بها، أبوابٌ فخاخٌ تفتح وتغلق بنفسها، أبوابٌ حيويّةٌ تفتح على نار الحياة. الباب يخفي، الباب يجمع، الباب يفصل لكنّ كلّ ما هو «المتجلّي في الحياة» معلّمٌ بكلّ تلك الخطوات التي نجتاز بها الأبواب مرارًا وتكرارًا في الحياة.

في ختام هذا الكتاب، ليس بإمكاني الامتناع عن تذكّر صورة الرجل الذي يبقى في رواية كافكا[803] (Kafka) **المحاكمة** (*Le Procès*) طيلة حياته جالسًا على أبواب القانون ويموت من دون أن يتجرّأ على مخالفة كلام الحارس الذي كان يمنعه من دخولها، وأتذكّر أيضًا باب الغيتو، باب كرسي الاعتراف، باب المدرسة، باب الصندوق الحديدي،

---

(800) هوميروسي: نسبةً إلى هوميروس (Homère) الشاعر الإغريقي الذي يقال إنّه عاش في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد وتُنسب إليه الإلياذة والأوديسة.

(801) لويس أراغون (1897 ـ 1982)، شاعرٌ وروائيٌّ وصحافيٌّ فرنسيٌّ شهير. أسّس مع أندريه بروتون وبول إيلوار وفيليب سوبو حركة الدادائية الباريسية والسريالية.

(802) عنوان كتاب أراغون: **فلّاح باريس** (*Le Paysan de Paris*).

(803) فرانتز كافكا (1883 ـ 1929)، كاتبٌ تشيكيٌّ من براغ، كتب بالألمانية ويعدّ أحد أعظم كتّاب القرن العشرين. اشتهر بخاصةٍ بروايتيه **المحاكمة والقلعة**، وكذلك بقصّتيه **المسخ** و**في مستعمرة العقاب**.

وكلّ تلك الأبواب التي نسيتُها، والتي تتمتّع بقدرةٍ هائلة. بعضها تمّ تجاوزه، وهي تضمن السرّ وتؤكّد الحصانة وتحمي الجانب المعاكس وتدافع عن المكان، وبعضها الآخر يعرّف بك لكنّه يعرّضك أيضًا [للمخاطر] ويجعلك أكثر هشاشةً. هكذا، يعيّن كلّ بابٍ هذا الحدّ بين المعلوم والمجهول، بين غير المؤكّد والجذّاب، بين المريب والمغري، بين المفاجئ والـذي لا يمكن التساهل معه، بين الأسـوأ والرائع. الباب لا يرحم!

استبيان حول الباب

ما هي الاحتياطات التي يتّخذها الرجل والمرأة والطفل... للدخول/ الخروج؟

هل تكون ذراعاهُ ممدودتيْن على طول جذعه؟ هل يبدأ بتمرير رأسه؟ هل يدخل/ يخرج القهقرى، ومتى؟

كيف يخرج الموتى، الزوجان، الأكبر سنًّا، الأصغر سنًّا، الأدنى مرتبةً...؟ ومن أين؟

النساء، امرأة من؟

كيف يقف/ تقف؟

ما الذي يقوله/ تقوله؟

إلى أين يذهب/ تذهب؟

ما هو توجّه الباب؟

أين يجلس الرجل، المرأة، الأطفال بالنسبة إلى الباب؟

هل هنالك بابٌ على اليسار أو اليمين؟ الاثنان؟ في الأعلى؟

ما هو الاسم المحلي، الرسمي، للباب؟

ما هو جنس الباب: مذكّر، مؤنّث، وهل هو مجنسنٌ أم لا؟

ما هو/ هي اسم/ أسماء العتبة؟ وماذا يعني/ تعني؟

ماذا يقول المرء عن «الفتح» و«الإغلاق» وماذا يفعل؟

ممّن وممّ يخاف المرء؟

هل يُبنى الباب في كلّ مرّة أم أنّه يوضع فحسب؟

كيف يُحمل؟ (من الذي يحمله، وأين وكيف؟... إلخ)

هل عليه كتاباتٌ أو تزييناتٌ لها دلالة؟

إن كان الجواب بنعم، فما الذي تقوله؟

هل لمقابض الباب (الأغلاق) حكايا وأساطير وخصوصية؟

هل توجد أساطير تتعلّق بالباب أو العتبة أو الفتحة؟

هل يتحدّث المرء من عند الباب أم على العتبة أم عبر الباب أم تحت إطاره؟

هل توجد أشياء تدافع عنه (مكنسة مقلوبة، آلهة صغيرة، تعويذات)؟

ما هي حكاياتها، وفي أي سياق؟

هل توجد أمثالٌ أو أهازيج أو أقوالٌ مأثورة حول الباب والزائرين والشياطين التي تدخل من الباب؟

ماذا تشبه أبواب اليوم؟ ما هي ألوانها؟

ما هو الباب بالنسبة إلى الساكن الأصلي أو إلى ساكنِ اليوم (حتى في عمارة)؟

استبيانٌ حول الباب والفتحات والمعابر والعتبات

موجّهٌ إلى زملاء إثنولوجيين بدءًا من العام 2002

ثبت المصطلحات

عربي – فرنسي

أبو خنجر	Capucine
آجُرّ	Pisé
أجير يمشي خلف الشخصيات المهمة	Valet de pied
أخدود	Rainure
أخروي	Eschatologique
أذن الفأر	Myosotis
إرث	Atavisme
أرواح الأموات	Mânes
إزميل	Burin
استخلاص	Décoction
استعراض	Parade
استعراض مسرحي هازل	Vaudeville
أسلة	Barbe
أصول اللياقة	Étiquette
إطار باب	Chambranle, Huisserie
أطياف	Revenants
إعتام	Assombrissement
أعضاء رهبانية سيتو	Cisterciens
أعمدة	Cippes
أغنية الرعاة	Idylle

Excreta	إفرازات
Corniche, Frise	إفريز
Détritivore	آكل بقايا
Diadème	إكليل
Sociabilité	ألفة اجتماعية
Pénates	آلهة منزلية
Coupée	باب الطائرة
Poterne	باب خلفي
Porte cochère	باب للعربات
Huis	باب منزل
Herse	باب منزلق، مشط حديدي
Fenarius	باعة التبن
Isthme	برزخ، مضيق
River	برشَمَ
Ressaut	بروز، نتوء
Airain	برونز
Tenture	بساط
Étal	بسطة
Bristol	بطاقة زيارة
Détritus	بقايا
Poulie	بكرة
Rouet	بكرة غزل
Portail	بوّابة
Trompe	بوري
Olifant	بوق عاجي
Bouge	بيت دعارة
Œuf philosophique	بيضة الفلاسفة

Sureau	بيلسان
Corrosion	تآكل
À grain d’orge	تثليم
Juxtaposition	تجاور
Abbatiale	تجمّع أديرة
Motorisation	تجهيز بمحرك
Appareillages	تجهيزات
Ferrure	تجهيزات من الحديد
Plèvre	تجويف
Alcôve	تجويف، مخدع
Aniconisme	تحريم التصوير
Barbacane	تحصين أمامي
Débitage	تحطيب
Comble	تخشيبة السقف
Péricliter	تَداعى
Chaînage	تدعيم
Pêne, Targette	ترباس
Verrou	ترباس/ رتج/ مغلاق
Écu	ترس
Onomatopée	تسمية الشيء بصوته
Encastrer	تضمين
Resserrement	تضييق
Treillis	تعريشة
Innervation	تعصيب
Unicité	تفرّد/ توحّد
Décharge	تفريغ
Convexité	تقبّب

Cloisonnement	تقسيم
Entablement	تكنة
Circonvolution	تلافيف
Monticule	تلّة
Ordination	تلقين سر الكهنوت
Figurine	تمثال صغير
Ordonnance	تنسيق، قرار، وصفة طبية
Galanterie	تودّد
Pertuis	ثقب، فتحة
Entaille	ثلم
Exorbité	جاحظ
Centripète	جاذب إلى المركز
Pignon	جبهة جملون
Fronton	جبهة، واجهة
Tanière	جحر
Soutènement	جدران استنادية
Fût	جذع
Pirogue	جِذعية
Pitance	جراية
Amphore	جرّة
Pont-roulant	جسر متدحرج
Gaïac	جياك
Digue	حاجز
Retable	حاجز خلفي في كنيسة
Balustrade	حاجز مفرّغ
Clavier	حارس المفاتيح
Maton	حارس سجن

Arête	حافّة، نتوء
Prévôt	حاكم / محتسب
Tréteau	حامل
Vecteur	حامل، ناقل
Archer	حامل قوس
Lampadophore	حامل مشعل
Arbalétrier	حامل نبلة، حامل قوس فولاذي
Croquemort	حانوتي
Paroi	حائط
Prélat	حبر
Travertin	حجر جيري
Grès	حجر رملي
Auberon	حدبة تحويل الحركة
Javelot	حربة
Encoches	حزوز
Tautologie	حشو
Endiguer	حصرَ
Galets	حصًى
Natte	حصيرة
Jalousie	حصيرة نافذة
Bergerie	حظيرة
Absolutisme	حكم ملكي مطلق
Atour	حُلّة
Livrée	حُلّة، كُسوة
Vertevelle	حلقة
Baudrier	حمّالة سيف
Voussure	حنية العقد

Postillon	حوذي
Peuplier	حور
Océanides	حوريات
Nymphe	حورية
Néréide	حورية بحر
Sacristain	خادم كنيسة، خادم معبد
Laquet	خادم مزلاج
Compartiment	خانة
Tourbe	خُثّ
Domesticité	خدمة
Encorbellement	خرجة
Ferraille	خردة
Portulan	خريطة بحرية
Faïence	خزف
Case	خصّ
Flèche	خطّاف
Hibiscus	خطمي
Tuf	خفّان
Guetteur	خفير
Magma	خليط
Fossé, Tranchée	خندق
Truie	خنزيرة
Vacuité	خواء
Heaume	خوذة
Osier	خيزران
Chapiteau	خيمة
Oikos	دار

Hôtel De Ville	دار البلدية
Conciergerie	دار الحراسة
Poix	دبق
Chemin creux	درب أجوف
Perron	درج خارجي
Bouclier	درع
Volet	درفة خشبية
Tubercule	درنة
Chevillette	دسار
Étais	دعامات
Chevron, Pilastre	دعامة
Panne Sablière	دعامة أفقية
Faîtage	دعامة السقف
Platane	دلب
Onguent	دهان
Vestibule	دهليز، بهو
Tournis	دوار
Paillasson	دوّاسة
Vortex	دوامة
Abbaye, Moutier	دير
Aune, Coudée	ذراع (مقياس)
Crête, Faîte	ذروة
Onirique	ذو علاقة بالحلم
Griffu	ذو مخالب
Tertre	رابية
Pointe	رأس مدبب
Pâtre	راعٍ

Attache	رباط
Embrasse	رباط ستارة
Quadrifront	رباعي الجبهات
Équarrir	ربّعَ
Moraillon	رتاج
Cul-de-sac	ردب
Antichambre	ردهة
Pontonage	رسم عبور جسر
Épure	رسم منظوري
Médaillon	رصيعة
Balancier	رقّاص
Étrier	رِكاب
Réduit	ركن
Jambage	ركيزة داعمة
Trumeau	ركيزة سطح قوصرة غائر
Pommeau	رمّانة
Pique	رمح
Trident	رمح ثلاثي
Ordre	رهبانية / أمر
Propylée	رواق فخم
Portique	رواق، عارضة
Stoïcien	رواقي
Bouse	روث البقر
Roman	رومانسكي
Myrte	ريحان
Prieur	رئيس دير
Chancelier	رئيس مجلس اللوردات

Recoin	زاوية منعزلة
Éboueur	زبّال
Plexiglas	زجاج أمان
Aristoloche	زراوند
Crocus	زعفران
Quartenier	زعيم حي
Hyménée	زفاف
Impasse	زقاق مسدود
Héliotrope	زهرة رقيب الشمس
Méridien	زوال
Ivraie	زوان
Paravent	ساتر
Auguraculum	ساحة التكهنات
Obturateur	سادّ
Mât	سارية
Sablier	ساعة رملية
Linteau	ساكف، عتبة
Troglodyte	ساكن في الكهوف
Cybernétique	سبراني، تواصلي
Draperie	ستار
Antifascination	سحر مضاد
Cierge	سراج
Pavillon	سرادق
Selle	سرج
Caveau	سرداب
Cyprès	سرو
Grabat	سرير حقير

سطح قوصرة غائر	Tympan
سِفر	Codex
سقّاطة، مزلاج	Bobinette, Clenche
سقف	Dais
سقف مائل باتجاه واحد	Appentis
سكّة المحراث	Soc
سلاسل	Fers
سلّة	Vannerie
سلّور	Silure
سماد مصنوع من البراز	Gadoue
سمة شفويّة	Oralité
سندان	Enclume
سوائل المزابل	Purin
سور المعبد	Péribole
سياج	Palissade
سير	Lanière
شارة تزيينية	Cocarde
شبك	Grillage
شبه منحرف	Trapézoïde
شحم	Suif
شرطي	Limier
شرفة ذات مرامٍ	Bretèche
شريط حداد	Litre
شعار	Écusson
شعر الحصان	Crinière
شعلة	Torche
شكل هرمي	Pyramidon

Bedeau	شمّاس كنيسة
Buis	شمشار
Peplos	شملة
Karité	شيا (شجر)
Armoise	شيح
Patriarche	شيخ جليل
Rentier	صاحب إيراد
Hurteur	صادم
Réfectoire	صالة الطعام
Écrou	صامولة
Taillandier	صانع أدوات قاطعة
Culottier	صانع سراويل
Charron	صانع عجلات
Chapelier	صانع قبّعات
Gilet	صدار
Arcade	صف قناطر
Saule	صفصاف
Tôle	صفيح
Argile	صلصال
Soupape	صمام
Silex	صوّان
Effigie	صورة منحوتة، صورة
Sceptre	صولجان
Masse	صولجان، كتلة، مِهدّة
Aide de camp	ضابط إداري
Hyène	ضبع
Patente	ضريبة مهنية

Sépulcral	ضريحي
Colonne	طابور، عمود
Oisillon	طائر صغير
Corporation	طائفة حِرَفية
Typographie	طباعة
Paquet	طَرْد
Exorcisme	طرد الأرواح
Infantile	طفلي
Enfantin	طفولي
Liturgie	طقس (دينيّ)
Charrois	طنبر
Volumen	طومار
Antilope	ظبي
Poutre, Traverse	عارضة
Ménétrier	عازف كمان
Attirail	عتاد
Sacrale	عجزية
Harnachement	عدة الخيل
Vestales	عذارى
Aruspice, extipicine	عرّاف باستخدام أحشاء الذبائح الحيوانية
Équipage	عربات ومستخدمون
Quadrige	عربة تجرها أربعة خيول
Hippomobile	عربة تجرها الخيول
Corbillard	عربة دفن الموتى
Tombereau	عربة قلّابة
Montant	عضادة
Trophées	علامات النصر

Étamer	علّبَ
Palastre	علبة القفل
Éthologie	علم السلوك الحيواني
Poteau	عمود
Pylône	عمود ضخم
Cariatide	عمود على شكل تمثال امرأة
Hangar	عنبر
Sapeur	عنصر هندسة
Blaireau	غُرير
Epiploon	غشاء الأمعاء الشحمي
Rameau	غصين
Cadenas	غلق
Douille	غمد
Trophée	غنيمة
Alvéolaire	غير مصمت
Intervalle	فاصل
Pucelle	فتاة عذراء
Baie, Brêche, Embrasure	فتحة
Trou d'homme	فتحة الصيانة
Hotte	فتحة المدخنة
Charbonnier	فحّام
Chausse-trape	فخّ
Courtisan	فرد من الحاشية
Paradeisos	فردوس
Pelage	فرو
Espace	فضاء / مكان / حيّز
Savoir-vivre	فنّ آداب السلوك

Parvis	فناء
Ithyphallique	في حالة القذف، قضيبي
Escamotable	قابل للسحب
Immondice	قاذورات، نفايات
Bitume	قار
Échevin	قاضٍ، مستشار بلدية
Cloison	قاطع
Bas-Fond	قاع
Pied-droit	قاعدة
Cubée	قاعدة كاذبة
Devise	قاعدة، شعار
Connétable	قائد الجيوش الملكية، كبير الضباط
Cinquantenier	قائد خمسين
Dizenier	قائد عشرة
Montant	قائم
Baldaquin	قبّة
Bicorne	قبّعة منحرفة ذات حافتين ناتئتين
Herminette	قدّوم
Outre	قِربة
Briques émaillées	قرميد مطلي بالمينا
Tronçon	قِسْم
Écarteler	قسمَ إلى أربعة
Perche	قصبة
Bol	قصعة / وعاء للشرب
Épigramme	قصيدة تهكمية
Verge	قضيب
Magnat	قطب

Goudron	قطران
Lombaire	قَطَني
Serrure	قفل
Volée	قلبة
Taro	قلقاس
Tenture	قماش يغطي الجدران
Croupe	قمّة
Cupule	قمع نباتي
Arche, Voûte	قنطرة
Frontons	قواصر
Bonnes mœurs	قواعد حسن السلوك
Brides	قوامط (المفرد: قامطة)
Ogive	قوس قوطي
Gothique	قوطي
Néogothique	قوطي محدث
Pandanus	الكاذي (بندانوس)
Carolingien	كارولنجي
Canaque	كاليدوني
Flamine	كاهنة
Maître D'hôtel	كبير الخدم
Grand Chambellan	كبير أمناء البلاط
Bestiaire	كتاب الحيوانات
Merlon	كتف شرفة
Épaulette	كَتِفية
Motte	كتل طين
Motte De Beurre	كتلة زبدة
Opuscule	كتيّب

Éclaireur	كشّاف
Déchausser	كشفَ جذور الأشجار
Guérite	كشك حراسة
Gage	كفالة
Crampon	كلّاب
Déclamation	كلام مفخّم
Géomancie	الكهانة بالاقتراع
Antre	كهف، مأوًى
Pontifical	كهنوتي
Chatière	كوّة أسفل الباب لتمرير القطط
Imposte	كوّة أعلى الباب
Chaumière	كوخ
Cahute	كوخ صغير
Civilité	الكياسة
Mélèze	لاريس، أرز
Enseigne	لافتة
Cataplasme	لبخة
Torchis	لِبن
Languette	لسان تعشيق
Pêne dormant	لسان هامد
Imprécation	لعنة
Patois	لغة محلية
Épithète	لقب / صفة / نعت
Latte	لوح
Lugubre	مأتمي
Préposé	مأمور/ مكلّف
Joute	مبارزة

Rupestre	مبني على الصخور
Pissotière	مبولة عامة
Gîte	مبيت / مخبأ
Dolent	متألّم
Oisif	متبطّل/ عاطل
Itinérant	متجوّل
Hygiéniste	متخصّص في الصحة العامة
Barricade	متراس
Maillé	متشابك
Androgyne	متعلّق بالجنسين
Faîtière	متعلّق بالقمّة
Balustre	متّكأ
Voyeur	متلصّص
Moiré	متموّج
Galbé	متناسق
Assujetti	مثبّت
À jour	مثقب
Parabole	مثَل
Corné	مثنيّ
Métonymie	مجاز مرسل
Convenance	مجاملة
Galonné	مجدول
Aptère	مجرّد من الجناحين
Trame	مجرى
Chapitre	مجمع
Paroussie	المجيء الثاني للمسيح
Charrue	محراث

Litière	محفّة
Cache	مخبأ
Pied De Biche	مُخل
Porche	مدخل مسقوف
Syncopé	مدغم
Tambour	مدفّة
Fourche	مذراة
Latrine	مرحاض
Marjolaine	مردكوش
Campé	مركز
Mâchicoulis	مرمى
Tarodière	مزرعة قلقاس
Gâche, Loquet	مزلاج
Gnomon	مزولة شمسية
Armorié	مزيّن بالشعارات
Géomètre	مسّاح
Bailli	مساعد
Forgé	مسبوك
Métèque	مستأمن
Postier	مستخدَم في البريد
Oblongue	مستطيل
Incipit	مستهَلّ، استهلال
Remise	مستودع
Arpentage	مَسْح
Cilice	مِسْح
Métamorphose	مسخ
Couvreur	مسقّف

Céans	مسكن
Stèle	مسلّة
Arasé	مُسوًّى
Péripatéticienne	مشّاءة
Patère	مشجب
Gainé	مشدود
Édile	مشرف على مدينة
Flambeau	مشعل
Ouvroir	مشغل
Arrêt	مصدّ
Butée	مصدم
Battant, Ouvrant, Vantail	مصراع
Déclarant	مصرّح
Assommoir	مصرع
Tétrapyle	مصلّبة
Chapelle	مُصلًّى
Défilé	مضيق، ممرّ جبلي
Laminé	مطروق
Émaillé	مطلي بالمينا
Lustral	مطهِّر
Plastique	مطواع
Ziggurat	معبد هرمي
Passage	معبر
Chicane	معبر متعرّج
Divinité	معبود
Cloître	معتزَل في دير
Stuc	معجون المرمر

Étalon	معيار
Bénéfices	مغانم
Louche	مغرفة
Fuseau	مغزل
Passe-partout	مفتاح عمومي
Charnière, Gond	مفصّلة
Gradin	مقاعد مدرّجة
Fermier	مقاوِل
Ferme	مقاولة
Devis	مقايسة
Galerie	مقصورة
Cloaque	مكبّ نفايات
Auréolé	مكلّل بهالة
Mortier	ملاط
Office	ملحق بالمطبخ
Épopée	ملحمة
Cirque	ملعب
Torride	ملهب
Allée, Dégagement	ممرّ
Héraut	منادٍ، نذير، معلِن
Abords	منافذ
Communion	مناولة
Jubé	منبر
Palier	منبسط الدرج
Tapissier-garnisseur	منجّد
Baliste, Catapulte	منجنيق
Escarpement	منحدر شديد

Descenderie	مَنزَل
Démitré	منزوع التاج
Établissement	منشأة
Échafaud	منصّة
Lorgnette	منظار صغير
Inflexion	منعطف
Claire-voie, Lucarne	منور
Manioc	منيهوت
Dortoir	مهجع
Commis	مؤتمن
Voyer	موظّف مكلّف بالطرق العامة
Procession	موكب
Forum	ميدان
Micocoulier	ميس
Mycénien	ميسيني (نسبة إلى ميسين)
Messin	ميسيني (نسبة إلى ميتز)
Surplomb	ميل
Chardon	نبات شوكي
Chambellan	نبيل يحرس باب الملك
Pestilence	نتانة
Palmiste	النخيل الزيتي
Votif	نذريّ
Sève	نسغ
Hymne	نشيد
Borne	نصب
En Plein Cintre	نصف دائري
Bas-relief	نقش قليل البروز

Disette	نقص في الطعام
Croisée	نقطة تقاطع
Amer	نقطة علام
Charrier	نقل
Archétype	نموذج أصلي
Indigo	نيل
Butte	هضبة
Charpente, Membrure	هيكل (بِنية)
Devanture, Frontispice	واجهة
Archonte	والٍ
Cheville	وتد
Papyrus	ورق البرديّ
Dauphin	وريث
Foliole	وريقة
Dispatcher	وزّعَ
Aisements	وسائل الراحة
Mi-Bois	وصلة خشبية
Baliser	وضعَ معالم
Flancs Bas	وهاد
Jacinthe	ياقوتية
Chenille	يرقة

ثبت المصطلحات

فرنسي - عربي

À grain d'orge	تثليم
À jour	مثقب
Abbatiale	تجمّع أديرة
Abbaye	دير
Abords	منافذ
Absolutisme	حكم ملكي مطلق
Aide de camp	ضابط إداري
Airain	برونز
Aisements	وسائل الراحة
Alcôve	تجويف، مخدع
Allée	ممرّ
Alvéolaire	غير مصمت
Amer	نقطة علام
Amphore	جرّة
Androgyne	متعلّق بالجنسين
Aniconisme	تحريم التصوير
Antichambre	ردهة
Antifascination	سحر مضاد
Antilope	ظبي
Antre	كهف، مأوًى
Appareillages	تجهيزات

Appentis	سقف مائل باتجاه واحد
Aptère	مجرّد من الجناحين
Arasé	مُسوًّى
Arbalétrier	حامل نبلة، حامل قوس فولاذي
Arcade	صف قناطر
Arche	قنطرة
Archer	حامل قوس
Archétype	نموذج أصلي
Archonte	والٍ
Arête	حافّة، نتوء
Argile	صلصال
Aristoloche	زراوند
Armoise	شيح
Armorié	مزيّن بالشعارات
Arpentage	مَسْح
Arrêt	مصدّ
Aruspice, extipicine	عرّاف باستخدام أحشاء الذبائح الحيوانية
Assombrissement	إعتام
Assommoir	مصرع
Assujetti	مثبّت
Atavisme	إرث
Atour	حُلّة، كُسوة
Attache	رباط
Attirail	عتاد
Auberon	حدبة تحويل الحركة
Auguraculum	ساحة التكهنات
Aune	ذراع (مقياس)
Auréolé	مكلّل بهالة

Baie	فتحة
Bailli	مساعد
Balancier	رقّاص
Baldaquin	قبّة
Baliser	وضعَ معالم
Baliste, Catapulte	منجنيق
Balustrade	حاجز مفرّغ
Balustre	متّكأ
Barbacane	تحصين أمامي
Barbe	أسلة
Barricade	متراس
Bas-Fond	قاع
Bas-relief	نقش قليل البروز
Battant	مصراع
Baudrier	حمّالة سيف
Bedeau	شمّاس كنيسة
Bénéfices	مغانم
Bergerie	حظيرة
Bestiaire	كتاب الحيوانات
Bicorne	قبّعة منحرفة ذات حافتين ناتئتين
Bitume	قار
Blaireau	غُرير
Bobinette	سقّاطة
Bol	قصعة / وعاء للشرب
Bonnes mœurs	قواعد حسن السلوك
Borne	نصب
Bouclier	درع
Bouge	بيت دعارة

Bouse	روث البقر
Brêche	فتحة
Bretèche	شرفة ذات مرامٍ
Brides	قوامط (المفرد: قامطة)
Briques émaillées	قرميد مطلي بالمينا
Bristol	بطاقة زيارة
Buis	شمشار
Burin	إزميل
Butée	مصدم
Butte	هضبة
Cache	مخبأ
Cadenas	غلق
Cahute	كوخ صغير
Campé	مركز
Canaque	كاليدوني
Capucine	أبو خنجر
Cariatide	عمود على شكل تمثال امرأة
Carolingien	كارولنجي
Case	خصّ
Cataplasme	لبخة
Caveau	سرداب
Céans	مسكن
Centripète	جاذب إلى المركز
Chaînage	تدعيم
Chambellan	نبيل يحرس باب الملك
Chambranle	إطار باب
Chancelier	رئيس مجلس اللوردات
Chapelier	صانع قبّعات

Chapelle	مُصلًّى
Chapiteau	خيمة
Chapitre	مجمع
Charbonnier	فحّام
Chardon	نبات شوكي
Charnière	مفصّلة
Charpente	هيكل (بِنية)
Charrier	نقل
Charrois	طنبر
Charron	صانع عجلات
Charrue	محراث
Chatière	كوّة أسفل الباب لتمرير القطط
Chaumière	كوخ
Chausse-trape	فخّ
Chemin creux	درب أجوف
Chenille	يرقة
Cheville	وتد
Chevillette	دسار
Chevron	دعامة
Chicane	معبر متعرّج
Cierge	سراج
Cilice	مِسْح
Cinquantenier	قائد خمسين
Cippes	أعمدة
Circonvolution	تلافيف
Cirque	ملعب
Cisterciens	أعضاء رهبانية سيتو
Civilité	الكياسة

Claire-voie	منور
Clavier	حارس المفاتيح
Clenche	سقّاطة
Cloaque	مكبّ نفايات
Cloison	قاطع
Cloisonnement	تقسيم
Cloître	معتزَل في دير
Cocarde	شارة تزيينية
Codex	سِفر
Colonne	طابور، عمود
Comble	تخشيبة السقف
Commis	مؤتمن
Communion	مناولة
Compartiment	خانة
Conciergerie	دار الحراسة
Connétable	قائد الجيوش الملكية، كبير الضباط
Convenance	مجاملة
Convexité	تقبّب
Corbillard	عربة دفن الموتى
Corné	مثنيّ
Corniche	إفريز
Corporation	طائفة حِرَفية
Corrosion	تآكل
Coudée	ذراع (مقياس)
Coupée	باب الطائرة
Courtisan	فرد من الحاشية
Couvreur	مسقّف
Crampon	كلّاب

Crête	ذروة
Crinière	شعر الحصان
Crocus	زعفران
Croisée	نقطة تقاطع
Croquemort	حانوتي
Croupe	قمّة
Cubée	قاعدة كاذبة
Cul-de-sac	ردب
Culottier	صانع سراويل
Cupule	قمع نباتي
Cybernétique	سبراني، تواصلي
Cyprès	سرو
Dais	سقف
Dauphin	وريث
Débitage	تحطيب
Décharge	تفريغ
Déchausser	كشفَ جذور الأشجار
Déclamation	كلام مفخّم
Déclarant	مصرّح
Décoction	استخلاص
Défilé	مضيق، ممرّ جبلي
Dégagement	ممرّ
Démitré	منزوع التاج
Descenderie	مَنزَل
Détritivore	آكل بقايا
Détritus	بقايا
Devanture	واجهة
Devis	مقايسة

Devise	قاعدة، شعار
Diadème	إكليل
Digue	حاجز
Disette	نقص في الطعام
Dispatcher	وزّعَ
Divinité	معبود
Dizenier	قائد عشرة
Dolent	متألّم
Domesticité	خدمة
Dortoir	مهجع
Douille	غمد
Draperie	ستار
Éboueur	زبّال
Écarteler	قسمَ إلى أربعة
Échafaud	منصّة
Échevin	قاضٍ، مستشار بلدية
Éclaireur	كشّاف
Écrou	صامولة
Écu	ترس
Écusson	شعار
Édile	مشرف على مدينة
Effigie	صورة منحوتة، صورة
Émaillé	مطلي بالمينا
Embrasse	رباط ستارة
Embrasure	فتحة
En Plein Cintre	نصف دائري
Encastrer	تضمين
Enclume	سندان

Encoches	حزوز
Encorbellement	خرجة
Endiguer	حصرَ
Enfantin	طفولي
Enseigne	لافتة
Entablement	تكنة
Entaille	ثلم
Épaulette	كَتِفية
Épigramme	قصيدة تهكمية
Epiploon	غشاء الأمعاء الشحمي
Épithète	لقب / صفة / نعت
Épopée	ملحمة
Épure	رسم منظوري
Équarrir	ربّعَ
Équipage	عربات ومستخدمون
Escamotable	قابل للسحب
Escarpement	منحدر شديد
Eschatologique	أخروي
Espace	فضاء / مكان / حيّز
Établissement	منشأة
Étais	دعامات
Étal	بسطة
Étalon	معيار
Étamer	علّبَ
Éthologie	علم السلوك الحيواني
Étiquette	أصول اللياقة
Étrier	رِكاب
Excreta	إفرازات

Exorbité	جاحظ
Exorcisme	طرد الأرواح
Faïence	خزف
Faîtage	دعامة السقف
Faîte	ذروة
Faîtière	متعلّق بالقمّة
Fenarius	باعة التبن
Ferme	مقاولة
Fermier	مقاوِل
Ferraille	خردة
Ferrure	تجهيزات من الحديد
Fers	سلاسل
Figurine	تمثال صغير
Flambeau	مشعل
Flamine	كاهنة
Flancs Bas	وهاد
Flèche	خطّاف
Foliole	وريقة
Forgé	مسبوك
Forum	ميدان
Fossé	خندق
Fourche	مذراة
Frise	إفريز
Frontispice	واجهة
Fronton	جبهة، واجهة
Frontons	قواصر
Fuseau	مغزل
Fût	جذع

Gâche	مزلاج
Gadoue	سماد مصنوع من البراز
Gage	كفالة
Gaïac	جياك
Gainé	مشدود
Galanterie	تودّد
Galbé	متناسق
Galerie	مقصورة
Galets	حصًى
Galonné	مجدول
Géomancie	الكهانة بالاقتراع
Géomètre	مسّاح
Gilet	صدار
Gîte	مبيت / مخبأ
Gnomon	مزولة شمسية
Gond	مفصّلة
Gothique	قوطي
Goudron	قطران
Grabat	سرير حقير
Gradin	مقاعد مدرّجة
Grand Chambellan	كبير أمناء البلاط
Grès	حجر رملي
Griffu	ذو مخالب
Grillage	شبك
Guérite	كشك حراسة
Guetteur	خفير
Hangar	عنبر
Harnachement	عدة الخيل

Heaume	خوذة
Héliotrope	زهرة رقيب الشمس
Héraut	منادٍ، نذير، معلِن
Herminette	قدّوم
Herse	باب منزلق، مشط حديدي
Hibiscus	خطمي
Hippomobile	عربة تجرها الخيول
Hôtel De Ville	دار البلدية
Hotte	فتحة المدخنة
Huis	باب منزل
Huisserie	إطار باب
Hurteur	صادم
Hyène	ضبع
Hygiéniste	متخصّص في الصحة العامة
Hyménée	زفاف
Hymne	نشيد
Idylle	أغنية الرعاة
Immondice	قاذورات، نفايات
Impasse	زقاق مسدود
Imposte	كوّة أعلى الباب
Imprécation	لعنة
Incipit	مستهَلّ، استهلال
Indigo	نيل
Infantile	طفلي
Inflexion	منعطف
Innervation	تعصيب
Intervalle	فاصل
Isthme	برزخ، مضيق

Ithyphallique	في حالة القذف، قضيبي
Itinérant	متجوّل
Ivraie	زوان
Jacinthe	ياقوتية
Jalousie	حصيرة نافذة
Jambage	ركيزة داعمة
Javelot	حربة
Joute	مبارزة
Jubé	منبر
Juxtaposition	تجاور
Karité	شيا (شجر)
Laminé	مطروق
Lampadophore	حامل مشعل
Languette	لسان تعشيق
Lanière	سير
Laquet	خادم مزلاج
Latrine	مرحاض
Latte	لوح
Limier	شرطي
Linteau	ساكف، عتبة
Litière	محفّة
Litre	شريط حداد
Liturgie	طقس (دينيّ)
Livrée	حُلّة، كُسوة
Lombaire	قَطَني
Loquet	مزلاج
Lorgnette	منظار صغير
Louche	مغرفة

Lucarne	منور
Lugubre	مأتمي
Lustral	مطهِّر
Mâchicoulis	مرمى
Magma	خليط
Magnat	قطب
Maillé	متشابك
Maître D'hôtel	كبير الخدم
Mânes	أرواح الأموات
Manioc	منيهوت
Marjolaine	مردكوش
Masse	صولجان، كتلة، مِهدّة
Mât	سارية
Maton	حارس سجن
Médaillon	رصيعة
Mélèze	لاريس، أرز
Membrure	هيكل (بِنية)
Ménétrier	عازف كمان
Méridien	زوال
Merlon	كتف شرفة
Messin	ميسيني (نسبة إلى ميتز)
Métamorphose	مسخ
Métèque	مستأمن
Métonymie	مجاز مرسل
Mi-Bois	وصلة خشبية
Micocoulier	ميس
Moiré	متموّج
Montant	عضادة

Montant	قائم
Monticule	تلّة
Moraillon	رتاج
Mortier	ملاط
Motorisation	تجهيز بمحرك
Motte	كتل طين
Motte De Beurre	كتلة زبدة
Moutier	دير
Mycénien	ميسيني (نسبة إلى ميسين)
Myosotis	أذن الفأر
Myrte	ريحان
Natte	حصيرة
Néogothique	قوطي محدث
Néréide	حورية بحر
Nymphe	حورية
Oblongue	مستطيل
Obturateur	سادّ
Océanides	حوريات
Œuf philosophique	بيضة الفلاسفة
Office	ملحق بالمطبخ
Ogive	قوس قوطي
Oikos	دار
Oisif	متبطّل/ عاطل
Oisillon	طائر صغير
Olifant	بوق عاجي
Onguent	دهان
Onirique	ذو علاقة بالحلم
Onomatopée	تسمية الشيء بصوته

Opuscule	كتيّب
Oralité	سمة شفويّة
Ordination	تلقين سر الكهنوت
Ordonnance	تنسيق، قرار، وصفة طبية
Ordre	رهبانية / أمر
Osier	خيزران
Outre	قِربة
Ouvrant	مصراع
Ouvroir	مشغل
Paillasson	دوّاسة
Palastre	علبة القفل
Palier	منبسط الدرج
Palissade	سياج
Palmiste	النخيل الزيتي
Pandanus	الكاذي (بندانوس)
Panne Sablière	دعامة أفقية
Papyrus	ورق البرديّ
Paquet	طَرْد
Parabole	مثَل
Parade	استعراض
Paradeisos	فردوس
Paravent	ساتر
Paroi	حائط
Paroussie	المجيء الثاني للمسيح
Parvis	فناء
Passage	معبر
Passe-partout	مفتاح عمومي
Patente	ضريبة مهنية

Patère	مشجب
Patois	لغة محلية
Pâtre	راعٍ
Patriarche	شيخ جليل
Pavillon	سرادق
Pelage	فرو
Pénates	آلهة منزلية
Pêne	ترباس
Pêne dormant	لسان هامد
Peplos	شملة
Perche	قصبة
Péribole	سور المعبد
Péricliter	تَداعى
Péripatéticienne	مشّاءة
Perron	درج خارجي
Pertuis	ثقب، فتحة
Pestilence	نتانة
Peuplier	حور
Pied De Biche	مُخل
Pied-droit	قاعدة
Pignon	جبهة جملون
Pilastre	دعامة
Pique	رمح
Pirogue	جِذعية
Pisé	آجُرّ
Pissotière	مبولة عامة
Pitance	جراية
Plastique	مطواع

Platane	دلب
Plèvre	تجويف
Plexiglas	زجاج أمان
Pointe	رأس مدبب
Poix	دبق
Pommeau	رمّانة
Pontifical	كهنوتي
Pontonage	رسم عبور جسر
Pont-roulant	جسر متدحرج
Porche	مدخل مسقوف
Portail	بوّابة
Porte cochère	باب للعربات
Portique	رواق، عارضة
Portulan	خريطة بحرية
Postier	مستخدَم في البريد
Postillon	حوذي
Poteau	عمود
Poterne	باب خلفي
Poulie	بكرة
Poutre	عارضة
Prélat	حبر
Préposé	مأمور/ مكلّف
Prévôt	حاكم / محتسب
Prieur	رئيس دير
Procession	موكب
Propylée	رواق فخم
Pucelle	فتاة عذراء
Purin	سوائل المزابل

Pylône	عمود ضخم
Pyramidon	شكل هرمي
Quadrifront	رباعي الجبهات
Quadrige	عربة تجرها أربعة خيول
Quartenier	زعيم حي
Rainure	أخدود
Rameau	غصين
Recoin	زاوية منعزلة
Réduit	ركن
Réfectoire	صالة الطعام
Remise	مستودع
Rentier	صاحب إيراد
Ressaut	بروز، نتوء
Resserrement	تضييق
Retable	حاجز خلفي في كنيسة
Revenants	أطياف
River	برشَمَ
Roman	رومانسكي
Rouet	بكرة غزل
Rupestre	مبني على الصخور
Sablier	ساعة رملية
Sacrale	عجزية
Sacristain	خادم كنيسة، خادم معبد
Sapeur	عنصر هندسة
Saule	صفصاف
Savoir-vivre	فنّ آداب السلوك
Sceptre	صولجان
Selle	سرج

Sépulcral	ضريحي
Serrure	قفل
Sève	نسغ
Silex	صوّان
Silure	سلّور
Soc	سكّة المحراث
Sociabilité	ألفة اجتماعية
Soupape	صمام
Soutènement	جدران استنادية
Stèle	مسلّة
Stoïcien	رواقي
Stuc	معجون المرمر
Suif	شحم
Sureau	بيلسان
Surplomb	ميل
Syncopé	مدغم
Taillandier	صانع أدوات قاطعة
Tambour	مدقّة
Tanière	جحر
Tapissier-garnisseur	منجّد
Targette	ترباس
Taro	قلقاس
Tarodière	مزرعة قلقاس
Tautologie	حشو
Tenture	بساط
Tenture	قماش يغطي الجدران
Tertre	رابية
Tétrapyle	مصلّبة

Tôle	صفيح
Tombereau	عربة قلّابة
Torche	شعلة
Torchis	لبِن
Torride	ملهب
Tourbe	خُثّ
Tournis	دوار
Trame	مجرى
Tranchée	خندق
Trapézoïde	شبه منحرف
Traverse	عارضة
Travertin	حجر جيري
Treillis	تعريشة
Tréteau	حامل
Trident	رمح ثلاثي
Troglodyte	ساكن في الكهوف
Trompe	بوري
Tronçon	قِسْم
Trophée	غنيمة
Trophées	علامات النصر
Trou d'homme	فتحة الصيانة
Truie	خنزيرة
Trumeau	ركيزة سطح قوصرة غائر
Tubercule	درنة
Tuf	خفّان
Tympan	سطح قوصرة غائر
Typographie	طباعة
Unicité	تفرّد/ توحّد

Vacuité	خواء
Valet de pied	أجير يمشي خلف الشخصيات المهمة
Vannerie	سلّة
Vantail	مصراع
Vaudeville	استعراض مسرحي هازل
Vecteur	حامل، ناقل
Verge	قضيب
Verrou	ترباس/ رتج/ مغلاق
Vertevelle	حلقة
Vestales	عذارى
Vestibule	دهليز، بهو
Volée	قلبة
Volet	درفة خشبية
Volumen	طومار
Vortex	دوامة
Votif	نذريّ
Voussure	حنية العقد
Voûte	قنطرة
Voyer	موظّف مكلّف بالطرق العامة
Voyeur	متلصّص
Ziggurat	معبد هرمي

مكتبة
t.me/t_pdf

المراجع

A

Adorno, Theodor Wiesengrund, *Minima Moralia*, Paris: Payot, 1991.

Alberti, Leon Battista, *Della famiglia*, 4 vol., 1443.

Apollinaire, Guillaume, «Les neuf portes de ton corps,» in: *Poèmes secrets à Madeleine*, édition pirate, 1949.

Aragon, Louis, *Le Paysan de Paris*, Paris: Gallimard, 1926.

________, *Les Voyageurs de l'impériale*, Paris: Folio, 2007.

Ariès, Philippe et Duby Georges (dir.), *Histoire de la vie privée*, 5 vol., Paris: Seuil, 1987.

Artaud, Antonin, «Les Mères à l'étable,» in: *L'Heure Joyeuse*, Paris: Éd. du Sagittaire, 1946.

Assoun, Paul-Laurent (dir.), *Dictionnaire des œuvres psychanalytiques*, Paris: PUF, 2009.

Atlas linguistique et ethnographique, Paris: Éditions du CNRS, 1971 sqq.

Augé, Marc, *Non-lieux: Introduction à une anthropologie de la surmodernité*, Paris: Seuil, 2007.

B

Bachelard, Gaston, *La Poétique de l'espace*, Paris: PUF, 2001.

Baltard, Victor, *Architectonographie des prisons*, Paris: Chez l'auteur, 1829 (BHVP).

Barbery, Muriel, *L'Élégance du hérisson*, Paris: Gallimard, 2006.

Barbichon, Guy, Geneviève Delbos et Patrick Prado, *L'Entrée dans la ville*, Paris: Centre d'ethnologie française, 1974.

Barthes, Roland, *Sur Racine*, Paris: Seuil, 1963.

________, *L'Empire des signes*, Genève: Albert Skira, 1970.

Bastide, Roger, *Les Amériques noires*, Paris: Payot, 1967.

________, *Images du Nordeste mystique en noir et blanc*, Paris: Pandora, 1978.

________, *Le Candomblé de Bahia*, Paris: Plon, coll. Terre Humaine, 2000.

Baudrillard, Jean, *Pour une critique de l'économie politique du signe*, Paris: Gallimard, 1972.

Bayet, Jean, *Histoire politique et psychologique de la religion romaine*, Paris: Payot, 1969.

Beaupré, Fanny et Roger-Henri Guerrand, *Le Confident des dames: Le bidet du XVIII^e^ au XX^e^ siècle: Histoire d'une intimité*, Paris: La Découverte, 1997.

Beckett, Samuel, *L'Innommable*, Paris: Minuit, 1953.

Beleze, Georges, *Dictionnaire universel de la vie pratique à la ville et à la campagne*, Paris: Hachette, 1890.

Benjamin, Walter, *Paris, capitale du XIX^e^ siècle: Le livre des passages*, Paris: Cerf, 1997.

Benoit, Fernand, *La Provence et le Comtat Venaissin*, Paris: Aubanel, 1975.

Bensa, Alban et Jean-Claude Rivierre, *Les Chemins de l'alliance: L'organisation sociale et ses représentations en Nouvelle-Calédonie*, Paris: SELAF, 1982.

Bentham, Jeremie, *Panoptique*, Paris: Secours Publics n° 1, Imprimerie nationale, 1791 (BHVP).

Benveniste, Émile, *Le Vocabulaire des institutions indo-européennes*, t. 1, Paris: Minuit, 1969.

Bernand, André, *Sorciers grecs*, Paris: Fayard, 1991.

Bernard, Stéphane, *Dictionnaire des rues de Paris*, Paris: Mengés, 2005.

Bianquis, Isabelle, «La gauche et la droite,» in: *Revues des sciences sociales de la France de l'Est*, n° 23, Strasbourg, 1996.

________, «Le toucher dans les modes de salutation en Mongolie ou les règles de la bonne distance,» in: C. Méchin, I. Bianquis et D. Le Breton (dir.), *Anthropologie du sensoriel*, Paris: L'Harmattan, 1998.

________, *Tsagaan Sar* (HDR), 2002.

Blanco, Mercedes, «Le Galateo et sa version espagnole,» in: A. Montandon (dir.), *Étiquette et politesse*, Clermont-Ferrand, Association des publications de la Faculté des lettres et sciences humaines, 1992.

Blondel, Jean-François, *De la distribution des maisons de plaisance et de la décoration des édifices en général*, 2 vol., Paris, 1737.

Bonnin, Philippe, «Dispositifs et rituels du seuil: Une topologie sociale. Détour japonais,» in: *Seuils, passages - Communications*, n° 70, Paris: Seuil, 2000.

Bouché, Thérèse, «La symbolique des lieux de passage dans Amis et Amile, chanson de geste du XII[e] siècle,» Actes du colloque de Pau, Université de Pau et des pays de l'Adour, 4 - 5 novembre 1988.

Boudon, Françoise, André Chastel, Hélène Couzy et Françoise Hamon, *Système de l'architecture urbaine: Le quartier des Halles à Paris au XVII[e] siècle*, Paris: Éditions du CNRS, 1977.

Bougainville, Louis Antoine (de), *Voyage autour du monde (1771 - 1772)*, Paris: Publications de la Sorbonne, 2001.

Boughali, Mohamed, *La Représentation de l'espace chez les Marocains illettrés: Mythes et tradition orale*, Paris: Éd. Anthropos, 1974.

Boulay, Roger, *La Maison kanak*, Marseille: Parenthèses, 1990.

Boutier, Jean, *Les Plans de Paris : Des origines (1493) à la fin du XVIII[e] siècle*, Paris: BNF, 2002.

Boutier, Jean, Alain Dewerpe et Daniel Nordman, *Un tour de France royal, le voyage de Charles IX (1564 - 1566)*, Paris: Aubier, 1984.

Breton, André, *Nadja*, Paris: Gallimard, 1964.

Bromberger, Christian, *Habitat, architecture et société rurale dans la plaine de Gilân (Iran septentrional)*, Paris: Unesco, 1986.

Bromberger, Christian et Alain Morel, *Limites floues, frontières vives*, Paris: MSH, 2001.

Bruit Zaidman, Louise et Pauline Schmitt Pantel, *La Religion grecque*, Paris: Armand Colin, 1991.

Brun, Robert, «Le livre au X^e^ et XVI^e^ siècles,» in: *Le livre: Les plus beaux exemplaires de la Bibliothèque Nationale*, Paris: Éd. du Chêne, 1942.

Breyant, Lawrence M., *The King and the City in the Parisian Royal Entry Ceremony*, Genève: Droz, 1986.

Buchsenschutz, Olivier (dir.), *Les Structures d'habitat à l'âge du Fer en Europe tempérée: L'évolution de l'habitat en Berry*, Actes du colloque de Châteauroux, Bouges-le-Château, Levroux, 27 - 29 octobre 1978, CNRS/MSH, 1978.

Buisson, Dominique, *Japon papier*, Paris: Pierre Terrail, 1991.

C

Calame-griaule Geneviève, Francine Ndiaye, Alain Bilot et Michel Bohbot, *Serrures du pays dogon*, Paris: A. Biro, 2003.

Caraco, Albert, *Le Galant Homme*, Paris: Éd. de la Baconnière, 1967.

Caroll, Raymonde, *Évidences invisibles: Américains et Français au quotidien*, Paris: Seuil, 1987.

Caron, Jean-Claude, «Instruire la violence populaire: La justice et les insurgés à Clermont-Ferrand (1841),» in: P. Chassaigne et J.-P. Genet (dir.), *Droit et société en France et en Grande Bretagne*, Paris: Publications de la Sorbonne, 1984.

Caron, Jean-Claude, *L'Été Rouge: Chronique de la révolte populaire en France (1841)*, Paris: Aubier, 2002.

Catholicisme: Hier, aujourd'hui, demain, encyclopédie de l'Institut catholique de Lille, Paris: Letouzey et Ané, 1985.

Centlivres, Pierre, «Rites, seuils, passages,» dans: *Seuils, passages - Communications,* n° 70, Paris: Seuil, 2000.

Chagniot, Jean, «Les gardes suisses et leurs familles au XVII[e] et XVIII[e] siècle en région parisienne,» Colloque de Rueil-Malmaison, 1989.

Chaleil, Léonce, *La Mémoire du village*, Montpellier: Presses du Languedoc, 1989.

Charbonnier, Pierre, «La vie dans les châteaux auvergnats à la fin du Moyen Âge,» in: J.-M. Poisson (dir.), *Le Château médiéval, forteresse habitée*, Paris: MSH, 1992.

Chatelain, Jean-Marc, «Pour la gloire de dieu et du roi: Le livre de prestige au XVI[e] siècle,» in: H.-J. Martin, *La Naissance du livre moderne*, Paris: Éd. du Cercle de la Librairie, 2000.

Choay, Françoise, «Mémoire de la ville et monumentalité,» in: *Pour une anthropologie de l'espace*, Paris: Seuil, 2006.

Ciarcia, Gaetano (coord.), *Mémoires de l'esclavage au Bénin: Le passé à venir, Gradhiva au Musée du quai Branly*, n° 8, Paris: Musée du quai Branly, 2008.

Clément, Gilles, *Les Portes*, Paris: Sens & Tonka, 1998.

Clément, Sophie et Pierre, «L'implantation d'une maison chinoise,» in: *Cheminements*, ASEMI XI 1 - 4, Paris, 1980.

Cohen, Evelyne, *Paris dans l'imaginaire national de l'entre-deux-guerres*, Paris: Publications de la Sorbonne, 1999.

Cook, James, *Troisième voyage de Cook ou Voyage à l'océan Pacifique, 1776 - 1780*, Paris: 1785.

Corbin, Alain, *Le Miasme et la Jonquille: L'odorat et l'imaginaire social XVIII[e]-XIX[e] siècles*, Paris: Aubier-Montaigne, 1982.

________, «Coulisses,» in: *Histoire de la vie privée*, t. 4, Paris: Seuil, 1987.

Continet, Arnould, *Les Règles et Statuts militaires qui doivent être observez par les Bourgeois de Paris et autres villes de France à la garde des portes desdites villes et Faux-Bourgs*, Paris: Imprimeur A. Cotinet, MDCXLIX (BHVP).

Coudart, Anick, *Architecture et société néolithique: L'unité et la variance de la maison danubienne*, Paris: MSH, coll. Document d'archéologie française, 1998.

Csergo, Julia, *Liberté, Égalité, Propreté. La maison de l'hygiène au XIXe siècle*, Paris: Albin Michel, 1988.

D

Dadoun, Roger et Claude Metra, *Au-delà des portes du rêve*, Paris: Payot, 1977.

Dante, *Œuvres complètes*, Paris: Gallimard, coll. Bibliothèque de la Pléiade, 1965.

Deaucourt, Jean-Louis, *Premières loges: Paris et ses concierges au XIXe siècle*, Paris: Aubier, 1992.

De Deckker, Paul, *George Pritchard, The aggressions of the French at Tahiti*, Auckland: Oxford University Press, 1983.

De Deckker, Paul et Laurence Kuntz, *La Bataille de la coutume*, Paris: L'Harmattan, 1998.

Deffontaines, Pierre, *L'Homme et sa maison*, Paris: Gallimard, 1972.

Delecroix, Vincent, *À la porte*, Paris: Gallimard, 2004.

Delumeau, Jean, *Une histoire du paradis*; vol. 1: *Le Jardin des délices*, Paris: Fayard, 1992.

Démians d'Archimbaud, Gabrielle, *Histoire artistique de l'Occident médiéval*, Paris: Armand Colin, 1968.

Depaule, J.- C., «Le Caire: Emploi du temps, emplois de l'espace,» in: *Monde arabe/Maghreb-Machrek*, 127: 121 - 133.

Descola, Philippe, *Les Lances du crépuscule*, Paris: Plon, coll. Terre Humaine, 1993.

Dibie, Pascal, «Jeux de masques, jeux de nobles,» in: *Le Monde*, 26 janvier 1986.

________, *La Passion du regard*, Paris: Métailié, 1998.

________, *Ethnologie de la chambre à coucher*, Paris: Grasset, 1987.

________, *La Tribu sacrée, ethnologie des prêtres*, Paris: Grasset, 1993.

________, *Le Village métamorphosé*, Paris: Plon, coll. Terre Humaine, 2006.

________, «En route vers le post-humain: Un quotidien sous le pouvoir du virtuel,» in: *Culture & Numérique nouveau champ des pouvoirs*, Sens, Icône-Image, Obsidiane-Les 3P, 2008.

________, «Entrer en ville, c'est toujours sortir,» in: M. Wieviorka (dir.), *La Ville*, Auxerre, Éd. Sciences Humaines, 2011.

________, «As portas das crenças,» in: A. Novaes (dir.), *A invençăo das crenças*, Rio, Ediçoes: SESCSP, 2011.

________ et Michel Le Bris, *Rêve d'Amazonie*, Paris: Hoëbeke-Daoulas, 2005.

Dictionnaire d'archéologie et de liturgie chrétienne, Paris: Letouzey et Ané, 1922.

Dictionnaire de la Bible, Paris: Letouzey et Ané, 1912.

Dictionnaire de théologie catholique, Paris: Letouzey et Ané, 1950.

Dictionnaire historique de la Suisse, Berne: 1998.

Dubois, Marie-Joseph, *Gens de Maré, Nouvelle-Calédonie*, Paris: Anthropos, 1984.

Dubosq, René, *Les Étapes du sacerdoce*, Paris: Desclée, 1947.

Dubost, Françoise, «Les agréments de l'entrée,» in: *Seuils, passages - Communications*, n° 70, Paris: Seuil, 2000.

Duer, Hans Peter, *Nudité et pudeur*, Paris: MSH, 1998.

Duhamel, Georges, *Récits*, t. IV, *Temps de guerre*, Paris: Mercure de France, 1949.

Dumezil, Georges, *La Religion romaine archaïque*, Paris: Payot, 1966.

_______, *Fêtes romaines d'été et d'automne*, Paris: Gallimard, 1975.

Dupetit-Thouars, A., *Voyage autour du monde sur la frégate la Vénus pendant les années 1836 - 1839*, Paris: Gide éditeur, 1864.

E

Eiguer, Alberto, *L'Inconscient de la maison*, Paris: Dunod, 2004.

Eleb, Monique et Anne Debarre, *Architecture de la vie privée; maisons et mentalités XVII^e-XIX^e siècles*, Bruxelles: Archives de l'Architecture Moderne, 1999.

Ellis, William, «À la recherche de la Polynésie d'autrefois,» in: *La Société des Océanistes*, n° 25, Paris: Musée de l'Homme, 1972.

Evans, Robin, «Figures, Portes et Passages,» in: *URBI*, Paris: Éd. Pierre Mardega, avril 1987.

F

Fabliaux érotiques: Textes de jongleurs des XII^e et XIII^e siècles, Paris: Le Livre de Poche, 1992.

Faret, *L'Honest Homme ou l'Art de Plaire à la Cour, à Rouen chez Jean Osmont le jeune, devant la porte du Palais*, 1637 (BHVP).

Farge, Arlette, *Vivre dans la rue à Paris au XVIII^e siècle*, Paris: Gallimard, coll. Archives, 1979.

Faure, Élie, *Histoire de l'art* (éd. critique Chatelain-Courtois), Paris: Folio/essais, 1988.

________, *Mon périple*, préface P. Dibie, La Tour d'Aigues: Éd. de l'Aube, coll. Carnet de voyage, 2002.

Faure, Paul, *La Vie quotidienne en Grèce au temps de la guerre de Troie (1250 av. J.-C.)*, Paris: Hachette, 1975.

Foucault, Michel, *Surveiller et punir: Naissance de la prison*, Paris: Gallimard, 1975.

Fourastie, Jean et Françoise, *Histoire du confort*, Paris: PUF, Que sais-je?, n° 449, 1962.

Franconie, Grégoire, «Le portail néogothique de la chapelle royale de Dreux (1839 - 1848),» Colloque d'Auxerre 2 - 4 octobre 2008.

Frazer, James George, *Le Rameau d'Or*, Paris: Robert Laffont, coll. Bouquins, 1981.

Freud, Sigmund, *Trois essais sur la théorie de la sexualité*, Paris: Gallimard, 1914.

________, *Le Rêve et son interprétation*, Paris: Gallimard, 1925.

Fulcanelli, *Les Demeures philosophales et le symbolisme hermétique dans ses rapports avec l'art sacré et l'ésotérisme du grand œuvre*, Paris: Pauvert, 1965.

Furetière, Antoine, *Dictionnaire universel*, La Haye et Rotterdam: A. et R. Leers, 1690.

G

Garelli, Paul, *L'Assyriologie*, Paris: PUF, 1964.

Gheerbrant, Alain et Jean Chevalier, *Dictionnaire des symboles*, Paris: Laffont, coll. Bouquins, 1982.

Gherchanoc, Florence (dir.), *La maison lieu de sociabilité dans les communautés urbaines européennes de l'Antiquité à nos jours*, Colloque international université Paris Diderot, 14 - 15 mai 2004, Paris: Éd. Sciences de la Ville/ Le Manuscrit, 2006.

Gherchanoc, Florence, «La famille en fête: Mariage, naissance et sociabilité dans l'Athènes classique,» in: *La maison lieu de sociabilité dans les communautés urbaines européennes de l'Antiquité à nos jours*, Paris: Éd. Sciences de la Ville/ Le Manuscrit, 2006.

Ginouvier, Jean-François T., *Tableau de l'intérieur des prisons de France*, Paris: Baudouin Frères, 1824 (BHVP).

Godefroy, Frédéric, *Dictionnaire de l'ancienne langue française et de tous ses dialectes du IXe au XVe siècle*, Paris: Émile Bouillon, 1890.

Gonzalez, Elisabeth, *Un prince et son hôtel: Les serviteurs des ducs d'Orléans au XVe siècle*, Paris: Publications de la Sorbonne, 2004.

Granet, Marcel, *La Civilisation chinoise*, Paris: La Renaisssance du livre, 1929.

________, *La Pensée chinoise*, Paris: Albin Michel, 1934.

Groddeck, Georg, *Le Livre du ça*, Paris: Gallimard, 1973.

Gros, Pierre, «Aspects sociaux et monumentaux des alignements funéraires à l'entrée des villes romaines,» in: F. Michaud-Fréjaville, N. Dauphin et J.-P. Guilhembet (dir.), *Entrer en ville*, Colloque de l'Université d'Orléans, 26 - 27 octobre 2001, Rennes: Presses Universitaires de Rennes, 2006.

Gruet, Brice, *La Rue à Rome, miroir de la ville: Entre l'émotion et la norme*, Paris: Presses de l'Université Paris-Sorbonne, 2006.

Guenée, Bernard et Françoise Lehoux, *Les Entrées royales françaises (1328 - 1515)*, Paris: Éditions du CNRS, 1968.

Guerrand, Roger-Henri, *Les Lieux: Histoire des commodités*, Paris: La Découverte, 2009.

Gugenheim, Ernest, *Le Judaïsme dans la vie quotidienne*, Paris: Albin Michel, 1980.

________, *Les Portes de la loi, Présences du judaïsme*, Paris: Albin Michel, 1982.

Guilhembet, Jean-Pierre, «Limites et entrées de la Rome antique: quelques rappels et quelques remarques,» in: F. Michaud-Fréjaville, N. Dauphin et J.-P. Guilhembet (dir.), *Entrer en ville*, Colloque de l'Université d'Orléans, 26 - 27 octobre 2001, Rennes: Presses Universitaires de Rennes, 2006.

________, «Entrer en ville: Interrogations et perspectives,» in: F. Michaud-Fréjaville, N. Dauphin et J.-P. Guilhembet

(dir.), *Entrer en ville*, Colloque de l'Université d'Orléans, 26 - 27 octobre 2001, Rennes: Presses Universitaires de Rennes, 2006.

Gutton, Jean-Pierre, *Domestiques et serviteurs dans la France de l'Ancien Régime*, Paris: Aubier-Montaigne, 1981.

H

Hablot, Laurent, «Le décor emblématique chez les princes à la fin du Moyen Âge,» in: *Construction de l'espace au Moyen Âge*, 37ᵉ congrès de la SHMES, Mulhouse, juin 2006.

Halbwachs, Maurice, *La Mémoire collective*, Paris: PUF, 1950.

Hall, Edward Twitchell, *La Dimension cachée*, Paris: Seuil, 1971.

Hayamon, Roberte, «Protocole manuel,» *Revue d'études mongoles*: n° 2, 1971.

Handbook of North American Indians, vol. 9, Washington: Smithsonian Institution, 1979.

Hannique, Fabienne, *Le Sens du travail, chronique de la modernisation au guichet*, Paris: Érès, 2004.

Hartog, François, *Mémoire d'Ulysse: Récits sur la frontière en Grèce ancienne*, Paris: Gallimard, 1996.

Hartoy, Maurice (d'), *Histoire du passeport français depuis l'Antiquité jusqu'à nos jours*, Paris: Campion, 1937.

Héhaka, Sapa, *Les Rites secrets des Indiens Sioux*, Paris: Payot, 1975.

Henry, Teuira, *Tahiti aux temps anciens*, in: *La Société des Océanistes*: n° 1, Paris: Musée de l'Homme, 1968.

Hibbert, Christopher, *Histoire de Rome: Biographie d'une ville*, Paris: Payot, 1988.

Hillairet, Jacques, *Gibets, piloris et cachots du vieux Paris*, Paris: Minuit, 1956.

________, *Dictionnaire historique des rues de Paris*, Paris: Minuit, 1968.

Hinard, François, «Spectacles des exécutions et espace urbain», in: *L'Urbs: Espace urbain et histoire (1^{er} siècle av. J.-C.- III^e siècle apr. J.-C.)*, Actes du colloque international CNRS-École française de Rome, 8 - 12 mai 1985, Rome: École française de Rome, 1987.

Homo, Léon, *Rome impériale et l'urbanisme dans l'Antiquité*, Paris: Albin Michel, coll. L'Évolution de l'Humanité, 1951.

Hubert, Étienne, *Espace urbain et habitat à Rome du X^e siècle à la fin du XIII^e siècle*, Rome: École française de Rome, 1990.

Humphrey, Caroline, «The host and the guest: One hundred rules of good behavior in rural Mongolia,» *Journal of the Anglo-Mongolian society*, X-1, Cambridge, 1987.

J

Jackson, Bruce et Diane Christian, *Le Quartier de la mort*, Paris: Plon, coll. Terre Humaine, 1980.

Jacquemet, G., *Catholicisme hier, aujourd'hui, demain*, Encyclopédie, Paris: Institut Catholique de Lille, Letouzey et Ané, 1985.

Jaulin, Robert et Solange Pinton, *Gens de soi, gens de l'autre*, Paris: 10/18, 1973.

Joseph, Isaac, *Le Passant considérable: Essai sur la dispersion de l'espace public*, Paris: Librairie des Méridiens, 1984.

K

Kafka, Franz, *Le Procès*, Paris: Gallimard, 1933.

Kaplan, Michel (dir.), *Le Moyen Âge*, vol. 2: *XI^e-XV^e siècle*, Paris: Éd. Bréal, 1994.

Kasarherou, Emmanuel (dir.), *Mwakaa: Les sentiers de la coutume kanak*, Nouméa: Centre Tjibaou, 2000.

Kaufmann, Jean-Claude, *La chaleur du foyer: Analyse du repli domestique*, Paris: Méridiens-Klincksieck, 1988.

________, «Portes, verrous et clés: Le rituel de fermeture du chez-soi,» in: *La Ritualisation du quotidien*, Paris: Ethnologie française XXVI, 1996.

Kaufmann, Arnold et Roger Cruon, *Les Phénomènes d'attente, théorie et applications*, Paris: Dunod, 1961.

Klapisch-Zuber, Christiane, «Les Femmes dans les espaces publics de la ville italienne XIVe-XVe siècles,» in: M. Tymowski (dir.), *Anthropologie de la ville médiévale*, Varsovie: Warszawa, 1999.

L

Labba, Andreas, *Anta: Mémoires d'un Lapon*, Paris: Plon, coll. Terre Humaine, 1989.

La Billardière, Jacques Julien Houtou (de), *Relation du voyage à la recherche de Pérouse*, 1799.

Lacombrade, Philippe, «Chronique d'une réforme avortée: L'échec de la suppression des octrois parisiens à la Belle Époque (1897 - 1914),» in: *Recherches Contemporaines*, n° 5, Université Paris x-Nanterre, 1999.

Lacroix, Michel, *De la politesse, essai sur la littérature du savoir-vivre*, Paris: Julliard, 1990.

Lain-Entralgo, Pedro, *L'Attente et l'Espérance: Histoire et théorie de l'espérance humaine*, Paris: Desclée de Brouwer, 1966.

Lapierre, Nicole, «De Georg Simmel à Siegfried Kracauer,» in: *Seuils, passages, Communications*, n° 70, Paris: Stock, 2004.

________, *Pensons ailleurs*, Paris: Stock, 2004.

Lardellier, Pascal, *Les Miroirs du paon: Rites et rhétoriques politiques dans la France de l'Ancien Régime*, Paris: Honoré Champion, 2003.

La Salle, Jean-Baptiste (de), *Les Règles de la bienséance et de la civilité chrétienne* (1702), Rome: Éd. des Frères des écoles chrétiennes, 1993.

Lassare, Dominique, *La Relation aux objets quotidiens*, thèse pour le doctorat de 3e cycle, sous la dir. de Guy Durandin, Paris: Université René Descartes, 1974.

Leenhardt, Maurice, *Gens de la Grande Terre*, Paris: Gallimard, 1937.

________, *Do Kamo: La personne et le mythe dans le monde mélanésien*, Paris: Gallimard, 1971.

________, *Notes d'ethnologie néo-calédonienne*, Paris: Institut d'ethnologie, 1980.

Lefebvre, Henri, *La Vie quotidienne dans le monde moderne*, Paris: Gallimard, coll. Idées, 1968.

Lefebvre et Lucian, *Deux portières pour un cordon*, Paris: 1869 (BHVP)*.

Leferme-Falguières, Frédérique, *Les Courtisans: Une société de spectacle sous l'Ancien Régime*, Paris: Le Monde/ PUF, 2007.

Le Goff, Jacques, André Chedeville et Jacques Rossiaud, *La Ville médiévale*, t. 2 de *Histoire de la France urbaine*, Paris: Seuil, 1981.

Le Goff, Jacques et Jean-Claude Schmitt, *Dictionnaire raisonné de l'Occident médiéval*, Paris: Fayard, 1999.

Leguy, Jean-Pierre, *Vivre en ville au Moyen Âge*, Paris: J.-P. Gisserot, 2006.

Lenclos, Dominique et Jean-Philippe, *Portes du monde*, Paris: Éd. du Moniteur, 2001.

Le Petit Langage des fleurs, La Tour-d'Aigues: Éd. de l'Aube, 2004.

Leroi-Gourhan, André, *Milieu et technique*, Paris: Albin Michel, 1973.

________, *Les Chasseurs de la Préhistoire*, Paris: Métaillé, coll. Traversées, 1983.

Lévêque, Pierre et Monique Clavel-Lévêque, *Villes et structures urbaines dans l'Occident romain*, Paris: Les Belles Lettres, 1984.

Levinas, Emmanuel, *Totalité et infini, essai sur l'extériorité*, La Haye: 1961.

Liselotte, *Le Guide des convenances*, Paris: Petit écho de la mode, 1919.

Lorenz, Konard, *Essais sur le comportement animal et humain*, Paris: Seuil, 1970.

Lorenzoni, Piero, *Histoire secrète de la ceinture de chasteté*, Paris: Zulma, 1994.

M

Magendie, Maurice, *La Politesse mondaine et les théories de l'honnêteté en France au XVII^e^ siècle, de 1600 à 1660*, Genève: Slatkine Reprints, 1970.

Main, Elisabeth, «La concierge dans l'imaginaire parisien, 1830 - 2004,» in: M. Tsikounas (dir.), *Imaginaires urbains du Paris romantique jusqu'à nos jours*, Paris: Le Manuscrit, coll. Sciences de la ville, 2011.

Maître, Zède, *Droits et devoirs respectifs des: propriétaire, locataire et concierge*, Paris: Paul Sevin, coll. Petite bibliothèque populaire de droit pratique, 1887 (BHVP).

Malaurie, Jean, *Les Derniers Rois de Thulé*, Paris: Plon, coll. Terre Humaine, 1989.

Malezieux, M., *Les Portes en tôle construites en 1862 et 1863*, Paris: Dunod, 1865.

Manikowska, Halina, «La topographie sacrée de la ville: Le cas de Wroclaw», in: M. Tymowski (dir.), *Anthropologie de la ville médiévale*, Varsovie: Warszawa, 1999.

Marc, Olivier, *Psychanalyse de la maison*, Paris: Seuil, 1972.

Marchetti, Anne-Marie, *Perpétuités: Le temps infini des longues peines*, Paris: Plon, coll. Terre Humaine, 2001.

Marquet, Léon, *Histoire et folklore de l'Ardenne d'autrefois*, Anvers: Commission Royale Belge de Folklore (section Wallonne), 1981.

Martin, Henri-Jean, *La Naissance du livre moderne*, Paris: Éd. du Cercle de la Librairie, 2000.

________, *Les Métamorphoses du livre: Entretiens avec Christian Jacob et Jean-Marc Châtelain*, Paris: Albin Michel, 2004.

________, *Dictionnaire encyclopédique du livre*, 2 vol., Paris: Éd. du Cercle de la Librairie, 2005.

Martin, Roland, «Architecture et urbanisme, Athènes-Rome,» *École Française de Rome*, n° 99, 1987.

Martin-Fugier, Anne, *La Place des bonnes: La domesticité féminine à Paris en 1900*, Paris: Grasset, 1979.

________, «Les rites de la vie privée bourgeoise,» in: M. Perrot (dir.), *Histoire de la vie privée*, t. 4, Paris: Seuil, 1987.

Mauron, Marie, *Traditions de Provence*, Paris: Marabout, 1977.

Mauss, Marcel, *Manuel d'ethnographie*, Paris: Payot, 1971.

Maystre, Charles et Alexandre Piankoff (dir.), *Le Livre des Portes*, Le Caire: Imprimerie de l'Institut français d'archéologie orientale, 1944/ 2e édition 1962.

Méhu, Didier, «Locus, transitus, pérégrination. Remarques sur la spatialité des rapports sociaux dans l'Occident médiéval (XIe-XIIIe siècles),» in: *Construction de l'espace au Moyen Âge*, Paris: Publications de la Sorbonne, 2007.

Mercier, Louis Sébastien, *Tableau de Paris*, 4 tomes, Paris: Amsterdam, Éditions d'Amsterdam, 1782 - 1783.

Michaud-Fréjaville, Françoise, Noëlle Dauphin et Jean-Pierre Guilhembet (dir.), *Entrer en ville*, Colloque de l'Université d'Orléans 26 - 27 octobre 2001, Rennes: Presses Universitaires de Rennes, 2006.

Mignot, Claude, *Grammaire des immeubles parisiens: 6 siècles de façades du Moyen Âge à nos jours*, Paris: Parigramme, 2004.

Mikalson, John D., *La Religion populaire à Athènes*, Paris: Perrin, 2009.

Moerenhout, Jacques-Antoine, *Voyage aux îles du Grand Océan*, 2 vol., Paris: Maisonneuve, 1959.

Moles, Abraham A., *Théorie des objets*, Paris: Éd. Universitaires, 1972.

Moley, Christian, *Les Structures de la maison: Exemple d'un habitat traditionnel finlandais*, Aurillac: POF, 1984.

Monnier, Gérard, *La Porte, instrument et symbole*, Paris: Éd. Alternatives, 2004.

Montandon, Alain (dir.), *Étiquette et politesse*, Clermont-Ferrand: Centre de Recherches sur les littératures Modernes et Contemporaines, Université Blaise Pascal, 1992.

Montandon, Alain, *Dictionnaire raisonné de la politesse et du savoir-vivre du Moyen Âge à nos jours*, Paris: Seuil, 1995.

Moosbach, Martin, *Feng Shui*, Paris: Gründ, 2007.

Moreau, Bernard, *Protocole et cérémonial parlementaires*, Paris: L'Harmattan, 1997.

Mosse, Claude, *La Femme dans la Grèce antique*, Paris: Albin Michel, 1983.

Mourey, Gabriel, *Le Livre des fêtes françaises*, Paris: Librairie de France, 1930.

Murray, Oswyn et Simon Price, *La Cité grecque d'Homère à Alexandre*, Paris: La Découverte, 1992.

Musil, Robert, *Œuvres pré-posthumes*, Paris: Seuil, 1965.

O

Oriliac, Catherine, *Fare et habitat à Tahiti*, Marseille: Éd. Parenthèses, coll. Architectures traditionnelles, 2000.

P

Paquot, Thierry, «La porte et ses espaces,» in: C. Younès et M. Mangemantin (dir.), *Le Philosophe chez l'architecte*, Paris: Descartes & Cie, 1996.

Pardailhé-Galabrun, Annick, *La Naissance de l'intime: 3000 foyers parisiens XVII^e^- XVIII^e^ siècle*, Paris: PUF, 1988.

«Paris-Portières,» par les auteurs de Bilboquet, Paris: Libraire d'Alphonse Taride, 1854 (BHVP).

Pastoureau, Michel, *Une histoire symbolique du Moyen Âge occidental*, Paris: Seuil, 2004.

Paul, Jacques, *Du monde et des hommes: Essais sur la perception médiévale*, Aix-en-Provence: PUP, 2003.

Péguy, Charles, *Œuvres complètes*, Paris: Gallimard, coll. Bibliothèque de la Pléiade, 1992.

Pepys, Samuel, *Journal*, Paris: Robert Laffont, coll. Bouquins, 1994.

Perec, Georges, *Les Choses*, Paris: Julliard, 1965.

________, *Espèces d'espaces*, Paris: Galilée, 1974.

Père Duchesne, *Chanson nouvelle*, n° 8, 1791 (BHVP).

Père Lambert, *Mœurs et superstitions des Néo-Calédoniens*, Nouméa, 1900.

Perrot, Michelle (dir.), *Histoire de la vie privée*, t. 4, Paris: Seuil, 1987.

Perrot, Michelle, «Figures et rôles,» in: *Histoire de la vie privée*, t. 4, Paris: Seuil, 1987.

________, *Mon histoire des femmes*, Paris: Seuil, 2006.

Perrot, Nicolas, *Mémoire sur les mœurs, coutumes et religion des sauvages de l'Amérique septentrionale*, Québec: Lux Éditeur, 2007.

Pezeu-Massabuau, Jacques, *La Maison, espace social*, Paris: PUF, 1983.

Picard, Jean-Charles, «L'Ordre carolingien,» in: J. Le Goff, *Histoire de la France religieuse*, vol. 1, Paris: Seuil, 1988.

Picq, Pascal, *Il était une fois la paléoanthropologie*, Paris: Odile Jacob, 2010.

Poisson, Jean-Michel (dir.), *Le Château médiéval, forteresse habitée*, Actes du colloque de Lyon, Paris: MSH, 1992.

Poisson, Michel, *1000 immeubles et monuments de Paris: Dictionnaire visuel des architectes de la capitale*, Paris: Parigramme, 2009.

Poitrail, Sophie, «Des apparences fantasmées dans les fabliaux érotiques,» in: *Apparences médiévales*, n° 2, Paris, 2008.

Q

Quiminal, Catherine, Didier Fassin et Alain Morice (dir.), *Les Lois de l'inhospitalité*, Paris: La Découverte, 1997.

R

Rabelais, François, *Œuvres complètes*, Paris: Seuil, coll. L'Intégrale, 1973.

Ragon, Michel, *L'Espace de la mort: Essai sur l'architecture, la décoration et l'urbanisme funéraire*, Paris: Albin Michel, 1981.

Reca, Martin, «Le phénomène de la porte tournante,» in: *Abstract Psychiatrie*, n° 226, juin 2001.

Regnault, Lucien, *La Vie quotidienne des pères du désert en Égypte au IVe siècle*, Paris: Hachette, 1990.

Reichel-Dolmatoff, Gerardo, *Desana*, Paris: Gallimard, 1973.

Restif de la Bretonne, *Les Nuits de Paris, 1788*, Paris: Robert Laffont, coll. Bouquins, 1990.

Richelet, Pierre, *Dictionnaire françois*, Genève: chez Jean Herman Widerhold, 1680.

Ricolet, Pierre, *Ordre que le Roy veut être gardé et observé pour la garde des portes de sa bonne ville de Paris*, Paris: Ordonnance du Roy, 1636 (BHVP).

Ritsos, Yannis, «Satisfaction,» in: *Pierres Répétitions Grilles*, Paris: Ypsilon éditeur, 2009.

Rivière, Yann, *Le Cachot et les Fers: Détention et coercition à Rome*, Paris: Berlin, 2004.

Rostaing, Corinne, *La Relation carcérale: Identités et rapports sociaux dans les prisons de femmes*, Paris: PUF, 1997.

Rouge-Ducos, Isabelle, «Les Arcs de Triomphe de l'Antiquité au XXe siècle, essai sur la postérité artistique et idéologique de monument triomphal,» in: *Sociétés et Représentations*, n° 26, novembre 2008.

Rousseau, Félix, *Le Folklore et les Folkloristes wallons*, Bruxelles: Van Oest, 1921.

Rousseau, James, *Physiologie de la portière, vignettes par Daumier*, Paris: Aubert & Cie-Lavigne, 1841 (BHVP).

Rouvillois, Frédéric, *Histoire de la politesse de 1789 à nos jours*, Paris: Flammarion, 2006.

Rubrouck, Guillaume (de), *Voyage dans l'empire mongol*, Paris: Imprimerie nationale, 2007.

S

Sarg, Freddy, *En Alsace, du berceau à la tombe*, Strasbourg: Oberlin, 1993.

Sarraute, Nathalie, *Le Planétarium*, Paris: Gallimard, 1959.

Savine, Albert, *Les Geôles de province sous la terreur*, Paris: Éd. Louis-Michaud, 1911.

Schilder, Paul, *L'Image du corps*, Paris: Gallimard, 1968.

Schmitt, Jean-Claude, *La Raison des gestes dans l'Occident médiéval*, Paris: Gallimard, 1990.

Sébillot, Paul, *Le Folklore de France*; vol. 7: *Les Monuments*, Paris: Imago, 1985.

Seignolle, Claude et Jacques, *Le Folklore du Hurepoix: Traditions et superstitions aux portes de Paris*, Paris: Éd. Hesse, 1937.

Sewane, Dominique, *Le Souffle du mort: Les Batămmariba (Togo, Benin)*, Paris: Plon, coll. Terre Humaine, 2003.

Sike, Yvonne (de), «Amour et mariage en Europe,» in: *Mariage du bout du monde*, Paris: coll. Du Musée de l'Homme, février 1995.

Simmel, Georg, *La Tragédie de la culture*, Paris: Rivages, 1988.

Sorokine, Vladimir, *La Queue*, Paris: Lieu commun, 1975.

Soudiere, Martin, «Le paradigme du passage,» in: *Seuils, passages - Communications*, n° 70, Paris: Seuil, 2000.

Souli, Sofia A., *La Vie amoureuse des Grecs anciens*, Athènes: ed. Toubi's, 1997.

Strooban, Aimé, «Le fer forgé dans l'architecture à Gand, Bruges et Amiens à la fin du Moyen Âge,» in: O. Chapelot et P. Benoit (dir.), *Pierre et métal dans le bâtiment au Moyen Âge*, Paris: EHESS, 1985.

Swift, Jonathan, *Œuvres*, Paris: Gallimard, coll. Bibliothèque de la Pléiade, 1994.

T

Taborin, Yvette (dir.), *Environnements et habitats magdaléniens dans le centre du Bassin parisien*, Document d'Archéologie Française, CNRS/MSH, 1994.

Talayesva, Don C., *Soleil Hopi*, Paris: Plon, coll. Terre Humaine, 1959.

Tardieu, Jean, *Œuvres*, Paris: Gallimard, coll. Quarto, 2003.

Tanizaki, Junichiro, *Éloge de l'ombre*, Aurillac: POF, 1977.

Thénard-Duvivier, Franck, «Au seuil des cathédrales: Le portail comme lieu d'images et de passage,» Colloque d'Auxerre, 2 - 4 octobre 2008.

Thiel, Marie-Jo (dir.), *Les Rites autour du mourir*, Strasbourg: PUS, 2008.

Travlo, Jean, *Athènes au fil du temps: Atlas historique d'urbanisme et d'architecture*, Boulogne Billancourt: Joël Cuénot éditeur, 1972.

Trévoux, *Dictionnaire universel françois et latin, vulgairement appelé dictionnaire de Trévoux*, 1780.

Tschinag, Gaslan, *Ciel bleu*, Paris: Métailié, 1996.

Tsikounas, Myriam (dir.), *Imaginaires urbains du Paris romantique à nos jours*, Paris: Le Manuscrit, coll. Sciences de la ville, 2011.

Tymowski, Michal (dir.), *Anthropologie de la ville médiévale*, Varsovie: Warszawa, 1999.

V

Vandier, Jacques, *La Religion égyptienne*, Paris: PUF, 1949.

Van Gennep, Arnold, *Les Rites de passage*, Paris: Picard, 1981.

________, «Entrées de loquets et de serrures à Saint-Léon de Vézère (Dordogne),» in: J. Cuisenier, *L'Art populaire en France*, Paris: Arthaud, 1987.

________, *Chroniques de folklore: Recueil de textes parus dans Mercure de France, 1905 - 1949*, Paris: CTHS, 2001.

Van Gulik, Robert, *La Vie sexuelle de la Chine ancienne*, Paris: Gallimard, 1972.

Viallard, Eliane, «Le triste destin des châteaux médiévaux des comtes de Forez,» in: J.-M. Poisson (dir.), *Le Château médiéval, forteresse habitée*, Paris: MSH, 1992.

Vigouroux, François, *L'Âme des objets*, Paris: Hachette, 2008.

Vincent Doucet-Bon, Lise, *Le Mariage dans les civilisations anciennes*, Paris: Albin Michel, 1979.

Von Rohr, J. B., «Introduction à la science du cérémonial des grands seigneurs,» 1729/ «Introduction à la science du cérémonial des personnes privées,» 1730 (BHVP).

Voragine, Jacques (de), *La légende dorée*, 2 tomes, Paris: Flammarion, 1967.

المؤلف

باسكال ديبي: أستاذ الإثنولوجيا
في جامعة باريس ديدرو ـ السوربون.

من مؤلفاته:

Ethnologie
de la chambre à coucher

Le village métamorphosé

المترجمة

رندة بعث: مترجمة وباحثة سورية.
من ترجماتها: «المستقبل» و«الحب»
(يصدران ضمن هذه السلسلة).

الفهرس

ـ أ ـ
الأب لامبير: 462
الأباطرة الفيسبازيّون: 86
ابن سينا: 110
أبواب سان برنار (كنيسة): 140، 207
أبواب سان جاك (مصلّى): 167، 207
أبواب سان جيرمان: 207
أبواب سان مارسيل: 207
أبواب سان ميشيل: 207
أبواب عشتار: 29
أبواب مونمارتر: 207
أبولو: 48، 51
أبولينير، غييوم: 347 ـ 348، 350، 352، 354
أبيدوس: 39، 42
الأتراك: 67، 389، 437
إترووريا: 81
اتفاقيات ماتينيون: 468
أتيكا: 47، 67
إتيول: 25 ـ 27
الإثنولوجيا: 240، 492
أثينا بارثينوس: 58
أثينا نيكيه: 57، 66
أثينا: 9، 47 ـ 48، 51، 55 ـ 68، 334
أج إيبور شابو: 33
أجيوس: 51
الأحرف القوطية: 198
الأخوان غريم: 130
أخيرون: 108
الآخيون: 53
أدورنو، تيودور: 11
أراغون، لويس: 519
أرتو، أنطونان: 159، 511 ـ 513، 516 ـ 517
أرتيميس: 328 ـ 329
أرخيا: 48
أردين: 319
أرسطو: 519
الأرشيدوقة ماري لويز: 78
أرغوس: 50
أرغوليد: 45
أرمينيا: 89
أريزونا: 496
الأريوسيّون: 100 ـ 101
أرييج: 296
أسد نيميا: 304
إسرائيل: 93، 231
أسفي: 393

أسكليبيوس: 56
الأسكيمو، الإنويت: 12، 488، 498 ـ 499
الأسلوب السلبيسي: 107
آسيا: 12، 133، 444، 449
أشوار: 486 ـ 487
آشور بني بعل: 30
الآشوريّون: 345
الأشوليون: 24
الإصلاح المضاد: 109
الأطلس الأعلى: 394
الإغريق، الإغريقيّون، اليونانيّون: 43 ـ 50، 52 ـ 59، 64، 66 ـ 69، 333
آغورا: 55 ـ 56، 59 ـ 61
أفروديت: 51، 329
أفريقيا: 11، 37، 389، 391 ـ 392، 395، 402 ـ 404، 413
أفريقيا الجنوبية: 231
أفلاطون: 51، 110
أفنتان: 217
أفينيون: 288، 295
إقليدس: 110
أقني أوفورو: 395
الأكاديمية: 51
أكتيوم: 72
أكرا: 403
أكروبول: 53 ـ 54، 56 ـ 57، 59 ـ 61، 64 ـ 67
الأكروبوليس: 55، 57
آل أورليان: 139
آل بوربون: 225
آلان، وودي: 505
ألبيرتي، ليون باتيستا: 148
الألزاس: 243، 322 ـ 323، 325، 337
إلكترا: 110
ألمانيا: 151، 322، 324، 327، 517
إلياس، نوربرت: 174، 176
أماديوس السادس: 287
الأمازون: 375، 482 ـ 483، 486، 488
الإمبراطورية الثانية: 225، 286
آمون: 39
أميان: 133
الأميرال كولينيي: 197
أميركا: 12، 231، 405، 477، 488، 492، 502، 505
أناكساغوروس: 110
أنتوني: 330، 332
الأنثروبولوجيا: 25
الأنثروبولوجيّون البنيويّون: 411، 482
أنجيه (قصر): 118
الأنديز: 345
إنسيسهايم: 326
إنغرسهايم: 327
إنفيجيس، أغوستينو: 96
إنكلترا: 18، 116، 287، 301، 379
أنهالت: 322
آنو: 36
الإنويت (انظر: الأسكيمو)
أوباما، باراك: 405
أوت بيكاردي: 27، 133، 243
أوت غارون: 295 ـ 296
أوتان: 76، 107، 136

أوتوي: 202
أوتيك: 22
أودريكو، أندريه جورج: 13، 445
أور إي لوار: 320
أورانج: 76
أوربوا: 330
أوركانيا، أندريا: 109
أورلياك، كاترين: 471، 474
أوروبا: 27، 75، 132 ـ 133، 150، 210، 229، 231، 251، 266، 287، 316 ـ 317، 325، 333
أورباسيوس: 344
أوريشا: 398 ـ 401
أوزبكستان: 231
أوزيريس: 39 ـ 40، 42
الأوزيريّون: 42
أوسترليتز: 77
الأوسكية: 15
أوسمان، جورج أوجين: 375
أوغ كابيه: 240
أوغان: 399، 401
أوغسطين: 72، 87
أوغو: 399
أوفيديوس: 335 ـ 336
أوفيرن: 203، 243، 297
أوقيانوسيا: 12، 456، 470
أوكتان، جان ميشيل: 500
أوكسير: 384
أوكيناوا: 452
أولدر: 25
أولمان، جان جورج: 293
أوليفييه، مارك: 377
أولينثوس: 63
أوماناك: 500
الأومبرية: 15
أومولو: 401
أويده: 402 ـ 405
الأيام الثلاثة المجيدة: 79
إيبو: 397
إيبيوس: 52 ـ 53
إيتنهايم: 337
الإيتوال: 77 ـ 78
إيران: 318
إيروس: 351
إيريبوس: 352
إيزيس: 39
إيزيني: 233
إيسوب: 467
إيشو: 11، 396 ـ 402
إيغلو (انظر: كوخ الأسكيمو)
إيغيه، ألبرتو: 376
إيل دو فرانس: 133، 243
إيلولياك: 499
إيلّيريه، جاك: 253
إيليس، ويليام: 471
إيمغور إيلليل: 33
آينشتاين: 383

ـ ب ـ
باب بوسي: 206
باب تيان آن مين: 427
باب دوّار: 380
باب دوان مين: 427
باب سان أنطوان: 207

باب سان برنار: 207
باب سان دوني / باب الرسّامين: 76، 166، 169، 199، 207
باب سان دوني الثاني: 167
باب سان فيكتور: 207
باب سان مارتان: 76، 166، 207
باب سان نيكولا: 322
باب سانت أونوريه: 121
باب سنس: 118
باب سيتيميانا: 84، 87
باب شاتليه: 168، 170
باب عشتار: 29 ـ 33، 36 ـ 37، 259
باب كابين: 85، 88 ـ 89
باب كيان مين وزهاو يانغ مين: 427
باب مونمارتر: 198، 207
باب نيل: 206
باب وو مين: 427
باب يونغ دين مين: 427
البابا ألكسندر السادس: 87
البابا كورنيلوس: 98
بابل: 29 ـ 37، 259، 315
البابليّون: 33 ـ 35، 345
باحة أيار / مايو: 303
باحة سان مارتان: 304
باديه: 400
بار سور أوب: 211
باربري، موريل: 252
بارت، رولان: 445، 453
البارثينون: 56، 58 ـ 59، 67
باريا: 95
باريه، أمبرواز: 344
باستيد، روجيه: 397 ـ 399، 401
باسي: 202
باشلار، غاستون: 516 ـ 517
بافاريا: 167
بالاتينا العليا: 324
بالتار، لويس بيير: 300، 303 ـ 304
بالمر، ج. ل.: 29
الباناتينيا: 58
بانتان: 198
بانوبيوس: 53
بانيو: 236
باهيا: 397، 399 ـ 400
باولوس، إيميليوس: 74
بتاح: 39
بترسباخ: 337
بحيرة بير: 498
البرابرة: 21 ـ 22، 89
البرازيل: 396 ـ 397، 399
بران، روبير: 192
البرلمان: 128، 241، 361 ـ 363
برلين: 29، 31 ـ 32، 34، 37، 39
برنيني، جيان لورنزو: 191
بروبيلايوس: 50
البروتستانت: 192، 197، 218
بروتوس: 110
بروستاتيريوس: 51
بروفانس (منطقة): 323، 337
بروفنس (بلدة): 211
بروي، لويز: 58
بريابوس: 155
بريانسون: 296
بريتانيا: 321

بريطانيا: 151، 360، 366
برينديسي: 84
بستولة: 220
بسيشيه: 51، 351
بلاتيا: 61
بلاد ما بين النهرين: 31، 54، 89، 95
بلاط سافوا: 287
بلاك هيلز: 489، 492
بلوا: 287
بلوتارخُس: 74
بلونديل، جان فرانسوا: 268
بليدة: 394
بلينيوس الأكبر: 85، 87، 324
بنتام، جيريمي: 270
بنتون، سولانج: 483
البندقية (فينيسيا): 67
بنسا، ألبان: 459
بنفينيست، إميل: 14 ـ 15
بنو عباس: 389
بنيامين، والتر: 517 ـ 518
بنين: 398، 402، 404
بواترال، صوفي: 159
بواسو، جان: 201
بواسي: 211
بوالو، نيكولا: 208، 212
بوتييه، جان: 195، 200
بودان، جان: 196
بورتو أليغريه: 400
بورج: 133
بوردو: 297، 384
بورغونيا: 137، 243، 259، 338، 498 ـ 499
بوزو ماسابوو، جاك: 445، 451 ـ 452
بوس، أبراهام: 193
بوسان، نيكولا: 191
بوسويه، جاك بينين: 186
بوغالي، محمد: 392
بوغانفيل، لويس أنطوان: 474
بوغوتا: 359
بوفيه: 133
بول شيلدر: 347 ـ 348
بولاي، روجيه: 465
بولم، دونيز: 406
بولون، جان كلود: 265
بولينيزيا: 472 ـ 473
بوليون: 332
بومبي: 70، 240
بونابرت، نابليون: 224
بونان، فيليب: 444، 446 ـ 447، 452
بونج، فرانسيس: 163
البوندشتاغ: 363
بونفوا، إيف: 132
بوهيميا: 318
البويبلو: 497
بيانكيس، إيزابيل: 433، 441
بيرايوس: 54، 62
بيربينيان: 297
بيرسيفوني: 92
بيرغام، متحف: 29، 32
بيرنان، أندريه: 49
بيرو، ميشيل: 260
بيرّو، نيكولا: 488
بيريا: 64، 67

بيريغور: 320
بيريك، جورج: 514
بيريكلس: 54، 62
البيرينية: 18، 296
البيسون: 26، 489، 491 _ 492
بيسيسترات: 61
بيضة الفلاسفة: 147، 319
بيضة أمّا: 408
بيغي، شارل: 355
بيكاردي: 27، 133، 243
بيكبوس: 202
بيكيت، صموئيل: 513
بيلاطس البنطي: 106
بيلفيل: 198
بيلوبونيز: 54، 63
بينديلي: 57
البينو: 410
بيوس، أنطونيوس: 89
_ ت _
تاراهامورا: 481
التارتاروس: 107، 155
تارديو، جان: 355
تاركوينيوس سوبيربوس: 86
تاسيتا: 335 _ 336
تأشيرة: 229
تاغاست: 23
تالايسفا، دون: 497 _ 498
تاموز: 37
تانتان: 275
تانيزاكي، جونيشيرو: 12، 449 _ 450
تاهيتي: 469 _ 472، 475
التاويّون: 420
تايبيه: 423
تايلور، آن كريستين: 485
تايوان: 423
التتار: 435
تراستيفيريه: 87
ترمينوس: 82
تروا: 211
تزيين الكتاب بالرسوم: 189 _ 190
تشارلز الأول: 362
تلّ القصر: 31
تماثيل العذارى: 190
التمرّد رفضًا لدفع الضريبة: 225
تورنو: 134
تورين: 331، 337
تورينغن: 331
توفا / التوفان: 434، 439
التوكونوما: 451
تولوز: 276، 297، 384
التويليري: 77 _ 78، 235
توين، مارك: 12، 477
تيبي: 493 _ 496
تيرينت: 44
التيريرو: 397 _ 402
تيفيه، أندريه: 197، 199
تيمينوس: 48، 55
تينتوريتو، جاكوبو: 109
تينيدوس: 53
تيير، أدولف: 79

- ث -
ثاليس: 110
الثقب الدودي: 377، 383
ثيساليا: 45
ثيسيوس: 64 ـ 65
ثيميستوكلس: 62 ـ 63
ثيوكريتوس: 92

- ج -
جاكسون، بروس: 310
جامعة (DQ): 488
الجامعة الكاثوليكية: 289
جبال الألتاي: 434، 439
جبال البيرينيه: 18
جبل الأولمبوس، الأولمب: 43، 52، 303
جبل أمارا: 95
جرمانيا: 89
الجزائر: 394 ـ 395
جزر لوايوتيه: 460، 463
الجزيرة العربية: 30، 89
جسر باريس الكبير: 167
جسر سان ميشيل: 168
الجمعية التأسيسية: 255، 301
الجمعية الوطنية: 222، 235، 270، 360، 363
جنكيز خان: 435، 439
جواز السفر: 228 ـ 230
جورا: 16، 18
جوستينيان: 66
جولان، روبير: 483
جيسليبرتوس: 136
الجيفارو: 485 ـ 486
جينوفييه: 307 ـ 308
جيوتو: 109

- ح -
الحاضرة: 30، 36، 55 ـ 56، 58 ـ 65، 81، 93 ـ 94، 108، 135، 149 ـ 151، 168، 171، 195، 197 ـ 198، 214، 240 ـ 241، 299، 334 ـ 335، 385، 427 ـ 430
حجر الفلاسفة: 145
حَدَد: 36
الحدود: 15، 25، 43، 48، 55 ـ 56، 80، 82، 85، 89 ـ 90، 200 ـ 202، 210، 216، 219، 226، 228 ـ 232، 314 ـ 315، 366، 384 ـ 386، 411، 433، 452، 458 ـ 460، 514 ـ 515
حديقة ميسا فيرديه: 497
الحراس السويسريّون: 234 ـ 239
حرب الثلاثين عامًا: 229
الحركة الهندية الأميركية: 488، 492
الحروف المزهرة: 189
حزام العفّة: 151 ـ 156
الحصن الكبير: 204
الحفر بحجم لطيف: 190
الحقبة الجميلة: 226
حكومة المديرين: 292، 297
حورس: 39 ـ 40
حورماخيت: 39
حيّ الهال: 254

- خ -
خامون: 23
الخان الأعظم: 440
خنادق سان جاك: 256
خيرونيا: 63
- د -
داروين، تشارلز: 185، 349
داغوبير: 218
داناكيومبتيوا، جيمس: 497
دانتراغ، هنرييت: 153
دانتي: 94، 107 - 111، 113
دانتيسكو، غراثيان: 175
الدانوب: 26 - 27، 89
الدائرة: 134، 236 - 237، 245، 257 - 258، 366
دجلة: 31، 36
درب العبد: 405
درو: 138 - 139
درودنفوس: 325
الدليل الأخضر: 68
دو بالزاك، أونوريه: 233، 278
دو بوربون، بون: 287
دو روبروك، غييوم (روبروكيس): 435
دو فورنيفال، ريشار: 158
دو موباسان، غي: 283
دوبافيير، إيزابو: 166
دوبوا، ماري جوزيف: 462 - 464
دوبوتي توار، أبيل أوبير: 469
دوبوي، آني: 406
دودونيه: 352
دوران، غيّوم: 98
دورليان، شارل: 287
الدوغون: 127، 406 - 415
دوفوراجين، جاك: 100، 102
دوق دانجو: 181
دوقة أورليان: 168
دوكليف، ماري: 287
دوكور، جان لوي: 237، 242، 249
دولاكروا، أوجين: 233
دولوكروا، فانسان: 518
دولومو، جان: 94 - 95
دوليه، إتيين: 188
دوماشو، غييوم: 153
دومونمورنسي: 197
دوميتيانوس: 87
الدومينيكان: 252
دومينيكو دي ميتشيلينو: 94
دوميه، أونوريه: 246
دوناتيان: 87
دونيس، كاترين: 218
دوهاميل، جورج: 355
دي أوريتا، لويس: 95
دي سوزا، فيليكس فرانشيسكو: 405
ديجون: 493
ديدالوس: 52
دير برانتوم: 320
دير بيليغا: 177
دير كلوني: 134
الديسانا: 481 - 483
ديسكولا، فيليب: 485 - 486
ديكارت، رينيه: 140

ديلّا كاسا، جيوفاني: 174
الديم / الديمات: 47
ديموسثينيس: 56
ديوجينس: 110
ديونيسوس: 56، 58
الديونيسيا: 58
– ر –
رابليه، فرانسوا: 349
رانس: 153
رايشل دولماتوف، جيراردو:
481 ـ 482
ربّات القدر: 333
رسم العبور: 212، 214، 217،
219 ـ 220، 224، 227
رصيف الصاغة: 303
رع: 41، 70
رمسيس الثاني: 42
رو، سيمون: 121
الرواقيّون: 59
روبنز، بيتر بول: 109، 191، 233
رودان، أوغست: 140
روسو، جيمس: 246
روكامادور: 320
روكروا: 321
روما: 54، 64 ـ 65، 69 ـ 76،
80 ـ 90، 97، 102، 133،
156، 166، 173، 216 ـ 217،
239 ـ 240، 255، 299، 314،
317، 336، 447
الرومان: 64، 69 ـ 70، 82 ـ 83،
88 ـ 89، 124، 133، 173، 196،
318، 334، 336
رومانيا: 330
رومولوس: 80، 82، 314
رونوار دو فيابيه، جان جاك: 261
رويرغ: 321
ريتسوس، يانيس: 310
ريسيفه: 399
ريشليه، سيزار بيير: 247
ريغان، رونالد ويلسون: 488، 493
ريموس: 80
رين (مدينة): 384
– ز –
زاهان، دومينيك: 411
زبدة إيزينيي: 233
زمبابوي: 231
زوندهوفن: 326
زونغبودجي: 405
زيمّل، جورج: 515
زينون: 59
زيوس: 47 ـ 48، 50 ـ 51، 61، 303
– س –
السابينيّون: 82
ساحة الباستيل: 78
ساحة إيتوال: 77
ساحة دانفير روشرو: 216
ساحة دوفين: 303
ساحة شاشا: 405
ساحة كاروزيل: 77
ساحة موبير: 122
ساحة ناسيون: 216
الساراكينوس: 66
ساروت، ناتالي: 12، 510

سافوا: 243، 287
سافيني: 333
ساكف الباب: 44، 126، 130، 318، 322 ـ 323، 325، 446
سالامبو: 23
سالومون، برنار: 198
السامنيت: 75
ساموا: 473
سان أنطوان: 207
سان أوبير: 319
سان برنار: 140، 207
سان بول: 168
سان بونوا سور لوار: 134
سان بيير ديزاسي: 253
سان جاك: 207، 256
سان جان: 323
سان جوزيف: 236
سان جيرمان: 207، 277
سان دومينيك: 253
سان دوني: 76، 166 ـ 167، 169، 197، 199، 202، 207
سان سوفور دو بلوا: 287
سان سيمون: 180
سان غوستان: 321
سان فيكتور: 207
سان لازار أوتان: 136
سان لويس (لويس التاسع): 145، 203
سان ليونار: 320
سان مارتان: 76، 207، 258، 304
سان مارسيل: 207
سان ميشيل: 168، 207
سان نيكولا: 323
سان نيكيز: 324
سانت أونوريه: 121
سانت بيلاجي: 300
سانت كاترين: 168
سانت لويس: 501
سانتوان: 198
سانس: 144
سانسون، نيكولا: 201
سبيلبرغ، ستيفن: 382
ستروبان، إيميه: 306
ستيفان، برنار: 253
ستيلا، جاك: 191
سجن الباستيل: 156
سجن إيليس: 310
سجن روما: 299
سجن سانت بيلاجي: 300
سجن شاتيليرو: 307
سجن فرنسا الصغيرة: 300
سغوروس، ليون: 66
سقراط: 110
سكريب، أوجين: 244
سكوت، والتر: 10، 116
السلافيّون: 66
السلالة التاسعة عشرة: 39
السلالة الثالثة: 38
السلالة الثالثة عشرة: 38
السلالة الثامنة عشرة: 41
السلالة الكلدانية: 30
سلفادور باهيا: 396
سليمان الحكيم: 105

السنغال: 403
سنليس: 211
سو، أوجين: 246
سواسون: 211
السوربون: 189
سوروكين، فلاديمير: 358
سوسة: 49
سولت، جان دوديو: 294
سولون: 60
السويد: 18
السويسريات: 235 ـ 236
سيارسيا، غايتانو: 404
سيبتيموس سيفيروس: 77
سيبيّو، بول: 319
سيتي الأول: 42
سيتّينغ بول: 496
سيدوليوس: 157
سيربير: 47
سيرناي لافيل: 332
سيرو، أمّا: 414
سيريس: 335
السيسترسيون: 141
سيف: 202
سيكلوبات: 43 ـ 44
سيلا: 64
سيمنون، جورج: 251
السيميولوجيا، السيمياء: 454
سينيوريلي، لوكا: 109
سينيول، الأخَوان كلود وجاك: 329

ـ ش ـ

شاتلان، جان مارك: 190
شاتليه: 167 ـ 170، 204
شاتيليرو: 307
شار، رينيه: 517
شارتر: 133، 139، 145
شارع آرب: 253
شارع باب سانت أونوريه: 121
شارع بابي: 257
شارع بافيه: 300
شارع برون: 236
شارع بو دو فير: 254
شارع بولي: 254
الشارع الجديد للحقول الصغيرة: 256
شارع خنادق سان جاك: 256
شارع الدببة: 237
شارع درب «السويسريين»: 236
شارع راسين: 257
الشارع الروماني: 70
شارع رونيار: 257
شارع سان دومينيك (شارع الأبقار): 252
شارع سان دوني: 167
شارع سان مارتان: 258
شارع غارانسيير: 258
شارع فوان: 221
شارع فولتير: 256
شارع كانكانبوا: 254
شارع كريبيّون: 256
شارع كليه: 300
شارع كورني: 256
شارع اللوفر: 254
شارع لومبار: 250
شارع موليير: 256

شارع نورماندي: 233
شارل بيرو: 130
شارل بيغي: 355
شارل التاسع: 144، 170 ـ 171، 234
شارل الثامن: 168، 234
شارل الخامس: 76
شارل دورليان: 287
شارل نوديه: 391
شاطئ العبيد: 405
شالغران: 78
الشامان: 434، 436، 480
شامبانيا: 243
الشايان: 495
شايّو: 202
شبق النظر: 376
شبه الجزيرة العربية: 89
شجرة أيار / مايو: 330
شجرة الحياة: 93
شجرة سا سيلو: 408
شجرة العودة: 404، 405
شجرة معرفة الخير والشر: 93، 96
شجرة النسيان: 403، 405
شعب أوغلالا: 490
الشكل السداسي: 428
شمال أفريقيا: 392، 395
شميت، بولين: 58
شوجي: 417، 449 ـ 452
شوسوا إيبانيي: 28
شوفو، فرانسوا: 191
شيشرون: 74، 84 ـ 85، 88

ـ ص ـ
صالون السفراء: 365
صالون مورا: 365
الصواتم [الوحدات الصوتية]: 15
الصويرة: 393
الصين: 89، 205، 231، 276، 419 ـ 422، 425، 427، 430 ـ 431، 449 ـ 451

ـ ض ـ
ضريبة الأبواب والنوافذ: 292 ـ 293، 297 ـ 298
ضريبة التخوم: 217
ضريبة الرأس: 225
ضريبة العبور: 298
ضريبة العُشر: 225
الضريبة على الفتحات: 297
ضريبة على المواد الغذائية: 217
ضريبة مهنية: 294، 298

ـ ط ـ
الطباعة: 164، 187 ـ 189، 192، 194
الطراز القوطي المحدث: 132 ـ 134، 138 ـ 139
طروادة: 52 ـ 53
الطوبولوجيا: 444
الطومار: 188

ـ ع ـ
العتبة: 16، 26، 40، 51، 100، 126 ـ 127، 135، 187، 203، 218، 279، 282، 286، 315 ـ 316، 318 ـ 319، 323، 336، 362، 392، 394 ـ 395،

402، 410 ـ 411، 434 ـ 436،
444، 446، 448، 463، 504، 515،
518، 521 ـ 522
العراق: 31
العربية السعودية: 231
عشتار: 29 ـ 34، 36 ـ 37، 259
العصر الباليوليتيكي، العصر
الحجري القديم: 24 ـ 25
العصر الحديدي: 27
العصر النيوليتيكي، العصر
الحجري الحديث: 26، 45
العمارة القوطية: 132 ـ 134
العمارة الكارولنجية: 132
عملية بواسون: 357
عهد الإصلاح: 78
عيد أكيتو: 35
عيد الأموات: 334
العيساوة: 396

ـ غ ـ

غابة بومارتزو: 94
الغابينيّون: 81
غارغاميل: 349
غازيت دي تريبونو: 245
غاكون ـ دوفور، السيدة: 277
غالسان، تشيناغ: 434 ـ 435،
437 ـ 439، 441، 443
غانا: 403
غرانيه، مارسيل: 205، 419
غروديك، غيورغ: 350، 353
غروييه، بريس: 69
غرينلاند: 500
غريول، مارسيل: 406
غزة: 231
الغناوة: 396
غود فيراغو، موريل: 286
الغورغون: 304
غوريه: 403
غيران، روجيه هنري: 271، 273
غيربران، آلان: 127
غيلمبير، جان بيير: 85، 87، 216

ـ ف ـ

فابيا: 71
فابيوس الأنطاكي: 68
فارس: 115 ـ 116، 119 ـ 120،
147، 204، 206، 281،
284 ـ 285، 435
فارين: 229
فاس: 393
فاساليو، بينيديكت: 200
فال دا أوستا: 319
فال دومارن: 364
فاليرون: 62 ـ 63
فاليريان: 65
فان غينيب، أرنولد: 314 ـ 315،
394، 430، 432
فانديه، جاك: 40
فانسين: 202
الفتشية: 152، 184
الفرات: 31 ـ 32، 36
فرانسوا الأول: 147، 154، 196
فرانش كونتيه: 16 ـ 17
الفُرس: 61
فرساي: 173، 202، 266
الفرنجة: 66

فرنسا: 15 ـ 16، 138، 143، 164 ـ 165، 167، 170، 178، 188 ـ 190، 192، 205، 225 ـ 226، 234، 240 ـ 241، 260، 288، 294، 300 ـ 301، 303، 307، 332 ـ 333، 355 ـ 356، 359 ـ 360، 363 ـ 364، 366 ـ 369، 375، 383، 492
فرويد، سيغموند: 314، 343، 354
فريزر، جيمس: 316
فريمير: 293
فرين: 309
الفلاندر: 157
فلاهرتي، روبرت: 499
فلوبير، غوستاف: 23
فلورنسا: 94، 193
فنتوز: 292
فو تشيو: 430
الفودون: 398، 402، 404 ـ 405
فور، بول: 45
فوركولاي كوديناي: 75
فوروتيير، أنطوان: 99، 172، 187، 215، 236، 318، 345، 435
فوريه: 120، 304
الفوريه: 304
فوكو، ميشيل: 302
فولتير: 155 ـ 156، 256 ـ 257
فولكانيللي: 146
فومارولي، مارك: 187
فوماي: 321
فون ترير، لارس: 381
فونتين لاغيون: 320
فونتينبلو: 266
فوه (قرية): 462
فيتري سورسين: 333
فير ـ سور ـ سيل: 28
فيرجيليوس: 108 ـ 109، 111 ـ 113
فيرجيه، بيير (فاتومبي): 396، 398، 400، 402
فيردي، جوزيبي: 30
فيرلوغران: 332
فيزلاي: 138
فيزون لارومين: 240
فيغورو، فرانسوا: 344
فيلنوف سور يون: 118
فيليب أوغوست / فيليب الثاني: 145
فيليب الثالث / فيليب لوبون: 173
فيليب الثاني المقدوني: 63
فيليب، لويس (ملك): 79، 139، 225
فينغ شوي: 421 ـ 422
فيوليه لودوك، أوجين: 138

ـ ق ـ

قابادوقيا: 89
القديس أنطوان: 320، 400
القديس باسيليوس: 100 ـ 101
القديس برثلماوس: 399
القديس بطرس: 94، 96، 136، 319
القديس جاك: 322
القديس جبريل: 400
القديس دومينيك: 101
القديس فيليب: 322

القديس لويس: 440
القديس ميخائيل: 136
القديس نيكولا: 320
القديس هوغ: 102
القديس يوحنا: 93
القديسة حَنّة: 168
قرطاجة: 21 ـ 22
قرغيزيا: 231
قسطنطين: 77، 90
قصر الإيليزيه: 365
قصر بكنغهام: 361
قصر شونونسو: 286
قصر ويستمينستر: 361
قنطورات: 44
قوس جيفرسون ناشيونال ميموريال: 501
القوط: 65، 132 ـ 135، 138 ـ 139، 198
قيصرية: 101، 106

ـ ك ـ

كا: 38 ـ 39
كاتدرائية أميان: 133
كاتدرائية بوفيه: 133
كاتدرائية روان: 136
كاتدرائية سان لازار أوتان: 136
كاتدرائية فلورنسا: 94
الكاتدرائية القوطية: 134
كاتدرائية كولن: 134
كاتشينا: 498
كاتون: 80
الكاذي (البندانوس): 472
كاراكو، ألبير: 281
كاربنتراس: 76
كارتون، بولين: 251
الكارول: 238
كارون، جان كلود: 294 ـ 295، 298
كافايّون: 76
كافكا، فرانتز: 519
كاكويتا: 478
كالام غريول، جينفييف: 406 ـ 407، 409، 414
كالفن، جان: 144
كالو، جاك: 193
كاليدونيا الجديدة: 457، 459 ـ 460، 464، 466، 468
الكاماكورا: 449
كاميجيو ـ كو: 446
الكاناك: 457، 459 ـ 460، 465 ـ 469
الكاندومبليه: 396 ـ 399، 401 ـ 402
الكتاب المقدس: 30، 91، 106، 351
كروازيك: 321
كروتيه، إيمانويل: 292
كروزيه: 120
الكرومانيون: 24
كرونوس: 46 ـ 47
كلابيش زوبير، كريستيان: 149
كلاستر، بيير: 487
كلوتير الثاني: 218
كلوني: 102، 134
كليرمون فيران: 297
كليمان، بيير: 423

كليمان، صوفي: 423
كنساس: 495
كنيسة أبوانبي: 137
كنيسة بونتينيي: 137
كنيسة سان برنار: 140
كنيسة سان بيير ديزاسي: 253
كنيسة سان سوفور دو بلوا: 287
كنيسة كونك: 93، 107
كنيسة نوتردام باريس: 138، 168
الكهانة بالاقتراع: 421، 423، 430
كوخ الأسكيمو، إيغلو: 499 ـ 500
كوربوز: 333
كوربيه، غوستاف: 353
كورتيس، إدوارد شريف: 496
كورنثة: 54 ـ 56
كورني: 256 ـ 257
كوريا الشمالية: 231
كوك، جيمس: 461، 474
كولومبوس، كريستوف: 95
الكوميدي فرانسيز: 256
كونتية فيناسك: 288
كونتيسة جنليس: 180
كونديه: 198
الكونفوشيوسية: 429
كونك: 93
كونون: 63
كونيو: 414
كيدمان، نيكول: 382
الكيرات: 334
كيمون: 62
كينيل، فرانسوا: 199 ـ 200
كيوبيد: 154
كيوتاخيس: 67
ـ ل ـ
لابوني: 330
لابتاردير، جاك ـ جوليان أوتو: 461
اللاتينية: 14 ـ 15، 103، 119، 124 ـ 126، 135، 188، 215، 227، 239، 354، 374
اللارات: 335، 518
لارديلييه، باسكال: 165
لاسيل ليبورد: 332
لاشابيل: 198
لافال، بيير: 228
لافونتين: 186
لافييت: 198
لاكارير، جاك: 52، 136
لاكان، جاك: 159، 353
لاكوبول: 502
لاكومبراد، فيليب: 226
اللاكيديمونيّون: 62 ـ 63
لانغدوك: 319
اللهجة البيكاردية: 129
لوبير دوشين، صحيفة: 222
لودو، نيكولا: 216
اللورين: 16
لوسيور، جورج: 226
اللوفر: 37 ـ 38، 49، 78، 254، 266
لوقا: 103 ـ 106
لوكونت، باتريس: 275
لونشان: 210

لويس البدين، لويس السادس: 225
لويس الثالث عشر: 177، 234
لويس الثامن عشر: 235
لويس الحادي عشر: 169، 228، 240، 260
لويس الخامس عشر: 183، 237، 268
لويس الرابع عشر: 76، 171، 176، 178، 180، 192، 215 ـ 216، 219، 252، 256، 266
لويس السادس عشر: 184، 216، 269
ليتو: 51
ليزلوت: 283، 285
ليزيو: 146
ليغبا: 398
ليفي برول، لوسيان: 316
ليكو دي كونسييرج: 251
الليموريا: 336
لينهارت، موريس: 457، 459، 462، 464، 466 ـ 467، 469
لينيول: 331
ليون: 66، 144، 171، 188 ـ 190، 227، 384
لييج: 157

ـ م ـ

ما بين النهرين: 31، 54، 89، 95
مارتان فوجييه، آن: 277، 280
مارتان، هنري جان: 191
مارشيتي، آن ماري: 308
مارو، كليمان: 154
ماري أنطوانيت: 184، 269
ماريان المساواة: 360
ماريه: 462 ـ 463
ماسيف سنترال: 16
ماعت: 40
ماكيه، جاك: 413
مالوري، جان: 499
مالي: 17، 406، 413
مانا: 473
مايا: 49
مايكل أنجلو: 191
متحف الإنسان: 406، 413
متحف أورساي: 353
متحف برلين: 31
متحف بيرغام: 29، 32
متحف رصيف برانلي: 414
متحف الشرق الأدنى: 29
متحف اللوحات: 58
متحف اللوفر: 37، 49
متحف الهنود الأميركيين: 494
مجزرة التويليري: 235
مجلس الخمسمئة: 292
مجلس الشيوخ: 73، 88
مجلس العموم: 361 ـ 362
مجلس القدامى: 292
مجلس اللوردات: 361
مجلس النواب: 297
مجمع آلهة الكوندومبليه: 398
مجمع آلهة كبار أسلاف الفودون: 402
مجمع ترنت: 137
مجمع درو: 139
مخيّم يلّو ثندر: 492
المدرسة البورغينيونية: 202
مدرسة هيبوداموس من ميليتوس: 54

مردوخ: 31 ـ 35
مرسوم نانت: 192
مركيزة فيرنوي: 154
مريم أم يعقوب: 106
مريم العذراء / السيّدة العذراء: 101، 167، 237 ـ 238، 321
مريم المجدلية: 106
مستشفى الباب: 212
مستشفى بروسّيه: 236
مستشفى سان جوزيف: 236
مسرح الجمنازيوم: 244
المسيح، يسوع: 93، 96، 99، 101 ـ 106، 136 ـ 137، 238، 325 ـ 326
المشتمل: 301 ـ 302
مصر: 37 ـ 38، 43، 315
مصلّى الجيروندتّين: 305
مصلّى سان غوستان: 321
مصلّى القديس نيكولا: 320
معادلة شابمان ـ كولموغوروف: 357
معاهدة ماستريخت: 230
معبد جوبيتير الكابيتولي: 73
معبد كاكيولينغ: 136
المعهد الوطني للإحصاء والدراسات الاقتصادية: 367
المغدالينيّون: 25 ـ 26
المغرب: 392، 394
المغول: 433 ـ 434، 436، 439، 441
مقاطعة يون: 118، 137
المقاولة العامة: 215
مقبرة بير لا شيز: 377
مكّة: 395
المكسيك: 231، 481
الملكة بوماريه: 470
الملكة جان: 168
الملكة لويز دولورين: 286
مملكة أبوميه: 403
مملكة داهومي: 405
منشو، ريغوبيرتا: 493
منطقة ديفانس: 79
منطقة الراين الأسفل: 293
منغوليا: 434، 443
منيسيكلس: 57
مورفان: 338
مورنهو، جاك أنطوان: 470، 472
مورو، برنار: 359
موريا: 474
موريسون، جيم: 377
موس، مارسيل: 230
الموسي: 412، 416
موفتار: 254
موليير: 186، 256 ـ 257
مونبارناس: 502
مونبيلييه: 297
مونتاندون، آلان: 176
مونتوبان: 144
مونمارتر: 198، 207
مونييه، جاك: 481
مونييه، جيرار: 376، 379
ميتران، فرانسوا: 365
الميثولوجيا اليونانية: 52
ميدان سانت كاترين: 168

ميدان مارس: 72
ميدوزا: 304
الميديون: 31
ميرسييه، سيباستيان: 184 ـ 186، 202، 208 ـ 209، 220 ـ 221، 224، 236 ـ 238، 247، 255 ـ 256، 258، 261
ميركورول: 203
الميروفنجيون: 215
ميريتي بارانا (نهر): 478
الميسيسيبي: 502
ميسين: 54
الميسينيّون / الميسيني: 44، 46، 54، 305، 318، 334، 367
ميشو، هنري: 133، 275
ميغارا: 22
ميكالسون، جون: 48
ميلان: 211
ميلانيزيا: 459، 464 ـ 465
ميلين، جول: 227
مين (إله): 49
المينوتور: 52
مينيرفا: 304
ميهو، ديديه: 140، 142

ـ ن ـ

نابوبولاسار: 31
ناخغيبورت: 327
ناربون: 144
الناغو: 398
نايين: 104
نبوخذ نصّر: 30 ـ 31، 33 ـ 34
ندياية، فرانسين: 406
النظام القديم: 165، 177، 215، 222، 239
نظام القناصل: 224
نظام تموز / يوليو: 293
نظام فيشي: 228
نقّاشو الحكايا: 189
نهر تيبر: 217، 317
نهر السين: 168، 199 ـ 200، 209، 259، 289
نهر اللوار: 133
نواك، فرديناند: 517
نوبلي: 66
نوديه، شارل: 391
نورماندي: 147، 233، 243
نولان، جان باتيست: 201
النياندرتاليون: 24
نيم: 144، 171
نيميتي إيليل: 33
نيو مكسيكو: 497

ـ هـ ـ

هادريان: 64 ـ 65، 68، 89
هاديس: 46 ـ 47، 107
هاري بوتر: 326
هامايون، روبيرت: 441
هرقل: 304
هرَم / أهرامات: 38 ـ 39
هرم زوسر: 38
هرمس: 50 ـ 51
هضبة بالاتين: 75
هضبة كابيتولينوس: 74
هنري الثالث: 180، 266، 286

هنري الرابع: 153 ـ 154، 200، 234، 266
هنغاريا: 329
هنود الباري: 483 ـ 484
هنّون: 22
هوايلو، واد: 457
الهوبي: 496 ـ 498
هوتافيلا: 497
هوريو: 48
هوغو، فيكتور: 231
هوكايدو: 452
هولندا: 151، 192، 287
هوميروس: 519
هيبوداموس من ميليتوس: 54
هيرا: 329
الهيروليّون: 65
الهيئة التشريعية: 292
هييرون: 48

ـ و ـ

واكان تانكا: 489 ـ 493
والونيا: 319، 321 ـ 322، 338
ورق البرديّ: 39
ويترسويلر: 322

ـ ي ـ

اليابان: 445، 449 ـ 450، 453
ياكوب، مارسيلا: 161
يانوس: 71، 514
اليبان: 390 ـ 391، 414
اليمن: 231
الين واليانغ: 419 ـ 421، 427
اليورت: 433، 436، 438 ـ 443
يورسنار، مارغريت: 313
اليوروبا: 398، 400
اليوكونا: 478 ـ 479
يومينس: 56
يونا: 106
اليونان: 43، 46، 48، 52 ـ 56، 64، 66 ـ 69، 333
يونّان: 432
اليونانية: 15، 46، 49، 52، 54، 57، 65، 133، 327، 344
يي كينغ: 420

مكتبة
t.me/t_pdf

t.me/t_pdf

هذا الكتاب

الباب! كم مرّةً في اليوم لفظنا هذه الكلمة وكم مرةً في اليوم عَبرنا بابًا؟ هل نعلم، حقًّا، ما هو الباب وإلى أين يُفضي بنا؟ الباب وصلٌ وفصل بين داخلٍ وخارج، وهو مأتى شعورٍ براحة الوجود أو بالخطر. هو سلوك ومخيالٌ وطقوس وحدودٌ وإجراءات عبور. نحن نفتح ونغلق الباب من خلال ثقافتنا ورؤيتنا للكون.

الأبواب تعبيرٌ عن الثقافات. لم تتوقف كل ثقافة عن اختراع الباب وعن استخدامه بطرق شتّى لتجعل منه رمزًا معقّدًا لأسعد الحالات والأحلام ولأكثرها سوءًا، في آن واحد. كل ثقافة لها قصّةُ أبوابها في تقاليدها وفي إبداعاتها. اليوم تُشفَّر الأبوابُ وتتماثل.

في هذا الكتاب الواسع المعرفة، حيث ينافسُ البحث الميداني وروحُ الدّعابة ما تقوله الكتب، يبرع المؤلف في الموازاة بين الكتابة والتاريخ والإثنولوجيا ليبيّن أننا لا نستطيع تجنّب الأبواب والمعابر والعتبات بقدر ما لا نستطيع سماعَ ما تقوله لنا في حياتنا اليوميّة. هذا الكتاب يغيّر النظرة إلى الباب كما تغيّر الكتبُ الجيّدة النظرة إلى الظواهر والأشياء.